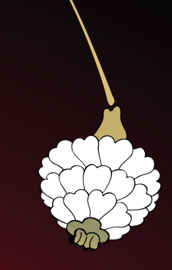




الأمير شكيب أرسلان

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية

الجزء الثالث



الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثالث)

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثالث)

تأليف
شكيب أرسلان



الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثالث)

شكيب أرسلان

رقم إيداع ١٤٩٧٣ / ٢٠١٤
تدمك: ٦ ٠٣٥ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ‎+ ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ **فاكس:** ‎+ ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات



الطلس
شرقي الاندلس
الذى عليه يدور
هذا الجزء
البحر الرومي او المتوسط
بلنسية
شاطبة

فاتحة الجزء الثالث من الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا على الأندلس يتلو أخويه السابقين؛ الجزء الأول والجزء الثاني، اللذين ظهرا من سنتين. وهو على نمطهما في ذكر مواقع البلاد الجغرافية ومزايا كل منها ومن نبغ فيها من العلماء والأدباء، وكما كان الكلام في الجزءين السابقين على شمالي إسبانية مثل قشتالة وليون ونباره وأراغون وكتلونية داخلة فيها من قواعد العرب المشهورة طليطلة ومجريط ووادي الحجارة وفونكة، ومدينة سالم، وقلعة أيوب، ودروقة، وسرقسطة، ووشقة، ولاردة ومضافاتها، سيكون الكلام في هذا الجزء على شرقي الأندلس من طرطوشة في الشمال الشرقي نازلًا إلى حد لورقة في الجنوب الغربي، مندمجة في هذا الجزء مملكة بلنسية وملحقاتها ومملكة مرسية وتوابعها، مما كان يطلق عليه اسم شرق الأندلس.

وقد ترجمنا من نبغ في هذه البلاد الشرقية من العلماء والأدباء مع زيادة توسع في أخبارهم ومع بعض استطرادات متشعبة من أصل الموضوع.

وسيتلو هذا الجزء من كتابنا الجزء الرابع الذي سيكون الكلام فيه على جيان وقرطبة ونواحيهما، ثم يأتي بعده الجزء الخامس الذي سيكون الكلام فيه على إشبيلية وشريش وبطليوس وغرب الأندلس إلى البرتغال. ثم يتلوه الجزء السادس الخاص بمملكة بني الأحمر؛ غرناطة، والمرية، وبسطة، ووادي آش، والمنكَّب، ومالقة، ورندة وملحقاتها.

ثم يتلوه الجزء السابع في التاريخ من أول الفتح إلى آخر دولة بني أمية، ثم الجزء الثامن من بداية ملوك الطوائف إلى انقضاء دولة المرابطين، ثم دولة الموحدين إلى انتهائها. ويأتي بعده الجزء التاسع الذي سيكون الكلام فيه على سلطنة غرناطة إلى حد سقوطها.

ويتلوه جزء خاص بتاريخ عرب إسبانية المدجَّنين الذين كان يقال لهم الموريسك، وهم المسلمون الذين أقاموا تحت الحكم النصارى إلى أن طردوهم أخيرًا قاطبةً، وذلك في نواحي سنة ١٦١٢، وربما يدخل في هذا الجزء رسالتنا على جزائر الباليار ميورقة وأخواتها. هذا هو رسم كتابنا الأندلسي الذي توخينا أن يكون أوسع كتاب في هذا الباب، سائلين المولى — عز وجل — أن يفسح في الأجل ويأخذ باليد لإنجازه.

شكيب أرسلان

جنيف محرم الحرام سنة ١٣٥٨

مملكة بلنسية ومرسية

من عادة المؤرخين والجغرافيين أنهم إذا وصلوا إلى ذكر مملكة بلنسية وساحل إسبانية الشرقي يذكرون معها جزائر الباليار التي هي ميورقة وميتوزقة ويابسة، ومنهم من يذكر هذه الجزائر مع كتلونية؛ لأنها مصاقبة من الجهة الشمالية لكتلونية كما هي من الجهة الجنوبية مصاقبة لبلنسية. ونحن اخترنا أن نفرد لهذه الجزائر جزءًا مستقلًّا من الحلل السندسية تحت اسم «الأصول المعرقة والغصون المورقة في محاسن جزيرة ميورقة»، فنذكر هذه الجزيرة وأخواتها ونطوف بجغرافيتها وتاريخها وجميع أخبارها، ونعرج على آثارها ونتكلم على رحلتنا إليها، ونترجم من نبغ فيها من العلماء والأدباء، واشتهر من الأمراء والعظماء، سواء كانوا من العرب أو من الإسبانيين؛ فلذلك سنمضي الآن في ذكر مملكة بلنسية وتوابعها مبتدئين بمدينة طرطوشة التي هي آخر كتلونية من جهة الجنوب وأول البلاد التابعة لبلنسية من جهة الشمال.

وقد كانت طرطوشة في الماضي — وبقيت مدةً طويلة — هي الحد الفاصل بين المسلمين والنصارى. وكان يقيم بها في أيام الخلافة الأموية مندوب من قِبَل الخليفة ينظر في أمور الداخلين من بلاد الإفرنج إلى المملكة الإسلامية، فعلى يده يكون التسريح في الدخول والخروج. وممن تولوا هذه الخطة القاضي منذر بن سعيد البلوطي الشهير لعهد الخليفة الناصر عبد الرحمن.

طرطوشة

وطرطوشة tortosa[1] اليوم مدينة متوسطة واقعة على ضفة نهر أبره الذي ينحدر على مقربة منها إلى البحر، وعدد سكانها نحو من ٢٨ ألف نسمة، وهي مركز أسقفية، وقد كان يقال لها في زمان الرومانيين: «درتوزه Dertosa»، وكان لها أيضًا اسمٌ آخر، وهي مستعمرة «جولية السعيدة Colonia Julia Augusta»، وكان لها حق في سك العملة، وبالنظر لموقعها الجغرافي كانت لها دائمًا أهمية بين المدن الإسبانية، لا سيما أنه بالقرب منها غابات من الصنوبر المتين الصالح لإنشاء السفن، فلا تخلو طرطوشة أبدًا بهذا السبب من دار صنعة بحرية. وقد استولى عليها العرب في بداية الفتح ولكن الإفرنج جاءوا بعد استيلائهم على كتلونية فهاجموا طرطوشة لاستردادها، وفي سنة ٨٠٩ للمسيح حاصرها الملك لويس الحليم بن شارلمان، فعجز عنها؛ فانكفأ عن حصارها ثم عاودها بعد سنتين ففتحها، ثم عاد العرب فاسترجعوها. وعلى طرطوشة وقعت الوقائع بين لويس الحليم بن شارلمان والحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، الذي أرسل ولده عبد الرحمن بجيشٍ أخرج منها الإفرنج.

قال لاوي بروفنسال في الانسيكلوبيدية الإسلامية: إنه نظرًا لوجود طرطوشة في طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يكرهون إقامته في داخل المملكة. قال: وإليها نفى المنصور بن أبي عامر عبد الملك بن إدريس الجزيري. ولما تشظت عصا الخلافة ونجمت ملوك الطوائف، صارت طرطوشة إمارة مستقلة قام بها نبيل الصقلبي من المماليك العامرية، واستولى نبيل هذا أيضًا على بلنسية لكن لم يطل أمره بها. وكان قبل نبيل تولى عليها الفتى لبيب وفتًى آخر اسمه مقاتل لقَّب نفسه بسيف الدولة.

وفي سنة ٤٥٢ للهجرة وفق ١٠٦٠ للمسيح ثارت طرطوشة بأميرها نبيل الصقلبي، فاضطر أن يلجأ إلى المقتدر بن هود صاحب سرقسطة؛ فبقيت هذه المدينة في أيدي ملوك

بني هود إلى أن تقلص ظل الإسلام عنها، وكان النصارى استولوا عليها سنة ٥١٢ هجرية وفق ١١١٨ مسيحية، ثم أخرجهم المسلمون منها إلى أن ضاق النصارى ذرعًا بغارات المسلمين البحرية التي كان أكثرها صادرًا عن طرطوشة بمكانها مركزًا عظيمًا لقرصان المسلمين، فصمم ريموند بيرانجه Raymond Béranger الرابع صاحب برشلونه على أخذ طرطوشة، ووافته نجدات من فرسان الهيكليين الصليبيين وأساطيل بيزه وجنوة من إيطالية، فاقتحموا البلدة برًّا وبحرًا واستولوا عليها في ١٤ شعبان سنة ٥٤٣ وفق ٣٠ ديسمبر سنة ١١٤٨، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على لاردة وإفراغه،[٢] فكرَّ المسلمون على طرطوشة وكادوا يفتحونها فدافع الإسبان عنها أشد دفاع، وظهر من النساء ذلك اليوم استبسال نادر المثال حتى قيل: إنهن كن السبب في حفظ طرطوشة من الوقوع في يد الإسلام؛ فلذلك منحهن بيرانجه وسامًا اسمه وسام الفاس، وهو عبارة عن شريطة حمراء يحملنها ويتبخترن بها، وكذلك أعطين حق التقدم على الرجال في حفلات الزواج.

وكان خلفاء بني أمية شديدي الاعتناء بطرطوشة. نقل ابن عبد المؤمن الحميري أنهم حصنوها بأسوارٍ منيعة وجعلوا لها أربعة أبواب وعمرت في أيامهم عمرانًا ذا بال، وبنى فيها الخليفة الناصر عبد الرحمن سنة ٣٣٣ وفق ٩٤٥ دار صنعة للسفن لا يزال تاريخ إنشائها منقوشًا على الحجر.[٣] وكان في طرطوشة مسجد جامع بخمسة صفوف من الأقواس ذكر لاوي بروفنسال أنه مبني من سنة ٣٤٥ للهجرة، ولكن رأيت في دليل بديكر أن الكنيسة الكاتدرائية في طرطوشة هي من بناء مطران اسمه «غوفريدُه»، اشتغلوا في بنائها من سنة ١١٥٨ إلى ١١٧٨، وذلك في مكان مسجد بناه الخليفة الناصر سنة ٩١٤، والأقرب أن يكون هذا المسجد هو المسجد الجامع، هذا إلا إذا كان هناك مسجد آخر بناه الناصر.

وعلى كل حال فلا يزال في صومعة الثياب الكهنوتية إلى اليوم كتابة كوفية تتعلق ببناء هذا المسجد. وفي هذه الصومعة أيضًا خوذة عربية، ثم إن قبة الجرس التي في هذه الكنيسة هي مئذنة المسجد باقية كما كانت. وكان بنو أمية بنوا في طرطوشة مباني أخرى منها أربعة حمامات عمومية وكانت أرباضها في غاية العمران.

قال لاوي بروفنسال: إذا نظرنا إلى العلماء الذين يحملون لقب «الطرطوشي» حكمنا بأن هذه البلدة بقيت مدةً طويلة مركزًا لامعًا بأنوار العلوم الإسلامية، ثم ذكر أشهر العلماء المنسوبين إلى طرطوشة، وهو أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المعروف

بابن رندقة، ولد في طرطوشة سنة ٤٥١، وتوفي في الإسكندرية سنة ٥٢٠، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك». قال ياقوت في معجم البلدان: طَرطوشَة بالفتح ثم السكون ثم طاء أخرى مضمومة وواو ساكنة وشين معجمة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، وهي شرقي بلنسية، وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر أبرة ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها، تحلها التجار ويسافر منها إلى الأمصار، واستولى عليها الإفرنج في سنة ٥٤٣، وكذلك على جميع حصونها، وهي في أيديهم إلى الآن. وينسب إليها أحمد بن سعيد بن ميسرة الغفاري الأندلسي الطرطوشي، كتب الحديث الكثير من علي بن عبد العزيز ومحمد بن إسماعيل الصايغ وغيرهما، وحدث ورحل في طلب العلم ومات بالأندلس سنة ٣٢٢، وأبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري الطرطوشي الفقيه المالكي، مات في خامس عشر جمادى الأولى سنة ٥٢٠، ويعرف بابن أبي رندقة، هذا الذي نشر العلم بالإسكندرية، وعليه تفقه أهلها، قاله أبو الحسن المقدسي في كتاب «الرقيات» له، وذكره القاضي عياض في مشيخة أبي علي الصدفي، فقال: محمد بن الوليد الفهري الإمام الورع أبو بكر الطرطوشي المالكي يعرف ببلده بابن أبي رندقة براء ونون ساكنة ودال مهملة وقاف مفتوحتين. نشأ بالأندلس وصحب القاضي أبا الوليد الباجي، وأخذ عنه مسائل الخلاف، ثم رحل إلى الشرق، ودخل بغداد والبصرة، فتفقه عند أبي بكر الشاشي وأبي سعيد بن المتولي وأبي أحمد الجرجاني أئمة الشافعية، ولقي القاضي أبا عبد الله الدامغاني، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري والسيعداني، وسمع ببغداد من أبي محمد التميمي الحنبلي وغيرهم، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، وبعد صيته، وأخذ عنه الناس هناك علمًا كثيرًا، ثم نزل الإسكندرية واستوطنها.

قال القاضي أبو علي الحسين الصدفي: صحبته بالأندلس عند الباجي، ولقيته بمكة، وأخذت عنه أكثر السنن لأبي داود عن التستري، ثم دخل بغداد وأنا بها فكان يقنع بشظف من العيش، وكانت له نفسٌ أبية، أخبرت أنه كان ببيت المقدس يطبخ في شَقَف[٤] وكان مجانبًا للسلطان؛ استدعاه فلم يجبه، وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر، وله تأليف وشعر، فمن شعره في بر الوالدين:

لو كان يدري الاِبن أية غصةٍ … يتجرَّع الأبوان عند فراقه
أمٌّ تهيج بوجدها حيرانة … وأب يسح الدمع من آماقه
يتجرَّعان لبينه غصص الردى … ويبوح ما كتماه من أشواقه

لرثي لأم سُلَّ من أحشائها وبكى لشيخٍ هام في آفاقه
ولبدَّل الخلق الأبيَّ بعطفه وجزاهما بالعَذْب من أخلاقه

وطلبه الأفضل صاحب مصر فأقدمه من الإسكندرية إلى مصر، وألزمه الإقامة بها وأزكن[5] عليه أن لا يفارقها إلى أن قُيِّد الأفضل فصُرف إلى الإسكندرية، فرجع بحالته إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠.

وجاء في صبح الأعشى عن طرطوشة ما يلي: قال في تقويم البلدان بضم الطاءين المهملتين وبينهما راء ساكنة مهملة ثم واو ساكنة وشين معجمة وهاء في الآخر. وهي مدينة في شرق الأندلس موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة والعرض أربعون درجة. قال: وهي من كراسيِّ مُلك شرق الأندلس. وهي شرقي بلنسية في الجهة الشرقية من النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة، ويصب في بحر الزقاق على نحو عشرين ميلًا من طرطوشة. قال: وشرقي طرطوشة (جزيرة مايُرْقَة) في بحر الزقاق وإلى طرطوشة هذه ينسب «الطرطوشي» صاحب «سراج الملوك». ا.هـ.

ثم ورد ذكر طرطوشة في صبح الأعشى في باب التاريخ عندما ذكر بني هود فقال: وكان من ممالك بني هود هؤلاء طرطوشة، وقد كان ملكها مقاتل أحد الموالي العامريين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ومات سنة خمس وأربعين، وملكها بعده يعلى العامري ولم تطل مدته.

وملكها بعده نبيل أحدهم إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين (بن هود) سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، فلم تزل في يده ويد بنيه بعده إلى أن غلب عليها العدو المخذول في ما غلب عليه من شرقي الأندلس. ا.هـ.

وأما الشريف الإدريسي فقد مر في الجزء الأول [فصل: أقوال العرب عن جغرافية الأندلس — قول الشريف الإدريسي] ذكره لطرطوشة[6] فيما ذكر من مدن الأندلس ماشيًا عليها بالترتيب، فهو يقول: ومدينة طرطوشة مدينة على سفح جبل، ولها سور حصين، وبها أسواق وعمارات وصناع وفعلة وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها، وبجبالها يكون خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، ومنه تتخذ السواري والقرى وهذا الخشب الصنوبر الذي بجبال هذه المدينة أحمر صافي البشرة دسم لا يتغير سريعًا، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره، وهو خشب معروف منسوب. ومن

طرطوشة إلى موقع النهر في البحر ١٢ ميلًا، ومن مدينة طرطوشة إلى مدينة طرَّكونة ٥٠ ميلًا. ا.هـ.

قلنا: بين طرطوشة وطركونة مسافة ٨٤ كيلومترًا. وطرطوشة اليوم تابعة لمقاطعة طركونة، فهي من كتلونية، وبين طرطوشة وبرشلونة ١٧٦ كيلومترًا. وبينها وبين بلنسية ١٩٢ كيلومترًا، وبين طرطوشة ومصب نهر إبره مثلَّث من الأرض مشهور بالخصب. قال المسعودي في مروج الذهب: وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت، وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة من شرقي الأندلس طرطوشة، وعلى ساحل بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذًا في الشمال «أفراغه»، على نهر عظيم، ثم لاردة، ثم بلغني عن هذه الثغور أنها تلاقي الإفرنجة، وهي أضيق مواضع الأندلس.

ذكر من نبغ من أهل العلم في طرطوشة

أشهر من انتسب إلى طرطوشة من العلماء هو ابن أبي رندقة الطرطوشي، المتوفى في الإسكندرية صاحب سراج الملوك؛ قال أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي: محمد بن الوليد بن رندقة الطرطوشي أبو بكر، فقيه، حافظ إمام، محدِّث ثقة، زاهد فاضل، عالم عامل، رحل إلى العراق، وقد تفقَّه بالأندلس، وصحب أبا وليد الباجي مدة. أخبرني غير واحد عن الحافظ أبي بكر بن العربي، قال: سمعت الحافظ أبا بكر الطرطوشي يقول: لم أرحل من الأندلس حتى تفقَّهت ولزمت الباجي مدة، فلما وصلت إلى بغداد دخلت المدرسة العادلية فسمعت المدرِّس بها يقول: مسألة إذا تعارض أصل وظاهر فبأيهما يحكم؟ فما علمت ما يقول ولا دريت إلى ما يشير حتى فتح الله وبلغ بي ما بلغ.

أقام في رحلته مدة ثم انصرف يريد مصر، وكان له غرض في الاجتماع مع أبي حامد الغزالي، فجعل طريقه على البيت المقدس، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمه حاد عنه، ووصل الحافظ أبو بكر فلم يجده. فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة، وصحب به رجلًا يعرف بعبد الله السائح من أولياء الله المنقطعين إلى الله تعالى. ثم أراد الحافظ أبو بكر أن يقصد أرض مصر، فعرض على أبي محمد عبد الله السائح صحبته والمشي معه، وقال له: أنت ههنا بمعزل لا تلقى أحدًا ولا يلقاك أحد، وإن مت لم تجد من يواريك، وفي مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم وحضور الجماعة في الجمعة ما لا يخفى عليه، فقال له عبد الله: أنا ههنا آكل الحلال وأعيش في المباح من ثمر هذه الأشجار، ولا أجد في غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه.

فقال له الحافظ أبو بكر: إن تنظر مصر تنظر موضعًا يعرف برشيد فيه شيئان مباحان: الملح والحطب، نقيم به، ويكون عيشنا من هذين المباحين، فقال له عبد الله: أنت لا يتركك الناس، وأفارق موضعي وأفارقك. فعاهده أن لا يفارقه، وركبا الطريق إلى مصر حتى وصلا رشيد، وأقاما هناك إذا احتاجا إلى قوت تحوَّجا من حطب أو ملح فباعا ما يحملانه من ذلك على ظهورهما وتقوتا بثمنه.

وبقيا هناك مدة إلى أن قتل العبيدي صاحب مصر جماعة من فقهاء أهل الإسكندرية لسبب يطول شرحه، ولم يبق بها من يشار إليه، وسمع أهل الإسكندرية بكون الفقيه برشيد فركب إليه قاضيها ابن حديدة وجماعة من أهلها، فلما وصلوا إلى رشيد سألوا عنه فلم يجدوا من يعرفه إلا بعض الفقراء هناك قال لهم: أنا أدلكم عليه. اقعدوا هنا فكأن به قد وصل، فقعدوا ساعة، ووصل الفقيه من الشَّعْرَاء وعلى ظهره حزمة حطب وصاحبه معه، فقال لهم: هذا هو، ووضع الحزمة بالأرض. فأخبروه بما طرأ عليهم في الإسكندرية وباحتياج أهلها إليه، وبما له في قصدهم من الأجر، فقال لهم: قد علمت ذلك، ولكني لا أفارق صاحبي هذا بوجه — وأشار إلى عبد الله السائح — لأني سقته من موضعه وعاهدته أن لا أفارقه، فدونكم فإن ساعدني فأنا ناهض معكم، فكلموه فقال: أنا لا أمنعه لكني أقيم هنا. فقال الحافظ أبو بكر: وأنا لا أفارقه. فتضرعوا إلى عبد الله، فقال لهم: أنا هنا أعيش في الحلال وآكل المباح ولا أجد هذا عندكم. فقال له القاضي: إن صاحب صقلية — دمره الله — يؤدي جزية في كل عام لأهل الإسكندرية ثلاثمائة قفيز من الشعير وكذا وكذا، فخذ الشعير تتقوت به وتصرفه في منافعك. فقال: أنا لا أحتاج إلى أكثر من رغيف في كل ليلة. فضمنوا له ذلك.

وأقبلا معهم إلى الإسكندرية، ووفوا لأبي محمد السائح بما قالوا، ووضعوا له من الشعير عدة أرغفة، ووضعوها له في حبل، فكان يفطر كل ليلة منها على رغيف ويلزم بيته لا يبرح منه. واشتمل أهل الإسكندرية على الحافظ أبي بكر، وقعد للتدريس، ونفع الله به كل من قرأ عليه، وانتشر علمه.

وكانت بالإسكندرية امرأة متعبدة هي خالة أبي الطاهر بن عوف، فخطبته، وتزوجها وبنى بها في المدرسة، وكان لها ابن من أهل الدنيا كثير التخليط، فصعب ذلك عليه وعمد إلى خنجر واستتر في المدرسة، فلما ابهارَّ[7] الليل قصد البيت الذي كانت فيه أمه مع الفقيه فلم يجد فيه أحدًا، ووجد كل واحد منهما قد قام إلى ورده، وسمع صوت الفقيه يقرأ في الصلاة فأم الصوت وخنجره في يده، فلما قرب منه وهو عازم على قتله

حالت بينه وبينه سارية من سواري المدرسة، وضرب فيها بوجهه وخر مغشيًّا عليه والفقيه لا يشعر، فلما طلع الفجر نزل إلى المدرسة فصلى الصبح ودرس وتصرفت زوجه في أثناء ذلك، فوجدت ابنها مجدلًا لا يعقل، فكلمته فلم يكلمها.

فلما فرغ الفقيه من التدريس صعد إلى منزله فأعلمته زوجه بمكان ابنها؛ فصعد نحوه فوجده على تلك الحال؛ فجر يده على وجهه وتفل وتكلم بكلمات ففتح عينيه، فلما أبصر الفقيه قال له: هات يدك؛ فأنا تائب إلى الله تعالى، والله لا عصيته بعد اليوم أبدًا ولا تركتك في هذا الموضع، انتقل إلى دار أهلك فاسكنها؛ ففعل وحسنت توبة الابن بعد ذلك.

أخبرني شيخي أبو المفضِّل عبد المجيد بن دليل قال: أصاب ابن حُديدة قاضي الإسكندرية مرض، وكان الفقيه إذا لقيه في الطريق سلك على أخرى، فأوصى القاضي بأن يغسله الفقيه عند موته ويصلي عليه؛ قال: ففعل، وكنا نجتمع على قبره في كل يوم ونختم القرآن، فلما كان في اليوم السابع أنشدنا الحافظ أبو بكر عند قبر القاضي قصيدة منها قوله يرثيه:

هذي قبورهمُ وتلك قصورهمْ واعلم بأن كما تدين تدانُ

ولقد أخبرني أنه رآه في اليوم الذي توفي فيه، وعليه فروته التي ساقها معه من طرطوشة. وكانت وفاته في سنة ٥٢٠، روى عن جماعة من الحفَّاظ منهم الحافظ أبو بكر بن العربي، وأبو علي الصدفي، وأبو الطاهر بن عوف، وغيرهم، وتواليفه كثيرة منها التعليقة في الخلافيات في خمسة أسفار، وله كتاب كبير يعارض به كتاب الإحياء، رأيت منه قطعة يسيرة. وألَّف سراج الملوك في مجلس كان بينه وبين صاحب مصر يطول ذكره، وكان أوحد زمانه علمًا وورعًا، لم يتثبت من الدنيا بشيء إلى أن توفي وصلى عليه ابن عوف.

وترجم الإمام الطرطوشي أبا بكر بن بشكوال في الصلة، فقال: محمد بن الوليد[٨] بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي، أصله منها، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن أبي رندقة. ثم ذكر أنه أخذ عن القاضي أبي الوليد الباجي بسرقطسة، وعن أبي بكر الشاشي، وأبي أحمد الجرجاني، وأبي علي التستري بالشرق، وسكن الشام مدة ودرَّس بها. قال: وكان إمامًا عالمًا عاملًا زاهدًا ورعًا متواضعًا، متقللًا من الدنيا راضيًا منها باليسير. أخبرنا عنه القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، ووصفه بالعلم والفضل، والزهد في الدنيا، والإقبال على ما يعنيه، وقال لي: سمعته

يقول: إذا عرض لك أمران: أمر دنيا وأمر أخرى؛ فبادر بأمر الأخرى يحصلْ لك أمر الدنيا والأخرى. قال القاضي أبو بكر: وكان كثيرًا ما ينشدنا محمد بن الوليد هذا:

إن لله عبادًا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وتوفي الإمام الزاهد أبو بكر بالإسكندرية في شهر شعبان سنة ٥٢٠.

ثم ممن ينتسب إلى طرطوشة من أهل العلم أبو مروان عبيد الله بن أبي القاسم خلف بن هاني قاضي طرطوشة. قال ابن بشكوال: إنه أجاز لأبي جعفر بن مطاهر سنة ٤٦٧ قال: وأخذ عنه من شيوخنا القاضي أبو الحسن بن واجب.[٩]

وعلي بن محمد بن أبي العيش أبو الحسن الطرطوشي، نزيل شاطبة، تصدر للإقراء بها، وكان من المتقدمين في هذا العلم مع الصلاح والفضل، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن الدوشن، وأبي المطرف بن الوراق، وأبي محمد بن جوشن، وأخذ عنه أبو بكر بن طاهر بن مفوِّز، وأخوه أبو محمد عبد الله، وأبو الحسين بن جبير، ترجمه ابن الأبار في التكملة، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف الطرطوشي سكن ميورقة، يعرف بابن ختى فضل، روى عن أبي إسحاق بن فتحون، وتفقه بأبي إبراهيم بن عايشة، وحدَّث ودرس ببلده الفقه، وكان قائمًا على المدونة معروفًا بالصلاح، أخذ عنه أبو إسحاق بن عايشة، وقال: توفي سنة ٥٩٣ في أولها وهو ابن ستين سنة أو نحوها.

ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش اللخمي من أهل طرطوشة، وسكن شاطبة، يعرف بابن الأصيلي، ويكنى أبا عبد الله، تجول في طلب العلم؛ فأخذ القراءات عن أبي علي منصور بن الخير، وسمع من أبي عبد الله بن الحاج، وأبي عبد الله بن أبي الخصال، وأبي القاسم بن ورد، وأبي عبد الله ابن أخت غانم، ولقي أبا محمد البطليوسي، وأبا الحجاج بن يسعون، وأخذ عنهما، وقيل: إنه نشأ بالمرية، وتصدر بشاطبة للإقراء والتعليم بالعربية، فانتفع به الناس، وكان موصوفًا بالمعرفة والفهم، ضعيف الخط، حدث عنه أبو الحسين بن جبير؛ سمع منه الموطأ في سنة ٥٥٧، وقد لقيه ابن عياد وكتب عنه يسيرًا، وذكره ابن سفين، وقال: توفي سنة ٥٦٦، وقرأت بخط محمد بن عياد أنه توفي سنة سبع وستين، قال: ومولده بطرطوشة سنة ٤٩٦، ترجمه ابن الأبار في التكملة.

وخلف بن هاني العمري من أهل طرطوشة، ومن ولد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يكنى أبا القاسم، روى عن أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري، سمع منه بقرطبة سنة ٣٤٦، وروى أيضًا عن أحمد بن معروف وغيرهما، وحدث وأسمع. روى عنه ابنه أبو مروان عبيد الله بن خلف وأبو المطرف بن حجاف، وأبو محمد بن أبي دليم من شيوخ أبي داود المقري، سمع منه بطرطوشة سنة ٤٠٥، وهو إذ ذاك ابن تسع وسبعين سنة، وتوفي ليلة السبت للنصف من رمضان سنة ٤٠٨، ودفن يوم السبت بمقبرة طرطوشة وقد نيَّف على الثمانين، ذكره ابن بشكوال، وغلط فيه هو والحميدي قبله، ولم يذكرا وفاته ولا جوَّدا خبره، وهما عندي عن أحمد بن أبي زكريا العائذي، وأبي عمر بن عياد، وغيرهما، قال ابن الأبار[١٠] في التكملة.

وخلف بن تقي الأموي من أهل طرطوشة، يكنى أبا القاسم، روى عن أبي سعيد خلف الفتى الجعفري، وكان سماعه منه في سنة خمس وعشرين وأربعمائة، ولم يذكر ابن الأبار القضاعي في كتابه التكملة عن هذا الرجل سوى هذين السطرين.

وخلف بن فتح بن عبد الله بن جبير من أهل طرطوشة يعرف بالجبيري، ويكنى أبا القاسم، وهو والد أبي عبيد القاسم بن خلف الجبيري الفقيه، كانت له رحلة إلى المشرق ومعه رحل ابنه، وهو صغير، وكان من أهل العلم والنزاهة، وعليه نزل القاضي منذر بن سعيد بطرطوشة في ولايته قضاء الثغور الشرقية. أخبر أبو بكر بن أبي جمرة عن أبيه عن أبي عمر النمري إجازة، قال: أخبرني أبو مروان عبيد الله بن قاسم الكزني، وكان من ثقات الناس وعقلائهم، عن أبي عبيد الله القاسم بن خلف الجبيري الطرطوشي، قال: نزل القاضي منذر بن سعيد على أبي بطرطوشة، وهو يومئذ يتولى القضاء في الثغور الشرقية قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة، فأنزله في بيته الذي يسكنه، فكان إذا تفرَّغ نظر في كتب أبي فمرَّ على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء، ويجعل معاوية رابعهم، ولم يذكر عليًّا فيهم، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلما رأى ذلك منذر غضب وسب ابن عبد ربه، وكتب في حاشية الكتاب:

أَوَمَا عليٌّ لا برحت ملعَّنًا ... يا بن الخبيثة عندكم بإمامِ
رب الكساء وخير آل محمدٍ ... داني الولاء مقدَّم الإسلامِ

قال أبو عبيد: والأبيات بخطه في حاشية كتاب أبي إلى الساعة. وكانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ٣٣٠.

وخلف مولى جعفر الفتي أبو سعيد المقرئ بطرطوشة، توفي سنة ٥٢٥، هكذا جاء في بغية الملتمس للضبي، ويظهر أنه وقع خطأً في الرقم، والصحيح أنه توفي سنة ٤٢٥ لا ٥٢٥، وقد ترجمه ابن بشكوال في الصلة، فقال: خلف مولى جعفر الفتي المقرئ يعرف بابن الجعفري، سكن قرطبة، يكنى أبا سعيد، روى بقرطبة عن أبي جعفر بن عون الله وغيره، ورحل إلى المشرق، وسمع بمكة من أبي القاسم السقطي وغيره، وبمصر من أبي بكر الإدفوي، وأبي القاسم الجوهري، وعبد الغني بن سعيد الحافظ، وبالقيروان من أبي محمد بن أبي زيد وغيره.

ذكره الخولاني وقال: كان من أهل القرآن والعلم نبيلًا من أهل الفهم، مائلًا إلى الزهد والانقباض، وحدَّث عنه أبو عبد الله بن عتَّاب وقال: كان خيِّرًا فاضلًا منقبضًا عن الناس، وخرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة، وتوفي بها سنة ٤٢٥، وقال أبو عمرو المقرئ: توفي في ربيع الآخر سنة ٤٢٩.

وأبو محمد عبد الله بن فيره من أهل طرطوشة، كان عالمًا بالفرائض والحساب معلمًا بذلك، أخذ عنه أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وحكى عنه أنه سمعه يقول:

اكترى تاجر من جمَّال جمله، فلما استوى على ظهره صرخ بأعلى صوته:

يا حبذا صَلْصَلَةَ الدراهمْ   عند حلول الكُرَب العظايمْ

فأجابه الجمَّال:

لولا هواها لم أكن ملازمْ   خدمة من لست له بخادمْ

نقلنا هذا عن ابن الأبار في التكملة.

وعبد الله بن موسى التميمي، من أهل طرطوشة، يكنى أبا محمد، أخذ القراءات عن أبي داود سليمان بن نجاح، وتصدَّر للإقراء ببلده، وأخذ عنه أبو علي بن عريب، عرض عليه القرآن غير مرة بالسبع، قال أبو العباس بن اليتيم: وفيه عن ابن عياد. قاله ابن الأبار في التكملة.

ونافع بن أحمد بن عبد الله الأنصاري من أهل طرطوشة، سمع بدانية أبا بكر بن برنجال، وبمرسية القاضي أبا بكر بن أسود، ورحل إلى إشبيلية، فسمع بها من القاضي

أبي الحسن شريح بن محمد موطَّأ مالك وصحيح البخاري، وأجاز له جميع روايته في رمضان سنة ٥٣٥، وكان فقيهًا مشاورًا معنيًّا بسماع العلم وروايته، قال ابن الأبار في التكملة: قرأت بعض خبره بخط ابن خير.

وأحمد بن مالك بن مرزوق بن مالك بن عباس الطرطوشي، يكنى أبا العباس، ولي قضاء بلده، وله نباهة ورواية عن أبيه وعن أبي محمد البطليوسي، وتفقه بأبي محمد بن أبي جعفر، انتقل في تملك الروم طرطوشة إلى بلنسية، فتوفي بها سنة ٥٥٣، ترجمه ابن الأبار في المعجم الذي ذكر فيه أصحاب القاضي أبي علي الصدفي.

ومحمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ ولد أبي زكريا الراوية، من أهل طرطوشة، يكنى أبا بكر، تأدب بقرطبة، وسمع بها من قاسم بن أصبغ، ومحمد بن معاوية القرشي، وأحمد بن سعيد، ومنذر بن سعيد، وأبي علي القالي، وغيرهم، وكان حافظًا للنحو واللغة والشعر، يفوت من جاراه على حداثة سنه، شاعرًا مجيدًا مترسلًا بليغًا، ورحل مع أبيه إلى المشرق سنة ٣٤٩، فسمع بمصر من ابن الورد، وابن السكن، وحمزة الكناني، وأبي بكر بن أبي الموت، وغيرهم. وسمع أيضًا بالبصرة وبغداد، وخرج إلى فارس، وسمع هناك، وجمع كتبًا عظيمة، وأقام بها إلى أن توفي بأصبهان معتبطًا مع الستين وثلاثمائة، ومولده بطرطوشة صدر ذي القعدة سنة ٣٢٣، ذكره ابن حيان، وقد نقلنا هذه الترجمة عن ابن الأبار.

ومحمد بن عبد الجبار الطرطوشي، وفد إلى المشرق، ذكره العماد في الخريدة، ونقل ذلك صاحب نفح الطيب عنه، ولم يذكر من أحواله سوى أنه كان يخضب بسواد الرمان.

ومحمد بن حسين بن محمد بن عريب الأنصاري من أهل طرطوشة، يكنى أبا عبد الله.

سكن سرقسطة، وتجول كثيرًا في بلاد الأندلس والعدوة، وغلب عليه علم العبارة؛ فشهر بها، وكان وجيهًا عند الملوك، مترددًا عليهم، ورغب إليه أبو بكر بن تغالويت أمير سرقسطة في إقراء ابنه، فأجابه إلى ذلك، وتصدر هنالك في سنة ١٥٠٨ «من خط ابن عياد»، روى ذلك ابن الأبار في التكملة.

وعبد الرحمن بن معاوية، من أهل طرطوشة، استشهد في قتال الروم سنة ٢٨٨، قال الضبي في بغية الملتمس، ذكره أبو سعيد: وطاهر بن حزم مولى بني أمية من أهل طرطوشة، روى عن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي وغيره، مات بالأندلس سنة ٢٨٥ شهيدًا في المعرك، ذكره في بغية الملتمس.

ومحمد بن أحمد بن عامر البَلَوي، من أهل طرطوشة، وسكن مرسية، يعرف بالسالمي؛ لأن أصله من مدينة سالم، ويكنى أبا عامر. كان من أهل الأدب والعلم والتاريخ، وله في ذلك كتاب سماه «بدُرر القلائد وغرر الفوائد»، وله أيضًا في اللغة كتاب حسن وكتاب في الطب سماه الشفا، وكتاب في التشبيهات، وكتب للأمير محمد بن سعد، وكان له حظ من قرض الشعر حدث عنه عبد المنعم بن الفرس، لقيه بمرسية، وأبو القاسم بن البرَّاق كتب إليه، وتوفي سنة ٥٥٩ أو نحوها ذكره ابن الأبار.

وأبو علي حسين بن محمد بن حسين بن علي بن عريب الأنصاري من أهل طرطوشة، أخذ القراءات ببلده عن أبي محمد بن مؤمن، وبسرقسطة عن ابن الوراق، وتفقه بأبي العباس بن مَسْعَدة قاضي طرطوشة، وروى الحديث عن أبي علي الصدفي، وأبي بكر بن العربي، وسمع من أبي العرب الصقلي الشاعر أدب الكاتب لابن قتيبة، لقيه بطرطوشة، وقد قارب المائة سنة، وسكن المرية، ثم تحول إلى مرسية، وكان من الأدباء المعدودين.

وروى ابن الأبار في التكملة أنه أخذ العربية والآداب عن أبي محمد بن السيد، وأبي بكر اللباني، وأبي محمد عبد الله بن فرج السرقسطي، وأنه صحب أبا القاسم بن ورد، وحكى أبو العباس بن اليتيم أنه أخذ القراءات أيضًا عن أبي طاهر بن سوار، وأنه كان يروي أدب الكاتب بعلو عن أبي بكر بن عبد البر عن أبي يعقوب بن خُرَّ زاد النجيرمي عن أبي الحسين المهلبي عن القاضي أبي جعفر بن قتيبة عن أبيه أبي محمد، وهو سند عزيز الوجود. قال ابن الأبار: إنه انتقل من سرقسطة إلى المرية، فأقرأ بجامعها، وخرج منها قبل الأربعين وخمسمائة، وكان شيخنا أبو محمد بن غلبون يقول: إنه خرج منها لما دخلها النصارى في سنة اثنتين وأربعين، فاستوطن مرسية، وتصدر للإقراء بها، وقدم للصلاة والخطبة بجامعها، وانفرد في وقته بطريقة الإقراء، وأخذ عنه الناس، وكانت له حلقة عظيمة، وكان ربما علم بالعربية، والغالب عليه التجويد والتحقيق، قال: وكان أديبًا حسن البلاغة سلس القياد في الخطابة، حسن الخط (من فوائد ابن حبيش).

وأبو محمد بن شعيب بن سعيد العبدري من أهل طرطوشة، سكن الإسكندرية، روى عن أبي عمرو السفاقسي وأبي محمد الشنتجيالي. وأبي حفص الزنجاني، وأبي زكريا البخاري، وأبي محمد عبد الحق بن هارون وغيرهم، لقيه القاضي أبو علي بن سكَّرة بالإسكندرية، وأجاز له، وحدث عنه أبو الحسن العبسي المقري (ترجمه ابن بشكوال في الصلة).

وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن عائذ الطرطوشي، سمع من أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي وأبي العباس العذري وغيرهما، وتوفي في سنة ٤٩٥ (ترجمه ابن بشكوال في الصلة).

وأبو الحسن علي بن صالح بن أبي الليث بن أسعد العبدري بن عز الناس. ولد بطرطوشة، ونشأ بدانية، ورأس الفتوى بها، وقتله السلطان محمد بن سعد بن مردنيش سنة ٥٦٧، سمع أبا محمد بن الصيقل، وأبا بكر بن العربي، وأبا القاسم بن ورد، وكان فقيهًا متقنًا وعالمًا بالأصول والفروع، دقيق النظر، جيد الاستنباط، لسنًا فصيحًا، وكان كبير فقهاء دانية، أخذ عنه أبو عمر بن عياد، وابنه محمد، وأبو محمد بن سفيان، وأسامة بن سليمان، وأبو القاسم بن سمحون، وكانت ولادته سنة ٥٠٨ في طرطوشة (ترجمه ابن الأبار).

وعتيق بن علي بن سعيد بن عبد الملك بن رزين العبدري أبو بكر، يعرف بابن العقَّار، أصله من طرطوشة، نشأ بميورقة، واستوطن بلنسية، وقرأ على ابن هذيل، وابن النعمة، وأبي بكر بن نمارة، وأجاز له السلفي، وكان من أهل التحقيق والتقدم في الإقراء مع الفقه والبصر بالشروط، ولي قضاء بلنسية وخطابتها، قال ابن الأبار في التكملة: وكانت في أحكامه شدة، أخذ عنه الناس القراءات والحديث، وقرأ عليه بالسبع محمد بن إبراهيم بن جوبر، وذكر وفاته سنة ٦٠٠، وقال: إنه ولد سنة ثلاث وثلاثين بعد الخمسمائة.

وعقيل بن عطية أبو طالب القضاعي، المراكشي الدار، الطرطوشي الأصل، روى عن ابن بشكوال، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي نصر فتح بن محمد، وولي قضاء غرناطة، وكان مقدمًا في الحديث، وله رد على أبي عمر بن عبد البر وتنبيه على أغلاطه، سمع منه أبو جعفر بن الدلال، وأبو الحسن بن منخل الشاطبي، وولي بآخرة من عمره قضاء سجلماسة، وتوفي بها في صفر سنة ٦٠٨ عن ستين سنة (ترجمه ابن الأبار في التكملة).

وأحمد بن أيمن الطرطوشي، فقيه مشهور، رحل إلى المشرق، وسمع من محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي وغيره، ذكره أبو الوليد بن الفرضي (ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس).

وأحمد بن علي السبتي المعروف بالطرطوشي أبو العباس، فقيه محدِّث، يروي عن أبي علي الصدفي وغيره (ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس).

ومحمد بن علي بن عبد الرحمن بن عائذ الطرطوشي، ومن بيت أبي زكريا العائذي، أجاز له أبو علي كتاب آداب النفوس لأبي جعفر الطبري، وقرأت ذلك بخط أبي علي، وأبوه

على أحد أصحاب الباجي والعذري وبقراءته، سمع الصدفي بحاضرة بلنسية صحيح مسلم على العذري في سنة ٤٧٤، وقد ذكره ابن بشكوال.

وأبو الإصبغ عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز من أهل طرطوشة، سمع من أبي بحر الأسدي وغيره، كان من أهل الفقه والأدب، عارفًا بالفرائض والحساب، مشاركًا في الطب، توجه رسولًا من أهل بلدة طرطوشة إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، فتوفي بغرناطة سنة ٥٢٣.

وصارم بن عبد الله بن تمحيص، ولي قضاء طرطوشة وقضاء بلنسية.

وصارم بن تمحيص بن صارم بن عبد الله بن تمحيص، وهو حفيد المتقدم الذكر، وهم بيت مجد ونباهة.

وأبو عامر محمد بن عبد الوهاب بن عبد الملك بن غالب بن عبد الرءوف بن غالب بن نفيس العبدري، من بلنسية، أصله من طرطوشة، يكنى أبا عامر، سمع من أبي محمد البطليوسي، وأبي محمد بن عطية، وكتب بخطه علمًا كثيرًا، وكان ضابطًا حسن الوراقة (عن ابن الأبار).

ولاوي بن إسماعيل بن ربيع بن سليمان، يكنى أبا الحسن، من أهل طرطوشة. قال ابن الأبار في التكملة: حُدثت أن أصله من غرب العدوة، صحب أبا داود المقرئ وأخذ عنه القراءات، ولازمه بدانية من سنة ٤٨١ إلى سنة ٤٩١، وله سماع على أبي علي الصدفي.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف الميورقي، أصله من طرطوشة، وقد ترجم لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإكليل أديبًا جليلًا اسمه أبو الحجاج يوسف بن علي الطرطوشي.

ونعم الخلف بن عبد الله بن أبي ثور الحضرمي من أهل طرطوشة أو ناحيتها، رحل إلى المشرق، وأدى الفريضة، ولقي بمكة أبا عبد الله بن محمد بن عبد الله الأصبهاني، فسمع منه في سنة ٤٢٢، حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف بيسير (ترجمه ابن الأبار في التكملة).

وأبو عبد الله محمد بن يونس بن سلمة الأنصاري يعرف بالطرطوشي؛ لأن أصله منها، وإنما ولد ببلنسية سنة ٥٠٩، كتب عنه ابن عياد، وترجمه ابن الأبار في التكملة. هذا ما حضرنا الآن من أسماء من نبغ في العلم من أهل طرطوشة. ثم نعود إلى جغرافية البلاد فنقول: إذا سار المسافر من طرطوشة جنوبًا قاصدًا إلى بلنسية مر به القطار الحديدي على جسر من الحديد فوق نهر إبرُه، فيمر بمناظر بديعة وبقاع مريعة واقعة بين جبلي «مونتسيا Montsio» و«كارو Coro» علو الأول ٧٦٤ مترًا، والثاني

٨٦٠ مترًا، وبعد أن يجتاز مسافة ١٤ كيلومترًا من طرطوشة يصل إلى بلدة يقال لها: «أولديكونه Uldecona»، وسكانها نحو من سبعة آلاف نسمة، موقعها بحذاء جبل مونتسيا الذي ذكرناه، وفي هذه البلدة برج مثمن. ثم يمر فوق نهر «سينيه Cenia» الذي هو الحد الفاصل بين مملكة بلنسية القديمة وبين كتلونية، ويجد المسافر عن اليمين برجًا مربعًا من بقايا حصن قديم، وينظر البحر من عن شماله. وعلى مسافة ٤٤ كيلومترًا من طرطوشة توجد مدينة «فيناروز Vinaroz» أهلها نحو من تسعة آلاف أكثرهم صيادو سمك وفيها بعض معامل[١١] ثم تصل إلى مدينة «موريلا Morella»[١٢] سكانها ثمانية آلاف نسمة، وكان يقال لها في القديم «كاسترا آليا Castra Aelia» في زمن الرومانيين، وهي على مسافة ستين كيلومترًا إلى الشمال الغربي من فيناروز، ولها جبال شديدة الارتفاع، وكان لهذه البلدة شأن عظيم نظرًا لمنعتها، وشاع ذكرها في الحرب الكرلوسيَّة سنة ١٨٤٠، وفيها كنيسة باسم السيدة مريم يرجع عهد بنائها إلى سنة ١٣١٧، ومن موريلًا طريق عربات إلى «الكنيت Alcaniz» يصل الراكب من موريلا إلى الكنيت بعد قطع ٨٣ كيلومترًا.

هوامش

(١) يقول الحميري بن عبد المنعم: إن مفرَّغ وادي طرطوشة في البحر يقال له «القبطيل»، ويعرف أيضًا بالعسكر؛ لأنه موضع عسكر به المجوس واحتفروا حوله خندقًا أثره باقٍ إلى الآن.

(٢) أما صبح الأعشى، فيجعل ماردة مكان لاردة، فهو يقول في الجزء الخامس صفحة ٢٦٧ من الطبعة الأميرية بمصر ما يلي في عرض البحث عن ملوك قشتالة:

> ولما فشلت ريح بني عبد المؤمن المستنصر بن الناصر استولى الفونش على جميع ما فتحه المسلمون من معاقل الأندلس، ثم هلك الفنس (أي الفونس)، وولي ابنه هرانْدُه (أي فرديناند)، وكان أحول، وبذلك يلقب، فارتجع قرطبة وإشبيلية من أيدي المسلمين. وزحف ملك أراغون في زمنه فاستولى على ماردة وشاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة والزهراء والزاهرة وسائر القواعد والثغور الشرقية.

قلنا: هذه المدن لم يرتجعها ملوك أراغون في وقتٍ واحد. وأما الزهراء والزاهرة فلم نعلم ماذا يقصد بهما صاحب الأعشى، فإن كانتا مدينة الزهراء التي بالقرب من قرطبة وقصر الزاهرة الذي فيها فليس بصحيح أنهما دخلا في حوزة ملك أراغون، وإن كان ذلك أمكنة أخرى فهي لم تظهر لنا حتى الآن، ولعل هذه الجملة من خطأ النساخ.

وأما ماردة فلم يأخذها ملوك أراغون فيما نعلم، وإنما ارتجعها ملك ليون الفنش التاسع سنة ١٢٢٨، وهي في غرب الأندلس لا في شرقها ليستولي عليها ملوك أراغون الذين ليست ماردة من خطتهم؛ فلهذا نرجح أن المقصد هو لاردة لا ماردة، وأنه وقع تصحيف أوجب هذا الاختلاط. ولاردة هي من الثغور الشرقية، كانت دائمًا تابعة لسرقسطة مذكورة معها، وكانت من مملكة بني هود. ولقد لحظنا أن المقري في النفح وقع أيضًا في هذا الوهم، وجعل ماردة مكان لاردة، وعدها من خطة بني هود، أو أن هذا الوهم من النساخ لا من المؤلف.

(٣) نشر لاوي بروفنسال في كتابه «الكتابات العربية في إسبانية» الكتابة المنقوشة على الحجر المتعلقة بإنشاء عبد الرحمن الناصر دار الصناعة البحرية في طرطوشة المحفوظة في الجدار الخارجي الشمالي من كنيسة هذه البلدة، ولها مثال عنها في المتحف الآثاري بطرَّكونة والمتحف الآثاري الوطني في مجريط، وهذه الكتابة هي عشرة أسطر بالخط الكوفي البسيط، وهي هذه:

> بسملة … أمر بإنشاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكب عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين — أيده الله — فتم بناؤها على يدي قائده وعبده عبد الرحمن بن محمد بعون الله ونصره في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وكتب عبد الله بن كليب.

قال لاوي بروفنسال: إن هذه البلاطة التذكارية هي من أجمل الوثائق التاريخية الحجرية المحفوظة من أيام إسبانية الإسلامية؛ قال: والملحوظ من قوله: «عدة للصناعة والمراكب» أنها لم تكن للإنشاء فقط، بل لإصلاح الأساطيل الخليفية.

ثم نقل لاوي بروفنسال كلام عبد المنعم الحميري بشأن طرطوشة، وهو: وعلى المدينة سور صخر من بناء بني أمية على رسم أوليٍّ قديم، ولها أربعة أبواب، وأبوابها كلها ملبسة بالحديد، ولها أرباض من جهة الجوف والقبلة ودار الصناعة، قد أحدق على ذلك كله سور صخر بناه عبد الرحمن بن النظَّام، وبها جامع من خمس بلاطات، وله

رحبة واسعة، بني سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ... إلخ.

ولاوي بروفنسال يظن أن عبد الرحمن بن النظَّام هذا هو عبد الرحمن بن محمد الذي تم إنشاء دار الصناعة هذه على يديه.

وقد فاتنا أن نذكر في الجزء الثاني عند الكلام على طرَّكونة نقل الكتابة التي وجدت في حائط من كنيسة طركونة الكبرى عند الباب، وهي هذه: «بسم الله، بركة من الله لعبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين — أطال الله بقاه — مما أمر بعمله على يدي جعفر فتاه ومولیه سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.» وهذه الكتابة هي بالخط الكوفي البديع، ثلاثة أسطر في الرخام؛ سطران متقابلان وسطر من فوقهما، وعلو هذه الكتابة متر و٢٦ وعرضها ٧٦ من المتر، ولا شك أنها كتابة متعلقة ببناء الجامع الأعظم في طركونة أو بترميم فيه، وهو الجامع الذي في مكانه توجد الكنيسة الآن. وأما جعفر المذكور فيها فالأرجح أنه هو جعفر الذي كان يدير أمور الأبنية الخليفية في زمن الحكم الثاني، واسمه جعفر بن عبد الرحمن، وقد ورد ذكره في كثير من الكتابات القرطبية.

(٤) الشَّقَفُ هو الخزف، وقيل: الكِسَر منه، الواحدة شَقَفَة، وفي البلاد الشامية يستعملون الشقفة بمعنى القطعة مطلقًا.

(٥) زكن الخبر زكنًا، وبالتحريك، وأزكنه: علمه، وأزكنه الخبر إزكانًا: أفهمه إياه، ولا يتعدى بالحرف؛ ولذلك قالوا في قول قعنب بن أم صاحب:

ولن يراجع قلبي ودَّهمْ أبدًا زَكِنت منهم على مثل الذي زكنوا

إنه على التضمين، وذلك بإيداعه فعل زكن معنى اطلع، كأنه قال: اطلعت منهم على مثل الذي اطلعوا عليه مني، وأما قول ياقوت هنا: «وأزكن عليه»، فهي عامية حجازية بمعنى أعلمه، وأما في الفصيح فلا يتعدى هذا الفعل بالحرف.

(٦) قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري في كتابه «الروض المعطار» عن طرطوشة ما يلي بالحرف: من بلنسية إلى طرطوشة مائة ميل وعشرون ميلًا مسيرة أربعة أيام، وهي في سفح جبل، ولها سور حصين، وبها أسواق وعمارات وضياع وفعلة وإنشاء للمراكب الكبار من خشب جبالها، وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، ومنه تتخذ الصواري والقرى، وهو خشب أحمر صافي البشرية بعيد التغير لا يفعل فيه السوس ما يفعل في غيره من الخشب، ومنها إلى طرَّكونة خمسون ميلًا، وبينها وبين البحر الشامي عشرون ميلًا. وقصبة طرطوشة على صخرة عظيمة

سهلة الأعلى، وفي الشرق من القصبة جبل الكهف (وهو جبل أسود)، والمصلَّى والمدينة في غربي القصبة وجوفيها، وعلى المدينة سور صخر من بناء بني أمية على رسم أوَّلي قديم، ولها أربعة أبواب، وأبوابها كلها ملبسة بالحديد، ولها أرباض من حومة الجوف والقبلة ودار الصناعة قد أحدق على ذلك كله سور حجر حصين بناه عبد الرحمن بن النظَّام، وبها جامع من خمس بلاطات، وله رحبة واسعة بني سنة ٣٤٥، وبها أربعة حمامات، وسوقها في الربض القبلي جامعة لكل صناعة ومتجر، وهي باب من أبواب البحر ومرقى من مراقيه، تحلُّها التجار من كل ناحية، وهي كثيرة شجر البقس، ومنها يفترق إلى النواحي، وخشبها الصنوبر له خاصية في الجودة تفوق جميع خشب الأمصار.

وقصبة طرطوشة في المنعة والسمو إلى حد لم يستوفِه بالصفة إلا عبد الملك بن إدريس الكاتب المعروف بالجزيري حين سجنه بها المنصور بن أبي عامر، فقال يصف حاله هناك من قصيدة طويلة مشهورة (كامل):

في رأس أجرد شاهق عالي الذرى ... ما بعده لمؤمل من ممصرِ (كذا)
يهوي إليه كل أعور ناعق ... وتهب فيه كل ريح صرصرِ
ويكاد من يرقى إليه مرةً ... من دهره يشكو انقطاع الأبهرِ

وأول هذا الشعر:

ألوي بعزم تجلدي وتصبري ... نأي الأحبة واعتماد تذكر
شحط المزار فلا مزار ونافرت ... عيني الهجوع فلا خيالٌ يعتري
وقصرت عنهم فاقتصرت على جوى ... لم يدع بالواني ولا بالقصر

ومن أهل طرطوشة الفقيه الإمام الزاهد أبو الوليد الطرطوشي الفهري، نزل الإسكندرية صاحب التعلقة في الخلاف وكتاب الحوادث والبدع، وغير ذلك، سكن بغداد، وتفقه على أبي بكر الشاشي، وسمع بها الحديث، وهو مالكي المذهب. قالوا: وزهده أكثر من علمه، وانتفع به جماعة، وانجلب إليه أكثر من مائتي فقيه «مفتٍ»، ومن كبار أصحابه أبو الطاهر بن عوف، وسند بن عفان الأزدي، وعاصر الغزالي، وله في إحيائه كلام، وكان منحرفًا عنه سيئ الاعتقاد فيه، وكانت وفاته بعد العشر والخمسمائة. ا.هـ.

وقال عن طرَّكونة ما يلي: بينها وبين لاردة خمسون ميلًا، وطرَّكونة مدينة أزليَّة

قاعدة من قواعد العمالقة (ليس للعمالقة هنا مدخل إلا أن يكون أراد بهم الأولين أو الجبابرة)، وجعلها قسطنطين في القسم الثالث من الأندلس، وأضاف إليها مدن ذلك القسم، وهي مبنية على ساحل البحر الشامي، ومعالمها باقية لم تتغيَّر، وأكثر سورها باقٍ لم يتهدم، وهي أكثر البلاد رخامًا محكمًا، وسورها من رخام أسود أبيض، وقليلًا ما يوجد مثله. ومن الغرائب بطرَّكونة أرحاء نصبها الأُوَل تطحن عند هبوب الريح وتسكن بسكونها، وذكر أهل العلم باللسان اللطيني أن معنى طرَّكونة «الأرض المشبهة بالمجنة»، وكانت في قديم الزمان خالية؛ لأنها كانت فيما بين حد المسلمين والروم، والأخياس فيها كثيرة (ربما يكون أراد بها السجون، ولكن المشهور أن السجن يقال له المخيس لا الخيس، فيجوز أن يكون المقصود بالأخياس جمع خيس — بكسر أوله — وهو منبت الطرفاء وأنواع الشجر والأجمة، ويجوز أيضًا أن تكون الكلمة مصحفة عن أحناش)، ومبانيها كبيرة، وبها أساطين رفيعة مما تضل الأوهام في حكمته ويعجز المتكلفون اليوم عن صنعته.

وذكر شيخ ثقة من أهل شبراته يقال له ابن زيدان أنه كان يخرج في السرايا إلى تلك الناحية، فنزل في بعض خرجاته مع جماعة من أصحابه في البنيان الذي تحت مدينة طركونة، فأرادوا التحول منه فضلوا ولم يهتدوا منه لمخرج، وترددوا كذلك ثلاثة أيام حتى هدوا في آخر اليوم الثالث لما أراد الله من إبقائهم، وزعم قوم أنهم وجدوا هناك بيوتًا مملوءة قمحًا وشعيرًا من الأزمان السالفة قد اسود حبه وتغير لونه، وفي هذه المدينة يكمن المسلمون عند طلب الفرصة في الغزو، وفيها يكمن العدو أيضًا للمسلمين.

(٧) ابهارَّ الليل بالتشديد: طال، ومنه حديث النبي ﷺ أنه سار ليلة حتى ابهارَّ الليل. وقال الأصمعي: ابهارَّ الليل حتى انتصف، وهو مأخوذ من بهرة الشيء، وهو وسطه.

(٨) وقد ترجم هذا الإمام العلامة صاحب نفح الطيب، وقال: إنه زار قبره في الإسكندرية، وروى من نظمه قوله من رسالة:

أقلِّب طرفي في السماء ترددًا ... لعلي أرى النجم الذي أنت تنظرُ
وأستعرض الركبان من كل وجهة ... لعلي بمن قد شم عرفك أظفرُ
وأستقبل الأرواح عند هبوبها ... لعل نسيم الريح عنك يخبِّرُ
وأمشي وما لي في الطريق مآربٌ ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكرُ

وألمح من ألقاه من غير حاجةٍ عسى لمحة من نور وجهك تسفرُ

وروى له أيضًا:

يقولون: ثكلى ومن لم يذق فراق الأحبة لم يثكلِ
لقد جرعتني ليالي الفراق كئوسًا أمرَّ من الحنظلِ

قال: وعبر عنه ابن الحاجب في مختصره الفقهي في باب العتق بالأستاذ، وكان رحمه الله صحب أبا الوليد الباجي، وأخذ عنه مسائل الخلاف والفرائض والحساب، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بإشبيلية، ثم ذكر صاحب النفح رحلته إلى المشرق حسبما ذكر في ترجمته بالصلة والتكملة وبغية الملتمس، وقال الصفدي في ترجمة هذا الإمام: إن الأفضل ابن أمير الجيوش، أنزله في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد، وكان يكرهه، فلما طال مقامه به ضجر، ثم قُتل الأفضل وولي بعده المأمون بن البطائحي، فأكرمه إكرامًا كثيرًا، وله ألَّف الشيخ «سراج الملوك»، ومن تأليفه مختصر تفسير الثعالبي، والكتاب الكبير في مسائل الخلاف، وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها. ولما توفي صلى عليه ولده، ودفن قِبَل الباب الأخضر بإسكندرية. وكان القاضي عياض ممن استجازه ولم يلقه، وحكي أنه كتب على سراج الملوك الذي أهداه إلى أمير مصر:

الناس يهدون على قدرهم لكنني أهدي على قدري
يهدون ما يغني وأهدي الذي يبقى على الأيام والدهرِ

وترجمه ابن العماد الحنبلي صاحب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، فلم يزد على نقل ما نقلناه هنا من تراجمه، إلا أنه روى أبياتًا قال إنها منسوبة إليه، وهي هذه:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلًا وأنت بإنجازها مغرمُ
فأرسل بأكمه خلابة به صمم أفطس أبكمُ
ودع عنك كل رسول سوى رسول يقال له الدرهمُ

وقال الطرطوشي: كنت ليلةً نائمًا في بيت المقدس، فبينما أنا في جنح الليل إذ سمعت صوت حزين ينشد:

خوف ونوم إن ذا لعجيبُ ثكلتك من قلبٍ فأنت كذوبُ
أما وجلال الله لو كنت صادقًا لما كان للإغماض منك نصيب

قال: فأيقظ النوام، وأبكى العيون.

(٩) وقع في ترجمة عبيد الله بن خلف بن هاني هذا خطأً في ترجمة ابن بشكوال له، نظنه من خطأ النسَّاخ، فإنه يقول: عبيد الله بن القاسم بن خلف. والحقيقة أنه عبيد الله بن أبي القاسم خلف بن هاني. وقد ترجمه ابن الأبار بقوله: عبيد الله بن خلف بن هاني العمري من أهل طرطوشة، يكنى أبا مروان، سمع أباه أبا القاسم خلف بن هاني، وأجاز له أبو بكر أحمد بن الفضل الدينوري، وحدث عنهما وولي القضاء ببلده، حدث عنه القاضي أبو الحسن محمد بن واجب وغيره. أكثره عن ابن عياد.

(١٠) وقد جاءت ترجمة خلف بن هاني هذا في بغية الملتمس لابن عميرة الضبي، وقال: إنه يكنى أبا القاسم، وإنه حدَّث بطرطوشة سنة ٤٢٢، وإنه سمع من أبي بكر الدينوري سنة ٣٤٦، وقال: إنه روى عنه القاضي ببلنسية أبو المطرف عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الجحاف. ولكنه لم يذكر أنه عُمَري من ذرية الفاروق — رضي الله عنه — وكذلك جاءت ترجمته في الصلة لابن بشكوال، وهي لا تزيد على ما يلي: خلف بن هاني يكنى أبا القاسم، حدَّث بطرطوشة سنة ٤٢٢ عن أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري، سمع منه القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن عبد الله بن جحاف المعافري. ا.هـ.

فمن هنا يظهر للقارئ الفرق بين رواية ابن الأبار ورواية ابن بشكوال في شأن هذا الرجل والخلاف في تعيين سنة وفاته.

(١١) ذكر لاوي بروفنسال في كتابه «الكتابات العربية في إسبانيا» كتابة منقوشة على حجر بقي مدة مستعملًا أسكُفَّةً لباب في أحد بيوت فيناروز، ثم أخذ هذا الحجر ووضع في المتحف الآثاري بمدرسة «سانتو دومنقه» بأوريولة، والكتابة سطران كل سطر منهما على جانب من الحجر، وهي بالحفر النافر وبالخط النسخي ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا. كل نفس ذائقة الموت.

... توفي ... الحسين بن عبد الله بن رحمون إلى ... ي يوم الأحد الثامن للصفر عام تسعة وثلاثين وستمائة.

قلنا: تاريخ هذا القبر يتأخر عن تاريخ أخذ النصارى لبلنسية والبلاد المجاورة لها بثلاث سنوات؛ لأنهم استولوا عليها سنة ست وثلاثين وستمائة.

(١٢) ينسب إلى هذه القصبة أبو محمد القاسم بن علي بن صالح الأنصاري المريي المقرئ نزيل دانية، أخذ القراءات عن أبي العباس القصبي، وأبي الحسن بن اليسع، وعن ابن العريف الزاهد، وعن أبي بن عبد الله بن غلام الفرس، وقرأ عليه التفسير سنة ٥٢٩، وتصدر بدانية للإقراء، وأخذ عنه أبو بكر أسامة بن سليمان الداني، ذكره ابن الأبار.

بنشكلة وعلماؤها

وعلى مسافة خمسين كيلومترًا من طرطوشة مدينة بني كارلو Benicarlo، وسكانها ثمانية آلاف ولها حصن قديم، وفيها كنيسة بديعة لها قبة جرس مثمنة مزينة بالزليج الأزرق، وإلى الشمال من هذه البلدة حصن بنشكلة Peniscola[١] ويسمى هذا الحصن بجبل طارق بلنسية؛ لأنه جزيرة متصلة بالبر بلسان من الرمل، وقد بقي هذا الحصن في أيدي العرب إلى سنة ١٢٣٣، فاستخلصه منهم جاك الأول ملك أراغون. وقد دخل الفرنسيس هذا الحصن سنة ١٨١١، وقد أقام أحد البابوات بهذا الحصن، وهو البابا بندكتس الثامن الذي أعلن مجمع كونستانزا إسقاطه من البابوية، فجاء بكرادلته إلى هذا الحصن وأقام به سبع سنين إلى أن مات، وذلك سنة ١٤٢٤.[٢]

ثم إن الخط الحديدي ينحرف عن الساحل مصعدًا في الوادي الذي بين جبال «إيرته Irta» وجبال «أتاليا القلعة Atalya Alcala»، وعلى مسافة ٧٢ كيلومترًا من طرطوشة قلعة «شيبر Chiber»،[٣] وهي التي يظن المستشرق دوزي أنها الرابطة التي كان يقول لها العرب: رابطة «كشطالي»، وقد ورد ذكرها في كتاب الشريف الإدريسي، وقال: إنها رابطة منيعة على نحر البحر الشامي يسكنها قوم أخيار. وعلى مسافة ٧٨ كيلومترًا من طرطوشة بلدة يقال لها: «طوربلانكه Torreblanca» بيوتها أشبه بأبراج وعلى شمالها قرية يقال لها البلاط، في مستنقع من الأرض، ثم قرية اسمها «أوروبيزه Oropésa»، ومن هناك تبدأ بمشاهدة جنان البرتقال، ويستقبلك جبل فيخترقه الخط الحديدي في نفق وعلى مسافة ١١٠ كيلومترات من طرطوشة بلدة بني قاسم Benicasim، وهي ذات موقع بديع، وفيها برتقال ونخل، وقبة كنيستها مزخرفة بالزلِّيج، وعلى مسافة ١٢ كيلومترًا من هناك مدينة «قسطلون البلانة Castellondelaplana»، وهي مدينة سكانها ٣٨ ألف نسمة، وهي مركز مقاطعة، كما أنها مركز تجارة عظيمة للبرتقال، ولها فرضة

على البحر يقال لها: «غراو Grao» تتصل بخط حديدي إلى البلدة وإلى هذه البلدة ينسب مصور شهير اسمه «ريبالته Ribalta» وله تصاوير محفوظة في هذه البلدة أحدها في الكنيسة الكبرى.

وفي هذه البلدة أيضًا تمثال للملك جايم الذي بناها وهو من ملوك أراغون. ثم يمر القطار الحديدي بمكان اسمه المجر Mijiares على جسر ثلاث عشرة قوسًا فوق قناة قسطلون المشتقة من النهر. وقد تقدم لنا الكلام في الجزء الأول من هذا الكتاب في ما علقناه على كلام الشريف الإدريسي نقل ما ورد في دليل بديكر عن الجسر وهذه القناة؛ فإنه قال: إنها تحفة بديعة من بدائع هندسة العرب تسقي تلك الأراضي منذ ستمائة سنة.[٤]

ومن هناك تفيض إلى بلدة يقال لها: «فيلا ريال Villareal»، وهي بلدة عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة، وكنيستها ذات قبة مصنوعة بالزليج، ولها قبة جرس مثمنة، وموقع هذه البلدة من أجمل المواقع، وفيها بساتين البرتقال يتخللها بعض النخيل، والنساء هناك تستقي بأباريق غريبة الشكل ترجع إلى عهد قديم.

ولا تزال مياه المَجَرِّ تتوزَّع على تلك البساتين إلى مدينة «بوريانة Buriana» التي يصدر منها برتقال كثير. وانظر ما قال الإدريسي عن بوريانة؛ فقد ذكر أنه من حصن بَنَشْكَلَة إلى عقبة أبيشة[٥] سبعة أميال، وقال: إن هذه العقبة جبل معترض عالٍ على البحر، والطريق عليه لا بد من السلوك على رأسه، وهو صعب جدًّا، ونحن نظن أن هذا الجبل هو الذي تقدم ذكره قبل الوصول إلى قرية بني قاسم، وأن الخط الحديدي يخترقه بواسطة نفق، ثم يقول: إن منه إلى مدينة بوريانة غربًا ٢٥ ميلًا، ويقول: إن مدينة بوريانة Buriana مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم، وهي في مستوٍ من الأرض، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أميال.[٦] ويقول الإدريسي: ومن بوريانة إلى مرباطر — وهي قرى عامرة وأشجار ومستغلات ومياه متدفقة — ٦٠ ميلًا، وكل هذه الضياع والأشجار على مقربة من البحر، ومنها إلى بلنسية ١٢ ميلًا.[٧]

هوامش

(١) ينسب إلى بنشكلة هذه من أهل العلم أبو الحسن علي بن سعيد البنشكلي، ذكره ابن الأبَّار في التكملة. وقال: إنه كان مقرئًا أخذ عنه محمد بن المعز بفتح الميم اليفرني من أهل ميورقة.

وينسب إلى بنشكلة أيضًا أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن خلف بن تقي القيسي، سكن دانية، سمع من أبي محمد البطليوسي، وأبي علي الصدفي، وأبي محمد بن عتاب، وكان فقيهًا حافظًا مشاورًا مدرسًا، غلب عليه علم الرأي، توفي نحو الخمسين وخمسمائة (عن ابن الأبار).

(٢) قال الحميري في الروض المعطار: بنشكلة حصن بالأندلس بالقرب من طركونة منيع على ضفة البحر، وهو عامر آهل، وله قرى وعمارات ومياه كثيرة، وبه عين ثرة تريق في البحر، ويقابل مرسى بنشكلة من بره العدوة جزائر بني مزغناي بينه وبينها ستة مجارٍ.

وذكر في الروض المعطار «أنيشة»، وأظنها محرفة، وحقيقتها أبيشة بالباء لا بالنون؛ لأنها بالإسبانيولي أبيشة Abiccha، فقال: إنها موضع على مقربة من بلنسية وبالقرب من بنشكلة، وعرفها بقوله: وعقبة أبيشة جبل معترض عالٍ على البحر والطريق عليه، ولا بد من السلوك على رأسه وهو صعب جدًّا. انتهى. وتعريفه هذا منقول بحرفه عن «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي، وكذلك تعريفه لبلدة لَقَنْت منقول بالحرف عن الإدريسي وغير ذلك. ثم ذكر في الروض أنه في أبيشة كانت الوقيعة بين المسلمين من أهل بلنسية وبين النصارى، واستشهد فيها الأديب المحدث العلامة أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي مصنف كتاب «الاكتفاء» في سير النبي ﷺ والثلاثة الخلفاء، وكانت هذه الوقيعة في سنة ٦٣٤، وكان خطيبًا راوية ناظمًا ناثرًا، ورثاه الكاتب أبو عبد الله بن الأبار القضاعي بقصيدة طويلة أولها:

ألمَّا بأشلاء العلا والمكارمِ تقدُّ بأطراف القنا والصوارمِ

أحسن فيها ما شاء، وفيها:

سقى الله أشلاءً بسفح أبيشة سوافح تزجيها ثقال الغمائمِ

وفيها:

أضاعهمُ يوم الخميس حفاظهم وكرُّهمُ في المأزق المتلاحمِ

وفيها:

سلام على الدنيا إذا لم يلُحْ بها مُحَيَّا سليمان بن موسى بن سالمِ

(٣) أشار ابن الأبَّار إلى قرية اسمها شيبر قال: إنه ينتسب إليها أبو الحجاج يوسف الشيبري الزاهد، صحب أبا عبد الله بن مجاهد، وسلك طريقه، وشهر بالصلاح والورع، وله في ذلك أخبار عجيبة، توفي سنة ٥٨٧ أو نحوها وقد قارب الثمانين.

(٤) من الآثار الإسلامية الباقية في هذه البلدة كتابة على قبر نقلها لاوي بروفنسال في كتابه الموسوم بـ «الكتابات العربية في إسبانية»، وهي أحد عشر سطرًا بالخط الكوفي المجوف المنقوش في الحجر:

بسملة ... ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾. هذا قبر غصن ابنة فرج، توفيت ليلة الأربعاء لستة خلت لشوال الذي من سنة ثلاثة وخمسين وأربعمائة، فرحم الله من دعا لها بالرحمة، آمين رب العالمين، وصلى الله على محمد.

وقد ذكر لاوي بروفنسال أن لفظة غصن — وهو اسم المدفونة — غير ظاهرة تمامًا كسائر الكتابة، وإنما يرجح أن الاسم هو غصن، وهو لائق باسم امرأة.

(٥) ينسب إلى قرية لبرقاط من عمل أبيشة عبيد الله بن عيشون المعافري، سكن بلنسية، وستأتي ترجمته بها.

(٦) ينسب إلى بوريانة محمد بن أحمد بن عثمان، سكن بلنسية. قال ابن الأبار في التكملة: كان من جلة الأدباء ومشاهير الشعراء، وعمر وأسنَّ، وكان يصحب أبا محمد

القُلُني ويحضر مجلسه، وقد أخذ عنه أبو عبد الله بن نايل، وأنشدني أبو الربيع بن سالم قائلًا: إن أبا عامر البرياني أنشده لنفسه في الصنم الذي بشاطبة:

بقية من بقايا الروم معجبة ‏ ‏ ‏ أبدى البناة بها من علمهم حكما
لم أدر ما أصمروا فيه سوى أمم ‏ ‏ ‏ تتابعت بعدُ سمَّوْهُ لنا صنما
كالمبرد الفرد ما أخطا مشبهه ‏ ‏ ‏ حقًّا لقد برَّد الأيام والأمما
كأنه واعظ طال الوقوف به ‏ ‏ ‏ مما يحدِّث عن عاد وعن إرما
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا ‏ ‏ ‏ أشجى وأوعظ من قسٍّ لمن فهما

(٧) يقول الحميري في الروض المعطار: إن بُريانة — بضم أولها وكسر ثانيها وتشديد الياء — هي مدينة جليلة عامرة بقرب عقبة أبيشة، وإنها كثيرة الخصب والأشجار والكروم، وهي في مستوٍ من الأرض، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهي قريبة من بلنسية.

مدينة المنارة

ثم إنك تصل إلى مدينة «المنارة»، وكان حصنها في القديم لعهد العرب مفتاح المملكة البلنسية. ويظهر أنه وجد في الأندلس عدة منابر؛ فإن ياقوت الحموي في المعجم يذكر إقليم المنارة بالأندلس ويقول: إنه بقرب شذونة. ثم ينقل عن أبي طاهر السلفي ترجمة رجل يقال له أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن سلامة الأنصاري المناري؛ نسبة إلى «منارة» من ثغور سرقسطة. ولا يزال يوجد في ناحية سرقسطة بلدة اسمها المنارة، ثم يذكر السلفي اسم رجل يقال له أبو الفتح محمد المناري، وآخر اسمه علي بن محمد المناري، كان يصحب أبا عبد الله المغامي.

فأما المنارة التي في إقليم شذونة فلا شك بأنها ليست هذه؛ لأن إقليم شذونة هو في جنوبي إشبيلية بعيد جدًّا عن منارة بلنسية. وفي منارة بلنسية هذه كانت الوقعة المشئومة على المسلمين سنة ١٢٣٨، وعلى أثرها استولى جاك الأول ملك أراغون على المملكة البلنسية، وقد بنى الإسبانيون كنيسة في المكان الذي وقعت فيه الواقعة، ولا يزال في بلدة المنارة بقايا هيكل قديم، وفي محل يقال له «شلبة Chelva» قناة معلقة قديمة، وفي مكان آخر يقال له «كابان Cabane» قنطرة قديمة، وهناك كتابات قديمة من أنواع شتى تدل على عظمة البلاد في الأعصر الغابرة. ثم إن هناك قرية يقال لها: فالس Valles تحيط بها عدة قرى كلها في مرج الفيح مشهور بالغلات لا سيما الحنطة، ثم تتقدم فتقطع نهرًا يقال له نهر بلانسية Palancia.[١]

هوامش

(١) هذه اللفظة بلانسية وبالإسبانيولي Palancia هي غير بلنسية المدينة الكبيرة التي يكتبها الإسبانيون Valencia، فينبغي أن يعرف ذلك، وإلى الأولى ينسب أناس من أهل العلم، مثل أبي القاسم خلف بن عبد الله البلانسي، ذكره ابن الأبار في ترجمة محمد بن المعز اليفرني الميورقي.

مربيطر

لا يجري في الصيف عن يمينه الخط الحديدي الذاهب إلى قلعة أيوب، فتصير هناك إلى مدينة «ساقونتو Sagonto»، وهي مدينة أهلها اليوم سبعة آلاف لا غير، واقعة على يمين نهر «بلانسية» بحذاء رابية شامخة مشمخرَّة منقطعة من جميع جهاتها مغطاة بالأبراج والأسوار، وكان العرب يقولون لهذه البلدة مرباطر أو مربيطر Murbiter، ومعنى هذه اللفظة «الأسوار القديمة»، وهي محرفة عن Muriveteres، وكان الإسبانيون إلى عهد قريب يسمونها مربيدرو Murvidero، ونحن لا نذكرها إلا تحت اسم مربيطر بعد أن توخينا في جميع كتابنا إحياء الأسماء العربية في الأندلس، وإيراد جميع الأسماء فيها على الوجه الذي كان يتلفظ به العرب.

فنقول: إن مربيطر كان يقال لها في القديم لعهد القرطاجنيين والرومان «ساقونتوم Saguntum»، وهي بلدة أيبيرية في الأصل يقال: إنه كانت فيها جالية يونانية اتفقت مع الرومانيين على إدخالهم في هذه البلدة، وذلك قبل المسيح بمائتين وعشرين سنة، وكان لقرطاجنة مملكة عظيمة في إسبانية، فخاف أنيبال بن أميلكار خلف أسدروبال الأسد الرئبال[١] أن يتبسَّط الرومان في إسبانية، فزحف إلى مربيطر في ربيع سنة ٢١٩، فقاومه أهل مربيطر مقاومة شديدة، وجرح أنيبال في المعركة، وكان في جيش القرطاجنيين آلة قتال يقال لها الكبش، تقذف بالشرر، ولها رءوس محددة من كل جهة، فقلما كان العدو يثبت أمام هذا الكبش النطاح، إلا أن أهل مربيطر ثبتوا أمامه بشدة المقاومة التي امتاز بها الإسبانيون. ولا تزال هذه المزية تظهر فيهم في جميع حروبهم القديمة والحديثة، فإنهم يستبسلون في المقاومات استبسالًا قلما يتحدث به التاريخ عن أمة من الأمم.

تأمل في الحروب الكارلوسية التي نشبت فيما بينهم، وفي الحرب التي وقعت بين الفرنسيس والإسبانيين عندما زحف بونابرت على إسبانية. وتأمل أيضًا في الحرب الأهلية

الواقعة بينهم اليوم بينما نحن نكتب هذه السطور سنة ١٩٣٨م، كم استبسل فيها الفريقان: الحزب المحافظ من جهة، والحزب الاشتراكي والشيوعي من جهة أخرى، وكم احتقر الموت كل منهما. إنك إذا تأملت تقضي العجب من صلابة رءوس هذه الأمة واستخفافها بالمنايا في جانب حقدها وإحنتها، حتى إن الفريق المغلوب منها يؤثر الموت على الاستسلام وإن لم تبق في يده حيلة آثر أن يموت صبرًا بيد عدوه على أن ينقاد إليه ويقبل حكمه. وهذا قد حيَّر جميع الواقفين على وقائع هذه الحرب التي بدأت بين الإسبانيين؛ أي منذ عامين، وتفجرت فيها دماؤهم كالأنهار، وظهرت فيها من الفريقين قسوة في استئصال بعضهم بعضًا لم يكن الناس يظنونها باقية فيهم إلى هذا العصر الذي رقَّت فيه الطباع، وتغيرت الأوضاع.

وكل هذا في الحقيقة يزيد في عظمة شأن العرب الذين غزوا هذه الأمة الشديدة الصليبة في عقر دارها، واكتسحوا بسائطها، وسخروا شُمَّ جبالها ورجالها، وأرغموا معاطس أجنادها وأبطالها، وضربوا عليهم الذلة والمسكنة من جبل طارق إلى جبال البرانس وإلى خليج غشقونية، ولبثوا عدة قرون وهم سادة هذه الأرض لا ينازعهم فيها منازع إلا كبوه على أم رأسه وعدة قرون أخرى وهم في جلاد شديد مستمر مع هذه الأمة الإسبانيولية، التي لا تعرف للموت معنى كما هو ظاهر من ماجريات الحرب التي نحن شاهدوها الآن، فلا جرم أن هذه الحرب أتت بشاهد جديد على فضل العرب إلى مدى لم يكن الناس يتصورونه من قبل، وأثبتت أن الأمة التي تأتي من وراء البحر وتتغلب على أمة صلبة العود كهذه الأمة، وتقارعها مدة ثمانمائة سنة في وسط دارها لهي أمة خارقة العادة في البأس وقوة الإرادة.

ثم نعود إلى حصار القرطاجنيين لمربيطر، فنقول: إنهم توصلوا إلى خرق خط الحصار، ودخلوا من ثلمة في أسوار البلدة؛ فردهم الإسبانيون إلى الوراء بمساعدة الرومانيين، فكر القِرطاجنيون كرات تشيب لها النواصي، وهدموا السور الأول، فشيَّد الإسبانيون أسوارًا ثلاثة الواحد وراء الآخر، وكاد القرطاجنيون يقطعون الأمل من أخذ البلدة، وإذا بالرومانيين قد تخلوا عن الإسبان وتركوا ساحة الحرب، فبعد حصار استمر ثمانية أشهر دخل أنيبال قلعة مربيطر عنوة وقتل أكثر رجال هذه البلدة بذباب السيف؛ لأنهم على عادتهم في حروبهم يفضلون الموت على استسلامهم للعدو، وقد ورد وصف هذا الحصار في كتب باقية من عهد أنيبال أو حن بعل.

وقد استرجع الرومان مربيطر سنة ٢١٤، ولكن لم تعد إلى أهميتها الأولى، ولا نريد أن نقول: إن مربيطر كانت في زمن الرومان كمية مهملة، وكيف يمكن أن يقال ذلك

وفيها ذاك المرزح الروماني الشهير للتمثيل، وفيها ملعب الخيل المدهش؟ وكانت مربيطر لعهد الرومان تضرب فيها السكة، وكانت بها معامل خزف هي مضرب الأمثال في نوعها.

فأما ملهى التمثيل الروماني الذي سارت بذكره الركبان، فموقعه على نصف المسافة بين أرض المدينة والقمة التي عليها القلعة، وقد لعبت بهذا الملهى أيدي العامة، فكانوا يبنون من حجارته، ولم تصدر أوامر الحكومة بالمحافظة عليه إلا في أواخر القرن التاسع عشر، فمحل التمثيل لم يبق منه تقريبًا شيء، وإنما بقي أقباء رائعة عند المدخل وأجنحة من مقاعد المتفرجين، وهي مساحة تستوعب ثمانية آلاف مقعد على عدة صفوف تبلغ عشرة لكل صف منها درجات، وهي منفصلة بعضها عن بعض بثلاثة مماشٍ كل ممشى أوسع من الآخر، والصفوف هي أوسع من العليا، وكانوا يصعدون إلى الطبقات العليا بأروقة رحبة ممتدة تحت درجات المقاعد بارتفاعات مختلفة، ولها مخارج نافذة إلى السلالم والمماشي الواسعة. وإن مسارح اللمحات التي تحيط بهذا الملهى من بدائع الطبيعة لتزيد في جماله.

فأما القلعة فيوصل إليها بجسر نقال يفاض منه إلى ساحة يقال لها ساحة أرماس Armas، وهناك باب اسمه باب محمد يؤدي من جهة الغرب إلى ساحة يقال لها غوبرنادور Gobernador واقعة في مطمئن من الأرض بين ارتفاعين؛ أحدهما إلى الغرب والثاني إلى الشرق، ثم يصعد المتفرج إلى حصن «سقونتوه» على نقطة فيه يقال لها: عمود اللواء Palo De La Bandera، وعلى جدران هذا الحصن نقوش وكتابات منها ما هو من زمن الرومان. والنظر يمتد من هناك على ساحل بني قاسم إلى جبل «مونغو» وجبال القنت، وترى من هذه القلعة قباب بلنسية، وفي الساحة المسماة مايو Mayo صهريج ماء كبير من صنع العرب، ويعود المتفرج إلى ساحة «غوبرنادور»، فيرى الهوة العميقة التي أمام مدخل القلعة، ثم يصعد من ناحية الشرق تدريجًا إلى المنارة، وهي قلعة دارسة، ولكن منظرها بديع يسرح فيها الطرف من جهة البحر والساحل والمدينة، وهناك ساحة يقال لها ساحة إيكو Eco عندها آثار رومانية وإلى الجنوب صهاريج كبيرة يقال إنها من بناء الرومان، وهناك كنيسة يقال لها: سان سلفدور، أصلها جامع.

أما ملعب الخيل فإنه يمتد على ضفة وادي بلنسية طوله ٢٨٥ مترًا وعرضه ٧٢ مترًا، ولكن قد تحيفت منه البساتين، وفي القسم العالي منه نهير عليه جسر روماني.

وقد جاء ذكر مربيطر في معجم البلدان فقال: مربيطر — بالضم ثم السكون وباء موحدة مفتوحة وياء مثناة من تحت ساكنة وطاء مفتوحة وراء — مدينة بالأندلس بينها

وبين بلنسية أربعة فراسخ، وفيها الملعب، وهو إن صح ما ذكروه من أعجب العجائب؛ وذلك أن الإنسان إذا صعد فيه نزل وإذا نزل فيه صعد.

ينسب إليها قاضيها ابن خيرون المربيطري، وسفيان بن العاصي بن أحمد بن عباس بن سفيان بن عيسى بن عبد الكبير بن سعيد الأسدي المربيطري، سكن قرطبة، يكنى أبا بحر، روى عن أبي عمر بن عبد البر الحافظ، وأبي العباس العذري وأكثر عنه، وعن أبي الليث نصر بن الحسن السمرقندي، وأبي الوليد الباجي وغيرهم، وكان من جلة العلماء وكبار الأدباء، سمع الناس منه كثيرًا، ولقيه ابن بشكوال وحدث عنه، ومات لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ٥٢٠، ومولده سنة ٤٤٠، انتهى كلام ياقوت الحموي.

قلت: وممن ينسب إلى مربيطر من أهل العلم لب بن أحمد بن عبد الودود بن غالب بن زنون، من أهل مربيطر، ترجمه ابن الأبار في التكملة، وكنيته أبو عيسى. روى عن القاضي أبي عبد الله بن سعادة وغيره، ومال إلى الأدب، وعُنِي بصناعة النظم فبرح وأبدع، قال ابن الأبار: سمعت أبا الربيع بن سالم يُثني عليه، وأنشدني من شعره، ولم يذكر تاريخ وفاته.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن حصن الأنصاري، من ولد سعيد بن سعد بن عبادة — رضي الله عنهما — أصله من شارقة من مملكة بلنسية، وسكن عقبُهُ مربيطر، سمع من أبي الوليد الوقشي، ولازمه من سنة إحدى وثمانين إلى سنة أربع وثمانين بعد الأربعمائة، وأخذ عنه الموطأ، وكان حسن الخط ذا عناية بالعلم نبيه البيت معروفًا بالسرو، وتوفي قبل العشرين وخمسمائة، قاله ابن الأبار في التكملة.

والإمام الذي ذكره ياقوت في معجم البلدان هو سفيان بن العاصي بن أحمد بن العاصي بن سفيان بن عيسى بن عبد الكبير بن سعيد الأسدي، سكن قرطبة، وأصله من مربيطر، وكنيته أبو بحر. قال ابن بشكوال في الصلة: أخذ عن أبي عمر بن عبد البر، وأبي العباس العذري، وأبي الليث السمرقندي، وأبي الوليد الباجي، وطاهر بن مفوَّز، واختص بالقاضي أبي الوليد بن أحمد الكناني، وكذلك إنه أخذ عن أبي عبد الله بن سعدون القروي، وأبي إسحاق الكلاعي، وأبي داود المقري، وأجاز له عيسى بن أبي ذر الهروي، وكان من جلة العلماء وكبار الأدباء ضابطًا لكتبه صدوقًا في روايته حسن الخط جيد التقييد، من أهل الرواية والدراية، سمع الناس منه كثيرًا.

قال ابن بشكوال: وحدث عنه جماعة من شيخونا، واختلفت إليه، وقرأت عليه، وسمعت كثيرًا من روايته، وأجاز لي بخطه سائرها غير مرة. قال: وتوفي شيخنا أبو بحر

— رحمه الله — ليلة الأربعاء أول الليل لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ٥٢٠، ودفن يوم الأربعاء بعد العصر بالربض، وصلى عليه أبو القاسم بن تقي، وكان مولده سنة ٤٤٠.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن أبي الفتح بن حصن بن لربيق بن عفيون بن عفايش بن رزق بن عفيف بن عبد الله بن رواحة بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي، أصله من شارقة، سكن مربيطر، سمع من صهره أبي علي بن بسيل، وولي قضاء مربيطر مضافًا إلى الصلاة والخطبة بها، وكان سريًّا نزيهًا. قال ابن الأبار في التكملة: وهو خال شيخنا أبي الخطاب بن واجب سماه ابن سفيان في معجم شيوخه، وتوفي سنة ٥٦٧.

وأبو عبد الله محمد بن هشام بن عبد الله البتي المربيطري أدرك أبا محمد البطليوسي، وسمع من ابن الدباغ، تولى الصلاة والخطبة والأحكام بمربيطر، سماه ابن سالم في معجم شيوخه، ونقل ابن الأبار عن ابن سالم أنه توفي سنة ٥٨١.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري من أهل مربيطر، وأصله من أبيشة[٢] بالباء من ثغور بلنسية، وهي التي تنسب إليها عقبة أبيشة التي ذكرها الشريف الإدريسي في كلامه عن البلاد الواقعة بين طرطوشة وبلنسية، روى أبو عبد الله محمد هذا عن أبيه أبي العباس وغيره، ورحل حاجًّا، فسمع بمكة من أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي، وبالإسكندرية من أبي الطاهر بن عوف، وأبي عبد الله بن الحضرمي، وأبي طاهر السلفي، وأبي طالب التنوخي، وأبي القاسم بن جاردة، وأبي الطاهر بن عثمان، وأبي الضياء بدر بن عبد الله بن حبشي، وأبي الحجاج يوسف بن محمد القيرواني، ثم صدر إلى بلده مربيطر وحدث بها، وتوفي في بلده سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين وخمسمائة، رواه ابن الأبار عن ابن سالم.

وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يونس القضاعي من أهل أُندة دار القضاعيين بالأندلس، ومن قرية بجهتها، لكنه سكن مربيطر، وكان يعرف بابن خيرون، سمع الأئمة الكبار مثل أبي عمر بن عبد البر، وأبي الوليد الباجي، وأبي الوليد الوقشي، وأبي العباس العذري، وأبي المطرف بن جحَّاف، وأبي الفتح السمرقندي؛ قال ابن الأبار: كان راوية جليلًا، فقيهًا حافظًا أديبًا، له حظ من قرض الشعر، وكان صهرًا لأبي بحر الأسدي، وبقراءته الموطأ على أبي عمر بن عبد البر، سمعه أبو بحر، وذلك بشاطبة سنة ٤٥٦، وتولى قضاء مربيطر من قبل أبي الحسن بن واجب، وأخذ عنه جماعة منهم صهره أبو علي بن بسيل، وأبو محمد بن علقمة، وأبو عبد الله محمد

بن محمد بن يعيش، وأبو العرب عبد الوهاب بن محمد التجيبي، وتوفي بمربيطر وهو قاضيها حوالي سنة ٥١٠.

قال ابن الأبار في التكملة: قرأت بخط أبي العباس أحمد بن حسن بن سليمان أن ابن خيرون هذا حدثه قال: حدثني الفقيه الإمام الحافظ أبو عمر — يعني ابن عبد البر — عن أشياخه — رضي الله عنهم — أن أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا فأتوا إليه فقالوا: يا رسول الله، إنا نسمع منك حديثًا فإذا جئنا لنحدث به ذهب عنا اللفظ، فقال رسول الله ﷺ: إذا حدثتم عني بالمعنى فحسبكم.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن الزبير بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عبد العزيز بن الزبير القضاعي من أهل مربيطر، أصله من أُندة عمل بلنسية، سمع من أبي الحسن بن النعمة وأجاز له، وسمع من أبي العباس بن هذيل الأبيشي، وأخذ قراءة نافع عن أبي جعفر طارق بن موسى بن طارق، وأجاز له من إشبيلية أبو عبد الله بن زرقون سنة ٥٨٥، وأجاز له من الإسكندرية سنة ٥٧٢ أبو طاهر السلفي، ثم أبو الطاهر بن عوف، وأبو عبد الله الحضرمي، وأبو القاسم بن جاره، وأبو الثناء الحرَّاني، وتولى الصلاة والخطبة ببلده مربيطر، وتقدم للأحكام بها، وكان له بصر بالأحكام وبعقد الشروط ومشاركة في علم الفرائض والحساب. قال ابن الأبار في التكملة: لقيته مرارًا ببلده ثم ببلنسية، وحدثني بحكايات، وأجاز لي بلفظه ما رواه، وتوفي مغرَّبًا عن وطنه بسحر ليلة الخميس السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٢٧ (أي قبل سقوط بلنسية في أيدي الإسبانيول بتسع سنوات)، ودفن بقبلي المصلى من ظاهر بلنسية. قال: ومولده بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الأربعاء للنصف من جمادى الأولى سنة ٥٤٤.

وأبو محمد عبد الله إبراهيم بن الحسن بن منتيال الورَّاق المربيطري، سكن بلنسية، سمع من أبي العطاء بن نذير، وأبي عبد الله بن هذيل الأبيشي، وأجاز له أبو بكر بن أبي جمرة، وأبو الحجاج بن أيوب، وغيرهما، ومن الإسكندرية أبو طاهر السلفي، وأبو الطاهر بن عوف، وأبو القاسم بن جاره، ورحل حاجًّا فسمع في طريقه من أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي نزيل بجاية، وسمع بالإسكندرية من أبي عبد الله الحضرمي. قال ابن الأبار في التكملة: وكتب بخطه علمًا كثيرًا على رداءته، وقفل إلى بلنسية، وكان له دكان بالقيسارية يقعد فيه للتجارة ويبيع الكتب، لقيته مررًا عند شيخنا أبي الخطاب بن واجب وعند والدي — رحمهما الله — وهو استجازه لي فأذن لي في الرواية عنه لفظًا، وتوفي ببلنسية في ذي القعدة سنة ٦١١، ومولده قبل الخمسين وخمسمائة.

وعيق بن علي بن خلف بن أحمد الأموي المرواني أبو بكر، يقال له: ابن قنترال، من مربيطر، سكن مالقة، أخذ القراءات والعربية عن أبي الحسن بن النعمة، وسمع من عبد الله بن سعادة، ولقي بمرسية أبا القاسم بن حبيش وبإشبيلية أبا بكر بن الجد وابن زرقون، وأخذ عنهم، وأخذ بمالقة عن أبي محمد بن دحمان، وحج سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فسمع بالإسكندرية من السلفي، وبمكة من علي بن عبد الله المكناسي، ثم رجع إلى الأندلس، وتصدر للإقراء بمالقة، ثم حدث ببلنسية، وكان مقرئًا صالحًا ورعًا، أخذ عنه جماعة من علمائها.

وعلي بن محمد بن عبد الودود من أهل مربيطر صاحب الصلاة والخطبة بها والأحكام أيضًا، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن واجب، وأجاز له أبو الطاهر بن عوف، وكان صالحًا. قال ابن الأبار في التكملة: أخذت عنه يسيرًا، توفي في ذي الحجة سنة ٦٣٣ (أي قبل سقوط بلنسية بثلاث سنين).

وأبو علي الحسين بن أحمد بن الحسين بن يسيل العبدري المربيطري، سمع من أبي محمد بن خيرون وغيره، وولي قضاء مربيطر من قبل أبي الحسن بن واجب، وكان نبيه البيت حسن الخط، حدث عنه صهره القاضي أبو عبد الله بن حصن، والأستاذ أبو الوليد يونس بن أيوب بن بسام وغيرهما، وتوفي بعد سنة ٥٣٧، ذكره ابن الأبار.

وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي المربيطري، سمع من أبي القاسم بن حبيش وأبي بكر بن بيبش، وأجاز له أبو الطاهر بن عوف، وكان واقفًا على كتاب سيبويه علم بذلك وقتًا، ثم عني بالطب حتى رأس فيه، وخدم به الأمراء، فنال دنيا عريضة، توفي بمراكش سنة ٦١٩، ذكره ابن الأبار.

هوامش

(١) يدور اسم أنيبال وأسد روبال في تاريخ قرطاجنة الفينيقية، ولما كانت اللغة الفينيقية مشتقة من اللغة العربية أخذ الناس في تخريج هذه الأسماء على موجب اللغة العربية، فقالوا: لعل أنيبال معناه «النبَّال»، وهو الذي يقاتل بالنبل؛ أي السهام، وقالوا في أسد روبال: «الأسد الرئبال»، ولكن ظهر فيما بعد أن اسم أنيبال هو «حن بعل»، وأن اسم أسد روبال هو «أزر بعل»، بمعنى عون بعل، أو «عزر بعل»؛ أي خادم بعل.

وقد ذكر ذلك الأخ الفاضل السيد أحمد توفيق المدني في كتابه «قرطاجنة»، وقال:

> إن لفظة «عزر» بمعنى خادم لا تزال مستعملة في تونس، وهي بقية مما ورثه عرب تونس عن الفينيقيين الذين مهدوا الطريق للعربية في إفريقية، وبالإجمال فإن أسماء هؤلاء الفينيقيين هي عربية؛ لأن الفينيقي نفسه هو عربي، ولكن لم يكن معروفًا أصلها عندنا، فقد كان تلقِّينا هذه الأسماء عن اللاتينيين، وهم لا يقدرون على التلفظ بالحاء والعين، فجعلوا الهاء همزة والعين ألفًا، فتغيرت هذه الأسماء عن أصلها.

وقد جاءني كتاب من الأخ السيد أحمد توفيق المدني في هذا الموضوع يؤيد ما ذكره عنه في كتابه «قرطاجنة»، ويردف ذلك بقوله لي ما يلي:

> وقد كنت كتبت عن هذا الأمر طويلًا في الجزء الخامس من تقويم المنصور الذي تفضلتم — حفظكم الله — بكتابة مقال عنه نشرته جريدة الأمة الجزائرية، وفيه ذكر وثيقة حجرية وجدت بالبرازيل تثبت وصول الفينيقيين القرطاجنيين إلى أمريكا، وذلك قبل تحطيم رومة لقرطاجنة، وأن لغة القوم كانت عربية، وأنها أقرب شيء للغة العامية الحاضرة بتونس.

(٢) وممن ينسب إلى أبيشة هذه من أهل العلم أبو العباس بن هذيل الأبيشي، وهو من شيوخ محمد بن علي بن الزبير بن أحمد بن خلف القضاعي الأندي المربيطري.

مدينة إشكرب

ومن مدينة مربيطر إلى مدينة إشكرب Segorbe ٣١ كيلومترًا.

هذه البلدة هي من أعمال بلنسية، ينسب إليها أناس من أهل العلم كما سيأتي، وسكانها اليوم سبعة آلاف نسمة، ولها موقع بديع على ضفة نهر بلانسية Palancia تحف بها أكام مشرفة على رءوسها قصور شامخة. واشتقاق اسم شيكورب، ويقول الإسبانيول: سيغورب هو من اسم سيغوبريكا Segobriga الذي كان معروفًا في زمان السلتيبيريين Celtipéres، فهي بلدة قديمة، وفيها كنائس ذات آثار عتيقة، وإذا أقبل الإنسان من مربيطر نحو بلنسية مر ببساتين بلنسية الشهيرة، وفي خلال البساتين كثير من القرى مثل «بوزول Puzol» و«بويغ Puig» و«كابانيال Cabanial»، ثم يعبر القطار الحديدي نهيرًا اسمه «توريه Turia» فيصل إلى بلنسية.

ذكر ياقوت الحموي مدينة إشكرب هذه، فضبطها بالكسر مع سكون الراء وآخرها باء موحدة، وقال: إنها مدينة في شرقي الأندلس، ينسب إليها أبو العباس يوسف بن محمد فارُه الإشكربي، ولد بإشكرب، ونشأ بجيَّان فانتسب إليها، وسافر إلى خراسان وأقام ببلخ إلى أن مات بها في سنة ٥٤٨.

بلنسية

(١) جغرافيتها

حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ما حضر منها وما غبر، ومَصْر من الأمصار المعدودة في ما عمره البشر، كانت إحدى العواصم الست التي ترجع إليها إسبانية العربية، وهي قرطبة في الوسط، وطليطلة في الوسط إلى الشمال، وسرقسطة في الشمال إلى الشرق، وإشبيلية في الغرب، وغرناطة في الجنوب، وبلنسية Valencia[1] هذه في الشرق، وما زالت هذه المدَرة منذ خيم الإسلام بعقرتها إلى أن تقلص ظله عنها دار علم وتفكير وفضل غزير ونعيم وملك كبير، عدا ما تحلت به من مرجها النضير ومحرثها الذي ليس له نظير، وكانت دائمًا معقل عروبة ومركز عربية، وموطن بحث وتحقيق، ومحط تصنيف وتنميق، وفيها من كل نزعة عربية صحيحة وكل عرق في العرب عريق.

ومن مزاياها أنها متصلة بالبحر والجبل فلا يزال عيشها هنيئًا، ولا يبرح سمكها طريئًا، وجبنها طريئًا، وإن لم يكن فيها سوى بساتينها التي لا يشبهها في الدنيا شيء سوى غوطة دمشق وما يقال عن شِعب بوَّان وصُغد سمرقند، وربما كانت رقعة بساتين بلنسية أرحب وكان مداها أطول؛ لأن المسافر يلبث في القطار الحديدي عدة ساعات لا يقع نظره إلا على دوح ملتفٍّ وجنان لا تكاد تنفُذ خلالها الشمس إلى أن يصل المدينة، وهي اليوم البلدة الثالثة في إسبانية من جهة عدد السكان، وأهلها يزيدون على ٢٣٣ ألف نسمة لا يفوقها سوى مجريط وبرشلونة، وهي مركز ولاية بلنسية، وفيها مدرسة جامعة ودار أسقفية، وبينها وبين البحر مسافة لا تزيد على أربعة كيلومترات، وبجانبها نهر يقال له: وادي الأبيار Guadalaviar، وقيل: وادي الأبيض، وإنما حرفه الإسبانيون

عن لفظه الأصلي، وقد سبق نقلنا لما ذكره عن بلنسية صاحب نفح الطيب، بحيث لا نحتاج إلى التكرار وما أنشده من الشعر الذي قيل إنه في محاسنها، ويعجبني منه قول مروان بن عبد الله بن عبد العزيز أمير بلنسية يصف بلدته:

كأن بلنسية كاعبٌ وملبسها سندس أخضرُ
إذا جئتها سترت نفسها بأكمامها فَهْي لا تظهرُ

وهو شعر مطابق للواقع؛ لأن المسافر لا يرى بلنسية حتى يصير في وسطها، وذلك من كثرة جنانها التي تغطيها، ومع هذا فالنظر يسرح منها إلى مسافة عشرين كيلومترًا في الجبال التي إلى غربيها، ويرى قلعة مربيطر في شماليها وجبل القنت في الجنوب الشرقي منها، ولقبابها المرصعة بالزليج الأزرق والأبيض والمذهب منظر شائق تحت أشعة الشمس الحادة.

وكان الأقدمون يقولون: إن بلنسية قطعة سقطت من السماء. ونقل بديكر أن العرب كانوا يسمونها مدينة أبي طرب، وأنهم عندما فارقوها أكثروا من النواح عليها ورثوها بالقصائد، وأنشد شعرًا بالإسبانيولي قال: إنه ترجمة نشيد عربي قاله العرب في بلنسية عندما فارقوها، ومعناه أنه كلما ظهرت محاسنها ازدادت الحسرة عليها. وسنأتي في هذا الكتاب على بعض ما قيل في بلنسية من المراثي.

قال الشريف الإدريسي: بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس، وهي في مستوٍ من الأرض غامرة القطر كثيرة التجار والعمار، وبها أسواق وتجارات وحط وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال مع النهر ... إلى آخر ما قال مما تقدم نقله.

وقال ياقوت في معجم البلدان: بلنسية، السين مهملة مكسورة وياء خفيفة: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار، وتعرف بمدينة التراب،[٢] وتتصل بها مدن تعد في جملتها، والغالب على شجرها القراصية، ولا يخلو منه سهل ولا جبل، وينبت بكورها الزعفران وبينها وبين تدمير أربعة أيام، ومنها إلى طرطوشة أربعة أميال.

وكان الروم قد ملكوها سنة ٤٨٧، واستردها الملثَّمون الذين كانوا ملوكًا بالغرب قبل بني عبد المؤمن، وذلك سنة خمس وتسعين، وأهلها خير أهل الأندلس يسمَّون عرب

الأندلس، بينها وبين البحر فرسخ، وقال الأديب أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني الأندلسي:

إن كان واديك نيلًا لا يجاز به فما لنا قد حرمنا النيل والنيلا
إن كان ذنبي خروجي من بلنسية فما كفرت ولا بدلت تبديلا
دع المقادير تجري في أعنتها ليقضي الله أمرًا كان مفعولا

وقال أبو عبد الله محمد الرصافي:[٣]

خليلي ما للبلد قد عبقت نشرا وما لرءوس الركب قد رجحت سكرا
هل المسك مفتوقًا بمدرجة الصبا أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا
بلادي التي راشت قويدمتي بها فريخًا وآوتني قرارتها وكرا
أعيذكمُ إني بكيت لبينكم وكل يد منا على كبد حرَّى
نؤمل لقياكم وكيف مطارنا بأجنحة لا نستطيع لها نشرا
فلو آب ريعان الصبا ولقاؤكم إذا انقضت الأيام حاجتنا الكبرى
فإن لم يكن إلا النَّوى ومشيبنا فمن أي شيء بعد نستعتب الدهرا

ثم ذكر ياقوت من أبيات الشعر التي قيلت في بلنسية ما تقدم نقله عن نفح الطيب، فلا حاجة إلى تكراره، ولكننا ننقل منه هنا ما ينسب إلى خلف بن فرج الألبيري المعروف بابن السمسير:

بلنسية بلدةٌ جنةٌ وفيها عيوب متى تختبر
فخارجها زَهَرٌ كله وداخلها برك من قذر

قال: وذلك لأن كنفهم ظاهرة من وجه الأرض لا يحفرون لها تحت التراب وهو عندهم عزيز لأجل البساتين. وروايته هذه تشبه ما رواه عن البصرة، وهو أن للحشوش فيها أثمانًا وافرة، وأن لها تجارًا يجمعونها فإذا كثرت اجتمع عليها أصحاب البساتين ووقفوا تحت الريح ليختبروا نتنها، فما كان منها أنتن كان ثمنها أكثر إلى آخر ما قال،

وأنشد في ذلك شعرًا لمحمد بن حازم الباهلي من جملته:

يعتِّق سلحه كي ما يغالي   به عند المبايعة التجارُ

هذا وكم من بلدة في الأرض تتمنى أن يكون لها جنان بلنسية ونخيل البصرة. ثم قال ياقوت: وينسب إلى بلنسية جماعة من أهل العلم بكل فن منهم سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد أبو الحسن الأنصاري البلنسي، فقيه صالح ومحدِّث مكثر، سافر الكثير، وركب البحر حتى وصل إلى الصين، وانتسب لذلك صينيًّا، وعاد إلى بغداد وأقام بها، وسمع بها أبا الخطاب بن البطير، وطرَّاد بن محمد الزينبي وغيرهما، ومات ببغداد في المحرم سنة ٥٤١.[٤] ا.هـ. وقد استغربنا من ياقوت كونه لم يذكر من مشاهير علماء بلنسية غير واحد، وسترى أنه نبغ منهم فيها مئات.

وجاء في صبح الأعشى: القاعدة التاسعة بلنسية، قال في تقويم البلدان: بفتح الباء الموحدة واللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح المثناة من تحت وهاء في الآخر، وموقعها أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول عشرون درجة والعرض ثمان وثلاثون درجة وست دقائق. قال في تقويم البلدان: وهي من شرقي الأندلس شرقي مرسية وغربي طرطوشة، وهي في أحسن مكان، وقد حفَّت بالأنهار والجنان، فلا ترى إلا مياهًا تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارًا تسجع، وهي على جنب بحيرة حسنة على القرب من بحر الزقاق[٥] يصب فيها نهر يجري على شمالي بلنسية.

ولها عدة منازه: منها الرصافة ومنية ابن عامر، وحيث خرجت منها لا تلقى إلَّا منازه. قال ابن سعيد: ويقال: إن ضوء مدينة بلنسية يزيد على ضوء بلاد الأندلس، وجوها صقيل أبدًا لا يرى فيه ما يكدره، ولها مضافات منها مدينة شاطبة ... إلى آخر ما قال. وفي بعض نسخ صبح الأعشى مذكورة هذه الجملة: وقد صارت الآن من مضافات برشلونة في جملة أعمال صاحبها من ملوك النصارى.

(٢) تاريخ بلنسية

قلنا: في أيام القلقشندي — صاحب صبح الأعشى — كان مضى على خروج العرب من بلنسية ١٨٥ سنة؛ لأن بلنسية سقطت سنة ٦٣٦؛ ولأن أبا العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي — مؤلف صبح الأعشى — توفي ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة سنة ٨٢١.

وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية عن بلنسية بقلم لاوي بروفنسال ما يلي: بلنسية هي المدينة الثالثة في إسبانية، عدد سكانها يبلغ ٢٥٠ ألف نسمة، وهي إلى الشرق من جزيرة الأندلس على أربعة كيلومترات من البحر المتوسط، ولها مرسى يقال له «الغراو»، وهي مربوطة بمجريط بخط حديدي طوله ٤٩٠ كيلومترًا، على أنه لو كان الخط مستقيمًا بين بلنسية ومجريط لما زاد على ثلاثمائة كيلومتر. وبلنسية مركز ولاية، وفيها رئاسة أساقفة، وموقعها يستجلب النظر في وسط محرثها الخصيب الذي يشرب من نهر «توريا Turia»، أو الوادي الأبيض كما كان يقول العرب. وبلنسية بخلاف قرطبة وطليطلة لم تفقد مكانتها الماضية، بل زادها الدهر أهمية، ولا تزال إلى يوم الناس هذا عاصمة شرق الأندلس، ويقال لهذه البلدة: بلنسية السيد Cid؛ نظرًا للدور العظيم الذي لعبه هذا البطل القشتالي في بلنسية.

ولقد بنى بلنسية الرومانيون سنة ١٣٨ قبل المسيح، وذلك أن جونيوس بروتس Brutus بعد موت الثائر فيرياث Viriathe أسكن فيها جالة من العساكر القدماء الذين لبثوا أمناء لرومة. ثم إن الأهالي انحازوا إلى سيرتوريوس Sertorius سنة ٧٥ بعد المسيح، فاجتاحها بومبي Pompèe، ثم عادت فازدهرت في زمن أغسطس، وفي سنة ٤١٣ استولى عليها القوط، وفي سنة ٧١٤ صارت بلنسية مدينة إسلامية بعد أن فتحها طارق هي والمدن التي تجاورها مثل ساقونتة وشاطبة ودانية. ولم يكن لها ذلك الشأن في دور بني أمية. وقد غلبت عليها وعلى أعمالها العروبة بنزول القيسية فيها وفي أرباضها.

وهكذا استمرت بلنسية طيلة عهد الإسلام من أعظم مراكز العربية في جزيرة الأندلس، على أنه كان يوجد في جبالها بعض قرى بربرية. وكانت بلنسية في زمن بني أمية مركز مقاطعة أو كورة، كما قال المقدسي والرازي وياقوت الحموي، وكان يقيم بها الوالي من قبل الخليفة الذي في قرطبة، ولم تبدأ بأن تكون مركز حكومة مستقلة إلَّا بعد سقوط الخلافة الأموية، فصارت من ذلك الوقت من أهم أهداف استرداد الإسبانيول للأندلس، وصار لها ذكر عظيم في التواريخ الإسبانية والعربية التي وصلت إلى أيدينا.

وكان تأسيس الحكومة المستقلة في بلنسية سنة ٤٠١ وفق ١٠١٠ على أيدي اثنين من مماليك بني عامر مبارك ومظفر، كانا إلى ذلك الوقت مفتشين للري في بساتين بلنسية. فلما سقطت الخلافة غلبا على الأمر وتقاسما سلطنة هذه الكورة[٦] ثم لم يلبث مبارك أن مات، وثار الأهالي بمظفر فطردوه، وبايعوا صقلبيًّا آخر اسمه لبيب جعل نفسه تحت سيادة قمط برشلونة. ثم آل أمر بلنسية إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن

من أحفاد المنصور بن أبي عامر، وكان قد لجأ إلى منذر بن يحيى التجيبي — صاحب سرقسطة — فلما تولى بلنسية تلقب بالحاجب لقب جده المنصور، وطالت مدته في هذه الإمارة، فكان دور أمان وسلام في بلنسية، ومات سنة ٤٥٢.

ولما تولى الخلافة في قرطبة القاسم بن حمود بادر عبد العزيز هذا إلى مبايعته، فلقَّبه بالمؤتمن ذي السابقتين، وكانت صلاته حسنة مع ملوك المسيحيين. وعند وفاته خلفه ابنه الملقب بالمظفر، وكان يافعًا؛ فكفله الوزير ابن عبد العزيز، ولم يطل الأمر حتى زحف فرديناند ملك قشتالة وليون على بلنسية، وكاد يدخلها، وخرج البلنسيون لقتاله خارج البلدة، فهزمهم؛ فاستصرخ المظفر عبد الملك المأمون بن ذي النون؛ فسار هذا إلى بلنسية وخلع أميرها الشاب، واستولى عليها، وجعل وكيلًا عنه فيها الوزير أبا بكر بن عبد العزيز، وذلك سنة ٤٥٧، وبقيت هذه الحال إلى سنة ٤٦٧ إذ مات المأمون بن ذي النون وخلفه ابنه يحيى القادر الذي اشتهر بسوء تدبيره؛ فنقضت بلنسية بيعة القادر هذا؛ ولأجل أن يقدر عليها وهو عاجز عنها لجأ إلى الفونش السادس — ملك قشتالة — واستمده لأخذ بلنسية؛ فانتهى الأمر بأن نزل له عن عاصمته طليطلة سنة ٤٧٨ وفق ١٠٨٥.

وأما بقية الحوادث والدور الذي لعبه السيد لذريق دياز آل بيفار، سواء ما كان منه حقيقة أو خرافة، فقد استوفيناه عند ذكر السيد في حرف السين من المعلمة الإسلامية.

ولما جاء المرابطون حاولوا استرداد بلنسية للإسلام إلا أنهم لم يقدروا على السيد، فلما مات سنة ٤٩٢هـ وفق ١٠٩٩م عجزت أرملته شيمان عن حفظها، فأحرقت بلنسية وخرجت منها، فاستولى عليها المرابطون في ١٥ رجب سنة ٤٩٥، وبقي المرابطون يولون عليها أمراء من قبلهم إلى أواسط القرن الثاني عشر، وإذ ذاك استقلَّت بلنسية واتَّحدت مع مرسية، وأطاعت لابن مردنيش سنة ٥٤٢، ولم يطل الأمر أكثر من أربع سنوات حتى انتقضت عليه، ثم استولى عليها الموحدون، فكانت سيادتهم عليها اسمية، وبقيت كذلك إلى أن استولى عليها النصارى في ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٢٨، وذلك بعد استيلائهم على قرطبة بسنتين.[٧] انتهى ما قاله لاوي بروفنسال بشأن بلنسية في الانسيكلوبيدية الإسلامية

وأما ما ذكره عن السيد في الانسيكلوبيدية فيتلخص فيما يلي: السيد هو أشهر أبطال الفروسية القشتالية وأحبهم إلى الشعب الإسباني، وكان له دور عظيم في إسبانية الإسلامية أثناء النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ومن الممكن تمحيص الحقيقة في

أمر هذا الرجل وإخراج ما وشِّيتْ به سيرته من الأقاصيص، فالمستشرق الهولاندي دوزي هو الذي يرجع إليه الفضل في تبيين حقيقة السيد بما نقله سنة ١٨٤٤ عن الذخيرة لابن بسَّام التي اطلع على نسخة منها كانت محفوظة في مكتبة «غوتا Gotha»، وظهر أن كتاب الفونس العالم عن حياة السيد الذي كان يظن أنه محض اختراع هو مترجم إلى العربية، والغالب أنه ترجمة كتاب لمحمد بن خلف بن علقمة اسمه «البيان الوضيع في الملم الفظيع»، كتب في زمن السيد.

وهكذا تيسَّر وضع سيرة السيد على أركان صحيحة وتجريدها من الأقاصيص الملحقة بها. فلذريق Rodrigo، دياز Diaz، آل بيفار De Vivar كان من سلالة عائلة نبيلة قشتالية، ولد في برغش؛ قيل سنة ١٠٢٦، وقيل سنة ١٠٤٠، والمعلوم عنه أنه اشتهر بالبسالة، وحارب في صف شانجه الثاني — ملك قشتالة — لما قاتل شانجه ملك نباره Navarre وبارزه أحد فرسان نباره، فتغلب عليه، ثم صار قائدًا عامًّا لجيش قشتالة؛ فلذلك تلقب بالكمبيدور Campeador، وصار العرب يقولون له «الكمبيثور» (وفي نفح الطيب القنبيذور). ثم إنه بعد ذلك نصح لذريق هذا شانجه الثاني بالاستيلاء على مملكة ليون، فاستولى عليها وأسر أخاه الفونش وحبسه، ففر الفونش هذا لاجئًا إلى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة.

ثم إنه في ٧ أكتوبر سنة ١٠٧٢ قتل شانجه ملك قشتالة في أثناء حصاره لزمورة فاجتمع فرسان قشتالة لينتخبوا ملكًا مكانه، وكانوا راغبين عن أخيه الفونش اللاجئ إلى المسلمين، ولكن لم يجدوا بدًّا من مبايعته على شرط أن يقسم لهم يمينًا بأنه لم يكن ذا يد في مقتل أخيه، وكان متولِّي تحليف اليمين لذريق دياز، وذلك في كنيسة سانتا قاديه Gadia في برغش، فكان الفونش السادس يحفظ في صدره وغرًا على لذريق من أجل هذه اليمين المهينة له، إلا أنه كان يخشاه ويريد أن يخصه بنفسه، فأزوجه شيمان ابنة عمه كونت أوبيط Obida، ثم إنه بعد ذلك أرسل الفونش السادس لذريق سفيرًا إلى المعتمد بن عباد في إشبيلية يستأدي منه الإتاوة التي كانت مفروضة عليه لقشتالة في مقابلة محالفة اسمية، وفي أثناء وجوده هناك اقتتل بنو عباد أصحاب إشبيلية وبنو زيري أصحاب غرناطة التي كان أميرها عبد الله بن باديس، فوقعت الواقعة في مدينة قبرة Cabra، وخاض لذريق البيفاري فيها، وأسر جملة من فرسان المسيحيين الذين كانوا في صف ابن زيري، ومنهم الكونت غرسيه أوردونه من العائلة الملوكية الذي أطلق لذريق سبيله.

فلما رجع من مهمته لدى المعتمد بن عباد اتهمه الفونش السادس بأنه غلَّ في بعض ما حمله من الهدايا باسم الفونش، وانتهز أول فرصة للانتقام منه وهي أنه غزا بلاد طليطلة بدون إذنه، فأخرجه الملك من مملكته، ومن ذلك الوقت بدأت معيشة لذريق المترددة تارة يقاتل المسلمين وطورًا يقاتل بني ملته بحسب ما يعن له. وكان قد أحب الاتصال بقمط برشلونة فلم يكن له حظ بقربه، فلوى عنانه نحو أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر صاحب سرقسطة، فضمَّه هذا إلى جيشه مع أصحابه من المرتزقة، ثم مات المقتدر فخلفه ابنه يوسف المؤتمن أميرًا على سرقسطة، بينما أخوه المنذر يتولَّى دانية وطرطوشة ولاردة، فلم تلبث الحرب أن وقعت بين الأخوين، فكان لذريق بيفار خادمًا للمؤتمن، وكان المنذر معتمدًا على شانجه راميره ملك أراغون ورامون بيرانجه الثاني قمط برجلونة. والتقى الجمعان بقرب حصن المنار إلى الشمال الغربي من لاردة، فانهزمت الفئة الأخرى بفضل شجاعة لذريق، وأخذ قمط برشلونة أسيرًا فعفَّ عنه وأطلقه، ودخل سرقسطة في فرح عظيم، وأنعم عليه ابن هود وغمره بالصلات والهدايا.

وصارت له المكانة العليا، وجعل المسلمون يلقبونه «بسيدي»، وكان يترجمها الإسبانيول بجملة Mio Cid، ثم بطول الاستعمال استغنوا عن لفظة «ميو»، فبقيت «سيد» وحدها؛ فصار هذا لقبه. ثم إنه تظفَّر في وقعة ثانية تحت لواء المؤتمن بن هود. ومات المؤتمن فخلفه ابنه المستعين الثاني والسيد في خدمته، ومن ذلك الوقت فكر السيد في الاستيلاء على بلنسية التي يليها عبد العزيز العامري من أحفاد المنصور بن أبي عامر، وكانت انضمت إلى طليطلة سنة ١٠٦٥.

ولما تولى ملك طليطلة القادر بن ذي النون بعد وفاة أبيه المأمون أرسل واليًا على بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز الذي انتفض على ابن ذي النون، وتحالف مع الفونش السادس، غير أن الفونش خذله في سنة ١٠٨٥، وباع بلنسية من القادر بن ذي النون، وأرسله إلى بلنسية، وأرسل معه جيشًا قشتاليًّا بقيادة الفارفانز Alvar Fanez [٨] وهكذا تم دخول القادر إلى بلنسية، إلا أن أهالي هذه البلدة ثاروا على القادر، فلما أجاز يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين إلى إسبانية وهزم المسيحيين في معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦)، استدعى الفونش قائده السالف الذكر من بلنسية، واستغاث القادر بن ذي النون بالفونش وبالمستعين صاحب سرقسطة لأجل رد المنذر صاحب طرطوشة الذي كان يوالي الغارات على بلاده، فكان المستعين صاحب سرقسطة يطمح إلى ملك بلنسية، ويفكر في فتحها بواسطة السيد لذريق بن بيفار الذي وعده المستعين بالتخلي له عن جميع غنائم الفتح. إلا أن هذا الاقتراح لم يرق السيد محافظة على ولاء الفونش.

وفي سنة ١٠٨٩ ذهب السيد إلى قشتالة، واستقبل باحتفال عظيم وأكرم الفونش مثواه. ثم خرج السيد إلى شرق الأندلس ومعه سبعة آلاف مقاتل، فكان المستعين بن هود قد انتهز فرصة غيابه وتحالف مع بيرانجه قمط برشلونة الذي ذهب يحاصر بلنسية، فلما أقبل السيد نكص قمط برشلونة على أعقابه؛ فعرض السيد على القادر صاحب بلنسية بأن يحمي له بلاده ببدل عشرة آلاف دينار كل شهر، وفي هيعة ذلك أرسل الفونش إلى السيد يستنفره لقتال يوسف بن تاشفين فلم يجب نداءه، وسار سيرة رئيس عصابات غير متقيد بأمر أحد، وعاث في جميع شرق الأندلس من أوريولة إلى شاطبة، وزحف نحو طرطوشة، وأجبر صاحبها على طلب حمايته، ثم هزم قمط برشلونة، وعقد معه معاهدة، واضطر صاحب برشلونة أن يسترضيه بمبالغ من المال كما أنه فرض إتاوات على جميع ملوك المسلمين الذين كانوا في شرقي الأندلس، مثل ابن رزين صاحب السهلة، ومثل أمير البونت، وأمير مربيطر، وأمير إشكرب، وأمير شارقة، وأمير المنارة[٩] وكان الخلاف يزداد بين ملك قشتالة الفونش السادس والسيد إلى أن أجمع الفونش إخراج السيد من بلنسية، فزحف بجيش لحصار المدينة وكان يعاونه من البحر أسطول جنوة وأسطول بيزة من إيطالية، وكان السيد حينئذ يحارب ملك أراغون المسيحي في صف ملك سرقسطة المسلم، فلما بلغه كون الفونش باشر حصار بلنسية ترك سرقسطة وذهب فشنَّ الغارة على «ناجرة» و«وكلاهُرَّة» من مقاطعة عدوه غرسيه أوردونه Garcia Ordonez، ودمر مدينة «لوكروني»؛ فاضطر الفونش إلى رفع الحصار عن بلنسية.

وكان السيد قد ترك في بلنسية نائبًا عنه لدى صاحبها القادر بن ذي النون رجلًا مسلمًا يقال له ابن فرج؛ ففي سنة ١٠٩٢ ثار الأهالي بإغراء القاضي ابن جحاف وقتلوا ابن الفرج، وغلب على الأمر القاضي ابن جحاف يؤيده نائب من قبل دولة المرابطين، فانتظر السيد إلى السنة التالية، وزحف بجميع عساكره قاصدًا بلنسية، فاستولى على أرباضها مثل «بلنوبة Villanueva» و«الكدية Alqudyia»، ورضي بمفاوضة ابن جحاف الذي كان رئيس الجماعة في بلنسية، لكنه لم يرفع الحصار عن المدينة.

وما زال يضيق عليها حتى عضها الجوع بأنيابه؛ فاضطر القاضي رئيس الجمهورية البلنسية إلى تسليمها، ودخلها السيد في ١٥ يونيو سنة ١٠٩٤، ولكنه لم يأت الأهالي بأذى، وكان يعاملهم بالرعاية، وكانوا هم طائعين له، إلا أنه أمر بإحراق القاضي ابن جحاف حيًّا انتقامًا منه.

وجاء جيش المرابطين لاسترداد البلدة؛ فخرج إليهم وهزمهم، وبعد ذلك انحصر همه في بسط سلطانه على النواحي المجاورة لبلنسية؛ فاستولى على المنارة ومربيطر سنة

١٠٩٨، وكان قد دخل في سن الشيخوخة وشعر بانتهاء همته، وحول المسجد الأعظم إلى كنيسة، وأسس في بلنسية أسقفية عين لها المطران جيروم بري غورد Péri gord، ثم صالح سيده الفونش السادس ملك قشتالة وأزوج بنتيه من أبناء الملوك؛ فإحداهما مارية تزوجها رامون بيرانجه الثالث، والثانية كراستينه تزوجها راميرو ولي عهد نباره.

ثم فكر السيد في فتح شاطبة التي كانت لا تزال بأيدي المرابطين، فانهزم جيشه في واقعة شاطبة، واستشاط غضبًا والتاع حزنًا؛ فمات سنة ١٠٩٩، وقامت مقامه زوجته شيمانة، فهاجمها المرابطون مدة سنتين، ثم تقدم القائد المزدلي اللمتوني فحصر بلنسية في أواخر سنة ١١٠١، وضيق عليها، واستمر الحصار سبعة أشهر في أثنائها حاول الفونش السادس الدفاع عنها فلم يفز بطائل، فنصح لشيمانة بترك بلنسية؛ فخرجت منها ولكن بعد أن أحرقتها، فلما دخلتها جيوش المرابطين وجدتها رمادًا. ولما خرجت شيمانة من بلنسية احتملت جسد زوجها معها ودفنته بقرب برعش في دير «سان بدروه كردينيه»، وماتت شيمانة في سنة ١١٠٤ ودفنت عند زوجها. انتهى كلام لاوي بروفنسال عن السيد في الأنسيكلوبيدية الإسلامية.

وقد كنا حررنا ترجمة السيد هذا في خلاصة تاريخ الأندلس الذي ذيلنا به ترجمتنا لرواية ابن سراج، فقلنا: أما مملكة قشتالة أجلُّ ممالك النصرانية في الأندلس، فإن رافع منارها فرديناند الأول الملقب بالكبير الذي انتزع كثيرًا من أملاك المسلمين، وكان معاصرًا لابن عباد، وقسم ممالكه بين أولاده الثلاثة؛ فأعطى شانجه مملكة قشتالة، والفونش أو أذفنش مملكة ليون، وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا أو جليقية، إلَّا أن الفونش تمكن في الآخر من ضم الجميع إلى ملكه وصار خلفًا لأبيه، وهو الذي استولى على طليطلة قلب إسبانيا وجعلها مقر سلطانه، وفي أيامه ظهر السيد بطل الإسبانيين الذي تنسب إلى ذريته عروس رواية شاتوبريان التي ذيلنا عليها هذا التاريخ المختصر، ولما كان التناسب الذي هو شرط الحسن يقتضي الإفادة عن آل بيفار أجداد أدماء بمثل ما أفدنا عن آل سراج أجداد ابن حامد، رأينا أن نلمح إلى شيء من أخبار السيد حسبما ذكر المحققون.

فنقول: هو السيد لذريق بن دياغو بن لاين نوتاز بن لاين كالفو، من كبار قضاة قشتالة، تزوج السيد بشيمانة، وولد دياغو لذريق الذي مات في حياة والده وابنتين إحداهما تزوجت بابن ملك نافار والأخرى بابن ملك أراغون.

وشيمانة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دوغورماز من فحول قواد الملك فرديناند؛ وسبب اقتران السيد بها أن والدها كان قد صفع دياغو والد السيد وهو بالغ من الكبر

عتيًّا فلم يمكنه أخذ ثأره بيده، لكن ولده لذريق أخذ السيف ودعا غورماز إلى البراز فقتله، ولما لم يكن في قتل البراز جناح جاءت ابنته شيمانة تشكو إلى الملك فرديناند كون لذريق يأتي كل يوم وبازه على يده، فيطلقه في بيت حمامها فيفتك بالحمام ويذيق فراخها كئوس الحمام، وقد بعثت تقول له في ذلك، فجاوبها بالوعد قائلًا: إن الملك الذي يسمح بقهر اليتيم ولا يقتص ممن اعتدى عليه لا يليق أن يسمى ملكًا.

فتحير فرديناند في أمره؛ لأن لذريق كان أقوى عضد له في مواقفه مع المسلمين، والإسبانيون يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الإسلام، وبعد أن قادهم بخزائم الاستكانة منَّ عليهم بإطلاق سبيلهم ودعوه سيدهم، فلم يجد فرديناند مخرجًا من الأمر إلا بتزويج السيد بشيمانة.

وأما نسبة السيد إلى بيفار فولادته في ذلك القصر، وهي كما لا يخفى عادة الإفرنج في ألقاب الشرف. ومن شهير أفعال السيد أنه لما اصطلت الحرب بين قشتالة وأراغون لعهد فرديناند وقع الاتفاق بين هذا الملك وبين أخيه على تحكيم السيف وإبراز قرنين بالنيابة عنهما من أبطالهما، وإعطاء الحق لمن منهما حقت له الغلبة، فكان السيد نائبًا عن ملك قشتالة، وكان مارتين غوماز نائبًا عن صاحب أراغون أخيه، فعند اللقاء فتك السيد بخصمه وبرد الحق لفرديناند دون أخيه.

وفي هاتيك الأيام كان هنري الثاني إمبراطورًا لألمانية، فسمت نفسه إلى إدخال إسبانية في طاعته؛ لكونها من ولايات سلطنة الغرب، ويقال: إن البابا فيكتور الثاني مالأه على مقصده، فلما أبلغ ذلك الإمبراطور والبابا إلى فرديناند مال إلى الخضوع خوفًا منهما، لكن السيد عارض في الأمر وجمع عسكرًا وزحف به إلى طلوزة قاصدًا لقاء العدو، فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف إمبراطور ألمانية عن دعواه.

ولما مات فرديناند لم يكن لشانجه ولده ساعد أشد من السيد، وهو الذي نصره في وقعة «غولبيجاره»، وكان بجانبه عندما قتل في زامورة. وفي مدة الفونس أخيه انصرف السيد إلى مرابطة المغاربة، ووالى عليهم الهزائم حتى لقب بالكمبيادور، ومعناه بلغتهم قائد المعسكر. إلَّا أن ما حازه من الشهرة أثار عليه حسد الأقران وضغائن الأنظار؛ فانقبض بنفسه عن الحضرة، وسكن البادية، وبلغه أثناء ذلك أن مسلمي سرقسطة والثغر الأعلى اجتاحوا أراضي قشتالة، وأثخنوا في الإسبانيول؛ فنهد إليهم وساق منهم سبعة آلاف أسير، واكتسح بسائط طليطلة، وكانت في يد المأمون صاحبها، فشكا إلى الأذفونش خرق الصلح بدون موجب، فاستشار الملك خاصته وأجمعوا على نفي السيد،

وضربوا له أمدًا تسعة أيام لأجل الخروج، فأطاع، ولكنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته؛ فأعمل في الحيلة وأرسل صندوقين مفعَمين رملًا إلى بعض اليهود مؤكدًا أنهما مملوءان حليًّا، وأخذ عليهما مبلغًا من الذهب، ثم وفى دينه بعد ذلك بما حازه من الغنائم أثناء غزواته في بلاد الإسلام.

وبقي مدة بعيدًا عن الحضرة إلى أن رضي عنه الملك وأعاده وأذن له في الغزو وحده، فابتنى لنفسه قصرًا بقرب أراغون لم يزل معروفًا باسم صخرة السيد إلى الآن، وجعلها لنفسه وكرًا يأوي إليه وينطلق منه للغزو. وكان أكثر ما يغزو مملكة ابن عباد؛ لكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، على أنه لما أراد ابن تاشفين استخلاص ملك إشبيلية من يد ابن عباد، واستنجد الطاغية، أرسل إليه عشرين ألفًا، قيل: إنه عقد عليهم للسيد، لكن لم ينالوا له وطرًا؛ إذ كان في المرابطين سادات بدل السيد.

ثم زحف السيد بعساكره نحو بلنسية وضيَّق عليها الحصار، وكان فيها القاضي أحمد بن جعفر المعافري بحسب رواية بعض مؤرخي الإفرنج ومنهم لافاله. والذي في كتب العرب أن الذي كان فيها هو القاضي أبو أحمد بن جحاف، واتفقت روايات العرب والإفرنج أن لذريق دخلها صلحًا وعاهد القاضي، لكنه لم ينشب أن أحرقه بالنار بعد الاستيلاء؛ قيل: لكون السيد طلب إليه أن يدله على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون فأقسم أنها ليست عنده؛ فأحرقه وعاث في بلنسية. وفي ذلك يقول ابن خفاجة الشاعر المشهور:

عاثت بساحتكِ الظبا يا دارُ	ومحا محاسنك البلا والنارُ
فإذا تردد في جنابك ناظر	طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار

وورد في نفح الطيب ما نصه بالحرف «وكان استيلاء القنبطور» (تحريف القمبدور أو الكمبدور لقب السيد) سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة، وقيل في التي قبلها، وبه جزم ابن الأبار قائلًا: فتم حصار القنبطور إياها عشرين شهرًا، وذكر أنه دخلها صلحًا. وقال غيره: إنه دخلها وحرقها وعاث فيها، وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر بن البتاء الشاعر المشهور — رحمه الله تعالى وعفا عنه — فوجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

الأمير أبا محمد مزدلي، ففتحها الله على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وتوالى عليها أمراء الملثَّمين. انتهى.

وفي حرق قاضي بلنسية قد أتى «لافاله» بجميع أصناف المعاذير؛ تغطية لعمل القنبطور، واتهم القاضي بالخيانة. وأنكر أن يكون السيد فعل ذلك بسبب الذخيرة، بل لمكيدة لا بد أن يكون اطلع عليها، ورمى مؤرخي العرب بتشنيع سيرة السيد تعصبًا منهم وكراهية لاسمه لما كان عليه من الغيرة على النصرانية.

وذهب غير واحد من المؤرخين الأوروبيين إلى غير ذلك، ومنهم ستانلي لانبول الإنكليزي، وزعموا أن مسألة فضائل السيد من وضع قصَّاصي الإسبانيول، وهاك بعض ما يقوله المؤرخ المذكور مما يرتبط بهذا المقام وهو:

> إن من الغلط البيِّن والخطأ المتعين أن يظن أن مقاتلة قشتالة وليون كانوا على ما يرام تخييله من الشهامة والشرف وآداب الفروسية، وأن يتصور أنهم على شيء من دماثة الأخلاق والتهذيب. والصحيح أن مسيحيي الجهة الشمالية كانوا على نقيض ما كان عليه أقرانهم المغاربة؛ فإن العرب الأجلاف لأول نزولهم بإسبانية قد تهذبوا وتمدنوا بالأندلس فيما بعد، وباستعدادهم الفطري مالوا إلى التأنق والرفاهية والتحقق بالحضارة العالية، وعكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الأدب، فكانت أذواقهم في أسمى مكانات السلامة وإحساساتهم في أقصى مظانِّ الرقة كما هو شأن من تحقق بالمدنية وذاق حسن المعيشة وغلب عليهم التأمل والشعر، فكانوا يؤدون من الجوائز على منظومة واحدة ما يكفي لميرة كتيبة كاملة، ولم يكن الأمير الظالم منهم والملك الغاشم السفاح يأنف من الآداب والمعارف، فالفصاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والأدب من الأمور الطبيعية عند هذه الأمة، وقد أوتوا ملكة الانتقاد والتمييز ولطف الذوق في نقد أجزاء الكلام وتفاصيل القول مما نعرفه في زماننا لأمة الفرنسيس.
>
> وأما نصارى الشمال فعلى خلاف ذلك كله؛ فإنهم وإن كانوا سلائل أمة قديمة، فحالتهم كانت حالة أمة حادثة أجلاف جفاة أجانب عن العلم منقطعي السبب في العرفان. نعم كان عند بعض أمرائهم مسكة من التربية، لكنهم في هذا الأمر مساكين في جانب أمراء العرب. وإنما كان المسيحيون هناك أنجاد حرب وأحلاس نزال يحبُّون الهيجاء مثل أقرانهم المسلمين، لكنهم أقوم منهم

عليها وأصبر على تحمل مشاقها. ولم يكن عندهم ما تصوره لنا هذه الخيالات الشعرية من أخلاق الفروسية، بل كانوا ضرَّابي سيف. انتهى.

وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالأجرة وتقديم من يزيد لهم على غيره في الخدمة، وقد رأينا كيف أن الوزير المنصور استخدم جمًّا منهم في حرب ليون وفتح صانتياغو، وتاريخ شمالي إسبانية مملوء بشواهد ذلك من استخدام أمراء المسلمين لفرسان النصارى في الجيش.

ومما يؤيد قول هذا المؤرخ الإنكليزي ما ورد في تاريخ المنصور بن أبي عامر من أنه في انكفائه عن باب شنت ياقب بتلك الغزوة التي لم يبلغ مثلها أحد وقع في عمل القواميس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها، ومرَّ مجتازًا حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم. انتهى.

ويظهر أنهم لم يقتصروا في الخدمة على ملوك الأندلس، بل ربما أجازوا إلى المغرب أجنادًا عند ملوكه. وابن خلدون يروي أنه كان يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان قد استخدم طائفة منهم مستكثرًا بمكانهم مباهيًا بهم في المواقف والمشاهد.

ولنعد إلى كلام ستانلي لانبول؛ قال: «ولكن لم يوجد من هؤلاء من بلغ شهرة السيد بطل إسبانية، واسمه لذريق دياز البيفاري، ولقب بالسيد لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعوه به المغاربة، وهو مخفف عن سيِّد بالتشديد[10] إلى أن قال: وهو محارب شهير، كان يتقدم الصفوف مثل جلياد أمام جيوش بني إسرائيل، ولم يُعرف أحد طَارَ له من الشهرة في الغزو أكثر من «سيدي القمبدور» كما كانوا يدعونه، كما أنه ليس من السهل أن يقرر الإنسان الحقيقة ويمحص الواقع مما يحاط به اسم السيد من الوقائع؛ لأن مؤرِّخي النصارى يقولون: إنه يستحيل الإحاطة بوصفه، وإن الأناشيد الإسبانيولية تتوج السيد بالفضائل والكمالات، وتنسى أن تلك الفضائل كانت مجهولة أو غير معتبرة عند نفس السيد ومعاصريه، وكتَّاب العرب الذين هم غالبًا أحسن إنصافًا للحقوق تجدهم قد شددوا الحكم على ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذاقهم من الوبال.» قلت: وأي تشديد فإنك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردَفًا باللعنة في نفح الطيب، وبأي شعر نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلدة.

قال ستانلي لانبول: «ونحن في عصر انتقاد مضطرون إلى طرح المفرح من أقاصيص مؤرخينا التي تليق بالأحداث، والسيد لم يستثنَ من الانتقاد، بل إن أحد المستشرقين الراسخين ألف عنه كتابًا مستقلًّا قرر فيه أن السيد لم يكن ذلك البطل الذي ظن أنه

كان، بل رجلًا غدَّارًا سفَّاكًا نهَّابًا فتَّاكًا ناكث العهد ناقض الذمام. كذلك الأستاذ دوزي — مؤرخ إسبانية الجليل — ذهب إلى أن قصة السِّيد هذه اختراعية، وكتب عن السيد الحقيقي نقيض ما ورد في تلك الأقاصيص، إلى أن قال: وغير صحيح أنه كان حامي الدين؛ فإنه قاتل في مصاف المسلمين كما قاتل في مصافِّ النصارى، وذكر أنه استولى على بلنسية بسبب التحريك والفرقة بإعانة ملك سرقسطة ودخلها صلحًا.» وهذا طبق ما ذكر مؤرخو العرب من أن الذي أنهضه هو يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة.

وأما «لافاله» فيقول في شأنه: إنه هو بطل الإسبانيول المقدم حبيب الشعب الذي يحلونه بجميع فضائل الأبطال، ويتغنون بوقائعه في الأشعار والأزجال، فإذا شاء المؤرخ معرفة الحقيقة من الوهم أشكل عليه الأمر بما يعرض له من الاختلاط، فقد يقع أن المؤرخ لأجل الخروج من حيرته ينتهي إلى إنكار وجود المؤرَّخ عنه أصلًا، كما أنكر «ماسدو» وجود السِّيد قمبدور، ولم يبلغ الشك من غيره درجة إنكار وجوده، بل أنكروا عليه المأثور من الفضائل، وتخيلوه زعيمَ أشقياء ورئيس عصابة شر، بعد أن جعلته القصص مثالًا تامًّا للفضل والشهامة والنبل.

فأنت تجد أن السيد ككثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة منهم من جعله سيدًا غطريفًا (بالتشديد)، ومنهم من جعله سيدًا عملسًا (بالتخفيف). ومات السيد سنة ١٠٩٩، وهي التي فتح الصليبيون فيها بيت المقدس. وبعد موته عادت بلنسية إلى الإسلام، وبقيت زمانًا حتى استولى عليها جقوم كما ذكرنا سابقًا، وحملت جثة السيد محنطة على جواده المشهور وبيده أحد سيفيه المسمَّى تيزونه، وقدم نعشه في الجمع كما كان هو مقدمًا في الحروب، ودفن في كنيسة ماربطرس دوكردنه، وماتت شيمانة امرأته بعده بسنتين، وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحملها ملوك قشتالة في حروبهم تيمنًا بالنصر، ورواية كورنيل المسماة بالسيد أشهر من «قفا نبك». انتهى.

فالقارئ يمكنه أن يقابل بين ما كتبناه في خلاصة تاريخ الأندلس من تسع وثلاثين سنة وبين ما نقلناه الآن — ولا نزال ننقله — عن علماء العرب والإفرنج، ولم يبلغ أحد في تمحيص قضية القنبيذور الملقب بالسيد ما بلغه العلامة شيخ المستشرقين دوزي الهولاندي، وسنأثُر كثيرًا مما قاله وما وصل إليه من الاستنتاج الدقيق بعد مقابلته الروايات بعضها ببعض، كما أننا سنذكر الآن كلام ابن بسَّام الذي كان عليه أكثر اعتماد دوزي في نقض ما نقضه من مزاعم الإسبانيول المتعلقة بمعالي أخلاق السيد. ولقد

كان دوزي وقف على نسخة من «ذخيرة» ابن بسَّام، وذلك في أثناء وجوده بلدة غوتة Gotha صيف سنة ١٨٤٤؛ إذ عثر على مخطوط عربي رقمه ٢٦٦ عليه عنوان يفيد أنه قسم من نفح الطيب للمقري، فلما تصفَّح هذا المخطوط علم أن هذا العنوان خطأ، وأن المخطوط هو القسم الأول من الجزء الثالث من «الذخيرة» لابن بسَّام، وهي كتاب تراجم للأدباء الذين نبغوا في الأندلس في القرن الخامس للهجرة؛ قال دوزي: فما تناولت الكتاب ومضيت في قراءته إلا وجدت قطعة مهمة وافية تتعلق بالقنبيذور يعلم أهميتها من عرف أن ابن بسَّام قد كتب هذا الكتاب في إشبيلية سنة ٥٠٣ للهجرة أو ١١٠٩ للمسيح؛ أي بعد موت السيد بعشر سنوات لا زيادة، فهذا التاريخ للسيد هو أقدم تاريخ وجد في الأيدي، وهو أقدم باثنتين وثلاثين سنة من السيرة اللاتينية التي كتبت على السيد في جنوبي فرنسة، كما أنه يزيد في قيمة كتابة ابن بسَّام استشهاده بشاهد عرف السيد معرفة شخصية.

وهذه القطعة من سيرة السيد واقعة في فصل يدور على ابن طاهر أمير مرسية المخلوع، الذي بعد أن فقد إمارته على مرسية جاء فتوطَّن بلنسية. وسأجتهد في ترجمة هذا المبحث كله برغم ما تخلله من العبارات الشعرية التي تصعب ترجمتها بلغة عصرية، وسأبلغ في ذلك الجهد ما أمكن؛ لأني واقع بين المحافظة على النص الأصلي بالعربي من جهة وبين المحافظة على أساليب اللغة الإفرنسية من جهة أخرى. انتهى.

ونحن لسنا في حاجة إلى ترجمة الترجمة التي كتبها دوزي، وإنما ننقل كلام ابن بسام بنصه العربي. وقد ذكر دوزي أنه اطلع على نسخة ثانية من الجزء الثالث من ذخيرة ابن بسَّام اقتناها المسيو «غايانكوسن Gayangos» الذي اشتراها من إفريقية، فبالمقابلة بين النسختين أمكنه تصحيح ما فيهما من أغلاط النسَّاخ. وأما الكتاب الذي ورد في الذخيرة لابن طاهر مرسلًا إلى ابن عمٍّ لابن جحَّاف، فيزيده تأييدًا وروده في كتاب «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان، ويقول دوزي أنه نقله بعد مقابلة ست نسخ بعضها ببعض. وهذا نص الكتاب:

> «وله من رقعة إلى ابن جحاف أيام ثورة ابن عمه ببلنسية»: قد ألبستني — أعزك الله — من برِّك ما لا أخلعه وحمَّلتني من شكرك ما لا أضيعه، فأنا أستريح إليك استراحة المستنيم، وأصرف الذنب على الزمن المُليم، وإن ابن عمك — مد الله بسطته — لما ثار ثورته التي ظن أنه قد بلغ بها السماك، وبذَّ معها

الأفلاك، نظر إليَّ متخازرًا متشاوسًا، وتخيَّلني حاسدًا أو منافسًا، ولعن الله من حسده جمالها:

فلم تكُ تصلح إلَّا له　　ولم يكُ يصلح إلا لها

ثم تورَّم عليَّ أنف عزَّته، فرماني بضروب محنته، وفي كل ذلك أتجرَّعه على مضضه، وأتغافل لغرضه، وأطويه على بلله، وما انتصر بشيء سوى عمله، إلى أن رأى اليوم بسوء رأيه أن يزيد في تعسُّفه وبغيه، فاستقبلتُ من الأمر غريبًا ما كنتُ أحسبه ولا بان إليَّ سببه، ولما جاءه رسولي مستفهمًا عبس وبسر، وأدبر واستكبر، فأمسكت محافظةً للجانب وعملًا على الواجب، لا أن هيبة أبي أحمد قبضتني ولا أن مبرَّته عندي اعترضتني، وأقسم بالله حِلْفَة برٍّ لو الأيام قذفت بكم إليَّ وأنا بمكاني لأوردتكم العذب من مناهلي، وحملت جميعكم على عاتقي وكاهلي، ولكن الله يعمر بكم أوطانكم، ويحمي من النوب مكانكم، ويحوط هذه السيادة الطالعة فيكم البانية لمعاليكم ... إلخ.

ثم قال ابن بسام: ومُدَّ لأبي عبد الرحمن بن طاهر هذا في البقاء حتى تجاوز مصارع جماعة الرؤساء، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يدي الطاغية الكمبيطور — قصمه الله — وجعل ذلك الثغر في قبضة الأسر سنة ٤٤٨،[١١] ومنها كتب رقعة إلى بعض إخوانه يقول فيها: كتبت منتصف صفر وقد حصلنا في قبضة الأسر بخطوب لم تَجْرِ في سالف الدهر، فلو رأيت قطر بلنسية — نظر الله إليه وعاد بنوره عليه — وما صنع الزمان به وبأهليه لكنت تندُبه وتبكيه؛ فلقد عبث البِلى برسومه وعفى على أقماره ونجومه، فلا تسأل عما في نفسي وعن نكدي ويأسي، وضُممت الآن إلى الافتداء بعد مكابدة أهوال ذهبت بالذماء، وما أرجو غير صنع الله الذي عوَّد وفضله الذي عهد، وساهمتك مساهمة الصفيِّ؛ لما أعلم من وفائك وتهمُّمك الحفيِّ، مستمطرًا من تلقائك دعوة إخلاص، على أنها عسى أن تكون سببًا إلى فرج وخلاص بإذن الله، فهو — عز وجهه — يقبل الدعاء من داعيه، وما زال مكانك منة ترى البركة فيه. ا.هـ.

(٣) ما قاله ابن بسام في وقائع السيد في بلنسية

قال أبو الحسن (أي ابن بسام): وإذ قد انتهى بنا القول إلى ذكر بلنسية فلا بد من الإعلان بمحنتها والإتيان بنبذ من أخبار فتنتها التي غرَّب شأوها في الإسلام، وتجاوز عفوها جهد الكروب العظام، وذكر الأسباب التي جرت جرائرها، وأدارت على المسلمين دوائرها، والإشارة باسم من سلك في طريقها ونهج، ودخل من أبواب عقوقها وحرج.

(٣-١) ذكر الخبر عن تغلب العدو عليها وعودة المسلمين إليها

قال أبو الحسن: ونذكر إن شاء الله في القسم الرابع نُكَتًا وجوامع تؤدي إلى كيفية تغلُّب أذفنش طاغية طاغوت الجلالقة قصمها الله على مدينة طليطلة، واسطة الملك وأشمخ ذرى الملك بهذه الجزيرة، وأشرح الأسباب التي ملَّكته قيادها ووطأته مهادها حتى اقتعد صهوتها وتبحبح[١٢] ذروتها، وإن يحيى بن ذي النون المتلقب من الألقاب السلطانية بالقادر بالله كان الذي هيج أولًا نارها وأجَّج أُوارها، وكان عندما خُلِّي بين أذفنش وبين طليطلة — جدَّد الله رسمها وأعاد إلى ديوان المسلمين اسمها — قد عاهده على أن يعيد له صعب بلنسية ذلولًا وأن يمتعه بنصرتها وتملك حضرتها ولو قليلًا، علمًا منه أنه أسير يديه وعيالٌ عليه، فصارت تهرُّه[١٣] المعاقل وتبرأ منه المراحل، حتى استقر بقصبة قونكة عند أشياعه بني الفرج حسبما نشرحه في القسم الرابع، إن شاء الله، وهم كانوا ولاة أمره وأوعية عُرفه ونكره، بهم أولًا صدع وإليهم أخيرًا نزع، وطفق يداخل ابن عبد العزيز بمعاذير يلفقها وأساطير ينمِّقها، وأعجاز من الباطل وصدور يجمعها ويفرِّقها، وابن عبد العزيز يومئذ يضحك قليلًا ويبكي كثيرًا ويظهر أمرًا ويخفي أمورًا، والفلك يدور وأمر الله ينجد ويغور، وورد الخبر بموت ابن عبد العزيز أثناء ذلك، واختلاف ابنيه بعده هنالك، فانسلَّ ابن ذي النون إلى بلنسية انسلال القطا إلى الماء، وطلع عليها طلوع الرقيب على خلوات الأحباء، وانتهجت السبيل بين ملوك أفقنا وبين أمير المسلمين — رحمه الله — على ما قدَّمنا ذكره سنة ٧٩، وصدم أذفنش الطاغية — قصمه الله — تلك الصدمة المتقدمة الذكر يوم الجمعة، فرجع — لعنه الله — وقد هيض جناحه، وركدت رياحه، وتنفس خناق يحيى بن ذي النون هذا، فتنسَّم روح البقاء، وتبلغ بما كان بقي له من ذماء، ودخل من معاقدة أمير المسلمين فيما دخل فيه معشر الرؤساء، ولم يزل إدبارهم على ما ذكرنا يستشري وعقاب بعضهم إلى بعض تدب وتسري، حتى أذن الله

لأمير المسلمين[١٤] في إفساد سعيهم، وحسم أدواء بغيهم، والانتصار لكواف[١٥] المسلمين من فعلهم الذميم، ورأيهم الأثيم؛ فشرع في ذلك على ما قدمناه سنة ٨٣؛ فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزدان وتختال، واستمر ينثر نجومهم ويطمس رسومهم باقي سنة ٣ وسنة ٤ بعدها، وفي ذلك يقول الأديب أبو تمام بن رياح:

كأن بلادهم كانت نساءً تطالبها الضرائر بالطلاقِ

وفي ذلك القول يقول أبو الحسين بن الجد، وأراه عرَّض بصاحب ميورقة بعد خلع بني عباد:

ألا قل للذي يرجو منامًا بعيدٌ بين جنبك والفراشِ
أبو يعقوب من حدثتَ عنه فرش سهم العداوة أو فراشِ
إذا رفش القضاء جبال رضوى فكيف تراه يصنع بالفراشِ؟!

ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزي إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة بعساكر أمير المسلمين تُقْبِل من كل حدب، وتطلع على أطرافه من كل مرقب آسَدَ كلبًا من أكلُب الجلالقة يسمى برذريق، ويدعى بالكمبيطور، وكان عقالًا وداءً عضالًا له في الجزيرة وقائع على طوائفها بضروب المكروه اطلاعات ومطالع، وكان بنو هود قديمًا هم الذين أخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل، وسعيهم المذموم المخذول، وسلطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أنجادها، ويركز علمه في أفلاذ أكبادها، حتى غلظ أمره وعمَّ أقاصيها وأدانيها شرُّه، ورأى هذا منهم حيث خاف وهي ملكه وأحس بانتثار سلكه أن يضعه بينه وبين سرعان عساكره أمير المسلمين، فوطَّأ له أكناف بلنسية، وجبا إليه المال، وأوطأ عقبه الرجال، فنزل بساحتها وقد اضطرب حبلها وتسرَّب أهلها؛ وذلك أن الفقيه أبا أحمد بن جحَّاف متولي القضاء بها يومئذ لما رأى عساكر المرابطين تترى، وأحسَّ بهذا الطاغية لعنه الله من جهة أخرى، امتطى صهوة العقوق، وتمثل من فرص اللص ضجة السوق، وطمع في الرئاسة بخدع الفريقين، وذهل عن قصة الثعلب بين الوعلين؛ فاستجاش لأول تلك الوهلة لُمَّةً يسيرة من دعاة أمير المسلمين، فهجم بهم على ساحة ابن ذي النون الجافي على حين من غفلته وانفضاض

من جملته، واستشراء من علته؛ حيث لم يكن له ناصر إلا الشكوى ولا هادل[١٦] إلا صدر العصا، فقتله — زعموا — بيد رجل من بني الحديدي طلب بذَحْل عما كان هو قتل من سلفه، وهدم من بيوت شرفه، في خبر سيأتي ذكره ويشرح بمشيئة الله في موضعه من هذا الكتاب أمره. وفي قتله لابن ذي النون يقول أبو عبد الرحمن بن طاهر:

أيها الأخيف[١٧] مهلًا فلقد جئت عويصا
إذ قتلت الملك يحيى وتقمصت القميصا
رُبَّ يوم فيه تجزى لم تجد عنه محيصا

ولما تم لأبي أحمد شأنه، واستقر به على زعمه سلطانه، وقع في هراش وتفرقت الظباء على خداش[١٨] ودُفع إلى النظر في أمور سلطانية لم يتقدم قبل في غوامض حقائقها، وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها ولا بالدخول في ضنك مآزقها، ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم، وأن عقد ألوية البنود غير الترجيح بين العقود وانتخال الشهود، وشُغل بما كان احتجن من بقية ذخائر ابن ذي النون، وأنسته عن استجلاب الرجال والنظر في شيء من الأعمال، وانفَضَّت عنه تلك الجملة اليسيرة المرابطية التي كان تعلَّق بسببها وموَّه على الناس بها لضيق المذاهب وغلظة ذلك العدو المصاقب، وقوي طمع لذريق في ملك بلنسية؛ فلازمها ملازمة الغريم، وتلذذ بها تلذُّذ العشاق بالرسوم؛ ينتسف أقواتها، ويقتل حماتها، ويسوق إليها كل منية، ويطلع عليها من كل ثنيَّة.

فربَّ ذروة عزٍّ قد طالما بلدت الأماني والنفوس دونها، ويئست الأقمار والشموس من أن تكونها، قد ورد ذلك الطاغية يومئذ معينها، وأذَال مصونها، ورب وجه كانت تدميه الذر، وتحسده الشمس والبدر، ويتغاير عليه المرجان والدر، قد أصبح ذرية لزجاجه،[١٩] نعلًا لأقدام أراذل أعلاجه، وبلغ الجهد بأهلها والامتحان أن أحلُّوا محرَّم الحيوان، وأبو أحمد المذكور في أنشوطة ما سهَّل وسنَّى، وشَرَك ما جرَّ على نفسه وجنى، يستصرخ أمير المسلمين على بعد داره وتراخي مزاره، فتارة يُسمعه ويحركه وتارة ينقطع دونه ولا يدركه، وقد كان من أمير المسلمين بموضع ومن رأيه الجميل بمرأى ومسمع، ولكن أبطأ عنه نصره بنأي الدار ونفوذ المقدار، وإذا قدَّر الله أمرًا فتَّح أبوابه ويسَّر أسبابه، وتم للطاغية لذريق مراده الذميم من دخول بلنسية سنة ٨٨ على وجه من وجوه غدره، وبعد إذعان من القاضي المذكور لسطوة كبره، ودخوله طائعًا في أمره على وسائل اتخذها

وعهود ومواثيق بزعمه أخذها، لم يمتد لها أحد ولا كثر لأيامها عدد، وبقي معه مُديدة يضجر من صحبته ويلتمس السبيل إلى نكبته حتى أمكنته — زعموا — بسبب ذخيرة نفيسة من ذخائر ابن ذي النون، وكان لذريق لأول دخوله قد سأله عنها واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملَّتين على البراءة منها، فأقسم بالله جهد أيمانه غافلًا عما في الغيب من بلائه وامتحانه، وجعل لذريق بينه وبين القاضي المذكور عهدًا أحضره الطائفتين، وأشهد عليه أعلام الملتين إن هو انتهى بعد إليها وعثر عنده عليها؛ ليستحلَّنَّ إخفار ذممه وسفك دمه.

فلم ينشب لذريق أن ظهر على الذخيرة المذكورة لديه؛ لما كان حُمَّ من إجراء محنته على يديه، ولعلها كانت منه حيلة أدارها وداهية من دواهيه سدَّاها وأنارها، فأنحى على أمواله بالنهاب، وعليه وعلى أهله بأنواع العذاب، حتى بلغ جهده ويئس مما عنده، فأضرم له نارًا أتلفت ذماءه وحرقت أشلاءه.

حدثني من رآه في ذلك المقام وقد حُفر له حفير إلى رُفغيه، وأُضرمت النار حواليه، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه،[20] ليكون أسرع لذهابه وأقصر لمدة عذابه، كتبها الله له في صحيفة حسناته، ومحا بها سالف سيئاته، وكفانا بعد أليم نقماته ويسَّرنا إلى ما يزلف إلى مرضاته.

وهمَّ يومئذ الطاغية — لعنه الله — بتحريق زوجته وبناته، فكلمه فيهن بعض طغاته، فبعد لأيٍ ما لَفَتَه عن رأيه، وتخلصن من يدي نكدائه، وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ نارًا، وجلَّل سائر طبقاتها حزنًا وعارًا، وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى فَدَحَ التهائم والنجود وأخاف القريب والبعيد.

حدثني من سمعه يقول وقد قوي طمعه ولج به جشعه: على رذريق فُتحت هذه الجزيرة ورذريق يستنقذها. كلمة ملأت الصدور وخيَّلت وقوع المخوف والمحذور، وكان هذا البائقة وقتَه في درب[21] شهامته، واجتماع حزامته، وتناهي صرامته، آية من آيات ربه إلى أن رماه سريعًا بحتفه، وأماته ببلنسية حتف أنفه.

وكان لعنه الله منصور العَلَم مظفرًا على طوائف العجم، لقي زعماءهم مرارًا كغرسيه Garcia المنبوز بالفم المعوج ورئيس الإفرنج وابن ردمير، ففلَّ حد جنودهم، وقتل بعدده اليسير كثير عديدهم، وكان — زعموا — تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المُهلَّب استخفَّه الطرب، وطفق يعجب منها ويتعجب.

وفي بلنسية يومئذ يقول أبو إسحاق بن خفاجة:

عاثت بساحتك الظُّبى يا دارُ ومحا محاسنك البلا والنارُ
فإذا تردد في جنابك ناظرٌ طال اعتبار فيك واستعبارُ

إلى آخر الأبيات وقد تقدمت.

وتجرد أمير المسلمين — رحمه الله — لما بلغه هذا النبأ العظيم واتصل به هذا الرزء الشنيع، وكان قذى أجفانه وجماع شأنه وشغل يده ولسانه يسرِّب إليها الرجال وينصب عليها الحبائل والحبال، والحرب هنالك سجال، والحال بين العدو وبين عساكر أمير المسلمين إدبار وإقبال، حتى رحض عارها وغسل شنارها، وكان آخر أمراء أجناده المجهَّزين إليها في جماهر إعداده الأمير أبو محمد مزدلي ظُبَة حسامه، وسلك نظامه؛ ففتحها الله عليه، وأذن في تخلصها على يديه في شهر رمضان سنة ٩٥، كتب الله منزله في عليين، وجزاه عن جده وجهاده أفضل جزاء المحسنين.

وفي ذلك التاريخ كتب أبو عبد الرحمن بن طاهر إلى الوزير أبي عبد الله بن عبد العزيز رقعةً يقول فيها: كتبت منتصف الشهر المباع، وقد وافى بدخول بلنسية جبرها الله بالفتح بعدما خامرها القبح فأضرم أكثرها نارًا، وتركها آية للسائلين واعتبارًا، وتغشَّاها سوادًا كما لبست به حدادًا، فهي تنظر من طرف خفي وتتنفَّس عن قلب يتقلب على جمر ذكي، غير أنه بقي لها جسمها الأنعم وتربها الأكوم الذي هو كالمسك الأذفر والذهب الأحمر، وحدائقها الغُلب ونهرها العذب، وبسعد أمير المسلمين وإقباله عليها ينجلي ظلامها ويعود عليها حليها ونظامها، وتروح في الحلل، وتبرز كالشمس في بيت الحمل، فالحمد لله مالك الملك مطهرها من الشرك، وفي عودتها إلى الإسلام عز وعزاء عما نفذ به قدر وقضاء. انتهى.

وكتب يومئذ إلى الوزير الفقيه ابن جحاف يعزِّيه بابن عمه أبي أحمد المحرق المتقدم الذكر: مثلك — وقاك الله المحاذير — في وفور الدين، وصحة اليقين، وسلامة الضمير، وعدم النظير، وقوة الرجحان، ومعرفة الزمان، أعطى الحوادث صبرًا، وردَّها على أعقابها صغرًا؛ فلم يخضع لصولتها، ولم يحفل بسورتها، ودرى أنها الأيام والغِيَر والحمام والقدر، ودارت الخطوب — عصمك الله من إلمامها وحماك من اخترامها — بمصرع الفقيه القاضي أبي أحمد — عفا الله عنه — ومهلكه وانحطاطه من فلكه، فانقضَّت لعمري نجوم المجد بانقضاضه، وبكت سماء الفضل على تداعيه وانفضاضه؛ فإنه كان

من جمال المذاهب والغوث عند النوائب، بحيث يكون الغيث في قيظ المَحْل، والحلب عند انقطاع الرِّسْل[٢٢] بعيدًا عن القسوة، صفوحًا عن الهفوة، عطوفًا على الجيران، عزيزًا على الإخوان، يستهوي القلوب ببشره ويتملك الأحرار ببرِّه. وإن الدنيا بعده لفي حداد لما أقصدَتْه يد[٢٣] زناد قائمًا بأعبائها مبيرًا لأعدائها، فهي تبكيه بأربعة سجام، وتندبه في كل مقام، ويا أسرع ما سلبته المنون وقد قرَّت به منكم العيون، وطوَّقكم طوق الفخار، وأناف بقدركم على الأقدار، فإنا لله وإنا إليه راجعون على أليم المصاب، وعند الله نحتسبه كريم الأصل والنصاب، وطودًا منيعًا، ومرمى رفيعًا، وقد تساوينا في الرزية؛ فلنعدل إلى التسلية؛ فذلك أوفر ذخرًا وأعظم أجرًا.

قال أبو الحسن: وأبو عبد الرحمن أكثر إحسانًا، وأوضح خبرًا وعيانًا من أن يحاط بأخباره أو يعبر عن جلالة مقداره، وقد استوفيت معظم كلامه في كتاب مفرد ترجمته بسلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر، وهو اليوم ببلنسية سالم ينطق وحي يرزق، وقد نيف[٢٤] عن الثمانين، وما أحوجه سمعه إلى ترجمان، بل هو حتى الآن يَهَبُ للطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدرية، وتعسعس[٢٥] معه الليالي البدرية، وفيها أوردنا كفاية من الذي يمكنه النهاية.

(٣-٢) تتمة خبر أمير المسلمين ووقائع بلنسية

فلما تحقَّق عند النصارى أنه قد جاز، وقطع البحر وفاز، اتفقوا على تدويخ شرق الأندلس، وشنِّ الغارات على سرقسطة وجهاتها، وتمادوا إلى بلنسية ودانية وشاطبة ومرسية وذواتها؛ فانتسفوها نسفًا، وتركوها قاعًا صفصفًا، وأخذوا حصن «مره[٢٦] وايط» وغيرها، فساء حال المشرق، وحسن المغرب بمن كان فيه من المرابطين، وخرج الحاجب منذر بن أحمد بن هود من لاردة، ونزل على بلنسية وحصرها طامعًا في أخذها من يد القادر، فلما سمع به ابن أخيه المستعين استنصر بالقنبيطور — لعنه الله — وخرج معه في أربعمائة فارس والقنبيطور في ثلاثة آلاف، وغزا معه بنفسه حرصًا منه على ملك بلنسية على أن للقنبيطور أموالها وللمستعين جفنها،[٢٧] فلما سمع بمجيئه عمُّه الحاجب رحل عنها، ولم يَحْلُ بطائل منها، فلم يزل محاصرًا لها حتى حصَّلها. وفي هذه السنة — وهي سنة ٤٨١ — كان السيل الأعظم في صدمة أكتوبر الذي خرب بلنسية وغيرها، وهدم برج القنطرة.

ثم إن الفنش خف روعه وانتعشت نفسه؛ فحشد وجمع واستعد، وخرج قاصدًا لمنازلة بلنسية ومحاصرتها بعد أن كتب إلى أهل جنوة وفيشة[٢٨] أن يأتوه في البحر، فوصلوا إليه في نحو أربعمائة قلاع، فاستحكم طمعه فيها وفي جميع سواحل الجزيرة؛ فارتاع له كل من في السواحل، ثم إن الله تعالى خالف بين كلمتهم وأذن بتفرقهم؛ فأصبح وهو راحل، ولم يحصل على طائل، ولما نزل الفنش على بلنسية غضب القنبيطور واحتد، وجمع وحشد؛ لأنه كان يعدها له طاعة والقادر بها عامله؛ إذ لا قدرة له على الدفاع ولا استطاعة؛ فخالفه إلى قشتالة، فحرق وهدم، فكان ذلك أقوى الأسباب في افتراق ذلك الجمع عن بلنسية، وانصرف الفنش إلى قشتالة مسرعًا والقنبيطور قد ولى راجعًا، ونزل أسطول جنوة وغيرها على طرطوشة، وجاءهم ابن ردمير وصاحب برشلونة فثبَّتها الله ودفع عنها، وانصرف جميعهم خائبًا منها، فكرَّ القنبيطور إلى بلنسية، واتفق معهم على مائة ألف مثقال جزية في كل عام.

وفي هذا العام استحكم طمع أصناف النصارى على الجزيرة، فضيَّق غرسية[٢٩] على المرية وألفانَه[٣٠] على لورقة، وحاصر البرهانس[٣١] مرسية، والقنبيطور شاطبة.

وبنى أسقف إفرنجي في ضفة البحر حصن «ششنة»،[٣٢] فحميت عند ذلك نفوس من بإشبيلية من المرابطين، وتقدم عليهم القائد محمد بن عائشة وقصد بهم مرسية، والتقى بهم مع جملة من النصارى، فهزموهم وقتلوا منهم وأسروا جماعة، وخلع صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية ففرَّ صاحبها ابن مجاهد في البحر وآوى إلى الدولة الحمَّادية.

ودخل ابن عائشة دانية فوافاه بها ابن جحاف — قاضي بلنسية — وسأله النهوض إليها معه، فلم يمكنه أن يفارق موضعه؛ فأنفذ معه عسكرًا، وقدَّم عليه قائده أبا ناصر؛ فوصلا إليها وقصدا القادر وقتلاه، وذلك سنة ٤٨٥.

فلما انتهى ذلك إلى القنبيطور وهو محاصر لسرقسطة غاظه، وحميت نفسه، وزال عنه أنسه؛ لأنها كانت — بزعمه — طاعته؛ لأن القادر كان يعطيه منها مائة ألف دينار في العام جزية؛ فرحل عن سرقسطة، فنزل على بلنسية، وحاصرها مدة من عشرين شهرًا إلى أن دخلها قهرًا بعد أن لقي أهلها في تلك المدة ما لم يلقَه بشر من الجوع والشدة إلى أن وصل عندهم فأرٌ دينارًا،[٣٣] وكان دخوله إياها سنة ٤٨٧، وفي هذه المدة انقطع إلى القنبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفساقهم وممن يعمل بأعمالهم خلق كثير، وتَسَمَّوا بالدوائر فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات، يقتلون الرجال ويسلبون النساء والأطفال، وكثير منهم ارتد عن الإسلام، ونبذ شريعة

النبي ﷺ إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفُقئت أجفانه وسُلِّطت عليه الكلاب الضارية؛ فأخذته أخذة رابية، وتعلَّقت منهم طائفة بالبرهانس — لعنه الله ولعنهم — فكانت تقطع ذكور الرجال وفروج النساء، ورجعوا له من جملة الخدمة والعمَّال، وفُتنوا فتنة عظيمة في أديانهم وسُلبوا جملة إيمانهم.

وأخذ «أمير المسلمين» في المصدر إلى العدوة، وقد كان أنفذ جملة من جيشه إلى «كنكة»،[٣٤] وقدم عليه (؟عليها) محمد بن عائشة فالتقوا مع البرهانس — لعنه الله — فانهزم أمامهم، واستأصلوا محلَّته، وانصرفوا فرحين وبالظفر مستبشرين. ثم نهض إلى ناحية جزيرة شقر للقاء العدو، وذُكر له أنه يؤمُّها ويقصدها، فالتقوا بجملة من جند القنبيطور فأوقع بهم وقتلهم شر قتلة، ولم يفلت إلا اليسير من تلك الحملة، فلما وصل الفلُّ إليه مات غمًّا، لا رحمه الله.

وفي سنة ٤٩٤ جاز الأمير مزدلي في جيش عرمرم وقصد بلنسية منازلًا ومحاصرًا لها، فأقام عليها سبعة أشهر، فلما رأى الفنش ما حل برجاله من ألم الحصار وأهواله وصل بمحلته الذميمة إليها، وأخرج جميع من كان من الروم لديها، وأضرمها نارًا وتركها آية واعتبارًا. ا.هـ.

قد أطلنا في ذكر هذه الوقائع التاريخية التي من حقها أن توضع في القسم التاريخي من هذا الكتاب؛ وذلك نظرًا لكثرة ورود ذكر القنبيطور في الكلام على بلنسية التي نحن في صددها، وبديهي أن ما جاء في القسم الجغرافي من كتابنا هذا من الأخبار لا يعاد في القسم التاريخي منه، وإن أعيد منه شيء فيكون على وجه التلخيص. أما القنبيطور فلم نستوف هنا كل الكلام عليه، وسيكون له دور ثانٍ عند الوصول إلى التاريخ.

(٤) ذكر من نبغ في بلنسية من أهل العلم

منهم محمد بن أبي الأسود البلنسي، فقيه محدِّث، سمع من فضل بن سلمة، ذكره أبو الوليد الفرضي، نقل ذلك ابن عميرة في بغية الملتمس. ومحمد بن جعفر بن أحمد بن حميد أبو عبد الله قاضي بلنسية مقرئ، نحوي، أديب، متقدم، فاضل، أقرأ القرآن والعربية بمرسية مدة. روى عن جماعة منهم أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح، وأبو بكر بن مسعود بن أبي عتبة. وروى عنه بعضهم أيام كونه ببلنسية أنه قال له: لوددت أن أمير المؤمنين كلفني شرح كتاب سيبويه؛ حتى أخلف في تفسيره شرحًا يقطع

أوراق الأستاذين ولا يحتاج معه إلى معلم. فقيل له: ولم لا تفعل أنت ذلك؟ فقال: لا يمكنني ذلك بسبب الشغل، ولا يمكنني أن أجرِّد لذلك وقتًا، ولو دخلت تحت الأمر كنت أعذر في تجرُّدي وانفرادي.

توفي — رحمه الله — سنة ٥٨٦ بمرسية، ودفن بإزاء صاحبه القاضي أبي القاسم ببقيع مسجد الجرف: نقل ذلك ابن عميرة وقال: وهو أول من قرأت عليه وسني دون العشر. ومحمد بن جعفر بن شرويَّة أبو عامر الخطيب ببلنسية، فقيه فاضل محدث، ذكره ابن عميرة أيضًا، وكانت وفاته سنة ٥٤١.

وعبد الرحمن بن طاهر الذي كان أمير مرسية، ثم فقد إمارته على مرسية وتحول إلى بلنسية. قال ابن بسَّام في كتابه «الذخيرة»: ومدَّ لأبي عبد الرحمن بن طاهر هذا في البقاء حتى تجاوز مصارع جماعة الرؤساء، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يدي الطاغية الكنبيطور — قصمه الله — وجعل بذلك الثغر في قبضة الأسر سنة ٤٨٨، وتوفي أبو عبد الرحمن المذكور ببلنسية، وصلِّيَ عليه بقبلة المسجد الجامع منها إثر صلاة العصر من يوم الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٠٨، ثم سير به إلى مرسية ودفن بها قد نيَّف على الثمانين، وعلى مكانه من البراعة والبلاغة في الرسائل فلم أقف له على شعر سوى قوله في مقتل القاتل يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذي النون على يدي أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري عند انتزائه ببلنسية وانتقاله من خطة القضاء إلى الرئاسة، وكان أخيف:

أيها الأخيف مهلًا … … … … …

(الأبيات).

فقضى الله أن تسلَّط عليه الطاغية الكنبيطور بعد أن أمَّنه في نفسه وماله عند دخوله بلنسية صلحًا، وتركه على القضاء نحوًا من عام، ثم اعتقله وأهل بيته وقرابته، وجعل يطلبهم بمال القادر بن ذي النون، ولم يزل يستخرج ما عندهم بالضرب والإهانة وغليظ العذاب، ثم أمر بإضرام نار عظيمة كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة، وجيء بالقاضي أبي أحمد يوسف في قيوده وأهله وبنوه حوله، فأمر بإحراقهم جميعًا؛ فضج المسلمون والروم، وقد اجتمعوا لذلك ورغبوا في ترك الأطفال والعيال؛ فأسعفهم بعد جهد شديد، واحتفر للقاضي حفرة وذلك بوَلَجة[٣٥] بلنسية، وأدخل فيها إلى حجزته،[٣٦] وسوِّي التراب حوله، وضمت النار نحوه، فلما دنت منه ولفحت وجهه قال: بسم الله الرحمن

الرحيم، وقبض على أقباسها وضمها إلى جسده يستعجل المنية، فاحتر رحمه الله، وذلك في جمادى الأولى سنة ٤٨٨، ويوم الخميس منسلخ جمادى الأولى من السنة قبلها كان دخول الكنبيطور المذكور بلنسية. هذا وقد كان أبو عبد الرحمن بن طاهر من كبار الأدباء، فضلًا عن كونه من كبار الأمراء.

ومنهم أحمد بن عبد الولي البتي أبو جعفر، ينسب إلى بتة — قرية من قرى بلنسية — كاتب شاعر لبيب، أحرقه القنبيطور — لعنه الله — حين غلب على بلنسية، وذلك سنة ٤٨٨، ذكره الرشاطي في كتابه. نقل ذلك ابن عميرة في «بغية الملتمس»، ونقله عنه دوزي في كتابه «مباحث عن تاريخ إسبانية وآدابها في القرون الوسطى»، ونقل دوزي أيضًا عن السيوطي في تراجم النحاة ذكر أحمد بن عبد الولي البلنسي هذا فقال: إنه كان قائمًا على الآداب وكتب النحو واللغة والأشعار كاتبًا شاعرًا، كتب عن بعض الوزراء وأحرقه القنبيطور — لعنه الله — لما تغلب على بلنسية سنة ٨٨.

ومنهم محمد بن الخلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، بلنسي، أبو عبد الله بن علقمة، صحب أبا محمد بن حيان الأروشي وأمثاله، روى عنه ابنه عبد الله، وكان ينتحل الكتابة وقرض الشعر على تقصيره فيهما، وله تاريخ في تغلب الروم على بلنسية قبل خمسمائة سماه «بالبيان الواضح في المُلِمِّ الفادح» ليس بذاك. وله تأليف غيره، مولده سنة ٤٢٨، وتوفي يوم الأحد لخمس بقين من شوال سنة ٥٠٩. نقل ذلك ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة على الموصول والصلة»، وهو كتاب تسعة مجلدات جعله ابن عبد الملك هذا تكملة لكتابين أحدهما «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي والثاني «الصلة» لابن بشكوال.

ومن المعلوم أن كتاب «الصلة» ألفه ابن بشكوال تكملة لكتاب ابن الفرضي؛ فلهذا قال ابن عبد الملك المراكشي في اسم كتابه «الذيل والتكملة على الموصول والصلة»، وقد أشار إلى هذا الكتاب ابن الخطيب والسيوطي والمقري، ولكنه لم يرد ذكره في كشف الظنون. قال دوزي: «وفي أوروبة من هذا الكتاب مجلدان: أحدهما في مكتبة دير الأسكوريال في إسبانية، والآخر في مكتبة باريس ومؤلفه يقال له قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري، ثم الأوسي المراكشي.»

ومنهم محمد بن سعيد أبو عامر التاكرني الكاتب، قال ابن عميرة في بغية الملتمس: كان من أهل الأدب والبلاغة والشعر، ذكره أبو عامر بن شهيد، سكن بلنسية، وخَدَم صاحبها عبد العزيز بن الناصر بعد الأربعمائة.

ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري البلنسي، عرف بابن اليتيم، سكن مالقة، وحدَّث بها عن ابن ورد، وابن أبي أحد عشر، وابن وضاح أبي عبد الله وغيرهم.

ومنهم جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف بن يُمن، قال ابن عميرة: هو قاضي بلنسية ورئيسها، وآخر القضاة من بني جحاف بها أحرقه القنبيطور — لعنه الله — سنة ٤٨٨. وهو أبو أحمد المارُّ ذكره والمشهور أمره.

ومنهم جحاف بن يمن قاضي بلنسية؛ قال ابن عميرة: ولَّاه أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد القضاء بها، محدث، استشهد بالأندلس في غزو الروم في غزوة الخندق سنة ٣٢٨، وله هناك عقب يتداولون القضاء، ومنهم من رأس بها وغلب عليها إلى أن كان آخرهم القاضي أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف بن يُمن المتقدم الذكر، الذي أحرقه القنبيطور — لعنه الله — حسبما قدمنا ذكره.

ومنهم عبد الله بن حيان الأروشي نزيل بلنسية، قال ابن عميرة في البغية: فقيه محدِّث عارف، توفي سنة ٤٨٧، ومولده في عام ٤٠٩، روى عن أبي عمر بن عبد البر وأبي عمر وعثمان بن أبي بكر السفاقسي، وأبي القاسم بن الإفليلي، وأبي هارون جعفر بن أحمد بن عبد الملك، وأبي الفضل محمد بن محمد بن عبد الواحد التميمي البغدادي، وكانت له همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها، ذكر ابن علقمة في تاريخه أن ابن ذي النون — صاحب بلنسية — أخذ كتب الأروشي من داره وسيقت إلى قصره، وذلك مائة عِدْل وثلاثة وأربعون عدلًا من أعدال الحمَّالين، يقدر كل عدل منها بعشرة أرباع، وقيل: إنه كان قد أخفى منها نحو الثلث.

ومنهم وهب بن نذير أبو العطاء — قاضي بلنسية — يروي عن أبي الوليد الدباغ، وأبي الحسن بن النعمة، توفي في بلنسية في نواحي التسعين بعد الخمسمائة.

ومنهم أبو الحسن البرقي، بلنسي، أديب شاعر بليغ، ذكره ابن عميرة في «بغية الملتمس». وأحمد بن محمد بن حزب الله، يكنى أبا الحسن، من أهل بلنسية، كان مفتيًا في بلده عالمًا بالشروط، توفي سنة ٤٥٩، ذكره ابن مدير، وترجمه ابن بشكوال في «الصلة»، وخليص بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله الأنصاري من أهل بلنسية، يكنى أبا الحسن، روى عن عمر بن عبد البر فيما زعم. قال ابن بشكوال في «الصلة»: قرأت بخطه أنه روى أيضًا عن أبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري، وأبي الوليد الوقشي، وأبي المطرف بن جيمان، ولم يكن بالضابط لما كتب، وسمعت بعضهم يضعفه وينسبه إلى الكذب، توفي — رحمه الله — سنة ٥١٣. انتهى.

ومنهم سليمان بن أبي القاسم نجاح، مولى أمير المؤمنين هشام المؤيَّد بالله، سكن دانية وبلنسية، يكنى أبا داود؛ قال ابن بشكوال: روى عن أبي عمرو عثمان بن سعيد المقري وأكثر عنه، وهو أثبت الناس به، وروى عن أبي عمر بن عبد البر، وأبي العباس العذري، وأبي عبد الله بن سعدون القروي، وأبي شاكر الخطيب، وأبي وليد الباجي وغيرهم، وكان من جلة المقرئين وعلمائهم وفضلائهم وخيارهم، عالمًا بالقراءات ورواياتها وطرقها، حسن الضبط لها، وكان ديِّنًا فاضلًا ثقةً، وله تواليف كثيرة في معاني القرآن العظيم وغيره.

وكان حسن الخط، جيد الضبط، روى الناس عنه كثيرًا، وأخبرنا عنه جماعة من شيوخنا ووصفوه بالعلم والفضل والدين. قال: توفي أبو داود سليمان بن نجاح يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر، ودفن يوم الخميس لصلاة العصر بمدينة بلنسية، واحتفل الناس بجنازته وتزاحموا على نعشه، وذلك في رمضان لست عشرة ليلة خلت منه سنة ٤٩٦، وكان مولده سنة ٤١٣، وعبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري — قاضي بلنسية — يكنى أبا عبد الرحمن، ويلقب بحيدرة، روى بقرطبة عن أبي عيسى الليثي، وأبي بكر بن السليم، وأبي بكر بن القوطية، وغيرهم، وكان من العلماء الجلة، ثقة فاضلًا، ذكره ابن خزرج، وقال: بلغني أنه توفي ببلنسية قاضيًا سنة ٤١٧، وله بضع وثمانون سنة. قال ابن بشكوال: وقرأت بخط بعض الشيوخ أنه توفي في شهر رمضان سنة ٤١٨، وحدث عنه أبو محمد بن حزم وقال: هو من أفضل قاضٍ رأيته دينًا وعقلًا وتصاونًا مع حظه الوافر من العلم.

وعبد الله بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، ولد الحافظ أبي عمر بن عبد البر، سكن مع أبيه بلنسية وغيرها، يكنَّى أبا محمد، وأصله من قرطبة، روى عن أبيه، وعن أبي سعيد الجعفري، وأبي العباس المهدي، وغيرهم، ذكره الحميدي وقال: كان من أهل الأدب البارع والبلاغة الذائعة والتقدم في العلم والذكاء، مات بعد الخمسين وأربعمائة. قال ابن بشكوال في الصلة: وأنشدني له بعض أهل بلادنا:

لا تكثرنَّ تأملًا ... واحبس عليك عنان طرفك
فلربما أرسلته ... فرماك في ميدان حتفك

قال: قال لي بعض أصحابنا: توفي سنة ٤٥٨، وصلى عليه القطيني الزاهد. وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري، من أهل بلنسية وقاضيها،

يكنى أبا المطرف، روى عن أبي القاسم خلف بن هاني الطرطوشي وغيره، قال ابن بشكوال: وسمع منه أبو بحر الأسدي شيخنا، وحدث عنه ببغداد أبو الفتوح وأبو الليث السمرقندي، وتوفي في سنة ٤٨٢ وقد نيف على الثمانين، ومولده سنة ٣٨٤، قرأت مولده ووفاته بخط النميري وعبد العزيز بن محمد بن سعد، من أهل بلنسية، يعرف بابن القدرة، يكنى أبا بكر، روى عن أبي عمر بن عبد البر وغيره، وكان فقيهًا مشاورًا في بلده؛ قال ابن بشكوال: حدث عنه شيخنا أبو عمر الأسدي، وأبو علي بن سكَّرة وغيرهما، وتوفي سنة ٤٨٤.

وعمر بن محمد بن واجب من أهل بلنسية، يكنى أبا حفص، روى عن أبي عمر الطلمنكي المقرئ، وسمع من أبي عبد الله بن الحذا صحيح مسلم وغيره، وكان صاحب أحكام بلنسية ومن أهل الفضل والجلالة، قال ابن بشكوال: أخبرنا عنه حفيده أبو الحسن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القاضي، توفي قريبًا من السبعين والأربعمائة وسنه نحو الستين، وكان قد حج، ذكر ذلك ابن مدير، وقد أخذ عنه أيضًا أبو علي بن سكَّرة، وذكر غيره أنه توفي في شعبان سنة ٤٧٦.

وأبو عبد الله محمد بن ربيعة كان من ساكني بلنسية، وأصله من جزيرة شقر من عملها، وكان مفتي أهل بلنسية في زمانه، مقدمًا في الشورى، حافظًا للفقه، وتوفي يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤٨٧، قال ابن بشكوال: كتب لي وفاته شيخنا أبو الحسن عبد الجليل المقرئ.

ومحمد بن باسَّه بن أحمد بن أرذمان الزهري المقرئ من أهل أنده، سكن بلنسية، يكنى أبا عبد الله، روى القراءات عن أبي القاسم خلف بن إبراهيم المقرئ الطليطلي وغيره، وكان مقرئًا فاضلًا ديِّنًا، وتوفي بإشبيلية في شهر رمضان سنة ٥١٥، وقد نيَّف على السبعين، قاله ابن بشكوال.

ومحمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي من أهل بلنسية وقاضيها، يكنى أبا الحسن، روى عن أبي العباس العذري، وعن أبي الفتح، وأبي الليث السمرقندي، وأبي الوليد الباجي وغيرهم، قال ابن بشكوال: كتب إلينا بإجازة ما رواه بخطه، وكان محببًا إلى أهل بلده، رفيعًا فيهم، جامد اليد عن أموالهم، من بيت فضل وجلالة ونباهة وصيانة، وتوفي — رحمه الله — في صدر ذي الحجة سنة ٥١٩، ومولده في شوال سنة ٤٤٦.

ومحمد بن سليمان بن مروان بن يحيى القيسي، يعرف بالبوني، سكن بلنسية وغيرها، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبي داود المقري وأبي عبد الله محمد بن فرج، وأبي

علي الغساني، وأبي الحسن بن الروش، وأبي علي الصدفي، وأبي محمد بن عتاب، وكانت له عناية كثيرة بالعلم والرواية وأخبار الشيوخ وأزمانهم ومبلغ أعمارهم، وجمع من ذلك كثيرًا؛ قال ابن بشكوال: ووصفه أصحابنا بالثقة والدين والفضل، وتوفي بالمرية ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر من سنة ٥٣٦.

وموصل بن أحمد بن موصل من ناحية بلنسية، سمع من أبي عبد الله بن الفخار، وأبي القاسم البريلي، وأبي عمر بن عبد البر، وتوفي قريبًا من الثمانين؛ قال ابن بشكوال: ذكره ابن مدير، وحدث عنه أبو جعفر بن مطاهر.

وسليمان بن عبد الملك بن روبيل بن إبراهيم بن عبد الله العبدري من أهل بلنسية، يكنَّى أبا الوليد، سمع من قاضيها أبي الحسن بن واجب، ومن أبي عبد الله محمد بن باسَّه، وأبي محمد بن السيد، وسمع من جماعة آخرين بشرقي الأندلس؛ قال ابن بشكوال: وسمع بقرطبة من شيخنا أبي محمد بن عتاب وغيره، وعني بالقراءات، وكتب بخطه كثيرًا، وتولى الأحكام بغير موضع، وتوفي بإشبيلية صدر شعبان من سنة ٤٣٠، وكان مولده فيما أخبرني به سنة ٤٩٦.

والحسن بن محمد بن بهلول القيسي من أهل بلنسية، يكنى أبا علي، روى عن أبي عبد الله محمد بن الحسن البُلَغي، ذكره ابن الأبار القضاعي في كتاب «التكملة» لكتاب «الصلة». والحسن بن علي بن عبد الله بن سعيد من ناحية بلنسية، يكنى أبا علي، أخذ عن أبي زكريا يحيى بن محمد بن أبي إسحاق، وعن أبي عمرو عثمان بن يوسف البلجيطي، وله رحلة حج فيها كان حيًّا في سنة ٥٩٠، ذكره ابن الأبار في «التكملة».

وحسن بن أحمد بن محمد بن موسى بن سعيد بن سعود الأنصاري، من أهل بلنسية، يكنى أبا علي، ويعرف بابن الوزير، وشُهِرَ بنسبته إلى بطرنة قرية بشرقي بلنسية، صحب القاضي أبا العطاء بن نذير وسمع منه وتفقه به؛ قال ابن الأبار في التكملة: وأخذ القراءات عن شيخنا أبي علي بن زلال، وعني بعقد الشروط، وكان ذا بصر بها، وولي قضاء بعض الجهات، وأمَّ بالمسجد المنسوب إلى ابن حزب الله في صلاة الفريضة نحوًا من أربعين سنة، وصلى التراويح بالولاة قديمًا وحديثًا، وكان من أهل التجويد والتحقيق بالإقراء؛ قال ابن الأبار: لازمته طويلًا لمجاورة ومصاهرة أوجبتا ذلك، وسمعت منه، وأذِن لي في الرواية عنه، وتوفي بين العشاءين ليلة السبت التاسع والعشرين لذي الحجة سنة ٦٢٤، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

وحسن بن عبد العزيز بن إسماعيل التجيبي، من أهل بلنسية، يعرف بالبقشليوني نسبة إلى قرية بغربيها،[٣٧] ويكنى أبا علي، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، وأجاز

له إجازة عامة في جمادى الآخرة سنة ٥٦٣، وكان يكتب المصاحف، وصار أخيرًا إلى مدينة تونس وأقرأ بها القرآن، ورأيت الأخذ عنه في سلخ شعبان سنة ٦٣٥، وعلى أثر ذلك توفي بها.

والحسن بن محمد بن الحسن بن فاتح من أهل بلنسية، يكنَّى أبا علي، ويعرف بالشعَّار، وجدُّه فاتح مولى بن فلفل من أهل قرطبة، لقي أبا الحسن بن النعمة وأخذ عنه القراءات السبع وأجاز له، وأخذها أيضًا عن أبي محمد بن أيوب بن غالب المكتب، وسمع من أبي العطاء بن نذير صحيح البخاري، ومن أبي عبد الله بن نوح كتاب السيرة لابن إسحاق، ورحل حاجًّا فأدى الفريضة وانصرف فاحترف بالتجارة، وقعد لإقراء القرآن بآخرة من عمره. قال ابن الأبار في كتابه «التكملة»: وسمعت أنا منه في منتصف رمضان سنة ٦٣٥ أثر منازلة الروم بلنسية بعشرة أيام حكايات وأشعارًا، وأجاز لي بلفظه ما رواه، وتوفي يوم السبت عيد الأضحى من السنة المذكورة، ودفن بداخل المدينة، وأخبرني أن مولده أول سنة ٥٥٢.

وحزب الله بن خلف بن سعيد بن هذيل من أهل بلنسية، يعرف بالتبرالبي، ويكنى أبا محمد، رحل حاجًّا، وسمع بالإسكندرية من السلفي وغيره في سنة ٥٣٩، وكان من أهل المعرفة بالفرائض والحساب. وحمدون بن محمد من أهل بلنسية يعرف بابن المعلم، ويكنى أبا بكر، سمع من أبي العباس العذري وأبي الوليد الوقشي، ولازمه وأكثر عنه، وكان من أهل العلم والأدب، يضرب في قرض الشعر بسهم، وتولى الصلاة والخطبة بمسجد رحبة القاضي من بلنسية بعد تغلب الروم عليها واحتيازهم المسجد الجامع بها، وذلك سنة ٤٨٩، ثم خرج منها مع جماعة من أهلها فرارًا بدينه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٠ بعضه من تاريخ ابن علقمة، قاله ابن الأبار في «التكملة».

وحيان بن عبد الله بن محمد بن هشام بن عبد الله بن حيان بن فرحون بن علم بن عبد الله بن موسى بن ملك بن حمدون بن حيان الأنصاري الأوسي من أهل بلنسية، وأصل سلفه من أروش عمل قرطبة، يكنى أبا البقاء، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن النعمة، وروى عن أبي محمد بن عبيد الله، لقيه بسبتة، وعن أبي الحسن نجبة بن يحيى، وناظر عليه بمراكش في كتاب سيبويه، وتأدب بأبي الحسن بن سعد الخير؛ قال ابن الأبار: وكان نحويًّا لغويًّا أديبًا شاعرًا، يشارك في الكتابة، ويستعمل العويص، حسن الخط جيد الضبط، وقد أقرأ وقتًا بجامع بلنسية، نصبه لذلك القاضي أبو عبد الله بن حميد، لقيته وسمعت مذاكراته، وتوفي سنة ٦٠٩.

وخلف بن عمر من أهل جزيرة شقر، سكن بلنسية، يكنى أبا القاسم ويعرف بالأخفش، كان يعلم العربية والآداب، وكان حسن التفهيم والتلقين مع المعرفة بالعروض ورَّاقًا محسنًا ضابطًا يتنافس فيما يكتب، ذكره ابن عزيز وأخذ عنه، وحكى أنه كان بملازمته النسخ والوراقة ربما أشكل عليه ضبط الألفاظ، فقرأ العربية كبيرًا وبرع فيها، قال: وتوفي بعد الستين والأربعمائة. نقل ذلك ابن الأبار.

وأبو القاسم خلف بن أحمد بن داود الصدفي من أهل بلنسية، وأصله من جهة ركانة من ثغورها، وبالنسبة إليها كان يعرف، سمع أبا عمر بن عبد البر والباجي والوقشي وأبا المطرف بن جحاف وغيرهم، وأخذ العربية عن أبي عبد الله بن رُلَّان،[٣٨] وعلم بها ثم مال إلى قراءة الفقه وسماع الحديث ففقه وعلم الرأي، وكان أديبًا شاعرًا، وتوفي في مدة حصار الروم بلنسية يوم الجمعة لسبع خلون من ذي الحجة سنة ٤٨٦، وقد أرمى على السبعين، قاله ابن الأبار وقال: كان هذا الحصار عشرين شهرًا أولها رمضان من سنة ٤٨٥ إلى أن دخلت صلحًا في سنة ٤٨٧.

وخليفة بن عيسى بن رافع بن أحمد بن خليفة بن سعيد بن رافع بن حليس الأموي، من أهل بلنسية، يكنى أبا بكر، روى عن أبي داود المُقْرِي، ذكر ذلك ابن عيَّاد ونقله ابن الأبار.

وداود بن محمد بن خليل بن يوسف بن نضير الأنصاري، يكنى أبا الحسن، أصله من سرقسطة، وسكن بلنسية، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن النعمة، وأبي عبد الله بن ريان وغيرهما، ذكره محمد بن عياد، ونقله ابن الأبار.

وزكريا بن علي بن يوسف بن علي الأنصاري، من أهل بلنسية، يعرف بالجعيدي، ويكنى أبا يحيى، كان مقرئًا فاضلًا، وهو والد أبي زكريا الجعيدي، توفي آخر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة أو أول سنة ٥٧٤، قاله ابن الأبار.

وطارق بن موسى بن يعيش بن الحسين بن علي بن هشام المخزومي من أهل بلنسية، يعرف بالمنصفي، من قرية في غربيِّها، يكنى بأبي محمد وبأبي الحسن أيضًا، رحل قبل العشرين وخمسمائة، فأدى الفريضة، وجاور بمكة، وسمع بها من أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري، ومن الشريف أبي محمد عبد الباقي الزهري المعروف بشقران، أخذ عنه كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي عن مؤلفه، وسمع بالإسكندرية من أبي بكر الطرطوشي، وأبي الحسن بن مشرف، وأبي عبد الله الرازي، وأبي طاهر السلفي وغيرهم، ثم قفل إلى بلده، فحدث وأخذ الناس عنه، وكان شيخًا صالحًا عالي الرواية ثقة، قال ابن

عياد: لم ألق أفضل منه. وحدث عنه بالسماع والإجازة جلة منهم أبو الحسن بن هذيل، وأبو محمد القُلُنِّي، وأبو مروان بن الصيقل، وأبو العباس الإقليشي، وأبو بكر بن خير، وأبو عبد الله بن حميد، وأبو الحسن بن سعد الخير، وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي، وأبو بكر عتيق بن أحمد بن الخصم، وأبو جعفر طارق بن موسى، وأبو عبد الملك بن عبد العزيز، وأبو بكر بن جوزيه، وغيرهم، ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبي العباس الإقليشي، وأبي الوليد بن خيرة الحافظ، وذلك سنة ٥٤٢ وقد نيف على السبعين، فأقام بمكة مجاورًا إلى أن توفي بها سنة ٥٤٩. روى ذلك ابن الأبار وقال أكثر خبره عن ابن عياد.

وطارق بن موسى بن طارق المعافري المقرئ من أهل بلنسية، ومن ولد يمن بن سعيد المعافري والد جحاف بن يمن، يكنى أبا جعفر، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، وعن أبي الأصبغ بن المرابط، ورحل إلى أبي الحسن شريح بن محمد فأخذ عنه بإشبيلية، ولقي بمالقة أبا علي منصور بن الخير، وأبا عبد الله ابن أخت غانم، وأبا الحسين بن الطراوة، فأخذ عنهم، وسمع أيضًا من أبي بكر بن العربي في تردده على بلنسية، ومن أبي بكر بن أسد، وطارق بن يعيش، وأبي محمد القُلُنِّي، وأبي بكر بن بَرُنجال، وغيرهم، وتصدر للإقراء ببلنسية، وكان من أهل التجويد والإتقان في القراءة، قاله ابن الأبار، وكان يقرئ بالمسجد الجامع ويصلي فيه التراويح، وتولى الحسبة والمواريث، وقتل عند بكوره إلى صلاة الصبح في جمادى الأولى سنة ٥٦٦.

وأبو عيسى لب[٣٩] بن حسن بن أحمد التجيبي، يعرف بابن الخصب، من أهل بلنسية، أخذ القراءات عن أبي بكر بن نمارة، وأبي الحسن بن النعمة، وأبي جعفر بن طارق، وأخذ قراءة نافع عن أبي الحسن بن هذيل، وكان رجلًا صالحًا، توفي بدانية قبل سنة ٦١٠.

ومحمد بن سعد بن عثمان التجيبي، يعرف بابن القدرة، ويكنى أبا عبد الله، روى عن أبي عبد الرحمن بن جحاف المعروف بحيدرة، وأبي عبد الله بن الفخار، روى عنه ابنه أبو بكر عبد العزيز بن محمد الفقيه، قاله ابن الأبار. قلت: قد تقدم ذكر عبد العزيز بن محمد بن سعد هذا في تراجم علماء بلنسية، ومحمد بن حسين البلنسي أصله من ناحية لرية من عملها، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رلان (أي: رولان Rollan). قال ابن الأبار: وابن عزير يقول فيه أورليان (أي: Orléan يظهر أن أصله إسبانيولي) أخذ عن أبي محمد بن الأسلمية وغيره وكان أديبًا متفننًا متسع المعرفة معلمًا بالعربية واللغة من أهل القرآن، حاملًا له عارفًا بإعرابه وغريبه أخذ عنه محمد بن أبي الفضل البُنتي.

ومحمد بن عبيد الله بن عبد البر بن ربيعة من أهل بلنسية، أصله من جزيرة شقر، يكنى أبا عبد الله، سمع من أبي عمر بن عبد البر، وأبي المطرف بن جحاف، وأبي عبد الله بن حزب الله وغيرهم، وكان فقيهًا حافظًا مفتيًا، توفي في حصار الروم ببلنسية سنة ٤٨٧، ذكر ذلك ابن علقمة، قال ابن الأبار: إنه قد ذكره ابن بشكوال، ولكن لم ينسبه ولا سمى شيوخه. قلنا: قد تقدم ذكر هذا الفاضل نقلًا عن ابن بشكوال، ولم يذكر من أسمائه سوى محمد بن ربيعة، قال: كان من ساكني بلنسية، وأصله من جزيرة شقر من عملها.

ومحمد بن يوسف بن سعيد بن عيسى الكناني من أهل طليطلة، سكن بلنسية، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبي بكر أحمد بن يوسف بن حماد، سمع منه مختصر الطليطلي في الفقه، وروى عنه أبو الحسن بن هذيل، وكان فقيهًا أديبًا أصوليًّا متكلمًا، وامتحن بأبي أحمد بن جحاف الأخيف في أيام رئاسته، فخرج إلى المريَّة وبها توفي قبل الخمسمائة، ذكر ذلك ابن الأبار في التكملة نقلًا عن ابن عياد.

ومحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصاري الأوسي، من أهل سرقسطة، سكن بلنسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الخرَّاز، روى عن أبي عبد الله بن أوس الحجاري، وأبي العباس العذري، وأبي الوليد الوقشي، واختص به وسمع منه روايته، وهو كان القارئ لما يؤخذ عنه، وكان أديبًا شاعرًا راوية مكثرًا حسن الخط، وكان أبوه أبو جعفر شاعرًا أيضًا، وهو الذي خاطبه أبو عامر بن غرسية بالرسالة المشهورة، حدَّث عنه أبو محمد القلنِّي، وأبو عبد الله بن إدريس المخزومي، وأبو طاهر التميمي، قال ابن الأبار في التكملة ذلك، ونقل بعضه عن ابن حبيش، ونقل عن ابن الدباغ أنه أقرأ القرآن بالثغر وكان عنده أدب صالح.

ومحمد بن أحمد بن عبد الله بن حصن الأنصاري، من ولد سعيد بن سعد بن عبادة، كان من أهل بلنسية، وسكن عقبة مربيطر، وأصله من شارقة، يكنَّى أبا عبد الله، سمع من أبي وليد الوقشي، وكان يلازمه، وأخذ عنه الموطأ وغيره، وكان حسن الخط ذا عناية بالعلم نبيه البيت، وتوفي قبل العشرين وخمسمائة عن التكملة لابن الأبار.

ومحمد بن عبد الله بن سيف الجذامي من أهل بلنسية، وسكن شاطبة، يكنَّى أبا عبد الله، أخذ القراءات عن أبي داود وابن الدوشن، وسمع من أبي بكر بن مفوَّز، وتعلم العربية بدانية على أبي بكر يحيى بن الفرضي، وتصدر للإقراء، وكان مقرئًا ضابطًا وأديبًا شاعرًا، روى عنه أبو محمد عبد الغني بن مكي، وتوفي قبل العشرين وخمسمائة، روى أكثره ابن عياد، قاله ابن الأبار.

ومحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن خُلَصة بن فتح بن قاسم بن سليمان بن سويد اللخمي النحوي، من أهل بلنسية، أصله من شُرَيُّون من أعمالها، يكنَّى أبا عبد الله، سمع أبا علي الصدفي، وأبا بكر بن العربي، قال ابن الأبار: وكان أستاذًا في علم اللسان، مقدَّمًا في صناعة العربية والأدب، ولا أدري عمن أخذها، فصيحًا مفوهًا، ذا سمْت حسن وذكاء معروف، حافظًا للغات العرب قائمًا عليها، ونثره فوق نظمه ورسالته التي رد فيها على ابن السيد من أجود الرسائل، وقد حملت عنه، وكان ابن العربي يجلُّه ويثني عليه بعلمه، وربما زاره في منزله، أقرأ بدانية وبلنسية، ثم انتقل عنها بآخرة من عمره إلى المريَّة، وأقرأ بها، وأخذ عنه أبو بكر بن رزق، وحضر إقراءه لكتاب سيبويه، ولم يزل مقيمًا بالمريَّة إلى أن توفي بها منتصف ليلة السبت في عشر المحرم سنة ٥٢١، ودفن لصلاة العصر منه بمقبرة الحوض، وصلى عليه الخطيب أبو الأصبغ بن الحطان. قال ابن الأبار: قرأت ذلك بخط ابن رزق، ووافقه ابن حبيش على سنة إحدى وعشرين وهو الصحيح.

وقال ابن عياد: سمعت أبا بكر بن نمارة يقول: توفي أبو عبد الله بن خلصة بالمريَّة سنة ٥٢٠ أو نحوها، وهو أحد من حدَّث عن ابن العربي، ومات قبله بمدة. وتوفي ببلنسية ابن زرياب وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد بن عبد الله بن سعيد من أهل دورقة، وقد مر ذكرها في الجزء الثاني من «الحلل السندسية» كتابنا هذا، وذلك في صدر الفصل الذي عنوانه «من نبغ من أهل العلم من مدينة دروقة»، وكانت وفاته ببلنسية ليلة الخميس منتصف رمضان سنة ٥٢٨، وهو ممن أخذ عن أبي بكر بن العربي، وكان من أهل العلم والفقه مع الزهد، روى ابن الأبار خبره عن أيوب بن نوح وعن ابن سالم.

ومحمد بن عمر بن عبد الله بن محمد العقيلي، من أهل بلنسية، يعرف بابن القباب، ويكنى أبا بكر، روى عن أبي الوليد الوقشي، وخليص بن عبد الله، وابن السيد وغيره، ولقي بقرطبة أبا محمد بن عتاب، وابن طريف، وأبا بحر الأسدي، فسمع منهم في سنة ٥١٣، وبعدها، وله أيضًا سماع من أبي بكر بن أسود، وكتب عنه عامة أهل الأندلس كأبي علي الغساني، وابن أبي تليد، وابن سكَّره، وابن العربي، وأبي عبد الله المووري، وهو من بيت نباهة وأصالة، وكان ذا عناية بالرواية، حسن الخط، جيد الضبط، توفي بعد سنة ٥٣٠، عن أبي عياد وابن سالم، ذكره ابن الأبَّار.

ومحمد بن خليل بن يوسف الأنصاري من أهل سرقسطة، سكن بلنسية، يكنى أبا عبد الله، أخذ عن أبي المطرف بن الوراق، وأبي محمد عبد الله بن يوسف بن سمحون، وكان سماعه من ابن سمحون في سنتي ثلاثين وإحدى وثلاثين وخمسمائة.

ومحمد بن سعادة بن عمر الأنصاري من أهل بلنسية، يكنَّى أبا عبد الله، ويعرف بابن قديم، تفقه بأبي الوليد الوقَّشي، وتعلم العربية عند أبي العباس الكفيف، وتوفي في نحو سنة ٥٣١ عن ابن عياد، ذكره ابن الأبار.

ومحمد بن أحمد بن عثمان من أهل بلنسية، ولد ببريانة من أعمالها وإليها ينسب، يكنَّى أبا عامر، كان من جلة الأدباء ومشاهير الشعراء وعمَّر وأسنَّ، وكان يصحب أبا محمد القلني، وقد أخذ عنه أبو عبد الله بن نابل، قال ابن الأبار: أنشدني أبو الربيع بن سالم قال: أنشدني أبو عامر البرياني لنفسه في الصنم الذي بشاطبة:

بقية من بقايا الروم معجبة　　　أبدى البناة بها من علمهم حكما

إلى آخر الأبيات.

وقد تقدم خبر هذا الرجل، وذكر هذه الأبيات عند ذكر مدينة «بريانة» من أعمال بلنسية، التي هي بين قرية بني قاسم ومدينة مرباطر، فلا لزوم لإعادة الأبيات ثانية.

قال ابن الأبار: إن أبا عامر هذا توفي سنة ٥٣٣، وقد بلغ ستًّا وثمانين سنة، قال: وفيها مات أبو إسحاق الخفاجي، وكان من أترابه وأصحابه.

ومحمد بن عبيد الله بن بيبش[٤٠] المخزومي من أهل بلنسية، وأصله من قلبيرة بناحياتها الغربية، يكنى أبا بكر، أخذ عن مشيخة بلنسية، وعني بالفقه، وكان من أهل الفتيا، وحج وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي في سنة ٥٣٩، قال ابن الأبار: وتوفي هنالك في الفتنة آخر سنة تسع وثلاثين أو أول ٥٤٠، ومولده سنة ٥٠٠، بعضه عن ابن سالم. قال ذلك ابن الأبار.

ومحمد بن علي بن عطية من أهل بلنسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالشواش، كان أديبًا يشارك في الكتابة وقرض الشعر، وانفرد في وقته بحسن الخط، وكان بديع الوراقة أنيقها يتنافس فيما كتب إلى اليوم، قال ابن الأبار: ولم أقف على أسماء شيوخه ولا على تاريخ وفاته، وأحسبها في نحو الأربعين وخمسمائة.

ومحمد بن أحمد بن خلف بن بيبش العبدري من أهل أنده، سكن بلنسية، يكنى أبا عبد الله، له رواية عن أبي عبد الله الخولاني، وكان فقيهًا عارفًا بالشروط، روى عنه ابنه أبو بكر بيبش بن محمد، قال ابن الأبار: وقرأت بخطه أن أباه توفي ببلنسية عصر يوم الثلاثاء الرابع من صفر سنة ٥٤١.

ومحمد بن مروان بن يونس من أهل لِرْية، وسكن بلنسية، يعرف بابن الأديب، ويكنى أبا عبد الله، سمع من أبي بكر بن العربي، وطارق بن يعيش وغيرهما، وكان حسن الوراقة، معروفًا بذلك، وكتب بخطه علمًا كثيرًا، وولاه القاضي مروان بن عبد العزيز خطة السوق، أخذ عنه ابن عياد، وكتب من فوائده عقيدة أبي بكر المرادي، وأشعارًا لابن العربي، وغير ذلك، وقال: توفي ببلنسية سنة إحدى أو اثنتين وأربعين وخمسمائة وقد نيف على الستين. قاله ابن الأبار.

ومحمد بن أحمد بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز من أهل بلنسية، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبي الحسن بن هذيل، أخذ عنه القراءات وعن طارق بن يعيش، سمع منه السنن لأبي داود بقراءته في سنة ٥٣٦، وله أيضًا سماع عن ابن الدباغ وابن النعمة، وتفقه بأبي بكر بن أسود وأبي محمد بن عاشر، وولي قضاء بلده مرتين؛ إحداهما عند تأمُّر ابن عمه مروان بن عبد الله، والثانية في إمارة ابن سعد، وكان وقورًا حليمًا حسن السيرة صلبًا في الحق شديد العارضة. وقتله أبو مروان عبد الملك بن شلبان في ثورته ببلنسية سنة ٥٤٧، ومولده سنة ٥٠٧، ذكر ذلك ابن عياد، وقال ابن سفين: قبل سنة ست وأربعين، وهو وهم. عن ابن الأبار.

ومحمد بن جعفر بن خيرة مولى لابن فُطَيْس القرطبي من أهل بلنسية، وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها، يعرف بابن شرويَّة، ويكنى أبا عامر، سمع من أبي الوليد الوقشي، ولازمه، وأجاز له، وكان صهره، وقد تكلم في روايته عنه لصغره، ومن أبي بكر عبد الباقي بن بُرَّال وأبي داود المقري، وسمع من طاهر بن مفوز الحديث المسلسل في الأخذ باليد، وأجاز له أبو القاسم حاتم بن محمد وأبو عبد الله بن السقاط القاضي، وكان شيخًا فاضلًا نزيهًا جميل الشاردة ذا جهارة في خطبته ونباهة في بلده، واقتنى من الدواوين والدفاتر كثيرًا، وأسن وعمر طويلًا، وثقل حتى كان لا يرقى المنبر للخطبة إلى بمعين، حدث عنه ابن بشكوال وأغفله، وابن حميد، وابن عياد، وعبد المنعم بن الفرس، وابن أبي جمرة شيخنا وغيرهم، وتوفي سحر ليلة الاثنين سادس ذي القعدة سنة ٥٤٧، ودفن خارج باب بيطاله، وما زال قبره هنالك معروفًا يتبرك به إلى أن استولى الروم ثانية على بلنسية في أواخر صفر سنة ٦٣٦، فطمسوه وسائر قبور المسلمين، وصلى عليه أبو الحسن بن النعمة وقد قارب المائة في سنه، وكان أضن الناس بالإعلام بمولده، ذكره القنطري وابن عياد وابن سفين وغيرهم، قال ابن حبيش في وفاته: سنة ست وأربعين، وهو وهم منه. عن ابن الأبار.

ومحمد بن عبد الله بن البرا من أهل بلنسية، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبي الحسن بن هذيل، وأبي حفص بن واجب، وأبي الحسن بن النعمة، وتفقه بأبي محمد بن عاشر، وأبي بكر بن أسد، ورحل إلى المرية، فلقي أبا القاسم بن ورد وسمع منه، وكان فقيهًا حافظًا متصرفًا في وجوه الفتيا من أهل الدين والفضل، وولي خطة الشورى ببلده للقاضي أبي محمد بن جحاف، وتوفي في رجب سنة ٥٤٨، عن ابن عياد وابن سفين. عن ابن الأبار أيضًا.

ومحمد بن سليمان بن سيدراي الكلابي الوراق من أهل قلعة أيوب، سكن بلنسية، وبالقَلْعي كان يعرف. وقد تقدمت ترجمته في صفحة ٩٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب، وذلك بين علماء قلعة أيوب فليراجع في مكانه.

وأبو بكر محمد بن الحسن بن محمد العبدري من أهل بلنسية، يعرف بابن سُرُنْباق، قال ابن الأبار: وإلى سلفه ينسب المسجد الذي بربض ابن عطوش من داخل بلنسية، ويقال له مسجد الغرفة، سمع خليص بن عبد الله، وأبا علي الصدفي، وأبا عامر بن حبيب، وبقرطبة ابن عتاب، وابن مغيث، وأبا بحر الأسدي، وأخذ بإشبيلية عن أبي الحسن بن الأخضر، وكان من أهل العلم والرواية والرحلة في سماع العلم. قال: بعضه عن ابن سالم؛ أي بعضه نقله هذا.

وأبو عبد الله محمد بن يونس بن سلمة الأنصاري، وولد ببلنسية سنة ٥٠٩، ونزل بالمرية، وأصله من طرطوشة؛ ولهذا كان يقال له الطرطوشي، كتب عنه ابن عياد، وذكر أنه صحب أبا العباس بن العريف. عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن بيطش الكناني من أهل بلنسية، يعرف بابن الألشي، روى عن أبي بكر بن أسد، وأبي محمد بن عاشر، وتفقه بهما، وحمل عن أبيه كثيرًا من علم الرأي، وولي خطة الشورى ببلده. قال ابن الأبار: وكان فاضلًا نزيهًا صموتًا، وتوفي سنة ٥٥٠ أو نحوها، ذكره ابن سفيان، وكان صاحب ثروة ويسار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن العبدري من أهل بلنسية، يعرف بابن مَوْجُوال، روى عن أبي الحسن بن هذيل وأخذ عنه القراءات، وعن أبي محمد البطليوسي، وسمع من أبي علي الصدفي قبل موته بأيام. قال ابن الأبار: نزل هو أخوه أبو محمد عبد الله إشبيلية، فلقيا مشايخها، وسمعا بها من أبي محمد بن أيوب الحديث المسلسل في الأخذ باليد، وعني محمد هذا بالقراءات عناية أخيه بالفقه وقد أخذ عنه.

وأبو عبد الله محمد بن رافع بن أحمد بن خليفة بن سعيد بن رافع بن حَلْبَس الأموي من أهل بلنسية، أقرأ العربية، وكان من أهل المعرفة. قال ابن الأبار: وله، ولأخويه عيسى المقرئ وعلي، نباهة ورواية، ولخليفة بن عيسى أيضًا، ذكرهم جميعًا ابن عياد.

ومحمد بن عبد الوهاب بن عبد الملك بن غالب بن عبد الرءوف بن غالب بن نفيس العبدري الوراق من أهل بلنسية، وأصله من طرطوشة، يكنى أبا عامر وأبا عبد الله، سمع من أبي محمد البطليوسي ومن أبي محمد بن عطية القاضي، وكان ضابطًا حسن الوراقة، عن ابن الأبار.

ومحمد بن أحمد بن عمران بن عبد الرحمن بن محمد بن عمران بن نمارة الحَجَري، بفتح الجيم، من أهل بلنسية، يُكَنَّى أبا بكر، وهو من ولد أوس بن حَجَر التميمي شاعر تميم في الجاهلية، وقد نشأ محمد هذا في المرية؛ وذلك لأن أباه أحمد نقله إلى المرية سنة ٤٨٧ بعد تغلب الروم على بلنسية، فنشأ بالمرية، وقرأ القرآن بها على أبي الحسن البرجي، وسمع الحديث من أبي علي الصدفي، وعياد بن سرحان، وأبي القاسم بن العربي، وعبد القادر بن الحناط، وأبي عبد الله البلغي. وصحب أبا العباس بن العريف، ولقي أبا عبد الله بن الفراء، ورحل إلى قرطبة سنة ٥٠٦، فأخذ بها القراءات عن أبي القاسم بن النخاس، وعليه اعتمد لعلو روايته التي ساوى بها في بعض الطرق أبا عمرو المقرئ، وسمع منه ومن أبي بحر الأسدي، وأجاز له كثيرون كأبي محمد بن عتاب، وأبي عبد الله الخولاني، وأبي الحسن شريح، وأبي بكر بن عطية، وأبي بكر بن الفصيح، وعاد إلى بلنسية وطنه سنة ٥٠٨، فأخذ العربية والآداب عن أبي محمد البطليوسي، وتفقه بأبي القاسم بن الأنقر السرقسطي، وسمع منهما وأجازا له، وكذلك لقي في مرسية أبا محمد بن أبي جعفر، فروى عنه وتصدر للإقراء بآخرة من عمره، ووصفه ابن الأبار بالنزاهة والتواضع مع النباهة والوجاهة في بلده، قال: وكان أبو الحسن بن هذيل يثني عليه ويصفه بالانقباض عن خدمة السلطان على كثرة ماله وسعة حاله. وامتحن بالسجن في سنة ثلاث وثلاثين، وهنالك كتب بخطه شرح مقدمة ابن باب شاذ. قال ابن الأبار: حدثنا عنه غير واحد من شيوخنا، وتوفي يوم الاثنين الرابع والعشرين — وقيل السابع عشر، وقيل الثامن عشر — من شعبان سنة ٥٦٣، ودفن غدوة الثلاثاء، وصلى عليه أبو الحسن بن النعمة، وكانت جنازته مشهودة، ومولده ببلنسية يوم الأربعاء عاشر المحرم سنة ٤٨٤. أكثره عن ابن عياد وابن سفيان.

وأبو عبد الله محمد بن موفق المكتِّب مولى ابن علي بن أم الحور من أهل بلنسية يعرف بالخراط، أخذ القراءات عن أبي محمد بن سعدون الضرير وأبي الأصبغ بن

المرابط، ولقي أبا زيد بن الوراق عند خروجه من سرقسطة، وسمع أبا الحسن بن هذيل، وكان صناع اليد عارفًا بمرسوم الخط في المصاحف، معروفًا بالضبط وحسن الوراقة، يغالَى فيما يكتب، أخذ عنه ابن عياد وابنه محمد، قال ابن الأبار: توفي بلرية مستهل ذي الحجة سنة ٥٦٣، ومولده سنة ٤٨٨، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن أبي الفتح بن حصن بن لربيق بن عفيون بن غفايش بن رزق بن عفيف بن عبد الله بن رواحة بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي من أهل بلنسية، سكن مربيطر، وأصله من شارقة، سمع من صهره أبي علي بن بسيل وغيره، وولي قضاء مربيطر مضافًا إلى الصلاة والخطبة، وكان سريًّا نزيهًا، قال ابن الأبار: وهو خال شيخنا أبي الخطاب بن واجب، سماه ابن سفيان في معجم شيوخه، وتوفي سنة ٥٦٧.

وأبو بكر محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن يحيى بن حاضر الأزدي من أهل بلنسية، أخذ القراءة عن أبي الحسن بن هذيل، وسمع من أبي الوليد بن الدباغ، وأبي الحسن بن النعمة، وأقرأ بجامع بلنسية مدة ثم توجه إلى ميورقة، وبها توفي حول سنة ٥٥٥، ومولده حول سنة ٥١٠، ذكره ابن عياد، ونقله ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن عتيق بن عطاف الأنصاري من أهل لاردة، سكن بلنسية، يعرف بابن المؤذن، أخذ عن أبي محمد القُلنِّي، وناظر عليه في المدوَّنة، ورحل إلى قرطبة فناظر على أبي عبد الله بن الحاج، وقدم للشورى والفتيا ببلنسية، وكان عارفًا بالفقه حافظًا للرأي، قال ابن عياد: مولده حول التسعين وأربعمائة، وقال ابنه محمد بن عياد: مولده حول سنة خمس وتسعين، وتوفي في شعبان سنة ٥٧٨. عن ابن الأبار.

وأبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي من أهل بلنسية، سمع أباه أبا حفص وتفقه به، وأبا الحسن بن النعمة، وأخذ القراءات عن أبي محمد بن سعدون الضرير، وولِّي القضاء بعدة كُور من بلده، وقدم للشورى والخطبة بالمسجد الجامع مناوبًا لشيخه ابن النعمة، وتقلد النيابة في الأحكام مدة قضاء أبي تميم ميمون بن جبارة، وكان دَريًّا بها مقدمًا فيها، معروفًا بالنزاهة والفضل ورجاحة العقل، حسن السمت، رائق الشارة غرَّةً في أهل بيته. قال ابن الأبار: توفي ضحى يوم الاثنين مستهل ربيع الأول سنة ٥٨٣، ومولده ضحى يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة سنة ٥١٧، بعضه عن ابن سالم، وكان يرفع به جدًّا ويقول: لم يكن في بني واجب على نباهتهم أنبه منه.

وأبو عبد الله محمد بن مقاتل بن حيدرة بن مسعود بن خلف بن سعيد الزُّهري من أهل بلنسية، صحب أبا جعفر بن جبير وغيره، وكان فقيهًا أديبًا، ولِّي القضاء بلرية

وغيرها من الكور، سماه ابن عياد وابن سالم في معجمي شيوخهما. وتوفي في صدر المحرَّم سنة ٥٨٦ ومولده سنة ٥١٥.

وأبو عبد الله محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد بن مأمون الأموي من أهل بلنسية، أصله من قرية بغربها تعرف بأسِيلة، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، ثم رحل إلى غرناطة فأخذ القراءات بها عن أبي الحسن بن ثابت، وأبي عبد الله بن أبي سمرة، ورحل إلى إشبيلية فأخذ القراءات عن أبي الحسن شريح سنة ٥٣٥، وقصد جيَّان للقاء الأستاذ أبي بكر بن مسعود، فاختلف إليه ثلاثين شهرًا يأخذ عنه العربية والآداب واللغة، وسمع هنالك من أبي الأصبغ بن عبادة الرعيني، ولقي أيضًا أبا القاسم بن الأبرش فأخذ عنه العربية، وقيَّد كثيرًا من فوائده، ودخل المرية سنة تسع وثلاثين، فسمع فيها من أبي محمد بن عطية القاضي، ومن أبي الحجاج القضاعي، وأجاز له كثيرون منهم أبو الحسن بن مغيث، وأبو بكر بن فندلة، وأبو مروان الباجي، وأبو بكر بن مدير، وأبو الحسن بن موهب، وأبو بكر بن العربي، وأبو عبد الله بن معمَّر، وأبو عامر بن شروية، وأبو الحكم بن غشليان، وقفل إلى بلدة بعلمٍ جم ورواية عالية، فأقرأ وحدث وعلم العربية، وأخذ عنه الناس، وولي قضاء بلنسية في العاشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين، وأقام على ذلك أعوامًا حميد السيرة، مرضيَّ الطريقة، عدلًا في أحكامه، جزلًا في رأيه، صليبًا في الحق، إمامًا يعتمد عليه في القراءة والعربية؛ لتقدمه في معرفتهما مع الحظ الوافر من البلاغة، والتصرف البديع في الكتابة، وحسن الإمتاع بما يورده ويحكيه، وأوطن مرسية بآخرة من عمره، وناوب في الصلاة بها والخطبة أبا القاسم بن حبيش، وتوفي بها عند صدره عن قرطبة في النصف الثاني من جمادى الأولى سنة ٥٨٦، قيل: في السابع عشر منه، ودفن بظاهر مرسية عند مسجد الجُرف خارج باب ابن أحمد، إلى جانب صاحبه أبي القاسم بن حبيش — رحمهما الله — ومولده ببلنسية سنة ٥١٣. قال ابن الأبار بعد أن روى كل هذا: بعض خبره عن أبي زكريا الجعيدي.

ومحمد بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي المقرئ من أهل بلنسية، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبيه، وأبي العباس بن الحلَّال، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي الحسن بن النعمة، وقرأ أيضًا على أبي جعفر طارق بن موسى بقراءة نافع، ولقي أبا علي بن عريب، وأبا عبد الله بن الفرس، وأخذ عنهما، وكتب إليه أبو القاسم بن حبيش، وأبو عبيد الله بن حميد وغيرهما، وكان يقرئ القرآن بمسجد

ابن حزب الله من داخل بلنسية، ويؤم الناس في صلاة الفريضة، وكان موصوفًا بالإتقان والضبط والذكاء، مع الصلاح والخير، وكان صنع اليد بارع الخط صاحب تذهيب. قال ابن الأبار: روى لنا عنه أبو الحسن بن عبد الودود المربيطري، وتوفي سنة ٥٨٦، ومولده سنة ٥٣٧ بعضه عن ابن سالم.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن هذيل من أهل بلنسية، ويكنى أبا بكر أيضًا، روى عن أبيه وأبي عامر بن شرويه، وأبي الحسن طارق بن يعيش، وأبي الوليد بن الدباغ، وأبي الحسن بن النعمة وغيرهم، ورحل حاجًّا فلقي بالإسكندرية أبا طاهر السلفي سنة ٥٣٩، وحج سنة أربعين بعدها، فسمع بمكة من أبي علي بن العرجاء، وأجاز له أبو المظفر الشيباني، وقفل إلى الأندلس سنة ست وأربعين. قال ابن الأبار: وأخذ عنه أبو عمر بن عياد، وابناه محمد وأحمد، ومن شيوخنا أبو الربيع بن سالم، وأبو زيد بن حِماس، وأبو بكر بن محرز، وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر، له حظ من علم العبارة، ومشاركة يسيرة في اللغة، وكتب بخطه على ضعفه كثيرًا، ولد سنة ٥١٩، وقال ابن محرز: إنه ولد في حدود سنة ٥٢٠، وتوفي سنة ٥٨٨.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر الخطيب من أهل بلنسية، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، وسمع أبا الحسن بن النعمة، وكان من أهل الدين والصلاح والفضل والورع، سمع منه ابنه أبو حامد محمد بن محمد المكتِّب وغيره، وأقرأ القرآن طوال عمره، وأسمع كتب الرقائق والمواعظ، وكان خطيبًا ببعض نواحي بلنسية، توفي بها مستهل ربيع الأول سنة ٥٩٠ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكانت جنازته مشهودة لم يتخلف عنها أحد. عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد المكتِّب من أهل بلنسية، يعرف بابن عذارى، سماه أبو الربيع بن سالم في شيوخه، وقد كان معلمه في الكتاب، عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سلمان بن عثمان بن هاجد الأنصاري من أهل بلنسية، أخذ القراءات عن أبي بكر بن نمارة، وأبي زكريا يحيى بن أحمد بن أبي إسحاق، ورحل حاجًّا سنة ٥٧١، فأدى الفريضة في سنة اثنتين بعدها، وحج بعد ذلك حجتين، وجاور بمكة عامين، وسمع بها من أبي الحسن علي بن حميد بن عمار الطرابلسي صحيح البخاري، وكان قد سمعه من أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي، وسمع أيضًا من أبي محمد المبارك بن الطباخ، وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي، وعاد إلى بلنسية بعد سنة ٥٧٦، وأخذ عنه أبو الحسن بن خيرة، وأبو عبد الله بن أبي البقاء

وغيرهما. قال ابن الأبار: كان من أهل الصلاح والفضل والورع، متحققًا بأعمال البر من الصدقات ومفاداة الأسرى، محترفًا بالتجارة، مولده بعد الثلاثين وخمسمائة، توفي بمرسية ليلة الأربعاء الثاني أو الثالث من المحرم سنة ٥٩٨، وصُلِّي عليه صلاة العصر من اليوم المذكور، ودفن خارجها بالمصلى الجديد.

وأبو عبد الله بن خلف بن مرزوق بن أبي الأحوص الزناتي من أهل بلنسية، أصله من أندة من أعمالها، ينسب إلى زناته من نواحيها، يعرف بابن نِسع (بالنون)، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل ولازمه وأصهر إليه، وأخذ عن أبي عبد الله بن سعادة، وأبي الحسن بن النعمة وأجازوا له. قال ابن الأبار: وسمع من أبي الحسن طارق بن يعيش كتاب السيرة لابن إسحاق، ولكن لم يُجِزْ له، وأخذ عن أبي بكر عتيق بن الخصم مختصر العين للزبيدي، وأجاز له أبو القاسم بن حبيش ما رواه وألفه، وكان مقرئًا صالحًا زاهدًا ورعًا، أخذ عنه الناس، وكثيرًا ما كان يسمع كتاب السيرة لعلوِّ إسناده فيه، وكذلك الاستيعاب، حتى كاد يحفظهما. قال ابن الأبار: حدثني بذلك والدي عبد الله بن أبي بكر، وسمع منه هو وجماعة منهم أبو الحسن بن خيرة، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله بن أبي البقاء، وأبو بكر بن محرز، وأبو جعفر بن الدلال، وأبو محمد بن مطروح، وغيرهم، ولد سنة ٥٠٩، وتوفي صبح السبت الثاني عشر من شعبان سنة ٥٩٩، وهو ابن تسعين سنة، ودفن لصلاة العصر من اليوم المذكور بمقبرة باب بَيْطالة، وصلى عليه أبو الحسن بن خيرة، وكانت جنازته مشهودة.

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن خلف بن يحيى بن خلف بن شلبون الأنصاري النحوي من أهل بلنسية، سمع من أبي بكر بن جزيه، وأبي العطاء بن نذير، وأبي عبد الله بن نسع، وأبي الحجاج بن أيوب، وأبي عبد الله بن نوح، وأبي جعفر الحصار، وابن كوثر، وابن عروس، وابن حميد. قال ابن الأبار: وكان من أهل الرواية والدراية مع الضبط والإتقان وحسن الخط، وعني بالعربية والآداب فبرع فيها، وقعد للتعليم بها قال: ووصف لي بالتحقيق، وقد وقفت له على نظم ضعيف، وتوفي معتبطًا سنة ٥٩٩.

ومحمد بن يحيى بن خزعل بن سيف الطلحي الشريف، من ولد طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — من أهل بلنسية، يكنى أبا عبد الله، سمع أبا عبد الله بن حميد وأخذ عنه العربية، وأجاز له أبو محمد بن عبيد الله وأبو القاسم السهيلي وغيرهما. وكان أديبًا نحويًّا بارعًا فاضلًا، توفي بمراكش سنة ٦٠٤، عن ابن سالم، قاله ابن الأبار.

ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سليمان بن محمد الزهري من أهل بلنسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن القح، سمع من صهره أبي الحسن بن هذيل، ومن أبي الحسن بن النعمة، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي الحسن طارق بن يعيش، ومن أبي بكر بن خير، سمع منه بإشبيلية سنة ٥٧١، وأخذ عن أبي القاسم بن حبيش، وأبي الحسن بن سعد الخير، وكان له حظ من الفقه والقراءات، أخذ عنه ابنه أبو بكر محمد، وأبو عبد الله بن أبي البقاء وغيرهما. قال ابن الأبار: ورأيته وأنا صغير، وتوفي سحر ليلة الجمعة الثاني لجمادى الآخرة سنة ٦٠٥، ومولده سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن يحيى بن محمد بن عمر الأنصاري من أهل بلنسية، يعرف بابن غيرة. قال ابن الأبار: أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن نوح، وأبي جعفر الحصار من شيوخنا، وسمع من أبي عبد الله بن نسع، وأبي بكر بن علي القاضي، وسمع بلرية عن أبي زكريا يحيى بن محمد بن أبي إسحاق، وأبي عبد الله بن عياد، وأبي عبد الله بن فريع، وأخذ بمرسية عن أبي بكر بن أبي جمرة، وأخذ بإشبيلية القراءات عن أبي الحسن نجبة بن يحيى، وأبي إسحاق إبراهيم الطرياني، وأبي جعفر بن مضاء وغيرهم، وعني بالرواية أتم العناية، قال: ولا أعلمه حدث هذا، ولم يذكر ابن الأبار سنة مولده ولا سنة وفاته.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي من أهل بلنسية، أصله من سرقسطة، سمع من أبي الحسن بن النعمة، وأجاز له أبو بكر بن أبي جمرة، وكان وراقًا يبيع الكتب، إخباريًّا، أديبًا، حلو النادرة، فكيهًا، وجمع شعر أبي بكر يحيى بن محمد الجزار السرقسطي، وسماه «روضة المحاسن وعمدة المُحَاسن» قال ابن الأبار. روى عنه أبو عبد الله بن أبي البقاء وابنه أبو محمد عبد الله شيخنا، وقال لي: توفي سنة ٦٠٦، ومولده بعد الأربعين وخمسمائة.

وأبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقي من أهل بلنسية، ودار سلفه النبيه سرقسطة، سمع من أبيه أبي محمد أيوب، ومن أبي الحسن بن هذيل، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي الحسن بن النعمة، وأبي القاسم بن حبيش، وتفقه بأبي بكر يحيى بن محمد بن عقال، واستظهر المدونة عليه، وأخذ العربية والآداب عن ابن النعمة، وأجاز له أبو مروان بن قزمان، وأبو بكر بن محرز البطليوسي، وأبو مروان بن سلمة الوشقي، وأبو القاسم بن بشكوال وغيرهم. وكتب إليه من الإسكندرية أبو طاهر السلفي، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية، مع

وفور حظه منها وميله فيها إلى الأعلام المشاهير دون اعتبار لعلوِّ الأسانيد، وولي خطة الشورى في حياة شيوخه، وزاحم كبارهم في الحفظ والتحصيل، ولم يكن في وقته بشرقي الأندلس له نظير. كان رأسًا في العلماء الراسخين، وصدرًا في الفقهاء المشاورين، تقدم في الفتيا، واطلع على الآداب، واضطلع بالغريب، وشارك في التفسير، وتحقق بالقراءات، وأما عقد الشروط فإليه انتهت الرئاسة فيه، وبه اقتدى من بعده، لم يسبقه أحد من أهل زمانه إلى ما تميز به في ذلك مع حسن الخط وبراعة الضبط والبصر بالحديث والحفظ للأنساب والأخبار، وله تنابيه في فنون شتى، ولو عني بالتأليف لأربى على من سلف، وكان كريم الخلق عظيم القدر سمحًا جوادًا، ووُلِّي قضاء بعض الكور النبيهة، وخطب بجامع بلنسية وقتًا.

قال ابن الأبار: ولم يحظ بعلومه حظوة غيره، وامتحن بالولاة والقضاة، وكانوا يجدون السبيل إليه بفضل دعابة كانت فيه مع غلبة السلامة عليه في إعلانه وإسراره، واستغراق آناء ليله في تلاوة القرآن وأطراف نهاره، وكان على سعة علمه مزجى البضاعة في نظمه، وكان نثره أصلح منه، وأنشدني ابنه أبو الحسن محمد غير مرة قال: أنشدني أبي لنفسه:

كأن يقيننا بالموت شك ... وما عقل من الشهوات يذكو
أرى الشهوات غالبة علينا ... وعند المتقين لهن فتك

وهكذا كان ينشدنا غير مرتاب، ولم أزل في ذلك معوِّلًا على ضبطه حتى أفادني بعض أصحابنا في تونس — في أول سنة ٦٤٥ أو قبلها بيسير — قطعة نسبها إلى ابن المعتز، وأولها:

كأن يقيننا بالموت شك ... ولا عقل مع الشهوات يذكو
لهونا والحوادث دائبات ... لهن بمن قصدن إليه فتك
وفي الأحداث من أهل الملاهي ... رهائن لا تعاد ولا تفك
وللدنيا عِداتٌ بالتمني ... وكل عِداتها كذب وإفكٌ

ويشبه أن يكون أبو الحسن سمع أباه — رحمه الله — يتمثَّل بهذين البيتين فحسبهما من قوله ونسبهما إليه. وبالجملة فلم يكن لشيخنا في باب المنثور والمنظوم

ما يناسب براعته في أفانين العلوم، أقرأ القرآن، وأسمع الحديث، ودرس الفقه، وعلم بالعربية والآداب، وأخذ الناس عنه ورحلوا إليه، وسمع منه جلة من شيوخنا وأصحابنا، وطال عمره حتى أخذ عنه الآباء والأبناء. تلوت عليه القرآن بالسبع، وأجاز لي، وسمعت منه بعد والدي — رحمه الله — ومعه، وهو أغزر من لقيت علمًا وأبعدهم صيتًا، ولد أول وقت الظهر من يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٠، قرأت ذلك بخط أبيه أيوب — رحمه الله — وتوفي في أول وقت الظهر أيضًا من يوم الاثنين لستٍّ مضين من شوال سنة ٦٠٨، ودفن يوم الثلاثاء بعده لصلاة العصر بمقبرة باب الخنش وهو ابن ثمان وسبعين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، وصلى عليه أبو الحسن بن خيرة، وهو تولى غسله في جماعة من أصحابه الجلة، وشهدت الخاصة والعامة جنازته وأتبعوه ثناءً حسنًا، ورثي بمراثٍ كثيرة — رحمه الله — عن ابن الأبار بتصرُّف. وأبو عبد الله محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري النحوي من أهل بلنسية، وأصله من سرقسطة، يعرف بالنسبة إلى ابن أبي البقاء خاله، سمع من أبي العطاء بن نذير، وأبي بكر بن أبي جمرة، وأبي عبد الله بن نسع، وأبي عبد الله بن نوح، وأبي الخطاب بن واجب وغيرهم، وأجاز له أبو محمد بن الفرس، وأبو ذر الخشني، وأبو الحسين بن جبير وغيرهم، وكتب إليه من أعيان أهل المشرق أبو محمد بن يونس بن يحيى الهاشمي، وأبو عبد الله بن أبي الصيف، وأبو شجاع زاهر بن رستم، وأبو الحسن بن المفضل وغيرهم، وكان يحدث عن أبي مروان بن قزمان، وعن أبي طاهر الخشوعي بإجازته لأهل الأندلس، وفي شيوخه كثرة، وكان شديد العناية بالسماع والرواية مع الحظ الوافر من المعرفة والدراية، يتحقق بعلم اللسان، ويتقدم في العربية، بصيرًا بصناعة الحديث، معانيًا للتقييد مع حسن الخط وجودة الضبط، وكتب بخطه علمًا جمًّا، وربما تعيَّش من الوراقة لإقلاله.

قال ابن الأبار: نقلت من خطه ما نسبته إليه في هذا الكتاب، وأجاز لي بلفظه، وسمعت منه بعض نظمه، وكان شاعرًا مجوِّدًا حسن التصرف، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٦١٠، ودفن بمقبرة باب بَيطَالَة، ومولده في صفر سنة ٥٦٣. انتهى بتصرف.

ومحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن مفرج بن سهل الأنصاري من أهل بلنسية، يعرف بابن غطُّوس، ويكنى أبا عبد الله، كان يكتب المصاحف وينقطها، وانفرد في وقته بالإمامة في ذلك، ويقال: إنه كتب ألف نسخة من كتاب الله — عز وجل — ولم يزل الملوك فمن دونهم يتنافسون فيها إلى اليوم، وكان قد آلى على نفسه أن لا يخطَّ حرفًا من غيره

ولا يخلط به سواه تقربًا إلى الله وتنزيهًا لتنزيله، فما حنث فيما أعلم، وأقام على ذلك حياته كلها خالفًا أباه وأخاه في هذه الصناعة التي اشتهروا بها، وكان فيها آية من آيات خالقه مع الخير والصلاح والانقباض عن الناس والعزوف عنهم، قال ابن الأبار: رأيته على هذه الصفة، واستفدت منه بعضًا من مرسوم الخط، لقيته عند معلمي أبي حامد، وتغلب عليه الغفلة، وتوفي حول سنة ٦١٠.

وأبو عبد الله محمد بن وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن نذير الفهري من أهل بلنسية، وأصل سلفه من شنت مرية الشرق، سمع أباه، وأبا الحسن بن هذيل، وأبا القاسم بن حبيش وغيرهم، وأجاز له أبو الطاهر بن عوف، وأبو عبد الله بن الحضرمي، وكتب إليه السلفي وإلى أخيه أبي عامر بن نذير وأبيهما أبي العطاء القاضي، وخطب بجامع بلنسية مناوبًا أباه، واستقضي ببعض الكور. قال ابن الأبار: أخذت عنه جملة من أول الملخص للقابسي، وكان قد سمعه علي بن حبيش، وعاقني عن إكماله بالقراءة مرضه الذي توفي منه ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين لشوال سنة ٦١٣، ودفن لصلاة العصر منه بمقبرة باب الخنش، وصلى عليه أبو الحسن بن خيرة، ومولده سنة ٥٥١ أو نحوها. انتهى بتصرُّف.

وأبو قاسم محمد بن محمد بن أيوب بن محمد بن نوح الغافقي من أهل بلنسية، سمع من أبيه ومن أبي القاسم بن حبيش وغيرهما، وأجاز له أبو مروان بن قزمان، وأبو بكر بن محرز البطليوسي وغيرهما، وكان مشاركًا في الفقه ماهرًا في عقد الشروط، متقدمًا في الآداب شاعرًا مكثرًا، وقد كان تولى قضاء جزيرة شقر، وكان جده أيوب بن محمد وجد أبيه محمد بن وهب توليًا هذا القضاء من قبل، ثم ولي بعد مدة قضاء المرية، ومنها نقل إلى قضاء بلنسية سنة ٦١١. قال ابن الأبار في التكملة: ولم تحمد سيرته، وصرف عن قضاء بلنسية مستدعًى إلى مراكش بعد انبعاث من أهل بلده لمطالبته، قال: وشيعته حينئذ فيمن شيعه وفاتني السماع منه، فأخذت بعض منظومه عن أخيه، وعاجلته منيته بعد صرفه عن القضاء؛ فتوفي بمراكش إثر صلاة الظهر من يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦١٤، وهو ابن ستين سنة أو نحوها.

وأبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني من أهل بلنسية، نزل أبوه شاطبة، وانتقل هو إلى غرناطة، روى عن ابن الحاج وأخذ العربية عن ابن يسعون، وسمع بشاطبة من أبيه أبي جعفر، وأبي عبد الله الأصيل، وأبي الحسن بن أبي العيش، وأجاز له أبو الوليد بن الدباغ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمي السبتي، وعني

بالآداب فبلغ منها الغاية، وتقدم في صياغة القريض وصناعة الكتابة، ونال بها دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها وتحرك لنيته الحجازية في شوال سنة ٥٧٨ صحبة أبي جعفر بن حسان، فأدى الفريضة، وسمع بمكة من أبي حفص الميانشي، ولقي بدمشق أبا الطاهر الخشوعي؛ فأخذ عنه مقامات الحريري بين قراءة وسماع في جمادى الأولى سنة ٥٨٠، وحدث بها عنه إجازة، وأجاز له أبو محمد عبد اللطيف الخجندي، وأبو أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي، وأبو محمد بن عساكر، وأبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التونسي المجاور بمكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي، نزيل دمشق وغيرهم، وقفل إلى الأندلس، وسمع منه بها، وحمل عنه شعره، وهو كثير مدوَّن.

قال ابن الأبار: حدثنا عنه به أبو تمام بن إسماعيل بلفظه بين سماع ومناولة وغيره من شيوخنا وأصحابنا، ثم رحل ثانيةً إلى المشرق تاسع شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وعاد إلى المغرب، ثم رحل ثالثة سنة ٦٠١، وجاور بمكة وبالقدس، وحدث هنالك وأخذ عنه، وتوفي بالإسكندرية ليلة يوم الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤، وهو ابن خمس وسبعين سنة. مولده ببلنسية سنة ٥٣٩، وقيل بشاطبة سنة أربعين. قاله ابن الأبار. وقال المقَّري في نفح الطيب عند ذكر أعلام الأندلس الذين لهم رحلة إلى الشرق: ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني صاحب الرحلة، وهو من ولد حمزة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أندلسي شاطبي بلنسي، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية، وقيل في مولده غير ذلك، وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الأصيلي، وأبي الحسن بن أبي العيش، وأخذ عنه القراءات، وعني بالأدب، فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة القريض والكتابة، ومن شعره قوله وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنًا نضيرًا من أحد بساتينها فذوى في يده:

لا تغترب عن وطن   واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا   ما فارق الأصل ذوى

وقال — رحمه الله — يخاطب الصدر الخجندي:

يا من حواه الدين في عصره   صدر يحل العلم منه الفؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى   في زائر يخطب منه الوداد

لا يبتغي منه سوى أحرف يعتدها أشرف ذخر يفاد
ترسمها أنمله مثلما نمق زهر الروض كف المهاد
في رقعة كالصبح أهدى لها يد المعالي مسك ليل المداد
إجازة يورثنيها العلي جائزة تبقى وتفنى البلاد
يستصحب الشكر خديمًا لها والشكر للأمجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندي:

لك الله من خاطب خلتي ومن قابس يجتدي سقط زندي
أجزت له ما أجازوه لي وما حدثوه وما صح عندي
وكاتب هذي السطور التي تراهن عبد اللطيف الخجندي

قال صاحب النفح: ورافق ابن جبير في هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي، وأصله من أندة من عمل بلنسية، رحل معه فأدَّيَا الفريضة وسمعا بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي، وأجاز لهما أبو محمد بن أبي عصرون، وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما، ودخلا بغداد وتجوَّلا مدة، ثم قفلا جميعًا إلى المغرب، فسمع من كل منهما بعض ما كان عنده، وكان أبو جعفر هذا متحققًا بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد مع المشاركة الكاملة في فنون العلم.

توفي أبو جعفر هذا بمراكش سنة ثمان أو تسع وتسعين وخمسمائة، ولم يبلغ الخمسين في سنه. رجع إلى ابن جبير، قال لسان الدين بن الخطيب في حقه: إنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب، وله الرحلة المشهورة، واشتهرت في السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب له قصيدتان؛ إحداهما أولها:

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

ومنها:

رفعت مغارم مكس الحجاز بإنعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر

وسحب أياديك فياضة على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد وكم لك بالغرب من شاكر

والأخرى منها في الشكوى من ابن شكر الذي كان أخذ المكس من الناس في الحجاز:

وما نال الحجاز بكم صلاحًا وقد نالته مصر والشآم

قلت: حيث ذكر المقري في النفح شيئًا عن ابن جبير نقلًا عن لسان الدين بن الخطيب، فقد رأيت الأولى أن أنقل كلامه عنه من كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، قال: محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكناني الواصل إلى الأندلس، دخل جده عبد السلام الأندلس في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في محرَّم سنة ثلاث وعشرين ومائة، وهو من ولد حمزة بن كنانة بن بكر بن عبد بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بلنسي الأصل، ثم غرناطي الاستئصال، شرق وغرب وعاد إلى غرناطة، كان أديبًا شاعرًا مجيدًا، سنيًّا فاضلًا، نزيه الهمة سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة، كتب بسبتة عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة، ثم نزع عن ذلك وتوجه إلى المشرق، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته، ونظمه فائق ونثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار، رحمه الله.

قال من عني بخبره: رحل ثلاثًا من الأندلس إلى الشرق، وحج في كل واحدة منها، فَصَل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمانٍ خلون من شوال، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة صحبة أبي جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه غرناطة لثمانٍ بقين من محرم عام أحد وثمانين، ولقي أقوامًا يأتي التعريف بهم في مشيخته، وصنف الرحلة المشهورة، وذكر ما نقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع الصنائع، وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن الأنفس إلى تلك المعالم.

ولما شاع الخبر المبهج بفتح المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي قوي عزمه على إعمال الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وثمانين، وسكن بغرناطة، ثم

بمالقة، ثم بسبتة، ثم بفاس، منقطعًا إلى إسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده، وفضله بديع وورعه يحقق أعماله الصالحة. ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي، وكان كلفه بها جمًّا فعظم وجده عليها، فوصل مكة وجاور بها طويلًا ثم ببيت المقدس، ثم تحول لمصر والإسكندرية، فأقام يحدِّث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.

قال ابن الخطيب عن ابن جبير: روى بالأندلس عن أبيه وأبي الحسن بن محمد بن أبي العيش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصيلي، وأخذ العربية عن الحجاج بن يسعون، وبسبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي، وأجاز له أبو إبراهيم بن إسحاق بن عبد الله بن عيسى التميمي السبتي التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد عم القرشي الميانجي نزيل مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفتكي، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندي — رئيس الشافعية بأصبهان، وببغداد العالم الحافظ أبو الفرج، وكنَّاه أبو الفضل بن الجوزي، وحضر مجالسه الوعظية فشاهد رجلًا ليس بعمرو ولا زيد وكل الصيد في جوف الفرا. وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي الحواري، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وأبو الطاهر الخشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني من أئمة الكتَّاب، وأخذ عنه بعض كلامه، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأحصر بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم. ا.هـ.

قلنا: أما أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي، فقد ورد في شذرات الذهب ذكر عبد الكريم بن حمزة أبي محمد السلمي الدمشقي مسند الشام، روى عن أبي القاسم الحتاني، والخطيب، وأبي الحسين بن مكي، وكان ثقة، توفي في ذي القعدة سنة ست وعشرين وخمسمائة.

وورد أيضًا ذكر أبي يعلى حمزة بن أحمد بن فارس بن كروَّس السلمي الدمشقي، وكان شيخًا مباركًا حسن السمت، توفي في صفر سنة سبع وخمسين وخمسمائة وله أربع وثمانون سنة. وأما أبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي[٤١] مسند الشام، فقد مات سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة عن تسع وثمانين سنة، وقد ورد ذكره في الجزء الرابع صفحة ٣٣٧ من شذرات الذهب. وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان: إنه أبو الطاهر بركات ابن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أبي الفضل طاهر بن بركات بن

إبراهيم بن علي بن محمد بن أحمد بن العباس بن هاشم الخشوعي الدمشقي الفُرشي — بضم الفاء وسكون الراء وبعدها شين مثلثة — نسبة إلى بيع الفرش، ومثل ذلك الأنماطي.

قال ابن خلكان: كان له سماعات عالية وإجازات تفرَّد بها، وألحق الأصاغر بالأكابر، وانفرد بالإجازة من أبي محمد القاسم الحريري البصري صاحب المقامات، وهو من بيت الحديث؛ حدَّث هو وأبوه وجده، وسُئل أبوه: لم سُمُّوا الخشوعيين؟ فقال: كان جدنا الأعلى يؤم بالناس فتوفي في المحراب فسمي الخشوعي نسبة إلى الخشوع.

وكان مولد أبي الطاهر المذكور بدمشق في رجب سنة عشر وخمسمائة، وتوفي ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة، ودفن من الغد بباب الفراديس على والده، رحمهما الله تعالى.

وأما عماد الدين أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن حامد الأصبهاني، فيذكر الذهبي وفاته في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وهو العماد الأصبهاني الكاتب الشهير كاتب السلطان صلاح الدين. قال ابن خلكان في الوفيات: أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهاني، المعروف بابن أخي العزيز، كان العماد المذكور فقيهًا شافعيَّ المذهب، تفقَّه بالمدرسة النظامية زمانًا، وأتقن الخلاف وفنون الأدب، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه، وذكر منشأه بأصبهان وقدومه لطلب العلم في بغداد، وأنه اتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط، فلما مات الوزير المذكور نكب أتباعه، فهاجر العماد الأصبهاني إلى دمشق فوصلها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن أتابك زنكي، وقاضيها كمال الدين بن الشهرزوري، فتعرف به وعرفه أيضًا الأمير الكبير نجم الدين والد السلطان صلاح الدين. وفي تلك المدة تعرف بصلاح الدين أيضًا.

ولما توفي نور الدين زنكي نظمه صلاح الدين في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه؛ فصار من الصدور المعدودين، وكان ملازمًا لصلاح الدين وله التآليف الكثيرة.

ولما مات السلطان صلاح الدين اختلت أحوال العماد الأصبهاني؛ فلزم بيته وأقبل على التأليف، وكانت ولادته سنة تسع عشرة وخمسمائة بأصبهان، وتوفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق، وذكره صاحب شذرات الذهب في الصفحة ٣٣٢ من الجزء

الرابع، وترجمته في الشذرات لا تخرج عن مآل ترجمته في الوفيات، وذكر أنه تلاقى مع القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني وزير صلاح الدين فقال له العماد: سِرْ فلا كبا بك الفرس. وهي جملة تقرأ طردًا وعكسًا. وكذلك ذكره الذهبي في تاريخه في من مات سنة سبع وتسعين وخمسمائة. ا.هـ.

وقد نقلنا تراجم هؤلاء الأعيان من المشارقة الذين أخذ عنهم ابن جبير الأندلسي؛ نظرًا لشهرتهم ولإجازاتهم لعلماء الأندلس. ونعود إلى نقل ما قاله لسان الدين بن الخطيب عن ابن جبير، وهو ما يأتي:

(٤-١) من أخذ عنه

قال ابن عبد الملك: أخذ عنه أبو إسحاق بن مهيب، وابن الواعظ، وأبو تمام بن إسماعيل، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي، وأبو الحسن علي الشادي، وأبو سليمان بن حوط الله، وأبو زكريا، وأبو بكر بن محمد يحيى بن أبي الغمر، وأبو عبد الله بن حسن بن مجير، وأبو العباس بن عبد المؤمن البناني، وأبو محمد بن الحسن اللواتي، وأبو محمد بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي.

وممن أخذ عنه بالإسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله، وبمصر رشيد الدين بن العطار، وفخر القضاة بن الجياب، وابنه جمال القضاة.

(٤-٢) تصانيفه

منها نظمه؛ قال ابن عبد الملك: وقفت منه على مجلد على قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس. وجزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» في مراثي زوجه أم المجد. وجزء سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان»، وله ترسل بديع وحكم مستجادة وكتاب رحلته. وكان أبو الحسن الشادي يقول: إنها ليست من تصانيفه وإنما قيد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه، والله أعلم. قلت: هذا غير صحيح؛ لأن نسجه معروف وأسلوبه العالي واحد لا تختلف فيه جملة عن جملة، وديباجة كلام ابن جبير لا تخفى على أحد.

(٣-٤) شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التي نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

أقول: وآنست بالليل نارًا ... لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى ... كأن سنا البرق منه استنارا
ونحن من الليل في حندس ... فما باله قد تجلى نهارا
وهذا النسيم شذا المسك قد ... أعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحلنا تشتكي ... وجاها فقد سبقتنا ابتدارا
وكنا شكونا عناء السرى ... فعدنا نباري سراع المهارى
أظن النفوس قد استشعرت ... بلوغ هوى تخذته شعارا
بشائر صبح السرى آذنت ... فإن الحبيب تدانى مزارا
جرى ذكر طيبة ما بيننا ... فلا قلب في الركب إلا وطارا
حنينًا إلى أحمد المصطفى ... وشوقًا يهيج الضلوع استعارا
ولاح لنا أُحُدٌ مشرقًا ... بنور من الشهداء استعار
فمن أجل ذلك ظل الدجى ... يحل عقود النجوم انتشارا
ومن طرب الركب حث الخطى ... إليها ونادى البدارا البدارا
ولما حللنا فناء الرسول ... نزلنا بأكرم مجد جوارا
وحين دنونا لفرض السلام ... قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا
فما نرسل اللحظ إلا اختلاسًا ... وما نرجع الطرف إلا انكسارا
ولا نظهر اللفظ إلا اختلاسًا ... وما نرجع القول إلا سرارا
سوى أننا لم نطق أعينًا ... بأدمعها غلبتنا انفجارا
وقفنا بروضة دار السلام ... نعيد السلام عليها مرارا
ولولا مهابته في النفوس ... لثمنا الثرى والتزمنا الجدارا
قضينا بزورته حجَّنا ... وبالعمرتين ختمنا اعتمارا
إليك إليك نبيَّ الهدى ... ركبت البحار وجُبت القفارا
وفارقت أهلي ولا منَّة ... ورب كلام يجر اعتذارًا

وكيف تمن على من به — نؤمل للسيئات اغتفارا
دعاني إليك هوى كامن — أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديت لبيك داعي الهوى — علي وقلت: رضيت اختيارا
أخوض الدجى وأروض السرى — ولا أطعم النوم إلا غرارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل — لطرت ولو لم أصادف مطارا[٤٢]
عسى لحظة منك لي في غد — تمهد لي في الجنان القرارا
فما ضل من بسراك اهتدى — ولا ذل من بذراك استجارا

وفي غبطة من من الله عليه بحج بيته وزيارة قبر نبيه ﷺ يقول:

هنيئًا لمن حج بيت الهدى — وحط عن النفس أوزارها[٤٣]
فإن السعادة مضمونة — لمن حج طيبة أو زارها

وفي مثل ذلك يقول:

إذا بلغ المرء أرض الحجاز — فقد نال أفضل ما أمله
وإن زار قبر نبي الهدى — فقد كمل الله ما أم له

وقال في تفضيل المشرق:

لا يستوي شرق البلاد وغربها — الشرق حاز الفضل باستحقاق
انظر ترى للشمس عند طلوعها — زهوًا يزيد ببهجة الإشراق
وانظر لها عند الغروب كهيئة — صفراء تعقب ظلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غربها — أن تؤذن الدنيا بعزم فراق

وقال في الوصايا:

عليك بكتمان المصائب واصطبر — عليها فما أبقى الزمان شقيقا
كفاك بشكوى الناس إذ ذاك أنها — تسر عدوًّا أو تسيء صديقا

وقال:

ومصانع المعروف فلتة عاقل　　إن لم تضعها في محل عاقل
كالنفس في شهواتها إن لم تكن　　وقفًا لها عادت بضر عاجل

(٤-٤) نثره

من حكمه قوله: إن شرف الإنسان فبشرف وإحسان، وإن فاق فبفضل وإرفاق. ينبغي أن يحفظ الإنسان لسانه كما يحفظ الجفن إنسانه؛ فرب كلمة تقال تحدث عثرة لا تقال. كم كست فلتات الألسنة الحداد من ورائها ملابس حداد! نحن في زمان لا يحصل فيه نَفاق إلا من عامل بالنفاق. شغل الناس عن الطريق بزخارف الأعراض؛ فنسوا الصدود عنها والإعراض ... آثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هفت في حبها من أحلام. وأطالوا فيها آمالهم وقصروا أعمالهم! ما بالهم لم يتفرغوا لغيرها؟! ما لهم في غير ميدانها استباق ولا لسوى هواها اشتياق. تالله لو كشفت الأسرار لما كان هذا الإصرار، ولسهرت العيون وتفجر من شئونها الجفون. لو أن عين البصيرة من سنتها هابَّة لرأت ما في الدنيا ريحًا هابة. ولكن استولى العمى على البصائر ولا يعلم الإنسان ما إليه صائر، وأسأل الله هداية سبيله ورحمة تورد نسيم الفردوس وسلسبيله؛ إنه الحنان المنان لا رب سواه.

فلتات الهبات أشبه شيء بفلتات الشهوات. منها نافع لا يعقب ندمًا، ومنها ضار يبقي في النفس ألمًا. فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداءً وربما أثرت عنده اعتداءً. وضرر الشهوات أن لا توافق ابتداءً فتصير لتبعها داءً. مثلها كمثل المسكر يلتذ صاحبه بحلاوة جناه فإذا صحا عرف ما قد جناه. وعكس هذه القضية هي الحالة المرضية.

(٤-٥) مولده

ببلنسية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وقيل بشاطبة في هذا التاريخ.

(٤-٦) وفاته

توفي بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة أربع عشرة وستمائة، وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها، «وقال صاحب الملتمس» في حقه: الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ممن لقيته وجالسته كثيرًا ورويت عنه، وأصله من شاطبة، وكان أبو جعفر من كتابها ورؤسائها، ذكره ابن اليسع في تاريخه، ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه، وتولع بغرناطة فسكن بها. قال: ومما أنشدنيه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بإشبيلية:

أبا عمران قد خلفت قلبي لديك وأنت أهل للوديعة
صحبت بك الزمان أخا وفاء فها هو قد تنمر للقطيعة

قال: وكان من أهل المروءات، عاشقًا في قضاء الحوائج، والسعي في حقوق الإخوان، والمبادرة لإيناس الغرباء، وفي ذلك يقول:

يحسب الناس بأني متعب في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتبعهم من ذاك لي راحة في غيرها لن أفكرا
وبودي لو أقضي العمر في خدمة الطلاب حتى في الكرى

قال: ومن أبدع ما أنشده — رحمه الله — أول رحلته:

طال شوقي إلى بقاء ثلاث لا تشد الرحال إلا إليها
إن للنفس في سماء المعالي طائرًا لا يحوم إلا عليها
قص منه الجناح فهو مهيض كل يوم يرجو الوقوع لديها

وعاد — رحمه الله — إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج، فعطب في خليج صقلية الضيق وقاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١، ثم أعاد المسير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات

بالإسكندرية كما تقدم، ومن شعره أيضًا:

لي صديق خسرت فيه ودادي حين صارت سلامتي منه ربحا
حسن القول سيئ الفعل كالجزْ زَار سمى وأتبع القول ذبحا

وحدث — رحمه الله — بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض. ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي. وتوفي ابن جبير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤، والدعاء عند قبره مستجاب، قاله ابن الرقيق — رحمه الله — وقال «أبو الربيع بن سالم»: أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي، ويعرف بابن الخطيب، لأبي الحسين بن جبير، وقال: وهو مما كتب إليَّ به من الديار المصرية في رحلته الأخيرة لما بلغه ولايتي قضاء سبتة، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقشي، فدفنها بها:

بسبتة لي سكن في الثرى وخل كريم إليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوى فزرت بها الحي والميتا

وأنشد ابن جبير — رحمه الله — لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة أو في طريقها قوله:

لنحو أرض المنى من شرق أندلس شوق يؤلف بين الماء والقبس

إلى آخرها.

وقال — رحمه الله:

وإني لأوثر من أصطفي وأغضي على زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب لأعتقد الفضل للزائر

وقال — رحمه الله:

عجبت للمرء في دنياه تُطْمِعُه   في العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسي ويصبح في عشواء يخبطها   أعمى البصيرة والأعمال تخدعه
يغتر بالدهر مسرورًا بصحبته   وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصًا لا يفارقه   وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه   وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرًا لعاقبةٍ   من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال:

صبرت على غدر الزمان وجعده   وشاب لي السم الذعاف بشهده
وجربت إخوان الزمان فلم أجد   صديقًا جميل الغيب في حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته   فما دام لي يومًا على حسن عهده
وكم غرني تحسين ظني به فلم   يضئ لي على طول اقتداحي لزنده
وأغرب من عنقاء في الدهر مغرب   أخو ثقة يسقيك صافيَ وده
بنفسك صادم كل أمر تريده   فليس مضاء السيف إلا بحده
وعزمك جرِّد عند كل مهمة   فما نافع مكث الحسام بغمده
وشاهدت في الأسفار كل عجيبة   فلم أر من قد نال جدًّا بجده
فكن ذا اقتصاد في أمورك كلها   فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الإنسان رزقًا لعجزه   كما لا ينال الرزق يومًا بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة   جرت بقضاء لا سبيل لرده

وقال:

الناس مثل ظروف حشوها صبر   وفوق أفواهها شيء من العسل
تغرُّ ذائقها حتى إذا كشفت   له تبين ما تحويه من دخل

وقال:

تغير إخوان هذا الزمان — وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديمًا على صحة — فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم — فصرت أطالع باب البدل

انتهى بتصرف. ولابن جبير — رحمه الله تعالى:

من الله فاسأل كل أمر تريده — فما يملك الإنسان نفعًا ولا ضرًّا
ولا تتواضع للولاة فإنهم — من الكبر في حال تموج بهم سكرا
وإياك أن ترضى بتقبيل راحة — فقد قيل عنها إنها السجدة الصغرى

وهو نحو قول قائل:

أيها المستطيل بالبغي أقصر — ربما طأطأ الزمان الرءوسا
وتذكر قول الإله تعالى — إن قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندة من قرى مصر:

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة — بأجواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى: جد بمدمع — فليس لنا إلا المدامع قربان

وقال ابن جبير:

قد أحدث الناس أمورًا فلا — تعمل بها إني امرؤ ناصح
فما جماع الخير إلا الذي — كان عليه السلف الصالح

وقال:

رب إن لم تؤتني سعة — فاطوِ عني فضلة العمر

لا أحب اللبث في زمن حاجتي فيه إلى البشر
فهمُ كسر لمنجبر ما همُ جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير — رحمه الله — مكة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التي أولها:

بلغت المنى وحللت الحرم فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلًا بمكة أهلًا بها وشكرًا لمن شكره يلتزم

وهي طويلة وسيأتي بعضها. وقال — رحمه الله — عند تحركه للرحلة الحجازية:

أقول وقد دعا للخير داع حننت له حنين المستهام
حرام أن يلذ لي اغتماض ولم أرحل إلى البيت الحرام
ولا طافت بي الآمال إن لم أطف ما بين زمزم والمقام
ولا طابت حياة لي إذا لم أزر في طيبة خير الأنام
وأهديه السلام وأقتضيه رضى يدني إلى دار السلام

ولنختم ترجمته بقوله:

أحب النبي المصطفى وابن عمه عليًّا وسبطيه وفاطمة الزهرا
همُ أهل بيت أذهب الرجس عنهم وأطلعهم أفق الهدى أنجمًا زهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم وحبهمُ أسنى الذخائر للأخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض فإني أرى البغضاء في حقهم كفرا
همُ جاهدوا في الله حق جهاده وهم نصروا دين الهدى بالظبى نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم لذي الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

وقوله في آخر الميمية:

نبي شفاعته عصمة فيوم التنادي به يعتصم

عسى أن تجاب لنا دعوة لديه فنُكفى بها ما أهم
ويرعى لزوَّاره في غدٍ ذمامًا فما زال يرعى الذمم
عليه السلام وطوبى لمن ألم بتربته فاستلم
أخي كم نتابع أهواءنا وتخبط عشواؤها في الظلم
رويدك جزت فعُجْ واقتصد أمامك نهج الطريق الأعم
وتب قبل عض بنان الأسى ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها:

وقل: رب هب رحمة في غدٍ لعبد بوسم العصاة اتسم
جرى في ميادين عصيانه مسيئًا ودان بكفر النعم
فيا رب صفحك عما جنى ويا رب عفوك عما اجترم

وقال المقري — رحمة الله عليه — في الباب السابع من كتابه ما نصه: ومن الحكايات في مروءة أهل الأندلس ما ذكره صاحب الملتمس في ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبي الحسين بن جبير صاحب الرحلة، وقد قدمنا ترجمته في الباب الخامس من هذا الكتاب، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقًا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان، وأنشدنا هنالك قوله: «يحسب الناس بأني متعب … إلخ»، وقد ذكر ذلك كله صاحب الملتمس ثم قال (أعني صاحب الملتمس): ومن أغرب ما يحكى أني كنت أحرص الناس على أن أصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس؛ فجعلته يعني أبا جبير الواسطة حتى تيسَّر ذلك، فلم يوفق الله ما بيني وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك، فقال: أنا ما كان القصد بي في اجتماعكما، ولكن سعيت جهدي في غرضك، وها أنا أسعى أيضًا في افتراقكما إذ هو من غرضك، وخرج في الحين ففصل القضية. ولم أر في وجهه أولًا ولا أخيرًا عنوانًا لامتنان.

ثم إنه طرق بابي ففتحت له، ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية، فقال: يا ابن أخي، اعلم أني كنت السبب في هذه القضية، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك، فبالله ألا ما سررتني بقبوله، فقلت له: أنا ما أستحي منك في هذا الأمر، والله إن أخذت هذا المال لأتلفنَّه فيما أتلفت فيه مال والدي

من أمور الشباب، ولا يحل لك أن تمكنني به بعد أن شرحت لك أمري، فتبسم وقال: لقد احتلت في الخروج عن المنة بحيلة، وانصرف بماله. انتهى.

ثم قال صاحب الملتمس: وتذاكرنا يومًا معه حالة الزاهد أبي عمران المارتلي فقال: صحبته مدة فما رأيت مثله، وأنشدني شعرين ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت، فالأول قوله:

إلى كم أقول فلا أفعل وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوي وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلل لي ويحها بعل وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا وأغفل والموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادي بنا منادي الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا وسبع[٤٤] أتت بعدها تعجل
كأن بي وشيكًا إلى مصرعي يساق بنعشي ولا أمهل
فيا ليت شعري بعد السؤال وطول المقام لما أنقل

والثاني قوله:

اسمع أخي نصيحتي والنصح من محض الديانة
لا تقربن إلى الشها دة والوساطة والأمانة
تسلم فلا تعزى لزو ر أو فضول أو خيانة

قال: فقلت له: أراك لم تعمل بوصيتك في الوساطة، فقال: ما ساعدتني رقة وجهي. انتهى.

وفي كتاب رحلة العبدري ما صورته قال: وأنشدني «شيخنا أبو زيد» أيضًا قال: أنشدني أبو عمرو بن الشقر: قال: أنشدني الفقيه الزاهد المنقطع إلى الله بمهجته أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني بالإسكندرية لنفسه:

تأن في الأمر لا تكن عجلًا فمن تأنى أصاب أو كادا
وكن بحبل الإله معتصما تأمن به بغي كلِّ من كادا

فمن رجاه فنال بغيته عبد مسيء بنفسه كادا
ومن تطل صحبة الزمان له يلقى خطوبًا به وأنكادا

وبنحوه له:

ذد العقل عن لحظة في الهوى فإن البصيرة طوع البصر
وغض جفونك عن عفة فإن زناء العيون النظر

وأنشدني أيضًا بمثله:

أما في الدهر معتبر ففيه الصفو والكدر
فسلني عن تقلبه فعند جهينة الخبر
صحبناه إلى أجل نراقبه ونحتذر
فيا عجبًا لمرتحل ولا يدري متى السفر

وقال العبدري أيضًا بعد وصفه الإسكندرية وعجائبها: ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي، وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس — لا حرس الله مهجهم الخسيسة ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة — فمدوا في الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعًا من المظالم، وأذاقوهم ألوانًا من الهون، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله، وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلدةٍ من البلاد، ولا رأيت في الناس أقسى قلوبًا ولا أقل حياءً ومروءة، ولا أكثر إعراضًا عن الله سبحانه وجفاءً لأهل دينه من أهل هذا البلد، نعوذ بالله من الخذلان، فلو شاء لاعتدل المائل وانتبه الوسنان، وكنت إذ رأيت فعل المذكورين ظننت أن ذلك أمر أحدثوه، حتى حدثني نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبي الحسن يحيى بن الشيخ وجيه الدين أبي علي منصور بن عبد العزيز بن حباسة الإسكندري بمدرسة جده المذكور حكاية اقتضت أن لهم في هذه الفضائح سلفًا غير صالح، وذلك أنه حدثني إملاءً من كتابه قال: حدثني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد السبتي الحميري بثغر

الإسكندرية سنة ٦٦٢ قال: حدثني الشيخ الإمام المحدث أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي سنة ٦١١ أنه ورد إلى الإسكندرية في ركب عظيم من المغاربة برسم الحج، فأمر الناظر على البلاد بمد اليد فيهم للتفتيش والبحث عما بأيديهم؛ ففتش الرجال والنساء، وهتكت حرمة الحرم، ولم يكن فيهم إبقاء على أحد. قال: فلما جاءتني النوبة وكانت معي حرم ذكرتهم بالله ووعظتهم، فلم يعرجوا على قولي ولا التفتوا إلى كلامي، وفتشوني كما فتشوا غيري؛ فاستخرت الله تعالى، ونظمت هذه القصيدة ناصحًا لأمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومذكِّرًا بالله في حقوق المسلمين ومادحًا له، فقلت:

أطلَّت على أفقك الزاهر ... سعود من الفك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدى ... تمد إلى سيفك الباتر
وعما قليل يحل الردى ... بكيدهمُ الناكث الغادر
وخصب الورى يوم يسقي الثرى ... سحائب من دمها الهامر
فكم لك من فتكة فيهمُ ... حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة ... فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها ... فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم ... فتعسًا لجدهمُ العاثر
فأدبر ملكهمُ بالشآم ... وولى كأمسهمُ الدابر
جنودك بالرعب منصورة ... فناجز متى شئت أو صابر
فكلهمُ غارق هالك ... بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى في العدى ... فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى ... فسماك بالملك الناصر
وتسهر جفنك في حق من ... سيرضيك في جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه ... فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى ... فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى ... وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذي الفتوح ... من الزمن الأول الغابر
وكم خص من بعدما زدته ... بها لاصطناعك في الآخر

محبتكم ألقيت في النفوس بذكر لكم في الورى طاهر
فكم لهمُ عند ذكر الملوك بمثلك من مثل سائر
رفعت مغارم أرض الحجاز بإنعامك الشامل الغامر
وآمنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد وكم لك في الغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عام بمكة من معلن جاهر

ومنها عن من يظلم الحجاج:

يعنت حجاج بيت الإله ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهمُ وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا كأنهمُ في يد الآسر
ويلزمهم حلفًا باطلًا وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة فليس لها عنه من ساتر
أليس يخاف غدًا عرضه على الملك القادر القاهر
وليس على حرم المسلمين بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر نافع زجره فيا ذلة الحاضر الزاجر
ألا ناصح مبلغ نصحه إلى الملك الناصر الظافر
ظلومًا تضمن مال الزكاة لقد نفست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن ويبدي النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادثًا أنه يقبح أحدوثة الذاكر
فما للمناكر من زاجر سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تزل رسمها فما لك في الناس من عاذر
ورفعك أمثالها موسعًا رداءً فخارك من ناشر
وآثارك الغر تبقى بها وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة في حقكم وحق الوفاء على الناذر
وحبك ألطفني بالقريض وما أبتغي صلة الشاعر

ولا كان فيما مضى مكسبي　　وبئس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى　　فناهيك من لقب شاهر
وإن كان نظمي له نادرًا　　فقد قيل: لا حكم للنادر
ولكنها خطرات الهوى　　تعن فتغلب بالخاطر
وأما وقد زار تلك العلا　　فقد فاز بالشرف الباهر
وإن كان منك قبول له　　فتلك الكرامة للزائر
ويكفيك سمعك من سامع　　ويكفيك لحظك للناظر
ويزهي على الروض غب الحيا　　بما حاز من ذكرك العاطر

قلت: هكذا حدثني أبو عبد الله بهذه الحكاية، وقد وقعت في كتابه مشهورة لم يذكر فيها إلا ما أثبته، وبالله التوفيق.

وأنشدني أبو عبد الله أيضًا عن أبي العباس المذكور عن ابن جبير قصيدة، نظمها ارتجالًا حين تراءت له مدينة رسول الله ﷺ وهي هذه الأبيات:

أقول وآنست ...　　...　　...　　...

الأبيات.

وقال علي بن ظافر في «بدائع البدائه»: أنبأني المسكين نزلت من القرافة لوداع الأجل أبي الحسين بن جبير، فقال: كنت على المجيء إليك، فقلت: وهمة سيدي هي التي أتت به. فسألني عن القرافة، فقلت: هي موضع يصلح للخير والشر، من طلب شيئًا وجده، فقال: خذ هذه الحكاية: كنت متفرجًا في مكان وبت به، ثم أقبلت بكرة، فلقيني تلميذ لي فقال:

من أين أقبلت يا من لا نظير له　　ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فأجبته مسرعًا:

من موضع تعجب النساك خلوته　　وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

(٥) رحلة ابن جبير

ولقد أطلنا في أخبار ابن جبير الأندلسي زيادةً على كل أندلسي؛ وذلك لزيادة شهرته، لا سيما في المشرق الذي طال ترداده إليه واختلاطه بأهله واجتماعه بعلمائه. ولما كانت شهرته في نثره لا في نظمه، وهذه رحلته المتداولة بين جميع الأيدي أعظم شاهد على ملكه أعنة البيان، وكونه في النثر الفذ المشار إليه بالبنان، نقلنا هنا أمثلة من هذه الرحلة السَّريَّة وعباراتها العبقرية، وحلَّينا بنقلها جيد هذا التاريخ ليكون له حظ من الأدب، فضلًا عن تمثيل حالة الشرق في ذلك العصر، وإظهار ما بين الشرق وصنوه الغرب من المناسبات والعلاقات، ولا سيما لما في هذه الرحلة من وصف البيت الحرام، وذكر المشاعر العظام، وزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام:

(٥-١) شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر، عرفنا الله فضله وحقه، ورزقنا القبول فيه، وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح، لكن أمضى الأمير ذلك، ووقع الإيذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الأحد المذكور؛ لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن إليهم؛ لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضًا حسبما يذكر، والله أعلم بذلك. ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك، وحُق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات، حتى تلألأ الحرم نورًا وسطع ضياءً، وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقًا، فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إمامًا لها في ناحية من نواحي المسجد، والحنبلية كذلك، والحنفية كذلك، والزيدية. وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، وهي في هذا العام أحفل جمعًا وأكثر شمعًا؛ لأن قومًا من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعًا كثيرًا من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار، وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار؛ فجاءت جهة المالكية تروق حسنًا، وترتمي الأبصار نورًا، وكاد لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه، فيرتج المسجد لأصوات القراءة من كل ناحية، فتعاين الأبصار، وتشاهد الأسماع من ذلك مرأًى ومستمعًا تنخلع له النفوس خشيةً ورقةً، ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة في الحجر، ولم يحضر التراويح، ورأى أن ذلك أفضل ما يغتنم وأشرف عمل يلتزم، وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم.

والشافعي في التراويح أكثر الأئمة اجتهادًا؛ وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات، ويدخل الطواف مع الجماعة؛ فإذا فرغ من الأسبوع وركع عاد لإقامة تراويح أخر وضرب بالفرقعة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربة «يسمعها» المسجد لعلو صوتها، كأنها إيذان بالعود إلى الصلاة، فإذا فرغوا من تسليمتين عادوا لطواف أسبوع، فإذا أكملوا ضربت الفرقعة وعادوا لصلاة تسليمتين، ثم عادوا للطواف هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات، فيكمل لهم عشرون ركعة، ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئًا، والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة: أولهم إمام الفريضة، وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن «علي» الفنكي القرطبي، وقراءته ترق الجمادات خشوعًا، وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك؛ وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء. وهي لا محالة من جملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم — قدسه الله — والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد؛ بسبب قربها من دار الأمير، فيقوم في وقت السحور فيها داعيًا ومذكرًا ومحرضًا على السحور، ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه، وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع، وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير، فإذا قرب تبين خيطي الفجر ووقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة، وبدأ بالأذان، وثوَّب المؤذنون من كل ناحية بالأذان، وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه عن المسجد يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع.

وفي ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي طاف الأمير مكثر بالبيت مودعًا، وخرج للقاء الأمير سيف الإسلام «طغتكين» بن أيوب أخي صلاح الدين، وقد تقدم الخبر بوروده من مصر[٤٥] منذ مدة، ثم تواتر إلى أن صح وصوله إلى الينبوع، وأنه عرج إلى المدينة لزيارة الرسول ﷺ وتقدمت أثقاله إلى الصفراء، والمتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها، وفتنة حدثت من أمرائها، لكن وقع في نفوس المكيين منه إيحاش خيفة واستشعار خشية، فخرج هذا الأمير المذكور متلقيًا ومسلمًا، وفي الحقيقة مستسلمًا، والله تعالى يعرِّف المسلمين خيرًا.

وفي ضحوة يوم الأربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور كنا جلوسًا بالحجر المكرم، فسمعنا دبادب الأمير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه، فبينا نحن كذلك

دخل منصرفًا من لقاء الأمير سيف الإسلام المذكور وطائفًا بالبيت المكرم طواف التسليم، والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته، وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام الزاهر[٤٦] وضرب أبنيته فيه ومقدمته من العسكر قد وصلت إلى الحرم، وزاحمت الأمير مكثرًا في الطواف، فبينا الناس ينظرون إليهم إذ سمعوا ضوضاء عظيمة وزعقات هائلة، فما راعهم إلا الأمير سيف الإسلام داخلًا من باب بني شيبة ولمعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه، والقاضي عن يمينه، وزعيم الشيبيين عن يساره، والمسجد قد ارتجَّ وغص بالنظارة والوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع، وأذهلت الأذهان، والمؤذن الزمزمي في مرقبته رافعًا عقيرته بالدعاء له والثناء عليه، وأصوات الناس تعلو على صوته، والهول قد عظم مرأى ومستمعًا، فلحين دنو الأمير من البيت المعظم أغمدت السيوف، وتضاءلت النفوس، وخلعت ملابس العزة، وذلت الأعناق، وخضعت الرقاب، وطاشت الألباب مهابةً وتعظيمًا لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار، مؤتي الملك من يشاء، ونازع الملك ممن يشاء، سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه، ثم تهافتت هذه العصابة الغزِّية[٤٧] على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح، وقد نكس أذقانهم الخضوع، وبلت سبالهم الدموع، وطاف والقاضي وزعيم الشيبيين بسيف الإسلام والأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام، فأسرع إلى الفراغ من الطواف، وبادر إلى منزله، وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه صلى خلف المقام، ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها، ثم خرج على باب الصفا إلى السعي، فابتدأه ماشيًا على قدميه تواضعًا وتذللًا لمن يجب التواضع له والسيوف مصلوطة[٤٨] أمامه، وقد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ما صنعوا أيضًا في الطواف، فسعى على قدميه طريقين من الصفا إلى المروة، ومنها إلى الصفا، وهرول بين الميلين الأخضرين، ثم قيده الإعياء فركب وأكمل السعي راكبًا، وقد حشر الناس ضحى، يعني وقتًا، ثم عاد هذا الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الإرهاب والهيبة، وهو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلتة، وقد بادر الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه، ولم يكن يوم فتحه ووضع الكرسي الذي يصعد عليه؛ فرقي فيه الأمير، وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب، فإذا المفتاح قد سقط من كمه في ذلك الزحام؛ فوقف وقفة دهش مذعور، ووقف الأمير على الأدراج، فيسر الله للحين في وجود المفتاح؛ ففتح الباب الكريم، ودخل الأمير وحده مع الشيبي وأغلق الباب، وبقي وجوه الأغزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسي، فبعد لأي ما فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا، وتمادى

مقام سيف الإسلام في البيت الكريم مدة طويلة، ثم خرج وانفتح الباب للكافة منهم، فيا له من ازدحام وتراكم وانتظام، حتى صاروا كالعقد المستطيل، وقد اتصلوا وتسلسلوا، فكان يومهم أشبه شيء بأيام السرو في دخولهم البيت حسبما تقدم وصفه.

وركب الأمير سيف الإسلام، وخرج إلى مضرب بنيَّته بالموضع المذكور، وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر العجيبة المشهد الغريبة الشأن، فسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يبيد سلطانه، لا إله سواه، وصحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر وسواها اغتنامًا لطريق البر والأمن، فوصلوا في عافية وسلامة والحمد لله، وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضًا بالحجر الكريم، فإذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الآذان، وارتجَّت لها نواحي الحرم الشريف، فبينا نحن نتطلع لاستعلام خبرها طلع علينا الأمير مكثر وحاشيته الأقربون حوله وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتَّقد يسحب أذيالها، وعلى رأسه عمامة شرب[٤٩] رقيق سحابي اللون قد علا كورها رأسه، كأنها سحابة مركومة، وهي مصفحة بالذهب، وتحت الجلة خلعتان من الدبيقي[٥٠] المرسوم البديع الصنعة، خلعها عليه الأمير سيف الإسلام؛ فوصل بها فرحًا جذلان والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الإسلام إشارةً بتكرمته وإعلامًا بمأثرة منزلته، فطاف بالبيت المكرم شكرًا لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه، والله يصلحه ويوفقه بمنه.[٥١]

وفي يوم الجمعة وصل الأمير سيف الإسلام للصلاة أول الوقت، وفتح البيت المكرم فدخله مع الأمير مكثر، وأقام به مدة طويلة، ثم خرجا، وتزاحم الغز للدخول تزاحمًا أبهَتَ الناظرين حتى أزيل الكرسي الذي يصعد عليه، فلم يغن عن ذلك شيئًا، وأقاموا على الازدحام في الصعود بإشالة بعضهم على بعض، وداموا على هذه الحالة إلى أن وصل الخطيب فخرجوا لاستماع الخطبة، وأغلق الباب، وصلى الأمير سيف الإسلام مع الأمير مكثر في القبة العباسية، فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا وركب إلى مضرب أبنيته.

وفي يوم الأربعاء العاشر منه خرج الأمير المذكور بجنوده إلى اليمن، والله يعرف أهلها من المسلمين في مقدمه خيرًا بمنه. وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف في قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الأئمة فيه، وكل وتر من الليالي العشر الأواخر يختم فيها القرآن، فأولها ليلة إحدى وعشرين، ختم فيها أحد أبناء أهل مكة، وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأشياخ، فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيبًا

ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله إلى طعام وحلو قد أعدهما، واحتفل فيهما، ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوي اليسار، غلامًا لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالًا بديعًا؛ وذلك أنه أعد له ثريًّا مصنوعة من الشمع مغصَّنة قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة، وأعد إليها شمعًا كثيرًا، ووضع في وسط الحزم مما يلي باب بني شيبة المحراب المربع من أعواد مشرجبة قد أقيم على قوائم أربع، وربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل، وأسرجت في أعلاها مصابيح ومشاعيل، وسُمِّر دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله، وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه، وأمعن الاحتفال في هذا كله، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم، وقد احتشد أهل المسجد الحرام إليه رجال ونساء وهو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به، ثم برز من محرابه رافلًا في أفخر ثيابه بهيبةٍ إمامية وسكينة غلامية مكحل العينين مخضوب الكفين إلى الزندين، فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام، فأخذه أحد سدنة تلك الناحية في ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره، فاستوى مبتسمًا وأشار إلى الحاضرين مسلمًا.

وقعد بين يديه قراء فابتدروا القراءة على لسان واحد، فلما أكملوا عشرًا من القرآن قام الخطيب فصدع بخطبته يحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع، وبين يديه في درجات المنبر نفر يمسكون أنوار الشمع في أيديهم ويرفعون أصواتهم بيا رب يا رب عند كل فصل من فصول الخطبة، يكررون ذلك، والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته، وتمادى فيها متصرفًا في فنون من التذكير، وفي أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق — كرمه الله — فحسر عن ذراعيه مشيرًا إليه، وأردفه بذكر زمزم والمقام؛ فأشار إليهما بكلتا أصبعيه، ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه، ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء، ثم نزل، وانفض ذلك الجمع العظيم.

وقد استطرف ذلك الخطيب واستنبل، وإن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أُمِّل، والتذكرة إذا خرجت من اللسان لم تتعدَّ مسافة الآذان. ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع كالقاضي وسواه خُصُّوا بطعام حفيل وحلواء على عادتهم في مثل هذا المجتمع، وكانت لأبي الخطيب في تلك الليلة نفقة واسعة في جميع ما ذكر، ثم كانت ليلة خمس وعشرين؛ فكان المختتم فيها الإمام الحنفي، وقد أعد ابنًا له لذلك سنه نحو من سن

الخطيب الأول المذكور، فكان احتفال الإمام الحنفي لابنه في هذه الليلة عظيمًا؛ أحضر فيه من ثريات الشمع أربعًا مختلفات الصنعة، منها مشجرة مغصَّنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة، ومنها غير مغصَّنة، فصففت أمام حطيمه وتوِّج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه، وجلل ذلك كله سُرُجًا ومشاعيل وشمعًا، فاستنار الحطيم كله حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور، وأحضر الشمع في أنوار الصفر، ووضع المحراب العودي المشرجب، فجلل دائره الأعلى كله شمعًا، وأحدق الشمع في الأطوار به فاكتنفته هالات من نور، ونصب المنبر قبالته مجللًا أيضًا بالكسوة الملونة، واحتفال الناس لمشاهدة هذا المنظر النيِّر أعظم من الاحتفال الأول.

فختم الصبي المذكور، ثم برز من محرابه إلى منبره يسحب أذيال الخفر في أثواب رائقة المنظر فتسور منبره، وأشار بالسلام على الحاضرين، وابتدأ خطبته بسكينة ولين، ولسان عن حالة الحياة مبين، فكأن الحال على طفولتها كانت أوقر من الأولى وأخشع، والموعظة أبلغ، والتذكرة أنفع، وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول، وفي أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة، فيسكت خلال إكمالهم الآية التي انتزعوها من القرآن، ثم يعود إلى خطبته وبين يديه في درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أنوار الشمع بأيديهم، ومنهم من يمسك المجمرة تسطع بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى، فعندما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع رفعوا أصواتهم بيا رب يا رب يكررونها ثلاثًا أو أربعًا، وربما جاراهم في النطق بعض الحاضرين إلى أن فرغ من خطبته ونزل، وجرى الإمام أثره على الرسم من الإطعام لمن حضر من أعيان المكان، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم.

ثم كانت ليلة سبع وعشرين، وهي ليلة الجمعة بحساب يوم الأحد، فكانت الليلة الغراء، والختمة الزهراء، والهيبة الموفورة الكهلاء،[٥٢] والحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول والرجاء، وأي حالة توازي شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم، وتجاه البيت العظيم، وإنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم، ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وأقيمت إزاء حطيم إمام الشافعية خشب عظام بائنة الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضًا، ووصلت بالحطيم المذكور، ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا فيها خشبة

مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقًا بعضها ببعض كظهر السهم، نصب عليها الشمع، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقبًا متصلًا، وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها، وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار وصغار، وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر، وقد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل نقلها في الهواء، وخرقت كلها ثقبًا، ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق الصفرية، لا يزيد منها أنبوب على أنبوب في القد، وأوقدت فيها المصابيح، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورًا، ووصلت بالحطيم الثاني الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم خشب على الصفة المذكورة، اتصلت إلى الركن المذكور، وأوقد المشعل الذي في رأس فحل القبة المذكورة، وصففت طرة شباكها شمعًا مما يقابل البيت المكرم، وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة، محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على الصفة المذكورة، جللت كلها شمعًا، ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم في أنوار تناسبها كبرًا، وصفت تلك الأنوار على الكراسي التي يصرفها السدنة مطالع عند الإيقاد، وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعًا في أنوار من الصفر؛ فجاءت كأنها دائرة نور ساطع وحدقت بالحرم المشاعيل.

وأوقد جميع ما ذكر وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة، وقد وضعت بيد كل واحد منهم كرة من الخرق المشبعة سليطًا فوضعوها متقدة في رءوس الشرفات، وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع، فجعلت كل طائفة تباري صاحبتها في سرعة إيقادها؛ فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة؛ لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الأبصار، وفي أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيا رب يا رب على لسان واحد؛ فيرتج الحرم لأصواتهم، فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يغشى الأبصار شعاع تلك الأنوار، فلا تقع لمحة طرف إلا على نور يشغل حاسة البصر عن استمالة النظر، فيتوهَّم المتوهم لهول ما يعانيه من ذلك أن تلك الليلة المباركة تنزَّهت لشرفها عن لباس الظلماء، فزينت بمصابيح السماء.

وتقدم القاضي فصلى فريضة العشاء الآخرة، ثم قام وابتدأ بسورة القدر، وكان أئمة الحرم في الليلة قبلها قد انتهوا في القراءة إليها، وتعطل في تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيمًا لختمة المقام، وحضروا متبركين بمشاهدتها، وقد كان «المقام» المطهر أخرج من موضعه المستحدث في البيت العتيق، حسبما تقدم الذكر أولًا له فيما

سلف من هذا التقييد، ووضع في محله الكريم المتخذ مصلًّى مستورًا بقبته التي يصلي الناس خلفها، فختم القاضي بتسليمتين وقام خطيبًا مستقبل المقام والبيت العتيق، فلم يُتمكَّن من سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام، فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة تراويحهم، وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعًا، وأعينهم قد سالت دموعًا، والأنفس قد أشعرت من فضل تلك الليلة المباركة رجاءً مبشرًا بمنٍّ الله تعالى بالقبول، ومشعرًا أنها أو لعلها ليلة القدر المشرف ذكرها في التنزيل، والله — عز وجل — لا يخلي الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها؛ إنه كريم منان لا إله سواه.

ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولًا بعد هذه الليلة المذكورة بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور، تتضمَّن التذكير والتحذير والتبشير، بحسب اختيار كل واحد منهم، ورسم طوافهم إثر كل تسليمتين باقٍ على حاله، والله ولي القبول من الجميع. ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه، فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح، ملتزمين رسم الخطبة إثر الختمة والمشار إليه منهم المالكي، فتقدم بإعداد أعواد بإزاء محرابه نصبها ستة على هيئة دائرة محراب مرتفعة عن الأرض دون القامة، يعترض على كل اثنين منها عود مبسوط، فأدير بالشمع أعلاها، وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك، وأحدق أيضًا داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط، فكان منظرًا مختصرًا ومشهدًا عن احتفال المباهاة منزهًا موفورًا؛ رغبة في احتفال الأجر والثواب ومناسبة لموضع هيئة المحراب، نصبت للشمع فيه عوضًا من الأنوار أثافي من الأحجار، فجاءت الحال غريبة في الاختصار، خارجة عن محفل التعاظم والاستكبار، داخلة مدخل التواضع والاستصغار، واحتفل جميع المالكية للختمة؛ فتناوبها أئمة التراويح، فقضوا صلاتهم سراعًا عجالًا كاد يلتقي طرفاها خفوفًا واستعجالًا، ثم تقدم أحدهم فعقد حُبوته بين تلك الأثافي، وصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبي ابن الإمام الحنفي، فأرسلها معادة إلى الأسماع، ثقيلًا لحنُها على الطباع.

ثم انفض الجمع وقد جمد في شئونه الدمع، واختطف للحين من أثافيه ذلك الشمع، وأطلقت عليه أيدي الانتهاب، ولم يكن في الجماعة من يستحى منه أو يهاب، وعند الله تعالى في ذلك الجزاء والثواب، إنه سبحانه الكريم الوهاب.

وانتهت ليالي الشهر ذاهبة عنا بسلام، جعلنا الله ممن طهر فيها من الآثام، ولا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه في جوار الكعبة البيت الحرام، وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الإسلام، وأوزعنا حمدًا بحق هذه النعمة وشكرًا، وجعلها

للمعاد لنا ذخرًا، ووفَّانا عليها ثوابًا من لديه، وأجرًا يرجى بفضله وكرمه؛ إنه لا يضيع لديه أيام اتخذ لصيامها ماء زمزم فطرًا؛ إنه الحنان المنان لا رب سواه.

وإليك هذا المثال الآخر من أمثلة بيان ابن جبير الساحر، الذي كله طبقة واحدة، وإنما نختار منه كيفما اتفق. قال:

والقبلة في عرفات هي إلى مغرب الشمس؛ لأن الكعبة المقدسة في تلك الجهة منها؛ فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمعًا لا شبيه له إلا الحشر، لكنه إن شاء الله تعالى حشر للثواب، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب؛ زعم المحققون من الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعًا أحفل منه، ولا أرى كان من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الإسلام مثله، جعله الله جمعًا مرحومًا معصومًا بعزته، فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين وإلى الله — عز وجل — في الرحمة متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رُئِيَ يوم أكثر مدامع ولا قلوبًا خواشع ولا أعناقًا لهيبة الله خوانع خواضع من ذلك اليوم، فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم إلى أن سقط قرصها وتمكن وقت المغرب، وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين، ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور، وأخذ السرو[٥٣] اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جد فجد، من عهد النبي ﷺ لا تتعدى قبيلة على منزلة أخرى، وكان المجتمع منهم في هذا العام عددًا لم يجتمع قط مثله.

وكذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين؛ واحدتهن خاتون، ومن السيدات بنات الأمراء كثير، ومن سائر العجم عدد لا يحصى، فوقف الجميع، وقد جعلوا قدوتهم في النفر الإمام المالكي؛ لأن مذهب مالك — رضي الله عنه — يقتضي أن لا ينفر حتى يتمكَّن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب.

ومن السرو اليَمَنيِّين من نفر قبل ذلك، فلما أن حان الوقت أشار الإمام المالكي بيديه، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعًا ارتجَّت له الأرض

ورجفت الجبال، فيا له موقفًا ما أهول مرآه وأرجى في النفوس عقباه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وتغمده بنعماه؛ إنه منعم كريم حنان منان.

وكانت محلة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر بهية العدة رائعة المضارب والأبنية، عجيبة القباب والأروقة، على هيئات لم يُرَ أبدع منها منظرًا، فأعظمها مرأًى مضرب الأمير؛ وذلك أنه أحدق به سرادق كالسور من كتان كأنه حديقة بستان أو زخرفة بنيان، وفي داخله القباب المضروبة، وهي كلها سواد في بياض مرقشة ملونة، كأنها أزاهير الرياض.

وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل في البياض، يستشعر الناظر إليها مهابة يتخيلها درقًا لمطية[٥٤] قد جللتها مزخرفات الأغشية؛ ولهذا السرادق الذي هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة، يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج، ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب، وكأن هذا الأمير ساكن في مدية قد أحدق بها سورها، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله، وهي من الأبَّهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب. وداخل تلك الأبواب حجاب الأمير وخدمه وحاشيته، وهي أبواب مرتفعة يجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ، قد أحكمت إقامة ذلك كله أحراش وثيقة من الكتان يتصل بأوتاد مضروبة، أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب.

ولسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك، لكنها على تلك الصفة، وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة إلى ما يطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلات والعدة وغير ذلك؛ مما يدل على سعة الأحوال وعظيم الاحتراف في المكاسب والأموال، ولهم أيضًا في مراكبهم على الإبل قباب تظلُّهم بديعة المنظر عجيبة الشكل قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات، وهي كالتوابيت المجوفة، هي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال؛ تملأ بالفرش الوثيرة، ويقعد الراكب فيها مستريحًا كأنه في مهاد ليِّن فسيح، وبإزائه مُعادله أو مُعادلتُه في مثل ذلك من الشقة الأخرى والقبة مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيف ما أحبا، فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين إن كانا من أهل الترفُّه

والتنعم، فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه؛ فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولا خطفة شمس تصيبهما، وناهيك من هذا الترفيه؛ فهؤلاء لا يلقون لسفرهم، وإن بعدت شقته، نصبًا ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبًا.

ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات، وهي شبيهة بالشقادف التي تقدم وصفها في ذكر صحراء عيذاب، لكن الشقادف أبسط وأوسع وهذا أضم وأضيق، وعليها أيضًا ظلائل تقي حر الشمس، ومن قصرت حاله عنها في هذه الأسفار، فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب.

(٥-٢) وله في ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى

هذه المدينة العتيقة — وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية — قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص،[٥٥] فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلة والنظر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين، فهي تَرِدُها ولا تظمأ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة؛ ففتن الهوى — إلا أن يعصم الله منها — مخوفة، وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياءً ويذهب بنفسه عجبًا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويُظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده؛ فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادًا أو عبادًا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرًا أو بطرًا، ولا يغيرون في ذات الله منكرًا، يظنون أن أسنى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار.

يتبايعون بينهم بالذهب قرضًا، وما منهم ما يحسن لله قرضًا، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها

بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب؛ فالغريب فيهم معدوم الإرفاق متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق؛ فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها، أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكورين.

لا جرم أن لهم في طريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه والتبصير والمثابرة على الإنذار المخوف والتحذير مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرًا من أوزارهم، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم، لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ويرومون تفجير الجلامد، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعتهم من واعظ يتكلم فيه، فالموفق منهم لا يزال في مجلس ذكر أَيَّامَهُ كلها، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة، فأول من شهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني، رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور، فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوَّقوا وشوَّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محزنة مطربة، ثم اندفع الإمام الشيخ المذكور فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله — عز وجل — وإيراد حديث رسوله ﷺ والتكلم على معانيه، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب، فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر.

ودفعت إليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجمع، فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورًا هينًا لينًا ظهرت فيه البركة والسكينة، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة، ولا سيما آخر مجلسه فإنه سرت حُميا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعًا وفجرتها دموعًا، وبادر التائبون إليه سقوطًا على يده وقوعًا، فكم ناصية جز، وكم مفصل من مفاصيل التائبين طبق بالموعظة وحز.

فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة وتتغمد الجناة وتستدام العصمة والنجاة، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه، ويتغمد ببركة العلماء الأولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه برحمته وكرمه، إنه المنعم لا رب سواه ولا معبود إلا

إياه، وشهدنا له مجلسًا ثانيًا إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهزٍّ عظيم وتطريف آماق تشوقت له النفوس، فأخذ الإمام المتقدم الذكر في وعظه مسرورًا بحضوره ومتجملًا به، فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر في هذا التقييد المشهَّر المآثر والمكارم المقدم بين الأكابر والأعاظم.

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي، وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمَّة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر؛ فأما نظمه فرضي الطباع مهياري الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان، ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن، وعددهم نيف على العشرين قارئًا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عددًا أو يسميها نسقًا، فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلًا مبتدرًا، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررًا، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته، فقرأ وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدمًا ولا مؤخرًا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ من القرآن آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلًا ويورد الخطبة الغرا بها عجلًا ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر، ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احتراقًا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون

بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على الصباح كلٌّ يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعيًا له، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه؛ فشهدنا هولًا يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على أن منَّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ويضيق الوجود عن مثله.

وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل، وتطير إليه الرقاع؛ فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا إله سواه.

ثم شهدنا مجلسًا ثانيًا له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في مساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع المذكور، وهو من حرم الخليفة وخص بالوصول إليه والتكلم فيه، ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته، ومن حضر من الحرم، ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر، وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس، فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور، وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم، فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعًا لحرمة المكان، وقد تسطَّر القراء أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، وشوقوا ما شاءوا، وأطربوا ما أرادوا، وبادرت العيون بإرسال الدموع، فلما فرغوا من القراءة — وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات — صدع بخطبته الزهراء الغراء، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن أكملها، وكانت الآية: ﴿اللهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، فتمادى على هذا السين، وحسَّن أي تحسين، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها بالستر الأشرف والجناب الأرأف، ثم سلك سبيله في الوعظ كل ذلك بديهة لا رويَّة، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى، فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين بالتوبة معلنين، وطاشت الألباب والعقول، وكثر الوله والذهول، وصارت النفوس لا تملك تحصيلًا، ولا تميز معقولًا ولا تجد للصبر سبيلًا. ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب، مبرحة التشويق بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجدًا، ويعود موضوعها النسيبي زهدًا، وكان

آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام:

أين فؤادي أصابه الوجد　　وأين قلبي فما صحا بعد
يا سعد زدني جوًى بذكرهمُ　　بالله قل لي فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه إلى أن خاف الإفحام، فابتدر القيام ونزل عن المنبر دهشًا عجلًا وقد أطار القلوب وجلًا، وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمدامع الحمر فمن معلن بالانتحاب ومن متعفر في التراب، فيا له من مشهد ما أهول مرآه وما أسعد من رآه، نفعنا الله ببركته وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته بمنه وفضله. وفي أول مجلسه أنشد قصيدًا نير القبس: عراقي النفس، في الخليفة أوله:

في شُغُل من الغرام شاغِل　　ما هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة:

يا كلمات الله كوني عوذة　　من العيون للإمام الكامل

ففرغ من إنشاده وقد هز المجلس طربًا، ثم أخذ في شأنه وتمادى في إيراد سحر بيانه، وما كنا نحسب أن متكلمًا في الدنيا يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أُعطِي هذا الرجل، فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره، وشهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب، وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة — شرفهما الله — مجالس مَنْ قد ذكرناه في هذا التقييد، فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الفذ في نفوسنا قدرًا، ولم نستطب لها ذكرًا، وأين تقعان مما أريد، وشتان بين اليزيدين، وهيهات الفتيان كثير والمثل بمالك يسير، ونزلنا بعدُ بمجلس يطيب سماعه ويروق استطلاعه، وحضرنا له مجلسًا ثالثًا يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضوع المذكور بإزاء داره على الشط الشرقي، فأخذت معجزاته البيانية مأخَذَها، فشاهدنا من أمره عجبًا، صعد بوعظه أنفاس الحاضرين سحبًا، وأسال من دمعهم وابلًا سكبًا، ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتًا من النسيب

شوقًا زهديًّا وطربًا، إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهًا مكتئبًا، وغادر الكل متندمًا على نفسه منتجعًا لهفان ينادي يا حسرتا وا حربا، والنادبون يدورون بنحيبهم دَوْرَ الرحا، وكل منهم بعدُ من سكرته ما صحا.

فسبحان من خَلَقه عبرة لأولي الألباب، وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب، لا إله سواه (ثم نرجع إلى ذكر بغداد)، هي كما ذكرناه جانبان شرقي وغربي ودجلة بينهما، فأما الجانب الغربي فقد عمَّه الخراب واستولى عليه، وكان المعمور أولًا، وعمارة الجانب الشرقي محدثة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثماني منها بجوامع يصلى فيها الجمعة، فأكبرها القرية، وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر، فحلمته دجلة بمدها السيلي، فعاد الناس يعبرون بالزوارق والزوارق فيها لا تحصى كثرة، فالناس ليلًا ونهارًا من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالًا ونساءً، والعادة أن يكون لها جسران: أحدهما مما يقرب من دور الخليفة، والآخر فوقه؛ لكثرة الناس، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها، ثم الكرخ وهي مدينة مسوَّرة، ثم محلة باب البصرة وهي أيضًا مدينة، ولها جامع المنصور — رحمه الله — وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله، ثم الشارع وهي أيضًا مدينة، فهذه الأربع أكبر المحلات.

وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة، وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيطة، وهي بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب في دجلة، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات ويشق على باب البصرة الذي ذكرنا محلته نهر آخر منه وينصب أيضًا في دجلة.

ومن أسماء المحلات العتابية، وبها تصنع الثياب العتابية، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان. ومنها الحربية وهي أعلاها، وليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد إلى أسماء يطول ذكرها، وبإحدى هذه المحلات قبر معروف الكرخي؛ وهو رجل من الصالحين مشهور في الأولياء. وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله

قبر متسع السنام عليه مكتوب: هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — وفي الجانب الغربي أيضًا قبر موسى بن جعفر — رضي الله عنهما — إلى مشاهد كثيرة مما لم تحضرنا تسميته من الأولياء والصالحين والسلف الكريم — رضي الله عن جميعهم.

وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة بإزاء محلة الرصافة. وبالرصافة كان الطاق المشهور على الشط، وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء سامية في الهواء، فيه قبر الإمام أبي حنيفة — رضي الله عنه — وبه تعرف المحلة. وبالقرب من تلك المحلة قبر الإمام أحمد بن حنبل — رضي الله عنه — وفي تلك الجهات أيضًا قبر أبي بكر الشبلي — رحمه الله — وقبر الحسين بن منصور الحلاج، وببغداد من قبور الصالحين كثير — رضي الله عنهم.

وبالغربية هي البساتين والحدائق، ومنها تجلب الفواكه إلى الشرقية، وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة، وكفاها بذلك شرفًا واحتفالًا ودور الخليفة مع آخرها، وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد؛ لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالًا جميلًا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم، وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائعة والبساتين الأنيقة، وليس له اليوم وزير، إنما له خديم يعرف بنائب الوزارة، يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة، وبين يديه الكتب، فينفذ الأمور، وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار، هذا لقبه، ويدعى له إثر الدعاء للخليفة، وهو قلَّما يظهر للعامة اشتغالًا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلًا ونهارًا.

ورونق هذا الملك إنما هو على الفتيان والأحابش المجابيب، منهم فتى اسمه خالص، وهو قائد العسكرية كلها، أبصرناه خارجًا أحد الأيام وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والديلم وسواهم، وحوله نحو خمسين سيفًا مسلولة في أيدي رجال قد احتفوا به، فشاهدنا من أمره عجبًا في الدهر، وله القصور والمناظر على دجلة، وقد يظهر الخليفة في بعض الأحيان بدجلة راكبًا في زورق، وقد يصيد في بعض الأوقات في البرية وظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة، فلا يزداد أمره من تلك التعمية إلَّا اشتهارًا، وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة، ويؤثر التحبُّب لهم، وهو ميمون النقيبة عندهم قد

استسعدوا بأيامه رخاءً وعدلًا وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داعٍ له، أبصرنا هذا الخليفة المذكور، وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، ويتصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء — رضوان الله عليهم — بالجانب الغربي أمام منظرته، وقد انحدر عنها صاعدًا في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط، وهو في فتاء من سنه أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه حسن الشكل جميل المنظر، أبيض اللون معتدل القامة، رائق الرواء، سنه نحو الخمس والعشرين سنة، لابسًا ثوبًا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك مما هو كالفنك،[٥٦] وأشرف متعمدًا بذلك زي الأتراك تعميةً لشأنه، لكن الشمس لا تخفى وإن سترت، وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين، وأبصرناه أيضًا عشي يوم الأحد بعده متطلعًا من منظرته المذكورة بالشرق الغربي، وكنا نسكن بمقربة منها.

والشرقية حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عددًا، وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة؛ مرافق الوضوء والطهور. وجامع السلطان — وهو خارج البلد، ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضًا — معروفٌ بشاه شاه، وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة، وكان يسكن هنالك فابتنى الجامع أمام مسكنه. وجامع الرصافة، وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين — رحمهم الله — فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر. وأما حماماتها فلا تحصى عدة، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام،[٥٧] وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنها رخام أسود صقيل. وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم؛ لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة. وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبه كالصلصال، فيجرف ويجلب، وقد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء! لا إله سواه.

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير، فضلًا عن الإحصاء، والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع

عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك، وجددت سنة أربع وخمسمائة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء والمدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح.

وللشرقية أربعة أبواب؛ فأولها — وهو في أعلى الشط — باب السلطان، ثم باب الظفرية، ثم يليه باب الحلبة، ثم باب البصلية، هذه الأبواب التي هي في السور المحيط بها من أعلى الشط إلى أسفله، هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة، وداخلها في الأسواق أبواب كثيرة، وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف، وأين هي مما كانت عليه؟! هي اليوم داخلة تحت قول حبيب:

لا أنت أنت ولا الديار ديار

واتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل إثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر، وهو الثامن والعشرون لماية، فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يومًا ونحن في صحبة الخاتونين: خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد، وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل وأرض الأعاجم المتصلة بالدروب التي إلى طاعة الأمير مسعود، والد إحدى الخاتونين المذكورتين، وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس،[٥٨] وطريقهم على الجانب الشرقي من بغداد، وطريقنا نحن إلى الموصل على الجانب الغربي منها، وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقائدتاه، والله لا يجعلنا تحت قول القائل:

ضاع الرعيل ومن يقوده

ولهما أجناد برسمهما، وزادهما الخليفة جندًا يشيعونهما مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد. وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابًا وملكًا، وهي قد استقلَّت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين: الواحدة أمام الأخرى، وعليهما الجلال المذهبة، وهما يسيران بها سير النسيم سرعة ولينًا، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان، وهي ظاهرة في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها وأمامها رعيل من فتيانها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا

والهماليج العتاق، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة، وعصبن رءوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب، ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها.

وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهزُّ الأرض هزًّا، وتسحب أذيال الدنيا عزًّا، ويحق أن يخدمها العز ويكون لها هذا الهز. فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة الأشهر، وصاحب القسطنطينية يؤدي إليه الجزية، وهو من العدل في رعيته على سيرة عجيبة، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية، وأعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن في هذا العام الذي هو عام تسعة وسبعين الخالي عنا استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة والعشرين بلدًا، ولقبوه عز الدين، واسم أبيه مسعود، وهذا الاسم غلب عليه، وهو عريق في المملكة عن جد فجد.

ومن شرف خاتون هذه، واسمها سلجوقة، أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين،[٥٩] وهي من أعظم بلاد الدنيا، فترك البلد لها كرامة لأبيها، وأعطاها المفاتيح، فبقي ملك زوجها بسببها. وناهيك من هذا الشأن، والملك ملك الحي القيوم يؤتي الملك من يشاء لا إله سواه. فكان مبيتنا تلك الليلة في إحدى قرى بغداد، نزلناها وقد مضى هدء من الليل. وبمقربة منها دجيل، وهو نهر يتفرع من دجلة يسقي تلك القرى كلها، وغدونا من ذلك الموضع ضحى يوم الثلاثاء السادس عشر لصفر المذكور، والقرى متصلة في طريقنا، فاتصل سيرنا إلى أثر صلاة الظهر، ونزلنا وأقمنا باقي يومنا ليلحقنا من تأخر من الحاج ومن تجار الشام والموصل، ثم رحلنا قبيل نصف الليل، وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار، فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل، وأسرينا الليل كله؛ فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف «بالخَرْبة» من أخصب القرى وأفسحها، ورحلنا من ذلك الموضع، وأسرينا الليل كله، ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثاني عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف «بالمعشوق»، ويقال: إنه كان متفرجًا لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه رحمه الله.

وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينة «سُرَّ من رأى»، وهي اليوم عبرة من رأى، أين معتصمها وواثقها ومتوكلها؟! مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلا بعض الجهات منها هي اليوم معمورة. وقد أطنب المسعودي — رحمه الله — في وصفها ووصف طيب هوائها وورائق حسنها، وهي كما وصف وإن لم يبق إلا الأثر من

محاسنها، والله وارث الأرض ومن عليها، لا إله غيره، فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة، ثم رحلنا منه وأسرينا الليل كله؛ فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وهو أول يوم من يونيه، فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم.

ولما كنا قد ذكرنا طرفًا مما قال ابن جبير عن بغداد، اقتضى العدل أن نذكر طرفًا مما قاله عن دمشق؛ حتى نشخص انطباعات بلاد الشرق في ذهن هذا السائح الكبير القادم إليها من الغرب.

(٥-٣) ذكر مدينة دمشق حرسها الله تعالى

جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلَّت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه — صلى الله عليهما — منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذائبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يُحيِي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»، قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تساميها وتحاذيها.

ذكر جامعها المكرم شرفه الله تعالى

هو من أشهر جوامع الإسلام حسنًا، وإتقانَ بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين، وشهرته المتعارفة في ذلك تُغنِي عن استغراق الوصف فيه، ومن عجيب شأنه أنه لا ينسج به العنكبوت، ولا تدخله، ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاب. انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك — رحمه الله — ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص

اثني عشر ألفًا من الصناع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف عنه، فامتثل أمره مذعنًا بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التواريخ، فشرع في بنائه، وبلغت الغاية في التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة قد مثلت أشجارًا، وفرعت أغصانًا منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة، وصف كل واصف، فجاء يغشي العيون ميضًا وبصيصًا، وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلى الأسدي في جزء وضعه في ذكر بنائه مائة صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار، والوليد هذا (هو) الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه؛ لأنه كان قسمين: قسمًا للمسلمين وهو الشرقي، وقسمًا للنصارى وهو الغربي؛ لأن أبا عبيدة بن الجراح — رضي الله عنه — دخل البلد من الجهة الغربية، فانتهى إلى نصف الكنيسة، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى، ودخل خالد بن الوليد — رضي الله عنه — عنوةً من الجانب الشرقي، وانتهى إلى النصف الثاني وهو الشرقي؛ فاجتازه المسلمون، وصيروه مسجدًا، وبقي النصف المصارع عليه — وهو الغربي — كنيسة بأيدي النصارى إلى أن عوَّضهم منه الوليد، فأبوا ذلك؛ فانتزعه منهم قهرًا وطلع لهدمه بنفسه، وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يجن، فبادر الوليد وقال: أنا أول من يجن في الله، وبدأ الهدم بيده؛ فبادر المسلمون وأكملوا هدمه.

واستعدى النصارى عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — أيام خلافته، وأخرجوا العهد الذي بأيديهم من الصحابة — رضي الله عنهم — في إبقائه عليهم، فهمَّ بصرفه إليهم؛ فأشفق المسلمون من ذلك، ثم عوضهم منه بمالٍ عظيم أرضاهم به فقبلوه.

ويقال: إن أول من وضع جداره القبلي هو النبي — عليه الصلاة والسلام — وكذلك ذكر ابن المعلى في تاريخه، والله أعلم بذلك، لا إله سواه. وقرأنا في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أنه قال: إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة، وفي الحديث عن النبي ﷺ: أنه يعبد الله — عز وجل — فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

ذكر تذريعه ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته

ذرعه في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، وهما ثلاثمائة ذراع، وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف[٦٠] مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع؛ فيكون

تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين مرجعًا، وهو تكسير مسجد رسول الله ﷺ، غير أن الطول في مسجد رسول الله ﷺ من القبلة إلى الشمال، وبلاطاته المتصلة بالقبلة، ثلاث مستطيلات من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاطة منها ثماني عشرة خطوة، والخطوة ذراع ونصف، وقد قامت على ثمانية وستين عمودًا، منها أربع وخمسون سارية وثماني أرجل حصينة تخللها، واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن، وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم، وصورت محاريب وأشكالًا غريبة قائمة في البلاط الأوسط، تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب، سعة كل رجل منها ستة عشر شبرًا، وطولها عشرون شبرًا، وبين كل رجل ورجل في الطول سبعة عشرة خطوة، وفي العرض ثلاث عشرة خطوة؛ فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبرًا.

ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته؛ الشرقية والغربية والشمالية، سعته عشر خُطًا، وعدد قوائمه سبع وأربعون، منها أربع عشرة رجلًا من الجص، وسائرها سوارٍ، فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص.

وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه سامية في الهواء عظيمة الاستدارة، قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب إلى الصحن، وتحته ثلاث قباب: قبة تتصل بالجدار الذي إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما، والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه، فإذا استقبلتها أبصرت منظرًا رائعًا ومرأًى هائلًا يشبهه الناس بنسر طائر كأن القبة رأسه والغارب جؤجؤه، ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف الثاني عن شمال جناحاه. وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه.

ومن أي جهة استقبلتَ البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة في الجو. والجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون، منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر، وفي القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربعة عشر شمسية، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست، وفي ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسية.

وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة — رضي الله عنهم — وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام، وضعها معاوية بن أبي سفيان — رضي الله عنهما — وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية — رضي الله عنه — إلى المقصورة منه إلى المحراب، وبإزاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء — رضي الله عنه — وخلفها كانت دار معاوية — رضي الله عنه — وهي اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلي، ولا سماط أحسن منظرًا منه ولا أكبر طولًا وعرضًا. وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل برسمه، وهي اليوم مسكونة، وفيها مواضع للكمادين.[٦١] وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبرًا، وعرضها نصف الطول، ويليها لجهة الغرب في وسط الجامع المقصورة التي أُحدِثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسة إلى الجامع حسبما تقدم ذكره، وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة. وكانت مقصورة الصحابة أولًا في نصف الخط الإسلامي من الكنيسة، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدًا صارت مقصورة الصحابة طرفًا من الجانب الشرقي، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطًا، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال، وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابيَّة.

وبالجانب الغربي بإزاء الجدار مقصورة أخرى هي برسم الحنفية، يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون، وبإزائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة. وبالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية، وهي لاصقة بالجدار الشرقي.

وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة، وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون بابًا متصلة بطول الجدار قد علتْها قِسِيٌّ جصِّية مخرَّمة كلها على هيئة الشمسيات، فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه، والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على أعمدة، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة تقلُّها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله. ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد، وهو متفرجهم ومتنزههم، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب من باب جيرون إلى باب البريد، فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون. ولبعضهم بالغداة مثل ذلك، وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشي، فيخيل لمبصر

ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم؛ لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم، وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحراثين.

وللجامع ثلاث صوامع: واحدة في الجانب الغربي، وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة، وزوايا فسيحة راجعة كلها إلى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير، والبيت الأعلى منها كان معتكَف أبي حامد الغزالي — رحمه الله — ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد من قلعة يحصب[٦٢] المنسوبة لهم، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها. وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطقيين.

وفي الصحن ثلاث قباب: إحداها في الجانب الغربي منه، وهي أكبرها، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام، مستطيلة كالبرج، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة، كأنها الروضة حسنًا، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة، يقال إنها كانت مخزنًا لمال الجامع، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة، وهي خمسة عشر ألف درهم مؤمنية أو نحوها. وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمَّنة من رخام قد ألصق أبدع إلصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام، وتحتها شباك حديد مستدير، وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء إلى علو، فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافًا واستحسانًا، ويسمُّونه قفص الماء، والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها.

وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يُفضي إلى مسجد كبير في وسطه صحن، قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير، يجري الماء فيه دائمًا من صفحة رخام أبيض مثمَّنة قد قامت وسط الصهريج، على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه إليها، ويعرف هذا الموضع بالكلاسة،[٦٣] ويصلي فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكي القرطبي، ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه؛ التماسًا لبركته واستماعًا لحسن صوته، وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يُفضي إلى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعًا وأجملها بناءً، يذكر الشيعة أنه مشهد لعلي بن أبي طالب — رضي الله عنه — وهذا من أغرب مختلَقاتهم، ومن العجيب أنه يقابله في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع أول البلاط الغربي

مجلَّل بستر في أعلاه، وأمامه ستر أيضًا منسدل يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة — رضي الله عنها — وأنها كانت تسمع الحديث فيه، وعائشة — رضي الله عنها — في دخول دمشق كعليٍّ — رضي الله عنه — لكن لهم في علي — رضي الله عنه — مندوحة من القول؛ وذلك أنهم يزعمون أنه رُئِيَ في المنام مصليًا في ذلك الموضع؛ فبنت الشيعة فيه مسجدًا، وأما الموضع المنسوب لعائشة — رضي الله عنها — فلا مندوحة فيه، وإنما ذكرناه لشهرته في الجامع، وكان هذا الجامع — المبارك ظاهرًا وباطنًا — منزلًا كله بالفصوص المذهبة، مزخرفًا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدركه الحريق مرتين فتهدم وجدد، وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه، فأسلمُ ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث القباب المتصلة بها. ومحرابه من أنجب المحاريب الإسلامية حُسنًا وغرابة صنعة، يتَّقد ذهبًا كله، وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفُّها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة لم يُرَ شيء أجمل منها، وبعضها حمر كأنها مرجان، فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث، وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه، واتصال شعاع الشمس بها، وانعكاسه إلى كل لون منها حتى ترتمي الأبصار منه أشعة ملونة، يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه، والله يعمره بشهادة الإسلام وكلمته بمنه.

وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان — رضي الله عنه — وهو المصحف الذي وجَّه به إلى الشام، وتفتح الخزانة كل يوم أَثَرَ الصلاة، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله، ويكثر الازدحام عليه. وله أربعة أبواب: «باب» قبلي ويعرف بباب الزيارة، وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام، وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم، وله مرأًى رائع، ومنه يفضي إلى دار الخيل، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين، وهي كانت دار معاوية — رضي الله عنه — وتعرف بالخضراء، «وباب» شرقي وهو أعظم الأبواب، ويعرف ببار جيرون، و«باب» غربي ويعرف بباب البريد، «وباب» شمالي ويعرف بباب الناطفيين، وللشرقي والغربي والشمالي أيضًا من هذه الأبواب دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة، فبقيت على حالها، وأعظمها منظرًا الدهليز المتصل بباب جيرون، يخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة لها ستة أعمدة طوال، وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي — رضي الله عنهما — ثم نقل إلى القاهرة،[٦٤] وبإزائه مسجد صغير

ينسب لعمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — وبذلك المشهد ماء جارٍ. وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم، يتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سموًّا، قد حفته أعمدة كالجذوع طولًا وكالأطواد ضخامة، وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم، وعليها شوارع أخرى مستطيلة، فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز، وفوقها سطح يبيت فيه سكان الحجر والبيوت. وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام، عليه قبة تقلُّها أعمدة من الرخام، ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف عليها تعتيب. وفي وسط الحوض الرخامي أنبوب صفر يزعج الماء بقوة، فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة لم[٦٥] وحوله أنابيب صغار ترمي الماء إلى علو، فيخرج عنها كقضبان اللجين، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية، ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف، وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة، ولها هيئة طاقٍ كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيرًا هندسيًّا؛ فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيَّين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عظيم عجيب تتخيله الأوهام سحرًا، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها، وتنقضي الساعات ثم تعود إلى حالها الأول.

ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمَّ الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها. وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها، وهي التي يسميها الناس المنجانة.

ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين، وفيه سماط لبيع الفواكه، وفي أعلاه باب عظيم يصعد إليه على أدراج وله أعمدة سامية في الهواء، وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان: سقاية يمينًا وسقاية يسارًا، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل، ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب محدقة بالأعواد المشرجبة هي محاضر لمعلمي الصبيان، وعن يمين الخارج في الدهليز خانقاه مبنية للصوفية في وسطها صهريج، ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — ولها خبر سيأتي ذكره بعد هذا. والصهريج الذي في وسطها يجري الماء فيه، ولها مطاهر يجري الماء في بيوتها. وعن يمين الخارج أيضًا من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه، ولها مطاهر على الصفة المذكورة. وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرًا لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان قد خُرِّما أحسن تخريم، يسرجن ليلة النصف من شعبان؛ فيلوحان كأنهما ثريبان مشتعلتان. واحتفال أهل هذه البلدة لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم.

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائمًا، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرءون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن. وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان. وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحًا ولا مساءً؛ وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، ولها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس أبصرنا بها فقيهًا من أهل إشبيلية يعرف بالمرادي.

وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحًا يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن، وللصبيان أيضًا على قراءتهم جراية معلومة؛ فأهل الجِدَة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها وسائرهم يأخذونها، وهذا من المفاخر الإسلامية. وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم، وهذا أيضًا من أغرب ما يحدث به من مفاخر البلاد.

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويتعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيهًا لكتاب الله — عز وجل — عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتِّب على حدة، فينفصل من التلقين إلى التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة؛ ولذلك يأتي لهم حسن الخط؛ لأن المعلم له لا يشتغل بغيره؛ فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصويره يحذو حذوه. ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات في كل جانب سقاية كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية، والماء يجري في كل بيت منها، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منظمة بطوله، وإحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها، وفيها من البيوت ما ينيف على الثلاثين، وفيها زائدًا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان يُمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية، والواحد بعيد من الآخر، ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبرًا، والماء نابع فيهما. والثانية في دهليز باب الناطفيين بإزاء المعلمين، والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد، والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة، وهذه أيضًا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم، والبلد كله سقايات قلَّ ما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية. والمرافق به أكثر من أن توصف، والله يبقيه دار إسلام بقدرته.

ومن أمثلة بيان ابن جبير قوله عن الشام

> وكل من وفَّقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم — إن أحب — ضيعة من الضياع، فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى، أو يصعد على جبل لبنان، أو إلى جبل الجودي، فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله — عز وجل — فيقيم معهم ما شاء، وينصرف إلى حيث شاء.
>
> ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله — عز وجل — فتجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا؛ فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة، والظلال الوارفة، وقل ما يخلو من التبتيل

والزهادة، وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض؟! وما أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم، شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أَشَفَّ قليلًا، وهو سرارة[٦٦] أرض فلسطين، وله نظم عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي على أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيَّق عليه، وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضًا لا يُمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضًا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب.

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا أو حربًا، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه، والله يُعلي كلمة الإسلام بمنه. ولهذه البلد قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد، وبها جامع السلطان يجمع فيه، وعلى مقربة منها خارج البلد في جهة الغرب ميدانان كأنهما مبسوطان خزًّا لشدة خضرتهما، وعليهما حلق، والنهر بينهما، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما، وهما من أبدع المناظر، يخرج السلطان إليهما، ويلعب فيهما بالصوالجة، ويسابق بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالها فيهما، وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة.[٦٧] وبهذه البلدة أيضًا قرب مائة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين دارًا للوضوء يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب؛ لأن المرافق بها كثيرة.

وفي الذي ذكرنا من ذلك كفاية، والله يبقيها دار إسلام بمنه. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظامًا وأبدعها وصفًا، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق مسقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بصبغتها وأغلاقها الحديدية، ولها أيضًا سوق يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي

إلى أن يقول:

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة؛ وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة بقرَّاء يقرءون القرآن بأصوات شجية، وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوًا وحنانًا، يرفعون أصواتهم بها فتتلاقى الآذان بأدمع الأجفان، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة، فلا بد لكل جنازة من الجامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها إلَّا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته؛ فإن الحالة المميزة له في ذلك أن يُدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد، فيصلون أفرادًا أفرادًا، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرءنها، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم، ويُحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم، بالإضافة إلى الدين، فتسمع ما شئت من صدر الدين، أو شمسه، أو بدره، أو نجمه، أو زينه، أو بهائه، أو جماله، أو مجده، أو فخره، أو شرفه، أو معينه، أو مُحييه، أو زكيه، أو نجيبه، إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة وتتبعها، ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضًا من سيد العلماء، وجمال الأئمة، وحجة الإسلام، وفخر الشريعة، وشرف الملة، ومفتي الفريقين، إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كل واحد منهم إلى الشُّرْفة ساحبًا أذياله من الكبر ثانيًا عطفه وقذاله، فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه، قام وعاظهم واحدًا واحدًا بحسب رتبهم في المعرفة، فوعظ وذكر ونبَّه على خدع الدنيا، وحذر وأنشد في المعنى ما حضر من الأشعار، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى، ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن

يتفرغوا ويتفرقوا، فربما كان مجلسًا نافعًا لمن يحضره من الذكرى. ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتخويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة، وإذا لقي أحدًا منهم آخر مسلمًا يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة؛ كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيًا، والجد عندهم عنقاء مغرب، وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحطُّ وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هويًّا. ا.هـ.

وقد يستغرب القارئ كيف ترجمنا إلى الآن مئات من علماء الأندلس، واكتفينا من تراجمهم بعدة أسطار لكل واحد منهم، عاملين بالمثل القائل: يكفي من القلادة ما أحاط بالجيد. ولكننا خرقنا هذه العادة في ترجمة ابن جبير السائح الأندلسي، فنقلنا من ترجمة حياته ومن عيون فصوله وغُرَر كلماته ما لم ننقله لغيره من علماء الأندلس. والجواب عن هذا السؤال هو شهرة رحلته التي شرَّقت وغرَّبت، وذكر فيها عن الشرق وأهله حوادث خالدة ومباحث طريفة وقصصًا لطيفة لم نجد مثلها لكتَّاب الغرب وسيَّاحهم، فتمثل لنا شرقنا من خلال وصف ابن جبير في تلك الحقبة التي استرجع فيها المسلمون بيت المقدس بشكل نكاد نرى فيه الوقائع بالعيان، ونراه المثل الأعلى من سحر البيان.

(٥-٤) العلماء والأدباء الذين انتسبوا إلى بلنسية

ثم نعود إلى استقصاء ذكر العلماء والأدباء الذين انتسبوا إلى بلنسية فنقول: وممن يُنسَب إلى بلنسية من أهل العلم أبو بكر حمدون بن محمد المعروف بابن المعلم، لازَمَ أبا الوليد الوقشي، وسمع من أبي العباس العذري، وتولى الصلاة والخطبة بمسجد رحبة القاضي من بلنسية بعد تغلُّب الروم عليها أول مرة واستيلائهم على المسجد الجامع، وذلك سنة ٤٨٩، ثم خرج منها مع جماعة من أهلها فرارًا بدينهم سنة ٤٩٠، نقله ابن الأبَّار عن ابن علقمة.

وأبو سليمان داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن عبد الله بن عبد الرءوف بن حوط الله الأنصاري الحارثي، من أهل أندة عمل بلنسية، سكن مالقة، أخذ عن أبيه وأخيه أبي محمد عبد الله، وطاف في الأندلس، فأخذ ببلنسية عن أبي عبد الله بن نوح، وبشاطبة عن أبي بكر بن مغاور، ولقي بمرسية أبا

القاسم بن حبيش، وأبا عبد الله بن حميد، وغيرهما، ولزم أبا القاسم بن بشكوال بقرطبة نحوًا من عامين، وسمع بها أبا عبد الله بن عراق، وأبا الحسن الشقوري، وأبا الحسين بن ربيع، وغيرهم، ولقي بإشبيلية أبا عبد الله بن زرقون، وأبا محمد بن جمهور، وأبا جعفر بن مضي، وبمالقة أبا عبد الله بن الفخَّار، وأبا زبد السهيلي، وأبا محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي، ولقي بمدينة المنكَّب أبا محمد عبد الحق بن بونوه،[٦٨] وأبا القاسم سجوم، وبغرناطة أبا عبد الله بن عروس، وأبا الحسن بن كوثر وغيرهما، ولقي بسبتة أبا محمد بن عبيد الله وغيره، وكتب إليه كثيرون من أعيان المشرق، ومنهم أبو الطاهر بن عوف، وأبو عبد الله بن الحضرمي، وأبو الرضا أحمد بن طارق، وأبو الثناء الحرَّاني، وأبو الطاهر الخشوعي الدمشقي، وأبو اليمن الكندي الدمشقي، وألَّف في أسماء شيوخه كتابًا قال ابن الأبَّار إنه قرأه عليه، وإنهم يزيدون على مائتي رجل، وقال: إنه هو وأخوه أبو محمد كانا أوسع أهل الأندلس رواية في وقتهما، لا ينازعان في ذلك ولا يدافعان، مع الجلالة والعدالة.

وتولى أبو سليمان هذا قضاء الجزيرة الخضراء، ثم قضاء بلنسية سنة ٦٠٨ بعد أبي عبد الله بن أصبغ، ثم تولى قضاء مالقة، وتوفي وهو على قضائها السادس من ربيع الآخر سنة ٦٢١، ومولده بأندة سنة ٥٥٢، قال: والغالب على أحواله التواضع ولين الجانب مع النزاهة والعدل والاعتدال.

ولب[٦٩] بن عبد الله بن لب بن أحمد الرصافي، رصافة بلنسية، يكنى أبا عيسى، أخذ العربية عن أبي الحسن بن النعمة وغيره، وكان قائمًا على شرح ابن بابشاذ لجمل الزجاجي، قال ابن الأبَّار في التكملة: وعنده تعلَّم كثير من شيوخنا، وكانت وفاته في نحو التسعين وخمسمائة.

وممن يناسب ذكره في أعيان بلنسية محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قاسم بن علي بن قاسم بن يوسف، أمير الأندلس، بن عبد الرحمن الفهري، يكنى أبا عبد الله، ويلقب بيمن الدولة، كان رئيسًا بقلعة البونت من أعمال بلنسية مقر آبائه الرؤساء، وبها أخذ عن أبي الحسن علي بن إبراهيم التبريزي وغيره، وله صَنَع أبو محمد بن حزم رسالته في فضل أهل الأندلس، وأطال الثناء عليه وعلى سلفه — رحمهم الله — ذكر ذلك ابن الأبَّار في التكملة.

وممن يناسب ذكره محمد بن عبد الرحمن بن أبي العاصي بن يوسف بن فاخر بن عتاهية بن أبي أيوب بن حيُّون بن عبد الواحد بن عفيف بن عبد الله بن رواحة بن سعيد

بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، قال ابن الأبَّار في التكملة: قرأت نسَبَه بخطه، ونقلته منه، وهو من أهل شارقة؛ قلعة الأشراف، عمل بلنسية، صحب أبا الوليد الوقشي، وله رواية عن أبي محمد بن السيد، روى عنه ابنه أبو العاصي الحكم بن محمد، وتوفي في نحو العشرين وخمسمائة.

ومحمد بن عبد العزيز بن سعيد بن عقال الفهري، من أهل البونت عمل بلنسية، وكانت مركزًا للفهريين، وقد تولى محمد المذكور قضاء بلده للحاجب نظام الدولة، ثم لولاة المرابطين، قال ابن الأبَّار: وهو من أهل المعرفة والنباهة، وتوفي قبل العشرين وخمسمائة.

ومحمد بن الحسين بن أبي البقاء بن فاخر بن الحسين الأموي، يكنى أبا عبد الله، ويقال إنهم من ولد عثمان بن عفان — رضي الله عنه — روى عن أبي بكر بن العربي، وأبي الحسن شريح، وأبي الوليد بن بقوة، وغيرهم، وتفقَّه بأبي القاسم عبد الرحيم بن جعفر المزياتي، لقيه بتلمسان، ووليِّ الأحكام هناك وبإشبيلية، ثم ولي الصلاة والخطبة والأحكام في لرية من أعمال بلنسية من قبل القاضي أبي الحسن بن عبد العزيز سنة ٥٣٠، وولي أيضًا قضاء شبرانة من الثغر الشرقي،[٧٠] وكان فقيهًا حافظًا واقفًا على مسائل المدوَّنة، محسنًا لعقد الشروط، ضابطًا لما رواه، قال ابن الأبَّار في التكملة: إنه كان مقلًّا صابرًا خيرًا فاضلًا، ونقل عن ابن عيَّاد أنه توفي بأندة بلده في رمضان سنة ٥٣٥ وهو ابن سبعين أو نحوها.

وأبو عبد الله محمد بن فرج بن مسلم بن حديدة بن خلدون من ثغر البونت عمل بلنسية، روى عن أبي محمد القلَّني وغيره، وشارك في اللغة، وكان حسن الخط، ووليِّ قضاء بلده من قبل أبي عبد الله بن عبد العزيز، وذلك في سنة ٥٤٠.

ومحمد بن إدريس بن عبد الله بن يحيى المخزومي، من أهل بلنسية، سكن جزيرة شقر، لقي أبا الوليد الوقشي ولازمه، وصحب أبا محمد الركلي، وأبا عبد الله بن الجزَّار، وأبا محمد بن السيد، وأبا عبد الله بن خُلَصَة، قال ابن الأبَّار: كان من أهل الآداب واللغة، متحققًا بذلك، له حظ من النظم ومشاركة في الحديث، وميز رجاله والكلام على معانيه، توفي ببلنسية في ذي القعدة سنة ٥٤٦.

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن أبي إسحاق بن عمرو بن العاصي الأنصاري، من أهل لرية عمل بلنسية، أخذ عن مشيخة بلده، ثم خرج منه في الفتنة سنة ٤٨٨ بعد تغلُّب الروم على بلنسية، فاستوطن جيَّان نحوًا من سبعة أعوام، وأخذ

بها الأدب عن أبي الحجاج الكفيف، ولما عادت بلنسية إلى الإسلام في رجب سنة ٤٩٥ عاد إليها، فأخذ بها القراءات عن أبي بكر بن الصنَّاع المعروف بالهدهد، وكان قد قصد أبا داود المقرئ ليأخذ عنه فألفاه مريضًا مرضَه الذي توفي منه سنة ٥٩٦، وسمع من أبي محمد البطليوسي، وأبي بكر بن العربي، وأجاز له في سنة ٥٢٢، وتصدَّر ببلده لرية فأحيا رسم القراءة هناك، ثم أقرأ ببلنسية، قال ابن الأبار: وبها أخذ عنه شيخنا أبو عبد الله بن نوح، وله في التمييز بين ألف الوصل وألف القطع مجموع قد حمل عنه، وتوفي بلرية صبيحة يوم الأحد السادس من شوال سنة ٥٤٧، وصلى عليه أخوه أبو محمد، ودفن بمقبرة بني زنُّون منها وقد قارب الثمانين، وكان مولده سنة ٤٧٠.

وأبو الحسن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن واجب القيسي، روى عن شريح، وابن العربي، وأبي القاسم بن رضا، وتفقه بعمه أبي حفص بن واجب، وحضر عند أبي بكر بن أسد، وأبي محمد بن عاشر المناظرة في كتب الرأي، وله رواية عن ابن النعمة، وأبي الوليد بن خيرة، وأبي الحسن بن هذيل، وولي القضاء بقسطنطانية وغيرها ومن الجهات الشرقية، حدَّث عنه ابنه أبو عبد الله، وكذلك ابن سفيان، ووصفه بالأدب والنباهة وكف اليد والاعتدال في أموره، توفي ببيران سنة ٥٥٣.

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يعيش اللخمي، روى عن أبي محمد بن خيرون، ورحل حاجًّا في سنة ٥٠٦، ثم في السنة التي بعدها، ولقي بمكة رزين بن معاوية، ولكن لم يحمل عنه شيئًا، وانصرف إلى مصر فسكنها نحوًا من عشرين سنة، ولقي هناك أبا بكر عبد الله بن طلحة اليابري، فسمع منه بعض تواليفه وتواليف شيخه أبي الوليد الباجي، وسمع في طريقه بالإسكندرية من أبي بكر الطرطوشي، وأبي طاهر السلفي، وأبي عبد الله بن منصور بن الحضرمي، ثم قفل إلى بلده سنة ست وعشرين وخمسمائة؛ قال ابن الأبَّار: ولم يكن له كبير معرفة بالحديث، وتوفي بشاطبة إمامًا في الفريضة بقصبتها سنة ٥٥٦، وكان مولده سنة ٤٨٢.

وأبو عبد الله محمد بن خلف بن يونس، من أهل لرية عمل بلنسية، أخذ بشاطبة عن أبي عمران بن أبي تليد، وتلقى علم الشروط عن أبي الأصبغ عيسى بن موسى المنزلي، والأدب عن أبي الحسن بن زاهر، ترك وطنه في الفتنة، وكان على الصلاة والخطبة بجامع بلده، وكان معدلًا، ذكره ابن الأبَّار، وقال نقلًا عن ابن عيَّاد: إنه توفي بشاطبة في رجب سنة ٥٥٧.

وأبو عبد الله محمد بن مخلوف بن جابر اللواتي النحوي، صحب أبا محمد البطليوسي، وسمع منه ومن القاضيين أبي بكر بن العربي وأبي بكر بن أسود، وأخذ

عن أبي الحسن بن هذيل، وكان من أهل المعرفة بالعربية والآداب، معلمًا بها له حظ من قرض الشعر، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن غالب الرفاء الرصافي، رصافة بلنسية، سكن مالقة. قال ابن الأبار في التكملة: كان شاعر وقته المعترف له بالإجادة، مع العفاف، والانقباض، وعلو الهمة، والتعيُّش من صناعة الرفو التي كان يعالجها بيده، لم يبتذل نفسه في خدمة، ولا تصدى لانتجاع بقافية، حملت عنه في ذلك أخبار عجيبة، وقد سكن غرناطة وقتًا، وامتدح واليها حينئذ، ثم رفض تلك العلق، ورضي بالقناعة مالًا، وهو مع ذلك مرغوب فيه، ينظم البديع، ويبدع المنظوم، وكان من الرقة، وسلاسة الطبع، وتنقيح القريض وتجويده، على طريقة متحدة، وسمعت شيخنا أبا الحسن بن حريق يعيبه بالإقلال، وليس كذلك، وخرج صغيرًا من وطنه رصافة بلنسية، فكان يكثر الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه، وشعره مدوَّن بأيدي الناس، متنافس فيه، ومحاسنه كثيرة، قال: وتوفي صرورة لم يتزوج قط، وذلك في يوم الثلاثاء التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٢، وقبره بمالقة.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن غزلون بن مطرف بن طاهر بن هارون بن عبد الرحمن بن هاجر بن الحسين بن حرب بن أبي شاكر الأنصاري، من أهل شون عمل بلنسية، رحل حاجًّا سنة ٥٦٣، وأدى الفريضة سنة ٥٦٤، وحج ثلاث حجات متواليات، ولقي بالإسكندرية أبا طاهر السلفي سنة ٤٦٦، وسمع منه الأربعين حديثًا من جمعِه، وقفل إلى بلده شون فسمعها منه أبو الخطاب بن واجب وأبو عمر بن عياد. قال ابن الأبار: وبخطه قرأت نسبه، وعلى الصواب ثبت هنا، كان مولده سنة ٥١٠، وتوفي بمربيطر يوم الخميس السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة ٥٧٤، وسيق إلى بلنسية فدفن بها، وصلَّى عليه القاضي أبو تميم ميمون بن جبارة.

ومحمد بن علي بن محمد المكتِّب، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عذارى، سماه أبو الربيع بن سالم في شيوخه، وهو كان معلمه في الكتَّاب، وحكي أنه كتب عن أبي عبد الله — مولى الزبيدي — بعض ما رواه عن ابن شرف من شعره، ولم يسمِّ شيوخه ولا ذكر وفاته، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرحمن بن بكر الفهري، قال ابن الأبار: سمع من شيوخنا أبي عبد الله بن نوح، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي عمر بن عات، وغيرهم، وكتب بخطه علمًا كثيرًا، وكان متحققًا بعلم الحساب، مشاركًا في الطب، حافظًا للحديث والتواريخ، من بيت كتابة ونباهة، صحبته وعارضت معه كتاب المصابيح لأبي محمد بن مسعود، وسمعت منه أخبارًا وأشعارًا، وتوفي سنة ٦١٨.

وأبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن سلمون، روى عن أبي الحسن بن هذيل، وأخذ عنه قراءة ورش، وسمع منه الموطأ وصحيح البخاري، وكان عدلًا مرضيًّا، قال ابن الأبار: له دكان بالعطارين يقعد فيه أحيانًا، سمعت منه أخبارًا، وناولني، وأجاز لي، ولم يكن له علم بالحديث ولا بغيره، وقد أخذ عنه بعض أصحابنا، وتوفي ليلة الأحد الثاني والعشرين لربيع الآخر سنة ٦٢٤، ودفن لصلاة العصر من اليوم المذكور بمقبرة باب بيتالة، ومولده في النصف من سنة ٥٤٧، قلت: رحم الله ابن الأبار؛ فإن لم يكن لهذا المترجم أي علم لا بالحديث ولا بغيره فلماذا هذا الاعتناء بترجمته، وهذا التدقيق في تاريخ وفاته ومكان دفنه وتاريخ مولده؟!

وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن يحيى الغافقي من بلنسية، أصله من الشارَّة؛ إحدى قراها. أخذ الفقه عن أبي محمد بن عاشر، وسمع عليه كثيرًا من كتابه الذي سمَّاه «الجامع البسيط وبغية الطالب النشيط» في شرح المدوَّنة، وأخذ القراءات عن أبي نصر فتح بن يوسف المعروف بابن أبي كبَّة، من أصحاب أبي داود المقرئ، وانتقل إلى سبتة في الفتنة سنة ٥٦٢، حدَّث عنه ابنه أبو الحسن، قرأ عليه الموطأ، وجامع الترمذي، وكتب عنه الحديث والفقه والأدب والتاريخ، وحكي أنه زجره عن كتب الجاحظ وقد رآه ينظر في بعضها، وأنشده في ذلك:

مهما شككت فلا تشكـْ ـكَ بأن كُتْبَ الجاحظِ
من شرٍّ ما يملي اللسا ن على الرقيب الحافظِ

ونقل ابن الأبار عن ابنه أنه توفي سنة ٦٢٤ عن سن عالية تقارب التسعين.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن مسلم البكري، قال ابن الأبار: سمع من شيخنا أبي عبد الله بن نوح قديمًا، وأخذ عنه العربية والآداب، وأقرأ بها، وكان مقدمًا حسن التعليم بها، وهو أحد من أخذتها عنه، قرأت عليه جملة من أول الإيضاح لأبي علي الفارسي، وكان من أهل الديانة والنزاهة والانقباض، وتوفي سنة ٦٢٨، ودفن بمقبرة باب الحَنَش.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن نعمان البكري، أخذ القراءات عن أبي بكر بن جُزَيٍّ، وعلم الفرائض والحساب عن أبي بكر بن سعد الخير، وكان مقدمًا في ذلك مع الصلاح والعدالة، قال ابن الأبار: سمعت منه أبيات أبي الحسن بن سعد الخير في وصف الدولاب، وأصيب بفالج طاوله على أن توفي صدر سنة ٦٣٢، ومولده سنة ٥٥١.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن يوسف الأنصاري من أهل بلنسية، انتقل سلفه من شلب إلى شبرب من أعمالها، يروي عن أبي بكر بن نمارة، قال ابن الأبار: صحبته بحانوت أبي عبد الله البطرني، وكان كثيرًا ما يقعد معنا هنالك، واستجزته حينئذ، ولا أعلم له رواية عن غير ابن نمارة، وكان فقيهًا، وتوفي في الحادي والعشرين لربيع الأول سنة ٦٣٢، ومولده في رجب سنة ٥٤٢.

ومحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر، سبقت ترجمة والده، أخذ القراءات عن أبيه، وسمع من أبي العطاء بن نذير، وأبي عبد الله بن نسع وغيرهما، وأدَّب بالقرآن، قال ابن الأبار: وهو كان معلمي، وعنه أخذت قراءة نافع، وانتفعت به في صغري، وأجاز لي، وسمع مني كتاب «معدن اللجين في مرائي الحسين» من تأليفي، وكان امرأً صدقٍ، ناشئًا في الصلاح، محافظًا على الخير، متواضعًا، يجمع إلى جودة الضبط براعة الخط، ونحا في ما كتب من المصاحف منحى أبي عبد الله بن غطُّوس فأجاد، وصلى بالناس الفريضة في مسجد رحبة القاضي من داخل بلنسية دهرًا طويلًا، وكان من العدالة والنزاهة بمكان، ورحل حاجًّا سنة ٦٣٢، فمرض بالإسكندرية، وتوفي بعيذاب، قاصدًا بيت الله الحرام في آخر سنة ٦٣٣.

وأبو عبد الله محمد بن حسن بن أحمد بن محمد بن موسى بن سعيد بن سعود الأنصاري المعروف بابن الوزير، ولكن غلبت عليه الشهرة بابن البطرني، أخذ القراءات عن أبيه أبي علي، وسمع من أبي العطاء بن نذير، ومن أبي الحجاج يوسف بن محمد المعافري الشاطبي وغيرهما، وأجاز له أبو محمد بن عبيد الله، وأبو جعفر بن حكم، وأبو محمد عبد المنعم بن الفرس، وأبو بكر بن أبي جمرة، وأبو جعفر بن عميرة الضبي، وعُني بعقد الشروط، وكان له فيها نفوذ وبها معرفة مع براعة الخط وحسن الوراقة، وولي قضاء بعض الكور. قال ابن الأبار في التكملة: سمعت منه المعجم في مشيخة أبي علي الصدفي للقاضي أبي الفضل بن عياض، قرأ جميعه عليَّ بلفظه، وكان صهري، وانتقل معي إلى مدينة تونس، وبها توفي — رحمه الله — بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الأربعاء الرابع لشهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧، ودفن لصلاة الغداة من يوم الخميس بعده بمقربة من المصلى بظاهرها، ومولده ببلنسية سنة ٥٧٣. ا.هـ.

قلت: سنة ٦٣٦ يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر تغلَّب العدو على بلنسية، واضطر أهلها إلى التسليم، ولكنهم لم يسلموها إلى سنة ٦٣٧، فيظهر أن المترجم كان من جملة من جلوا عنها في تلك السنة إلى تونس، ذهب مع نسيبه الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن علي بن قاسم الأنصاري، من أهل بلنسية، ويقال إنه من بيت أبي محمد بن قاسم — قاضي قلعة أيوب — وكان هو يقول: أصلي من قلعة أيوب، وكان جدي بها قاضيًا، سمع من أبي العطاء بن نذير ومن أبي الخطاب بن واجب، ولكن أكثر أخذه كان عن أبي عبد الله بن نوح، وعني بعقد الشروط في أول طلبه، ثم رغب عن ذلك، وزهد في الدنيا، واعتزل الناس، وأقبل على النظر في العلم، وكان له تحقق بالتفسير، وقعد لذلك بجامع بلنسية وقتًا، إلا أن طريقة التصوف كانت أغلب عليه، وألَّف كتاب «نسيم الصبا» في الوعظ على طريقة الجوزي. قال ابن الأبار: قرأ عليَّ بلفظه مواضع منه، وكتاب «بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية» من إنشائه، كتبته عنه، وسمعت منه غير ذلك، وأجاز لي، وصحبته طويلًا، وكان يحدثني باصطحابه مع أبي — رحمه الله — في السماع من أبي عبد الله بن نوح، ويرعى ذلك لي، وقد سمع بقراءتي بجامع بلنسية بين العشاءين لضوء السراج كثيرًا مما أخذت عن أبي الخطاب بن واجب، كجامع الترمذي وغيره، ودُعِي إلى الخطبة بعد وقوع الفتنة، وعرف بالحاجة الماسة إليه في ذلك فأجاب، ثم استعفى فأُعفي، وأقام بشاطبة حال حصار بلنسية؛ لأنه كان وُجِّه إلى مرسية لاستمداد أهلها، وتوفي بأوريولة عصر الخميس الثاني والعشرين لرجب سنة ٦٤٠، ودفن لصلاة الجمعة، وحضر جنازته الخاصة والعامة، وازدحموا على نعشه حتى كسروه به، قال: وفي ظهر يوم الخميس العاشر من شوال بعده قدم أحمد بن محمد بن هود — والي مرسية — بجماعة من وجوه النصارى، فملكهم مرسية صلحًا. ا.هـ.

قلت: رحم الله أبا البقاء صالح بن شريف الرندي القائل في مرثيته الشهيرة للأندلس:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيَّان؟!

نعم لم يتأخر سقوط مرسية عن سقوط بلنسية إلا ثلاث سنوات؛ لأنهما على خط واحد، وكل منهما أشبه بدمشق في كثرة الجنان والتفاف الأشجار وتدفق الأنهار ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

وأبو بكر محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان الزهري، يعرف بابن محرز، وكان بيتهم قديمًا يعرف بابن القح، سمع من أبيه أبي عبد الله، ومن خاليه أبي بكر، وأبي عامر ابني أبي الحسن بن هذيل، ومن أبي محمد بن عبيد الله الحجري، ومن أبي عبد الله بن الغازي، وأبي عبد الله بن نوح، وأبي عبد الله المناصف،

وغيرهم. وأجاز له أبو بكر بن خير، وأبو محمد بن فليح، وأبو الحسن بن النقرات، وأبو العباس بن مضاء، وغيرهم من أهل الأندلس، ومن أهل المشرق أجاز له أبو الحسن بن المفضَّل، وأبو عبد الله الكركنتي، وأبو الفضل الغزنوي، وأبو القاسم هبة الله بن سعود البوسيري، قال ابن الأبار: وكان أحد رجال الكمال علمًا وإدراكًا وفصاحةً، مع الحفظ بالفقه والتفنن بالعلوم والمتانة بالآداب والغريب، وله شعر رائق بديع سمعت منه كثيرًا، وأجاز لي، وتوفي ببجاية (بلاد الجزائر) في الثامن عشر لشوال سنة ٦٥٥ عن سنٍّ عالية، ومولده ببلنسية سنة ٥٦٩.

ومعاوية بن محمد، ولي قضاء بلنسية سنة ٢٣٩، ذكره ابن حارث، ولم يزد ابن الأبَّار في ترجمته على هذا السطر الواحد.

ومروان بن محمد بن عبد العزيز التجيبي من أهل بلنسية، وأصل سلفه من قرطبة، وفي انتسابهم إلى تجيب خلاف. يكنى أبا عبد الملك، وكنَّاه طاهر بن مفوز بأبي المطرف في إجازة أبي عمر بن عبد البر له ولابنيه محمد وأحمد، سمع من أبي المطرف بن جحاف، وأبي الوليد الوقَّشي، وأبي عبد الله بن سعدون القروي، وأبي داود المقرئ، وأبي بكر بن القدرة، وغيرهم. وأجاز له ابن عبد البر، وأبو مروان بن سراج، ولابنيه أحمد وعبد الله في جمادى الآخرة سنة ٤٨٨، وكان معتنيًا بسماع الحديث وروايته وانتساخ دواوينه مع جلالة القدر ونباهة البيت، وإلى أخيه الوزير أبي بكر أحمد بن محمد كان تدبير بلنسية في الفتنة، ولم يدخل مروان في شيء من ذلك، ومن ولده بنو عبد العزيز الباقون ببلنسية إلى أن تغلب الروم عليها ثانية في آخر صفر سنة ٦٣٦. قال ابن الأبار الذي نقلنا عنه هذه الترجمة: وتوفي بعد التسعين وأربعمائة.

ومن هذه العائلة ترجم ابن الأبار رجلًا آخر، وهو مروان بن أحمد بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز، كان يكنى أبا عبد الملك، وكان من أهل النباهة، عريق البيت في الرئاسة والعلم، قال: وقد تقدم ذكر أبيه وأخيه محمد، ولا أعرف لمروان هذا رواية، وتوفي في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٥٥٨، ومولده سنة ٥٠٩، عن ابن عيَّاد.

وترجم ابن الأبار شخصًا آخر من هذه الشجرة، وهو مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز، من أهل بلنسية، وقاضيها ورئيسها، ويكنى أبا عبد الملك، سمع من أبي الحسن بن هذيل، وأبي محمد البطليوسي، وأبي الحسن طارق بن يعيش، وأبي بكر بن أسود، وأبي الوليد بن الدباغ، وأبي عبد الله بن سعيد الداني، وأجاز

له أبو عمران بن أبي تليد، وأبو علي بن سكَّرة، وأبو عبد الله بن الفرَّاء — قاضي المرية — وأبو الحسن بن موهب، وغيرهم. وولي قضاء بلنسية في ذي الحجة سنة ٥٣٨، وقيل في السنة التي بعدها، ثم صار أميرًا على بلنسية عند انقراض دولة المرابطين، وبويع له بذلك سنة ٥٤٠، وأقام بالإمارة يسيرًا وخُلع، واعتقله اللمتونيون في أخريات أيامهم في أحد معاقل ميُّورقة، فبقي هناك نحوًا من اثنتي عشرة سنة، ثم تخلَّص وسار إلى مراكش في قصة طويلة، وأخذ عنه هناك جلَّة من العلماء، وتوفي بمراكش سنة ٥٧٨، ومولده ببلنسية سنة ٥٠٤، وكان لدة أبي القاسم بن حبيش، كل هذا عن ابن الأبَّار.

وأبو مروان بن السمَّاد المقرئ من أهل بلنسية، وصاحب الصلاة والخطبة بها بعد تغلب الروم عليها أول مرة بغارة القنبيطور الملقب عند الإسبانيين بالسِّيد، سمع أبو مروان هذا من أبي الوليد الباجي صحيح البخاري، وكان موصوفًا بالفضل والصلاح، وحكى القاضي أبو الحسن محمد بن واجب أنه سمع أكثر صحيح البخاري بقراءة ابن السماد هذا على أبي الوليد الباجي بمسجد رحبة القاضي من بلنسية، رواه ابن الأبار في التكملة.

وأبو الخيار مسعود بن محمد بن مسعود الأنصاري، من أهل بلنسية، وأصله من ثغرها، يعرف بابن النابغة، كان من أهل الثقة والعدالة والمشاركة في الأدب وحفظ اللغة، وله حظ من القريض، ولِّي الأحكام بلرية من كور بلنسية، وخطب بموضع سكناه من غربيها، توفي بعد الأربعين وخمسمائة.

وماجد بن محفوظ بن مرعي بن ترخان بن سيف الشريف الطلحي البكري، من ولد طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — يكنى أبا المعالي وأبا الشرف، سمع من أبي عبد الله بن نوح وأبي جعفر بن عبد الغفور وغيرهما، ولقي بإشبيلية أبا عمران الميرتُلي، وأخذ عنه بعض شعره الزهدي، وكان أديبًا ماهرًا شاعرًا مجيدًا من أبرع الناس خطًّا، وأكرمهم عشرة، وأحسنهم سمتًا، وأشهرهم تصاونًا، له معرفة بالشروط، وقد قعد لعقدها، وتوفي بمراكش معتبطًا سنة ثلاث أو أربع وستمائة، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن سالم ونابت[٧١] بن المفرِّج بن يوسف الخثعمي، أصله من بلنسية، سكن مصر، يكنى أبا الزهر؛ قال السلفي: قدم مصر بعد خروجي منها، وتفقَّه على مذهب الشافعي، وتأدَّب، وقال الشعر الفائق، وكتب إليَّ بشيء من شعره، وتوفي بمصر في رجب سنة ٥٤٥، نقل ذلك ابن الأبَّار عن ابن نقطة.

وعبد الله بن محمد بن حزب الله، يروي عن وهب بن مسرَّة الحجاري، حدَّث عنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الوثايقي الفقيه، قال ابن الأبار: وبنو حزب الله أهل العلم والنباهة، وإليهم ينسب المسجد بداخل بلنسية.

وأبو محمد عبد الله بن سيف الجذامي أخذ عن أبي نصر هارون بن موسى النحوي، وكان نحويًّا أديبًا متفننًا ضابطًا، أخذ عنه جماعة، وتوفي حول الثلاثين وأربعمائة، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عزير وغيره.

وأبو محمد عبد الله بن أبي دُليم سكن بلنسية، وسمع بطرطوشة من أبي القاسم خلف بن هاني العمري في سنة ٤٠٥، وكان ابن هاني إذ ذاك ابن تسعة وسبعين عامًا، روى عن ابن أبي دُليم المذكور أبو داود المقرئ، سمع منه أحاديث خراش بن عبد الله في سنة ٤٣٦، وكان إذ ذاك ابن ثمانين عامًا، قال ابن الأبَّار: قرأت ذلك بخط أبي داود.

وأبو محمد عبد الله بن خميس بن مروان الأنصاري، وُلِّي القضاء بدانية وأعمالها لإقبال الدولة علي بن مجاهد صاحبها، وذلك في شوال سنة اثنتين وأربعمائة، قال ابن الأبَّار: وقفت على نسخة عهده بذلك من إنشاء أبي محمد بن عبد البر، ثم إن علي بن مجاهد — أمير دانية — صرف ابن خميس المذكور بسعاية محمد بن مبارك، وولَّى مكانه أبا عمر بن الحذَّاء، هذا ولما احتضر أبو عمرو المقرئ أوصى ابنه أبا العباس بأن عبد الله بن خميس يصلي عليه؛ فأنفذ وصيته، وكان ذلك في النصف من شوال سنة ٤٤٤، قال ابن الأبَّار: وكان من أهل العلم والفضل، ورأيت خطه في رسم مؤرخ سنة ٤٧٦.

وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري من أهل بلنسية، وصاحب خطة الرد والمظالم بها، روى عن أبيه القاضي أبي المطرف وغيره، وكان فقيهًا حافظًا من بيت علم ونباهة، سمع منه ابنه عبد الرحمن، وحمل عنه المدونة المستخرجة، وقدَّمه ابن عمه أبو أحمد الأخيف للقضاء مكانه، وأدركته فتنة القنبيطور المتغلِّب على بلنسية وهو يتولَّى خطة الرد والمظالم، وكان ذلك في سنة ٤٨٥، ودخل القنبيطور المدينة صلحًا يوم الخميس منسلخ جمادى الأولى سنة ٤٨٧، فتم حصاره إياها عشرين شهرًا، عن ابن الأبار.

وأبو العباس عبد الله بن أحمد بن سعدون، روى عن أبي عمر بن عبد البر وغيره، وكان صاحبًا لأبي بحر الأسدي معينًا له في مقابلة كتبه، حدَّث عنه أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن النماري الحجري، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الله بن خلف بن سعيد بن حاتم العبدري، يعرف بالزواوي، صحب أبا دواد المقرئ، وسمع منه، ذكره ابن الأبار، وقال إنه حدَّث عن أبي داود المقرئ بالتلخيص لأبي عمرو المقرئ عن مؤلفه، وأنه رأى خطه بذلك في المحرم سنة ٥١٦.

وأبو الحسن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز، من أهل بلنسية وقاضيها، سمع من أبي علي الصدفي، واستجاز له ولأخيه أحمد أبوهما مروان بن محمد أبا الوليد الوقَّشي في رجب سنة ٤٧٧، وتولى أبو الحسن عبد الله القضاء ببلنسية سنة ٥٢٠ بعد وفاة أبي الحسن بن واجب، وأقام في القضاء نحوًا من عشر سنين، وكان حميد السيرة، قويم الطريقة، صليبًا في الحق، بصيرًا بالأحكام، صادق الفراسة والزكن، له في ذلك أخبار محفوظة، وهو من بيت نباهة ورئاسة، توفي مصروفًا عن القضاء في رجب سنة ٥٣٥، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن حبيش وعن ابن عيَّاد.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن الخلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، يعرف بابن علقمة، روى عن أبيه أبي عبد الله صاحب التاريخ، وعن أبي محمد البطليوسي، وسمع من أبي محمد بن خيرون موطَّأ مالك، وكان أديبًا شاعرًا فاضلًا ورعًا مشاركًا في الفقه، حسن الخط، وكتب للقاضي أبي الحسن بن عبد العزيز، وله خطب حِسان من إنشائه، توفي في حدود الأربعين وخمسمائة، نقل أكثر ذلك ابن الأبار عن ابن عياد.

وأبو محمد عبد الله بن سعيد، يعرف بالطرَّاز، صحب أبا بكر بن عقال الفقيه في رحلته إلى قرطبة، وكان سماعهما من ابن العربي واحدًا، وكان عظيم الحفظ دءوبًا على الدرس، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عياد، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن (ثلاث مرات) بن جحاف المعافري، لقي أبا الحسن عاصم بن القدرة وغيره، وكان فقيهًا أديبًا شاعرًا، وولي قضاء بعض الكور، ونقل عنه ابن عياد أبو عمر هذه الأبيات:

لئن كان الزمان أراد حطي ... وحاربني بأنياب وظفر
كفاني أن تصافيني المعالي ... وإن عاديتِني يا أم دَفْرِ
فما اعتز اللئيم وإن تسامى ... ولا هان الكريم بغير وفر

وقال ابن عياد: إنه توفي في صفر سنة ٥٥١.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن مقاتل التجيبي، من أهل بلنسية، أصله من سرقسطة، صحب القاضي أبا بكر بن أسد وتفقَّه به، وحضر مجلس أبي محمد بن عاشر، وكان فقيهًا عارفًا بعقد الشروط، وكتب للقضاة ببلده، قال أبو محمد بن نوح: توفي ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ٥٩٢.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن مفرِّج بن سهل الأنصاري، روى عن ابن هذيل هو وأخوه، وشهر بالإتقان لضبط المصاحف، مع براعة الخط، كان الناس يتنافسون في ما يكتب هو وابنه محمد، وقد تقدم ذكر محمد هذا.

وأبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد الأعلى بن محمد بن أيوب المعافري، يعرف بالشبارتي؛ لأن أصله من «شبارت»، كان من أهل بلنسية، وسكن شاطبة، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل وغيره، وأخذ عن أبي عبد الله بن سعادة وأبي الحسن بن النعمة، وتصدَّر بشاطبة للإقراء، وأخذ عنه الناس، وكان ماهرًا مجوِّدًا صالحًا خيِّرًا، قال ابن سفيان: إنه توفي سنة ٥٦٠، وقال ابن عيَّاد: إنه توفي سنة ٥٦١، عن ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن العبدري، يعرف بابن موجوال، أخذ القراءات عن ابن باسُّه، وروى عن أبي علي الصدفي، ولازم أبا محمد البطليوسي، وأخذ عن أبي الحسن بن واجب، وأبي عبد الله بن أبي الخير المورورى وغيرهما، ورحل إلى إشبيلية فأوطنها، وسمع بها من القاضي أبي مروان الباجي، وأبي الحسن شُريح بن محمد، وأبي بكر بن العربي، وكان هذا يُثني عليه، وكانت له رواية أيضًا عن أبي الفضل بن عياض، وأبي الطاهر السلفي، ولقي بإشبيلية أبا محمد عبد الله بن محمد بن أيوب فأخذ عنه الحديث المسلسل في الأخذ باليد، وكان فقيهًا بصيرًا صالحًا زاهدًا، وله كتاب في شرح صحيح مسلم بن الحجاج مات قبل إتمامه، قال ابن الأبار في التكملة: إن الحافظ أبا بكر بن الجد كان يغضُّ به ويغضُّ منه، وقال إنه أجاز لأبي الخطاب بن واجب، وأبي عبد الله الأندرشي من شيوخنا، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٦٦.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سَمَاعَة، أخذ عن أبي الحسن بن هذيل، وقرأ بمرسية على أبي محمد بن أبي جعفر، وكان من أهل النباهة، قال ابن الأبَّار: قرأت وفاته بخط أبي عمر بن عيَّاد.

وأبو محمد عبد الله بن موسى بن محمد بن موسى بن صامت الأنصاري، سكن بلنسية، وأصله من بعض نواحيها، روى عن أبيه، وعن أبي محمد البطليوسي، وأخذ عنه أبو عمر بن عيَّاد، وهو من أصحابه، وكان أصمَّ، ورووا عنه بيتين قال: إن أبا محمد البطليوسي أنشدهما لنفسه وكتبهما له بخطه، وذلك في حَبِّ الملوك، وهو هذه الفاكهة المعروفة:

أطعمني حَبَّ الملوك امرؤٌ　　يحتاج بالرغم إليه الملوك
مثل اليواقيت ولكنه　　ينظم في الأفواه لا في السلوك

قال ابن الأبار: ثم رأيت بعد أنهما لأبي العرب الصقلي. توفي عبد الله بن موسى المذكور بعد السبعين وخمسمائة.

وأبو الحسن عبد الله بن مروان بن أحمد بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز التجيبي، روى عن أبي الحسن بن النعمة، وعني بعقد الشروط، وأُكره على القضاء بكورة شبرب من كور بلنسية، فتوجَّه إليها عن غير اختيار منه، وحُكي أنه باع بعض ثيابه لينفق على نفسه مدة إقامته هناك، ثم استعفى فأُعفي، وكان من أهل الفضل والصلاح والعدالة الكاملة، مع نباهة البيت وجلالة السلف، مولده سنة ٥٣٥، ووفاته يوم الأحد خامس عشر شوال سنة ٥٩٣، ودفن ثاني يوم بمقبرة باب الحنش من بلنسية، ذكره ابن الأبَّار نقلًا عن ابن أبي العافية وابن عيَّاد.

وأبو محمد عبد الله بن يوسف بن علي الأنصاري، يعرف بابن عطية، كان من أهل النباهة، سماه أبو الربيع بن سالم في من صحبه، وأخذ عنه، ولم يذكر أحدًا من شيوخه، وقد ذكره ابن الأبار دون أن يذكر سنة وفاته.

وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن سالم المكتِّب الزاهد، يعرف بالصبطير، روى عن أبي الحسن بن النعمة، وقال ابن الأبار: أخذ القراءات قديمًا عن أبي جعفر بن عون الله الحصَّار شيخنا، وأدَّب بالقرآن، وكان من أهل الصلاح والزهادة والاجتهاد في العبادة، كثير التلاوة لكتاب الله تعالى، وكان لوالدي به اختصاص، ولم يزل يصحبه إلى أن توفي بعد عيد الفطر من سنة ٦٠١، ودفن خارج باب بيطالة، وكانت جنازته مشهودة والجمع فيها عظيمًا.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن يوسف بن سعدون الأزدي، روى عن الأستاذ أبي محمد المعروف بعبدون، وأخذ عنه العربية والآداب، وحضر

عند القاضي أبي تميم ميمون بن جبارة، وكان ماهرًا في العربية واللغة، بديع الخط، أنيق الوراقة، استكتبه بعض الرؤساء فبرع نظمه ونثره. قال ابن الأبار: أجاز لي، وسمعت منه حروفًا من اللغة يفسِّرها، وتوفي في آخر سنة ٦٢٢.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي من أهل بلنسية، أصله من سرقسطة، سمع أباه، وأبا العطاء بن نذير، وأبا عبد الله بن نسع، وأبا الحجاج بن أيوب، وأخذ القراءات والعربية عن أبي عبد الله بن نوح، ولقي شيوخًا لا يكاد يُحصَى عددهم، وأجاز له أبو بكر بن الجد وأبو عبد الله بن زرقون وغيرهما من علماء الأندلس، ومن علماء المشرق أبو الطاهر بن عوف، وأبو عبد الله بن الحضرمي وغيرهما، ووُلِّي القضاء بعدة كور من كور بلنسية، ووَلِّي بآخرة من عمره قضاء دانية. قال ابن الأبار الذي ترجمه: ثم صُرف بي عندما قلِّدت ذلك في رمضان سنة ٦٣٣، ثم أعيد إليها لما استعفيت من قضاء دانية، وكان فقيهًا عارفًا بالأحكام، عاكفًا على عقد الشروط، من أهل الشورى والفتيا، أديبًا شاعرًا مقدمًا فكهًا صدوقًا في روايته، قال: وتوفِّي ببلنسية مصروفًا عن القضاء عند المغرب من ليلة الجمعة التاسع لذي القعدة سنة ٦٣٥ والروم محاصرون بلنسية، ودفن بمقبرة باب الحنش لصلاة ظهر الجمعة قبل امتناع الدفن بخارج بلنسية، ومولده سنة ٥٧٤.

وأبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الأعلى بن فرغلوش. قال ابن الأبار عنه: صاحبنا روى معنا عن شيوخنا أبي عبد الله بن نوح، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي الحسن بن خيرة، وأبي الربيع بن سالم وغيرهم، وأخذ القراءات عن أبي زكريا الجعيدي، وابن سعادة، والحصَّار، وابنه زلال، إلى أن قال: ووَلِّي صلاة الفريضة والخطبة بجامع بلنسية مدة إلى أن تملَّكها الروم صلحًا في آخر صفر سنة ٦٣٦؛ فانتقل إلى دانية، ووَلِّي أيضًا الخطبة بجامعها، ثم انتقل منها إلى مرسية، وتردد بينها وبين أوريولة، وخطب بأوريولة إلى أن توفي بها سنة ٦٣٨، وسيق إلى مرسية فدفن بها.

وعبيد الله بن عبد البر بن ملحان، كان من أهل العلم بالفقه، وألَّف بمدينة بلنسية مجموعًا في ذلك لبعض بني عبد العزيز، وأصل بني ملحان من بُرجانة بغرب الأندلس، وذكر ابن بشكوال عبيد الله بن يوسف بن ملحان، قاله ابن الأبار.

وعبد الله بن جحاف بن يمن بن سعيد المعافري، من أهل بلنسية، وقاضيها للحكم المستنصر بالله، كان بقرطبة في سنة ٣٥١ إذ قدم الطاغية ملك الجلالقة، فحضر هو وأيوب بن حسين — قاضي وادي الحجارة — إلى منية خطيب بقرطبة، ووجههما الحكم

المستنصر إلى ملك الجلالقة — ابن عم الأول — يؤكِّدون عهده ويقبضون بيعته، عن ابن الأبار.

وأبو المطرف عبد الرحمن بن غلبون، من أهل قرطبة، سكن بلنسية، وَرَدَ عليها من قلعة أيوب، وكان كاتبًا لصاحبها، وكان من أهل العلم بالعربية واللغة، أقرأ كتاب سيبويه طول إقامته ببلنسية، وأخذ عنه جماعة. وكان لهم خادم سوداء أقرأت بعد موته النوادر والعروض، توفي ببلنسية سنة ٤٤٣، عن ابن الأبار.

وعبد الرحمن بن عبد الله بن سيد الكلبي، يكنى أبا زيد، كان عالمًا بالعدد والحساب مقدمًا في ذلك، ولم يكن أحد من أهل زمانه يعدله في علم الهندسة، انفرد بذلك، ذكره صاعد الطليطلي، وسمع من أبي عمر بن عبد البر في ذي القعدة سنة ٤٥٦.

وأبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن مثنَّى الكاتب، من أهل قرطبة، سكن بلنسية، ويعرف بابن صبغون، كان من جلَّة الكتاب والأدباء، مشاركًا في علم الحديث، وكان أبوه أحمد من أكابر أبناء الفقهاء بقرطبة، سار إلى المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون — صاحب طليطلة — عند انفصاله عن المنصور أبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر؛ صاحب بلنسية، فحظي عنده، واستوزره، وانتفع الناس به؛ لدينه، وسكون طائره، وسلامة باطنه وظاهره، وتوفي ببلنسية لليلتين خلَتَا من صفر سنة ٤٥٨، ودفن يوم الثلاثاء بعده، ذكره ابن حيَّان، وأثنى عليه فأطال وأطاب. قاله ابن الأبار في التكملة.

وأبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري، سمع من أبيه عبد الرحمن — صاحب الرد والمظالم — سنة ٤٧٤، وسمع أيضًا من جده القاضي أبي المطرف، وروى عنه أبو الحسن بن النعمة، وأبو عمر زياد بن الصفار، وابن موجوال، عن ابن الأبار.

وأبو مروان عبد الملك بن عمر بن عبد الرحمن الحجري، له سماع كثير من أبي داود المقرئ في سنة ٤٧٤.

وأبو مروان عبد الملك بن علي بن سَلَمَة المددي الغافقي، يعرف بابن الجلَّاد، أخذ عن أبي الطاهر مقاماته اللزومية، وروى عن أبي العرب عبد الوهاب بن محمد التجيبي، سمع منه ببلنسية مع أبي الحسن بن سعد الخير سنة ٥٥١، وكان مشاركًا في علم الطب محترفًا به، وتوفي سنة ٥٧٤ أو ٥٧٥، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن سالم.

وعبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن سعدون الأزدي الطبيب، عني بالطب؛ فبرع فيه، وسمع من أبي الحسن بن هذيل، ولقي ابن جبير الرحَّالة الشهير، وروى من شعره، وتوفي في رمضان سنة ٦٠٥، عن ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الجبار بن يوسف بن محرز، روى عن أبي داود المقرئ، وكان من أهل العدالة والضبط، والمعرفة بعقد الشروط، وكتب للقضاة ببلده، وتوفي في نحو الثلاثين وخمسمائة، عن ابن الأبار عن ابن سالم.

وأبو حفص عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي صاحب الأحكام ببلنسية، سمع من أبيه محمد بن واجب، ومن أبي محمد بن خيرون، وأبي بحر الأسدي، وأبي بكر بن العربي، وأبي محمد البطليوسي، وكان فقيهًا حافظًا للمسائل بصيرًا بالأحكام، مفتيًا مشاورًا، درَّس في حياة أبيه، ولم يعتنِ بالحديث كثيرًا، وكان متواضعًا حسن الهدي، متعففًا قانعًا، منقبضًا عن السلطان، وُلِّي قضاء دانية، قال ابن الأبار: حدَّث عنه حفيده شيخنا أبو الخطاب أحمد بن محمد، وأبو عمر بن عيَّاد، وأبو عبد الله بن سعادة، وأبو محمد بن سفيان، وتوفي في سلخ رمضان سنة ٥٥٧ عن إحدى وثمانين سنة، وهو آخر حفاظ المسائل بشرق الأندلس.

وأبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن علي بن عُديس القضاعي البلنسي اللغوي، صحب أبا محمد البطليوسي، واختُصَّ به، ورحل إلى باجه، فأخذ عن أبي العباس بن خاطب، وقرأ عليه الكامل، وألَّف كتابًا في المثلث حافلًا في عشرة أجزاء ضخام، دل على تبحُّره وسعة حفظه للُّغة، وشرح الفصيح شرحًا مفيدًا، وسكن تونس، وبها توفي في حدود السبعين وخمسمائة.

وأبو الحسن علي بن عطية بن مطرِّف بن سلمة اللخمي، يعرف بابن الزقَّاق، أخذ عن أبي محمد البطليوسي، وبرع بالآداب، وتقدم في صناعة الشعر، وامتدح الكبار فأجاد، توفي في حدود الثلاثن وخمسمائة، وقيل سنة ثمانٍ وعشرين، لم يبلغ أربعين سنة، ذكره ابن الأبار.

وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل، لازم أبا داود المقرئ نحوًا من عشرين سنة بدانية وبلنسية، ونشأ في حجره، وكان زوج أمه، وسمع منه الكثير، وهو أثبت الناس فيه، وصارت إليه أصوله العتيقة في فنون العلم، وسمع من أبي محمد الركلي صحيح البخاري، ومن أبي عبد الله بن عيسى مختصر الطليطلي في الفقه، ومن أبي الحسن طارق بن يعيش صحيح مسلم، وأجاز له أبو علي بن سكَّرة، وكان منقطع

القرين في الفضل والدين والورع والزهد مع العدالة والتواضع، صوَّامًا كثير الصدقات، كانت له ضيعة، فيخرج لتفقدها تصحبه الطلبة، فمن قارئ ومن سامع، وهو منشرح طويل الاحتمال مع ملازمتهم إياه ليلًا ونهارًا، وأسنَّ وانتهت إليه الرئاسة في صناعة الإقراء؛ لعلوِّ روايته وإمامته في التجويد، وحدَّث نحو ستين سنة، ولد سنة ٤٧٠، وقيل ٤٧١، وتوفي يوم الخميس سابع عشر رجب سنة ٥٦٤، ودفن يوم الجمعة، وصلَّى عليه أبو الحسن بن النعمة، وحضره السلطان أبو الحجاج يوسف بن سعد، وتزاحم الناس على نعشه يجتهدون أن يمسوه بأيديهم ثم يمسحون بها على وجوههم، كان يتصدق على الأرامل واليتامى، فقالت له زوجته: إنك لتسعى بهذا في فقر أولادك! فقال لها: لا والله، بل أنا شيخ طمَّاع أسعى في غناهم.

وأبو الحسن علي بن عبد الله بن خلف بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الملك الأنصاري، ولد بالمريَّة، وسكن بلنسية، وكان يقال له: أبو الحسن بن النعمة، أخذ في صغره عن أبي الحسن بن شفيع، وانتقل به أبوه إلى بلنسية سنة ٥٠٦، فقرأ بها القرآن على أبي عمران موسى بن خميس الضرير، وأبي عبد الله بن باسُّه، وأخذ العربية عن أبي محمد البطليوسي، واختص به، وروى عن أبي بحر الأسدي وغيره، ودخل قرطبة سنة ٥١٣؛ فتفقَّه بأبي الوليد بن رشد، وأبي عبد الله بن الحاج، وسمع من أبي علي الصدفي، وأبي الحسن بن مغيث، وغيرهما، وكان عالمًا متقنًا حافظًا للفقه ومعاني الآثار والسير، متقدمًا في علم اللسان، فصيحًا مفوَّهًا فاضلًا، معظمًا عند الخاصة والعامة، محبوبًا بدماثة خُلقه، ولين جانبه، وولي خطة الشورى والخطابة ببلنسية دهرًا، وانتهت إليه الرئاسة في الإقراء والفتوى، وصنَّف كتاب «رِيُّ الظمآن في تفسير القرآن»، وهو عدة مجلدات، وكتاب «الإمعان في شرح مصنَّف أبي عبد الرحمن» النسائي، وكثر الراحلون إليه. قال ابن الأبار: وهو خاتمة العلماء بشرق الأندلس، توفي في رمضان سنة ٥٦٧ عن بضع وسبعين سنة.

وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخير الأنصاري، سمع من أبي محمد القُلُنِّي، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، ولازم أبا الحسن بن النعمة، وتأدَّب به، وأقرأ العربية حياته كلها، فكان فيها إمامًا، وكان بارع الخط كاتبًا بليغًا شاعرًا مجيدًا، وكانت فيه غفلة معروفة، وله كتاب على كامل المبرد، توفي بإشبيلية في ربيع الآخر سنة ٥٧١.

وأبو الحسن علي بن حسين النجار الزاهد، يعرف بابن سعدون من جزيرة شقر، سكن بلنسية، كان من أهل الزهد والصلاح التام والعلم، وتؤثر عنه الكرامات، وكان

يخبر بأشياء خفية لا تتوانى أن تظهر جليَّة، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعظ في المساجد، وكانت العامة حزبه، توفي سنة ٥٧٨، وازدحم الخلق على نعشه، ذكره ابن الأبار.

وأبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن شلُّوط البلنسي الشبارتي، حج وسمع بمكة من علي بن حميد بن عمَّار، وسكن تلمسان، واحترف بالطب. قال ابن الأبار: أخذت عنه بعض صحيح البخاري، وأجاز لي، وتوفي في نحو سنة ٦١٠.

وأبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومي. قال ابن الأبار: إنه شاعر بلنسية الفحل المستبحر في الآداب، أخذ عن أبي عبد الله بن حميد، وكان حافظًا لأيام العرب وأشعارها، شاعرًا مفلقًا ذا بديهة، اعترف له بالسبق بلغاء وقته، ودوَّن شعره في مجلدتين. قال: وصحبته مدة، وأخذ عنه أصحابنا، ولد سنة ٥٥١، وتوفي في ثامن عشر شعبان سنة ٦٢٢.

وأبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علي البلوي، سمع أبا بكر بن خير، وأبا عمر بن عطية وغيرهما، ولقي بإشبيلية ابن بشكوال، والسهيلي، وسمع منهما، وكان فارضًا متقدمًا فقيهًا حافظًا، توفي في ربيع الآخر سنة ٦٢٣.

وأبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة، خطيب بلنسية، أخذ عن أبي جعفر طارق بن موسى قراءة ورش، وأخذ القراءات عن أبي جعفر بن عون الله، وسمع من أبي العطاء بن نذير وغيره، وحج سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة، وسمع من أبي عبد الله بن الحضرمي، وحمَّاد الحرَّاني، ولقي عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي الحافظ ببجاية، وأبا حفص الميانشي، وانصرف إلى بلده بلنسية، وأقام على حاله من الانقباض وحسن السمت، إلى أن تقلَّد الصلاة ببلنسية، فتولاها أربعين سنة، وكان راجح العقل. قال ابن الأبَّار: تلوت عليه بالقراءات السبع، وسمعت منه جلَّ ما عنده، واختلط قبل موته بأزيد من عام، وأُخِّر عن الصلاة لاختلال ظهر في كلامه. ولد سنة خمسين أو إحدى وخمسين وخمسمائة، وتوفي في أواخر رجب سنة ٦٣٤، ونزل في قبره أبو الربيع بن سالم، وكانت جنازته مشهودة حضرها السلطان.

وعيسى بن محمد بن فتوح بن فرج الهاشمي، يكنى أبا الأصبغ، ويعرف بابن المرابط، أخذ القراءات عن أبي زيد الورَّاق، وأبي بكر بن الصنَّاع المعروف بالهدهد، وسمع من أبي علي الصدفي، وكان أحد الرؤساء في القراءة، قال ابن الأبَّار: أخذ عنه أبو عمر بن عيَّاد، وابنه محمد، وشيخنا أبو عبد الله بن سعادة، توفي في رجب سنة ٥٥٢ وقد جاوز السبعين.

وعتيق بن عبد الجبار أبو بكر الجذامي البلنسي، سمع من أبي داود المقرئ، وأبي محمد البطليوسي، وكان بارعًا بالشروط، كتب للقضاة ببلنسية نحوًا من أربعين سنة، توفي سنة ٥٣٩.

وعتيق بن أحمد بن محمد بن خالد المخزومي أبو بكر، أخذ القراءات عن ابن هذيل، وسمع من أبي الوليد بن الدبَّاغ، ودرَّس الفقه والعربية والأصول، وبرع في علوم عديدة، وتوفي سنة ٥٤٨.

وعتيق بن أحمد بن سلمون أبي بكر البلنسي، أخذ القراءات عن ابن هذيل، والنحو عن أبي محمد عبدون، واستشهد في كائنة غربالة سنة ٥٨٠.

وعتيق بن علي بن سعيد بن عبد الملك بن رزين أبو بكر العبدري، يعرف بابن العقَّار، من طرطوشة، ونشأ بميورقة، واستوطن بلنسية، وقرأ على ابن هذيل، وابن النعمة، وابن نمارة، وأجاز له السلفي وغيره، وكان من أهل التقدم في الإقراء مع الفقه والبصر بالشروط، ولي قضاء بلنسية وخطابتها وقتًا، وكانت في أحكامه شدة، وتوفي في ذي الحجة سنة ستمائة، وكانت ولادته سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وجميع هؤلاء العتقاء الأربعة ترجمهم ابن الأبار في التكملة. ومنهم ابن العقَّار، تقدمت ترجمته في علماء طرطوشة؛ لأن أصله منها.

والفتح بن خلف أبو نصر البلنسي المقرئ، أخذ عن داود المقرئ وطبقته، ولم يذكر ابن الأبار عنه أكثر من هذا.

وفتح بن يوسف أبو نصر البلنسي، يعرف بابن أبي كبَّة، أخذ أيضًا عن أبي داود، وأخذ عنه أبو عبد الله الشارِّي، ولم يذكر ابن الأبار عنه غير هذا، ولكنه قال: إن أبا عبد الله الشارِّي توفي سنة ٦٢٤.

وأبو الوليد سليمان بن عبد الملك بن روبيل العبدري، سمع من أبي محمد بن عتَّاب وغيره، توفي سنة ٥٣٠ شابًّا (ذكر في فصل بلنسية).

وأبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسَّان الحميري الكلاعي،[٧٢] كان معروفًا بأبي الربيع بن سالم، سمع ببلده بلنسية أبا العطاء بن نذير، وأبا الحجاج بن أيوب، ورحل فسمع أبا القاسم بن حبيش، وأبا بكر بن الجد، وأبا الوليد بن رشد، وأبا محمد بن جمهور، وخلقًا، وأجاز له أبو العباس بن مضاء، وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي، وآخرون، وعني أتمَّ عناية بالتقييد والرواية، وكان إمامًا في الحديث، حافظًا، عارفًا بالجرح والتعديل، ذاكرًا للمواليد والوفيات، يتقدم أهل زمانه في ذلك، وفي حفظ أسماء

الرجال، خصوصًا الذين عاصروه، وكان حسن الخط لا نظير له في الإتقان والضبط مع الاستبحار في الأدب، والاشتهار بالبلاغة.

وكان فردًا في إنشاء الرسائل، مجيدًا في النظم، خطيبًا مفوهًا مدركًا مع الشارة الأنيقة والزي الحسن، وقد كان يتكلم عن الملوك في مجالسهم ويعبِّر عما يريدونه، فيخطب في ذلك على المنابر، ولِّي خطابة بلنسية. وله تصانيف مفيدة منها كتاب «الاكتفاء في مغازي الرسول — عليه السلام — والثلاثة الخلفاء» في أربعة مجلدات، وكتاب حافل في معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله، وكتاب في ترجمة البخاري، وإليه كانت الرحلة في عصره للأخذ عنه. قال ابن الأبار: أخذت عنه كثيرًا، وانتفعت به في الحديث كلَّ الانتفاع، وحضَّني على هذا التاريخ، وأمدني من تقييداته وطرفه بما شحنته، مولده في رمضان سنة ٥٦٥، واستشهد بكائنة أبيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية مقبلًا غير مدبر في العشرين من ذي الحجة سنة ٦٣٤، قال: وكان أبدًا يحدثنا أن السبعين منتهى عمره لرؤيا رآها، قلت: لكنه بحسب هذه الأرقام كما قرأناها في التكملة يكون بلغ تسعًا وسبعين سنة.

وسعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري البلنسي، ذكره ابن الأبار، ولم يزد على قوله: ترجمته عندي. فلعله كان يريد أن يلحقها بالتكملة ففاته ذلك.[٧٣]

وأبو محمد واجب بن أبي الخطاب بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب بن عمر بن واجب القيسي، سمع ابن هذيل، وأبا عبد الله بن سعادة وغيرهما، وأجاز له أبو مروان بن قزمان والسلفي، وتولى قضاء أندة من عمل بلنسية، وشُكرت سيرته، وكان كاتبًا بليغًا شاعرًا خطيبًا مِصقعًا، من بيت جلالة، صحب السلطان، وتوفي بمراكش سنة ٥٨٢.

وأبو محمد واجب بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر، سمع ابن هذيل، وابن سعادة، وابن النعمة، وتولى القضاء بأماكن، قال ابن الأبار: سمعت منه، وأجاز لي، وتوفي سنة ٦١٠.

ويحيى بن محمد بن عبد العزيز بن عقال الفهري، سمع من أبي الوليد بن الدبَّاغ، وأبي بكر بن برنجال، وتفقه بأبي محمد بن عاشر، وأبي بكر بن أسد، ولقي بقرطبة أبا جعفر البطرجي، وسمع بغرناطة من القاضي عياض، وتولى قضاء أندة من كور بلنسية، وقضاء ألش من كور مرسية، فحمدت سيرته. قال ابن الأبَّار: أخذ عنه شيخنا أبو عبد الله بن نوح وتفقه به، توفي في صفر سنة ٥٦٧، وتوفي في المحرم قبله أخوه محمد، وعاش يحيى ثلاثًا وستين سنة.

وأبو زكريا يحيى بن زكريا بن علي بن يوسف الأنصاري، يعرف بالجعيدي، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن حميد، وأبي عبد الله بن نوح، وسمع من أبي عبد الله بن نسع وجماعة، وتصدر للإقراء في حياة الشيوخ، وكان أحد العلماء مع الصلاح التام والورع المحض. قال ابن الأبار: أخذ عنه الكافي لأبي عبد الله بن شريح، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٦١٩، وله ثمانٍ وأربعون سنة، وكان صاحب والدي.

وأبو الحجاج يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أيوب الفهري الداني، سكن بلنسية، وسمع أباه، وأبا بكر بن برنجال، وأخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعيد الداني، وأبي عبد الله المكناسي، والعربية عن أبي العباس بن عامر، وتفقَّه بأبي محمد بن بقيٍّ، وكان متقدمًا في الآداب، إمامًا في معرفة الشروط، كاتبًا بليغًا شاعرًا، كتب للقضاة، وناب في الأحكام، توفي في شعبان سنة ٥٩٢، وكانت ولادته سنة ٥١٦.

وأبو الحجاج يوسف بن سليمان بن يوسف بن عبد الرحمن بن حمزة، أخذ القراءات عن أبي عبد الله الداني سنة ٥٣٧، وعن أبي الأصبغ بن فتوح الهاشمي، وكان ثقة فاضلًا، وتوفي قبل الستمائة.

وأبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي الفتح، يعرف بابن المرينة. قال ابن الأبار: سمع معنا من أبي عبد الله بن نوح، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي عبد الله بن زلال، وأبي سليمان بن حوط الله، وانفرد بلقاء جماعة منهم أبو القاسم الطرسوني، وأبو الحسن بن يبقى، ومهر في علم العربية، وقعد لإقرائها نحو عشرين سنة، وكان مشاركًا في الفقه مع الصلاح والزكاء، ووليِّ قضاء بلنسية سنة ٦٣٣، وتوفي بشاطبة في جمادى الآخرة سنة ٦٣٦، وولد سنة ٥٨٩.

وإشراق السويداء العروضية، مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي الكاتب، سكنت بلنسية، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة، وفاقته في كثير مما أخذته عنه، وأتقنت العروض. قال أبو داود سليمان بن نجاح: أخذت عنها العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي، والكامل للمبرد، وكانت تحفظ الكتابين وتتكلم عليهما، وتوفيت بدانية بعد وفاة سيدها، وكانت وفاته سنة ٤٤٣.

وزينب بنت محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الزهري البلنسية، وتدعى عزيزة بنت محرز، سمعت جدها لأمها أبا الحسن بن هذيل، وأخذت عنه التقصي لابن عبد البر، وكانت صالحة، وكان خطها ضعيفًا، وتوفيت سنة ٦٣٥ وقد بلغت الثمانين.

وأم العز بنت أحمد بن علي بن هذيل، وأخذت قراءة نافع عن أم معفِّر، حرم الأمير محمد بن سعد، وبرعت في حفظ الأشعار، وتوفيت بشاطبة إثر خروجها من حصار بلنسية في أحد الربيعين سنة ٦٣٦.

وأبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن يعقوب بن أحمد بن عمر الأنصاري البلنسي، قال الضبِّي صاحب بغية الملتمس: صاحبنا محدِّث ثقة ثبت، روى ببلنسية عن أبي الحسن بن النعمة وغيره، ثم رحل إلى المشرق، فأقام بالإسكندرية في مدرسة الحافظ السلفي نحوًا من عشرين سنة، وكتب عنه ما لم يكتب أحد، وكان عالمًا بالرجال متقللًا من الدنيا، لم يغيِّر من هيئته التي كان بها بالأندلس، سكنت معه بالمدرسة مدة فحمدت حاله وزهده وورعه وانقباضه عن الناس، قال: لما صار الحافظ السلفي — رحمه الله — في عشر المائة أنشدنا:

ما كنت أرجو إذ ترعرعت أن ... أبلغ من عمري سبعينا
فالآن والحمد لربي فقد ... جاوزت من عمري تسعينا

ولما قارب المائة أنشدنا:

أنا من أهل الحديث ... وهمُ خير فئه
جزت تسعين وأرجو ... لأجوزنَّ مائه

ولما جاوز المائة أنشدنا:

أنا إن بان شبابي ومضى ... فبحمد الله ذهني حاضرُ
ولئن خفَّت وجفَّت أعظمي ... كِبَرًا غصنُ علومي ناضرُ

قال الضبي: سمع بقراءتي بالإسكندرية كثيرًا، وحدَّث بها أخيرًا، وروى عن كافة أهلها وعن الواردين عليها، واستجاز جميع محدثي العراق والشام فأجازوه. قال: وتوفي إبراهيم بن عبد الله في حدود التسعين وخمسمائة.

وإبراهيم بن عبد الصمد يكنى أبا عبد الصمد البلنسي، سكن بلنسية، قال الضبي: وأظنه من أهلها، شاعر مشهور. فمن شعره يصف قومًا:

أناس إذا ما جئتُ أجلس بينهم لأمر أراني في جماعتهم وحدي
إذا غضبوا كان الوعيد انتقامَهم وإن وعدوا لم يأت مِنهم سوى الوعدِ

وأبو القاسم خلف بن أحمد بن بطَّال البكري، روى عن أبي عبد الله بن الفخَّار، والقاضي أبي عبد الرحمن بن جحَّاف وغيرهما. قال ابن بشكوال في الصلة: حدَّث عنه أبو داود المقري، وشيخنا أبو بحر الأسدي، وذكره أيضًا أبو محمد بن خزرج وقال: لقيته بإشبيلية سنة ٤٥٤، وكان فقيهًا أصوليًّا من أهل النظر والاحتجاج لمذهب مالك، واستقضي بعض نواحي بلنسية، ومولده حدود سنة ٣٩٨، ودخل إفريقية سنة ٤٢٣، وتردد بالمشرق نحو أربعة أعوام طالبًا للعلم، وحج سنة ٤٥٢، وله مؤلفات حسان. انتهى بتصرف.

وأبو القاسم خلف مولى يوسف بن بهلول، يعرف بالبريلي، سكن بلنسية، كان فقيهًا حافظًا للمسائل، وله مختصر في المدونة حسن جمع فيه أقوال أصحاب مالك، وهو كثير الفائدة. وكان أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه يقول: من أراد أن يكون فقيهًا من ليلته فعليه بكتاب البريلي، وكان مقدمًا في علم الوثائق، وتوفي سنة ٤٤٣ وقد نيَّف على السبعين، ذكره ابن بشكوال في الصلة، قال: قرأت وفاته في كتاب ابن حُدير، وقرأت بخط بعض أصحابنا أنه توفي ليلة الأربعاء، ودفن يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من ربيع الآخر عام ٤٤٣.

وأبو بكر عبد العزيز بن محمد بن سعد، يعرف بابن القدرة، روى عن أبي عمر بن عبد البر وغيره، وكان فقيهًا مشاورًا ببلده بلنسية، قال ابن بشكوال في الصلة: حدث عنه شيخنا أبو بحر الأسدي، وأبو علي بن سكَّرة وغيرهما، وتوفي سنة ٤٨٤.

وأبو شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبي القبري؛ نسبة إلى «قَبْرة» من عمل قرطبة، سكن بلنسية، سمع من أبي محمد الأصيلي، وأبي حفص بن نابل، وكان من أهل النبل والذكاء، سريًّا متواضعًا، تقلَّد الصلاة والخطبة والأحكام ببلنسية، وذكره الحميدي وقال فيه: فقيه محدِّث أديب خطيب شاعر، أنشدني له أبو الحسن علي العائذي:

يا روضتي ورياض الناس مجدبة وكوكبي وظلام الليل قد ركدا
إن كان صرف الليالي عنك أبعدني فإن شوقي وحزني عنك ما بعدا

ولد يوم الخميس لعشر خلون من ذي القعدة سنة ٣٧٧، وتوفي ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٤٥٦ بمدينة شاطبة، وحمل إلى بلنسية فدفن بها، وصلى عليه القاضي أبو المطرف بن جحاف، قال ابن بشكوال في الصلة: قرأت بخط ابن مدير: كان أبو شاكر رَبْعَةً من الرجال؛ ليس بالطويل ولا بالقصير، وسيمًا جميلًا، حسن الهيئة والخلق، حسن السمت والهدي، وكان أشبه الناس بالسلف الصالح — رضي الله عنهم.

وأبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس القيسي، ترجمه صاحب نفح الطيب فقال: إنه كان مشارًا إليه في العربية، رَحَل من الأندلس، وسكن بمصر، وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي؛ صاحب الفصوص، وعلى أبي يعقوب يوسف بن خرقان، ودخل بغداد، وله شعر حسن؛ فمن ذلك قوله:

مريض الجفون بلا علةٍ ولكن قلبي به ممرض
أعان السهاد على مقلتي بفيض الدموع فما تغمض

ومن شعره قوله في حمَّام:

ومنزل أقوام إذا ما اعتدوا به تشابه فيه وغدُهُ ورئيسُهُ
يخالط فيه المرء غيرَ خليطهِ ويضحي عدوُّ المرء وهو جليسه
يُفَرِّجُ كربي إن تزايد كربُهُ ويؤنس قلبي أن يُعد أنيسه
إذا ما أعرت الجوَّ طرفًا تكاثرت على مائة أقماره وشموسه

توفي يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢٧، وقيل: ٤٢٩، وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي صاحب التفسير. ومُغَلِّس بضم الميم وفتح الغين وتشديد اللام المكسورة وبعدها سين مهملة.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن زكريا المعافري المقرئ الفرضي الأديب، ترجمه المقري في النفح، وقال: إنه ولد سنة ٥٩١، ونشأ ببلنسية، وأقام بالإسكندرية، وقرأ القرآن

على أصحاب ابن هذيل، ونظم قصيدة في القراءات أكثر أبياتًا من الشاطبية، وكانت له يد في الفرائض والعروض. ولم يذكر عنه أكثر من هذا، ولم ترد له ترجمة في تكملة ابن الأبار، يظهر أن السبب في ذلك كونه متأخرًا لم يبلغ في زمن ابن الأبار شهرةً يُترجمه من أجلها، وقد أقام بالإسكندرية بعيدًا عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري، ولد سنة ٥١٩، وسمع من أبيه وجماعة، ورَحَل حاجًّا، فسمع من السلفي، وابن عوف، والحضرمي، والتنوخي، والعثماني، وغيرهم، ورجع بعد الحج إلى الأندلس وبلده بلنسية، فحدَّث فيها، وكان غاية في الصلاح والورع، ترجمه صاحب النفح.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن محمد بن يوسف الأنصاري، الشاطبي الأصل، البلنسي المولد، ولد سنة إحدى وستمائة، وتوفي بالقاهرة في جمادى الأولى سنة ٦٨٤، ترجمه صاحب النفح وقال: إن المشارقة كانوا يلقبونه برضيِّ الدين، وقرأ المترجم ببلده بلنسية على ابن صاحب الصلاة آخر أصحاب ابن هذيل، وسمع منه كتاب التلخيص للواني، وسمع بمصر من ابن المغيِّر وجماعة، وروى عنه الحافظ المزني، واليونيني، والظاهري، وآخرون. ويكفيه أن الشيخ أبا حيَّان الأندلسي — إمام عصره في اللُّغة — كان من تلاميذه، وأثنى عليه، وقرأ عليه كتاب التيسير، ولما توفي أنشد أبو حيَّان ارتجالًا:

نُعي لي الرضيُّ فقلت: لقد نُعي ليَ شيخ العلا والأدب
فمن للغات ومن للثقات ومن للنحاة ومن للنسب؟
لقد كان للعلم بحرًا فغار وإن غئور البحار العجب
فقُدِّس من عالم عامل أثار لشجوي لما ذهب

ولرضي الدين نظم حسن منه ما قاله وهو يحتضر:

حان الرحيل فودِّع الدار التي ما كان ساكنها بها بمخلَّد
واضرع إلى الملك الجواد وقل له: عبد بباب الجود أصبح يجتدي
لم يرض غير الله معبودًا ولا دينًا سوى دين النبي محمد

ومن نظمه أيضًا:

أقول لنفسي حين قابلها الردى فرامت فرارًا منه يسرى إلى يمنى
ترى تحملي بعض الذي تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى

وله أيضًا:

لولا بناتي وسيئاتي لطرت شوقًا إلى الممات
لأنني في جوار قوم بغضني قربهم حياتي

وروى أبو حيان الأندلسي في البحر عنه أبياتًا لزينب بنت إسحاق النصراني الرسعيني في حب آل البيت، وهذا من غريب الروايات قالت:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكني محبٌّ لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون: ما بال النصارى تحبهم وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم: إني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وقال المقري في النفح: رأيت بخطه كتبًا كثيرة بمصر وحواشي مفيدة في اللغة وعلى دواوين العرب — رحمه الله تعالى.

واليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي. قال المقري في النفح: من أهل بلنسية، وأصله من جيان، وسكن المرية ثم مالقة، يكنى أبا يحيى، كتب لبعض الأمراء بشرقي الأندلس. وله تأليف سماه «المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب»، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب عندما رحل من الأندلس إلى الديار المصرية سنة ستين وخمسمائة، وكانت وفاته بمصر يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة ٥٧٥.

وأبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سَيد بونه الخزاعي، قرأ وتفقَّه ببلنسية، وأخذ عن أبي الحسن بن النعمة، وأبي الحسن بن هذيل، وحج ولقي في رحلته جلة أكبرهم الولي الكبير سيدي أبو مدين شعيب، وانتفع به ورجع من عنده بعجائب دينية ورفيع أحوال إيمانية، كما قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة، ترجمه أبو العباس

المقري في نفح الطيب، وقال عنه: إنه العارف الكبير، الولي الصالح الشهير، كان كثير الأتباع بعيد الصيت، شهر بالعبادة وتبرك الناس به، وتوفي — رحمه الله تعالى — في شوال سنة ٦٢٤، وعاش نيفًا وثمانين سنة. وقال لسان الدين بن الخطيب: لقيت قريبه الشيخ أبا تمام غالب بن الحسين بن سيد بونه حين ورد غرناطة، فكان يحدث عنه بعجائب وقال: إنه انتقل الكثير من أهله وأذياله عند تغلب العدو على الشرق إلى هذه الحضرة، فسكنوا منها ربض البيَّازين على دين وانقباض، وبالحضرة اليوم منهم بقية؛ أي إنه لما غلب العدو على شرق الأندلس هاجروا إلى غرناطة، وذكر لسان الدين أن موضع وفاة الشيخ المذكور مكان يقال له زناتة.

وأحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي البلنسي، أصله من شقورة، يكنى أبا المطرف، قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: لم يكن من أهل بيت نباهة، ووقع لابن عبد الملك في ذلك نقل كان حقه التجافي عنه لو وفِّق، روى عن أبي الخطاب بن واجب، وأبي الربيع بن سلام، وأبي عبد الله بن فرج، وأبي علي الشلوبين، وأبي عمر بن عات، وأبي محمد بن حوط الله، وأجازوا له، وروى عنه كثيرون، وصحب أبا عبد العزيز بن عبد الله بن خطاب قبل تولِّيه ما تولَّى من رئاسة بلده، وكتب عن الرئيس أبي جميل زيَّان بن سعد وغيره من شرق الأندلس. ثم انتقل إلى العدوة، واستكتبه الرشيد أبو محمد بن أبي الوليد بمراكش، ثم صرفه عن الكتابة وولَّاه قضاء مليانة من نظر مراكش الشرقي، فتولاه قليلًا ثم نقله إلى رباط الفتح، وتوفي الرشيد فأقره على ذلك الوالي بعده أبو الحسن المعتضد أخوه، ثم نقله إلى قضاء مكناسة الزيتون، ثم لما قتل المعتضد لحق بسبتة، وركب البحر منها إلى إفريقية، فقدم بجاية على الأمير أبي زكريا.

ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله، وولي قضاء مدينة الأريس، ثم انتقل إلى فاس، وبها طالت مدة ولايته؛ فاستدعاه المستنصر بالله محمد بن أبي زكريا، ولطف محله منه حتى كان يحضر مجالس أنسه، وداخَلَهُ بما قرفته الألسن بسببه. قال ابن عبد الملك: كان أول طلبه شديد العناية بشأن الرواية، فاستكثر من سماع الحديث، وأخذ عن مشايخ أهله، وتفنن في العلوم، ونظر في العقليات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب فبرع فيه براعة عُدَّ بها من كبار مجيدي النظم.

وأما الكتابة فهو علمها المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المنقولات المنتخبة، والقصار المقتضبة، وكان يعلم كلامه نظمًا ونثرًا بالإشارة إلى التاريخ، ويودعه إلماعات بالمسائل

العلمية متنوعة المقصد. قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: قلت: وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه ليست من ذوات الأمثال؛ فقد كان نسيج وحده إدراكًا وتفننًا، بصيرًا بالعلوم، محدثًا مكثرًا، راوية ثبتًا، متبحرًا في التاريخ والأخبار، ريان، مضطلعًا بالأصلين، قائمًا على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العيون، غزير المعاني والمحاسن، شفَّاف اللفظ، حر المعنى، ثاني بديع الزمان في شكوى الحرفة، وسوء الحظ، ورونق الكلام، ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم، والقصور في السلطانيات، قال: كان يذكر أنه رأى النبي ﷺ فناوله أقلامًا، فكان يرى ويُرى له أن تأويل الرؤيا ما أدرك من التبريز في الكتابة، وارتفاع الذكر والله أعلم.

ومن بديع ما صدر عنه في ما كتب في غرض التورية قطعة من رسالة أجاب بها العباس بن أمية، وقد أعلمه باستيلاء الروم على بلنسية، فقال: بالله أي نحو تنحو أو مسطور تثبت أو تمحو، وقد حُذف الأصل والزائد، وذهبت الصلة والعائد، وباب التعجب طال، وحال اليأس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت نون الجمع، والمعتل أعدى الصحيح، والمثلث أردى الفصيح، وامتنعت الجموع من الصرف، وأمِنت زوائدها من الحذف، ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلَّة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض؟!

وله تأليف في كائنة المرية وتغلُّب الروم عليها، نحا فيها نحو العماد الأصفهاني في الفتح القدسي، وكتابة في تعقُّبه على فخر الدين بن الخطيب الرازي في كتاب «المعالم» في أصول الفقه منه وردِّه على كمال الدين أبي محمد عبد الكريم السماكي في كتابه المسمى بـ «التبيان في علم البيان»، واختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة، وغير ذلك من التعاليق والمقالات، ودوَّن الأستاذ أبو عبد الله بن هاني السبتي كتابته، وما يتخللها من الشعر في سفرين بديعين، وسمى ذلك «بغية المستطرف وغنية المتظرِّف. من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف»، مولده بجزيرة شقر، وقيل ببلنسية، في رمضان عام اثنين وثمانين وخمسمائة، ووفاته بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين ذي الحجة عام ستة وخمسين وستمائة.

وأبو عبد الله محمد بن أبي سفيان بن أبي إسحاق الواعظ، سمع من أبي المعالي إدريس بن يحيى الواعظ، وولي الحسبة بالسوق، وكان يعظ بمسجده المشتهر بمسجد الغَلَبَة، قال ابن الأبار: وفيه قرأت على شيخنا أبي عبد الله بن نوح هذا، وقد كتب أبو الحسن بن النعمة كثيرًا مما سمعه من المترجم مستفادًا عن أبي المعالي إدريس المذكور،

وذلك في سنة ٥١٢، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن البراء. روى عن أبي هذيل، وابن النعمة، وأبي حفص بن واجب، وتفقَّه بأبي محمد بن عاشر، وأبي بكر بن أسد، ورحل إلى المرية فلقي أبا القاسم بن ورد، وكان فقيهًا حافظًا من أهل الدين والفضل، وولي خطة الشورى ببلنسية للقاضي أبي محمد بن جحاف، وتوفي في رجب سنة ٥٤٨، عن ابن الأبار.

وأبو مروان عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن عيشون المعافري، من أهل بلنسية، وأصله من لبرُقاط عمل أبيشة من ثغورها الشرقية، روى عن أبي الوليد بن الدبَّاغ، ورحل حاجًّا، فأدى الفريضة ولقي أبا علي بن العرجاء بمكة، وأبا طاهر السلفي بالإسكندرية، وأبا عبد الله المازري بالمهديَّة، قال ابن الأبار: وكان نهاية في الصلاح والفضل وأعمال البر والخير، وجيهًا متواضعًا، صرورة لم يتزوج قط، وكان إخباريًّا ممتعًا، واقتنى من الدواوين والدفاتر كثيرًا، وكان صاحب ثروة ويسار، وهو بنى المسجد المنسوب إليه على مقربة من باب القنطرة من داخل بلنسية، ووقف عليه دارًا لسكنى من يؤم به، وتوفي سنة ٥٧٣ أو ٥٧٤.

هوامش

(١) قال الحميري في الروض المعطار: بلنسية في شرق الأندلس بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يومًا وعلى الجادة ثلاثة عشر يومًا. وهي مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس في مستوٍ من الأرض، عامرة القطر، كثيرة التجارات، وبها أسواق وحطٌّ وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهي على نهر جارٍ ينتفع به ويسقي المزارع، ولها عليه بساتين وجنات وعمارات متصلة، والسفن تدخل نهرها، وسورها مبني بالحجر والطوابي، ولها أربعة أبواب، وهي من أمصار الأندلس الموصوفة، وحواضرها المقدمة، ولأهلها حسن زي وكرم طباع، والغالب عليهم طيب النفوس والميل إلى الراحات، وهي في أكثر الأمور راخية الأسعار كثيرة الفواكه والثمار جامعة لخيرات البر والبحر، ولها أقاليم كثيرة، وهي في الجزء الرابع من قسمة قسطنطين، وكان الروم تغلبوا على بلنسية قديمًا ثم أحرقوها عند خروجهم منها سنة ٤٩٥، فقال أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة:

عاثت بساحتك الظُّبى يا دارُ ومحا محاسنك البِلى والنارُ
فإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبارُ
أرض تقاذفت النوى بقطينها وتمخضت بخرابها الأقدارُ
فجعلت أنشد خير سادة أهلها لا أنت أنت ولا الديار ديارُ

وقال الأستاذ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة البلنسي:

وروضة زرتها للأنس مبتغيًا فأوحشتني لذكرى سادةٍ هلكوا
تغيرت بعدهم خربًا وحق لها مكان نوَّارها أن ينبت الحسكُ
لو أنها نطقت قالت لفقدهمُ بان الخليط ولم يرثوا لما تركوا

ثم في سنة ٦٣٠ ملك الروم بلنسية صلحًا (استولى جاك الأول ملك أراغون على بلنسية في ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨، فيكون إلى آخر هذه السنة مضى على خروج بلنسية من يد الإسلام سبعمائة سنة)، واستولى عليها ملك أراغون، وأكثر أدباؤها بكاءها والتأسُّف عليها نظمًا ونثرًا (وسننقل مراثيها ومراثي غيرها في آخر هذا الجزء الخاص بشرقي الأندلس).

(٢) ما نقلناه عن دليل بديكر من أن العرب كانوا يقولون لبلنسية: مدينة أبي طرب، نظنه محرفًا؛ لأن المدينة الموصوفة بالطرب في الأندلس إنما هي مدينة إشبيلية، وأما بلنسية فهي موصوفة بكثرة التراب لاتساع محارثها ومزارعها، وقد ورد هذا عن بلنسية في كتب العرب، وقول ياقوت هذا هو من الجملة.

(٣) نسبة إلى الرصافة، وهي رصافة بلنسية التي سيأتي ذكرها.

(٤) ستأتي ترجمته بأوفى من هذا.

(٥) هذا من باب التوسع، وإلا فبحر الزقاق هو بوغاز جبل طارق ليس على مقربة من بحيرة بلنسية.

(٦) قال الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، المتوفى سنة ٤٥٦ — رحمه الله — في كتاب «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» ما يلي:

وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك، وآثرك على من سواك، ولولا أني شاهدت مظفرًا ومباركًا صاحبي

بلنسية لقدَّرت أن هذا الخلق معدوم في زماننا، ولكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتِّي الأحوال الموجبة للفرقة غيرهما. ا.هـ.

قلت: وحسبك هذه الشهادة من رجل مثل ابن حزم.

(٧) أما رواية نفح الطيب، فهي أن العدو دخل بلنسية صلحًا يوم الثلاثاء سابع عشر صفر من سنة ست وثلاثين وستمائة، وأن العدو استولى على قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ستمائة وست وثلاثين؛ أي إن بلنسية سقطت قبل قرطبة.

(٨) العرب كانوا يقولون لهذا القائد القشتالي «البرهانس».

(٩) السهلة تقدم الكلام عليها في الجزء الثاني؛ وهي التي يقال لها: شنتمرية ابن رزين أو شنتمرية الشرق. وأما البونت فهي مدينة من عمل بلنسية، ذكرها ياقوت في «معجم البلدان»، فقال: بالضم والواو والنون ساكنان والتاء فوقها نقطتان، وربما قالوا: البُنْت، وقد ذكر أنه ينسب إليها أبو طاهر إسماعيل بن عمران بن إسماعيل الفهري البونتي، قدم الإسكندرية حاجًّا، ذكره السلفي، وكان أديبًا أريبًا قارئًا.

وعبد الله بن فتوح بن موسى بن أبي الفتح بن عبد الله الفهري البونتي أبو محمد كان من أهل العلم والمعرفة، وله كتاب في الوثائق والأحكام، توفي في جمادى الآخرة سنة ٤٦٢، وقال تحت لفظة «البُنْت» بدون واو بالضم ثم السكون وتاء مثناة: بلد بالأندلس من ناحية بلنسية ينسب إليها أبو عبد الله محمد البُنْتي البلنسي الشاعر الأديب. ا.هـ.

وأما مربيطر التي يقال لها اليوم «صاقنته»، فقد مرَّ ذكرها في هذا الجزء. وأما «إشكرب» فهي التي يقول لها الإسبانيون Segorbe، فالعرب قلبوا السين شينًا على عادتهم، ووضعوا في الأول ألفًا فرارًا من الابتداء بالساكن، وهي بلدة قال عنها ياقوت: بالكسر وراء ساكنة وباء موحدة مدينة في شرق الأندلس، ينسب إليها أبو العباس يوسف بن محمد بن فارو الإشكربي، ولد بإشكرب، ونشأ بجيان فانتسب إليها، وسافر إلى خراسان، وأقام ببلخ إلى أن مات سنة ٥٤٨. ا.هـ.

وقد فسر لاوي بروفنسالي Segorbe بشبرب، وهو خطأ؛ فإن لفظة «سقورب» هي أقرب أن تكون «إشكرب» من أن تكون «شبرب»، وشبرب أيضًا هي بلدة من عمل بلنسية، ذكرها فقال: بالضم وبعد الراء باء موحدة بلدة بالأندلس من عمل بلنسية ينسب إليها أبو طاهر بن سلفة أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسي الشبربي، أحد الطلاب، وكان فاضلًا في الطب والأدب. ا.هـ.

وأما شارقه Jerica فقد ذكرها أيضًا ياقوت فقال: بعد الراء المهملة قاف حصن بالأندلس من أعمال بلنسية في شرقي الأندلس ينسب إليها رجل من أهل القرآن يقال له: الشارقي اسمه أبو محمد عبد الله بن موسى، روى عن أبي الوليد بن مغيث بن الصفا. ا.هـ. وأما المنارة فهي اسم عدة بلاد من الأندلس، ذكر منها ياقوت المنارة التي بقرب شذونة، والمنارة التي بقرب سرقسطة. والذي أعرفه أن القرية التي على مقربة من سرقسطة اسمها المنار لا المنارة، وهكذا جاء في تاج العروس.

فالمنارة هنا هي التي كانت تابعة لبلنسية. وقد قرأت في الجغرافية المصورة لإسبانية والبرتغال تأليف «جوسه P.Jousset» أن السيد كان قد ضرب جزى عظيمة على بعض المدن، فكان يأخذ من طرطوشة ٥٠ ألف دينار في السنة، وكان يأخذ من القادر بن ذي النون عن بلنسية ١٢٠ ألف دينار، وكان يأخذ من ابن رزين صاحب شنتمرية عشرة آلاف دينار، وكان له على البونت عشرة آلاف دينار أيضًا، وعلى كل من مربيطر وإشكرب ستة آلاف دينار، وكان يكتفي من المنارة بثلاثة آلاف في السنة.

وأراد السيد أن يفرض على أمير لاردة أيضًا إتاوة تبلغ ألفي دينار في السنة، فأبى هذا أن يؤديها، وبينما السيد يفكر في غزو لاردة إذ أشار عليه بعض أصحابه باسترضاء سيده الملك الفونش، وكانت الفرصة لائحة؛ لأن الألفونش كان يجهز جيوشه لغزو المسلمين، فسار السيد إلى مولاه وتلاقيا في مارتوس Mertos، فنصب السيد خيمته في طرف المعسكر إلى جهة السهل حتى إذا دلف العدو يكون هو صاحب الصدمة الأولى، فلم يعجب ذلك الفونش وعدها تطاولًا من السيد، ولما فشلت تلك الغزاة اتهمه الفونش بالخيانة؛ ففر السيد من وجهه فسار الألفونش إلى بلنسية ليأخذها، فسار السيد واجتاح ممالك الفونش واستولى على «لوكروني»؛ فاضطر الفونش أن يرفع الحصار عن بلنسية ويعود إلى بلاده، وكان المرابطون قد استولوا على غرناطة وإشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان وزحفوا لأخذ بلنسية.

وكان للسيد معتمد في بلنسية يسهر له على أميرها القادر بن ذي النون، وكان هذا المعتمد هو ابن الفرج، فحدث أن أصابته علة شغلته عن السياسة، فأرسل القاضي ابن حجاف إلى قائد المرابطين ابن عائشة يعرض عليه سرًّا تسليم البلد؛ فشعر ابن الفرج بالمكيدة، فأمر بالقبض على ابن جحاف إلا أن العامة حالت دون القبض عليه، وألقيت الحبال من عن الأسوار إلى المرابطين حتى يتسلقوا الأسوار بواسطتها، ويدخلوا إلى البلدة؛ ففي هيعة ذلك وجد القادر بن ذي النون فرصة للفرار مرتديًا ثياب امرأة، واختفى في

بعض الأرباض، ونهبت العامة القصر؛ فأمر ابن جحاف بالبحث عن القادر في الربض فعثروا عليه، وبعد أن أخذوا منه الجواهر التي كان خبأها تحت ثيابه احتزوا رأسه، وأتوا به إلى ابن جحاف، وكان ذلك في نوفمبر سنة ١٠٩٢.

وبايع أهل بلنسية ابن جحاف كرئيس لحكومتهم الجمهورية، ولكنهم مقتوه في الآخر لشدة طمعه وسوء تدبيره، فلما بلغ السيد قتل حليفه القادر زحف إلى بلنسية، وقبل الوصول إليها امتنعت عليه بلدة سيبوله Cebolla، فكتب إلى ابن جحاف يتقاضاه إرسال الحنطة التي كانت للسيد في بلنسية، وأمر السيد رجاله بأن يأخذوا طعام الجيش من أهالي القرى بدون أن يؤذوا الأهالي، وكان ابن جحاف يتأهب للدفاع عن المدينة، إلا أن الخلف وقع بينه وبين أبي ناصر قائد المرابطين، فأراد السيد بمكره أن يستغلَّ هذه المناظرة فكتب إلى القاضي ابن جحاف يقول له: إنه حاضر للاعتراف بحكومته إذا كان يمالئه على طرد المرابطين؛ فأظهر ابن جحاف الارتياح إلى ما عرضه السيد، لكنه في الوقت نفسه أرسل كتابًا إلى السلطان يوسف بن تاشفين يلتمس منه إمداد بلنسية، فعلم السيد بأن القاضي كان يلعب على الحبلين كما يقال، وكان استولى على سيبوله في يوليو سنة ١٩٣، فزحف منها صوب بلنسية، واستولى على ربضين من أرباضها.

ومن دهائه أمر عساكره بأن لا يمسوا أحدًا من الأهالي بسوء ومن يفعل ذلك يقتل، ثم أعلن للمسلمين بأنهم يكونون آمنين على أملاكهم، ففت ذلك في عضد القاضي ابن جحاف الذي اضطر إلى الصلح على أن يبعث إلى السيد الحنطة التي كانت له في بلنسية، ويدفع عشرة آلاف دينار كل شهر، وهكذا رفع السيد الحصار عن بلنسية، إلا أن قائد المرابطين كان يريد الأخذ بالثأر بإخراج البلنسيين لعسكره منها، فوقع القاضي ابن جحاف في حيص بيص بين السيد والمرابطين واستعفى من رئاسة الجمهورية.

فقام مقامه ابن طاهر، وشاع إذ ذاك أن المرابطين قادمون بجيش؛ فاشتدت بذلك عزائم المسلمين إلا أن المرابطين أخلفوا الظن، وإذا بالنصارى هم الذين حصروا البلدة، فبدل المسلمون بفرحهم غمًّا، وشرع الجيش الإسبانيولي بالحصار، وأقاموا سوقًا بالكدية من بادية بلنسية، وكشَّرت المجاعة في بلنسية عن أنيابها، فخاف البلنسيون على أنفسهم وراجعوا ابن جحاف في قبول رئاسة الجمهورية، لعله بتدبيره يقنع السيد بالرجوع عن بلدتهم، فأجاب القاضي سؤلهم، وتقبَّض على بني طاهر حلفاء المرابطين، وسلمهم إلى السيد، ثم ذهب وقابل السيد وطلب إليه الصلح، فأظهر له السيد مزيد الاحتفاء، ولكنه اشترط عليه بأن تكون جميع جبايات بلنسية وأرباحها عائدة إليه، وتكون تحت نظر

مشارف من قبله؛ فشق هذا الشرط على ابن جحاف، ولكنه أبدى الرضى به.

ولما كان السيد يعلم تلون ابن جحاف طلب إليه أن يجعل عنده ابنه رهينة لديه؛ فانصرف ابن جحاف ولم يعاود. فاستمر السيد يحاصر بلنسية إلى أن بلغت المجاعة الحد الذي لا يتصوره العقل، فأكلوا الحيوانات والفيران والعشاب والجلود، وقيل: إنهم أكلوا لحومًا بشرية، وكان ابن جحاف خوفًا على نفسه مصممًا على الدفاع، فأخذ يضيِّق على البلنسيين ويبحث في زوايا بيوتهم عن القوت، ويقال: إنه كان في ذلك الوقت يعيش عيش المترفين؛ فثار عليه بعض الأشداء وائتمروا به؛ فقبض عليهم وقتلهم، وبلغ الخبر السيد فهاجم البلدة؛ فارتد على عقبه، وكاد يؤخذ أسيرًا؛ فرجع عنها تاركًا أخذها لطول الحصار، فلما ازدادت اللأواء في البلدة جاء الناس إلى القاضي ابن جحاف وقالوا له: إنه لا مناص من تسليم المدينة؛ فلم يجد بدًّا من القبول.

فتوجه أحد الفقهاء إلى السيد، وصارت المقاولة على أن يرسل البلنسيُّون رسلًا إلى ملك سرقسطة ابن هود وإلى ابن عائشة قائد المرابطين في مرسية يلتمسون منهما النجدة، فإذا لم تردهم نجدة في مدة خمسة عشر يومًا يسلمون المدينة وبعد تسليمها يكون القاضي ابن جحاف هو صاحب الأحكام مثل ذي قبل، ولا يتغير شيء من الأحكام، ولا يقيم السيد بنفسه في البلدة، وتكون الحامية النصارى الذين يتولون حراسة البلدة من النصارى المستعربين الذين يألفهم المسلمون؛ فوافق السيد على جميع هذه الشروط إلا أنه اشترط أن الرسل الذاهبين إلى سرقسطة ومرسية لا يحمل الواحد منهم أكثر من خمسين دينارًا، فلما خرج الرسل من المدينة فتش جماعة السيد في ثيابهم فوجدوا معهم كثيرًا من الذهب والفضة والجواهر؛ فأخذوها كلها ما عدا الخمسين دينارًا التي تقررت لكل منهم.

وكان البلنسيون في هذه المهلة تمكنوا من استجلاب القوت إلا أن النجدات لم تصل، فطلب السيد تسليم البلدة، فطلب ابن جحاف مهلة أخرى؛ فاستشاط السيد غضبًا، وأعلن أنه ينقض شروط الصلح ويستبيح البلدة؛ ففتح ابن جحاف الأبواب ظهر يوم الخميس ١٥ يونيو سنة ١٠٩٤، فدخل السيد ظافرًا، وأمر جنوده بعدم الاعتداء على الأهالي، وقابل المسلمين بمزية الرعاية، وكانوا يظهرون له الطاعة ويقبلون يده، واستدعى أعيان المسلمين وقال لهم: إن الله أعطاه بلنسية فلا يريد أن يقابل هذا العطاء بالإثم والعدوان؛ حتى لا يخسر ما أفاءه الله عليه، وإن عليهم أن يعودوا إلى أشغالهم آمنين، وإن من كانت له منهم ظلامة فما عليه إلا أن يرفع له قصته، فقد عين يومين من الأسبوع الاثنين

والخميس لسماع القصص، وسيكون هو القاضي وهو الوزير وهو الأب الشفيق عليهم. قال لهم وأنه ليس كأمرائهم الذين كانوا يقضون أوقاتهم بالطرب والشرب في داخل حريمهم.

وأبلغهم أن جنوده ستبقى في الأرباض مثل الكدية وغيرها، وأنه هو نفسه سيقيم عند جسر القنطرة، وأنه لن يرى أحد منهم سوءًا إلا الذين اعتدوا على الناس وبلصوهم من أموالهم. وكان ابن جحاف عرض على السيد هدية من الأموال التي عنده، فأبى قبولها منه؛ فعلم أنه مأخوذ لا محالة، فلما خاطب السيد أعيان المسلمين بهذا الكلام قال لهم: إنه لا يريد منهم إلا تسليم ابن جحاف إليه، فذهبوا وقبضوا على ابن جحاف وسلموه إليه. فأرسله السيد أولًا إلى «سيبوله»، ثم رده إلى بلنسية، وأمره بأن يقيد له في جدول جميع ما عنده من الحلي والمتاع والنفائس بدون أن يكتم شيئًا، وأنه إن كتم شيئًا فيكون اعترف بأن للسيد الحق في قتله.

فأقسم القاضي بأنه لن يخفي شيئًا، فجاء عبد وقرر أنه دفن في بعض زوايا بيته نفائس لم ذكرها في الورقة التي قيد بها أمواله، فوجدوا عنده مقدارًا من الذهب والحجارة الكريمة، فعند ذلك أجمع السيد قتله انتقامًا من هذا الغادر الذي قتل القادر بن ذي النون غيلة ولعب بين المرابطين من جهة والنصارى من جهة أخرى، يخون كلًّا من الفريقين بينما يستعديه على الآخر، وهو الذي سلب ما سلب من أموال أهل بلنسية وكنَزَها لنفسه وأقسم بأنه يخبر عنها وحنث بيمينه، وظهر أن عنده أمولًا مطمورة تحت الأرض؛ فهذا ما أوجب عند السيد قتل ابن جحاف.

ثم شعر السيد بأن أهل بلنسية يتأهبون للانتقاض عليه، فاستدعاهم وأخبرهم بأنه هو الآن مالك ناصية المدينة، وأنه يقدر أن يفعل بها ما يشاء، فمن شاء منهم الإقامة في داخلها فله الحق في حفظ منزله، وأن يكون له خادم وبغلة، ولكن على شرط أن يكون أعزل. وأما الذين لا يقبلون هذه الشروط فما عليهم إلا أن يخرجوا ويسكنوا في الكدية وفي غيرها من الأرباض، ولا يتعرض لهم أحد بسوء، بل تبقى لهم أملاكهم ومساجدهم وقضاتهم ويكون الحكم وضرب السكة للسيد.

فخرج كثيرون من أهل بلنسية من بلدتهم، وعند ذلك أمر السيد فألقى بابن جحاف في النار. وقيل: إنه حفرت له حفرة ألقي فيها وجعلوا النار من حوله، فكان يأخذ الحطب المشتعل بيده لتعجيل موته واختصار عذابه، فكان العقاب شديدًا، ورجع الناس فعدوه شهيدًا، ولكن لم يكن من هؤلاء أولئك الذين جار عليهم ابن جحاف وقتل ذويهم.

ثم إن السيد جعل مدينة بلنسية تحت حماية ملك قشتالة سيده. وقيل: إنه كان ينوي فتح جنوبي إسبانية، إلا أنه لم يكن لذلك العهد قبل للسيد بالاستقرار في بلاد مأهولة كلها بالمسلمين. وكان المرابطون قد انتشروا في جنوبي الأندلس، وقد جعلوا بلنسية نصب أعينهم؛ فخاف السيد عليها، وتعاهد مع «بتره» — ملك أراغون — وذهب يحشد جيوشه ويجمع ذخيرته في «بيناكتيل Benacatel» التي أراد جعلها مقرًّا عامًّا له، ووافاه ملك أراغون، وزحف الجميع إلى شاطبة، وكان فيها محمد بن عائشة — قائد المرابطين — فاستدرجهم إلى مكان اختاره هو للقتال؛ فنشبت المعركة بقرب «غاندية Gandia» في مكان يقال له: «بيرن Beiren» وقع فيه جيش النصارى بين جيش المرابطين والأسطول الإسلامي من جهة البحر، وكادت تكون هزيمتهم تامة لولا ثبات السيد وحسن تدبيره.

ثم ذهب السيد فحاصر مربيطر، فلما اشتد الأمر بأهلها طلبوا من السيد مهلة ثلاثين يومًا، حتى إذا لم تأتِهم في أثنائها نجدة سلموا إليه مدينتهم؛ فانقضت المهلة ولم تأتهم نجدة، فاستمهلوا اثني عشر يومًا أخرى، فأمهلهم قائلًا لهم: إنهم في نهاية هذا الأجل إن لم يفتحوا له أبواب المدينة قتلهم جميعًا أو يحرقهم بالنار.

فلما مضت هذه المدة أيضًا طلبوا مهلة ثالثة فأمهلهم إلى عيد القديس يوحنا، وأذن لهم في الخروج من البلدة بعائلاتهم وأموالهم؛ فخرج منهم طائفة، ودخل السيد في ٢٤ يونيو سنة ١٠٩٨، وأمر ببناء كنيسة على اسم القديس يوحنا. وما مضى إلا قليل حتى ضرب السيد مغارم على الذين لم يخرجوا من مربيطر؛ فعجزوا عن أدائها؛ فباعهم السيد أرقَّاء في سوق بلنسية.

وفي سنة ١٠٩٩ في شهر يوليو مات السيد، وكان هذه هي السنة التي استولى فيها الصليبيون على بيت المقدس. فلما علم المرابطون بموت السيد أقبلوا بجيش عظيم، فكانت شيمانة أرملة السيد تدافع عن بلنسية أشد الدفاع، وبقيت حافظة بلنسية مدة سنتين بعد موت زوجها، إلا أنه في أكتوبر سنة ١١٠١ زحف المزدلي — قائد المرابطين — بجحفل جرار، فأرسلت شيمانة بالصريخ إلى ملك قشتالة فوافى بجيشه فرأى حفظ بلنسية وهي يومئذ في عقر دار الإسلام متعذرًا فأشار بإخلائها.

ولم يكن غير السيد من يقدر أن يستولي على مركز إسلامي كهذا في ذلك الوقت، فقد سبق السيد التاريخ وأوغل في بلاد الإسلام التي بقيت تحتضر أربعة قرون بعد ذلك حتى خلت من أمة محمد. هذا ولما خرجت شيمانة من بلنسية، وذلك في ٥ مايو سنة ١١٠٢، ودخلها المزدلي بالمرابطين، خرج منها جميع عسكر السيد والنصارى الذين كانوا توطنوا

فيها، ولم يحاول المرابطون أن يتعرضوا بسوء لجيش شيمانة، راضين منهم بالجلاء عن البلد؛ فمشت المقدمة بقيادة بيره برموده Pero Bermudez يحمل راية السيد ومعه أربعمائة فارس، وتلاهم أربعمائة فارس آخرون يحمون الدواب والأثقال، ثم جاء حصان السيد المسمى بابيكا Babéca وعليه جثة السيد وقد وضعوا ترسه في عنقه والسيف في يده.

وكان له سيفان؛ أحدهما يسمى «تيزونه Tisona»، والثاني «كولاده Colada»، وكان السيد محنطًا تحنيطًا جيدًا، وكان لحيته مرتبة كما لو كان حيًّا. وسار المطران جيروم من جهة و«ميلدياز» من جهة أخرى يخفران جثة السيد ومعهما مائة فارس، ثم في الساقة الأميرة شيمانة وسيدات القصر ومعهن ستمائة فارس، وسارت هذه القافلة بتؤدة حتى بلغت قشتالة، فلم يسارعوا بدفنه، بل عندما وصلوا إلى «سان بدرُه كاردينه» وضعوه على كرسي من العاج على يمين المذبح، وأسندوا رأسه على مخدة من المخمل وفي يده اليسرى سيفه «تيزونه».

ولم يطل حكم المرابطين في بلنسية؛ لأن الموحدين كانوا خلفوهم، إلا أنه كان قد ثار بالموحدين حزب أندلسي يمثله أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش، فغلب على بلنسية ومرسية وما جاورهما، وهذا الرجل يرجح أنه من أصل إسبانيولي مسيحي، واسم مردنيش محرَّف عن مرتينش Martinez؛ أي ابن مارتين. ويقال: أن والد جده هو الذي أسلم، وكان ينزع به عرق الإسبانيولية؛ لأنه كان يتشبه بملوك النصارى في لباسه وسلاحه، وكان أكثر جنده من مرتزقة قشتالة ونبارة وكتلونية؛ ولذلك كان أعداؤه من المسلمين ينبزونه بكونه مرتدًّا. وكان على صلة دائمة بملوك النصارى يهاديهم بالتحف والألطاف، وربما بعث إليهم بالجمال إلى حد إنكلترة.

وكانت له قوة جسم عجيبة وبسالة نادرة ضُربت بهما الأمثال، وكذلك كان رفيقه ابن هيموشُه (ابن همشك الذي تقدم ذكره في الجزء الثاني) إلا أن ابن مردنيش وابن هيموشه انهزما في غرناطة؛ حيث تغلَّب عليهما الموحدون، وصارت كلمة الأندلس شاملة لجميع جنوبي إسبانية.

وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ استرجع الدون جايم ملك أراغون بلنسية، ولما جاءها كان جيشه خفيفًا، إلا أن نجدات المسيحيين توافت إليه من جبال أراغون وما خلفها، وأقبل مطران أربونة Narbonne ومعه نخبة من الشجعان؛ فقد كانت هذه الغزاة غزاة صليبية، وكان في بلنسية الأمير ابن زيَّان؛ فاستصرخ صاحب تونس؛ فأرسل أسطولًا

مؤلفًا من ثماني عشرة سفينة، إلا أنهم لم يقدروا أن ينزلوا إلى البر؛ لأن الدون جايم كان واقفًا بجيشه سدًّا بين الأسطول الإسلامي وبلنسية.

ثم خرج أسطول الكَتَلان فاضطر أسطول تونس إلى التقهقر ولم يعاود. ودام الحصار أربعة أشهر إلى أن رضي البلنسيون بتسليم بلدهم على أن يخرجوا منها سالمين بأموالهم، وكانت هذه النوبة هي النوبة النهائية التي خرج بها المسلمون من بلنسية غير راجعين، وكان دخول الإسبانيول إلى بلنسية في عيد سان ميكائيل. وبرج «ميكاليت Miquelete» في بلنسية تذكار لذلك.

وكان جايم — فاتح بلنسية — قد فتح ميورقة سنة ١٢٣٢، ثم فتح مينورقة سنة ١٢٤٢، وكان من أقوى ملوك عصر. انتهى ملخصًا كلام جوسه Jousset، ولكن صاحب هذا الكتاب الذي نقلنا عنه وقائع السيد هذه يلتمس له جميع الأعذار لتخفيف شناعة موبقاته، ونحن تركنا رواياته على حالها حتى نقارنها بغيرها مما يخالفها، ويبقى الحكم للقارئ.

(١٠) بل هو على أصله؛ فالسِّيد بكسر السين وسكون الياء: الذئب، والتشبيه به عند العرب ذم؛ لأنه مفترس غادر حقير، بخلاف التشبيه بالأسد فإنه مدح.

(١١) وفي النسخة الأفريقية التي اقتناها غايانكوس العبارة هنا هي ما يأتي: على يدي طاغية كان يدعى الكنبيطر، وحصل لديه أسيرًا سنة ٨٨.

(١٢) تبحبح الدار: توسطها.

(١٣) فلان تهرُّه الناس: أي تكرهه.

(١٤) يعني به يوسف بن تاشفين.

(١٥) الظاهر أنه يريد بكواف جمع كافة، وهي أول مرة مررت بها مجموعة، وليست بأول مرة مررت بها مضافة كما لا يخفى، نعم نبَّه أكثر العلماء على أن «كافة» لا تأتي إلا حالًا، وعلى أنها لا تضاف ولا تدخل عليها ال، ولما قال الجوهري: الكافة الجميع من الناس أنكروا عليه. وقال صاحب القاموس: لا يقال: جاءت الكافة. وقال الزبيدي في التاج: إنه هو الذي أطبق عليه جماهير أئمة العربية، وأورد بحثه النووي في التهذيب، وعاب على الفقهاء وغيرهم استعماله معروفًا بأل أو الإضافة. وأشار إليه الهروي في الغريبين، وبسط القول في ذلك الحريري في درة الغوَّاص، وبالغ في النكير على من أخرجه عن الحالية.

وقال أبو إسحاق الزجَّاج في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: منصوب على

الحال، وهو مصدر على فاعلة كالعافية والعاقبة، وهو في موضع قاتلوا المشركين محيطين. قال: فلا يجوز أن يثنَّى ولا يجمع. لا يقال: قاتلهم كافات ولا كافين، كما أنك إذا قلت: قاتلهم عامة لم تُثنِّ ولم تجمع، وكذلك خاصة.

على أن قول الجمهور لا يقال: جاءت الكافة، ردَّه الشهاب (الخفاجي) في شرح الدرة، وصحح أنه يقال: ونقله عن عمر وعلي — رضي الله عنهما — وأقرَّهما الصحابة، وناهيك بهم فصاحة، وهو مسبوق بذلك؛ فقد قال شارح اللباب: إنه استعمل مجرورًا، واستدل له بقول عمر بن الخطاب: على كافة بيت مال المسلمين. ونقله الشمني في حواشي المغني، وقال الكوراني: من قال من النحاة: إن كافة لا تخرج عن النصب، فحكمه ناشئ عن استقراء ناقص. ا.هـ. وختم الزبيدي كلامه بما يفيد أنه إن ثبت شيء مما ذكروه ثبوتًا لا مطعن فيه فالظاهر أنه قليل جدًّا.

(١٦) لا نرى معنى للفظة «هادل» هنا، ونظنها «هادن»: هدن فلان فلانًا هدنًا: سكنه عنه أو عن شيء بكلام أو بإعطاء عهد لا ينوي وفاءه، يقولون: هدن الصبي؛ أي: أرضاه بالكلام ليسكت عن البكا.

(١٧) الأخيف هو الذي إحدى عينيه زرقاء والأخرى كحلاء، ويظهر أن أبا أحمد بن جحاف كان كذلك. وفي إحدى نسختي كتاب الذخيرة «أيها الأحنف مهلًا»، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها.

(١٨) وتروى على خراش، وأصله بيت شعر:

تفرقت الظباء على خراشٍ فلا يدري خراشٌ ما يصيدُ

(١٩) لا نرى معنى لهذه الجملة «ذرية لزجاجه»؛ فهي من خطأ النساخ، والذي يلوح لنا أنها «دريئة لزجاجه»، والدريئة كما لا يخفى: حلقة يتعلم عليها الطعن؛ قال:

ولقد أراني للرماح دريئةً من عن يميني تارة وشمالي

وأما الزجاج فهي الرماح؛ من باب تسمية الكل باسم البعض، والزُّج هو الحديدة التي في أسفل الرمح. قال زهير:

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه   يطيع العوالي رُكِّبت كل لهذَمِ

قال الزوزني: الزجاج (بكسر أوله): جمع زُج الرمح، وهو الحديد المركب في أسفله.

(٢٠) يعجب الإنسان من هذه القسوة التي عند الإسبان زيادة على ما عند غيرهم، وأنهم لا يكتفون بالقتل المجرد، بل يحرقون عدوهم بالنار زيادة في عذابه. وهذا القمبيذور — عليه ما استحق من العذاب — كان يحرق بالنار، وما اكتفى بحرق القاضي ابن جحاف في ساحة بلنسية، بل حرق سواه ممن لا نعلم أسماءهم وممن حفظت أسماؤهم لشهرتها؛ منهم ابن البتِّي الشاعر الذي ستأتي ترجمته.

وكذلك ديوان التفتيش كان إذا اطلع على أن أحد المسلمين أو اليهود المتنصِّرين لا يزال على دينه في الباطن يبادر إلى حرقه بالنار. وكان الناس الذين يقرءون هذه الأخبار يرتابون في صحتها أو يذهبون إلى أنها كانت من قبيل النادر، والحقيقة هي خلاف ذلك؛ فقد حرقوا بالنار ألوفًا، ولم يجدوا في ذلك حرجًا في صدورهم، ومن تأمل اليوم في الحرب الأهلية الإسبانية وما يفعله كل فريق من الفريقين المتقاتلين بعدوه من التقتيل والتعذيب، أيقن بأن تلك الوقائع الماضية لم يكن فيها مبالغة إلا قليلًا جدًّا؛ فهذه الأمة الإسبانيولية على ما فيها من شمم وأَنَفَة وكرم وأَنَسَة وخِلال خيرٍ كثيرة، إذا غضبت أبعدت في النكاية، ولم تتنكَّب الذهاب بالقسوة إلى النهاية.

(٢١) في هذا الكتاب تحريف كثير من النسَّاخ، ولعل أصل هذه الجملة «في دروب شهامته» أو «في ضروب شهامته» أو في «ذَرَب شهامته»، والذرب الحدة.

(٢٢) الرسل، بكسر فسكون: اللبن.

(٢٣) لم يظهر لنا وجه هذه الجملة.

(٢٤) المعروف في اللغة «نيف على الثمانين» لا «عن الثمانين».

(٢٥) عسعس الليل: أقبل وأدبر، من الأضداد. أنشدني السيد جواد العاملي الذي كان قاضي الشيعة في بعلبك في أيام الدولة العثمانية، منذ أربعين سنة ثلاثة أبيات في آل البيت، حفظتها من دور واحد لسهولتها:

من الأُلى جدهمُ نبيُّهم   وأمُّهم فاطمةٌ خير النسا
يروي حديث المجد عن جدِّهمُ   وكلهم يروون عن أهل الكسا

ما عسعس الليل على قاصِدهم إلا وصُبح جودهم تنفسا

وفي التنزيل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾.

(٢٦) Miravet، وهي بقرب طرطوشة.

(٢٧) لم نعلم ما المراد بلفظه «جفنها» هنا، والعلامة المستشرق دوزي يقول: إن معناها هنا «المدينة»، وليس في اللغة شيء كهذا، ولعله من اصطلاح عامة الأندلس، أو تكون اللفظة محرفة بغلط النساخ.

(٢٨) يريد بفيشة بيزا، إحدى مدن إيطالية المشهورة واقعة على نهر آرنو.

(٢٩) اسم علم وهو Garcia، والمظنون أن غرسيه هذا هو غرسية أوردو فليز كونت ناجره.

(٣٠) Alfano، وهو مجهول عندنا، ولم يعرفه دوزي.

(٣١) البرهانس هوAlvar Fanez.

(٣٢) حصن كان يقال له عند الإسبانيول: Xixona، والآن يكتبونها Xiyona، وهو حصن بين شاطبة والقنت.

(٣٣) كذا في الأصل، ولعله: أن وصل ثمن الفأر دينارًا من شدة الجوع.

(٣٤) لعلها قونكة.

(٣٥) الوَلَجة في اللغة واحدة وِلاج، ووِلاج الوادي: معاطفه، وتجمع أيضًا على الوُلُج، وأنشد لطريح في الوليد بن عبد الملك:

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم تعطف عليك الحُنِيُّ والوُلُجُ
لو قلت لليل: دع طريقك والمو ج عليه كالهضب يعتلجُ
لارتد أو ساخ أو لكان له في سائر الأرض عنك منعرجُ

جاء هذا في لسان العرب. قال: وأيضًا الوَلَجة — بالتحريك — كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره. والولجة: شيء يكون بين يدي فناء القوم. ا.هـ. قلت: ومنه ولجة بلنسية، لك أن تأخذها بأحد هذه المعاني، وتسمى اليوم ساحة مركادو La Plaza del Mercado، وفيها أحرق السيد القاضي أبو أحمد بن جحاف، وقد شاهدت هذه الساحة بعيني وهي أمام باب من أبواب بلنسية.

(٣٦) الحجزة: معقد الإزارة، ومعنى العبارة: أن القنبيطور وضع ابن جحاف في حفرة إلى حد معقل إزاره، وجعل النار على القسم الأعلى من جسمه حتى يحترق

بها؛ فلذلك رواية المستشرق دوزي في كتابه المسمى «مباحث عن تاريخ إسبانيا وآدابها في القرون الوسطى Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendan le Moyen Age» أن هذه اللفظة — وهي حجزة — هي حنجرة، وترجمته لها بالإفرنسية بلفظة Larynx هي خطأ منه دخل عليه من تصحيف حجزة بحجرة بدون نقطة، فظن دوزي أن اللفظة محرفة عن حنجرة، وهذا غير معقول؛ لأن الحفرة لا يمكن أن تكون إلى حنجرة القاضي إذ لو كانت كذلك ما استطاع القاضي أن يقبض على أقباس النار ويقربها إليه استعجالًا للموت، فإن يديه تكونان حينئذ تحت التراب.

والصحيح أن الحفرة كانت إلى علو إزاره؛ ومما يؤيد ذلك قول أبي عبد الرحمن بن طاهر، وقد نقلنا ذلك من قبل، وهو: «وقد حفر له حفير إلى رفغَيْه وأضرمت النار حواليه وهو يضم ما بَعُدَ من الحطب بيديه؛ ليكون أسرع لذهابه وأقصر لمدة عذابه.» فالرفغ في اللغة أصل الفخذ، وهو مطابق للحجزة لا للحنجرة.

(٣٧) يقال لها: الإسبان كستلون Castellon.

(٣٨) العرب في إسبانية كانت دخلت بينهم الأسماء الأوروبية مثل «بونُه» و«لت» و«فيرُه» و«مردنيش» و«رُلَّان» وغيرها، وهذا الاسم «رلان» هو Rolland.

(٣٩) بالإسبانيولي Lope.

(٤٠) هذا أيضًا اسم إسبانيولي أصله Vives.

(٤١) ويجدر بأن نذكر هنا من آثار الشيخ بركات بن إبراهيم الخشوعي توقيعًا له على سجل نسب أجداد محرر هذه السطور في إثبات حكم به قاضي القضاة محيي الملة والدين أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان — رضي الله عنه — القرشي الشافعي، المعروف بابن زكي الدين، الذي كان لعهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكانت له عنده المنزلة العالية، وهو الذي خطب في المسجد الأقصى في أول جمعة بعد استخلاص صلاح الدين بيت المقدس من أيدي الإفرنج، وهي تلك الخطبة المشهورة، وكان هذا الإثبات الذي حكم به القاضي ابن الزكي المشار إليه في سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ونص شهادة أبي طاهر الخشوعي هكذا: «شهد أبو الطاهر بركات ابن المرحوم الشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أبي الفضل طاهر الخشوعي الدمشقي.» وبعده مذكور شهادة العماد الأصفهاني، وهي هكذا: «شهد كاتبه عماد الدين أبو عبد الله

محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن حامد الأصفهاني.» وبعده شهادة أبي محمد القاسم ثقة الدين علي بن أبي محمد الحسن الدمشقي، وشهادة أبي مغيث شهاب بن صدقة البصروي، وشهادة أبي منصور عبد الغفار بن أبي الحسن طاووس الدمشقي، وشهادة أبي اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي النحوي، وكتبه أبو عبد الله عثمان بن عمر الدمشقي.

ذكرنا هذا لأجل إثبات معاصرة أبي طاهر الخشوعي للعماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين يوسف، ولابن جبير الأندلسي الذي نحن بصدده. وكانت وفاة أبي الطاهر الخشوعي سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة؛ أي بعد توقيعه هذا على نسب أجدادنا بثلاث سنوات، وكانت وفاة أبي عبد الله محمد بن صفي الدين المعروف بالعماد الكاتب في سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وأما أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي فيقول ابن خلكان: إنه بغدادي المولد والمنشأ، دمشقي الدار والوفاة، سافر عن بغداد في شبابه، واستوطن حلب، ثم انتقل إلى دمشق، وصحب الأمير عز الدين فرُّوخ شاه ابن أخي السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية، ثم عاد إلى دمشق، وكانت وفاته فيها سنة ثلاث عشرة وستمائة. وذكر الذهبي أيضًا وفاته في تلك السنة، وكان من النحاة المشهورين. وكانت وفاة ابن جبير الأندلسي سنة ثلاث عشرة وستمائة في الإسكندرية.

(٤٢) كأن ابن جبير ينطق بما في ظهر الغيب، فقد جاء وقت صار الناس فيه يؤمون الحجاز بالطيارات.

(٤٣) هذا الجناس المركب قد ورد أيضًا في شعر آخر. فقد قيل في قبر محيي الدين بن عربي في صالحية الشام:

قبر محيي الدين بن العربي   كل من لاذ به أو زاره
قضيت حاجاته من بعد ما   غفر الله له أوزاره

وهو كلام يستغفر الله عليه.

(٤٤) من هنا يفهم أنه لما نظم هذا الشعر كان ابن سبع وسبعين، وهذا ينقض قول من قال: إنه مات عن خمس وسبعين.

(٤٥) جاء في كتاب التاريخ لصاحب حماه، تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب: ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين؛

فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر، بحيث إن قَصَدَهم نور الدين قاتَلوه؛ فإن هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها، ثم سَيَّره في هذه السنة بعسكر إلى اليمن، ثم قال ما محصله: إن توران شاه انتزع اليمن من يد صاحبه عبد النبي، وهجم زبيد وملكها، وأسر عبد النبي، وافتتح عدن، وأسر صاحبها ياسر، ودخلت تلك البلاد في مملكة صلاح الدين.

وذكر في حوادث سنة ثمان وسبعين وخمسمائة أن صلاح الدين أرسل أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن ليقطع الفتن منها ويملكها، فذهب وتغلَّب على الأمراء الذين كانوا بها مثل حطان بن منقذ الكناني وعز الدين عثمان الزنجيلي، وقد كان توران شاه — وهو أخو صلاح الدين الأكبر — توفي في الإسكندرية في سنة ٥٧٦، وكان له نواب على اليمن؛ فاختلت بعد وفاته أمور اليمن، فبعد سنين من وفاته أرسل صلاح الدين أخاه الآخر طغتكين إلى اليمن، وكانت هي السنة التي حج فيها ابن جبير؛ أي: سنة ٥٧٨ فصادفه في البيت الحرام حاجًّا، ومنه سافر إلى اليمن.

(٤٦) الزاهر هو الذي يقال له اليوم في مكة: «الشهداء»، وهو بسيط من الأرض متسع الرقعة، تحيط به آكام من الرمل والحجارة، وتسيل في وسطه عين ماء عليها بستان نضير، وحر هذه البقعة أخف بكثير من حر مكة المكرمة، بحيث إن كثيرين من أهل مكة يصعدون عند الغروب إلى الزاهر فيبيتون فيه تحت النجم، ولا يشعرون بشيء من حرارة البلد الحرام، ومنهم من لهم في الزاهر مرتبعات ومصايف.

(٤٧) أظنها نسبة إلى الغز؛ وهم جنس من الترك، وكان هذا الاسم شائعًا بمصر.

(٤٨) هكذا وجدناها في الطبعة المصرية التي تاريخها ١٣٢٦، ولا شك في أنها من خطأ النساخ، وحقها أن تكون بالتاء لا بالطاء، وكذلك لا يوجد صلت السيف بمعنى جرده، وإنما هو أصلت السيف، واسم المفعول مصلت، ويؤكد ذلك ورود هذه اللفظة على هذا الوزن بعد هذا بأسطر قلائل.

(٤٩) هذه اللفظة وهي الشرب ترد في وصف الثياب، وقد جاءت في خطط المقريزي، وكأنها وصف لما يرسل من عَذَبَة ونحوها، ومنه الشرَّابة لهذه الخيطان التي تتدلى عن الطربوش في كلام العوام، ومنه شراريب الأخراج ونحوها، وكأنهم في أصل الوضع لمحوا فيها النزول، وقد جاء في اللغة وصف السبال بقولهم: الشوارب، وعرَّفوا الشوارب بأنها الشعر الذي يسيل على الفم، وكأنه نزل ليشرب.

(٥٠) دبيق: قرية من قرى مصر، كان يعمل فيها نفائس الأثواب والستور الحريرية المطرَّزة بالذهب، ورد ذكرها في خطط المقريزي.

(٥١) الملحوظ أن ابن جبير كان يكتب مشاهداته اليومية في حينها على نسق مراسلي الجرائد في هذه الأيام.

(٥٢) لم نعرف الكهلاء بمعنى الكهلة، ولا ندري أهي هكذا أم من خطأ النساخ، ولا سيما أن الطبعة المصرية لرحلة ابن جبير، وهي التي اعتمدنا عليها، مشحونة أغلاطًا مطبعية يحار القارئ في ردها إلى أصلها.

(٥٣) السرو: ما ارتفع عن السهل وانحطَّ عن غلظ الجبل، وقد أطلقه الكاتب على اليمانيين من الحجاج؛ لأنهم ينزلونه من قديم الزمان في صعود الحج إلى عرفة.

(٥٤) لمطة: أرض لقبيلة من البربر ينسب إليها الدرق اللمطية؛ لأنهم ينقعون الجلود في الحليب سنة تامة ثم يعملون منها الدرق؛ فلا يؤثر فيها السيف القاطع.

(٥٥) عندما ذهب ابن جبير إلى بغداد في أيام الخليفة الناصر العباسي كانت بغداد غير بغداد الأولى، التي أجمع المؤرخون على أنها بقيت مدة قرنين إلى ثلاثة بالأقل أعظم مدينة في العالم لا أعظم مدينة في الإسلام فقط، فإن رومة في عصر عمران بغداد كانت انحطت عن درجتها السابقة؛ فلم تكن تعادل شطرًا من بغداد، فضلًا عن أن تعادل بغداد كلها. وكذلك كانت القسطنطينية في عصر عظمة بغداد مدينة عظيمة، ولكنها لم تبلغ في العظمة ما بلغته بغداد ولا نصف ما بلغته بغداد في القرنين الأولين من بنائها، ولا نعلم هل كان في الصين والهند لذلك العهد حواضر تعادل بغداد أم لا، لكننا نرجح النفي؛ لأنه لو كان وجد فيهما أو في إحداهما مدينة تعادل بغداد لكان انتشر خبرها ولكانت قوبلت ببغداد؛ لأن العرب كانوا على اتصال مستمر بالهند والصين، وكانت السفن تختلف بين البصرة وسيراف وكنتون وغيرها من مرافئ الصين كما تختلف اليوم بين شربورغ ونيويورك مثلًا.

ومما يفتخر به الإسلام كون بغداد مدينة إسلامية محضة عمرها المسلمون بأيديهم، ولم يرثوها عن أمة سابقة، وكانت حضارتها إسلامية من أولها إلى آخرها، ولم تبلغ في الإسلام ما بلغته دار السلام من عظمة وسعة وثروة ونعمة ومنعة وقوة، وجميع مدن الإسلام التي اشتهرت في التاريخ كدمشق، وحلب، والقاهرة، والقيروان، وفاس، ومراكش، وقرطبة، وغرناطة، والبصرة، وأصفهان، وسمرقند — وفي الأعصر الأخيرة استانبول — لم تصل إلى درجة بغداد، بل كانت رديفًا لبغداد. وقرطبة التي كانت في القرون الوسطى أعظم حاضرة في أوروبة كانت في أيام عظمتها هذه تعادل نصف بغداد، أو كما قال ابن حوقل — فيما أتذكر — تعادل أحد جانبي بغداد.

نقل الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب — صاحب تاريخ بغداد — في الصفحة الأولى من الجزء الأول عن عبد العزيز بن أبي الحسن القرمسيني عن عمر بن أحمد عن أبي بكر النيسابوري أنه قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: قال لي الشافعي: يا يونس، دخلت بغداد؟ قال: قلت: لا. قال: ما رأيت الدنيا.

فليتأمل الإنسان أن صاحب هذا القول هو الإمام الشافعي — رضي الله عنه — الذي لم يكن ممن تزدهيه الدنيا أو تسكره زينتها أو تغلب على عقله عظمتها، لكنه برجاحة عقله كان في مقدمة الرجال الذين يقدرون الأمور أقدارها؛ فلذلك قال: إن من لم يَرَ بغداد لم يعرف الدنيا. ولقد راجعت الانسيكلوبيدية الإسلامية لأعلم ما تقول عن عمران بغداد في عنجهية أمرها، ولم تكن هذه الانسيكلوبيدية في شيء من التحمس لتاريخ الإسلام، بل هي أميل إلى بخسه من أشيائه منها إلى إعطائه أكثر من حقه، ومع هذا فقد رأيتها تقول في الصفحة ٥٧٦ من جزئها الأول: إن بغداد كانت لعهد الأوائل من الخلفاء العباسيين أعظم مركز تجاري في آسية ومنبع حياة فكرية عظيمة، وكانت بعظمتها وثروتها وزخرفها تشغل المقام الأول في العالم المتمدن في ذلك الزمن.

وقالت الانسيكلوبيدية في تلك الصفحة نفسها: إن هذه الحاضرة يوم وفاة الخليفة المهدي — أي قبل أيام الرشيد — كانت مساحتها من سبعة إلى ثمانية كيلومترات طولًا إلى مثلها عرضًا. قلنا: فإذا حسبنا هذه المساحة بضرب ثمانية في ثمانية كانت أربعة وستين ألف متر مربع، فلنقل: ألف ذراع مربع. فمساحة كهذه لا تسع أكثر من مائتي ألف بيت إذا حسبنا أنه سيدخل في هذه المساحة الشوارع، والساحات، والمساجد، والحمامات، والقصور، والثكن العسكرية، فإذا حسبنا لكل بيت خمس نسمات كان عدد سكان بغداد في زمان المهدي العباسي نحوًا من مليون نسمة، ونظن هذا التعديل أقل من الواقع بكثير، وقد كانت قرطبة تزيد على مليون نسمة، وهي كأحد جانبي بغداد.

وقد جاء هذا التعديل في الانسيكلوبيدية دون ذكر السند الذي توكأ عليه كاتب الفصل في قوله: إن بغداد في أيام المهدي كانت مساحتها من سبعة إلى ثمانية كيلومترات طولًا ومثلها عرضًا. ثم إنه مما اتفق عليه المؤرخون أن أوج عظمة بغداد كان من زمان الرشيد إلى زمان المعتصم؛ فبغداد في أيام الرشيد والمأمون والمعتصم لم يكن فيها أقل من ثلاثة ملايين نسمة، ولا شك أنه مثل هذا العدد قد يلزمه من أربعة إلى خمسة آلاف حمام بالنظر للترف الذي كانت تسبح فيه بغداد؛ ولكون أهلها من مباديهم الدينية الاغتسال والنظافة، فأما الستون ألف حمام والثلاثمائة ألف مسجد فهذا من كلام العوام، وقد

أخطأ الحافظ أبو بكر بن الخطيب — رحمه الله — في مجرد نقله دون رد وتعقيب، ولكن حبه لبلده جعله يروي هذه المبالغات على علاتها، والأحسن والأنصح والأجدر بالثقة هو نقل الروايات المعقولة الموزونة دون المبالغات المردودة.

حدث أبو الحسن الهلال بن المحسِّن بن إبراهيم الصابي الكاتب صاحب التاريخ قال: كنت يومًا بحضرة جدي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، إذ دخل عليه أحد التجار الذين كانوا يخدمونه، فقال له في عرض حديث: قال لي أحد التجار: إن ببغداد اليوم ثلاثة آلاف حمام، فقال له جدي: سبحان الله! هذا سدس ما كنا عددناه وحصرناه. فقال له: كيف ذاك؟ فقال جدي: أذكر وقد كتب ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه إلى الوزير أبي محمد المهلبي بما قال فيه: ذُكر لنا كثرة المساجد والحمامات ببغداد، واختلفت علينا فيها الأقاويل، وأحببنا أن نعرفها على حقيقة وتحصيل، فتعرَّفنا الصحيح من ذلك. قال جدي: وأعطاني أبو محمد الكتاب، وقال لي: امضِ إلى الأمير معزِّ الدولة، فاعرضه عليه واستأذنه فيه؛ ففعلت، فقال له الأمير: استعلم عن ذلك وعرفنيه؛ فتقدم أبو محمد المهلبي إلى أبي الحسن البادرجي — وهو صاحب المعونة — بعد المساجد والحمامات، قال جدي: فأما المساجد فلا أذكر ما قيل فيها كثرة، وأما الحمامات فكانت بضعة عشر ألف حمام، وعدت إلى معز الدولة وعرفته ذلك فقال: اكتبوا في الحمامات بأنها أربعة آلاف.

واستدللنا من قوله على إشفاقه وحسده إياه على بلدٍ هذا عظمه وكبره. وأخذ أبو محمد، وأخذنا نتعجب من كون الحمامات هذا القدر. وقد أحصيت في أيام المقتدر بالله فكانت سبعة وعشرين ألف حمام. وليس بين الوقتين من التباعد ما يقتضي هذا التفاوت. قال هلال الصابي: وقيل: إنها كانت في أيام عضد الدولة بن بويه خمسة آلاف حمام وكسرًا. ا.هـ.

قلت: أما زمان المقتدر بالله فكان في عهد الثلاثمائة بعد الهجرة وصاعدًا. وأما زمان عضد الدولة بن بويه فبدأ في بغداد سنة سبع وستين وثلاثمائة، فيكون بين العهدين نحو من ستين أو سبعين سنة؛ فيكون من العجب العجاب أنه في حقبة كهذه ينزل عدد الحمامات من سبعة وعشرين ألفًا إلى خمسة آلاف؛ فلذلك أظن أن في قولهم: كانت الحمامات في بغداد أيام المقتدر سبعة وعشرين ألف حمام، مبالغة عظيمة، وعندي دليل آخر أقرب إلى العقل من هذا على وجود المبالغة في الخبر، وهو قولهم: إن الحمامات كانت في أيام الأمير معز الدولة بن بويه والوزير أبي محمد المهلبي بضعة عشر ألف حمام، ثم

قولهم: إنها كانت في أيام عضد الدولة خمسة آلاف حمام وكسرًا.

فقد كان معز الدولة بن بويه في زمان الخليفة المطيع لله، وكانت وفاة معز الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وكانت وفاة عضد الدولة بن بويه سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة؛ أي: لم يكن بين العهدين أكثر من ست عشرة سنة؛ فكيف يمكن في مدة قصيرة كهذه أن يتقلَّص العمران كل هذا التقلُّص، ويتساقط عدد الحمامات من بضعة عشر ألفًا إلى خمسة آلاف وكسر؟ فالأرجح عندي أن الحمامات كانت أربعة إلى خمسة آلاف حمام في العهدين؛ أي عهد معز الدولة وعهد عضد الدولة. نعم في زمن المقتدر يجوز أن تكون حمامات بغداد عشرة آلاف فأكثر؛ لأن عمران بغداد في زمن المقتدر كان أحفل جدًّا منه في أيام المطيع والطائع؛ أي أيام بني بويه. على أننا لو قلنا: إنه كان في بغداد خمسة آلاف حمام فليس ذاك بقليل؛ لأننا لو جعلنا لكل مائتي بيت حمامًا واحدًا لكان مجموع البيوت مليون بيت، فإذا جعلنا لكل بيت خمس أنفس كان مجموع سكان بغداد خمسة ملايين، وهو أقصى ما يتصوَّر لعدد سكان بغداد.

وإن قلنا: إنهم من أجل كونهم مسلمين وولوعهم بالاستحمام لأجل النظافة وما كانوا منغمسين فيه من الترف كان الحمام الواحد لا يكفي إلا لمائة بيت، وجب أن يكون في بغداد مليونا بيت؛ أي عشرة ملايين نسمة، وهذا بعيد عن العقل، فالأرجح هو التعديل الأول.

أما في الزمن الذي ذهب فيه ابن جبير إلى بغداد وهو آخر القرن السادس، فقد ذكر أنه كان فيها ألفا حمام لا زيادة.

وقد كان الفرق عظيمًا جدًّا بين أيام المقتدر وأيام المطيع والطائع؛ وذلك لأن عمران بغداد من بعد المعتصم أخذ بالتدنِّي، ثم كان الفرق أعظم بين أيام المطيع والطائع وأيام الناصر الذي في زمنه دخل ابن جبير بغداد.

وقد جاء في تاريخ بغداد لابن الخطيب تفصيل استقبال المقتدر لسفراء ملك الروم مما يتجاوز تصور العقول في الأبَّهة والفخامة وكثرة العدد والعدد؛ فقد رووا أنه كان عند المقتدر أحد عشر ألف خادم خصي عدا الغلمان الحجرية والحواشي من الفحول، وكانوا ألوفًا. وقيل: كانت عدة كل نوبة من نوب الفراشين في دار المتوكل على الله أربعة آلاف فرَّاش، ولما جاء رسل ملك الروم صف المقتدر لهم العسكر من دار صاعد إلى دار الخلافة، فكان عدد الجيش المصطف مائة وستين ألفًا بين فارس وراجل، ثم رسم المقتدر أن يطاف بالرسل في دار الخلافة وليس فيها من العسكر أحد البتة، وإنما فيها الخدم

والحجَّاب والغلمان السود، فكان عدد الخدم سبعة آلاف؛ منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود، وعدد الحجَّاب سبعمائة حاجب، وعدد الغلمان السود غير الخدم أربعة آلاف.

قالوا: وكان عدد ما عُلِّق يومئذ في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات، والفيلة، والخيل، والجمال، والسباع، والطرد، والستور الكبار الصنعانية، والأرمنية، والواسطية، والبهنسية السواذج والمنقوشة، والدبيقية المطرزة؛ ثمانية وثلاثين ألف ستر، وعدد البسط والنخاخ الجهرميَّة والدورقية في الممرات والصحون التي وطئ عليها القواد ورسل صاحب الروم من حد باب العامة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله، سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط الطبري والدَّبيقي التي لحقها النظر دون الدوس؛ اثنان وعشرون ألف قطعة، وأدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبًا وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتشمَّمهم وتأكل من أيديهم.

ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج على كل فيل ثمانية نفر من السند الزرَّاتين بالنار، فهال الرسل أمرها، ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع؛ خمسون يمنة وخمسون يسرة، كل سبع منها في يد سباع وفي رءوسها وأعناقها السلاسل والحديد.

ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث، وهو دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلُوَّة، طول البركة ثلاثون ذراعًا في عشرين ذراعًا، وحولها مجالس مزينة بالدَّيبقي المطرَّز، وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل عدده أربعمائة نخلة، قد لبس جميعها ساجًا منقوشًا من أصلها إلى حد الجمَّارة بحلق شبه مذهبة، ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صافٍ، وللشجرة ثمانية عشر غصنًا لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما يتحرك أوراق الشجر الطبيعي بالريح الهابَّة.

وقيل في هذه الشجرة: إن وزنها كان خمسمائة ألف درهم. قالوا: وكان تعجُّب رسول ملك الروم من هذه الشجرة أكثر من تعجبه من كل ما شاهده. وكانت الطيور المصنوعة التي على الشجرة تتحرك بحركات قد جعلت لها. ثم إنه كان في جانب الدار يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسًا على خمسة عشر فرسًا قد أُلبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد خببًا وتقريبًا، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قصد. وفي الجانب الأيسر مثل ذلك.

ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس، فكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى، وكان في دهاليز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلَّقة. ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلاثمائة ذراع قد علِّق من جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وردية وجعبة محلاة وقسي، وقد أقيم نحو ألفي خادم بيضًا وسودًا صفين يمنة ويسرة.

ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرًا، وذلك إلى الصحن التسعيني، وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل والبزة الحسنة، وفي أيديهم الشروخ والطبرزينات والأعمدة، ثم مروا بمصاف من عليَّة السواد من خلفاء الحجاب وأصاغر القواد، ودخلوا دار السلام، وكانت عدة كثيرة من الخدم والصقالبة في كل من القصور يسقون الناس الماء المبرَّد بالثلج والأشربة والفقَّاع، ومنهم من كان يطوف مع الرسل، ولطول المشي بهؤلاء جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع، واستسقوا الماءَ فسُقوا.

وكان أبو عمر عدي بن أحمد بن عبد الباقي الطرسوسي — رئيس الثغور الشامية من قبل الخليفة — يطوف معهم وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة، ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في قصر التاج مما يلي دجلة، وكان الخليفة على سرير أبنوس قد فرش بالدَّبيقي المطرز بالذهب، ومن يمنة السرير تسعة عقود من اللآلئ مثل السبح معلقة، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر غالب ضوءها على ضوء النهار.

ومثَّل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله، فكفَّر له، وكان الرسول شابًّا والترجمان شيخًا، وقد كان ملك الروم عقد الأمر في الرسالة للشيخ إذا حدث بالشاب حدث الموت، فناوله المقتدر جوابه لملك الروم، وكان ضخمًا كبيرًا، فتناوله وقَّبله إعظامًا له، ثم أُخرجا من باب الخاصة إلى دجلة، وأقعدا وسائر أصحابهما في شذًا من الشذوات الخاصة — الشذا نوع من السفن — وأصعدا إلى دار صاعد التي أنزلا فيها، وحُمل إليهما خمسون بدرة كل بدرة خمسة آلاف درهم. فهذا ما كانت عليه دار الخلافة في أيام المقتدر، وذلك في نحو سنة خمس وثلاثمائة.

ونقل عن أبي نصر خوا شاذة خازن عضد الدولة بين بويه قال: طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها، فكان ذلك مثل مدينة شيراز. قال هلال الصابي: وسمعت هذا القول من جماعة آخرين عارفين خبيرين. ومع هذا فقد كانت بغداد في أيام عضد الدولة انحطت كثيرًا عما كانت في أيام المقتدر؛ أي قبل ذلك بستين أو سبعين سنة. وكانت في أيام المقتدر قد نزلت كثيرًا عن درجتها في أيام المأمون والمعتصم. وأما في أيام الناصر — وهي التي زار فيها ابن جبير بغداد؛ أي بعد أيام المقتدر بمائتين وخمسين سنة — فكانت بغداد لا تعد شيئًا بالقياس إلى ما كانت عليه من قبل.

وأما جامع الخليفة المتصل بداره الذي يقول فيه ابن جبير: إن فيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة، فنظنه الجامع الذي بناه الخليفة المكتفي سنة تسع وثمانين ومائتين، فقد ورد في تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر الخطيب أن الناس كانوا يصلون الجمعة في دار الخلافة نفسها وليس هناك رسم لمسجد، فلما استُخلف المكتفي أمر ببناء مسجد جامع في داره يصلي فيه الناس؛ فصاروا يبكرون إلى المسجد الجامع في الدار يوم الجمعة، فلا يمنعون من دخوله، ويقيمون فيه إلى آخر النهار. قال الخطيب: وحصل ذلك رسمًا باقيًا إلى الآن.

(٥٦) الفنَك، محركة: دابة يلبس جلدها.

(٥٧) ذكرنا بحث الحمامات هذه فيما تقدم من الكلام عن بغداد، وإذا كان عدد حمامات بغداد يوم دخلها ابن جبير الأندلسي ألفين، فلا يكون عدد سكانها حينئذ أقل من مليون نسمة.

(٥٨) كذا.

(٥٩) هو نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا لما فتح صلاح الدين آمد سنة ٥٧٩؛ أي: ثاني السنة التي حج فيها ابن جبير الأندلسي، سلمها إليه على أن يكون من أعوانه، وكان وعده بها قبل فتحها فوفى بوعده، وأظهر صلاح الدين كرمًا زائدًا في ذلك الفتح؛ فإنه سمح لابن تيسان — أميرها — بأن ينقل منها كل ما يقدر على حمله من أمواله، فنقل ما لا يحصى، وبقي فيها ما لا يحصى. جاء في «الروضتين في أخبار الدولتين»: لما تسلَّم السلطان آمد وجد فيها من السلاح وآلات الحصار ومن المجانيق واللعب والزرادت أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد فيها برج فيه مائة ألف شمعة وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها. وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب (أي مليون

و٤٠ ألف كتاب)، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل.

ويقال: إن ابن قرة أرسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدة سبع سنين، حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد، وما وعدته بما فيها من الذخائر والأموال، وفيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، قال: لا أضن عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أصحابنا.

(٦٠) لا تنسَ اصطلاح الأندلسيين والمغاربة على تسمية الشمال جوفًا.

(٦١) أي: القصَّارين.

(٦٢) بالأندلس.

(٦٣) وفي الكلاسة هذه دفن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله — وقد كانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكانوا استحضروا له الشيخ أبا جعفر — إمام الكلاسة — وهو رجل صالح؛ ليبيت عنده، حتى إذا احتضر لقنه الشهادتين وذكره الله تعالى، ففعل، وكان ذهنه يغيب أحيانًا في حالة الاحتضار، فذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ سمعه يقول — رحمة الله عليه: «صحيح»، وأبو جعفر هذا إمام الكلاسة هو نفس أبي جعفر الفنكي القرطبي الأندلسي الذي ذكر ابن جبير أنه كان إمام الكلاسة.

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد الذي كان هناك ليلتئذ هو والقاضي الفاضل والقاضي ابن الزكي، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به. وقال ابن شداد أيضًا: ولقد حُكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تبسَّم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه.

قال ابن شداد أيضًا: ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما أمكننا أن نُدخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يُلثُّ به الطين. وغسله الدولعي الفقيه، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجًّى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني من وجه حِلٍّ عرفه. وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة، فصلى عليه الناس أرسالًا، وكان أول من أَمَّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وكان متمرضًا بها، ودفن في الصفة الغربية منها. ا.هـ.

قلت: وعلى ضريحه اليوم قبَّة بنيت فيما بعد وفاته — رحمه الله — ولا يكاد سائح ذو بال يزور دمشق إلا يزور مدفن صلاح الدين، وقد زاره قيصر ألمانية سنة ١٨٩٨ مسيحية، وانحنى أمام قبره إجلالًا وإعظامًا، ثم أهدى إلى المقام قنديلًا عظيم القيمة، فعلِّق فيه، وذلك في أيام الحرب الكبرى، فلما دخل الإنكليز إلى دمشق في نهاية الحرب الكبرى قيل إنهم أخذوا القنديل من هناك، فالقنديل المذكور ليس الآن في تلك القبة، وقد سألني الإمبراطور المشار إليه عن هذه القصة فأجبته بأني سمعتها كما سمعها هو، وعددت هذا العمل مستغربًا من الإنكليز.

هذا وقد كانت وفاة ابن جبير — الذي علقنا هذه الحواشي على كلامه إجلالًا لقدر بيانه — ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤؛ أي بعد وفاة صلاح الدين بخمس وعشرين سنة.

(٦٤) الذي أتذكره مما قرأته في خطط المقريزي أن رأس الحسين — رضي الله عنه — كان في عسقلان، وأنه لما جاء الإفرنج إلى البلاد خيف من استيلائهم على عسقلان، فنقله الخلفاء الفاطميون إلى القاهرة حيث لا يزال إلى اليوم، نقل المقريزي ذلك عن محمد بن علي بن يوسف بن ميسر: أنه في شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل بن أمير الجيوش — وزير الفاطميين — بعساكر جمة إلى القدس، وكان فيه الأتراك، فراسلهم الأفضل في تسليم القدس بغير حرب فامتنعوا؛ فقاتل البلد إلى أن استولى عليه واستولى على عسقلان، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب — رضي الله عنهما — فأخرجه وعطره وحمله في سَفَط إلى أجلِّ دار بها وعمَّر المشهد، فلما كمل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره، وسعى به ماشيًا إلى أن أحلَّه في مقرِّه.

وقيل: إن المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش أبو الأفضل، وكان حمل الرأس من عسقلان إلى القاهرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة، جاء به الأمير سيف المملكة تميم — والي عسقلان — ومعه القاضي المؤتمن بن مسكين، وحصل الرأس الشريف في القصر الفاطمي يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة. ثم ذكر نقلًا عن ابن عبد الظاهر أن طلائع بن رزيك المنعوت بالصالح كان قد قصد نقل الرأس من عسقلان لما خاف عليها من الإفرنج، وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا: لا يكون الرأس إلا عندنا؛ فدفن عند قبلة الديلم بباب دهليز الخدمة في خلافة الفائز سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وقد ذكر المقريزي بعد ذكر المشهد الحسيني بمصر قصة قتل سيدنا الحسين —

رضي الله عنه — وكيف جيء برأسه إلى يزيد، وكيف استقبل هذا الأمر يزيد مما لا حاجة إلى ذكره. ثم قال إنه أنزل في خزائن السلاح إلى أن ولي سليمان بن عبد الملك، فجعله في سَفَط وطيَّبه وجعل عليه ثوبًا، ودفنه في مقابر المسلمين.

فلما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن بيت السلاح أن وجه إليَّ برأس الحسين بن علي، فكتب إليه أن سليمان بن عبد الملك أخذه وجعله في سفط وصلى عليه، فلما دخلت المسودَّة — أي العباسيون — سألوا عن موضع الرأس؛ فنبشوه وأخذوه، والله أعلم ما صنع به. ا.هـ.

فمن هنا يعلم أن رأس الحسين — رضي الله عنه — مختلَف في محل وجوده. فإن كان الرأس الحقيقي هو الذي أخذه العباسيون من دمشق، فلماذا يجعلونه في عسقلان ولا يأخذونه إلى المدينة المنورة أو إلى بغداد عاصمتهم؟ فوجود الرأس مدفونًا في عسقلان أمر مستغرب، ولم أطلع حتى الآن على قصة نقله من دمشق إلى عسقلان. ومن الجهة الثانية يكون غريبًا أن الخلفاء الفاطميين ينقلون رأس الحسين إلى مصر بهذا الاهتمام العظيم خوفًا من الإفرنج لو لم يكونوا واثقين بكونه رأس الحسين — عليه السلام — وعلى كل حال، فإن ابن جبير ذكر نقل رأس الحسين إلى القاهرة قائلًا: إنه كان في دمشق لا في عسقلان، وكلامه هذا كان سنة ٥٧٨، ورواية المقريزي هي أن الرأس نقل إلى القاهرة سنة ٥٤٩، فلا تضادَّ بين الروايتين إلا في قضية عسقلان، وقول ابن جبير: «ثم نقل إلى القاهرة.» لا ينفي أنه كان قد نقل من دمشق إلى عسقلان قبل نقله منها إلى القاهرة.

(٦٥) بياض بالأصل.

(٦٦) سرارة الأرض: أطيبها.

(٦٧) يعني بذلك المرجة التي في أول دمشق.

(٦٨) Bono.

(٦٩) Lope.

(٧٠) عمل سرقسطة.

(٧١) وقد نقل صاحب نفح الطيب هذه الترجمة بحروفها عن ابن الأبار، ولم يزد شيئًا.

(٧٢) هو الذي تقدم ذكره، وأنه استشهد في واقعة أبيشة، ورثاه ابن الأبار القضاعي صاحب التكملة.

(٧٣) أما صاحب نفح الطيب، فقد استوفى ترجمة هذا الرجل فقال: إنه رحل إلى أن دخل الصين؛ ولذا كان يكتب سعد الخير الأنصاري البلنسي الصيني، وركب البحار، وتفقَّه ببغداد على أبي حامد الغزالي، وسمع بها أبا عبد الله النعال، وطرادًا الزينبي وغيرهما، وبأصبهان أبا سعد المطرَّز، وسكن أصبهان، وتزوج فيها، وولد له بها ابنته فاطمة، ثم سكن بغداد، وتوفي بها في المحرم سنة ٥٤١، وصلَّى عليه الغزنوي، وحضر جنازته قاضي القضاة الزينبي والأعيان، ودفن إلى جانب عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل بوصية منه. وقال المقري أيضًا: إنه تأدَّب على أبي زكريا التبريزي شارح الحماسة، وأنه روى عنه ابن عساكر، وابن السمعاني، وأبو موسى المديني، وأبو اليمن الكندي، وأبو الفرج بن الجوزي، وابنته فاطمة بنت سعد الخير.

عود إلى جغرافية بلنسية وملحقاتها

إن مملكة بلنسية القديمة مقسومة الآن إلى ثلاث مقاطعات: الأولى قشتليون Castellon، ومساحتها ٦٤٦٥ كيلومترًا مربعًا، وعدد سكانها ٣٢٢٢١٣، والثانية بلنسية، ومساحتها ١٠٧٥٨ كيلومترًا مربعًا، وعدد سكانها مع ملحقاتها ٨٨٤٢٩٨، والثالثة مقاطعة القنت، ومساحتها ٥٧٩٩ كيلومترًا مربعًا، وعدد سكانها ٤٩٧٦١٦.

وهذه البلاد هي عبارة عن ساحل البحر وما يليه من الداخل، تنحدر إليها مياه عدة أودية، أهمها وادي الأبيض، فتجرف من الأتربة ما تجرفه، حتى يقال: إن ساحل البحر ارتفع نحوًا من مائة متر عما كان من قبل؛ ولذلك هي موصوفة بالخصب، وضفاف بحيرة[1] بلنسية تعطي عدة مواسم في السنة. وظاهر على أهل هذه الشواطئ سحناء العرب، وهم أهل شغل ودأب، لا سيما في الفلاحة والزراعة، وعندهم حسن خلق، لكن أمزجتهم عصبية. ويوجد عند الإسبانيين مثل سائر يشير إلى طبائعهم، ولكن في الحقيقة غير مطابق للواقع؛ فهم يقولون عنهم: إن الحيوان عندهم نبات والنبات ماء، والذكر أنثى والأنثى لا شيء.

وكانت بلنسية حافظة مسحتها العربية إلى العصر الأخير الذي تبدلت فيه هيئتها وغلب فيها طرز البناء الجديد، فلم يبق منها على الهيئة القديمة سوى آثار معدودة؛ فقد هدموا السور سنة ١٨٧١، ولم يبق غير برجين مشرفين على الحارة القديمة، وقد جعلوا مكان السور حدائق فاصلة بين البلد القديم والحارات الجديدة. ولبلنسية مرافئ أحدها يقال له غراو Grav، والثاني كابانال Cabanal، وأما الرصافة المعروفة من زمان العرب فهي إلى الجنوب الشرقي، وأمام محطة الشمال يوجد حديقة كستلار Castelar، وأشهر شارع في بلنسية اليوم شارع سان فيسانت Sanvicente، ثم شارع سان فرنندو Sanfernando، وفيها ساحة يقال لها ساحة السيد Plazadel Cid، وساحة يقال

لها ساحة الملكة في وسط الحارة القديمة، ومن أشهر كنائسها كنيسة سانتا كتلينا Santa Catalina، ولها برج مثمَّن، ثم كنيسة سان أندريا، وهي جامع قديم تجدد بناؤه على الطراز الحاضر سنة ١٦١٠، ومن أبنية بلنسية المعروفة البناء الذي يقال له: المدرسة البطريركية Colegio del Patriaca، ثم المدرسة الجامعة، تجددت في القرن التاسع عشر، فيها ألف طالب في الطابق الأول، منها متحف تاريخ طبيعي، وخزانة كتبها تشتمل على ستين ألف مجلد، وفي هذه الخزانة مئات من الكتب المخطوطة.

وأما الكنيسة الكبرى فإنها قائمة في محل هيكل قديم تحوَّل بعد النصرانية إلى كنيسة، ثم بعد دخول الإسلام إلى جامع، ثم لما استرجع الإسبان بلنسية أعادوا الجامع كنيسة، وكان ذلك سنة ١٢٦٢، ثم أخذوا يحوِّلون هذه الكنيسة تدريجًا عن هيئتها الأصلية. وفي هذه الكنيسة جرس عظيم يقال إنه يُدَقُّ لتعريف ساعات السقيا للبساتين، ومن أعلى برج الجرس يشرف الإنسان على جميع بساتين بلنسية، ويرى جبال بني قاسم وهضاب مربيطر وأعالي القنت، ومن جهة الشمال تلوح له جبال إشكرب، وجبال ركانة، وعلو قبة الجرس ٤٥ مترًا. ومن مشهورات الكنائس كنيسة يقال لها سيدة المساكين.

ومن الأماكن المعروفة في بلنسية ديوان المياه الباقي من أيام العرب، ينعقد كل يوم خميس عند الظهر، أمام باب الرسل من الكنيسة الكبرى، وأعضاء هذا الديوان كلهم من الفلاحين، وهم ينتخبون رئيسهم، والمباشر يستدعي المتخاصمين والشهود، والمحاكمات علنية وشفهية، ومن لم يخضع للحكم يبقى بستانه دون شرب. ويوجد في بلنسية متحف للصنائع والفنون في محل كان في القديم ديرًا. والحديقة العمومية التي تمتلئ بعد الظهر من أهل بلنسية واقعة على نهر «تريه»، وهو النهر الأبيض، وفي بلنسية ساحة يقال لها ساحة تطوان، تشرف عليها قلعة بناها الإمبراطور شارلكان لحماية المدينة من غارات خير الدين بربروس. وفي بلنسية ساحة أخرى يقال لها ساحة «مركادو» هي أوسع ساحت البلدة، وكانت الاحتفالات تنعقد فيها، ويعلق الجناة على المشانق، وفيها أُحرق القاضي ابن جحاف، وإلى الشمال الشرقي من هذه الساحة يجد الإنسان حارة بلنسية القديمة.

وفي بلنسية كنيسة اسمها سان نيقولا كانت أيضًا جامعًا. وأما حديقة النبات ففيها ستة آلاف نوع من النباتات. وأما مرفأ بلنسية الأكبر وهو غراو، فيختلف إليه في السنة ثلاثة آلاف باخرة محمولها مليونا طن. وأما غوطة بلنسية التي تشرب من النهر الأبيض بسبعة جداول، فإن مساحتها نحو من عشرة آلاف هكتار، فلها من جهة

الشمال القناة التي يقال لها ساقية مونكادة Acequia de Moncada، وأقنية طورموس Tormos، ومستالَّة Mastalla، ورسكانه Rascana، ومن جهة الجنوب أقنية كوارت Cuarte، ومسلاته Mislata، وفباره Favara، وروبلَّه Rovella، فساقية الكوارت تتصبب إلى البحيرة، وأما الأقنية الأخرى فتعود إلى النهر، وكل من هذه الأقنية لها شعب لا تنتهي عددها، وهي متشابكة لا يعلم مبتداها ومنتهاها إلا أصحاب البساتين، وعلى كل حال لا يبقى من الأرض الداخلة في هذه الغوطة شبر واحد دون شرب.

ومن العادة أنهم يقوِّمون كل هكتار من أرض السقي بخمسة هكتارات من أرض العذي، وذلك أن الأرض بلا ماء لا تعطي هناك شيئًا يذكر، وقلَّما تباع أرض بلا ماء. وكل هذا جرى ترتيبه المتناهي في الدقة من أيام العرب، ولما كان الحرُّ يشتد إلى النهاية في بلنسية، فإن مياه النهر الأبيض لا يبقى منها شيء تقريبًا في فصل الصيف جاريًا إلى البحر، بل تشربها كلها البساتين، وإن الإنسان ليحار عندما يدخل تلك الجنان ويرى ما فيها من الجداول راكبًا بعضها فوق بعض، منها ما هو معلَّق في الفضاء، ومنها ما هو أنفاق تحت الأرض. ولكل من الأقنية الكبرى الثمان يوم تنفتح فيها لسقيا البساتين المتعلقة بها، فتجري المياه منها إلى القُنيِّ الصغار التي لا تحصى ولا تعد، وبساتينها تسقى بالساعات، وما أسرع صاحب الستان إلى فتح مفجر قناته عندما يصل الدور إليه، فقاعدة السقيا هناك هي العدَّان. ولهذه الأقنية هيئات خاصة لإدارة أمورها كل قناة لها هيئة ينتخبها أصحاب البساتين، ثم هذه الهيئات تجتمع اجتماعًا عامًّا كل سنتين مرة ولها لجنة إجرائية.

ومن هذه النقابات يتألف ديوان المياه الذي مرَّ الكلام عليه، والذي هو المرجع في المنازعات الواقعة على المياه، وعندما يحتاجون إلى إصلاح الأقنية يفرضون ضريبة على أصحاب البساتين كل واحد بحسب مقدار أرضه. وأما الزراعات التي تشتمل عليها هذه الغوطة فهي متنوعة، منها القنَّب والحنطة والذرة والبقول والبطيخ الأصفر، أما الأشجار فأهمها البرتقال والرمان والكمثرى والتين والمشمش، وهم يزرعون القنَّب في مارس ويحصدونه في وسط يوليو، ويزرعون اللوبياء في يوليو ويحصدونها في آخر أكتوبر، ويزرعون الحنطة في نوفمبر ويحصدونها في وسط يونيو، ويزرعون الذرة في يونيو ويحصدونها في آخر أكتوبر؛ فتتعدد المواسم في السنة الواحدة.

وأوفى الزراعات غلَّة فيما يظهر هي زراعة القنب؛ ففي السنين التي تشح فيها المياه يهملون سائر الزراعات، ويتركونها تشرق فتكون فداءً للقنب، وفي السنين التي يكون

الجفاف فيها شديدًا يحق لنقباء المياه أن يغيروا القواعد المرعية بحسب المصلحة، عائدًا ذلك إلى رأيهم، فيدَّخرون المياه لأجل زراعات دون أخرى، ويداولون في العدَّان، ويحق لهم بحسب الامتيازات القديمة المعطاة لهم من الملك جاك — فاتح بلنسية — أن يتقاضوا القرى العالية التي تنحدر منها المياه أن يسدُّوا مجاري المياه التي يسقون منها مدة أربعة أيام وأربع ليالٍ متواليات، فيتجمَّع حينئذ من المياه ما ينقذون به الموسم.

وإذا امتنع أهالي القرى المذكورة عن إجابة هذا الطلب، فإن نقباء المياه يراجعون الوالي، وعلى هذا أن ينفِّذ طلبهم؛ فإن هذا النظام يرجع إلى سنة ١٢٣٩، حينما فتح جاك الأول — ملك أراغون — مملكة بلنسية، فأمر أن تكون هذه المياه تابعة للبساتين دون أدنى بدل ولا ضريبة، نعم إنه خصص تاج الملك بقناة مونكادة، وبعد ذلك بثلاثين سنة احتاج أصحاب البساتين إلى قناة مونكادة نفسها، فصاروا يستفيدون من مياهها ببدل معلوم في السنة.

والناس يتناقشون في قضية هذه التراتيب العجيبة لسقيا غوطة بلنسية: هل العرب هم الذين أوجدوها؟ أم هي كانت مرتبة من قبل فأتقنوها وأكملوها؟ ولما كان كثير من الإفرنج يغصُّون بمكان العرب في العمران ولا يريدون أن يعترفوا بفضائلهم، فإن جوسَّه Jusset — صاحب كتاب إسبانية والبرتغال المصوَّر — يزعم أن العرب أخذوا هذه التراتيب عن الرومانيين، سواء كان ذلك في إسبانية أو في شمالي إفريقية. والحقيقة خلاف ذلك؛ فإن العرب أينما وجدوا أتقنوا فن توزيع المياه على الأراضي، ولم يقلدوا فيه غيرهم، وإن كونهم غادروا بلنسية وهذه التراتيب فيها على أجمل وجه هو ثابت، فبقي هناك قضية هل أخذوها عمن سلف أم لا؟ فهذا هو مجرد افتراضات وتخرصات، واليقين لا ينفع في جانبه التخرص، والذي يحاولون غمط فضل العرب هم مصداق قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

ثم إن أعالي بلنسية التي لا تصل إليها المياه مكسوة بالزيتون والخرُّوب والكرم، وبالإجمال فيندر في الدنيا أرض رمت بأفلاذها وجادت بخيراتها مثل أرض بلنسية، ومن مرَّ بين تلك البساتين وشاهد تلك الأغصان المتهدِّلة الواصلة إلى الأرض من ثقل ما عليها من عناقيد الثمار التي تكاد تغطي الورق، ورأى قُطُر البهائم الموقرة من جميع أصناف الألبان والفواكه والحبوب منحدرة إلى المدينة رأى عجبًا عجابًا.

أما البحيرة فهي بقية من البحر المتوسط انفصلت عنه بلسان من الأرض، وتحوَّلت مياهها إلى العذوبة بطول الأيام، وطولها عشرون كيلومترًا، ومنها إلى البحر قناة،

وفيها أنواع الأسماك، ويحوم فوقها من الطيور المائية شيء كثير، ويمكن صيده عن كثب، وجيرة هذه البحيرة يزرعون الأرز على ضفافها. وإلى الغرب من بلنسية قرية «مانيسيس» Manises،[٢] ثم قرية «لرية» على سبعة كيلومترات من بلنسية، وفي مانيسيس عشرون معملًا للزلِّيج يشتغل بها ١٥٠٠ فاعل، والتراب اللازم لهذه الصناعة يؤخذ من الجوار، وإلى الشمال من بلنسية قرية «مليانة Meliana»، وفيها معمل للفسيفساء التي يقال لها فسيفساء نولَّا Nolla، ثم قرية «بورجازوت Burjasot» على أربعة كيلومترات إلى الشمال الغربي من بلنسية، وعلى طريقها يجد المسافر معملًا يصنعون به القاشاني المغربي.

وهناك يرى الإنسان مخازن الحنطة التي كانت عند العرب يقال لها المطامير، واحدها مطمورة، ومن قرى تلك الناحية «شيبه» Chiva، وهي قرية سكانها خمسة آلاف نسمة، وفيها حصن داثر، وقرية «البنيول Bunol»، وسكانها نحو من خمسة آلاف نسمة أيضًا، وفيها حصن من أيام العرب، وعلى ٧٦ كيلومترًا من بلنسية مدينة «ركَّانة Requena»، وسكانها ستة عشر ألفًا. وجميع هذه القرى كانت في أيام العرب معروفة.

ولنذكر الآن ما وجدناه في الكتب العربية عن ملحقات بلنسية، ولا سيما القرى والقصبات التي كانت معمورة في زمان العرب، وقد نبغ منها رجال من أهل العلم، وأقرب هذه القرى إلى بلنسية هي قصبة «لرية liria»، والذي يظهر أن هذه القرى قد انحطَّت عما كانت عليه لعهد الإسلام.

(١) لرية Liria

ينسب إليها من أهل العلم محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي إسحاق الأنصاري، أخذ القراءات عن أبيه وغيره، وأجاز له أبو طاهر السلفي في الإسكندرية، ولما عاد من الشرق تصدَّر للإقراء ببلده لرية، قال ابن الأبار في التكملة: وهو من بيت نباهة وديانة وعلم وزهادة، كان هو وأبوه وجده من جلَّة المقرئين. وكذلك كان ابنه أبو زكريا يحيى بن محمد، توفي سنة ٥٩٧ أو نحوها.

وأبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن أبي إسحاق الأنصاري، روى عن أخيه أبي عبد الله المقرئ، وأبي بكر بن العربي، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، سمع منه أبو عمر بن عيَّاد مسلسلات ابن العربي، وقال: كان له اعتناء بالحديث، توفي مبطونًا سنة ٥٥٠، ومولده سنة ٤٧٦.

وأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن يحيى بن محمد بن أبي إسحاق الأنصاري، روى عن أبيه وعمه محمد بن يحيى، وسمع من ابن هذيل، وسمع صحيح البخاري من ابن الدبَّاغ، وأخذ النحو عن أبي بكر عتيق بن الخصيم، وأقرأ العربية بلرية، وخطب بجامعها، قال ابن الأبار نقلًا عن أبي عبد الله بن عيَّاد: إنه توفي في ذي الحجة سنة ٥٦٣، وكانت ولادته سنة ٥٠٧.

وأبو بكر يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي إسحاق الأنصاري، أخذ عن أبيه القراءات، وأخذ عن أبي الحسن بن هذيل، وأجاز له أبو عبد الله الداني، وأجاز له السلفي، وخلف أباه في الإقراء، وأخذ عنه الكثيرون، ومنهم أبو عبد الله بن غَبَرَة، أخذ عنه سنة ٥٨٧.

وأبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن إسحاق الأنصاري، أخذ عن أبي عبد الله بن نوح، وكان من الفقهاء مع الصلاح الكامل، وأخذ عنه كما أخذ عن أبيه وجده وجد أبيه وأقاربه، وتوفي سنة ٦٣٣. فهؤلاء كلهم فروع شجرة واحدة اشتهرت بالعلم والفضل.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي زيد، يعرف بابن عيَّاد، سمع من أبيه أبي عمر، وأبي الحسن بن هذيل، وأبي بكر بن نمارة، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي الحسن بن النعمة وغيرهم، وأجاز له ولأبيه أبو مروان بن قزمان، وأبو القاسم بن بشكوال، وأبو بكر بن خير وغيرهم، وكتب إليهما أبو طاهر السلفي من الإسكندرية، وكان أبو عبد الله محمد من أهل العناية بالرواية والتقييد للآثار والأخبار، والحفظ للتاريخ، قال ابن الأبار: وله في مشيخة أبيه مجموع مفيد على حروف المعجم، كتبت منه ومن سائر ما وقع إليَّ بخطه في هذا الكتاب ما نَسبته إليه، ولم يخلُ من أغلاط نبَّهت عليها، وكان يضرب في الآداب والعربية بسهم، وربما قرض أبياتًا من الشعر. وحدَّث عنه ابن سالم قال لي: توفي ببلده لرية سنة ٦٠٣، ومولده وقت الزوال من يوم الخميس السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٤٤، قرأت ذلك بخط أبيه أبي عمر.

وأما أبو عمر بن عيَّاد — والد المترجم — فهو يوسف بن عبد الله بن أبي زيد، من لرية، دخل بلنسية سنة ٥٢٨، ولقي بها ابن هذيل، وابن النعمة، وابن الدبَّاغ، وطارق بن يعيش، وخلقًا، وكان معنيًّا بصناعة الحديث جمَّاعة للدفاتر، معدودًا في الأثبات المكثرين، سمع العالي والنازل، ولقي الكبير والصغير، يحفظ أخبار المشايخ، ويدون قصصهم ووفياتهم، أنفق عمره في ذلك، وكان قد شرع في تذييل كتاب ابن بشكوال، وله كتاب

«الكفاية في مراتب الرواية»، و«المرتضى في شرح المنتقى»، و«المنهج الرائق في الوثائق»، و«بهجة الحقائق في الزهد والرقائق»، و«طبقات الفقهاء من عصر ابن عبد البر».

حدث عنه ابنه أبو عبد الله محمد، وأبو محمد بن غلبون، ووصفه بعضهم بالمشاركة في الآداب والفهم بالقراءات، وأنه من أهل التواضع، وقال ابن الأبار: توفي شهيدًا ببلده لرية عندما كسبه العدو فقاتل حتى أُثْخن جراحًا، ثم أجهزوا عليه، وذلك يوم العيد سنة ٥٧٥، وقد كمَّل سبعين سنة.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يوسف بن فَرِين، من أهل لرية، وصاحب الأحكام بها، سمع من أبي الحسن بن هذيل، وابن النعمة، وابن سعادة وغيرهم، وأجاز له أبو طاهر السلفي سنة ٥٧٥، وأبو محمد المبارك بن الطبَّاخ، قال ابن الأبار: وكان شيخًا فاضلًا، توفي سنة ٦١٠.

وأبو عبد الله محمد بن خلف بن يونس سمع قديمًا بشاطبة من أبي عمران بن أبي تليد، وأخذ علم الشروط عن أبي الأصبغ المنزلي، والأدب عن أبي الحسن بن زاهر، وولي الصلاة والخطبة بجامع لرية، وكان معدلًا خيارًا، خرج من وطنه في الفتنة، فتوفي بشاطبة في رجب سنة ٥٥٧، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عياد.

وأبو بكر محمد بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عثمان الأنصاري، أصله من لرية، وسكن المرية، وكان يعرف بالغفايري وبابن العسال، أخذ عن أبي القاسم بن ورد، وعن أبي محمد الرشاطي، ولما تغلَّب العدو على المرية المرة الأولى — وهي الواقعة التي استشهد فيها الرشاطي — خرج المترجم من المرية، وسكن في لرية بلده الأصلي، فكتب عنه ابن عياد من شعر ابن ورد.

وأبو عبد الله محمد بن مروان بن يونس، يعرف بابن الأديب من لرية، سكن بلنسية، سمع من أبي بكر بن العربي، وطارق بن يعيش، وغيرهما، وكان حسن الوراقة معروفًا بذلك، ولَّاه القاضي مروان بن عبد العزيز خُطَّة السوق، أخذ عنه ابن عياد، وقد تقدمت ترجمته في أدباء بلنسية.

(٢) رُكَانة Requena

قد تقدم ذكر هذه القصبة، ولا تزال عامرة إلى الآن، وقد قال عنها ياقوت في معجم البلدان: إنها مدينة لطيفة من عمل بلنسية، ونقل عن ابن سقَّاء أنه أنشده أبو محمد عبد الله بن محمد بن معدان الرُّكاني اليحصبي من شعره، وأنه كان من أهل الأدب، وحج مرات هو وأخوه علي الركاني، ولقيه السلفي في الإسكندرية. ا.هـ.

وقد ترجم ابن الأبار في التكملة في الجزء الثاني رجلًا اسمه أبو بكر عبد الرحمن بن سعدون المكتب، قال إنه يُعرف بالركاني، له رحلة سمع فيها من أبي محمد بن الوليد، وأبي إسحاق الشيرازي، وكان رجلًا صالحًا، حدَّث عنه القاضي أبو عامر بن إسماعيل الطليطلي.

وقد ضبط ياقوت الحموي رُكانة بضم الراء وبدون تشديد الكاف، ولكن ضبطه لهذا الاسم لم يكن بالحروف حتى لا يقع لبس وإنما كان بالحركات. أما ابن الأبار فلم نطلع له إلى الآن على ضبط بالحروف لهذا الاسم. وأما في طبعة مجريط من التكملة فهو يضبطها بتشديد الكاف وفتح الراء، ولا نعلم هل كانوا يلفظونها بالتشديد أم لا، وأما الإسبانيون فيكتبونها Requena؛ أي دون تشديد وبضم أولها.

(٣) قُلَيْرة Cullera

قصبة سكانها في هذا الوقت ١٢٠٠٠ نسمة على ضفة نهر شقر Jucar، وهي لطيفة الموقع فيها آثار حصن قديم، ومنها إلى قصبة طبرنة عشرة كيلومترات. ذكر ابن الأبَّار في التكملة محمد بن عبيد الله بن بيبش المخزومي من بلنسية، قال: إن أصله من قليرة بناحياتها الغربية، يكنى أبا بكر، عُني بالفقه، وكان من أهل الفتيا والشورى، ورحل حاجًّا، وسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر السلفي سنة ٥٣٩. وقال الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق: ومن بلنسية إلى حصن قُليرة ٢٥ ميلًا، وحصن قليرة قد أحدق البحر به، وهو حصن منيع على موقع نهر شُقر. وفي دليل بديكر يذكر أن قليرة على الضفة اليسرى من نهر شقر، وأن بها آثار حصن قديم.

(٤) أُنْدَة

وهي من أعمال بلنسية؛ قال ياقوت الحموي في المعجم: أُندة بالضم ثم السكون مدينة من أعمال بلنسية بالأندلس، كثيرة المياه والرساتيق والشجر، وعلى الخصوص التين فإنه يكثر بها، وقد نسب إليها كثير من أهل العلم، منهم أبو عمر يوسف بن خيرون القضاعي الأُندي، سمع من أبي عمر يوسف بن عبد البر، وحدَّث عنه الموطَّأ، ودخل بغداد سنة ٥٠٤، وسمع من أبي القاسم بن بيان، وأبي الغنائم بن النرسي، ومن أبي محمد القاسم بن علي الحريري مقاماته، وعاد إلى المغرب، فهو أول من دخلها بالمقامات، قاله ابن الدُّبَيْثِي. وينسب إليها أيضًا أبو الحجاج يوسف بن علي بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمد القضاعي الأُندي، مات في سنة ٥٤٢، قاله أبو الحسن بن المفضَّل المقدسي. وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن إبراهيم الأندي المعروف بابن الدبَّاغ، حدَّث عن أبي عمران بن أبي تُليد وغيره، وله كتاب لطيف في مشتبه الأسماء ومشتبه النسبة، سمع منه الحافظ أبو عبد الله محمد الأُشبيري. وورد في نفح الطيب: ومن عمل بلنسية مدينة أُندة التي في جبلها معدن الحديد.[٣]

قلنا: وممن انتسب إلى أُندة من أهل العلم أبو عبد الله محمد بن عياض، سمع ببلده من أبي القاسم عبد العزيز بن جعفر البغدادي، وكانت له رحلة حج فيها، وكان فقيهًا، كتب عنه أبو عمرو المقري، ولم يذكر تاريخ وفاته.

وأبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي البقاء بن فاخر بن الحسين الأموي، يقال: إنهم من ولد عثمان بن عفان — رضي الله عنه — روى عن أبي بكر بن العربي، وأبي الحسن شريح، وأبي الوليد بن بقوة، وأبي جعفر محمد بن باق، لقيه بتلمسان، ولقي بها أبا القاسم عبد الرحيم بن جعفر المزياتي، ووَلِّي الأحكام هناك، ثم بإشبيلية، ثم وَلِّي الصلاة والخطبة والأحكام في لرية من أعمال بلنسية من قبل القاضي أبي الحسن بن عبد العزيز سنة ٥٣٠، ووَلِّي أيضًا قضاء شبرانة من الثغر الشرقي، وكان فقيهًا حافظًا واقفًا على مسائل المدوَّنة، محسنًا لعقد الشروط، ضابطًا لما رواه، مقلًّا صابرًا خيِّرًا فاضلًا، حدث عنه ابن عيَّاد وقال: توفي بأُندة في رمضان سنة ٥٣٥ وهو ابن سبعين أو نحوها، عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن بيبش العبدري، من أهل أُندة، سكن بلنسية، له رواية عن أبي عبد الله الخولاني، وعن عبد القادر بن الحنَّاط، وكان فقيهًا

عارفًا بالشروط، روى عنه ابنه أبو بكر بيبش بن محمد، قال ابن الأبَّار: وقرأت بخطه أن أباه توفي ببلنسية عصر الثلاثاء الرابع من صفر سنة ٥٤١.

وأبو الحجاج يوسف بن محمد بن علي بن خليفة القضاعي الأندي، نزل بلنسية، وسمع أبا محمد بن عبيد الله، وأبا الحسن بن النقرات وجماعة، وأخذ العربية عن أبي ذر الخشني، وأبي بكر بن زيدان، وأقرأ العربية حياته كلها، وكان منقبضًا مقبلًا على شأنه، قال ابن الأبَّار: أخذت عنه جملة من كتب النحو واللغة، وأجاز لي، توفي في حصار بلنسية في ذي القعدة سنة ٥٦٣ عن ثمانٍ وسبعين سنة.

وأبو محمد عبد الله بن محمد العبدري، له رحلة إلى المشرق، دخل فيها بغداد، وسمع بها من الشيوخ، كتب عنه أبو عمرو المقرئ، ترجمه ابن بشكوال في الصلة.

وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر بن فيرُّه، يعرف بابن الدبَّاغ، قال ابن بشكوال: صاحبنا من أهل أندة، نزل مرسية، روى عن أبي علي الصدفي ولازمه طويلًا، وأخذ عنه جماعة شيوخنا وصحبنا عند بعضهم، وكان من أنبل أصحابنا وأعرفهم بطريقة الحديث، وأسماء الرجال وأزمانهم وثقاتهم وضعفائهم وأعمارهم وآثارهم، ومن أهل العناية الكاملة بتقييد العلم ولقاء الشيوخ، وكتب عنهم وشوور ببلده، ثم خطب به وقتًا، وتوفي — رحمه الله — سنة ٥٤٦، وقال لي: مولدي سنة ٤٨١.

وأبو سليمان داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن عبد الله بن عبد الرءوف بن حوط الله الأنصاري الحارثي من أندة، سكن مالقة، وولِّي قضاء الجزيرة الخضراء، ثم قضاء بلنسية، وكان محمود السيرة، وتوفي قاضيًا بمالقة سنة ٦٢١.

وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يونس القضاعي من أهل أندة، وهي دار القضاعيين بالأندلس ومن قرية بجهتها، منها أوليَّة أبي الوليد بن الدبَّاغ، يعرف بابن خيرون، سكن مربيطر، وولِّي قضاء مربيطر من قبل أبي الحسن بن واجب، وكان سماعه من أبي عمر بن عبد البر، وأبي الوليد الباجي، وأبي المطرف بن جحاف، وأبي العباس العذري، وأبي الوليد الوقشي، وأبي الفتح السمرقندي، وكان راوية فقيهًا حافظًا أديبًا، له حظ من الشعر، أخذ عنه جماعة، منهم صهره أبو علي بن بسيل، وأبو محمد بن علقمة، وأبو عبد الله بن يعيش، وأبو العرب التجيبي، وتوفي بمربيطر وهو قاضٍ بها سنة ٥١٠.

وأبو محمد عبد الله بن إدريس بن محمد بن محمد بن علي بن الحسن القضاعي من أهل أندة، سكن بلنسية، كان يعرف بابن شق الليل، سمع بقرطبة من ابن بشكوال وغيره، كان من أهل الوجاهة، بصيرًا بالحساب، ثقة صدوقًا، توفي سنة ٦٠٧.

وأبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الله الأنصاري الحارثي، ولد بأندة، وقرأ في بلنسية، استأدَبَه المنصور بن أبي عامر لبنيه، وتولَّى الخطة النبيهة مثل قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا، وتوفي سنة ٦١٢.

وأبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي، والد الحافظ ابن الأبار البلنسي القضاعي الشهير صاحب كتاب «التكملة لكتاب الصلة»، والتصانيف الكثيرة، قال عن والده أنه سكن بلنسية، وأخذ القراءات عن أبي جعفر الحصَّار، وسمع من أبي عبد الله بن نوح، وأبي بكر بن قنترال، وأبي عبد الله بن نَسَع، وأبي علي بن زلال، وصحب أبا محمد بن سالم الزاهد المعروف بالسَّبَطْيَر، قال ابن الأبار: كان — رحمه الله — ولا أزكِّيه، مقبلًا على ما يعنيه، شديد الانقباض، بعيدًا عن التصنُّع، حريصًا على التخلُّص، مقدمًا في حَمَلة القرآن، كثير التلاوة له والتهجُّد به، صاحب ورد لا يكاد يهمله، ذاكرًا للقراءات، مشاركًا في حفظ المسائل، آخذًا في ما يستحسن من الأدب، معدلًا عند الحكام، وكان القاضي أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية، تلوت عليه القرآن بقراءة نافع مرارًا، وسمعت منه أخبارًا وأشعارًا، واستظهرت عليه كثيرًا أيام أخذي عن الشيوخ يمتحن بذلك حفظي، حدثني غير مرة أنه ولد بأندة سنة ٥٧١، ثم قال ابن الأبار أن والده توفي ببلنسية وهو غائب بثغر بطليوس، وكانت وفاته عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩، ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء بعده بمقبرة باب بيطالة وهو ابن ثمانٍ وأربعين سنة، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلًا، نفعه الله بذلك.

وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد العزيز بن محمد بن نميل من أهل أندة، سكن بلنسية، كان مقرئًا، وكان يحترف مع ذلك بالوراقة، توفي بعد الثمانين وخمسمائة.

وأبو الحجاج يوسف بن علي بن محمد القضاعي من أهل أندة، نزل المرية، يعرف بالقفَّال وبالحدَّاد، حج وذهب إلى بغداد بعد الخمسمائة، وسمع من أبي طالب الحسين الزينبي أخي طراد ومن غيره، وقرأ على نفس الحريري مقاماته، وقفل إلى الأندلس

سنة ٥١٢، ونزل المرية، ثم رحل، ثم رجع إلى الأندلس سنة ٥١٦، وحدَّث عنه جماعة، وكان صدوقًا صحيح السماع، استشهد في تغلُّب الروم على المرية أول مرة، وكان ذلك يوم الجمعة عشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢، واستشهد يومئذ أبو محمد الرشاطي.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن أحمد بن غالب من أهل أندة، سكن بلنسية، كان مقدمًا في علم القراءات، صوامًا قوامًا، صرورة ما تزوج قط، توفي في بلنسية سنة ٥٧٣.

وأبو محمد عبد الحق بن محمد بن عبد الرحمن بن علي الأندي، نزيل بلنسية، كان من أهل الفضل، وكان محترفًا بالتجارة، عدلًا، وعُمِّر حتى ألحق الصغار بالكبار؛ لأنه ولد سنة ٥٣٧ وتوفي سنة ٦٢٢.

وأبو عبد الله محمد بن باسُّه بن أحمد بن أرذمان الزهري المقرئ، من أهل أندة، سكن بلنسية، وكان مقرئًا فاضلًا، توفي بإشبيلية سنة ٥١٥.

وعبد العزيز بن جعفر بن محمد بن إسحاق بن محمد بن خُواست الفارسي البغدادي المعمَّر، سكن بأندة، يكنى أبا القاسم، روى بالمشرق عن أبي بكر محمد بن عبد الرزاق التمَّار وعن إسماعيل الصفَّار، وأبي بكر النقَّاش، وأبي عمر الزاهد غلام ثعلب وغيرهم، روى عنه أبو الوليد بن الفرضي، وذكر أنه لقيه بمدينة التراب (أي بلنسية) في ربيع الأول سنة ٤٠٠، قال ابن بشكوال في الصلة: وفي هذا التاريخ كان ابن الفرضي قاضيًا ببلنسية. قال أبو عمرو المقرئ: وتوفي في ربيع الأول سنة ٤١٣ وهو ابن اثنتين وتسعين سنة، دخل الأندلس تاجرًا سنة ٣٥٠، وروى ابن بشكوال عن حَكَم بن محمد أن المترجم قال له: إنه ولد في رجب سنة ٣٢٠.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عيسى بن عبد الحميد بن روبيل الأنصاري، أصله من أندة من أعمالها، وأبوه انتقل منها إلى بلنسية، قال ابن الأبار: سمع معنا من شيوخنا أبي عبد الله بن نوح، وأبي الخطَّاب بن واجب، وأبي علي بن زلال، وأبي سليمان بن حوط الله، وأبي الربيع بن سالم، وأبي الحسن بن خيرة، وأبي محمد عبد الحق الزهري، وانفرد بالرواية عن جماعة استجاز لي بعضهم، وكتب إليه وإليَّ جماعة من أهل المشرق، وعني بعقد الشروط ودراسة الفقه. وشارك في العربية ووليِّ قضاء مربيطر فحمدت سيرته، ثم ولِّي بعد ذلك قضاء دانية والخطبة بجامعها مناوبًا غيره فيها، وتوفي بها وهو يتقلَّد ذلك في الثامن أو التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٣٦، ونُعِيَ إلينا ببلنسية في آخر محاصرة الروم إياها لاستيلائهم عليها صلحًا في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر، قال: ومولده سنة ٥٩١.

وأبو محمد عبد الله بن يوسف بن علي بن محمد القضاعي، قال ابن الأبار: من أهل المرية، وأصله من أندة، وبها نزلت قضاعة، سمع من أبيه أبي الحجاج الراوية، ومن أبي جعفر بن غزلون، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية سنة ٥١٣ من أبي عبد الله الرازي والسلفي، وقد أخذ عنه أبو الحسن بن المفضَّل المقدسي.

(٥) مِلْيَانة MELIANA

إلى الشمال من بلنسية على سبعة كيلومترات منها، ولم نعثر حتى الآن على ذكرها في كتب العرب، وكذلك قرية أخرى على أربعة كيلومترات إلى الشمال الغربي من بلنسية اسمها «بورجاسُوط Burjasot»، وقرية اسمها «قرطوجة Cartoja»، وبلدة على ٣٤ كيلومترًا من بلنسية سكانها خمسة آلاف، فيها حصن قديم يقال لها: «شيبه Chiva»، ولكن على بعد ٤٢ كيلومترًا من بلنسية قرية اسمها «البُنيول» على ضفة نهير يقال له أيضًا: البُنيول، وفيها حصنٌ قديم، فهذه القرية؛ أي البنيول، وارد لها ذكر في كتب العرب، ومنسوب إليها أناسٌ من أهل العلم.

ومن قرى بلنسية قرية أسيلة، وسكانها اليوم خمسة آلاف، وفيها نخل كثير، وتكتب بالإسبانيولي «سيلة Silla»، وقد بحثنا عن موقع هذه البلدة واسمها، فأما موقعها فعلى الشمال من بحيرة بلنسية، ومنها طريق حديدي إلى قلييرة، وعلى مقربةٍ منها قرية اسمها «سولَّانَة Sollana»، ثم قصبة يقال لها: «سويقة Snece» سكانها اليوم ١٢ ألف نسمة، فأسيلة هذه ربما ذكرها في معجم البلدان لكن بلا تأنيث، وذلك أنه قال:

أصيل — بياء ساكنة ولام — بلد بالأندلس. قال سعد الخير: ربما كان من أعمال طليطلة، ينسب إليه أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، محدِّث متقن فاضل معتبر، تفقَّه بالأندلس، فانتهت إليه الرئاسة، وصنَّف كتاب الآثار والدلائل في الخلاف، ثم مات بالأندلس في نحو سنة ٣٩٠. ا.هـ.

ولا نعلم هل «أصيل» التي ذكرها ياقوت في المعجم هي أسيلة المؤنثة التي قد ورد ذكرها في التكملة لابن الأبار في الجزء الأول أم غيرها، فإنه ترجم رجلًا يقال له: محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد بن مأمون الأموي من أهل بلنسية، قال ابن الأبار وصاحب البيت أدرى: إن أصله من قرية بقرب بلنسية تعرف بأسيلة، وقال في ترجمته أنه أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، وأنه رحل إلى غرناطة وإلى إشبيلية وسمع من شيوخها، وأنه قصد جيَّان للقاء الأستاذ أبي بكر بن مسعود، فاختلف إليه ثلاثين

شهرًا يأخذ عنه العربية، وسمع هناك أبا الأصبغ الرعيني، وأبا القاسم بن الأبرش، ودخل المرية سنة ٥٣٩، فسمع فيها من أبي محمد بن عطية، وأبي الحجاج القضاعي، وأجاز له أبو الحسن بن مغيث، وأبو مروان الباجي، وأبو بكر بن العربي، وجماعة كثيرة من المشاهير، وقفل إلى بلنسية بعلمٍ جمٍّ ورواية عالية، وأقرأ العربية، وتولى قضاء بلنسية سنة ٥٨١، وأقام في القضاء حميد السيرة، وكان عدلًا في أحكامه، جزلًا في رأيه، صليبًا في الحق، إمامًا يعتمد عليه في العربية والقراءة، مع الحظ الوافر من البلاغة، وأوطن مرسية بأخرة من عمره، وناوب في الصلاة بها والخطبة أبا القاسم بن حبيش، وتوفي بها عشية السبت من جمادى الأولى سنة ٥٨٦، ودفن بظاهرها عند مسجد الجُرف خارج باب ابن أحمد إلى جانب صاحبه أبي القاسم بن حبيش، وكان مولده ببلنسية سنة ٥١٣.

وأما البنيول فقد ورد ذكرها أيضًا في تكملة ابن الأبار في الجزء الأول، فإنه ترجم محمد بن خلف بن عبيد الله المعافري من أهل جزيرة ميورقة قال: إن أصله من نواحي بلنسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالبنيولي، وترجم رجلًا آخر من أهل ميورقة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الجليل العبدري، يعرف بالبُنيولي. قال ابن الأبار: وبنيول من أعمال بلنسية، وضبطها بضم أولها (كما هو بالإسبانيولي Bunol).

وقد تقدم ذكر رصافة بلنسية، ولم يذكرها ياقوت في معجمه، وإنما ذكر رصافة قرطبة، وذكر بعض العلماء المنسوبين إلى هذه الرصافة مما سنذكره إن شاء الله عند الوصول إلى رصافة قرطبة، بل روى شعرًا لأبي عبد الله الرفاء الرصافي الشاعر، نقل أنه من رصافة قرطبة.

ولكن صاحب نفح الطيب ذكر أن في بلنسية رصافة أيضًا، ونقل عن ابن سعيد أن برصافة بلنسية مناظر وبساتين، وأنه لا يُعلم في الأندلس ما يسمَّى بهذا الاسم غير رصافة بلنسية ورصافة قرطبة. ثم إن ابن الأبَّار وهو من بلنسية — وصاحب البيت أدرى كما سبق القول — ترجم أبا عبد الله محمد بن غالب الرفَّاء الرصافي، ونسبه إلى رصافة بلنسية، وقال عنه أنه كان شاعر وقته مع العفاف والانقباض وعلو الهمة، وأنه كان يعيش من صناعة الرفو يعالجها بيده، ولم يبتذل نفسه في خدمة ولا تصدى لانتجاع بقافية، حُملت عنه في ذلك أخبار عجيبة، وقد تقدم ذكره في تراجم علماء بلنسية؛ فلا حاجة إلى إعادة ذلك.

ومن أعمال بلنسية قرية المنصف التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي، وقبره كان بسبتة — رحمه الله تعالى — ومن نظمه:

قالت لي النفس أتاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم
فما ادَّخرت الزاد قلت اقصري هل يُحمل الزاد لدار الكريم

ذكر ذلك المقري في نفح الطيب. ثم إننا قرأنا في التكملة لابن الأبَّار ترجمة أبي محمد طارق بن موسى بن يعيش المخزومي المنصفي المتوفى بمكة، سنة ٥٤٩، وقد نقلنا ترجمته بين تراجم علماء بلنسية، وهو في الحقيقة من المنصف قرية من قرى بلنسية.

(٦) طبرنة TABERNAS

ومن أعمال بلنسية طَبَرْنَة، وهي على عشرين كيلومترًا من بلنسية، وهي في وسط جنان بلنسية الشهيرة. وفي هذه القرية كانت الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين، وهي التي يقول فيها أبو إسحاق بن يعلى الطرسوني:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حُلل الحرير عليكمُ ألوانا
ما كان أحسنَكم وأقبحهم بها لو لم يكن بطبرنةٍ ما كانا

وقد ذكر هذه القرية صاحب النفح واستشهد بهذين البيتين.

(٧) جزيرة شقر

ومن أعمال بلنسية جزيرة شقر،[٤] والإسبانيون يقولون لهذه القصبة جوكار Jucar، وكان الرومانيون يقولون لها سوكرو Sucro، وفيها آثار حصنٍ قديم، وموقعها من أبدع المواقع، ولها نهر يجري بجانبها وزراعاتها كثيرة، وفيها البرتقال والنخيل، ويزرعون في جوانبها الأرز، وجزيرة شقر يدور ذكرها كثيرًا في كتب الأندلس، وقد جاءت في معجم البلدان، قال ياقوت: جزيرة شَقْر — بفتح أوله وسكون ثانيه — في شرقي الأندلس، وهي أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجرًا وماءً. وكان الأديب أبو عبد الله محمد بن عائشة

الأندلسي كثيرًا ما يقوم بها، وله في ذكرها شعر منه:

ألا خلِّياني والصبا والقوافيا أرددها شجوي فأجهش باكيا

ومنها:

وهيهات حالت دون شَقْر وعهدها ليالٍ وأيام تخال لياليا
فقل في كبير عاده عائد الصبا فأصبح مهتاجًا وقد كان ساليا
فيا راكبًا مستعمل الخطو قاصدًا ألا عُجْ بشقر رائحًا ومغاديًا
وقف حيث سال النهر ينساب أرقمًا وهب نسيم الأيك ينفث راقيًا
وقل لأثيلات هناك وأجرع سُقيت أثيلات وحُيِّيت واديا

وقيل لها جزيرة شقر لأنها بموقعها على نهر شَقر أشبه بجزيرة، والإسبانيون يقولون لها: «السيرة Alcira»، وهي تحريف جزيرة، وليس ذلك بغريب، فعندنا جزر صغيرة مركَّبة من الأنهر تقول العامة للواحدة منها: «زيرة»، بحذف الجيم، وهكذا حصل في الأندلس. وجزيرة شقر اليوم مدينة سكانها يزيدون على عشرين ألفًا، وربما كانت في زمان العرب أعمر منها اليوم.

من ينسب من العلماء والأدباء إلى شقر

وأما من ينسَب من العلماء والأدباء إلى جزيرة شقر فعدد كبير، منهم أبو عبد الله بن مسلم بن فتحون المخزومي، كان فقيهًا مشاورًا.

ومنهم أبو القاسم محمد بن أحمد بن حاضر الجزيري الخزرجي، قدم مصر وسكن قوص، وكان فصيحًا عالمًا، وكان من عدول بلنسية، ومات بالقاهرة سنة ٦٣٩، ترجمه صاحب نفح الطيب.

ومنهم أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن طحلوس، صحب أبا الوليد بن رشد وأخذ عنه علمه، وسمع من أبي عبد الله بن حميد، وأبي القاسم بن وضَّاح، وكان من العلماء والأطباء، وهو آخر الأطباء بشرق الأندلس مع الديانة ولين الجانب والتحقق بعلوم الأوائل ومعرفة النحو، توفي سنة ٦٢٠، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد بن أحمد بن الحاج الهواري، يعرف بابن حفَّاظ، روى عن أبي وليد الباجي، وتفقَّه به، وكان من أصحاب أبي الحسن طاهر بن مفوَّز، وكان ورعًا فاضلًا، ذكره ابن الأبار في التكملة.

وأبو محمد عبد الله بن عمر السُّلَمي، وهو والد القاضي أبي حفص بن عمر، روى عن صهره أبي محمد اللخمي سبط أبي عمر بن عبد البر، وسكن معه أغمات بالمغرب الأقصى حين ولِّي قضاءها، وبها ولد له ابنه أبو حفص، ولما ولِّي القضاء قال له صهره أبو محمد اللخمي: إنك قد ابتُليت بالقضاء وهو أمر عظيم؛ فأوصيك بما يهوِّنه عليك وينفعك الله به: لا تبيتنَّ وفي قلبك غش أو عداوة لأحد من خلق الله. قال أبو حفص: فكذلك كان — رحمه الله.

وأبو محمد عبد الله بن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصبي، من أهل جزيرة شقر، سكن بلنسية، قال ابن الأبار: سمع شيخنا عبد الله بن نوح وتفقَّه به، ثم رحل إلى إشبيلية، وأخذ عن مشيختها، وأجاز البحر إلى فاس، فلقي هناك أبا الحجاج بن نوَّى وطبقته من أهل علم الكلام وأصول الفقه، فأخذ عنهم، وأجاز له جماعة منهم، وعاد إلى بلنسية فاجتُمع إليه بالمسجد الجامع منها، ونوظر عليه في المستصفى لأبي حامد وغير ذلك، وقد حضرت تدريسه وصحبته وقتًا، وكان شكس الخلق مع الانقباض والتصاون، وتنسَّك بآخرة من عمره، وأجهد نفسه قيامًا وصيامًا إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٢٢، وكانت جنازته مشهودة. انتهى ما قاله ابن الأبار.

وأبو مروان عبيد الله بن أحمد بن ميمون المخزومي، ولِّي قضاء بلده جزيرة شقر، وكانت له رواية عن أبي عمر بن عبد البر، سمع منه سنة ٤٤٥.

وأبو مروان عبد الله بن ميمون الأنصاري يعرف بابن الأديب. كان من أهل المعرفة بالقراءات، موصوفًا بالفطنة والحزامة، ولِّي قضاء بلده، وتوفي سنة ٥٥٦.

وابن سعدون أبو الحسن علي بن حسين النجار الزاهد، تقدمت ترجمته في تراجم علماء بلنسية.

وأبو يوسف يعقوب بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الشقري، سكن شاطبة، وقرأ الموطأ على أبي بكر عتيق بن أسد، وصحب أبا إسحاق بن خفاجة، وحمل عنه شعره، وكان فقيهًا مشاورًا أديبًا بارعًا، روى عنه طلحة بن يعقوب، وأبو القاسم بن بقيٍّ، وأبو القاسم البراق، وتوفي سنة ٥٨٤ عن ثمانٍ وسبعين سنة.

وأبو الحسن طاهر بن خلف بن خِيرة، روى عن أبي الوليد الباجي، وقرأ على أبي علي بن سُكَّرة الصدفي بدانية، وسمع أبا داود المقرئ سنة ٤٩١.

وأبو عبد الله محمد بن منخَّل بن ريان، كان من أهل العلم بالقراءات والنحو، متحققًا بالفرائض والحساب، بصيرًا بالمساحة، توفي ببلده جزيرة شقر سنة ٥٥١.

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن يحيى بن خُشين، لم يكن في زمانه من يكتب المصاحف مثله ولا من يدانيه في المعرفة بنقطها مع حسن الخط، توفي في حدود الثلاثين وستمائة.

وأبو عبد الرحمن محمد بن جعفر بن أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي، رحل حاجًّا، فلقي في طريقه أبا محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي نزيل بجاية، وسمع منه بعض تآليفه، قال ابن الأبار: ولم يكن يبصر الحديث، وكان له حظ منزور من منظوم ومنثور، توفي سنة ٦٣٢.

وأبو بكر محمد بن محمد بن وضَّاح اللخمي، من أهل جزيرة شقر، وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها، رحل حاجًّا فأدَّى الفريضة سنة ٥٨٠، ولقي بالقاهرة أبا محمد قاسم بن فيرُّه الضرير الشاطبي، فسمع منه قصيدته الطويلة في الإقراء المعروفة «بحرز الأماني ووجه التهاني»، وتصدَّر ببلده للإقراء، وكان رجلًا صالحًا، توفي سنة ٦٣٤.

وأبو عبد الله محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم من أهل جزيرة شقر، يعرف بمرج الكحل، وكان شاعرًا مفلقًا، توفي ببلده سنة ٦٣٤.

وأبو بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي، زاهد ورع فاضل، أديب من أهل بيت جلالة ورئاسة، كان ملجأً للفقراء والمساكين. قال ابن عميرة في بغية الملتمس: أخبرني ابنه الفقيه أنه وقع له تسمية الأملاك التي باعها أبوه في الفقراء والمساكين، فوجدت أربعة وعشرين ألف دينار سوى ما أغفل منها. وقيل إنه رحل إلى قرطبة واستفتَى جميع من بها هل يخرج من جميع ماله وينقطع إلى الله — عز وجل — أم يبقى فيه وكيلًا للفقراء والمساكين. توفي في حدود سنة ٥٨٠.

وأبو جعفر أحمد بن محمد بن طلحة من بيتٍ مشهور بجزيرة شقر، كتب عن بني عبد المؤمن، ثم استكتبه ابن هود، وربما استوزره، وكان شاعرًا من فحول الشعراء، قتله أبو العباس السبتي، وكان بلغه أنه هجاه.

وأبو عبد الله محمد بن مسلم بن فتحون المخزومي، كان فقيهًا مشاورًا، ولابنه إبراهيم رواية، ذكره ابن الأبار في التكملة.

وأبو عبد الله محمد بن ربيعة من أهل جزيرة شقر، سكن بلنسية، وكان مفتي أهل بلنسية في زمانه، مقدمًا في الشورى، حافظًا للفقه، توفي يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤٨٧، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

ومحمد بن وضاح أبو القاسم الحاج، خطيب جزيرة شقر، كان فاضلًا ورعًا، مقرئًا حسن التلاوة، أخذ القراءات السبع على ابن العرجا، إمام المقام بمكة المكرمة. قال ابن عميرة في بغية الملتمس: أول ما لقيته بمرسية في مجلس القاضي أبي القاسم بن حبيش، فلما خرج من عنده قال لي: هذا رجل لم يكذب قط. فأحببته وصحبته إلى أن مات سنة ٥٨٧.

(٨) بني فَيُّو Benifayo

وغير بعيد من جزيرة شقر قرية يقال لها الآن «بني فيُّو»، يظن المستشرق ليفي بروفنسال أنها محرفة عن بني فَيُّوم، ونحن لا نظن ذلك، بل نرجح تحريفها عن بني حَيُّون؛ وذلك أن من عادة الإسبانيول قلب الحاء فاءً؛ لأنهم لا يقدرون على لفظ الحاء كما لا يخفى، فكثيرًا ما يجعلونها فاءً مثل ما قالوا «البُفيرة» في لفظهم للبحيرة، ثم ليس من عادة العرب أن يضيفوا لفظة بنو أو بني إلى بلدة، وإنما يضيفونهما إلى قبيلة، ولم نسمع باسم قبيلة يقال لها فَيُّوم، وإنما هي بلدة في مصر. فأما حيون فهو اسم معروف عند العرب للرجال وشاع في الأندلس، فالأرجح أن هذه البلدة اسمها بني حَيُّون، ثم بالترخيم صارت بني حَيُّو.

وفي تلك الناحية بلدة سكانها بضعة عشر ألفًا يقال لها «قرقاجنت Carcagente» ذات برتقال ونخيل، وفيها أيضًا شجر التوت، ومن هذه البلدة فرع للخط الحديدي يذهب إلى دانية، وهناك بلدة أخرى على الضفة الغربية من نهر شقر يقال لها «الْبرِيك Alberique»، وبالقرب منها نهير يقال له «البيضا Abaida»، وبالقرب من هذا النهير حصن «شنتيانة Sentana»، وقد مر بنا ذكر علماء يقال في نسبتهم الشنتياني، نظنهم منسوبين إلى هذا المكان، وجميع هذه البلاد التي ذكرناها واقعة بين بلنسية وشاطبة.

ومن مضافات بلنسية قصبة «أوليبة Oliva»، فيها كثير من التوت والزيتون والبرتقال، وفيها أفخر أجناس العنب، وهي بين جبال: أحدها يقال له «جبل سيقاريا»، والآخر «جبل نيغرو»، وجبل «مونكو»، وهناك قرية يقال لها أنداره، معروفة من أيام

العرب، ينتسب إليها أناس من أهل العلم، منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعافري الأنداري.

ومن أعمال بلنسية المشهورة في زمان العرب:

(٩) شارقة Gérica

وكان العرب الأندلسيون يلفظونها بالإمالة كما هو شأنهم، وهي بلدة واقعة في آخر حدود ولاية بلنسية إلى الشمال بينهما وبين ولاية سرقسطة، وهي مشرفة على نهر بلنسية، وفيها حصن عربي عظيم استولى عليه جاك الأول — ملك أراغون — سنة ١٢٣٥، وله برج عالٍ ارتفاعه ثلاثون مترًا. ومن شارقة° إلى الغرب وادٍ خصيب، وهناك بلدة إشكرب التي مرَّ ذكرها. وكان يقال لشارقة «قلعة الأشراف»، وقد ورد ذكر شارقة في معجم البلدان قال: حصن بالأندلس من أعمال بلنسية في شرقي الأندلس، ينسب إليها رجل من أهل القرآن يقال له الشارقي، اسمه أبو محمد عبد الله بن موسى، روى عن أبي الوليد يونس بن مغيث بن الصفا عن أبي عيسى عن عبد الله بن يحيى بن يحيى. انتهى.

وينسب إلى شارقة أبو المطرف عبد الرحمن بن العاصي الأنصاري الخزرجي من ولد سعد بن عبادة، روى عن أبي الوليد الباجي، سمع منه بسرقسطة صحيح البخاري سنة ٤٦٣، كان فقيهًا جليلًا، ولِّي الأحكام ببلده شارقة ولابنه محمد بن عبد الرحمن رواية أيضًا، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي العاصي بن يوسف بن فاخر بن عتاهية بن أبي أيوب بن حيُّون بن عبد الواحد بن عفيف بن عبد الله بن رواحة بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، ترجمه ابن الأبَّار وقال أنه قرأ نسبه بخطه ونقله منه، وهو من أهل شارقة قلعة الأشراف عمل بلنسية، صحب أبا الوليد الوقَّشي، وله رواية عن أبي محمد بن السيد، روى عنه ابنه العاصي الحَكَم بن محمد، وتوفي في نحو العشرين وخمسمائة.

من ينسب إليها من أهل العلم

وممن ينسب إلى شارقة ابن حُبيش، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أبي عيسى الأنصاري، يكنى أبا القاسم، انتقل جده عبد الله من شارقة إلى المرية، فنشأ المترجم في المرية، وتفقَّه بأبي القاسم بن ورد، وأبي الحسن بن نافع، وأخذ العربية عن أبي عبد الله بن أبي زيد، ورحل إلى قرطبة سنة ٥٣٠، فسمع بها من بقايا رجالها أبي الحسن بن مغيث، وأبي عبد الله بن مكِّي، وأبي عبد الله بن أصبغ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال، وسمع من القادمين إليها كالقاضي أبي بكر بن العربي وغيره، وأجاز له أبو الحسن شريح بن محمد، وأبو الوليد بن بقوة، وأبو بكر بن مدير، وأبو الفضل بن عياض، وكتب إليه من الإسكندرية أبو طاهر السلفي، وأقام بقرطبة نحوًا من ثلاثة أعوام يسمع الحديث والغريب، ثم انصرف إلى وطنه المرية، فلما تغلَّب النصارى عليها أول مرة سنة ٥٤٢ خرج منها إلى مرسية فأقام بها قليلًا، ثم انتهى إلى جزيرة شقر فأوطنها ووُلِّي بها الصلاة والخطبة والأحكام نحوًا من اثنتي عشرة سنة.

ثم إنه في سنة ٥٥٦ نُقل من جزيرة شقر إلى مرسية خطيبًا بجامعها، فالتزم ذلك مناوبًا لأبي عبد الله بن سعادة، وأبي علي بن عُريب، وسنة ٥٧٥ تولَّى قضاء مرسية، وكان محمود السيرة معروف النزاهة لا يُنعى عليه إلَّا حَرَج في خُلقه، وكان آخر أئمة المحدثين بالمغرب، والمسلَّم له في حفظ غريب الحديث، ولغات العرب وتواريخها ورجالها وأيامها، لم يكن أحد من أهل زمانه يجاريه في معرفة رجال الحديث وأخبارهم ومواليدهم ووفياتهم.

وكان خطيبًا فصيحًا حسن الصوت، وله خطب حِسانٌ في أنواعٍ شتى، ونقل ابن الأبَّار عن أبي عبد الله بن عيَّاد أنه كان صارمًا في أحكامه جزلًا في أموره، مكرمًا لأصحابه منوهًا بهم، وكانت الرحلة إليه في وقته، وطال عمره حتى ساوى الأصاغر الأكابر في الرواية عنه، واقتضب صلة ابن بشكوال وعلَّق عليها، ولم يؤلف في الحديث على كثرة تقييده غير مجموع في الألقاب صغير، ولكنْ له كتاب في المغازي في مجلدات، وكانت ولادته في المرية في النصف من رجب سنة ٥٠٤، وكان يكره أن يسأله أحد عن مولده، وكانت وفاته بمرسية على رأس الثمانين من عمره ضحى يوم الخميس الرابع عشر من صفر سنة ٥٨٤، ودفن خارج باب ابن أحمد إزاء مسجد الجُرف في موضع مُطلٍّ هناك كان يرتاح إلى الجلوس فيه، وصلَّى عليه أبو حفص الرشيد — أمير مرسية — وكانت جنازةً لم يشاهَد مثلها حتى كاد يهلك فيها ناس من كثرة الزحام. عن ابن الأبَّار.

ومن مشهورات المدن التي كانت في عمل بلنسية مدينة البونت:

(١٠) البونت Funte la Higuero

وهي بلدة عالية بينها وبين بلنسية مائة كيلومتر، وأهلها اليوم لا يزيدون على أربعة آلاف، وهي في الجبل معدودة من الصرود، وبردها شديد في الشتاء، وليس فيها أشجار نظير الجروم والسواحل، بل أكثر غراسها الكرم، وطريق الحديد يصل إليها في نفق تحت الأرض طوله ١٥١٤ مترًا، وقد مررت من هناك راجعًا من بلنسية إلى مجريط في أثناء رحلتي إلى الأندلس سنة ١٩٣٠، فرأيت أن البونت يصح أن تكون مصطاف بلاد بلنسية التي يشتد فيها الحر في فصل الصيف؛ لأن الجبال العالية في شرقيها وشماليها حاجز بينها وبين الهواء البارد، وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان هذه البلدة في مكانين فقال:

> «بُنْت» — بالضم ثم السكون وتاء مثناة — بلد بالأندلس من ناحية بلنسية، ينسب إليها أبو عبد الله محمد البنتي البلنسي الشاعر الأديب. ا.هـ. ثم قال في مكانٍ آخر: «البونت» — بالضم والواو والنون ساكنان والتاء فوقها نقطتان — حصن بالأندلس، وربما قالوا: البُنت، وقد ذكر. ينسب إليه أبو طاهر إسماعيل بن عمران بن إسماعيل الفهري البُنتي، قدم الإسكندرية حاجًّا، ذكره السلفي، وكان أديبًا أريبًا قارئًا. وعبد الله بن فتوح بن موسى بن أبي الفتح بن عبد الله الفهري البُنتي أبو محمد، كان من أهل العلم والمعرفة، وله كتاب في الوثائق والأحكام، وله أيضًا رواية، توفي في جمادى الآخرة سنة ٤٦٢. انتهى.[٦]

من ينسب إليها من أهل العلم

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن سعيد بن عقال الفهري، وستأتي ترجمة والده أبي عبد الله محمد.

وأبو محمد عبد الله بن فتُّوح بن موسى بن عبد الواحد الفهري البونتي، قال ابن عميرة في بغية الملتمس: له كتاب حسن مفيد جمع فيه الوثائق والمسائل من كتب الفقهاء.

وأبو النصر فتوح بن موسى بن أبي الفتوح بن عبد الواحد الفهري، وهو والد الأول روى بطليطلة عن أبي نصر فتح بن إبراهيم، وأبي إسحاق بن شنظير، وصاحبه أبي

جعفر، وأبي بكر محمد بن مروان بن زهر، وغيرهم، قال ابن بشكوال في الصلة: وقد أخذ عنه ابنه عبد الله.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن مروان بن يحيى القيسي، يعرف بالبونتي، سكن بلنسية، روى عن أبي داود المقرئ، وأبي عبد الله بن فرج، وأبي علي الغسَّاني، وأبي الحسن بن الروش، وأبي علي الصدفي وغيرهم، وكانت له عناية كثيرة بالعلم والرواية وأخبار الشيوخ وأزمانهم ومبلغ أعمارهم، وجمع من ذلك كثيرًا. قال ابن بشكوال: ووصفه أصحابنا بالثقة والدين والفضل، وتوفي بالمرية ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر من سنة ٥٣٦.

وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعيد بن عقال الفهري، ولي قضاء بلده للحاجب نظام الدولة أبي محمد عبد الله بن محمد بن قاسم، ثم لولاة لمتونة بعد ذلك، وهو من أهل المعرفة والنباهة، وتوفي قبل العشرين وخمسمائة، ومن أهل العلم ابنه عبد الله، وقد تقدم ذكره.

وأبو بكر محمد بن عبد الله البونتي الأندلسي الأنصاري ترجمه المقرِّي في نفح الطيب في جملة الراحلين إلى المشرق، قال: قدم مصر وأقام بالقرافة مدة، وكان شيخًا صالحًا زاهدًا فاضلًا، وتوجه إلى الشام فهلك. قال الرشيد العطَّار: وكان من فضلاء الأندلسيين ونبهائهم، ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة، وكان يتكلم بألسنةٍ شتَّى.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قاسم بن علي بن قاسم بن يوسف — أمير الأندلس قبل بني أمية — ابن عبد الرحمن الفهري، كان يلقب يمن الدولة، وكان رئيسًا بقلعة البونت من أعمال بلنسية؛ مَقَرِّ آبائه الرؤساء، وله صنع أبو محمد بن حزم رسالته في فضل أهل الأندلس وأطال الثناء عليه وعلى سلفه — رحمهم الله. ا.هـ. من كلام ابن الأبَّار في التكملة. قلت: ومن سلالة هذا البيت بنو الجد الفهريون بفاس اليوم، وهم بيت مجد وعلمٍ وفضل، ترجمهم مولاي سليمان — أحد سلاطين المغرب — في مؤلف خاص، ولا تزال إلى عهدنا هذا تظهر منهم النوابغ، ومنهم في هذا العصر السيد العبقري علال الفاسي — من أقطاب الحركة الوطنية المغربية — الذي نفته السلطة إلى القابون من بلاد خط الاستواء، ومنهم السيد محمد الفاسي — المدرس اليوم برباط الفتح — وهو من جلة أدباء العصر على الإطلاق.

وأبو محمد عبد الله بن الفضل بن عمر بن فتح اللخمي البونتي، سكن دانية، روى عن أبي الوليد الوقَّشي، وأبي عبد الله بن رولَّان، وتأدب بهما، وقعد لإقراء العربية

ببلنسية، وكان أديبًا جليلًا ذا حظ من اللغة والنحو والشعر، بارع الخط، رائق الوراقة، أخذ عنه أبو عبد الله بن سعيد الداني وغيره، وتوفي بميورقة بعد التسعين والأربعمائة.

وأبو محمد عبد الله بن مفرِّج بن موسى بن أبي الفتح بن عبد الواحد الفهري، وهو ابن أخي فتُّوح بن موسى الفهري الذي تقدمت ترجمته.

(١١) قرى بلنسية

ومن قرى بلنسية قرية يقال لها: «شُبْرُبْ»، قرأ بجامعها عبد الله بن أحمد بن نام الصدفي كتابَ التمهيد لأبي عمر بن عبد البَر سنة ٤٨٣.

ومن قرى بلنسية قرية ذكرها ابن الأبار يقال لها: «شون»، لم نعلم حتى الآن كيفية لفظها عند الإسبانيين، وقد ورد في الإحاطة لابن الخطيب أنها قرية من إقليم ألبيرة، فيظهر أنها قرية أخرى بهذا الاسم؛ لأن لسان الدين بن الخطيب كان يعرف جيدًا إقليم ألبيرة، وذلك أن إقليم ألبيرة هو إقليم غرناطة، ولسان الدين هو وزير غرناطة وأعلم الناس بأمرها، وكذلك ابن الأبَّار القضاعي صاحب التكملة هو أدرى الناس بأخبار بلنسية وإقليمها. هذا وقد انتسب إلى شون البلنسية أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن غزلون بن مطرف بن طاهر بن هارون بن عبد الرحمن بن هاجر بن الحسين بن حرب بن أبي شاكر الأنصاري، رحل حاجًّا سنة ٥٦٣، وأدَّى الفريضة في السنة التي بعدها، وحج ثلاث حجات متواليات، ولقي في الإسكندرية أبا طاهر السلفي، وتوفي بمربيطر سنة ٥٧٤ ودفن ببلنسية. وأما شون التي من إقليم ألبيرة فينسب إليها أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم الأزدي، تأتي ترجمته إن شاء الله عند الوصول إلى غرناطة.

ومن قرى بلنسية «شيركة»، ذكره ياقوت في المعجم وقال: إنه حصن بالأندلس من أعمال بلنسية.

ومن أعمال بلنسية «المنارة»، ذكرها ياقوت في معجم البلدان، وجعلها من ثغور سرقسطة، والذي أعلمه أنه يوجد قرية اسمها المنار بقرب «بَلَغِي» من عمل لاردة، وهما اليوم من أعمال كتلونية، ولكن في زمان العرب كانت لاردة ومضافاتها تابعة لسرقسطة. وأما قول ياقوت إن المنارة بالتأنيث هي من ثغور سرقسطة، فلا يمنع أن تكون من أعمال بلنسية؛ فإن الثغور تكون دائمًا على الحدود بين مملكتين، وإن كثيرًا من هذه الثغور كانت تتبع أحيانًا المملكة الواحدة وأحيانًا تكون تابعة للمملكة الأخرى. وعلى كل

حال فقد ذكر ياقوت من أهل العلم أبا محمد عبد الله بن إبراهيم بن سلامة الأنصاري المناري، ذكره السلفي أنه كان يسمع عليه الحديث سنة ٥٣٠، وأنه كان سمع بالأندلس على أبي الفتح محمد المناري. وذكر ياقوت أيضًا رجلًا اسمه علي بن محمد المناري، كان من أصحاب أبي عبد الله المغامي.

ومن قرى بلنسية «بتَّة» التي ينسب إليها أحمد بن عبد الولي البتي أبو جعفر، كاتب شاعر لبيب، أحرقه القمبيطور — لعنه الله — حين غلب على بلنسية سنة ٤٨٨، ذكره الرشاطي في كتابه عن بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، لأحمد بن يحيى بن عميرة الضبيِّ.

ومن قرى بلنسية «شريون» — بضم أوله وكسر ثانيه وتشديد الياء — حصن من حصون بلنسية، نَسب إليها أبو طاهر السلفي المحدِّث المعمِّر المشهور الذي كان بالإسكندرية أبا مروان عبد الملك بن عبد الله الشريوني، تفقه على أبي يوسف الريَّاني على مذهب مالك.

وينسب أيضًا إلى شريُّون أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عَدَبَّس الأنصاري، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وسمع بطليطلة من أبي بكر جُماهر بن عبد الرحمن وغيره، وسكن طليطلة مدة حدَّث عنه أبو عامر بن حبيب الشاطبي، توفي بفاس منتصف شوال سنة ٥٠٥.

ومن البلاد المنسوبة إلى بلنسية «أندارة»، وقد ذكرنا في هذا الكتاب بعض العلماء المنسوبين إليها، وجاء ذكرها في التكملة لابن الأبار على أنها قرية من القرى، ولكن أبا عبد الله محمد بن عبد الله الحميري في كتابه «الروض المعطار» يقول إنها مدينة عظيمة في شرقيِّ الأندلس خرَّبها البربر.

هوامش

(١) يقول لها الإسبان: البفيرة Albufera، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون الحاء فاءً.

(٢) الذي يظهر لنا أن العرب كانوا يقولون لهذه البلدة منيش، على عادتهم في قلب السين شينًا أو منيشة، وإلى هذه البلدة ينسب الشاعر الأديب أبو القاسم المنيشي، ترجمه صاحب بغية الملتمس وقال إنه بليغ، ذكره الفتح في كتاب المطمح، وله من غزل:

إن كان قدُّك غصنًا فالثدي به   هي الكمائم قد زرت على الزهر
يا قاتَلَ الله لحظي كم شقيت به   من حيث كان نعيم الناس بالنظر

(٣) نظن أن الإسبانيين يقولون لأُندة: غاندة Gandia، فهي بلدة في وسط غوطة بلنسية على ٣٦ كيلومترًا من بلنسية، وسكانها اليوم عشرة آلاف، ومنها إلى البحر أربعة كيلومترات، وهي على ضفة نهير يقال له: سربيس Serpis، وفيها باقية أسماء عربية منها شارع يقال له: «أباديا»، ولا نعلم أصل هذه اللفظة؛ لأنها محرَّفة بلسان الإسبانيول، وفيها شارع آخر صغير ضيِّق يقال له: «شانسور Chanzor»، ونظن هذا الاسم محرفًا عن الخنصر ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، وفيها قصر لآل «بورجيه» صار اليوم مدرسة لليسوعيين، ومن هذه البلدة إلى بلدة اسمها الكُوي Alcoy خمسون كيلومترًا، والخط الحديدي يصعد مشرفًا على وادٍ جميل هو وادي سربيس، ويكون على يمينه الجبل المعروف بشارة بني كادل Sierrradel Beni-Cadel، ولا نعلم إلى الآن أصل هذا الاسم؛ أي بني كادل، إذ لا شك في كونه محرفًا عن العربي بلسان الإسبانيول.

(٤) قال الحميري في الروض المعطار: شُقر جزيرة بالأندلس، قريبة من شاطبة، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلًا، وهي حسنة البقعة كثيرة الأشجار والثمار والأنهار، وبها أناس جلة، وبها جامع ومساجد وفنادق وأسواق، وقد أحاط بها الوادي، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب وفي الصيف على مخاضة. وفي إحاطة الوادي بها يقول ابن خفاجة في شعر يتشوَّق فيه إلى معاهده ويندب ماضي زمانه:

بين شقر وملتقى نهريها   حيث ألقت بنا الأماني عصاها
ويغنِّي المُكَّاء في شاطئيها   يستخف النهى فحلَّت حباها
عيشة أقبلت يشهَّى جناها   وارف ظلها لذيذ كراها
لعبت بالعقول إلا قليلًا   بين تأويبها وبين سراها
فانثنينا مع الغصون غصونًا   مَرَحًا في بطاحها ورباها
ثم ولَّت كأنها لم تكن تلـ   ـبث إلا عشيةً أو ضحاها
آه من غربة ترقرق بثًّا   آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاق   آه من دار لا يجيب صداها
فتعالي يا عين نبكي عليها   من حياة إن كان يغني بكاها

وشباب قد فات إلا تناسيـ — ـه ونفس لم يبق إلا شجاها
ما لعيني تبكي عليها وقلبي — يتمنى سواده لو فداها

وفي جزيرة شقر يقول الكاتب أبو المطرف بن عميرة:

فقد حازنا نأي عن الأهل بعدما — نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نرى غربة حتى تنزَّل غربة — لقد صنع البين الذي هو صانع
وكيف بشقر أو بزرقة مائه — وفيه لشقر أو لزرق شوارع

(٥) لما زحف جاك الأول — ملك أراغون — على مملكة بلنسية بدأ بشارقة، واستولى على حصنها الذي هو مفتاح بلنسية، وكان استيلاؤه على شارقة مبدأ انهيار ملك العرب في بلنسية وملحقاتها؛ ولذلك قال ابن الأبار القضاعي في قصيدته السينية التي يستصرخ فيها الملك أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي — صاحب تونس — وذلك قوله:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا — إن الطريق إلى منجاتها درسا

ومنها إشارة إلى شارقة وأخذ العدو لها:

في كل شارقة إلمام بائقةٍ — يعود مأتمها عند العدى عُرُسا
وكل غاربة إجحاف نائبةٍ — تَثني الأمان حذارًا والسرور أسى

وستأتي هذه القصيدة الطنانة في آخر هذا الجزء.

(٦) قد أورد ليفي بروفنسال في مجموعة الكتابات العربية في إسبانية Inscriptions Arabes D'Espagne ذكر قبر وجد في مدينة البونت، ظهر من كتابته أنه قبر عز الدولة — أمير البونت — المتوفى سنة ٤٤٠ وفق سنة ١٠٤٨، وقد وجد رخام هذا القبر في دار التحف الأثرية ببلنسية، وكتابته سبعة أسطر بالخط الكوفي، ومن كلماتها ما قد امَّحى تمامًا، والذي أمكن قراءته منها هو هذا: بعد البسملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ هذا قبر الحاجب عز الدولة أحمد بن محمد بن قاسم بن ...

... يوم ... خلت من رجب سنة ...

فهو يشهد أن لا إله إلا الله.

ويقول ليفي بروفنسال: إن أحمد بن قاسم هذا رجل له ذكر في التاريخ، قد خلف أباه محمد يمن الدولة على إمارة البونت، وهذا خلف أباه عبد الله نظام الدولة، وكانت وفاة أحمد بن قاسم سنة ٤٤٠ تاركًا إمارته لأخيه عبد الله جناح الدولة الذي تولَّى البونت إلى سنة ٤٨٥؛ إذ غلبت عليه دولة المرابطين، وأخرجته من تلك الإمارة، وفي هذه الكتابة يثبت أن اسم هذا الأمير كان «عز الدولة» لا «عضد الدولة»، كما ذكر بعض مؤرخي العرب، وقد وجدت مسكوكات باسم هذا الأمير تؤيد أن اسمه عز الدولة كما هو مكتوب على قبره.

وقد أوردنا بين تراجم أعيان البونت ترجمة أبي عبد الله محمد يمن الدولة نقلًا عن ابن الأبَّار، فهو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قاسم بن علي بن قاسم بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري، من سلالة يوسف الفهري، أمير الأندلس يوم دخلها عبد الرحمن الداخل الأموي.

وورد أيضًا ذكر والد يمن الدولة، وهو نظام الدولة، في ترجمة محمد بن عبد العزيز بن سعيد الفهري، الذي يذكر ابن الأبَّار أنه تولَّى قضاء البونت لنظام الدولة الفهري المذكور.

وذكر ابن عذارى في الجزء الثالث من كتاب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» في صفحة ٢١٥ من الطبعة الجديدة التي وقف عليها ليفي بروفنسال ما يأتي: وفي سنة ٤٣٤ توفي يمن الدولة صاحب مدينة البونت من كورة شنت برية، وهو محمد بن عبد الله بن قاسم الفهري، ولم تزل بأيدي بني قاسم من أول الفتنة، وأول من ملكها منهم نظام الدولة عبد الله بن قاسم إلى أن هلك سنة ٤٢١، ثم وليها محمد هذا يمن الدولة إلى أن هلك في هذا العام، فلم يزالوا يتعاقبون فيها إلى سنة خمسمائة. ا.هـ.

وقد أورد ليفي بروفنسال في مجموعة الكتابات العربية التي تقدم ذكرها كتابة قبر وجد في قرية بني بني مَقْلة Benimaclet التي تقع على الضفة الشمالية من النهر الأبيض على مقربة من بلنسية، وهذه الكتابة كانت في أحد بيوت بلنسية نمرة ٤ من شارع «كروز Cruz»، ونصها:

> بسملة: ربنا الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ هذا قبر محمد بن عبد الله بن سيد بونه الأنصاري، كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، توفي — رحمه الله وغفر له

— ليلة الخميس مستهل جمادى الأولى من سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة — رحمه الله. ا.هـ.

وقد ذكر ليفي بروفنسال ملاحظة أن هذا الاسم سيد بونه مركَّب من لفظة «سيد» العربية و(بونه) اللاتينية، وأن هذا لم يكن نادرًا في الأندلس، فقد أورد المسيو «ريباره» عدة أسماء إسبانيولية دخلت في اللغة العربية، منها «بيبش Vives»، وبشكوال Pascual، و«غرسية Garcia»، و«لب Lope» و«فيرُّوه Ferro»، وغيرها، ومن جملتها «بونه»، والتسمية بها لا تدل على أن المسمَّى إسبانيولي الأصل. وقد ذكر ليفي بروفنسال رجلًا من أهل قسطنطانية اسمه أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيد بونه الخزاعي، توفي سنة ٦٢٤، نقلًا عن ابن الأبار.

ونحن نقول: إنه قد مرَّ بنا هذا الاسم مرارًا في أثناء التراجم، وإنه مرَّ بنا أيضًا ذكر أبي زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن سيد بونه الخزاعي من قسطنطانية، توفي سنة ٥٧٨؛ فيظهر أنه من العائلة نفسها؛ لقوله أنه خزاعي، ولكن هذا أقدم من الذي أشار إليه ليفي بروفنسال، وهذا الذي أشار إليه ليفي بروفنسال هو جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيد بونه، يكنَّى أبا أحمد الولي الشهير، ترجمه لسان الدين بن الخطيب، وقال في «الإحاطة» إنه كان أحد الأعلام المنقطعي القرين في طريق الله تعالى، أصله من شرق الأندلس، وقد ترجمناه نقلًا عن الإحاطة عند ذكر قسطنطانية.

مذكرة بقلمنا عن رحلتنا إلى مرسية وبلنسية

وجدنا من جملة كُنَّاشاتنا دفتر جيب نقول فيه:

في ٢٢ أغسطس (١٩٣٠) الساعة الواحدة ونصف الساعة بعد الظهر، سار بنا القطار الحديدي من مرسية إلى قرطاجنة، وقد مررنا بجنان مرسية النادرة النظير في الدنيا بما فيها من التين والرمان والبرتقال ومزروعات الزعفران وغيرها. وأول محطة وصلنا إليها محطة يقال لها «بنياخان»، وأصل الاسم «بنياجان» بالجيم، ولكن الإسبانيين يقلبون الجيم خاءً كما لا يخفى، فنصف الاسم عربي، وهو «بني» والنصف الآخر إسبانيولي، والأقرب أنه محرف عن اسم عربي قديم، ومن الغريب اجتماع الضدين في تلك البقعة كما في دمشق، فإن الجبال فوقها كجبل قاسيون وغيره جبال جرد وهضاب صلع، لا يكاد يرى فيها الناظر أدنى نبات، وحذاءها غوطة دمشق التي تُضرَب بها الأمثال، وهنا الحالة بعينها، فإذا نظرت إلى ما فوقك عن الشمال رأيت جبالًا جردًا وهضابًا صلعًا لا يقع نظرك فيها على شجرة واحدة ولا على غصن أخضر، وإذا نظرت عن يمينك وقع نظرك على جنان يصح أن يقال فيها إنها جنان الله في أرضه في عظمة أشجارها والتفاف أدواحها وتهدُّل ثمارها وتفجُّر أنهارها.

ثم مررنا بمحطة يقال لها «القرية Alqueria»، وهذه لفظة عربية لا جدال فيها، ولم نلبث أن خرجنا من وسط الجنان إلى أرض قاحلة، ومررنا بين أهاضيب جرد قليلة النبات، وإذا بنا وصلنا إلى محطة يقال لها «قنطرة Cantera»، وما زلنا نسير في أرض جرداء بيضاء اللون لا نجد في أطرافها إلَّا بعض زياتين متفرقة إلى أن وصلنا إلى محطة يقال لها «ريكلمه Riquelma»، ثم أفضينا إلى سهل أفيح فيه شجر زيتون صغير،

ووقفنا في محطة يقال لها «بالسيكا Balsiga»، ثم سرنا في هذا السهل وقد كثر فيه الشجر، ووقفنا في محطة «باشيقو Pacheco»، ثم في محطة أخرى يقال لها «بارو دو بارال Barro De Paral»، ولم يزل السهل يتسع أمامنا، وقد كثر فيه الزرع والشجر.

وفي الساعة الثالثة والنصف دخلنا قرطاجنة.

قرطاجنة

وهي مرسًى حربيٌّ في جون طبيعي محاط من كل الجهات بجبال عليها قلاع، وفي داخل الجون مدينة هي قرطاجنة CARTHAGENA، ولم أجد في هذه المدينة آثارًا عربية ظاهرة مع أن العرب عمروها كسائر مدن الأندلس، ولم يتَّسع لي الوقت أن أنقِّب عن آثار العرب فيها؛ لأني بت فيها ليلةً واحدة وثاني يوم ٢٣ أغسطس رجعت على طريق مرسية قاصدًا مدينة القَنْت، فوصلنا إلى محطة مرسية نفسها، ونزلنا من القطار، وركبنا قطارًا آخر قاصدين القنت، فأول محطة وقف القطار بها اسمها «بنيال Beniel»، والراجح أن اسمها من أصل عربي، ولكنني لم أتبين هذا الأصل، ثم وصلنا إلى محطة أوريولة، وهي المدينة المشهورة، وكان لها اسمٌ آخر، وهو تدمير، ومرجها هو الغاية في الخصب، والقنَّب فيه بكثرة، ثم مررنا بمحطة بلدة اسمها «قلُّوزة شقوره Callosa Segira»، وقبل الوصول إلى هذا المحط رأيت غابة نخيل وقنبًا كثيرًا. وبعد اجتيازنا قلوزه هذه لم نزل نشاهد شجر النخل وكذلك الزيتون، وكيفما توجه الإنسان في الأندلس لا بد أن يرى الزيتون.

ثم وصلنا إلى «الباترة Albatra»، والنخيل بها كثير إلى الغاية، والسهل مد النظر، والجبال الجرد محيطة بالمروج الغنَّاء، وتسمى الجبال التي في الشمال جبال «كريفيلانت Crevilente»، والتي في الجنوب جبال «قلُّوزة»، ولو لم يكن للعرب جاذب إلى هذه البلاد سوى هذا النخل الكثير لكفى، ويكثر أيضًا في هذه البقعة شجر الرمان.

ثم وصلنا إلى كريفيلنت، ولها سهول خصبة وكروم متسعة وزيتون ورمَّان وخرُّوب، وكل ذلك من الكثرة بمكان. ثم وصلنا إلى محطة «ألش Elche»، وفيها غابة نخل لا يوجد مثلها في الأندلس، تخيل لك أنك في أفريقية أو في جزيرة العرب، ورأيت بين النخل

أناسًا يصنعون الحبال كما يصنعونها في مزَّة الشام وفي ألش خروب ورمان وزيتون، وكله لا ينقطع.

ثم وصلت إلى القنت الساعة الثانية عشرة ونصف الساعة، فرأيتها بلدة لطيفة خفيفة على الروح أخف جدًّا على الروح من قرطاجنة، وبمدخلها أيضًا غابة من النخل، وللبلدة مرسى لطيف على البحر له رصيف منتسقة فيه صفوف من النخل. ووراء القنت جبل عليه حصون، وهو قريب من البحر يكاد يتدلَّى إلى الماء.

سافرت الساعة الثامنة والنصف من القنت إلى دانية في قطار حديدي صغير يجري على خط ضيق، فذهب بنا إلى الشمال على شاطئ البحر، ولم يمضِ إلا قليل حتى دخلنا في كروم زيتون وعنب يُسقَى بجداول، ومررنا بعد ذلك بغيضة نخل، ورأينا كثيرًا من الخروب والسهل منبسط ترابه أبيض ينتهي إلى سلسلة جبال عالية، فالذي يرى هذا النخل كله لا يظن أنه في قارة أوروبة. وبعد نحو ساعة من مسيرنا دخلنا في أرض ذات آكام قاحلة وأودية يابسة، ثم لم تزل هذه الآكام تصاحبنا والبحر من جهة أخرى يصاقبنا، حتى رجعت الأشجار تظهر شيئًا فشيئًا، لا سيما الخروب والزيتون واللوز. وقد وقف بنا القطار في ثلاث محاط، وذلك في مسيرة ساعة واحدة، وكانت المحطة الثالثة عند مدينة صغيرة فوق البحر اسمها «فيلَّا كويوزا»، ثم عبرنا على جسر عالٍ فوق نهر يابس عميق، وسرنا في أرض تربتها بيضاء، والخروب واللوز هناك بكثرة زائدة، وهذان الصنفان من الشجر يكثران في الأراضي الناشفة.

ثم سألت من رافقني في القطار من أهل فيلَّا كويوزا هل عندهم آثار عربية في بلدتهم، فقالوا: لا نعرف سوى أن الكنيسة كانت في الأصل جامعًا. ثم وقفنا في محطة يقال لها «بني دورم Beni Dorm»، ونظنها بني دارم في الأصل تحرَّف لفظها بلسان الإسبانيول، وفي الجوار قرى كثيرة أسماؤها بني وبني؛ أي أسماء عربية، وهي: بني منتل، وبني فايو، وبني أرطاة، وبني أرفيح، وبني اليوبة، وبني دوليش، وبني أرنبيش، وغيرها، مما ظهر لنا أصله العربي مثل بني أرطاة، ومما لم يظهر، وربما كانت هناك عائلات إسبانية من الأصل استعربت بجوار العرب، فأطلقوا عليها لفظة بني؛ ولهذا أمثال مثل بني «قسيٍّ» في شرقي الأندلس وبني «أنجلينو»، وبني «سباريكو» في إشبيلية وغير ذلك.

والأراضي في كل هذه المسافة ليست فيها مياه جارية وترابها أبيض، إلا أننا نحو الساعة العاشرة ونصف الساعة وصلنا إلى قرية لطيفة مشرفة على البحر لها آكام رفيعة

تتخللها زرائع تُسقى من عيون جارية، واسم هذه القرية «ألطيه Altea»، ومن يدري فقد تكون محرفة عن آل طي، فإن المقرِّي في النفح يقول: إن منازل طي بقبلي مرسية.

ثم وقفنا بمحطة قرية اسمها «قليوزه Caliosa de Ensarria»؛ أي الأنصارية بلا شك؛ لأن القبائل التي كانت تنسب إلى الأنصار من عرب الأندلس لا تعد ولا تحصى، ولهم أماكن تعرف بهم. ثم دخل القطار في جبال صخرية قريبة من البحر، ووصلنا إلى محطة يقال لها «كلب Calape»، وأمامها سهل صغير ممتد إلى البحر، ثم بعده جبل ناتئ من نفسه في البحر شاهق يرتفع عن البحر نحوًا من أربعمائة متر كأنه جبل طارق صغير.

ثم وصلنا إلى محطة يقال لها «بنيسَه Benisa»، وأظنها محرَّفة عن بني سعد، وهي عِذْي، وفيها كروم وزياتين، ورأيت فيها نواعير تدور دواليبها على الحيوانات كنواعير ساحل الشام. ثم وقفنا بمحطة يقال لها «طولاذه Teulada»، والإسبان يلفظونها بالذال المعجمة، ثم دخلنا في جبال صخرية بغاية الوعورة، ومررنا بنفق تحت الأرض، وشاهدنا بلدة اسمها «حافية» في سفح جبل اسمه «برنيا»، وسمعت الأهالي يلفظون الحاء كما نلفظها — نحن العرب — لا كما يلفظها الإفرنج؛ أي هاءً.

ثم وصلنا إلى محطة بلدة اسمها «غاتَه Gata»، فهل أصلها قاتَه أو هي محرَّفة لا نعلم أصلها. ثم مررنا وراء الجبل المشرف على البحر، وأخذت الأرض هناك تميل إلى الحمرة، لكن الخرُّوب لا يزال كثيرًا، وكذلك اللوز، وكذلك كروم العنب، وشاهدت مساطيح الزبيب كما هي عندنا في جبل لبنان.

وفي الساعة الثانية عشرة نهارًا وصلت إلى دانية، وهي اليوم بلدة صغيرة لها حصن على رأس رابية مشرفة على البحر تعلو عنه ٣٠ أو ٤٠ مترًا، وهذا الحصن من بناء العرب، ووراء دانية جبل يعلو خمسمائة متر عن البحر، وبسفوحه قرى عامرة وجنان زاهرة. علمت أنه انكشف مؤخرًا في دانية مقبرة عربية، فنسفوها كلها وأهدوا حجارتها متحف بلنسية.

هذا الخط كله شديد الحرارة في الصيف: مرسية، وأوريولة، وقرطاجنة، والقنت، ودانية، إلا الأماكن الجبلية، وفي النهار قد تهب ريح تخفِّف الحرارة، إلا أن هذه الريح قد تنقطع ليلًا فلا يمكن النائم أن يقبل الغطاء، وقد بت ليلة واحدة في مرسية، وليلة في قرطاجنة، وليلة في القنت، وليلة في دانية، وما أتذكر أنني قدرت أن ألقي على نفسي لحافًا أو غطاءً مهما كان رقيقًا، وكنت مع ذلك أترك النوافذ مفتوحة، وأحيانًا أترك الباب أيضًا

مفتوحًا؛ حتى أتمكَّن من الرقاد، فلا عجب إن كان العرب أحبوا هذه السواحل وعمروها؛ لأنهم آتون من الأقاليم الحارة.

في ٢٥ أغسطس ركبت الساعة الثامنة صباحًا قطارًا قاصدًا شاطبة فبلنسية، فمررنا بكروم وزياتين كثيرة، وشاهدت مساطيح الزبيب، ثم أخذنا نمر ببساتين البرتقال، ووقفنا بثلاث محاط أهمها محطة «أوليفا Oliva»، وهي بلدة صغيرة لطيفة تغطيها بساتين البرتقال، ووراءها إلى الشمال الجبل، ثم وصلنا إلى «كنديا Gendia»، وأظنها البلدة التي يسميها العرب «أندة» المحفوفة بأجمل بساتين بلنسية، وهي على مسافة أربعة كيلومترات من البحر. ثم بعد أن تجاوزناها نحو بلنسية ضاق السهل بين الجبل والبحر، ثم وقفنا في محطة «جاراكو Jaraco»، ثم وصلنا إلى طبرنة، وهي في سفح جبل تحف بها البساتين والكروم، ثم وقفنا في محطة «بلدينية Valdiagna»، ثم في محطة «لابرَّاقه Labarraca» لعلها البرَّاقة، ولكن لم أجد هذا الاسم في كتب العرب. ومن قبل أن نجتاز طبرنة كان الخروب متصلًا، وكذلك حراج الصنوبر، ولم نزل كذلك نشاهد هذه الحراج إلى أن قاربنا بلنسية، فعندها دخلنا بين بساتين البرتقال، ورأينا كثيرًا من شجر النخل، ونزلنا بمحطة «قرقاجنت Carcagente».

ثم سرنا بقطار آخر إلى بلنسية، فرأينا غوطة بلنسية الشهيرة، وهي كلها مغطاة بالبرتقال والتوت وأصناف الفواكه والزرائع، والماء يجري في الجداول من كل نواحيها، ثم وقفنا في جزيرة شقر ويقولون لها «السيرة Alcira»، وهي على نهر صغير هو نهر شقر، ومرج بلنسية شبيه بمرج غرناطة في الخصب وكثرة الشجر والزراعات، لكنه أكثر دوحًا من مرج غرناطة، وفيه القرى الكثيرة كما في غوطة دمشق، وتخيَّلت نفسي بإزاء بساتين البرتقال كأني في بساتين صيدا أو يافا أو طرابلس الشام، إلا أن رقعة بساتين بلنسية أوسع. ثم وقفنا بمحطة «الجنيت Algenet»، وهناك خف الشجر، وصار أكثر المرج مباقل وزراعات حبوب متنوعة.

ثم وقفنا بمحطة يقال لها «بني فيُّو Beni-Fayo» ظهر لنا منها برج عربي بقرب سكة الحديد، ورأيت برجًا عربيًّا آخر في وسط البلدة. ولا أعلم أصل كلمة بني فيُّو، وإنما أظن أنها بني حيُّو، وأن حيو مرخَّم عن حيُّون، والترخيم كثير في العربي لا سيما في المغرب.

هذا ومن بعد أن تجاوزنا بني فيو قاصدين بلنسية انقطعت البساتين بعض الشيء، وصارت الأشجار من الخروب والزيتون، ولكن لم تلبث خضرة السقي أن رجعت

وظهرت آثار الوادي الأبيض. ثم وقفنا بمحطة بلدة اسمها «سيلا Silla»، ولا شك أنها أسيلة التي ذكرها ابن الأبار. ثم وقفنا في محطة بلدة اسمها «كاتاروجه»، ولم يظهر لي أصلها، ثم وقفنا بمحطة بلدة هي أقرب أرباض بلنسية إلى نفس المدينة، وهذه المحطة هي «الفافار Alfafar» وبني توزر، فأما الفافار فأظنها محرفة عن الحفار أو الحفر؛ لأنهم يقلبون الحاء فاءً، كما قالوا في البحيرة البفيرة، وأما توزر فهو اسم بلدة في إفريقية في نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، وهي كثيرة النخل والبساتين، فلعل الذين عمروا هذه البلدة كانوا من ناقلة توزر، ثم وصلنا إلى بلنسية نحو الساعة الثانية عشرة، فكانت المسافة إليها من دانية بالقطار الحديدي أربع ساعات. وبلنسية ثالث مدينة في إسبانية من جهة العَظَمة، لا يوجد أعظم منها سوى مجريط وبرشلونة، وهي قد خلعت عنها الثوب العربي تمامًا، فإني لم أجد فيها آثارًا عربية قديمة كما وجدت في طليطلة وإشبيلية وقرطبة وغرناطة، بل كل ما وجدته من آثار العرب أبراج وبوابات معدودة. ثم إني وجدت في المدن الأخرى — لا سيما في إشبيلية — أبنية محدثة قلَّدوا فيها طراز البناء العربي، ولكن لم أجد شيئًا من ذلك في بلنسية، وإنما سمعت الموالية العربية باللغة الإسبانية في المقاهي بواسطة الحاكي؛ أي الكراموفون. ا.هـ. فهذا ما وجدته في دفتر جيب محفوظ عندي عن انطباعات ذهني بما رأيته من مرسية إلى بلنسية.

ثم وجدت أيضًا تقييدات في الدفتر نفسه عن مسيرتي من بلنسية إلى مجريط، وذلك بعد أن ذهبت من بلنسية إلى الجزائر الشرقية، وأقمت بميُّورقة نحوًا من عشرين يومًا، فرجعت إلى بلنسية، ومنها قصدت مجريط، وطريقها إلى مجريط هي غير طريق مرسية، فها أنا ذا أنقل ما قيدته يومئذ من لمحاتي؛ قلت: في الساعة العاشرة قبل الظهر ركبت القطار من بلنسية قاصدًا مجريط، فبقي يخبُّ بنا في غوطة بلنسية بين زرائع متنوعة وأشجار ملتفَّة الغالب عليها البرتقال، والجداول والأنهار تشق هذه الغوطة من كل جهة، ثم إنه بعد مسير ساعة بالسكة الحديدية وصلنا إلى أوعار تغيَّر فيها النسق، وانقطعت النسبة، ولكن هذه الأوعار لم يطل أمرها حتى رجعنا إلى مرج أخضر ذي زرائع وكروم من عنب ورمَّان وتوت، والجداول تسقيها أيضًا. ثم وقفنا في محطة شاطبة، وهي بلدة بين المرج والجبل، فالمرج أمامها والجبل وراءها، وعلى الجبل قلعتان شاهقتان، واسم الجبل «برنيسا Bernisa»، والمرج كله من بلنسية إلى شاطبة معمور بالقرى أشبه بغوطة الشام. ثم انتهينا من المرج، وسرنا إلى الوعر، ووقفنا بمحطة بلدة فيها قلعة قديمة عظيمة يقال لها «مُنتيشة» وبالإسبانيولي Montesa،

وقد ذكر هذه القرية صاحب نفح الطيب وقال: إنه ينسب إليها عدد من العلماء، لكنه لم يذكر منهم أحدًا.

فأما ياقوت في معجم البلدان فقد ذكر منتيشه بالفتح ثم السكون وكسر التاء المثناة من فوقها وياء وشين معجمة، قال: إنها مدينة بالأندلس قديمة من أعمال كورة جيَّان، حصينة مطلَّة على بساتين وأنهار وعيون، وقيل إنها من قرى شاطبة (وهو الصحيح)، منها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياض المخزومي الأديب المقرئ الشاطبي، ثم المنتيشي، روى عن أبي الحسن علي بن المبارك المقري الواعظ الصوفي المعروف بأبي البساتين، روى عنه أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن الدبَّاغ الحافظ. ا.هـ.

ثم مررنا بقرية «الكُدية»، وهي على ٦٣ كيلومترًا من بلنسية، ولا يخفى أن اسم الكدية عربي، ومعنى الكدية: الأرض الغليظة، وتأتي أيضًا بمعنى الصَّفاة العظيمة الشديدة. ثم نحو الساعة الثانية عشرة وقفنا عند محطة بلدة اسمها «موجَنْتا»، وقد ورد في دليل بديكر أنها مدينة قديمة بناها العرب، وفيها حصن باقية آثاره، وهي على ٨٢ كيلومترًا من بلنسية، وأرضها في غاية الخصب، وقد كثر الزيتون هنا بدلًا عن الخرُّوب.

ثم وقفنا بمحطة في الوعر اسمها «باريلَّا Parilla»، ثم صعدنا في الجبل وما برحنا في التصعيد حتى وصلنا إلى نفق طويل ١٥٠٠ متر، ومن قبله مررنا بنفقٍ قصير، والجبل هناك يقال له جبل مارياكا، فاصل بين «شارة إنقيرة Sierra de Ingeurra» في الشمال الغربي، وشارة «غروزه Grosa» في الجنوب الشرقي، وعلى مسافة مائة كيلومتر وصلنا إلى مدينة البونت، وسكانها اليوم أربعة آلاف نسمة، وهي في مكان عالٍ، والفرق بين البونت، وبلنسية هو فرق الصرود عن الجروم، وهناك الأشجار نادرة؛ فالأرض مغطاة بكروم العنب.

ونحو الساعة الثانية عشرة وثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى محطة «إنسينا Encina»، وهي ملتقى الخطين: الخط الحديدي الآتي من بلنسية إلى مجريط، والخط الآخر الآتي من القنت إلى مجريط. ثم في الساعة الواحدة وربع الساعة وصلنا إلى بلدة يقال لها: «المنصا Almansa»، وهي بلدة عربية يسير إليها طريق الحديد في جبال عالية، وأما نفس البلدة؛ فهي واقعة على بسيط من الأرض، والجبال تحيط بذلك البسيط، ولها صخرة مرتفعة مشرفة، فوقها حصن قديم، وفيها حوض ماء من بناء العرب طوله ألفا متر وعرضه ألفا متر وعمقه ثمانون مترًا، وقد بُني هذا الحوض على شكل سد بين الجبلين كلما ارتفع السد نحو الجبل انخفض البناء، فهذا الحوض يقال له في العربية:

«المصنع»؛ ولذلك نقول بلا تردد: إن «المنصا» هي مقلوب مصنع، ويظهر أن الماء قليل هناك والأرض في غاية الخصب، فأحدث العرب هذا المصنع لأجل ري الأراضي، ولكنه الآن في حالة الخراب.

وقبل الساعة الثانية وصلنا إلى محطة بلد يقال له: «ألبيرة Alpera»، وفي هذا البلد يوجد كهفان فيما سمعت منقوش فيهما على الصخور صور حيوانات ورجال يقال إنها باقية من العصر الجليدي، وفي تلك النواحي يكثر شجر البلوط، وقد بقينا نحو ساعتين في القطار نسير في بسائط من الأرض مرتفعة، وكلها من الأراضي الجيدة التي تزكو مزروعاتها. والساعة الثانية وثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى «شنجالة Chinchilla»، وهي من المدن التي كانت عامرة في زمان العرب، وسيأتي ذكرها، وهي اليوم ملتقى سكَّتيْ الحديد اللتين إحداهما تذهب إلى مرسية والأخرى إلى قرطاجنة.

وفي الساعة الثالثة مررنا بقرية اسمها «سيلَّا»، ثم وصلنا إلى «البسيط»، وهي مدينة صغيرة منقسمة إلى قسمين: الأعلى والأدنى؛ فالحارة العليا هي الحارة القديمة والحارة السفلى هي الحارة العصرية. وأراضي هذه البلدة بسائط لا نهاية لها، فهي اسم على مسمًّى. وفي ما بعد البسيط إلى الشمال قناة ماء تسمَّى قناة «سان جورج»، وقناة أخرى تسمى قناة «ماريا كريستيا»، تنحدر مياهها إلى مستنقعات واقعة في أراضي البسيط، تتولد منها حميَّات. ثم وصلنا إلى «مينَيَّا»، وفي الساعة الرابعة وصلنا إلى «الروضة»، ثم في الرابعة ونصف الساعة وصلنا إلى بلدة يقال لها: «فيلَّا روبلادو Villarrobledo»، وفي هذه البلدة عشرة آلاف نسمة، وفيها شجر البلوط بكثرة، ومنه اشتق اسمها. والأرض هناك سهول مد النظر.

ثم وصلنا إلى بلدة اسمها «سوق وليم»، وبالإسبانيولي Socuéllamos، ثم مررنا ببلدة اسمها «كريبتانا Criptana»، وهي قصبة فيها ثمانية آلاف نسمة، وفيها مطاحن كثيرة وزراعة، ولكن سوق وليم فيها حراج من شجر البلوط له ثمر حلو مرغوب فيه، ثم وصلنا إلى مدينة «القصر Alcazar de San Juan»، منها يذهب الخط الحديدي إلى الأندلس؛ أي إلى جنوبي إسبانية. وسبب تسمية هذه البلدة بالقصر هو أن العرب كانوا بنوا فيها حصنًا عظيمًا، ثم لما استرجع الإسبانيول بلاد الأندلس جعل فرسان ماريوحنا مقرَّهم في هذا الحصن، واليوم سكان هذه البلدة اثنا عشر ألفًا، وفيها معامل لاستخراج البوتاس والسودا؛ لأن هذين المعدنين يوجدان في جوارها، وفيها تجارة عظيمة للخمر. ثم في نحو الساعة السادسة ونصف الساعة وقف بنا القطار في «عَرَنْجَوِيز» ا.هـ.

وأضيف إلى ذلك أنه من بلدة القصر إلى الشمال يمر المسافر على بلدة يقال لها «فيلَّاكانا Villacanas»، وهي صغيرة، ستة أو سبعة آلاف نسمة، معيشة أهلها من الغنم، وأرضها ليست بِعِذى، بل هي تشرب من الجداول، ومنها إلى الشمال بلدة يقال لها القصر أيضًا El Caser، وعلى مقربة من هناك أعلى موقع تجري منه مياه نهر تاجُه ونهر وادي آنة. ثم يصل المسافر إلى بلدة يقال لها «قسطيلَّاجو Castillego»، وفي جوارها معدن الجفصين، وبعد ذلك إلى الشمال بلدة «قونكة»، وقد تقدم ذكرها.

جاء في جغرافية الشريف الإدريسي: من مدينة مرسية إلى مدينة بلنسية خمس مراحل، ومن مرسية إلى جنجالة خمسون ميلًا، وقال: إن مدينة جنجالة متوسطة القدر حصينة القلعة منيعة الرقعة، ولها بساتين وأشجار، وعليها حصن حسن، ويعمل بها من وطاء الصوف ما لا يمكن صنعه في غيرها بإتقان الماء والهواء، ولنسائها جمالٌ فائق. ومن جنجالة إلى قونكة يومان، وهي مدينة أزلية على منقع ماء مصنوع قصدًا ولها سور وليس لها ربض، ويصنع بها من الأوطية المتخذة من الصوف كل غريبة. ا.هـ.

وكثرة الصوف في تلك الجهات جعلت صناعة هذه الأوطية غاية في الإتقان. ثم إنه من عرنجويز إلى مجريط مسافة خمسين كيلومترًا.

شاطبة

هي على مسافة ٥٦ كيلومترًا من بلنسية، ليس فيها اليوم أكثر من ١٣ ألف نسمة، ولها موقع بديع إلى الشمال بحذاء جبل «برنيسا»، وفيها جندل عظيم مشقوق، وعلى كل من شقَّيه حصن والبلدة أيبيرية، وكان الرومانيون يقولون لها «سيتابيس» Soetabis، وكان فيها مركز أسقفية في زمان القوط، وقد استرجعها من أيدي المسلمين جاك الأول — ملك أراغون — وذلك سنة ١٢٤٤ للمسيح، ومن هذه البلدة خرج ألفونس بورجا Borjia، وجاء إلى إيطالية مستشارًا للملك ألفونس الأول صاحب نابولي. ثم إنه في سنة ١٤٥٥ انتُخب هذا الرجل لكرسي البابوية وسمِّي كالِكستُس الثالث، وكان هو المؤسس للعائلة الشهيرة آل بورجيا Borgia، ومن هذه العائلة خرج رودريق بورجيا المولود في شاطبة سنة ١٤٣١، وهو الذي صعد على عرش البابوية باسم إسكندر السادس، وكان له تاريخ طويل عريض وأحوال في سيرته الشخصية لا محل هنا للإشارة إليها لخروجها عن موضوع هذا الكتاب. وكان له ولد اسمه يوحنا، ولد بغير صورة شرعية لأبيه البابا إسكندر. ويوحنا المذكور هو أصل العائلة المسماة عائلة دوق غانديا، ومن هذه العائلة خرج كثير من آباء الكنيسة الكاثوليكية أشهرهم القديس فرنسيس بورجيا.

وقد جاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية عن شاطبة Jativa ما يلي محصَّله: أن ارتفاع شاطبة عن سطح البحر لا يزيد على ١١٥ مترًا، وسكانها اليوم لا يزيدون على اثني عشر ألفًا، وكانت في القرون الوسطى مشهورة بمعامل الكاغد، يحمل منها إلى كل إسبانية وإلى مصر، ولا تزال مخطوطات كثيرة يعرف ورقها بالورق الشاطبي، ويقال له في المغرب: الشاطبي، وهو نوع من الورق معروف. وبقيت في شاطبة آثار من زمان الرومان. ونقل المقري في النفح أبياتًا لأبي عامر البُرياني يصف فيها التمثال الذي كان بشاطبة (تقدم ذكر هذه الأبيات)، وشاطبة بموقعها الطبيعي كانت من أعظم حصون الأندلس، فكانت

قابضة من أعالي صخرتها على ناصية ذلك المرج الفسيح الخصيب الذي بحذائها، ولا تزال بقايا حصن شاطبة تدل على عظمة أثرية عظيمة، بالرغم مما شال الإسبانيول وحطُّوا منذ استرجاعهم إسبانية إلى اليوم.

وقد ذكر أبو الفداء ثلاثة متنزهات في شاطبة: «البطحة» و«الغدير» و«العين الكبيرة». ولما كانت شاطبة على مقربةٍ من بلنسية كان لا بد لها من أن تشاطر حظ بلنسية في مصيرها السياسي، وكانت هي المدينة الثانية في الخطة البلنسية، وكان أهلها في زمان العرب أكثر جدًّا مما هم اليوم، وبقيت طول مدة الخلافة الأموية ليس لها كبير ذكر إلى أن انحلَّت الخلافة وتولاها حفيد الحاجب الشهير المنصور بن أبي عامر، وهو عبد العزيز بعد الصقلبيين المبارك والمظفر.

ولما استولى القادر بن ذي النون على شاطبة بمعاونة ملك قشتالة أراد أن يستولي على شاطبة فساق إليها جيشًا، فرجع عنها بخُفيْ حنين، وجاء المنذر بن المقتدر بن هود — ملك لاردة ودانية وطرطوشة — فحمى شاطبة مدة من الزمن، ثم وقعت في يد ابن تاشفين — سلطان المرابطين — بعد وقعة الزلَّاقة. ثم استولى على شاطبة جاك الأول — ملك أراغون — سنة ١٢٣٩ المسيحية، فأخرج المسلمين منها جميعًا سنة ١٢٤٧. ا.هـ.

وقال الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق: ومدينة شاطبة مدينة حسنة، ولها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمنعة، ويُعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمغمور الأرض ويعم المشارق والمغارب. ا.هـ.

ثم إن صاحب نفح الطيب ذكر شاطبة فقال: فمن أعمال بلنسية شاطبة التي يضرب بحسنها المثل، ويعمل بها الورق الذي لا نظير له، ثم قال في محلٍّ آخر:

نعم ملقى الرحل شاطبة ... لفتًى طالت به الرُّحَلُ
بلدة أوقاتها سحرٌ ... وصَبًا في ذيله بللُ
ونسيم عَرفه أرِجٌ ... ورياض غصنها ثِملُ
ووجوه كلها غررٌ ... وكلام كله مثلُ

وقال ياقوت في المعجم: شاطبة — بالطاء المهملة والباء الموحدة — مدينة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، وهي مدينة كبيرة قديمة قد خرج منها خلق من الفضلاء، ويُعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس. يجوز أن يقال: إن اشتقاقها من الشطبة وهي السَّعَفَة الخضراء الرطبة، وشطبت المرأة الجريدة شطبًا: إذا

شقَّقَتْها لتعمل حصيرًا، والمرأة شاطبة، قال الأزهري: شطب: إذا عدل، ورمية شاطبة: عادلة عن القتل. وممن ينسب إلى شاطبة عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة أبو محمد السعدي الأندلسي الشاطبي، قال ابن عساكر: قدم دمشق طالبَ علم، وسمع بها أبا الحسن بن أبي الحديد، وعبد العزيز الكتَّاني، ورحل إلى العراق، وسمع بها أبا محمد الصريفيني، وأبا منصور بن عبد العزيز العكبري، وأبا جعفر بن مسلمة، وصنَّف غريب حديث أبي عبد الله القاسم بن سلام على حروف المعجم، وجعله أبوابًا، وتوفي في شهر رمضان سنة ٤٦٥ في حوران.

ومنها أيضًا أحمد بن محمد بن خلف بن محرز بن محمد أبو العباس المالكي الأندلسي الشاطبي المقرئ، قدم دمشق وقرأ بها القرآن المجيد بعدة روايات، وكان قرأ على أبي عبد الله الحسين بن موسى بن هبة الله المقرئ الدينوري، وأبي الحسن علي بن مكوَّس الصقلي، وأبي الحسن يحيى بن علي بن الفرج الخشَّاب المصري، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المالكي المحاربي المقري، وصنف كتاب المقنع في القراءات السبع، قال الحافظ أبو القاسم: وأجاز في مصنَّفاته وكتب سماعاته سنة ٥٠٤، وكان مولده في رجب سنة ٤٥٤ بالأندلس، وقال أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي في وصف شاطبة:

شاطبة الشرق شرُّ دارٍ ليس لسكانها فلاحُ
الكسب من شأنهم ولكنْ أكثر مكسوبهم سُلاحُ

(بضم السين). ا.هـ.

قلنا: ليس اشتقاق شاطبة من الشطبة ولا من الشطب؛ فإن هذا عربي واسم شاطبة في أصله ليس بعربي؛ إذ كان الرومانيون يقولون لهذه البلدة «سيتابي»، فلما جاء العرب، وكان يغلب عليهم تحويل السين إلى الشين، حرَّفوها إلى شاطبة تبعًا للأوزان العربية.

وقال القلقشندي في صبح الأعشى: مدينة شاطبة — بفتح الشين المعجمة وألف بعدها طاء مهملة مكسورة ثم باء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر — هي مدينة عظيمة لها معقل في غاية الامتناع وعدة مستنزهات منها البطحاء والغدير والعين الكبيرة، وإليها ينسب الشاطبي صاحب القصيدة في القراءات السبع، وقد صارت الآن مضافة إلى ملك برشلونة في يد صاحبها. ا.هـ. وكان صاحب صُبح الأعشى من أهل أواخر القرن الثامن

للهجرة؛ أي إنه لما كتب صبح الأعشى كان قد مضى على سقوط شاطبة في أيدي أصحاب أراغون وبرشلونة نحو من مائة وثمانين سنة.

وأهم شارع في شاطبة هو المسمَّى بشارع منكادة، منه يفيض المسافر إلى المكان الذي يقال له «أوفالو Ovalo»، فيرى العين المسمَّاة «عين الخمسة والعشرين ميزابًا»، وفيها كنيسة اسمها «سان فليو San Feliu»، وهي كنيسة قديمة طرز بنائها عربي، وبالقرب منها دير اسمه «مونت سانت»، فيه صهريج من زمان العرب. وأما أعجوبة شاطبة فهي الحصن المشرف عليها، كانوا يعتقلون فيه مشاهير الرجال، ومن جملة من اعتقل فيه ورثة تاج أراغون عندما اعتدى عليهم شانجُه الرابع سنة ١٢٨٤، ثم دوق كالبره ولي عهد نابولي في زمان فرديناند الكاثوليكي زوج إيزابلَّا.

ومن شاطبة يذهب الخط الحديدي إلى الجنوب الغربي فيدخل في وادي منتيشة، ويقطع النهر على جسر طوله ٥٦ مترًا، ثم يمر على الكدية ومنتيشة، وعلى بلادٍ أخرى من جملتها البونت كما تقدم الكلام عليه، ومن هناك إلى مجريط.

من انتسب إلى شاطبة من أهل العلم

منهم أبو الربيع سليمان بن مُنخَّل النفزي، صحب أبا عمر بن عبد البر، وكان فقيهًا خطيبًا، توفي سنة ٤٥٦، ذكره ابن بشكوال في الصلة نقلًا عن ابن مدير.

وسيِّد بن أحمد بن محمد الغافقي أبو سعيد، نزل شاطبة، سمع بقرطبة من أبي محمد الأصيلي، وأبي عمر بن المكوي، كان من أهل الأدب، أخذ عنه أبو القاسم بن مدير، وتوفي سنة ٤٥٤.

وأبو زكريا يحيى بن أيوب بن القاسم الفهري، روى عن أبي الحسن طاهر بن مفوَّز، ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٥، وحج وأخذ عن أبي العز الجوزي وغيره بمكة، ترجمه ابن بشكوال في الصلة.

وأبو الحجاج يوسف بن القاسم بن أيوب الفهري، حدَّث عن أبي الحسن طاهر بن مفوَّز وعن غيره، وكان ثقةً في روايته، وروى الناس عنه، وهو من بيت نباهةٍ وديانة.

وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن جحدر الأنصاري، روى عن أبي الحسن طاهر بن مفوَّز، وأبي عبد الله محمد بن سعدون، وغيرهما، وكان حافظًا للفقه بصيرًا بالفتوى ثقة ضابطًا، واستقضي ببلده شاطبة، وتوفي مصروفًا عن القضاء سنة ٥١٤.

وأبو عبد الرحمن حيدرة بن مفوَّز بن أحمد بن مفوَّز بن عبد الله بن مفوَّز بن غفول بن عبد ربه بن صواب بن مدرك بن سلَّام بن جعفر الداخل إلى الأندلس المعافري،

سمع أخاه أبا الحسن الطاهر بن مفوَّز، وكان من عباد الله الصالحين، يحسن تعبير الرؤيا، وابنه أبو بكر محمد بن حيدرة من مفاخر الأندلس، ترجمه ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو القاسم خلف بن محمد بن غفول الشاطبي كان من أصحاب طاهر بن مفوَّز المختصِّين به، وسمع من غيره، وانتقل إلى فاس فسكنها إلى أن توفي بها بعد سنة ٥٢٠، قاله ابن بشكوال.

وأبو بكر بيبش بن عبد الله بن بيبش القاضي بشاطبة، فقيه محدِّث عارف عدل في أحكامه مُعان على تغيير المنكر، قال ابن عميرة في بغية الملتمس: صحبته فحمدته، توفي بعد الثمانين وخمسمائة.

وأبو حامد شاكر بن خيرة العامري مولى لهم، نشأ بشاطبة، وقرأ على أبي عمرو المقرئ، وتوفي بعد السبعين والأربعمائة، رواه ابن بشكوال عن ابن مدير.

وأبو الحسن طاهر بن مفوَّز بن أحمد بن مفوَّز المعافري، روى عن أبي عمر بن عبد البر الحافظ الكبير، واختص به، وهو أثبت الناس فيه، وسمع من أبي العباس العذري، وأبي الوليد الباجي، وأبي شاكر الخطيب، وأبي الفتح السمرقندي وغيرهم، عني بالحديث عنايةً كاملة، وشهر بحفظه وإتقانه، وكان حسن الخط جيِّد الضبط مع الفضل والصلاح والورع والانقباض والتواضع، وله:

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البريَّه
اتقِ المشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملنَّ بنيَّه

وهارون بن أحمد بن عات من أهل شاطبة، فقيه عارف من أهل بيت جلالة وعلم، توفي بعد الخمسمائة عن بغية الملتمس لابن عميرة الضبِّي.

وخلف بن موسى بن أبي تُليد الخولاني، واسم أبي تُليد خصيب بن موسى من أهل شاطبة، وهو جد أبي عمران بن أبي تُليد، سمع من عبد الوارث بن سفيان بقرطبة، وحدَّث عنه ابنه أبو المطرِّف عبد الرحمن، ذكره ابن الدبَّاغ، وقرأه ابن الأبَّار بخط ابن حُبيش.

وأبو القاسم خلف بن مفرج بن سعيد الكناني من أهل شاطبة، يعرف بابن الجنَّان، روى عن أبي الوليد الباجي، وأبي عبد الله بن سعدون القروي، وأبي الحسن طاهر بن مفوَّز، ووليِّ القضاء بإحدى الكور الشرقية لأبي أميَّة بن عصام، وكان فقيهًا مشاورًا، حدَّث ودرَّس ببلده، روى عنه أبو عبد الله بن مغاور، وأبو محمد بن مكي، وغيرهما.

وأبو محمد طلحة بن يعقوب بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الأنصاري، أهل شاطبة، وأصله من جزيرة شقر، روى عن أبيه وغيره، وكان كاتبًا بليغًا شاعرًا، أخذ عنه الخطيب أبو محمد بن برتلُه وغيره، وتوفي في رمضان سنة ٦١٨، عن ابن الأبَّار في التكملة.

والطيب بن محمد بن عبد الله بن مفوَّز بن غفول المعافري، سمع من أبيه كثيرًا، ورحل إلى قرطبة، فسمع من مشيخة وقته كالقاضي أبي عبد الله بن مفرِّج، ومسلمة بن بُترى، وغيرهما، نقله ابن الأبَّار من خط طاهر بن مفوَّز.

وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن مُعافى، روى عن أبي عبد الله بن الفخَّار، وعن أبي عمر بن عبد البر، وله رحلة إلى المشرق حج فيها وصحب العلماء، وأخذ الناس عنه، وتوفي سنة ٤٥٤، وقيل سنة ٤٥٣، وتولى غسله والصلاة عليه أبو محمد بن مفوَّز الزاهد.

وأبو محمد عبد الله بن مفوَّز بن أحمد بن مفوَّز المعافري، روى عن أبي عمر بن عبد البر كثيرًا، ثم زهد فيه لصحبته السلطان، وأخذ عن أبي العباس العذري، وأبي تمام القطيني، وكان من أهل العلم والفهم والصلاح والورع والزهد مشهورًا بذلك، توفي سنة ٤٧٥، ترجمه ابن بشكوال.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن دُرِّي التجيبي المعروف بالركلي (نسبة إلى ركلة من قرى الثغر الأعلى)، سكن شاطبة، روى عن أبي الوليد الباجي، وأبي مروان بن حيَّان، وغيرهما، وكان من أهل الأدب، قال ابن بشكوال: وسمع منه أصحابنا ووثَّقوه، وتوفي سنة ٥١٣، وقد ترجمه أيضًا ابن عميرة في بغية الملتمس.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن أيوب الفهري، سمع من أبي الحسن بن مفوَّز، ومن أبي الحسن بن الروش، وسمع من جماعة من شيوخ شرق الأندلس، وسمع بقرطبة. قال ابن بشكوال: وحدثنا بحديث مسلسل عن أبي الحسن طاهر بن مفوَّز، وأخذ عنه الناس في كل بلد قَدِمَهُ، ووفاته بشاطبة في شعبان سنة ٥٣٠، أخبرني بوفاته أبو جعفر بن بقاء صاحبنا، وذكر لي أنه شاهدها. ا.هـ.

وعبد الله بن يوسف بن ملحان كان خيِّرًا فقيهًا رفيعًا عند أهل بلده شاطبة، تولَّى القضاء عندهم، وتوفي عند الثلاثين والأربعمائة، نقله ابن بشكوال عن ابن مدير.

وأبو محمد عبد الله بن أيوب الشاطبي الفهري، فقيه محدِّث، توفي بشاطبة سنة ٥٣٠ وقد قارب السبعين، ذكره ابن عميرة في بغية الملتمس.

وأبو المطرِّف عبد الرحمن بن خلف بن موسى بن أبي تُليد، روى عن أبي عبد الله بن الفخَّار، وسمع كثيرًا من أبي عمر بن عبد البر، وتوفي سنة ٤٧٥ بحسب قول ابن مدير، وقال أبو عمران بن المترجم: إنه توفي سنة ٤٧٤.

وأبو محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز بن ثابت الأموي، الخطيب بالمسجد الجامع بشاطبة، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وعن أبي العباس العذري، وكان رجلًا فاضلًا زاهدًا ورعًا منقبضًا، قال ابن بشكوال: سمع منه جماعة من أصحابنا، ورحلوا إليه، واعتمدوا عليه، ووصفوه بما ذكرنا من حاله، وقال لي بعضهم: توفي سنة ٥٠٩، وقال ابن عميرة في «البغية»: إنه توفي سنة ٥١٠، ومولده سنة ٤٤٦، وقال لي أبو الوليد صاحبنا وأملاه عليَّ: قال لي أبو محمد الخطيب هذا: زارنا أبو عمر بن عبد البر في منزلنا فأنشد وأنا صبي صغير فحفظته من لفظه:

ليس المزار على قدر الوداد ولو كانا كفيَّيْن كنا لا نزالُ معا

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الله بن الغازي، من أهل شاطبة، حدَّث بالمرية، وتوفي بها سنة ٤٩٣، وكان قد سمع من طاهر بن مفوَّز، ومن أبي الوليد الكناني، وأجاز له ابن عبد البر.

وأبو الحسن علي بن سيد بن أحمد الغافقي، روى عن أبي القاسم بن عمر، وتوفي سنة ٤٧٥.

وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بني أحمد الأنصاري المقرئ المعروف بابن الروش من أهل شاطبة، أصله من قرطبة، روى عن أبي عمرو المقري، وعن أبي عمر بن عبد البر، وغيرهما، وأقرأ الناس القرآن، وأسمعهم الحديث، وكان ثقة ثبتًا ديِّنًا فاضلًا، قال ابن بشكوال في الصلة: قرأت بخط القاضي أبي عبد الله بن أبي الخير: توفي المقري أبو الحسن بشاطبة يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس لأربع خلون من شعبان سنة ٤٩٦.

وأبو الحسن عبَّاد بن سرحان بن مسلم بن سيِّد الناس المعافري من أهل شاطبة، سكن العدوة، وكان روى ببلده عن طاهر بن مفوَّز، ورحل إلى المشرق حاجًّا، وأخذ بمكة عن أبي الحسين المبارك بن الصيرفي، وأبي محمد رزق الله التميمي، وأبي بكر ترخان، وأجاز له أبو عبد الله الحُميدي. قال ابن بشكوال: قدم علينا قرطبة سنة ٥٢٠ فسمعنا منه، وأجاز لنا بخطه ما رواه، وكانت عنده فوائد، وكان يميل إلى مسائل الخلاف ويدَّعي

معرفة الحديث ولا يحسنه — عفا الله عنه — وكان مولده سنة ٤٦٤، وتوفي بالعدوة في نحو سنة ٥٤٣.

وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر الشاطبي، وكان لغويًّا أديبًا نحويًّا محدثًا، ألَّف كتبًا كثيرة في اللغة والأدب والتاريخ والحديث، قال ابن عميرة في بغية الملتمس: حدثني عنه أبو محمد عبد المنعم بن محمد قال: جالسته وناولني بعضها.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عياض الشاطبي، فقيه محدِّث، يروي عن القاضي أبي علي بن سكَّرة.

وموسى بن عبد الرحمن بن خلف بن أبي تُليد، فقيه حافظ، محدِّث مشهور، يروي عن أبي عمر بن عبد البَر، ويروي عنه أبو الوليد بن الدبَّاغ الحافظ، مولده سنة ٤٤٤، وتوفي سنة ٥١٧.

وأبو بكر محمد بن حيدرة بن أحمد بن مفوَّز المعافري، روى عن عمه أبي الحسن طاهر بن مفوَّز، وأبي علي حسين بن محمد الغسَّاني، وعن أبي مروان بن سراج، وأبي عبد الله بن فرج الفقيه، وأجاز له القاضيان أبو عمر بن الحذَّاء، وأبو الوليد الباجي، وكان حافظًا للحديث وعلله، عارفًا بأسماء رجاله متقنًا لما كتبه، وكان من أهل المعرفة بالأدب والعربية، وأسمع الناس بالمسجد الجامع بقرطبة وأخذوا عنه، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٠٥، ودفن بالربض، وكان مولده سنة ٤٦٣ عن ابن بشكوال.

وأبو عامر محمد بن حبيب بن عبد الله بن مسعود الأموي، روى عن أبي الحسن بن مفوَّز، وأبي داود المقري، وأبي عبد الله بن سعدون القروي، قال ابن بشكوال: كتب إلينا بإجازة ما رواه بخطه، وسمع منه أصحابنا، ووصفوه بالجلالة والنباهة والفضل والديانة، وتوفي بشاطبة سنة ٥٢٨.

وأبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن خلف بن موسى بن أبي تُليد، روى عن أبي عمر بن عبد البَر، وكان فقيهًا مفتيًا ببلده شاطبة، أديبًا شاعرًا ديِّنًا فاضلًا. قال ابن بشكوال: أنشدنا صاحبنا أبو عمرو زياد بن محمد، قال: أنشدنا أبو عمران لنفسه:

حالي مع الدهر في تقلُّبه ... كطائر ضمَّ رجله شركُ
همُّه في فكاك مهجته ... يروم تخليصها فتشتبكُ

حدَّث عنه جماعة من أصحابنا ورحلوا إليه ووثَّقوه، وكتب إلينا بإجازة ما رواه، وتوفي — رحمه الله — في ربيع الآخر سنة ٥١٩، ومولده سنة ٤٤٤.

وأبو عبد الرحمن مطرِّف بن ياسين، سمع من ابن عبد البَر، وابن معافى، وأبي محمد بن مفوَّز، وعُني بالقرآن والحديث، وتوفي سنة ٤٨١ وقد قارب السبعين، ترجمه ابن بشكوال.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مفوز بن غفول بن عبد ربه بن صواب بن مدرك بن سلَّام بن جعفر الداخل إلى الأندلس المعافري، من أهل شاطبة، رحل إلى قرطبة، لازم أبا الحزم وهب بن مسرَّة وسمع منه سماعًا كثيرًا وأجاز له، ولما ودعه قال له: أوصني. قال له: أوصيك بتقوى الله العظيم وحزبك من القرآن وبر الوالدين. ثم رحل إلى المشرق حاجًّا، فكتب بالقيروان عن أبي العباس بن أبي العرب، ثم سار إلى بلده شاطبة، فكان منقطع القرين في الزهد والعبادة، متقللًا من الدنيا، كثير الصلاة والصوم، دءوبًا على تلاوة كتاب الله، وكان مُجاب الدعوة، اشتهر بذلك، توفي — رحمه الله — سنة عشر أو أول سنة ٤١١ وقد قارب المائة، نقل ابن الأبار خبره من خط طاهر بن مفوَّز، وعن ابن عبد السلام الحافظ، وقال: إن ابن بشكوال جعله من أهل قرطبة وغلط في ذلك.

وأبو عبد الله محمد بن أيوب بن القاسم الفهري، سمع أبا الحسن طاهر بن مفوَّز وصحبه، وأحضر ابنه أبا محمد عبد الله للسماع معه، وذلك بمسجد ابن وضَّاح من شاطبة سنة ٤٨٣، وله سماعٌ كثير من طاهر، وكان نبيهًا فاضلًا، قاله ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن خَلَصَةَ المعافري، سمع من أبي عمر بن عبد البَر ونظرائه، ورحل حاجًّا فلقي بمكة أبا الحسن علي بن المفرِّج الصقلي، وسمع منه صحيح البخاري، ولقي بها أيضًا أبا محمد هيَّاج الحطِّيني؛ فأخذ عنه كتاب الزهد لهنَّاد بن السري، وذلك في سنة ٤٦٤، ثم لقي بالإسكندرية أبا القاسم شعيب بن سبعون العبدري الطرطوشي سنة ٤٦٩، فسمع منه بها مشاهد ابن إسحاق، وصدر إلى الأندلس، وأخذ عنه الجِلَّة مثل أبي الحسن طاهر بن مفوز، وأبي إسحاق بن جماعة، وأبي الحجاج بن أيوب، وغيرهم، وتوفي في نحو التسعين والأربعمائة، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عيَّاد، ومن خط طاهر بن مفوَّز.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن محمد الأنصاري، يعرف بابن الصيقل صحب طاهر بن مفوز، وأبا عبد الله بن سعدون، وأبا علي الجيَّاني، ودخل سجلماسة، فسمع بها من أبي محمد بن الغرديس صاحب أبي ذر الهروي، وتوفي بمدينة فاس بعد سنة خمسمائة، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن خلف، روى عن أبي الحسن بن الدوش وغيره، ذكره ابن الأبار في التكملة كما ذكر أكثر هؤلاء.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عياض المخزومي، يعرف بالمنتيشي نسبةً إلى قرية مصاقبة لشاطبة، أخذ القراءات عن أبي داود المقري، وأبي الحسن بن الدوش، وغيرهما، وسمع الحديث من أبي علي الصدفي، وأبي بكر بن العربي، وغيرهما، وأخذ عن أبي بكر بن مفوَّز، وتصدَّر للإقراء بشاطبة فأخذ عنه الناس، وكان عالمًا بتفسير القرآن يقعد لذلك في كل جمعة، من الحظ الوافر من البلاغة، وتوفي بشاطبة سنة ٥١٩ وسنه فوق الأربعين، قال ابن الأبار: ونسبة المقامة العياضية إليه غلط، إنما هي لمحمد بن عيسى بن عياض القرطبي.

وأبو عبد الله محمد بن منخَّل، يعرف بالحداد، صحب طاهر بن مفوز وأكثر عنه، ذكره ابن الدبَّاغ في شيوخه، وترجمه ابن الأبار في التكملة.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن منخَّل بن محمد بن مشرَّف النفزي، أخذ بقرطبة عن أبي القاسم بن النحاس قراءة نافع، وقرأ التيسير لأبي عمرو المقرئ على أبي محمد بن سعدون الوشقي الضرير، ولما اجتاز أبو علي الصدفي بشاطبة إلى غزوة كُتَنْدَة التي فُقد فيها أخذ المترجم عنه.

وأبو عبد الله محمد بن مغاور بن حكم بن مغاور السلَمي من أهل شاطبة، وأصل سلفه من غرب الأندلس، روى عن أبيه، وأبي جعفر بن جحدر، وأبي عمران بن أبي تُليد، وأبي علي الصدفي، وأبي محمد الركلي، وأبي بكر بن العربي، وأبي القاسم بن الجنَّان، وأبي الوليد بن قيرون اللاردي، وغيرهم، وأجاز له ابن الدوش، وابن ورد، وكان فقيهًا عالمًا بصيرًا بعقد الشروط، رأسًا في الفتوى، وصدرًا في أهل الشورى، يتحقق بالفقه ويشارك بالحديث والأدب مع الحلم والوقار، توفي ثامن شوال سنة ٥٣٦ وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن خلف بن أبي الفرج التجيبي المقرئ، أخذ القراءات عن ابن شفيع وبعضها عن ابن الدوش، وروى عنه ابنه عبد الله، وتوفي في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، ومولده حول سنة ٤٦٠.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أبي العاصي النفزي الضرير، يكنَّى بابن اللايُه، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعيد بدانية، وتصدر ببلده للإقراء. قال ابن الأبار: ومنه أخذ شيخنا أبو عبد الله بن سعادة المعمَّر، وأبو محمد قاسم بن فيره، وقال فيه القاضي أبو بكر مفوَّز بن مفوَّز: هو من شيوخي في القرآن، وكان من أهل الدين والفضل والمعرفة بالقراءات وطرقها.

وأبو بكر محمد بن عبد العزيز بن يونس بن ميمون اليحصبي، سكن شاطبة، وهو من «أَنْتُنْيَان» من عملها، وكان ينسب إليها، له رحلة إلى الشرق حج فيها، روى بيتين لبعض المصريين لا بأس بنقلهما:

أكثرت من زورِه فملَّك وزدت في الوصل فاستقلَّك
لو كنت ممن يزور غِبًّا آثر في قلبه محلَّك

وأبو عامر محمد بن علي العَكِّي، ويعرف بابن مُنْكَرَال، روى عن ابن الدوش، وابن أبي تُليد، وأبي محمد الركلي، وأبي علي الصدفي، وكان شيخًا صالحًا معنيًّا بالآداب والأخبار ثقةً عدلًا، وعنه أخذ أبو بكر بن مفوز، وكان من المعرفة والديانة بمكان، وتوفي بشاطبة سنة ٥٤١ عن ابن الأبار.

وأبو عامر محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن اليحصبي، من أهل شاطبة، يعرف بابن حنان، سمع أبا عمران بن أبي تُليد، وأبا جعفر بن جحدر، وأبا علي بن سُكَّرة في اجتيازه بهم غازيًا إلى كتُندة، وأبا الحسن طارق بن يعيش في بلنسية، وكانت له نباهة في بلده وعناية بالرواية، ولم يذكر ابن الأبار سنة وفاته.

وأبو عامر محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن يَنَّق، قرأ القرآن على أبي عبد الله محمد بن فرج المكناسي، وسمع الحديث من أبي علي الصدفي، ورحل إلى قرطبة، فروى بها عن أبي الحسين بن سراج وطبقته، ومال إلى الأدب والعربية والعروض؛ فمهر في ذلك وبلغ الغاية من البلاغة في الكتابة والشعر، ولقي أبا العلاء بن زهر فلازمه مدة، وأخذ عنه علم الطب وحذا حذوه؛ فمال الناس إليه، وساعده الجد فبَعُد صيته في الطب مع المشاركة في علوم عدَّة، وكان محببًا في بلاده معظَّمًا جميل الرواء وافر المروءة، ما باع شيئًا قط ولا اشترى مباشرًا ذلك بنفسه، كثير اللزوم لداره، مشتغلًا بالعلم، وله تأليف كبير في الحماسة، وآخر في ملوك الأندلس والأعيان والشعراء بها، وأنشأ خطبًا عارض بها ابن نباتة، حدَّث عنه أبو عبد الله المكناسي، توفي آخر سنة ٥٤٧، ومولده سنة ٤٨٢، نقل ابن الأبَّار أكثر أخباره هذه عن ابن سفيان.

وأبو عامر محمد بن عبد الله بن خلف بن سوار، من أهل شاطبة، سكن دانية، له رواية عن الأستاذ أبي الحسن الشقَّاق أحد أصحاب أبي عمر بن عبد البر، وكان أديبًا شاعرًا من بيت نباهة وأدب، ترجمه ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن خلف النفزي، يعرف بابن بركة، سمع ببلده شاطبة من أبي عمران بن أبي تُليد، وأبي محمد بن ثابت، وأبي جعفر بن جحدر، وأبي جعفر بن غزلون، وأبي القاسم بن الجنَّان، ورحل في شبابه إلى مرسية، فسمع بها من أبي علي الصدفي، وأخذ عن أبي الحسن مغاور بن حكم القراءاتِ السبعَ، وكان فقيهًا حافظًا للمسائل، بصيرًا بالفتوى، نافذًا في عقد الشروط، يسرد متون الأحاديث، ويستظهر المقدمات لابن رشد، تولَّى خطة الشورى ببلده ورأس فيها.

قال ابن عيَّاد: سمعت ابن الدبَّاغ أبا الوليد يقول: أبو عبد الله بن بركة حافظ للمسائل، فذكرت ذلك لابن بركة فسُرَّ به، وترحَّم على أبي الوليد. وكان المترجم متقللًا من الدنيا على كثرة ما نال منها، مقتصرًا على بُلغة كانت بيده وَرِثَها عن أبيه محببًا إلى الخاصة والعامة، قال ابن الأبَّار: حدَّثنا عنه من شيوخنا عبد الله بن سعادة المعمَّر، وابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد النحوي، توفي سنة ٥٥٢ على رواية ابن سفيان، وقال ابن عياد: محمد توفي سنة ٥٥٣ لأربع مضين من جمادى الأولى منها، ومولده في جمادى الأولى سنة ٤٨١.

وأبو بكر محمد بن عبد الله بن سفيان بن سيدالَه التجيبي، من أهل شاطبة، أصله من قونكة، روى عن أبي القاسم بن الجنَّان، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، وغيرهما، وتفقَّه بصهره أبي بكر بن أسد ولازمه، وبأبي عبد الله بن مغاور، وكتب إليه أبو بكر بن العربي، وكان عارفًا بالخبار، حافظًا لأسماء الرواة، له مجموع في رجال الأندلس وصل به كتاب ابن بشكوال، ذكر ذلك ابنه أبو محمد عبد الله، وسمَّاه في مشيخته، وقال: توفي سنة ٥٥٨.

وأبو عبد الله محمد بن خلف بن عبد الرحمن، من أهل شاطبة، يعرف بالسلجماسي، روى عن أبي إسحاق بن جماعة، وكانت له رحلة حج فيها، ولقي بالإسكندرية أبا القاسم بن جارة، فحمل عنه كتاب المصابيح لأبي محمد الخراساني، ذكره ابن عيَّاد وقال: لم يكن له اعتناء بالحديث، توفي بشاطبة سنة ٥٦١، ومولده ببلنسية لسبع بقين من شوال سنة ٥٠٤، قاله ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن فرج بن سليمان بن يحيى بن سليمان بن عبد العزيز القيسي من أهل شاطبة، يعرف بابن تريس، ويشهر بالمكناسي، سمع من أبي علي الصدفي، وأبي زيد بن الورَّاق، وأبي القاسم بن الجنَّان، وأبي عمران بن أبي تُليد، وغيرهم، وأجاز له أبو بكر بن العربي، وأبو الوليد بن رشد، وأبو الحسن بن

شفيع، وأبو القاسم بن ورد، وطارق بن يعيش، ومن أهل المشرق أبو المظفَّر الشيباني، وأبو علي بن العرجاء، وروايته متسعة، وله في شيوخه مجموع سماه التعريف، وقد سمع من ابن الدبَّاغ، وحمل عن أبي إسحاق بن خفاجة منظومه ومنثوره، حدَّث عنه أبو الحجاج بن أيوب، وأثنى عليه أبو عمر بن عياد، ووصفه بالتقلل من الدنيا، وقال: إنه توفي يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة أو اثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٥٦١ وقد قارب السبعين، وروى ابن سفيان أن السلفي والمازري وغيرهما من أهل مصر والشام والحجاز كتبوا إليه، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش اللخمي، من أهل طرطوشة، سكن شاطبة، يعرف بابن الأصيلي، أخذ القراءات عن أبي علي منصور بن خير، وسمع من أبي عبد الله بن الحاج، وأبي عبد الله بن أبي الخصال، وأبي القاسم بن ورد، وأبي محمد البطليوسي، وأبي الحجاج بن يسعون، وتصدَّر بشاطبة للإقراء والتعليم، وكان موصوفًا بالمعرفة والفهم ضعيف الخط، حدث عنه أبو الحسين بن جبير، سمع منه الموطأ سنة ٥٥٧، وذكره ابن سفيان وقال: إنه توفي سنة ٥٦٦، وقال محمد بن عيَّاد: إنه توفي سنة ٥٦٧، ومولده بطرطوشة سنة ٤٩٦.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن الزبير القيسي، من أهل شاطبة، يعرف بالأغرشي؛ نسبةً إلى بعض أعمالها، روى عن أبي محمد بن جوشن وغيره، ووليِّ الصلاة والخطبة بجامع شاطبة، وكان موصوفًا بالزهد والخشوع والإخبات والبكاء، توفي سنة ٥٦٧ عن ابن الأبار.

وأبو الوليد محمد بن عريب بن عبد الرحمن بن عريب العبسي، من أهل سرقسطة، سكن شاطبة، وتولى الصلاة والخطبة بها، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الثاني من الحلل السندسية، وذلك عند الكلام على من انتسب من أهل العلم إلى سرقسطة.

وأبو عمر محمد بن أبي بكر بن يوسف بن عفيون الغافقي، روى عن أبي عبد الله بن بركة، وأبي محمد بن مكِّي، وأخذ عن هذا علم الشروط، وصحب أبا جعفر بن سلَّام، وأبا الحسين بن جبير، وغيرهما من الأدباء، وجمع شعر ابن جبير في صباه، وألف كتابًا في عجائب البحر، وكتابًا في أخبار الزهاد، وتوفي بعد سنة ٥٨٤، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مطرِّف بن أبي سهل بن ياسين النفزي، روى عن أبيه أبي زيد عبد الرحمن وغيره، وكان معدودًا من الفقهاء والأدباء، توفي في العشر الأول من رمضان سنة ٥٩٠، قال ابن الأبار في التكملة: إن جد المترجم — وهو مطرِّف بن أبي سهل — مذكور في الصلة.

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن مُخْلَد النحوي من أهل شاطبة، انتقل من بلده إلى غرب الأندلس، وله شرح في كتاب الجمل للزجَّاجي روي عنه. وما قرأنا في ترجمته أكثر من هذا.

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن بقاء اللخمي، من أهل شاطبة، يعرف بالجنجالي، أخذ القراءات عن أبي محمد قاسم بن فيره الشاطبي قبل رحلته إلى المشرق، وعن ابن حميد وابن حبيش، وأجازوا له، وتصدَّر للإقراء بشاطبة، وممن أخذ عنه القراءات الفقيه الفاضل المتصوِّف أبو عبد الله محمد بن أبي الربيع سليمان بن محمد بن عبد الملك المعافري الشاطبي نزيل الإسكندرية، أجاز له في التاسع والعشرين لذي القعدة سنة سبع وستمائة.

وأبو بكر محمد بن سليمان بن عبد العزيز بن عمر السُّلَمي، أخذ عن ابن مغاور وغيره من مشيخة شاطبة، وكان من أهل العلم والأدب عدديًّا فرضيًّا صاحب مساحة، ولي قضاء ألش من كور مرسية، وأقرأ مقامات الحريري، وسماه ابن بُرطُله في شيوخه، وكان حسن النظر في فك المعمَّى، توفي بشاطبة في عقب رجب سنة ٦١٢.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن سعادة، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، وأبي بكر بن نمارة، وأبي بكر بن سيِّد بونه وغيرهم، وأخذ الحديث عن أبي عبد الله بن سعادة، وأبي محمد بن عاشر، وغيرهما، وأخذ العربية واللغة عن ابن النعمة، وابن حميد، وابن سعد الخير، وغيرهم، وكان مقرئًا متصدِّرًا نحويًّا محققًا لغويًّا، أقرأ وأخذ الناس عنه. قال ابن الأبار: لقيته عند أبي — رحمه الله — وقد قصده زائرًا، فأجاز لي جميع روايته بسؤال أبي ذلك منه، وتلفَّظ بالإذن في التحديث عنه، وذلك قبل سنة ٦١٢ بعد سماعي من عمه شيخنا المعمَّر أبي عبد الله بن سعادة. ا.هـ. وتوفي المترجم سنة ٦١٤.

وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل، وأبي بكر بن نمارة، وأبي عبد الله الداني، وابن النعمة، وسمع من أبي عبد الله بن سعادة، وأبي حفص بن واجب، وأبي محمد بن عاشر، وأبي محمد بن عات، وكان من أهل الصلاح والقيام على كتاب الله، والإتقان للقراءة، وأسَنَّ وأخذ عنه الناس، قال ابن الأبار: قدم علينا بلنسية في أول شوال سنة ٦١٠؛ فأخذت عنه وأجاز لي ما رواه، وكان شيخنا أبو الخطاب بن واجب يوثِّقه، ويُثني عليه، ويقول بفضله، ويقدم صحبته لأبي الحسن بن هذيل وغيره من الشيوخ، توفي بشاطبة يوم الثلاثاء التاسع من شوال سنة

٦١٤ عن سن عالية بلغت المائة أو أربت عليها يسيرًا، وهو ممتع بجوارحه كلها، مولده سنة ٥١٤، وقيل سنة ٥١٦.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله النفزي، يعرف بابن قَبُّوج، أخذ عن ابن هذيل، وتفقه بأبي محمد عاشر بن محمد، وبابن عات، وكان فقيهًا جليلًا حافظًا للرأي والمسائل، ثقةً عدلًا، روى عنه جماعة منهم ابنه أبو الحسين عبيد الله، وتوفي بعد سنة ٦١٦، عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن موسى بن محمد المعروف بالقطيني، سمع من أبي الخطاب بن واجب، وأبي عمر بن عات، وأبي محمد بن حوط الله، وغيرهم من شيوخ ذلك الوقت، ولقي بمدينة فاس أبا القاسم بن الملجوم، وأخذ عن أبي الحسن بن حريق الأدب والعربية، وتوفي سنة ٦٢١، قاله ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسعود بن عبد الرحمن الأزدي، يعرف بابن صاحب الصلاة، سمع كثيرًا من ابن هُذيل، واحتيج إليه بآخرة من عمره عند انقراض تلاميذ ابن هذيل، توفي ببلنسية سنة ٦٢٥، ومولده بشاطبة في صفر سنة ٥٤٢.

وأبو القاسم محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري، يعرف بالولي، أخذ عن أبيه، وعن أبي عبد الله بن سعادة، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي عمر بن عات، وأبي جعفر بن عميرة، وأبي القاسم الطرَسُوني، وأبي الحسن بن حريق، وتصدَّر للإقراء ببلده، وأُخذ عنه، وتوفي سنة ٦٣٦.

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن أبي الحسن الكناني الضرير، يعرف بابن الأحدب، أخذ عن أبي عبد الله بن نوح، وأبي زيد بن ياسين، وأبي زكريا بن سيد بونُه الخزاعي، وأبي عبد الله بن سعادة، وغيرهم، وأقرأ القرآن دهره كله، وكان ضابطًا ماهرًا، توفي سنة ست أو سبع وثلاثين وستمائة.

وأبو عبد الله محمد بن لب بن محمد بن عبد الله بن حيرة، أخذ عن أبي عبد الله القطيني العربية وأقرأها ببلده شاطبة، وكانت وفاته فيها في نحو الأربعين وستمائة. هكذا قال ابن الأبَّار، وقد ترجمه المقري في النفح، فقال: إنه حدَّث بالقاهرة، وتوفي قريبًا من سنة ٦٤٠، وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصبَّاغ، قال: ومن كلامه: اشتغالك بوقت لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذي أنت فيه.

وأبو الحسن مغاور بن حكم بن مغاور السلمي المكتِّب، من أهل شاطبة، أصله من غرب الأندلس، وحَكَم أبوه هو المنتقلُ إلى شاطبة، أخذ عن أبي الحسن بن الدوش،

وعن ابن شفيع، وأدَّب بالقرآن وأقرأ بالسبع، وذكَّر في مسجده المنسوب بناؤه إلى واصل، حدَّث عنه ابنه محمد بن مغاور، وأبو عبد الله بن بركة، وأبو محمد بن مكِّي، وغيرهم، وتوفي بشاطبة سنة ٥٠٩.

وأبو الحسن مكِّي بن أيوب بن أحمد بن رشيق التغلبي، أصله من بجاية، أخذ القراءات عن أبي داود المقري، وأبي عبد الله المغامي، وأبي القاسم بن مدير، وابن الدوش، وابن شفيع، وطاهر بن مفوَّز، أخذ عنه ابنه أبو محمد عبد الغني بن مكي، ولم نطلع على سنة وفاته.

وأبو بكر مفوَّز بن طاهر بن حيدرة بن مفوَّز بن أحمد بن مفوَّز المعافري، قاضي شاطبة، وهو من أهلها، سمع أباه وأبا عامر بن حبيب، وأبا إسحاق بن جماعة، وأبا الوليد بن الدبَّاغ، وأبا عبد الله بن سعادة، وأبا الحسن بن أبي العيش، وأبا عبد الله بن اللايُهْ، وأبا محمد عاشر بن عاشر، وأبا عبد الله بن مغاور، وغيرهم من فحول وقته، وكتب إليه فحول آخرون من علماء الأندلس والمشرق مثل ابن مسرَّة، وابن هُذيل، وابن نمارة، وابن بشكوال، وهؤلاء من الأندلس، وأبي الطاهر بن عوف، وأبي الفضل بن الحضرمي، وأبي الطاهر السلفي، وأبي القاسم بن جارة، ولما تولَّى قضاء شاطبة حُمدت سيرته، وكان فقيهًا فصيحًا بليغًا، جميل الشارة، حسن السمت، جليل القدر، موصوفًا بالبيان والإدراك، وله حظ من قرض الشعر، قال ابن الأبَّار: أخبرنا عنه من شيوخنا أبو عامر بن نذير، وأبو ربيع بن سالم، ومن شعره:

بماذا عسى أن يمدح الورد مادح ألیس الذي أضحى مُبرًّا على الزهر
حكى لِيَ في أوراقه وغصونه خدود الغواني تحت أقنعة خضر

وله أيضًا:

وقفت على الوادي المنعم دوحه فأرسلت من دمعي هنالك واديا
وغنت به ورق الحمام عشية فأذْكرن أيامًا مضت ولياليا

قلت: أما البيت الأول في مدح الورد فهو أشبه بشعر فقيه منه بشعر شاعر. وأما الأبيات الأخرى، ولا سيما بيتا الوادي، فمن كلام الشعراء المجيدين، وفيه رقتهم وجزالتهم. توفي المترجم بشاطبة ضحى يوم الأربعاء الموفي عشرين لشعبان سنة ٥٩٠، ودفن لصلاة العصر منه بمقبرة الربض، ومولده سنة ٥١٧ بعد أخيه عبد الله بعامٍ واحد.

وأبو محمد عبد الله بن أبي القاسم الحجري المقرئ، قال عنه ابن الأبار: إنه كان زاهدًا فاضلًا، يقرئ القرآن، ويؤم في صلاة الفريضة، أخذ عنه أبو عبد الله المكناسي.

وأبو محمد عبد الله بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافري، سمع بقرطبة من أبي الحسن العبسي، وبدانية من أبي المقري، وأجاز له عمه أبو الحسن بن مفوز سنة ٤٨٢، وسمع من أبي علي الصدفي سنة ٥٠١، قال ابن الأبار: وكان عريق البيت في العلم والنباهة، ولا أعلمه حدَّث، وقد حدث أخواه أبو بكر — الإمام العلم — وطاهر.

وأبو محمد عبد الله بن عيسى بن إبراهيم، يعرف بابن الأسير، صحب أبا الحسن طاهر بن مفوَّز، وأخذ عن أبي الحسين بن البيَّاس، وحج في نحو الثمانين والأربعمائة، ثم قفل إلى الأندلس، وسمع أبا علي الصدفي سنة ٥٠٣، وكان من أهل الصلاح والخير، حسن الخط، جيد الضبط، قال ابن الأبار: ولم أقف على تاريخ وفاته.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن خلف بن موسى بن أبي تُليد الخولاني، يعرف بالحمصي، أخذ القراءات عن ابن الدوش والحديث عن طاهر بن مفوَّز، وأخذ عن ابن عمه أبي عمران بن تُليد، وعن أبي محمد الركلي، وأبي عبد الله بن عبد الوارث التدميري، وتصدر لإقراء القرآن بشاطبة حياته كلها، وكان فاضلًا مجاب الدعوة، وأخذ عنه أبو عمر بن عيَّاد، وقال ابنه محمد بن عيَّاد: إنه توفي سنة ٥٣٣، وقال ابن الأبَّار: إنه نقل نسب المترجم من خط محمد بن عيَّاد.

وأبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد بن علي اللخمي، سبط أبي عمر بن عبد البر، سمع جده أبا عمر، وأجاز له روايته وتواليفه سنة ٤٦٢، وسمع من أبي العباس العذري صحيحي البخاري ومسلم، ومن أبي الوليد الباجي صحيح البخاري، قال ابن الأبار: إنهما لم يجيزا له شيئًا من روايتهما ولا تواليفهما، قال: وقرأت بخط أبي عبد الله بن أبي البقاء أنه روى عن أبي الفتح السمرقندي، وهذا أيضًا لم يجز له، وتولى قضاء أغمات بالمغرب، وأخذ عنه جماعة هناك، وعمِّر حتى بلغ التسعين، وتوفي بأغمات وهو يتولى قضاءها سنة ٥٣٢، وقيل سنة ٥٣٣، وهذه رواية ابن بشكوال في معجم مشيخته ومولده ببلنسية سنة ٤٤٣.

وأبو عبد الله بن يوسف بن أيوب بن القاسم بن بيرَة بن عبد الرزاق بن غوصُه بن سليمان بن صالح بن يزيد بن عبد الرحمن بن لبيب الداخل إلى الأندلس القرشي الفهري، سكن دانية، وأصله من شاطبة من قرية يقال لها «رغاط» قبلي الفجِّ، وتلك القرية نزلها جدهم لبيب وذريته من بعده، سمع المترجم من أبيه أبي الحجاج، ومن أبي علي الصدفي،

وأبي الحسن طاهر بن مفوَّز، وأجاز له أبو العباس العذري، وحدَّث عنه ابنه يوسف بن عبد الله وغيره، وتوفي بدانية يوم عاشوراء سنة ٥٤٨، ومولده في شوال سنة ٤٦٩.

وأبو محمد عبد الله بن طاهر بن حيدرة بن مفوَّز المعافري، من بيت العلم والفضل في شاطبة، أخذ القراءات عن ابن أبي العيش، وسمع الحديث من أبيه أبي الحسن طاهر، ومن أبي إسحاق بن جماعة، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، وتفقَّه بأبي عبد الله بن مغاور، وأبي بكر بن أسد، وكتب إليه من الإسكندرية أبو طاهر السلفي في رمضان سنة ٥٣٦، وكان من أهل المعرفة بالفقه، حافظًا لمسائل الرأي، بصيرًا بالشروط، وقورًا، رحب الصدر، عالي القدر، ولي قضاء بلده فحمدت سيرته، وجرى على سَنَن سلفه الصالح عدلًا وزكاءً وحلمًا وأناةً وعفة نفس، قال أبو عمر بن عياد: قدم علينا لرية قاضيًا عليها من قبل ابن سعد، وأفادنا كتاب الإمامة لأبي محمد بن مفوَّز الزاهد، كان يحمله عن أبيه طاهر، وكانت وفاته بجزيرة شقر، قدمها زائرًا لبعض معارفه هناك، وكان قاضيًا بشاطبة، فاحتمل إلى شاطبة ودفن بها إلى جانب سلفه — رحمهم الله — وأتبعه الناس ثناءً جميلًا، وكانت وفاته سنة ٥٦٧، ومولده سنة ٥١٦، عن ابن الأبَّار.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن خلف بن أبي الفرج التجيبي، أخذ القراءات عن أبيه أبي عبد الله بن محمد، وسمع الحديث من ابن جماعة، وابن الدبَّاغ، وابن سعادة أبي عبد الله، وابن أسد أبي بكر، وابن عاشر، وابن مغاور، وأخذ الأدب عن ابن ينَّق، وأبي جعفر بن عبد الغفور الشاطبي، ووليِّ الأحكام ببعض جهات شاطبة، وكان من أهل المعرفة بمسائل القضاء والبصر بالشروط، ولد سنة ٥١٢، وتوفي سنة ٥٧٤، عن ابن الأبَّار.

وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن سفيان التجيبي، من أهل شاطبة، وأصل سلفه من قونكة؛ ولذلك يُعرف الواحد منهم بالقونكي، سمع جماعة من كبار العلماء؛ مثل ابن الدبَّاغ، وابن هذيل، وابن النعمة، وابن سعادة، وابن بركة، وأبي العرب التجيبي، وأبي عامر بن ينَّق، وأبي محمد المكناسي، وأبي العلاء بن الجنَّان، وأبي الحسن بن سعد الخير، فتأدب بهم، وتفقَّه بهم وبغيرهم من تلك الطبقة العالية، وتولَّى قضاء لورقة، وكان بليغًا مفوَّهًا صاحب نظمٍ ونثر، توفي في حدود التسعين وخمسمائة، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن موسى بن حفص الأنصاري من أهل دانية، سكن شاطبة، سمع بدانية من أبي بكر أُسامة بن سليمان، وأبي القاسم بن إدريس، وأخذ العربية عن أبي عبد الله التجيبي، وعن عمه أبي الحسين

يحيى بن عبد الله، وسمع بإشبيلية من أبي القاسم بن بقيٍّ موطَّأ مالك، ورحل إلى المشرق؛ فسمع بالإسكندرية ودمشق والموصل جماعة من كبار العلماء؛ منهم أبو عبد الله الحرَّاني، وأبو نصر الشيرازي، وأبو عبد الله المقدسي، وأبو إسحاق إبراهيم الخشوعي، وغيرهم، وكتب إليه من مُسْنِدي بغداد طائفة منهم أبو صالح الجيلي، وأبو القاسم علي بن أبي الفرج الجوزي، وكان عنده شعر أبي العلاء المعرِّي مسموعًا على أبي إسحاق بن أبي اليسر عن والده عن جده عن أبي العلاء نفسه، ومال إلى علم الطب وعُنِيَ به، وكان له حظ من الأدب، وكان معاصرًا لابن الأبار القضاعي صاحب التكملة الحافظ الشهير والأديب الكبير، وقد زكَّاه في التكملة وقال عنه صاحبنا، وذكره بالتواضع والطهارة ونزاهة النفس ونباهة البيت، وقال: إنه صاحبه بتونس — وذلك بعد أن استولى العدو على بلنسية وهاجر ابن الأبار إلى تونس — ورحل المترجَم إلى المشرق ثانيةً في أواخر ذي الحجة سنة ٦٤٥، فتوفي بالقاهرة ظهر يوم الجمعة منسلخ شعبان، ودفن يوم السبت بعده مستهلَّ رمضان من سنة ٦٤٦، ومولده قبل التسعين وخمسمائة.

وأبو مروان عبد الله بن نجاح بن يسار، أخذ القراءات عن ابن الدوش، وسمع من أبي علي الصدفي في اجتيازه بشاطبة غازيًا إلى كتندة في صفر سنة ٥١٤، وتصدر للإقراء بشاطبة وأخذ الناس عنه، قاله ابن الأبار.

وأبو الحسين بن عبيد الله محمد بن عبيد الله النفزي،[١] يعرف بابن قبُّوج، روى بشاطبة عن أبيه، وعن أبي عمر بن عات، وأبي الخطَّاب بن واجب، وغيرهم، وأخذ بإشبيلية الفقه عن ابن زرقون، ويقول ابن الأبار في التكملة إنه لقيه هناك سنة ٦١٨، ثم رجع إلى شاطبة، فلزم داره، واعتزل الناس، وأقبل على العبادة ودراسة العلم، وكان في شبيبته جوَّد الشعر، ثم تنزَّه عنه زهادةً بعد ذلك، وخرج من شاطبة بعد محاصرة الروم إياها وإفراجهم عنها على تملك بعضها، فركب المترجم البحر من دانية قاصدًا بجاية من المغرب الأوسط، فتوفي عند وصوله، وذلك ليلة الخميس مستهل جمادى الأولى، ودفن لصلاة العصر منه سنة ٦٤٢، وكانت له جنازة مشهورة، وكان الثناء عليه جميلًا.

وأبو المطرِّف عبد الرحمن بن عبد الله بن مُعافى المقرئ، روى عن أحمد بن نابت التغلبي، وروى عنه أبو المطرف عبد الرحمن بن موسى بن أبي تُليد والد أبي عمران، وروى عنه أيضًا ابنه عبد الرحمن بن معافى، ذكره ابن بشكوال.

وأبو محمد عبد الرحمن بن مروان العبسي، يعرف بابن الطَوْج، روى عن ابن عبد البَر، وحدَّث عنه أبو عبد الله الحوضي المعروف بابن أبي أحد عشر، سمع منه كتاب

التقصِّي لأبي عمر بن عبد البر، وذكره ابن بشكوال ووصفه بالصلاح، وروى أنه توفي سنة ٥٠٧، وقال ابن الأبار: أحسبه من أهل شاطبة.

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن نزار المرسي، قال ابن الأبار: لعله سكن مرسية ولو كان من شاطبة، روى عن طاهر بن مفوز، ورحل إلى قرطبة فأخذ عن أبي علي الغسَّاني كتاب التقصِّي لابن عبد البر، وصحب في قرطبة القاضي المشهور والحكيم المعروف أبا الوليد بن رشد، وأبا محمد بن عتَّاب، وأبا بحر الأسدي، وأبا عبد الله بن الحاج، وأبا الحسن بن مُغيث، وكان علم الرأي أغلب عليه من علم الحديث، ووليِّ خطة الشورى بشاطبة، وكان فقيهًا حافظًا حافلًا، من أكثر الناس درسًا، وكانت له مشاركة في أصول الفقه مع العدالة والتواضع، توفي سنة ٥٤٠.

وأبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن يعيش المُهري، روى عن أبي محمد بن عبد العزيز الأنصاري، وحدَّث عنه أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولي الشاطبي، قاله أبو الحسن بن المفضَّل المقدسي. هكذا روى ابن الأبَّار.

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المكتِّب، من أهل شاطبة، نزل تلمسان، روى عن أبي محمد بن أيوب الحديث المسلسل في الأخذ باليد، وكان رجلًا صالحًا، حدَّث عنه أبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم بن مغاور السلمي، سمع من أبيه ومن أبي علي الصدفي، وأبي جعفر بن غزلون، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، وله رواية عن القاضي الحسن بن واجب، وأبي بكر بن العربي، وأبي القاسم بن ورد، وأبي بكر بن مفوَّز، وكان في وقته بقية مشيخة الكتَّاب والأدباء بالأندلس، مع صدق اللهجة وكرم النفس، وكان بليغًا مفوَّهًا مدركًا له حظ وافر من قرض الشعر ومشاركة في الفقه، وله ديوان اسمه «نَور الكمائم وسجع الحمائم» مشهور بأيدي الناس، وطال عمره، وحدَّث عنه الكثيرون، وهو آخر السامعين من أبي علي الصدفي؛ لأنه لما مات لم يكن بقي أحد ممن سمعوا من الإمام المذكور، وأمر أن يخط على قبره:

أيها الواقف اعتبارًا بقبري ... استمع فيه قول عظمي الرميم
أودعوني بطن الضريح وخافوا ... من ذنوبٍ كلومها بأديمي
قلت: لا تجزعوا عليَّ فإني ... حسن الظنِّ بالرءوف الرحيمِ

واتركوني بما اكتسبت رهينًا غَلِقَ الرهن عند رب كريم

ولد بشاطبة سنة ٥٠٢، وتوفي في صفر سنة ٥٨٧، عن ابن الأَبَّار.

وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الواحد بن سعيد بن يحيى بن إبراهيم بن محمد بن هارون بن غالب بن حرب بن أبي شاكر الأنصاري، سمع ببلنسية من أبي عبد الله بن بيبش الأندي أحاديث خراش. وروى عن ابن جماعة وابن الدبَّاغ، وكان من أهل النباهة والعناية بالرواية.

وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن مطرِّف بن أبي سهل بن ياسين النفزي، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن عبادة الجياني، وأبي محمد قاسم بن فيروه الضرير، وغيرهما، وتصدَّى للإقراء ببلده شاطبة، وأخذ عنه ابنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن. ذكره ابن الأبَّار، ولم يذكر تاريخ وفاته.

وأبو القاسم عبد الرحيم بن أحمد بن علي بن طلحة الأنصاري، من أهل سبتة، أصله من شاطبة، يعرف بابن عليم، سكن مراكش، ودخل الأندلس غازيًا، ورحل حاجًّا سنة ٦١٣، وكتب الحديث بمصر ودمشق وبغداد وغيرها، ولقي السلفي وغيره من الأئمة، وبعد أن أقام بالشرق مدة قدم إلى تونس سنة ٦٤٢، وسمع منه ابن الأبَّار بعد مهاجرته إلى تونس، وأجاز له وأخبره أن مولده عصر الجمعة السادس والعشرين لربيع الآخر سنة ٥٣٥، وتوفي سنة ٦٥٥، قلنا: إن لم يكن هناك خطأ في النسخ فيكون عمر المترجم ١٢٠ سنة، وليس هذا بقليل الوقوع في الدنيا، ولكن لو كان عُمِّر إلى هذا الحد لكان ابن الأبَّار أشار إلى ذلك؛ فالأرجح عندنا أن هناك غلطًا في الأرقام.

وأبو مروان بن عميرة الشاطبي يحدِّث عنه أبو عبد الله بن المَعِز اليفرني الميورقي لم يزد ابن الأبَّار في ترجمته على هذا السطر.

وأبو الحسن طاهر بن حيدرة بن مفوَّز بن أحمد بن مفوَّز المعافري، من أهل بيت العلم الشهير بشاطبة، سمع أخاه أبا بكر، وأبا علي الصدفي، وأبا جعفر بن جحدر، وأجاز له عمه طاهر بن مفوَّز، وكان فقيهًا حافظًا مقدمًا في علم الفرائض يُلجأ إليه في ذلك. ولي قضاء شاطبة وجزيرة شقر جميعًا فحمدت سيرته وشُهرت عدالته، ثم استعفى من القضاء فأعفي، وتوفي في المحرم سنة ٥٥٢، عن ابن الأبار.

وأبو عيسى لب بن محمد بن محمد، من أهل شاطبة، يعرف بالبلنسي؛ لأن أصله منها، صحب أبا عمر بن عات، وروى عن أبي الخطَّاب بن واجب، وأبي عبد الله بن سعادة، وغيرهما، وكان من أهل الثقة والعدالة، توفي في غرَّة جمادى الأولى سنة ٦٣١.

وإمام القراء أبو محمد القاسم بن فيرُّه بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الضرير. قال ابن خلكان: صاحب القصيدة التي سماها «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات، وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتًا، وقد أبدع فيها كل الإبداع، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم، فقَلَّ من يشتغل بالقراءات ولا يقدم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة، وما أظنه سبق إلى أسلوبها، وقد روي عنه أنه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلَّا وينفعه الله — عز وجل — بها؛ لأني نظمتها لله تعالى مخلصًا في ذلك. ثم إنه نظم قصيدة دالية في خمسمائة بيت مَنْ حَفِظَها أحاط علمًا بكتاب التمهيد لابن عبد البر.

وكان عالمًا بكتاب الله تعالى قراءةً وتفسيرًا، وبحديث رسول الله ﷺ مبرزًا فيه، وكان إذا قُرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ يصحح النسخ من حفظه ويملي النكت على المواضع التي تحتاج إليها. وكان أوحد زمانه في علم النحو واللغة. ثم ذكر ابن خلكان أنه قرأ القرآن بالروايات على المقرئ أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أبي العاص النفزي، وأبي الحسن علي بن محمد بن هذيل، وأنه سمع الحديث من أبي عبد الله بن سعادة، وأبي عبد الله محمد الخزرجي، والحافظ أبي الحسن بن النعمة، وغيرهم، وانتفع به خلقٌ كثير.

قال: وأدركت من أصحابه جمعًا كثيرًا بالديار المصرية، وكان يجتنب فضول الكلام، ولا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه ضرورة، ولا يجلس إلى الإقراء إلا على طهارة في هيئة حسنة وتخشع واستكانة. وكان يعتلُّ العلَّة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوَّه، وإذا سُئِلَ عن حاله قال: بعافية، لا يزيد على ذلك. وكانت ولادته في آخر سنة ٥٣٨، وخطب ببلده على فتاء سنه، ودخل مصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وكان نزيل القاضي الفاضل، ورتبه بمدرسته بالقاهرة متصدرًا لإقراء القرآن وقراءة النحو واللغة، وتوفي يوم الأحد بعد صلاة العصر الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة، ودفن يوم الاثنين في قرية القاضي الفاضل بالقرافة، وزرت قبره مرارًا — رحمه الله تعالى — وصلى عليه الخطيب أبو إسحاق العراقي خطيب جامع مصر.

وفيرُّه — بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وتشديد الراء وضمها — وهو بلغة اللطيني من أعاجم الأندلس معناه في العربي الحديد. والرُّعَيْني — بضم الراء وفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون — هذه النسبة إلى ذي رُعَين، وهو أحد أقيال اليمن، نسب إليه خلق كثير.

والشاطبي — بفتح الشين المعجمة وبعد الألف طاء مكسورة مهملة وبعدها باء موحدة — هذه النسبة إلى شاطبة، وهي مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة بشرق الأندلس، خرج منها جماعة من العلماء، استولى عليها الفرنج في العشر الأخير من رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة، وقيل: إن اسم الشيخ المذكور أبو القاسم، وكنيته اسمه، لكن وجدت في إجازات أشياخه له أبو محمد القاسم كما ذكرته هنا. ا.هـ.

وأما صاحب نفح الطيب فقد رجَّح أن يكون اسمه أبا القاسم فقال: الإمام العلامة أبو القاسم الشاطبي صاحب حرز الأماني والعقيلة وغيرهما، وهو أبو القاسم بن فيرُّه بن خلف بن أحمد الرُّعَيْني الشاطبي المقرئ الفقيه الضرير، إلى أن يقول: إنه دخل الديار المصرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وحضر عند الحافظ السلفي، وابن بَرِّي وغيرهما، ثم ذكر ولادته سنة ٥٣٨ ووفاته يوم الأحد الثامن والعشرين، وقيل: الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٩٠ بعد العصر، ودفن من الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم.

وحُكي أن الأمير عز الدين موسك الذي كان والد ابن الحاجب حاجبًا له بعث إلى الشيخ الشاطبي يدعوه إلى الحضور عنده، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب إليه:

قل للأمير مقالة من ناصح فطن نبيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

قال في النفح ما خلاصته: أن أبا الحسن بن خِيَره وصف الشاطبي من قوة الحفظ بأمرٍ عجيب، وأنه كان موصوفًا بالزهد والعبادة والانقطاع، وأن قبره بالقرافة يزار وتُرجى استجابة الدعاء عنده، وأن الشاطبي ترك أولادًا منهم أبو عبد الله محمد، عاش نحو ثمانين سنة، وقال السبكي إنه كان قوي الحافظة، واسع المحفوظ، كثير الفنون؛ فقيهًا مقرئًا محدثًا نحويًّا زاهدًا عابدًا ناسكًا، يتوقد ذكاءً. قال السخاوي: أقطع أنه كان مكاشفًا، وأنه سأل كتمان حاله. ا.هـ.

وقد ترجمت الشاطبي الانسيكلوبيدية الإسلامية، فذكرت أن قصيدة الشاطبي في القراءات هي نظم كتاب التيسير لأبي عمرو الداني، وذكرت نقلًا عن ياقوت أن القصدية المذكورة لا تخلو من صعوبة وتعقيد؛ لذلك كثر شُرَّاحها. ومن أشهر شارحيها برهان الدين بن عمر الجعبري المتوفى سنة ٧٣٢، ولها شرح آخر لأحد تلاميذ الشاطبي، وهو أبو الحسن علي السخاوي، ولها شرح ثالث لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، ولها

شروح أخرى، وللشاطبي قصيدة ثانية اسمها «عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد»، وموضوع هذه قراءة القرآن على الوجه الأجمل لا ذكر أنواع القراءات. ثم للشاطبي قصيدة هي نظم التمهيد لابن عبد البر، وقد نقلت الانسيكلوبيدية عن ياقوت أنها قصيدة معقدة أيضًا، ولكن لم يقدروا أن ينكروا أهمية كتب الشاطبي ورغبة الناس فيها.

وعبد العزيز بن ثابت بن سليمان بن سوار، من أهل شاطبة، ومن قرية بها تسمى بلاله، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وصحبه سنين عدة، وسمع منه في سنة ٤٥٣، وسمع بعد ذلك معه ابنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز في سنة ٤٦٠، وذكره ابن الدباغ، قال ابن الأبار: قرأت بعضه بخط أبي الحسن طاهر بن مفوَّز. ولم يذكر في التكملة تاريخ وفاته.

وأبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة السعدي، رحل حاجًّا، وقدم دمشق، فسمع بها من أبي الحسن بن أبي الحديد، وعبد العزيز الكناني، ودخل العراق فسمع بها أبا محمد الصريفيني، وأبا منصور بن عبد العزيز العكبري، وأبا جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة، ورتب شرح غريب الحديث لأبي عبيد، وسمع منه أبو محمد بن الأكفاني سنة ٤٦٥، وقال: توفي بحوران من أعمال دمشق في رمضان سنة ٤٦٥، ذكره ابن عساكر.

وأبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد بن خلف الأنصاري، روى عن أبي الحسن طاهر بن مفوَّز، سمع منه الحديث المسلسل في الأخذ باليد، حدَّث به عنه أبو زيد بن يعيش المهري، أفادَ ذلك أبو الحسن بن المقدسي الحافظ، ذكره ابن الأبار في التكملة، ولم يذكر تاريخ وفاته.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن فرج بن سليمان بن يحيى بن سليمان بن عبد العزيز القيسي، يعرف بالمكناسي، أخذ القراءات عن أبيه، وأبي الحسن شريح بن محمد، وأبي علي منصور بن الخير، واستوطن غرناطة، وأقرأ بها الفرائض والحساب، وكان من أهل الأدب والعلوم الرياضية، مقرئًا فقيهًا متكلمًا، عارفًا بالوثائق، ولد بشاطبة سنة ٤٥٢، وتوفي بغرناطة في صفر سنة ٥٣٦، ذكره ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكناسي، وحدَّث عنه.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف بن إدريس السلمي، روى عن أبي جعفر بن جحدر، وتفقَّه به ولازمه، وسمع الحديث من أبي عمران بن أبي تُليد، وأبي علي الصدفي، وأبي القاسم بن الجنَّان، وكتب للقضاة، وولي خطة الشورى، وكان حافظًا لمسائل الرأي

عارفًا بها، بصيرًا بالوثائق، دَرِبًا بوجوه الفتيا وأحكام القضاء، نافذًا في علم اللسان، وكانت في أخلاقه حزونة. روى عنه أبو جعفر بن أشكية، وأبو محمد بن سفيان، وتوفي بشاطبة سنة ٥٤١، عن ابن الأبار.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العزيز، يعرف بابن النيبلش، سمع من أبي الوليد بن الدبَّاغ موطَّأ مالك، ومن أبي عبد الله بن سعادة السير لابن إسحاق. قال ابن الأبَّار: وقيدت ذلك عن بعض شيوخنا، ثم وقفت بخطه على تسمية شيوخه، وهم أبو الحسن بن هذيل، وأبو عبد الله بن سعيد الداني، وأبو الحسن بن النعمة، وأبو محمد عاشر بن محمد بن عاشر، وأبو عبد الله بن سعادة، لم يذكر فيهم ابن الدبَّاغ، وولِّي أحكام بلده للقاضي أبي القاسم بن إدريس، وكان فقيهًا حافظًا، روى عنه أبو محمد بن خيرة، وأبو عبد الله بن أبي البقاء، أجاز له في سنة ٦٠٣، وعاش بعد ذلك.

وأبو محمد عبد الوهاب بن إسحاق بن لب الفهري، يعرف بابن الحمري، منسوب إلى الحمرة — قرية بشاطبة — كذا قال ابن الدبَّاغ، والصحيح في اسمها الحمراء وفي نسبه الحمراوي. أخذ عن صهره أبي جعفر بن جحدر، وتفقَّه به، وسمع من أبي محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز بن ثابت الخطيب وغيره، وتوفي سنة ٥٢٥.

وعبد الحق بن خلف من مفرِّج أبو العلا الكناني الشاطبي، يعرف بابن الجنَّان، سمع أباه، وصحب أبا إسحاق بن خفاجة، وكان من كبار الأدباء وجلَّة البلغاء والشعراء، وله بصر بالطب والعربية واللغة، توفي سنة ٥٣٩ عن ستين سنة، وكان أبوه من فقهاء شاطبة، يروي عن الباجي، ذكره ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو محمد عبد الغني بن مكي بن أيوب التغلبي، روى عن أبيه، وأبي عبد الله بن سيف، وسمع أبا بكر بن مفوَّز، وأبا عمران بن أبي تليد، وأبا علي الصدفي وجماعة. وتفقَّه بمرسية عند أبي محمد بن جعفر، وكان فقيهًا حافظًا عالمًا شاعرًا ماهرًا في الشروط، ولِّي خطة الشورى ببلده، توفي سنة ٥٥٥.

وأبو الحسن علي بن محمد بن أبي العيش الطرطوشي نزيل شاطبة، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن الدوش، وأبي المطرِّف بن الورَّاق، وأبي محمد بن جوشن، وتصدَّر للإقراء بشاطبة، وكان من أهل الصلاح والفضل مع التقدم في صناعة القراءات، أخذ عنه أبو بكر مفوَّز بن طاهر بن مفوَّز، وأخوه أبو محمد عبد الله، وأبو الحسين بن جبير الزاهد، وغيرهم. ولم يذكر ابن الأبَّار تاريخ وفاته.

وعلي بن عبد الله بن علي أبو الحسن الشاطبي بن البنَّاد، روى عن أبي عبد الله بن سعادة، وأبي عبد الله بن عبد الرحيم، واختص بأبي بكر بن أبي جمرة، وكان فقيهًا

مشاورًا ذا ثروة وفضائل وتصانيف، توفي سنة أربع عشرة. هكذا ترجمه ابن الأبَّار في التكملة، واقتصر على قوله: توفي سنة أربع عشرة.

وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن محمد بن موسى جمال الدين التجيبي الأندلسي الشاطبي، نزيل دمشق، روى أبو عبد الله الفاسي عنه «الراية» بسماعه لها من المؤلف، وهو جد الجمال علي بن يحيى بن علي الشروطي.

وأبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن منخل النفزي الشاطبي، سمع من عبد المنعم بن الفرس، وأبي بكر بن أبي زمنين وحدَّث. توفي في آخر سنة ٦٣٠، ترجمه ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو محمد عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف الأنصاري، سكن شاطبة، سمع من أبي علي بن سكَّرة، وأبي جعفر بن جحدر، وأبي عامر بن حبيب، وأبي عمران بن أبي تليد، وأبي بحر الأسدي وجماعة، وتفقَّه بأبي محمد بن أبي جعفر، وأخذ القراءات بقرطبة عن أبي العباس بن ذروة، وأخذ بعضها عن أبي القاسم بن النحاس، وسمع من أبي محمد بن عتاب وغيره، وأجاز له أبو عبد الله الخولاني، وكتب إليه من مكة رزين بن معاوية، ومن الإسكندرية أبو الحجاج بن نادر، وعني بعلم الرأي، وشهر بالفهم والحفظ، وولِّي خطة الشورى ببلنسية، ثم ولِّي قضاء مرسية وأقاليمها؛ فنال دنيا عريضة وحمدت سيرته، فلما انقضت الدولة اللمتونية سنة تسع وثلاثين صرف ونزل شاطبة يدرِّس ويحدِّث، وكان رأس الفتوى، وإليه ترد صعاب المسائل ومشكلاتها.

وكان متفننًا في العلوم، روى عنه أبو الخطَّاب بن واجب، وأبو عبد الله بن سعادة، وابن أخته أبو محمد بن غلبون، وأبو عبد الله الأندرشي، وصنَّف «الجامع البسيط وبغية الطالب النشيط» دلَّ به على مكانه من العلم، ووصل فيه إلى كتاب الشهادات، وتوفي قبل إتمامه، وهو كتاب مطول رجح فيه واستدل.

توفي في نصف شعبان سنة ٥٦٧ بعد أن كُفَّ بصره، وولد بحصن يُناشته سنة ٤٨٤، قال ابن الزبير: قال ابن عات وأخذ عنه: أخبرني أنه رأى محمد بن فرج بقرطبة شيخًا كبيرًا، توفي في الجامع ليلة سبع وعشرين من رمضان. قال ابن الزبير: روى عن عاشر أبو محمد عبد المنعم بن الفرس، والحاج أبو العباس بن عمرة، وأبو بكر بن أبي جمرة، وأبو محمد غلبون المرسي. قيل لأبي سليمان بن حوط الله: هل رأيت أحفظ من ابن الجد؟ قال: نعم، رأيت عاشرًا، وكان أحفظ منه. في النسخة: توفي سنة سبع وسبعين، عن ابن الأبَّار.

وأبو محمد هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي الشاطبي، أخذ القراءات عن أبي مروان بن يسار صاحب ابن الدوش، وسمع من أبي الوليد بن الدبَّاغ، ودرس الفقه على أبي جعفر الخشني، ولازمه سبع سنين وعرض عليه المدونة مرات، ومهر عنده، وكان فقيهًا مشاورًا مستقلًّا بالفتاوى، فرضيًّا حاسبًا، له تواليف، استقضي ببلده فحمدت سيرته، حدَّث عنه أبو عمر بن عيَّاد، ومن شيوخنا ابنه أبو عمر، وأبو عبد الله بن سعادة، وتوفي في شعبان سنة ٥٨٢ وله سبعون سنة.

وسليمان المعروف بالبيغي الشاطبي نزيل سبتة، لقي أبا عمر بن عبد البر، وأبا العباس العذري، وأبا الأصبغ بن سهل وغيرهم، وأجازوا له، سمع منه القاضي عياض، توفي في نحو سنة ٥٢٠.

وأبو الحسين يحيى بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري، من ولد سعيد بن عبادة الداني، سكن شاطبة، وسمع من صهره أبي بكر بن أبي جمرة، وأبي الخطَّاب بن واجب، وجماعة كثيرة، وعني بهذا الشأن مع الحظ الوافر من البلاغة والكتابة والضرب بسهم في الشعر إلى نباهة البيت. قال ابن الأبَّار: سمعت «منه» وصحبته مدة صارت إليه في الفتنة رئاسة شاطبة وتدبير أمورها من قبل محمد بن يوسف بن هود والي الأندلس، وتوفي في شعبان سنة ٦٣٤ عن خمس وخمسين سنة.

وأبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة محيي الدين، ويكنى أيضًا أبا القاسم، وأبا بكر الأنصاري الشاطبي المالكي، ولد بشاطبة سنة ٥٩٢، وسمع من أبي القاسم بن بقي، ورحل في طلب الحديث؛ فسمع ببغداد من الشيخ أبي حفص عمر السهروردي، وأبي طالب الغبيطي، وأبي جعفر الدينوري وجماعة، وسمع بحلب من ابن شداد وغيره، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصري سنة ٦٤٢، وبقي بها إلى أن توفي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٦٣، ودفن بسفح المقطم، وكان الجمع كبيرًا

وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل، وأحد مشايخ الصوفية، له في ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعاني الشعر، وكان صالح الفكرة في حل التراجم مع ما جُبِلَ عليه من كرم الأخلاق، واطِّراح التكليف، ورقة الطبع، ولين الجانب. ومن شعره قوله:

نصبت ومثلي للمكارم ينصب ورمت شروق الشمس وهي تغرِّب

وحاولت إحياء النفوس بأسرها وقد غرغرت يا بعد ما أنا أطلب
وأتعب إن لم تمنح الخلق راحة وغيري إن لم تتعب الخلق يتعب
مرادي شيء والمقادير غيره ومن عاند الأقدار لا شك يُغلب

وقوله:

إلى كم أمني النفس ما لا تناله فيذهب عمري والأمانيُّ لا تقضى
وقد مر لي خمس وعشرون حجة ولم أرضَ فيها عيشتي فمتى أرضى؟
وأعلم أني والثلاثون مدتي حر بمغاني اللهو أوسعها رفضا
فماذا عسى في هذه الخمس أرتجي ووجدي إلى أوب من العشر قد أفضى
فيا رب عجل لي حياة لذيذة وإلا فبادر بي إلى العمل الأرضى

وقال — رحمه الله تعالى:

وصاحب كالزلال يمحو صفاؤه الشك باليقين
لم يحص إلا الجميل مني كأنه كاتب اليمين

وهذا عكس قول المنازي:

وصاحب خلته خليلًا وما جرى غدره ببالي
لم يحص إلا القبيح مني كأنه كاتب الشمال

ترجمه المقري في النفح.

وأبو الوليد بن الجنان محمد بن الشرف أبي عمرو بن الكاتب أبي بكر بن العالم الجليل أبي الملاء بن الجنان الكناني الشاطبي. قال ابن سعيد: توارثوا بشاطبة مراتب تحسدها النجوم الثاقبة، وأبو الوليد أشعرهم، وقد تجدد به في أقطار المشرق مفخرهم، وهو معروف هناك بفخر الدين، ومتصدِّر في أئمة النحويين، ومرتب في شعراء الملك الناصر صاحب الشام، ومقطعاته الغرامية قلائد أهل الغرام، صحبته بمصر ودمشق

وحلب، وجريت معه طلق الجموح في ميادين الأدب، وأنشدني بدمشق:

أنا من سكر هواهم ثمل لا أبالي هجروا أم وصلوا
فبشعري وحديثي فيهم زمزم الحادي وسار المثل
إن عشاق الحمى تعرفني والحمى يعرفني والطلل
رحلوا عن ربع عيني فلذا أدمعي عن مقلتي ترتحل
ما لها قد فارقت أوطانها وهي ليست لحماهم تصل
لا تظنوا أنني أسلو فما مذهبي عن حبكم ينتقل

وقوله — رحمه الله تعالى:

بالله يا بانة الوادي إذا خطرت تلك المعاطف حيث الشيح والغار
فعانقيها عن الصب الكئيب فما على معانقة الأغصان إنكار
وعرفيها بأني فيك مكتئب فبعض هذي لها بالحب أخبارُ
وأنتمُ جيرة الجرعاء من إضم لي في حماكم أحاديث وأسمار
وأنتمُ أنتمُ في كل آونة وإنما حبكم في الكون أطوار
ويا نسيمًا سرى تحدو ركائبه لي بالغوير لبانات وأوطار

وله:

يا — رعى الله — إننا بين روض حيث ماء السرور فيه يجول
تحسب الزهر عنده يتثنى وتخال الغصون فيه تميل

وله:

هات المدام فقد ناح الحمام على فقد الظلام وجيش الصبح في غلب
وأعين الزهر من طول البكا رمدت فكحلتها يمين الشمس بالذهب
والكأس حلتها حمراء مذهبة لكن أزرتها من لؤلؤ الحبب
كم قلت للأفق لما أن بدا صلفًا بشمسه عندما لاحت من الحجب

إن تهت بالشمس يا أفق السماء فلي　　شمسان وجه نديمي وابنة العنب
قم اسقنيها وثغر الصبح مبتسم　　والليل تبكيه عين البدر بالشهب
والسحب قد لبست سود الثياب وقد　　قامت لترثيه الأطيار في القضب

وله:

عليك من ذاك الحمى يا رسول　　بشرى علامات الرضا والقبول
جئت وفي عطفيك منهم شذًا　　يسكر من خمر هواه العذول

ومنها:

أحبابنا ودعتمُ ناظري　　وأنتمُ بين ضلوعي نزول
حللتمُ قلبي وهو الذي　　يقول في دين الهوى بالحلول
أنا الذي حدَّث عني الهوى　　بأنني عن حبكم لا أحول
فليزد العاذل في عذله　　وليقل الواشي لكم ما يقول

انتهى كلام النور بن سعيد. وقال غيره: ولد المذكور بشاطبة منتصف شوال سنة ٦١٥، ومات بدمشق، ودفن بسفح قاسيون، وكان عالمًا فاضلًا، دمث الأخلاق، كريم الشمائل، كثير الاحتمال، واسع الصدر، صحب الشيخ كمال الدين بن العديم، وولده قاضي القضاة مجد الدين، فاجتذبوه إليهم وصار حنفي المذهب، ودرَّس بالمدرسة الإقبالية الحنفية بدمشق، وله مشاركة في علوم كثيرة.

وله أيضًا:

قم اسقنيها وليل الهم منهزم　　والصبح أعلامه محمرَّة العذب
والسحب قد نثرت في الأرض لؤلؤها　　تضمن الشمس في ثوب من الذهب

انتهى. وقد تقدم عن ابن سعيد له ما يقارب هذا، وله — رحمه الله تعالى — في كاتب:

ولي كاتب أضمرت في القلب حبه   مخافة حسادي عليه وعذالي
له صنعة في خط لام عذاره   ولكن سها إذ نقط اللام بالخال

عن نفح الطيب للمقري.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي، نزيل إسكندرية، ويعرف بابن أبي الربيع، أحد أولياء الله تعالى، شيخ الصالحين، صاحب الكرامات المشهورة. جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى، والتخلِّي عن الناس، والتمسك بطريقة السلف، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره، وقرأ بدمشق على الواسطي، وسمع عليه الحديث، ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله ﷺ بين قبره ومنبره سنة ٦١٧، وسمع بدمشق على أبي القاسم بن صصري، وأبي المعالي بن خضر، وأبي الوفاء بن عبد الحق، وغيرهم، وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبي العباس الراسي، وتلمذ للشاطبي تلميذ الراسي.

وصنف كتبًا حسنة، منها كتاب «المسلك القريب في ترتيب الغريب»، وكتاب «اللمعة الجامعة في العلوم النافعة» في تفسير القرآن العزيز، وكتاب «شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل»، وكتاب «المباحث السنية في شرح الحصرية»، وكتاب «الحرقة في إلباس الخرقة»، وكتاب «المنهج المفيد في ما يلزم للشيخ والمريد»، وكتاب «النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية»، وكتاب «زهر العريش في تحريم الحشيش»، وكتاب «الزهر المضي في مناقب الشاطبي»، وكتاب «الأربعين المضية في الأحاديث النبوية»، ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥، ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢، ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته — رحمهما الله تعالى ونفع بهما — عن المقري في النفح.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة مرسي، سكن شاطبة، ودار سلفه بلنسية، سمع أبا علي الصدفي، واختص به وأكثر عنه، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق وأمَّهات كتبه الصحاح؛ لصهر كان بينهما، وسمع أيضًا أبا محمد بن أبي جعفر، ولازم حضور مجلسه للتفقه به، وحمل ما كان يرويه ورحل إلى غرب الأندلس، فسمع أبا محمد بن عتاب، وأبا بحر الأسدي، وأبا الوليد بن رشد، وأبا عبد الله بن الحاج، وأبا بكر بن العربي، وغيرهم، وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني، وأبو الوليد بن طريف، وأبو الحسن بن عفيف، وأبو القاسم بن صواب، وأبو محمد بن السيد، وغيرهم.

ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمائة، فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر الميورقي، وصحبه وسمع منه، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام، وأدَّى فريضة الحج في سنة إحدى وعشرين، ولقي بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدري؛ إمام المالكية بها، وأبا محمد بن صدقة المعروف بابن غزال؛ من أصحاب كريمة المروية، فسمع منها وأخذ عنها. وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عياش الغساني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصانيفه.

ثم انصرف إلى ديار مصر؛ فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية، ولقي أبا طاهر بن عوف، وأبا عبد الله بن مسلم القرشي، وأبا طاهر السلفي، وأبا زكريا الزناتي، وغيرهم، فأخذ عنهم، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطرطوشي، وأبو الحسن بن مشرف الأنماطي، ولقي في صَدَره بالمهدية أبا عبد الله المازري؛ فسمع منه بعض كتاب المعلم، وأجاز له باقيه، وعاد إلى مرسية في سنة ست وعشرين وقد حصل في رحلته علومًا جمة ورواية فسيحة، وكان عارفًا بالسنن والآثار، مشاركًا في علم القرآن وتفسيره، حافظًا للفروع، بصيرًا باللغة والغريب، ذا حظ من علم الكلام، مائلًا إلى التصوف مؤثرًا له، أديبًا بليغًا خطيبًا فصيحًا، ينشئ الخطب مع الهدي والسمت والوقار والحلم، جميل الشارة، محافظًا على التلاوة بالخشوع، راتبًا على الصوم، ووُلِّي خطة الشورى بمرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه، ثم وُلِّي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمة، ونقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطنًا، وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية، ويقيم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبًا عليها.

وقد حدَّث بالمرية، وهناك أبو الحسن بن موهب، وأبو محمد الرشاطي، وغيرهما، وسمع منه أبو الحسن بن هذيل جامع الترمذي، وألَّف كتابه «شجرة الوهم المرقية إلى ذروة الفهم»، ولم يسبق إلى مثله، وليس له غيره، وجمع فهرسة حافلة، ووصفه غير واحد بالتفنن في العلوم والمعارف، والرسوخ في الفقه وأصوله، والمشاركة في علم الحديث والأدب، وقال ابن عيَّاد في حقه: إنه كان صليبًا في الأحكام، مقتفيًا للعدل، حسن الخلق والخلق، جميل المعاملة، لين الجانب، فكه المجالسة، ثبتًا حسن الحظ، من أهل الإتقان والخط والضبط، وحكي أنه كانت عنده أصول حسان بخط عمه مع الصحيحين بخط السلفي في سفرين، قال: ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها وإتقانها وجودتها، ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه.

وذكره ابن سفيان أيضًا، وأبو عمر بن عات، ورفعوا جميعًا بذكره، وتوفي بشاطبة مصروفًا عن قضائها آخر الحجة سنة خمس، ودفن أول يومٍ من سنة ست وستين وخمسمائة، ودفن بالروضة المنسوبة إلى عمر بن عبد البر، ومولده في رمضان سنة ٤٩٦.

والشيخ الفاضل المتقن أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن محمد بن يوسف الأنصاري الشاطبي الأصل، البلنسي المولد في أحد ربيعي سنة أحد وستمائة، ولقبه المشارقة برضيِّ الدين، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٤ — رحمه الله تعالى — وقد تقدمت ترجمته.

ونزيد ها هنا أنه حدَّث عن أبي المنير وغيره، واشتغل الناس عليه بالقاهرة، وله تصانيف مفيدة، وسمع من الحافظ أبي الربيع بن سالم، وكتب على صحاح الجوهري وغيره حواشي في مجلدات، وأثنى عليه تلميذه أبو حيان، رحم الله تعالى الجميع. ومن فوائده قوله: نقلت من خط أبي الوليد بن خيرة الحافظ القرطبي في فهرسة أبي بكر بن مفوَّز: قد أدركته بسني ولم آخذ عنه، واجتمعت به، أنشدني له أبو القاسم بن الأبرش يخاطب بعض أكابر أصحاب محمد بن حزم والإشارة لابن حزم الظاهري:

يا من تعنى أمورًا لن يعانيها   خلِّ التعاني وأعطِ القوس باريها
تروي الأحاديث عن كل مسامحة   وإنما لمُعانيها معانيها

قال: وأنشدنا لبعضهم:

لا رعى الله عزمة ضمنت لي   سلوة الصبر والتصبر عنه
ما وفت غير ساعة ثم عادت   مثل قلبي تقول: لا بد منه

وقرأ الرضي ببلده على ابن صاحب الصلاة آخر أصحاب ابن هذيل، وسمع منه كتاب التلخيص للواني، وسمع بمصر من ابن المنير وجماعة، وروى عنه الحافظ المزني واليونيني والظاهري وآخرون، وانتهت إليه معرفة اللغة وغريبها. وكان يقول: أحرف اللغة على قمسين: قسم أعرف معناه وشواهده، وقسم أعرف كيف أنطق به فقط — رحمه الله تعالى. ومن فوائد الرضي الشاطبي المذكور ما ذكره أبو حيَّان في البحر قال: وهو من غريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزينب بنت إسحاق النصراني الرسعيني، وقد سبق ذكر هذه الأبيات:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون: ما بال النصارى تحبهم وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم: إني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

ومن نظم الرضي المذكور:

منغص العيش لا يأوي إلى دعةٍ من كان في بلدٍ أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته سكنى بلاد ولا سكنى إلى أحد

وله:

لولا بناتي وسيئاتي لطرت شوقًا إلى المماتِ
لأنني في جوار قومٍ بغَّضني قربهم حياتي

وتحاكم إلى رضي الدين المذكور الجزار والسراج الوراق أيهما أشعر، وأرسل إليه الجزار شيئًا فقال: هذا شعر جزل من نمط شعر العرب، فبلغ ذلك الوراق، فأرسل إليه شيئًا، فقال: هذا شعر سلس، وآخر الأمر قال: ما أحكم بينكما — رحمه الله تعالى.

وأم العز بنت أحمد بن علي بن هذيل أخذت قراءة نافع عن أم مُعفَّر — حرم الأمير محمد بن سعد — وبرعت في حفظ الأشعار، وتوفيت بشاطبة إثر خروجها من حصار بلنسية سنة ٦٣٦.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد حيَّاز الشاطبي الأوسي، قدم مصر، وكان أخذ عن ابن برطله، وابن البراء، وغيرهما، وعمل فهرسة شيوخه على حروف المعجم، وحج وعاد إلى بلده، ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثماني عشرة وسبعمائة — رحمه الله تعالى وغفر له.

وأبو عثمان سعيد بن يونس بن عيال — قاضي شاطبة — توفي في المحرم سنة ٤٤٠، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة السعدي الشاطبي، قدم مصر ودمشق طالب علم، وسمع أبا الحسن بن أبي الحديد، وأبا منصور العكبري، وغيرهما، وصنف

غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم، وسمعه عليه أبو محمد الأكفاني، وتوفي بأرض حوران من أعمال دمشق في رمضان سنة ٤٦٥ — رحمه الله تعالى ورضي عنه — عن المقري في النفح، وقد سبق بعض ترجمته نقلًا عن ابن الأبار في التكملة.

هوامش

(١) بمناسبة «نفزة» نقول: إنه جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي: نفزة — بالفتح ثم السكون وزاي — مدينة بالمغرب بالأندلس. وقال السلفي: نِفْزَة — بكسر النون — قبيلة كبيرة، منها بنو عميرة وبنو ملحان المقيمون بشاطبة، ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن الفقيه النفزي، أحد الأئمة على مذهب مالك، وله تصانيف. وأبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن النفزي الأندلسي سمع مشايخنا ودخل نيسابور وأصبهان، وخرج من بغداد سنة ٦١٣ ودخل شيراز. وأبو عبد الله محمد بن سليمان الميالسي النفزي، وهو ابن أخت غانم بن الوليد بن عمرو بن عبد الرحمن المخزومي أبي محمد، من الأندلس، روى عن خاله، مات في شوال سنة ٥٢٥، ومولده سنة ٤٣٤. قال أبو الحسن المقدسي: وأبو محمد عبد الغفور بن عبد الله بن محمد بن عبد الله النفزي، وله تصانيف، مات في ربيع الآخر سنة ٥٣٩، وأبوه من أهل الرواية، مات في سنة ٥٣٧. انتهى كلام ياقوت.

وجاء في تاج العروس: ونفزة بلدة بالمغرب، هكذا نقله الصاغاني. وقال ياقوت في المعجم: مدينة بالأندلس. وقال شيخنا: وهذا غلط ظاهر؛ إذ لا يعرف ببلاد المغرب بلدة يقال لها نفزة، وإنما المصنف رأى النسبة إليها فظنها بلدة، وهي قبيلة مشهورة من قبائل البربر الذين بالمغرب، كما في البغية في ترجمة الشيخ أبي حيَّان. وقال في نفح الطيب: وخلص عبد الرحمن الداخل إلى المغرب، ونزل على أخواله نفزة، وهم قبيلة من برابرة طرابلس. انتهى.

قلت: وهكذا ذكره الحافظ في «التبصير»، ونسب إليها جماعة من المحدثين كالمنذر بن سعيد البلوطي النفزي، ذكره الرشاطي، ومحمد بن سليمان المالقي النفزي وعبد الله بن محمد النفزي، ذكرهما ابن بشكوال، ثم قال: ونفزة قرية بمالقة، منها ابن أبي العاص النفزي شيخ الشاطبي. فالعجب من إنكار شيخنا على المصنف وقوله: إنه لا يعرف بالمغرب بلدة اسمها نفزة، وقد صرَّح ياقوت في معجمه في المجلد الثاني لما سرد

قبائل البربر فقال: وهذه أسماء قبائلهم التي سمِّيت بها الأماكن التي نزلوا بها، وهي هوارة وأمناهة وضريسة ومُغيلة وفجُّومة وليطة ومطماطة وصنهاجة ونفزة وكِتامة ... إلى آخر ما ذكر، فكيف يخفى على شيخنا هذا؟

قلت: ومن المنسوبين إلى هذه وجيه الدين موسى بن محمد النفزي، محدِّث، مات بمصر.

والإمام أبو عبد الله محمد بن عبَّاد النفزي، خطيب جامع القزويني الذي دفن بباب الفتوح من مدينة فاس، وله كرامات شهيرة، وعبد الله بن أحمد بن قاسم بن مناد النفزي، ممن لقيه البرهان البقاعي، مات قريب الخمسين والثمانمائة. ا.هـ.

المدن القريبة من شاطبة

ومن أقرب المدن إلى شاطبة مدينة «أوليبة Oliva»، وسكانها اليوم ثمانية آلاف، يحف بها شجر التوت والزيتون، ثم بلدة يقال لها «مولينل Molinell»، وفي نواحيها كروم كثيرة، يصدر منها موسم زبيب معروف بالزبيب البلنسي، ثم بلدة يقال لها «فرجل Vergel»، وبلدة يقال لها: «أُنداره Ondara»، وهذه البلدة الأخيرة (أندارة) سبق ذكرها، وقلنا: إنه ينسب إليها رجال من أهل العلم في زمن العرب، منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعافري، ذكره ابن الأبار في التكملة، يعرف بابن الأنداري

دانية DENIA

ثم مدينة «دانية»[1] والسكة الحديدية من بلنسية إلى دانية تشق بساتين قرقاجنت Carcagente، ثم يدخل في وادي فالدينية Valldigna، ويمر بطبرنة وأندة وأوليبه، حتى ينتهي إلى دانية، وهذه البلدة قد سقطت اليوم عما كانت عليه في زمن العرب؛ فجميع سكانها بحسب قول دليل بديكر ١٢٤٠٠ نسمة، وقد ورد في الدليل المذكور أنها بلغت في زمان العرب أَوْجَ عظمتها؛ فكان فيها سنة ٧١٥ الموافقة سنة ١٢٥٣ نحو من خمسين ألف نسمة، ومنظرها بديع، ومسارح لمحاتها تبهج الناظر، ولها رابية مشرفة على البحر يعلوها حصن تداعى الآن إلى الخراب. والبلدة مبنية إلى الجهة الجنوبية الشرقية من هذه الرابية، وقد زرت هذه البلدة في سنة ١٩٣٠ أثناء سياحتي في الأندلس، وبت فيها ليلةً واحدة، وتذكرت أيام العرب الخالية في جملة ما تذكرته في هذه السياحة.

والإسبانيون يلفظون دانية بالإمالة، كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، وقد نقلوا هذه الإمالة عن العرب الذين كانوا في الأندلس كلها يميلون الألف فيقولون للباب:

بيب، ويقولون: «خمس ميِّهْ» لا خمسمائة، ويقولون: «كل سني» بدلًا من «كل سنة»، وإذا قال الواحد منهم: «والدنا» كسر الواو وأسكن اللام؛ فتسمعه كأنه يقول: «ولِّدنا»، ويقولون: «الإمام الأوزيعي» بدلًا من «الإمام الأوزاعي»، ويلفظون «الحكِم» بكسر الكاف، و«فرقِد» بكسر القاف، ويقولون: «كتيب» بدلًا من «كتاب»، وهلم جرًّا مما لا يحصى.

وكان الرومانيون يقولون لدانية: «دانيوم» Danium، وهي في الأصل مدينة أيبيرية استعمرها اليونانيون أيام ما كانوا بمرسيلية، وكان بحذاء الحصن الذي في دانية هيكل منسوب إلى «ديانا Diana»، ووراء دانية جبال ذات ارتفاع لها مناظر بهيجة أشهرها جبل مونغو Mongo، وعلوه ٧٦١ مترًا، وفي رأس هذا الجبل آثار من وقت وجود الفرنسيس في إسبانيا في أوائل القرن الماضي؛ لأن العالمين الإفرنسيين بيوت Biot وأراغو Arago قاسا من هذه القمة سنة ١٨٠٦ خط نصف النهار الباريزي.

وبالقرب من دانية رأس في البحر يقال له رأس «سان أنطونيو»، وعلى مسافة خمسة كيلومترات إلى غربي دانية قرية يقال لها «جابية Javia»، وفي نواحيها كثير من الكروم، ويخرج منها موسم زبيب عظيم، ودانية اليوم مركز تجارة للزبيب الفاخر يصدرون منه كثيرًا إلى إنكلترة.

جاء ذكر دانية في معجم البلدان؛ قال: دانية — بعد الألف نون مكسورة بعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة — مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية، على ضفة البحر شرقًا، مرساها عجيب يسمى السُّمان، ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز. وكانت قاعدة ملك أبي الحسن مجاهد العامري، وأهلها أقرأ أهل الأندلس؛ لأن مجاهدًا كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق عليهم الأموال؛ فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده؛ فكثروا في بلاده، ومنها شيخ القراء أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني — صاحب التصانيف في القراءات والقرآن. ا.هـ.

وجاء في النفح: وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد مرسية وبلنسية ودانية والسهلة والثغر الأعلى. فمن أعمال مرسية أوريولة والقنت ولورقة وغير ذلك، ومن أعمال بلنسية شاطبة التي يضرب بحسنها المثل، ويعمل بها الورق الذي لا نظير له، وجزيرة شقر، وغير ذلك. وأما دانية فهي شهيرة ولها أعمال. وأما السهلة فإنها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة؛ ولذا عدَّها بعضهم من كور الثغر الأعلى، ولها مدن وحصون … إلخ. وقد تقدم نقل ذلك عن نفح الطيب.

وجاء في صبح الأعشى ذكر دانية، قال: هي من شرق الأندلس، وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة، قال ابن سعيد: حيث الطول تسع عشرة درجة

وعشر دقائق، والعرض تسع وثلاثون درجة وست دقائق، وهي غربي بلنسية على البحر عظيمة القدر كثيرة الخيرات، ولها عدة حصون، وقد صارت الآن من مضافات برشلونة مع بلنسية. ا.هـ.

وقال الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق: ومدينة دانية على البحر عامرة حسنة لها ربض عامر، وعليها سورٌ حصين، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر قد بُني بهندسةٍ وحكمة، ولها قصبة منيعة جدًّا، وهي على عمارة متصلة وشجرات تين كثيرة وكروم. وهي مدينة تسافر إليها السفن وبها ينشأ أكثرها؛ لأنها دار إنشاء السفن ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق، ومنها يخرج الأسطول للغزو. وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير يظهر من أعلاه جبال «يابسة» في البحر، ويسمَّى هذا الجبل «جبل قاعون». ا.هـ. يريد بيابسة جزيرة يابسة التي أعلى قمة في جبالها تعلو ٤٧٥ مترًا.

وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية بقلم المستشرق سيبولد Seybold: دانية مركز كورة من الشمال الشرقي من مقاطعة القنت، وهي المقاطعة الجنوبية من المقاطعات الثلاث التي كانت تتشكل منها مملكة بلنسية، وهذه المقاطعات هي: قشتلون وبلنسية والقنت. فدانية التي عدد أهلها اليوم ١٤٠٠٠ واقعة على الطرف الجنوبي الشرقي من خليج بلنسية، وإلى الشمال من جبل مونغو الذي كان العرب يقولون له جبل قاعون، وهو جبل ارتفاعه ٧١٢ مترًا، وإلى الشمال الغربي من رأس سان أنطونيو مرسى دانية، وهو مرسًى جيد، والمدينة هي من بناء اليونان الفوسيين الذين كانوا في مرسيلية وأمبورية، بنوها في القرن السادس قبل المسيح، وكان مبنيًّا على الأكمة المشرفة على دانية هيكل يقال له: «أرتَميز»، وفي زمن الرومان قيل له: ديانيوم؛ أي مدينة ديانا، ثم جاء العرب فقالوا: دانية، ولفظوها بالإمالة، والإسبانيون يقولون لها دينية Dinia.

وكانت دانية في القديم حليفة للرومانيين، ولكن القرطاجنيين لم يتعرَّضوا لها، وانتصر «كاتون» فيها على الإسبانيول قبل سنة ١٩٥، كما أن «سرتوريوس» — منقذ إسبانية — وجد فيها معقلًا حصينًا، وكانت في زمن الرومان إلى جانب بومبي Pompié، فانتقم منها قيصر، ومع هذا فقد كانت في أيام الرومانيين زاهرة كما يستدل على ذلك من آثارها الحفرية، ولكن لم تبلغ في وقت من الأوقات ما بلغته من العظمة في أيام العرب؛ إذ كان فيها خمسون ألف نسمة. ولا يعلم كيف كانت دانية في أيام القوط.

وكان لدانية شأن في زمن عبد الرحمن الأول الأموي، ولكن تعاظم شأنها في أيام ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة سنة ١٠١٣؛ إذ جاءها مجاهد العامري مولى عبد

الرحمن بن المنصور، وهو أبو الجيش مجاهد الموفق الذي استولى عليها سنة ١٠١٥ إلى سنة ١٠٣٠ وعلى جزر الباليار، وأراد أن يستولي على سردانية، ثم خلفه ابنه عليٌّ إقبال الدولة، فملكها من سنة ١٠٤٤ إلى سنة ١٠٧٦، ولم يزل فيها إلى أن انتزعها من يده المقتدر بن هود — ملك سرقسطة — فبقيت إلى سنة ١٠٨١ تابعة لسرقسطة.

ثم عندما تقاسم أولاد المقتدر بن هود مملكة أبيهم خرجت دانية مع لاردة وطرطوشة في حصة المنذر من أولاد المقتدر، فبقيت تحت طاعته إلى سنة ١٠٩٠، ثم وليها سليمان سيد الدولة تحت وصاية بني بتير إلى سنة ١٠٩٢، ثم تعاقبت عليها الولاة من قبل المرابطين والموحدين، وكانت تقع فيها ثورات غير قليلة، وسنة ١٢٤٤ استرجعها الإسبانيون من المسلمين على يد القائد الألماني كرُّوس Carroz، الذي كان أمير جيش جاك الأول ملك أراغون. وسنة ١٣٣٦ جعلها بطرس الرابع كونتية، كما أنه في زمن فرديناند وإيزابلا صارت مركيزية.[٢]

ثم إنهم في سنة ١٦١٠ طردوا منها المسلمين الذين كانوا هناك، من أهل العمل والصناعة، فسقطت دانية عن مكانتها بذهابهم، وكان ذلك في زمن فيليب الثالث — ملك إسبانية — وفي حرب الوراثة الإسبانية ظهر لها شأن وحاصرها فيليب الخامس ثلاث مرات، وأخذها سنة ١٧٠٨، ثم إن الفرنسيس استولوا عليها سنة ١٨١٢. انتهى ملخصًا. وقد ذكر سيبولد أن أشهر عالم عربي خرج من دانية هو المفسِّر الكبير أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني.

وجاء في كتاب «البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لأبي العباس بن عذارى المراكشي في الجزء الثالث من هذا الكتاب المطبوع على يد المستشرق لافي بروفنسال أن مجاهدًا العامري المنتزي على مدينة دانية والجزائر الشرقية كان من فحول فتيان بني عامر، قدَّمه المنصور بن أبي عامر عليها، وكان عند وقوع الفتنة بقرطبة مقدمًا على هذه الجزائر الثلاث، فلما صح عنده وقوعها خرج إلى دانية وضبطها وجميع أعمالها المنضافة إليها وتسمَّى بالموفق بالله، وكتب بهذا اللقب عن نفسه، وكُتب له به، وكان ذا نباهة ورئاسة، زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة، منها العلم والمعرفة والأدب، وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة، قصد هذه الجزائر ميورقة ومنورقة ويابسة؛ فانتزى على جميعها لنفسه، وتغلَّب عليها وحماها، وغزا منها جزيرة سردانية، فغلب على كثيرٍ منها. وكان مجاهد هذا من أهل العفاف والعلم فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألَّفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم فأجزل

صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير، ومضى على ذلك طول عمره إلى أن حانت وفاته بعد أن ملكها ستًّا وثلاثين سنة، جرَّها في أمرٍ ونهي.

قال حيَّان بن خلف:

> كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره؛ لمشاركته في علوم اللسان ونفوذه في علوم القرآن، عني بذلك من صباه إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن ذلك عظيم ما مارسه من الحروب برًّا وبحرًا حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة، فكانت دولته أكثر الدول خاصة وأسراها صحابة، على أنه كان مع علمه أشد الناس في الشعر وأحرمهم لأهله وأنكدهم على نشيده، لا يزال يتعقبه كلمة كلمة كاشفًا لما زاغ فيه من لفظة أو سرقة، فلا تسلم على نقده قافية، ثم لا يفوز المتخلص من مضماره على الجهد لديه بطائل ولا يحظى له بنائل، فأقصر الشعراء عن مدحه، وخلَّى الشاكرون ذكره، ولم يكن في الجود والكرم ينهمك فيُعزى إليه، ولا قصَّر عنه فيوصف بضده، أعطى وحرم، وجاد وبخل، فكأنه نجا من عهدة الذم، ثم أكثر التخليط في أمره؛ فطورًا كان ناسكًا، وتارة يعود خليعًا فاتكًا، لا يساتر بلهو ولا لذة ولا يستفيق من شراب وبطالة. ا.هـ.

وقال في ولده علي بن مجاهد المسمَّى إقبال الدولة:

> كان على هذا أسره الروم في صباه حين وقعتهم على أبيه بجزيرة سردانية، ومكث عندهم سنين كثيرة، وقصته مذكورة مشهورة عند الروم الذين نشأ بينهم، وقد كان أبوه قبل فدائه من الأسر رشَّح للإمارة بعده ولده الأصغر حسن الملقَّب بسعد الدولة وصرَّف الأمر بعده لعلي هذا الطليق؛ فأورثهما العداوة بينهما، فلما فداه أبوه قلَّده الأمر بعده، فمضى أبو الجيش والدهما لسبيله وقد وطَّد الأمر لعلي هذا دون أخيه؛ فخيَّر علي هذا أخاه أن يصرف له الأمر ويتخلَّى له عن الملك فلم يجسر على إظهار ما في نفسه، ولم ينصرم الحول حتى أحدث على أخيه ما نذكره.
>
> وذلك أنه صار إلى المعتضد بن عبَّاد وكان زوج أخته؛ فشكا إليه بثَّه، ودبَّر معه أمره، وقد وقع في نفسه الفتك بأخيه علي، فوجَّه المعتضد معه إلى مدينة دانية غلامًا من غلمانه شجاعًا، وجاء حسن معه على وجه الزيارة لأخيه، فدبَّر

معه الرأي في غدر أخيه وزير أبيه في أي وقت ويوم يكون، فكان اتفاقهم على حين خروجه من صلاة الجمعة، وكانت عادته إذا خرج سار إلى ساحل البحر، فيقف عليه ساعة ثم ينصرف. وكان إذا ركب يكون حسن أخوه وراءه، فلما انصرف أخذ في زقاق ضيق، فعندما دخل فيه غمز غلام ابن عَبَّاد لحسن بن مجاهد أن يجرد السكين ويضرب به أخاه؛ فجرده وضربه ضربةً دهش فلم يصنع بها شيئًا، ثم ثنى عليه بضربةٍ أخرى فلقيه أخوه بيده اليسرى، وأراد الغلام أن يطعنه بالرمح الذي كان بيده فحاول تقليبه إليه؛ فنشب في الحائط لضيق الزقاق، وندَر بعض فتيان علي بن مجاهد فقتلوا الغلام، وفر حسن هذا على وجهه راكضًا فرسه، ووقعت هوشة في الناس ودهشة ولم يعرفوا خبر الكائنة.

وخرج حسن فارًّا من باب المدينة يقول: غُدرنا يا مسلمين، إلى أن وصل بلنسية وبها زوج أخته عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر وقد خاب أمه، وحمل علي بن مجاهد إلى قصره على حاله؛ فأقام بقية يومه مطرحًا لا يتكلم إلى غد ذلك اليوم، ثم عانى نفسه حتى رجعت قوته. وخرج ذلك الغادر من مدينة بلنسية إلى صهره المعتضد بن عبَّاد فلم يمكنه من أمنيته، وشاعت قصته في بلاد الأندلس، فلم تكن له منزلة عند الناس، ثم رجع إلى بلنسية فكان في كنف أخته إلى أن فارق الدنيا، وبقي أخوه في بلاده، وتقدم في معاقدة قواده، واستوى على سرير ملكه، فلم يختلف عليه أحد من أهل عسكره، وتصرَّفت في إمارته أمور كثيرة يطول شرحها إلى أن أخرجه ابن هود منها. ا.هـ.

ثم ذكر ابن عذارى في محلٍّ آخر أحمد بن سليمان بن هود المسمَّى بالمقتدر بالله، فقال إنه أُحرج إقبال الدولة علي بن مجاهد من دانية بعد أن حاصره بها حتى بادر إليه بإرساله في أن يسلمه في نفسه وأهله وولده ويسلِّم إليه ملكه، وينزل له عن قصره بفرشه؛ فقبل منه ابن هود، وأمر برفع القتال عنه، فكان خروج ابن مجاهد من دانية في سنة ثمانٍ وستين «وأربعمائة»، وأقطع له فيها إقطاعًا لمؤنة عيشه فكان آخر العهد به.

قال الورَّاق: وقد كان علي بن مجاهد هذا وجَّه بمركب كبير مملوء طعامًا إلى بلاد مصر سنة الجوع العظيم الذي كان بها، وذلك في عام سبعة وأربعين وأربعمائة؛ فرجع إليه المركب مملوءًا ياقوتًا وجوهرًا وذهبًا، فكان ذلك كله عند ابن مجاهد المذكور في خزائنه، فلما استولى ابن هود على دانية ظفر به. وبايع أهل دانية ابن هود خاصتهم

وعامتهم، فاتسع عمله وزادت مملكته، وأقام في دانية ريثما نظر في أمرها، وأتقن ما رأى إتقانه منها، ورحل منها إلى حضرة سرقسطة وفي عسكره علي بن مجاهد في زيٍّ خشن. ا.هـ. ببعض تصرف.

وذكر أحمد بن يحيى الضبي في كتابه بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس مجاهد بن عبد الله العامري أبا الجيش الموفَّق — مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد بن أبي عامر — أنه كان من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم وأهلها، نشأ بقرطبة، وكانت له همة وجلادة وجرأة، فلما جاءت أيام الفتنة، وتغلَّبت العساكر على النواحي بذهاب دولة ابن أبي عامر قصد هو في من تبعه الجزائر التي في شرق الأندلس، وهي جزائر خصب وسعة فغلب عليها وحماها. ثم قصد منها في المراكب إلى سردانية جزيرة من جزائر الروم كبيرة في سنة ست أو سبع وأربعمائة، فغلب على أكثرها وافتتح معاقلها، ثم اختلفت عليه أهواء الجند، وجاءت أمداد الروم، وقد عزم على الخروج منها طمعًا في تفرق من يشغِّب عليه، فعاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكبه. فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال: أنبأنا شريح بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال: أخبرنا أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني قال: كنت مع أبي الجيش مجاهد لما غزا سردانية فدخل بالمراكب في مرسى نهاه عنه أبو خرُّوب — رئيس البحريين — وهبَّت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركبًا مركبًا إلى الريف والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للمسلمين، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى صوته لا يقدر هو ولا غيره على أكثر لارتجاج البحر وزيادة الريح، وكان أبو خروب يقول: قد كنت حذرته من الدخول ها هنا فلم يقبل، فبجريعة الذقن ما تخلصنا في يسير من المراكب. هذا آخر خبر ثابت بن محمد.

ثم عاد مجاهد إلى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته، واختلفت به الأحوال حتى غاب على دانية وما يليها، واستقرَّت إقامته فيها، وكان من الكرماء على العلماء باذلًا للرغائب في استمالة الأدباء، وهو الذي بذل لأبي غالب اللغوي تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذي ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد، على ما ذكرنا في باب التاء.

والذي ذكره ابن عميرة هو أن الأمير المذكور أبا الجيش مجاهدًا وجَّه إلى تمام بن غالب أيام غلبته على مرسية — وأبو غالب ساكن بها — ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة كتابه في اللغة لأبي الجيش مجاهد، فرد الدنانير وأبى من ذلك، ولم يفتح في هذا بابًا البتة، وقال: والله لو بُذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب؛ فإني لم أجمعه له خاصة لكن لكل طالب عامة. قال ابن عميرة: فأعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها، توفي أبو غالب تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التيَّاني المرسي سنة ٤٣٦، وفي السنة نفسها مات أبو الجيش مجاهد الموفق هذا. وفي أبي الجيش مجاهد المذكور يقول أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي، وقد استماله على البعد بخريطة مال ومركب:

أتتني الخريطة والمركبُ	كما اقترن السعد والكوكبُ
وحط بميمنائه قلعة	كما وضعت حملها المُقْرَبُ
على ساعة قام فيها الثنا	على هامة المشتري يخطبُ

إلى أن قال في آخرها:

مجاهد رضت إباء الشموسِ	فأصحب من لم يكن يصحبُ
فقل واحتكم بسميع الزمانِ	مُصيخٍ إليك بما ترغبُ

وقد ألَّف مجاهد في العروض كتابًا يدل على قوته فيه. ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس أحمد بن رشيق وتعويله عليه وبسطه يده في العدل، وحسن السياسة، وكان موته في دانية سنة ٤٣٦، وقال ابن عميرة: إنه كان يروي عن عبد الوارث بن سفيان عن قاسم عن ابن قُتيبة، ويروي عنه حاتم بن محمد وغيره.

وقد ذكرت الانسيكلوبيدية الإسلامية مجاهدًا العامري بترجمة خاصة، وقالت: إن العامريين أرسلوه واليًا على دانية في زمن هشام الثاني، وأنه عندما انحلَّ أمر الخلافة في قرطبة كان أول من أعلن استقلاله من الأمراء، وذلك بين سنة ١٠٠٩ و١٠١٠ وفق رأس القرن الخامس للهجرة. ثم استولى على جزر الباليار، وقليلًا على طرطوشة، ونادى بخلافة رجل من بني أمية اسمه عبد الله المُعيطي، وذلك سنة ٤٠٥، وكان قد غزا سردانية وتوفق في أوائل غزاته، إلا أنه فشل في الآخر، ووقعت امرأته وابنه في الأسر. وقد

وصفه مؤرخو العرب بالعلم والفضل وتنشيط العلوم والآداب، وكان مؤرخو النصارى في القرون الوسطى يسمونه بالملك «لوبو Rey Lobo»، فكان له أقوى أسطول في البحر المتوسط ترتجف منه سواحل كتلونية وبروفنسة وإيطالية. ا.هـ. ملخصًا.

وقد ذكرنا هذا القدر من أخبار مجاهد العامري مع أنها متعلقة بالقسم التاريخي من الكتاب، ونحن الآن في القسم الجغرافي منه، والسبب في ذلك هو أن دانية اشتهرت بولاية مجاهد العامري وهو اشتهر بها، وفي زمانه عظم شأنها وغلظت شوكتها، وكان لها إقليم كبير من جملته قسنطانية، وهي اليوم بلدة صغيرة سكانها سبعة آلاف، وكانت عامرة في أيام العرب ذات قلاعٍ وأسوارٍ وأبراج، وقد نسب إليها رجال من أهل العلم.

وبين دانية وشاطبة تقع بلدة يقال لها بنو غانم على ١٣ كيلومترًا من شاطبة وبلدة أخرى يقال لها «البيضاء» على نحو من ثلاثين كيلومترًا، وبلدة «أونتنيان» وقد مرَّ ذكرها في تراجم بعض العلماء الذين انتسبوا إلى شاطبة، وبلدة يقال لها اليوم «القوي Alcoy»، وهي عامرة، فيها ثلاثون ألف نسمة، والطريق من القوي إلى القنت هي طريق عربات، وفي تلك المساحة بلدة يقال لها: «جيجونة» أهلها سبعة آلاف، وفيها حصن عربي قديم، وهاتيك البلاد في غاية الخصب وكثرة الخيرات.

ذكر من انتسب، من أهل العلم إلى دانية

أبو عبد الله محمد بن خلصة النحوي الكفيف، أصله من شذونة، وسكن دانية، وأخذ بها عن أبي الحسن بن سيده، وأقرأ العربية بدانية وببلنسية، وكان شاعرًا مجودًا متقدمًا في علوم اللسان، وشعره مدوَّن، وممن أخذ عنه أبو عمر بن شرف، وأبو عبد الله بن مطرف التطيلي، وغيرهما، ذكره ابن عزيز، وقال الحميدي: كان من النحويين المتصدِّرين والأساتيذ المشهورين والشعراء المجوِّدين، رأيته بدانية بعد الأربعين وأربعمائة، وقرأت أنا في ديوان شعره قصيدة له على رويِّ الراء يهنئ فيها المقتدر أحمد بن سليمان بن هود بدخول دانية وتملكها سنة ٤٣٨.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعود الأنصاري المقري، أخذ عن أبي عمرو المقري، وكان من كبار أصحابه، وتصدَّر للإقراء، وعنه أخذ أبو داود سليمان بن نجاح قراءةَ نافع من طريق قالون عند قدومه دانية للأخذ عن أبي عمرو سنة ٤٣٢، وحُكي أنه ساكنه ونسخ الأصول منه وهو غلام دون العشرين، ولابن سعود هذا تواليف منها كتاب «الاختلاف بين نافع من رواية قالون وبين الكسائي من رواية الدوري»، وكتاب «السنن

والاقتصاد في الفرق بين السين والصاد»، وكتاب «الاقتضاء للفرق بين الذال والضاد والظاء»، قال ابن الأبار في التكملة: وقفت عليها، وبعضها مكتوب عنه قبل السبعين والأربعمائة.

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن سليمان العبدري، أخذ القراءات عن أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني إمام القراء، وروى عنه تواليف، وحدَّث عنه أبو العباس بن عيشون بالتيسير والتلخيص من كتب أبي عمرو، نقل ذلك ابن الأبَّار عن ابن خير.

وأبو عبد الله محمد بن أبي المسك يروي عن أبي الوليد الوقشي، وعن أبي داود المقري، حدَّث عنه أبو زكريا بن صاحب الصلاة — والد الأستاذ أبي محمد المعروف بعبدون — بعضه من خط محمد بن عيَّاد الذي نقل عنه ابن الأبار.

وأبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، يعرف بابن اللبَّانة. كان من جلَّة الأدباء وفحول الشعراء، غزير الأدب، قويَّ العارضة، متصرفًا في البلاغة، وله تواليف منها كتاب «مناقل الفتنة»، وكتاب «نظم السلوك في وعظ الملوك»، وكتاب «سقيط الدُّرَر ولقيط الزَّهَر»، سُمع منه بعضها في حاضرة المرية، وشعره مدوَّن، توفي بميورقة سنة ٥٠٧، ودفن إزاء أبي العرب الصقلي. وكان هذا طوالًا، وكان ابن اللبَّانة دحداحًا، ذكر ذلك ابن الأبَّار في التكملة.

وابن اللبَّانة هذا هو الذي قال أحسن قصائده في المعتمد ابن عبَّاد صاحب إشبيلية، وكتب عن آل عبَّاد من النثر أيضًا ما حفظه الناس حفظ النظم لنفاسته. ولما كان كلٌّ من نظمه ونثره فيهم قد شرَّق وغرَّب، وأبكى وأطرب، فلا بأس في ذكر بعض ما قاله فيهم، فمن ذلك رثاؤه لهم بعد انقراض ملكهم في إشبيلية، وهي قصيدة رثاء لا يُماثلها في التاريخ إلا قصيدة رثاء عمارة اليمني للخلفاء الفاطميين بمصر. قال ابن اللبَّانة في بني عبَّاد، والراثي والمرثي كلٌّ منهما من آل لحم منسوب إلى شرف عبل الذراع ضخم:

تبكي السماء بمزنٍ رائحٍ غادِ — على البهاليل من أبناء عبَّادِ
على الجبال التي هُدَّت قواعدها — وكانت الأرض منهم ذات أوتادِ
والرابيات عليها اليانعات ذوت — أنوارها فغدت في خفض أوهادِ
عِرِّيسة دخلتها النائبات على — أساودٍ لهمُ فيها وآسادِ
وكعبة كانت الآمال تخدمها — فاليوم لا عاكف فيها ولا بادِ[٣]
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخُذ — في ضم رحلك واجمع فضلة الزادِ

ويا مؤمل واديهم ليسكنه … خَفَّ القطين وجفَّ الزرع بالوادي[٤]

وأنت يا فارس الخيل التي جعلت … تختال في عدد منهم وإعدادِ

ألقِ السلاح وخلِّ المشرفي فقد … أصبحت في لهوات الضيغم العادي

لما دنا الوقت لم تُخلف له عدةٌ … وكل شيءٍ بميقاتٍ وميعادِ

إن يُخلعوا فبنو العباس قد خُلعوا … وقد خلت قبل حمصٍ أرضُ بغدادِ[٥]

حموا حريمهمُ حتى إذا غُلبوا … سيقوا على نسقٍ في حبل مقتادِ

وأُنزلوا عن متون الشُّهب واحتُملوا … فويق دهمٍ لتلك الخيل أندادِ

وعِيث في كل طوقٍ من دروعهمُ … فصيغ منهن أغلال لأجيادِ

نسيتُ إلا غداة النهر كونهمُ … في المنشآت كأموات بألحادِ

والناس قد ملئوا البرَّين واعتبروا … في لؤلؤ طافيات فوق أزبادِ

حُطَّ القناع فلم تُستر مخدَّرةٌ … ومُزِّقت أوجهٌ تمزيق أبرادِ[٦]

حان الوداع فضجَّت كل صارخةٍ … وصارخٍ من مُفدَّاةٍ ومن فاد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها … كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت … تلك القطائع من قطعات أكباد

وله في قضية المعتمد بن عبَّاد القصيدة التالية:

انفض يديك من الدنيا وساكنها … فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها السفلي: قد كتمت … سريرة العالم العلوي أغمات

طوت مظلتها لا بل مذلتها … من لم تزل فوقه للعز رايات

من كان بين الندى والبأس أنصله … هندية وعطاياه هنيدات

رماه من حيث لم تستره سابغة … دهر مصيباته نبل مصيبات

أنكرت إلا التواءات القيود به … وكيف تنكر في الروضات حيات

غلطت بينهما بينٌ عقدن له … وبينها فإذا الأنواع أشتات

وقلت: هن ذؤابات فلم عكست … من رأسه نحو رجليه الذؤابات

حسبتها من قناة أو أعنته … إذا بها لثقاف المجد آلات

دَرَوْهُ ليثًا فخافوا منه عاديةً … عذرتهم فلعدو الليث عادات

لو كان يفرج عنه بعض آونة … قامت بدعوته حتى الجمادات

بحر محيط عهدناه تجيء له | كنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفي على آل عباد فإنهمُ | أهلَّة ما لها في الأفق هالات
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة | كانت لنا بكر فيها وروحات
أرض كأن على أقطارها سرجًا | قد أوقدتهن بالأذهان أنبات
وفوق شاطئ واديها رياض رُبًا | قد ظللتها من الأنشام دوحات
كأن واديها سلك بلبتها | وغاية الحسن أسلاك ولبات
نهر شربت بعبرَيْهِ على صور | كانت لها من قبيل الراح سورات
وربما كنت أسمو للخليج به | وفي الخليج لأهل الراح راحات
وبالغروسات لا جفَّت منابتها | من النعيم غروسات جنيات

وله أيضًا قصيدة عملها في المعتمد وهو في الأسر بأغمات سنة ٤٨٦، وهي من الطبقة الأولى:

تنشق بريحان السلام فإنما | أفض به مسكًا عليك مختما
وقل لي مجازًا إن عدمت حقيقةً | لعلك في نعمى فقد كنت منعما
أفكر في عصر مضى بك مشرقًا | فيرجع ضوء الصبح عندي مظلما
وأعجب من أفق المجرة إذ رأى | كسوفك شمسًا كيف أطلع أنجما
لئن عظمت فيك الرزية إننا | وجدناك منها في الرزية أعظما
قناة سعت للطعن حتى تقسمت | وسيف أطال الضرب حتى تثلما

ومنها:

بكى آل حمود ولا كمحمد | وأولاده صوب الغمامة إذ همى
حبيب إلى قلبي حبيب وقومه | عسى طلل يدنو بهم ولعلما
صباحهمُ كنا به نحمد السُّرى | فلما عدمناه سرينا على عمى
وكنا رعينا العزَّ حول حماهمُ | فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى
وقد ألبست أيدي الليالي قلوبهم | مناسج سَدَّى العَيث فيها وألحما
قصور خلت من ساكنيها فما بها | سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمى
تجيب بها الهام الصدى ولطالما | أجاب القيان الطائر المترنما

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد جمعًا والخميس عرمرما

ومنها:

حكيت وقد فارقت ملكك مالكًا ومن ولهي أحكي عليك متمما
مصاب هوى بالنيرات من العلا ولم يُبق في أرض المكارم معلما
تضيق عليَّ الأرض حتى كأنما خلقت وإياها سوارًا ومعصما
ندبتك حتى لم يخلِّ ليَ الأسى دموعًا بها أبكي عليك ولا دما
وإني على رسمي مقيم فإن أمت سأجعل للباكين رسميَ موسما
بكاك الحيا والريحُ شقت جيوبها عليك وناح الرعد باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى حدادًا وقامت أنجم الجو أفحما
وحار ابنك الإصباح وجدًا فما اهتدى وغار أخوك البحر غيظًا فما طمى
وما حل بدر التم بعدك دارة ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما
قضى الله أن حطوك عن ظهر أشقر أشمَّ وأن أمطوك أشأم أدهما

وكان قد انفكت عنه القيود فأشار إلى ذلك بقوله:

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت قيودك منهم بالمكارم أرحما
عجبت لأن لان الحديد وإن قسوا لقد كان منهم بالسريرة أعلما
سينجيك من نجى من السجن يوسفًا ويؤويك من آوى المسيح ابن مريما

ومن شعر ابن اللبانة في بني عباد بعد نكبتهم قوله:

أستودع الله أرضًا عندما وضحت بشائر الصبح فيها بدلت حلكا
كان المؤيد بستانًا بساحتها يجني النعيم وفي عليائها فلكا
في أمره لملوك الدهر معتبر فليس يغتر ذو ملك بما ملكا
نبكيه من جبل خرَّت قواعده فكل من كان في بطحائه هلكا

ولابن اللبَّانة في بني عبَّاد من النثر قوله:

> بماذا أصفهم وأحلِّيهم؟ وأي منقبةٍ من الجلالة أوليهم؟! فهم القوم الذين تجل مناقبهم عن العدِّ والإحصاء، ولا يتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء، ملوك بهم ازَّيَنَتْ الدنيا وتحلَّت، وترقَّت حيث شاءت وحلَّت، إن ذكرت الحروب فعليهم يُوقف منها الخبر اليقين، أو عدَّت المآثر فهم في ذلك في درجة السابقين، أصبح الملك بهم مشرق القسام، والأيام ذات بهجةٍ وابتسام، حتى أناخ بهم الحمام، وعطل من محاسنهم الوراء والأمام، فنقل إلى العدم وجودهم، أو لم يرع بأسهم وجودهم، وكل ملك آدمي فمفقود، وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود، فأول ناشئة ملكهم، ومحصَّل الأمر تحت ملكهم، عظيمهم الأكبر، وسابقة شرفهم الأجل الأشهر، وزينهم الذي يعد في الفضائل بالوسطى والخنصر، محمد بن عبَّاد، ويكنى أبا القاسم، واسم والده إسماعيل.

إلى أن يقول في وصف المعتضد والد محمد الملقب بالمعتمد:

> المعتضد أبو عمرو عبَّاد — رحمه الله تعالى — لم تخلُ أيامه في أعدائه من تقييد قدم ولا عطِّل سيفه من قبض روح وسفك دم، حتى لقد كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلا رءوسًا، ولا تُنبت إلا رئيسًا ومرءوسًا، فكان نظره إليه أشهى مقترحاته وفي التلفُّت إليها استعمل جلَّ بكره وروحاته، فأبكى وأرَّق، وشتَّت وفرَّق، ولقد حكي عنه من أوصاف التجبُّر ما ينبغي أن تصان عنه الأسماع ولا يتعرَّض له بتصريح ولا إلماع. ا.هـ.

ومن هنا يعلم أن ابن اللبَّانة لم يكن ممن تعميه العلائق عن الحقائق؛ فإن المعتضد بن عبَّاد كان مشهورًا بالقسوة، وكان يُروى عنه في ذلك نوادر تشمئزُّ النفوس من مطالعتها؛ مثل أنه كان يجعل رءوس الأعداء الذين ظفر بهم فقطع رءوسهم في معرض خاص يتلذذ بالاختلاف إليه من وقتٍ إلى آخر، ويأخذ كل رأس بيده يقلبه بين أنامله تشفِّيًا وتبريدًا لإحنته التي لم تزل في صدره لم يخففها كون ذلك العدو قد ذهب وكانت منيته على يده، بل هو يريد أن يديم تذكار ذلك الظفر بمشاهدة تلك الرءوس المقطوعة بين يديه، ويتلذذ بحصول تلك الجماجم لديه، وهذه هي القسوة الوحشية التي جعلت مثل ابن اللبانة مع اجتماعه بآل عبَّاد في النسب اللخمي، ومع تقلبه في نعم المعتمد التي

أنطقته بتلك المدائح السائرة والأوابد التي لا تزول من الذاكرة، يشير إليها مع الاستنكار والاقشعرار.

ولنعد إلى ما قال الشاعر المذكور في آل عبَّاد، فمن ذلك أنه كان للمعتمد ولد رشحه للملك من بعده ولقبه بالمؤيد بنصر الله؛ فعاقته الفتنة عن مراده، وخُلع ونفي إلى أغمات في المغرب الأقصى، كما سيأتي الخبر عن ذلك في محله، فجاء محمد بن اللبَّانة إلى أغمات يفتقد ممدوحه القديم، فرأى ولده فخر الدولة هذا يشتغل في دكان صائغ بعد أن كان يحل من المجد أبراجًا ويطلع في هالة الملك هلالًا وهَّاجًا، لا تسعه القصور الشامخة، والصروح الممرَّدة، فأذكره ذلك من مجد هذا الشاب السالف ما أنطقه بهذه القصيدة الفريدة:

أذكى القلوب أسًى أبكى العيون دمًا ... خَطْبٌ وجدناك فيه يشبه العدما
أفراد عقد المنا منا قد انتثرت ... وعِقد عروتنا الوثقى قد انفصما
شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمت ... والرُّزء يعظم فيمن قدره عظما
طُوِّقتَ من نائبات الدهر مخنقة ... ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد كونك في دكان قارعة ... من بعد ما كنت في قصرٍ حكى إرما
صرَّفت في آلة الصواغ أنملةً ... لم تدرِ إلا الندى والسيف والقلما
يدٌ عهدتك للتقبيل تبسطها ... فتستقلُّ الثريا أن تكون فما
يا صائغًا كانت العليا تصاغ له ... حليًا وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى ... هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
وددت إذ نظرت عيني إليك به ... لو أن عينيَ تشكو قبل ذاك عمى
ما حطك الدهر لما حط من شرف ... ولا تحيَّف من أخلاقك الكرما
لح في العلا كوكبًا إن لم تلح قمرًا ... وقم بها ربوةً إن لم تقم علما
واصبر فربتما أحمدت عاقبة ... من يلزم الصبر يحمد غبَّ ما لزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكفأت ... ولو وفى لك دمع المزن لانسجما
بكى حديثك حتى الدر حين غدا ... يحكيك رهطًا وألفاظًا ومبتسما
وروضة الحسن من أزهارها عريت ... حزنًا عليك لأن أشبهتها شيما
بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى ... ريحانك الغضَّ يذوي بعدما نعما
لم يرحم الدهر فضلًا أنت حامله ... من ليس يرحم ذاك الفضل لا رُحما

شقيقك الصبح إن أضحى بشارقة وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

ولما ورد أبو بكر محمد بن اللبَّانة أغمات متفقدًا المعتمد في أسره سُرَّ المعتمد بوروده سرور ملك منكوب ذهب ملكه وانتثر سلكه، بصديق قديم كان من خواصه ومن تأنس نفسه به، فأقام عنده ما أقام، فلما أزمع السفر استنفد المعتمد وسعه ووجه إليه بعشرين مثقالًا وثوبين، وكتب إليه معها — وقد كان المعتمد سيد الشعراء كما كان سيد الأمراء:

إليك النَّزْر من كف الأسيرِ فإن تقبل تكن عين الشكورِ
تقبَّل ما يذوب له حياءً وإن عَذَرته حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه أليس الخسف ملتزم البدور
ورجٍّ لجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسير!
وكم أعلت علاه من حضيضٍ وكما حطت ظباه من أميرِ!
وكم من منبر حنت إليه أعالي مرتقاه ومن سرير
زمانَ تزاحفت عن جانبيه جياد الخيل بالموت المبير
فقد نظرت إليه عيون نحس مضت منه بمعدوم النظير
نحوس كنَّ في عقبى سُعودٍ كذاك تدور أقدار القدير
وكما أحظى رضاه من حَظِيٍّ وكم شهرت علاه من شهيرِ!
زمانَ تنافست في الحظ منه ملوك قد تجور على الدهور
بحيث يطير بالأبطال ذُعرٌ ويُلفَى ثَمَّ أرجح من ثَبيرِ

فامتنع ابن اللبانة عن قبول ذلك ورده إليه بجملته، وكتب مجيبًا له:

سقطت من الوفاء على خبير فذرني والذي لك في ضميري
تركت هواك وهو شقيق ديني لئن شُقَّت برودي عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا إذا أصبحت أجحف بالأسير
أسير ولا أصير إلى اغتنامٍ معاذ الله من سوء المصير
إذا ما الشكر كان وإن تناهى على نعمَى فما فضل الشكور
جذيمة أنت والأيام خانت وما أنا من يقصِّر عن قصير

أنا أدرى بفضلك منك إني لبست الظل منه في الحرور
غني النفس أنت وإن ألحَّت على كفيَّك حالات الفقير
تصرَّف في الندى حيل المعالي فتسمح من قليلٍ بالكثير
أحدث منك عن نبع غريب تفتَّح عن جنى زهر نضير
وأعجب منك إنك في ظلام وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعني سرورًا إذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلُّني رتب المعالي غداة تحل في تلك القصور
تزيد على ابن مروانٍ عطاءً بها وأُنيف ثَمَّ على جرير
تأهب أن تعود إلى طلوعٍ فليس الخسف مُلتَزَم البدور

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات:

ردَّ بِرِّي بغيًا عليَّ وبِرًّا وجفا فاستحق لومًا وشكرَا
حاط نزري إذ خاف تأكيد ضرِّي فاستحق الجفاء إذ حاط نزرا
فإذا ما طويت في البعض حمدًا عاد لومي في البعض سرًّا وجهرا
يا أبا بكرٍ الغريب وفاءً لا عدمناك في المغارب ذخرا
أي نفع يجدي احتياط شفيق مت ضرًّا فكيف أرهب ضرًّا

فأجابه ابن اللبَّانة:

أيها الماجد السميدع عذرَا صَرْفي البرَّ إنما كان بِرًّا
حاش لله أن أجيح كريمًا يتشكَّى فقرًا وكم سدَّ فقرا
لا أزيد الجفاء فيه شقوقًا غدر الدهر بي لأن رمت غدرا
ليت لي قوة أو آوي لركنٍ فترى للوفاء مني سرًّا
أنت علمتني السيادة حتى ناهضت همتي الكواكب قدرا
ربحت صفقةٌ أُزيل برودًا عن أديمي بها وألبس فخرا
وكفاني كلامك الرطب نيلًا كيف أُلقي درًّا وأطلب تبرا
لم تمت إنما المكارم ماتت لا سقى الله الَارض بعدك قطرا

قال عبد الواحد المراكشي في المعجب:

وابن اللبَّانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى، من أهل مدينة دانية، وهي على ساحل البحر الرومي، كان يملكها مجاهد العامري وابنه علي. ولابن اللبَّانة هذا أخٌ اسمه عبد العزيز وكانا شاعرين إلَّا أن عبد العزيز منهما لم يرضَ الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبًا، وإنما كان من جملة التجار. وأما أبو بكر فرضيه بضاعةً وتخيَّره مكسبًا وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم، ونال أسنى الرتب عندهم، وشعره نبيل المأخذ، وهو فيه حسن المهيع، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها، وجودة المعاني ولطافتها، كان منقطعًا إلى المعتمد، معدودًا في جملة شعرائه، لم يفد عليه إلا آخر مدته؛ فلهذا قلَّ شعره الذي يمدحه به. وكان — رحمه الله — مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه قليلَ المعرفة بعلله، لم يُجِد الخوض في علومه، وإنما كان يعتمد في أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته، يدل على ذلك قوله في قصيدة له:

من كان ينفق من سواد كتابه   فأنا الذي من نور قلبي أنفقُ[٧]

ولما خلع المعتمد على الله وأخرج من إشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلَّب في البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميورقة، وبها مبشِّر العامري المتلقب بالناصر؛ فحظي عنده وعلت حاله معه، وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء، فمنها قصيدة ركب فيها طريقة لم أسمع بها لمتقدم ولا لمتأخر؛ وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح، وهذا لم أسمع به لأحد، وأول القصيدة:

وضحت وقد فضحت ضياء النيرِ   فكأنما التحفت ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته   ما قلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكأن طيب حديثها   متعت منه بطيب مسكٍ أذفرِ
هزَّت بنغمة لفظها نفسي كما   هزَّت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت فاستغفرتها فجرت على   عاداته في المذنب المستغفر
جادت عليَّ بوصلها فكأنه   جدوى يديه على المقل المقتر
ولثمت فاها فاعتقدت بأنني   من كفه سوَّغت لثم الخنصر
سمحت بتعنيفي فقلت: صنيعة   سمحت علاه بها فلم تتعذر

نـهـدٌ كـقـوة قـلـبـه فـي مـعـرك   وحشًا كلين طباعه في محضر
ومعاطف تحت الذوائب خلتها   تحت الخوافق ما له من سمهري
حسنت أمامي في خمار مثل ما   حسن الكميُّ أمامه في مغفر
وتوشحت فكأنه في جوشن   قد قام عِثْيره مقام العنبر
غمزت ببعض قِسِيِّه من حاجبٍ   ورنت ببعض سهامه من محجر
أومت بمصقول اللحاظ فخلته   يومي بمصقول الصفيحة مشهر
وضعت حشاياها فويق أرائكٍ   وضع السروج على الجياد الضمَّر
من رامة أو رومة لا علم لي   أأتت عن النعمان أم عن قيصر
بنت الملوك فقل لكسرى فارس   تُعزَى وإلا قل لتبع حمير
عاديت فيها غر قومي فاغتدوا   لا أرضهم أرضي ولا هم معشري
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها   يتعافرون على الثريد الأعفر
طافت عليَّ بجَمرة من خمرة   فرأيت مَرِّيخًا براحة مشتري
فكأن أنملها سيوف مبشر   وقد اكتست علق النجيع الأحمر
ملك أزرة برده ضمت على   بأس الوصيِّ وعزمة الإسكندر

هذا ما اخترت له منها. ومن نسيبه المليح الخفيف الروح. قوله يتغزل ويمدح مبشرًا هذا:

هلا ثناك عليَّ قلب مشفقُ   فترى فراشًا في فراش يحرقُ
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجى   ورجعت كالنفس الذي لا يلحق
وغرقت في دمعي عليك وغمَّني   طرفي فهل سبب به أتعلقُ
هل خدعة بتحية مخفية   في جنب موعدك الذي لا يصدق
أنت المنية والمنى فيك استوى   ظل الغمامة والهجير المحرق
لك قدُّ ذابلةِ الوشيح ولونها   لكنْ سناؤك أكحلٌ لا أزرق
ويقال: إنك أيكة حتى إذا   غنيت قيل: هو الحمام الأورق
يا من رشقت إلى السلوِّ فردني   سبقت جفونك كل سهمٍ يرشق
لو في يدي سحر وعندي أخذة   لجعلت قلبك بعض حينٍ يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الجوى   وترق لي مما تراه وتشفق

جسدي من الأعداء فيك لأنه ... لا يستبين لطرف طيف يرمق
لم يدر طيفك موضعي من مضجعي ... فعذرته في أنه لا يطرق
جفت عليك منابتي ومنابعي ... فالدمع ينشع[٨] والصبابة تورق
وكأن أعلام الأمير مبشر ... نشرت على قلبي فأصبح يخفق

وفيها يقول يصف لعب الأسطول في يوم المهرجان:

بشرى بيوم المهرجان فإنه ... يوم عليه من احتفائك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها ... ريش الغراب وغير ذلك سوذق[٩]
وعلى الخليج كتيبة جرارة ... مثل الخليج كلاهما يتدفق
وبنو الحروب على الجواريِّ التي ... تجري كما تجري الجياد السبق
ملأ الكماة ظهورها وبطونها ... فأتت كما يأتي السحاب المغدق
خاضت غدير الماء سابحة به ... فكأنما هي في سراب أينق
عجبًا لها ما خلت قبل عيانها ... أن يحمل الأُسْدَ الضواري زورق
هزت مجاديفًا إليك كأنها ... أهداب عين للرقيب تحدِّق
وكأنها أقلام كاتب دولة ... في عرض قرطاس تخط وتمشق

وله فيها إحسان كثير. وله من قصيدة يتغزل:

فؤادي معنى بالحسان منعَّت ... وكل موفًّى في التصابي موقت
ولي نَفَسٌ يخفي ويخفت رقةً ... ولكنَّ جسمي منه أخفى وأخفت
وبي ميِّت الأعضاء حيٌّ دلاله ... غرامي به حي وصبريَ ميت
جعلت فؤادي جفن صارم جفنه ... فيا حرَّ ما يصلى به حين يصلت
أذل له في هجره وهو ينتمي ... وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
وما انبت حبل منه إذ كان في يدي ... لريحان ريعان الشبيبة منبت

ومن جيد ما له من قصيدة يمدح بها مبشرًا ناصر الدولة أولها:

راق الربيع ورق طبع هوائه فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلافة يحكي مشعشعها مصعَّد مائه
لولا ذبول الورد قلت بأنه خد الحبيب عليه صبغ حيائه
هيهات أين الورد من خد الذي لا يستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته والطير ليس غناؤها كغنائه
يتنفس الإصباح والريحان من حركات معطفه وحسن روائه
ويجول في الأرواح روح ما سرت رياه من تلقائه بلقائه
صرف الهوى جسمي شبيه خياله من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن ما على خاطري له بيتان يصف بهما خالًا وهما:

بدا على خده خالٌ يزينه فزادني شغفًا فيه على شغفِ
كأن حبة قلبي عند رؤيته طارت فقال لها في الخد منه: قِفي

انتهى ما انتخبناه من شعر ابن اللبَّانة نقلًا عن نفح الطيب وعن كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، وقد قال صاحب النفح: وعاش أبو بكر بن اللبانة المعروف بالداني بعد المعتمد، وقدم ميورقة آخر شعبان سنة ٤٨٩، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها:

ملك يروعك في حلى ريعانه راقت برونقه صفات زمانه

قال المقري: وأين هذا من أمداحه في المعتمد؟ قلت: يظهر أن المقري لم يطلع على قصائد ابن اللبانة في مبشر صاحب ميورقة، ولو اطلع عليها لرآها مع أمداح المعتمد من نسجٍ واحد، ثم قال: وتذكرت هنا من أحوال الداني أنه دخل على ابن عمَّار في مجلس، فأراد أن يندِّر به، قال له: اجلس يا داني بغير ألف. فقال له: نعم يا ابن عمَّار بغير ميم، وهذا هو الغاية في سرعة الجواب والأخذ بالثأر في المزاح.

وممن ينسب إلى دانية، من أهل العلم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن معيون الزهري الفارض، له رواية عن ابن سيده، وكان من أهل المعرفة بالعربية والتقدم في علم الفرائض والحساب، روى عنه أبو بكر بن أبي الدوس وغيره، قاله ابن الأبار.

وأبو بكر محمد بن علي بن بشري، رحل حاجًّا، ودخل بغداد فسمع بها من أبي بكر بن طرخان سنة ٥١٣، وسمع أيضًا أبا محمد بن عمر السمرقندي وغيرهما، وقفل إلى بلده دانية، فحدَّث، وسمع منه زاوي بن مناد وغيره، عن ابن الأبار.

ومحمد بن حسين بن أبي بكر الحضرمي، يعرف بابن الحنَّاط، ويكنى أبا بكر، كان من بيت علم وصلاح، تفقه بأبيه، وسمع من أبي داود المقري، وأبي علي الغساني، وأبي علي الصدفي، ودرَّس الفقه ببلده دانية، وأخذوا عنه، وتوفي ليلة الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٥١٤، قال ابن الأبار: قرأت ذلك في رخامة بإزاء قبره.

وأبو بكر محمد بن سعيد بن زكريا بن عبد الله بن سعد، كان عالمًا بالطب، وألَّف كتاب التذكرة، وتعرف بالسعدية نسبةً إليه، وأنشد فيها قصيدة للوقشي، قال ابن الأبار: وأحسبه لقيه، وكان حيًّا في سنة ٥١٦.

ومحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبد الله، وهو أخو أبي العباس بن عيسى، سمع ببلده دانية من أبي داود المقري، قال ابن الأبار: ووجدت سماعه لكتاب التقصِّي لأبي عمر بن عبد البر مع أخيه وأبي الحسن بن هذيل في سنة ٤٩٤، ولقي أبا الحسن الحصري، ثم خرج حاجًّا سنة ٥٠٤، وأقام مدة بدمشق بقرى العربية، وكان شديد الوسوسة في الوضوء، ذكره ابن عساكر، وقال: أنشدني أخي أبو الحسين هبة الله بن الحسن الفقيه قال: أنشدنا أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الأندلسي الداني بدمشق قال: أنشدنا أبو الحسن علي بن عبد الغني المقري القيرواني المعروف بالحصري لنفسه:

يموت مَنْ في الأنام طُرًّا ... من طيبٍ كان أو خبيثِ

فمستريحٌ ومستراحٌ ... منه كذا جاء في الحديثِ

قال: وأنشدنا الحصري لنفسه:

لو كان تحت الأرض أو فوق الذُّرا ... حُر أُتيح له العدو ليوذا

فاحذر عدوك وهو أهون هيِّنٍ إن البعوضة أَرْدَت النمروذا

قال ابن عساكر: وقد رأيته وأنا صغير ولم أسمع منه شيئًا، وخرج إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي سنة ٥١٩.

ومحمد بن إبراهيم بن مختار اللخمي، يكنى أبا عبد الله، كان فقيهًا مشاورًا، وله سماع من أبي بكر بن برنجال في سنة ٥٢٩، عن ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن عطية العبدري، له رحلة حج فيها وسماع من أبي العباس بن عيسى في سنة ٥٣١، ذكره ابن الأبار.

ومحمد بن الحسن بن محمد بن سعيد المقري، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن غلام الفرس، والفرس لقب لرجل من تجار دانية اسمه موسى المرادي، كان سعيد — مولاه — أخذ القراءات عن أبي داود بن نجاح، وأبي الحسن بن الدوش، وغيرهما، وسمع من أبي علي الصدفي، وأبي محمد البطليوسي، وأبي بكر الفرضي، وغيرهم، وكتب إليه من أعلام الأندلسيين أبو بكر بن العربي، وأبو عبد الله بن الحاج، وأبو عبد الله البلغي وسواهم، ورحل حاجًّا من دانية يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٢٧، فأدى الفريضة، وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي وغيره في أثناء رحلته إلى الشرق، حيث أقام ثلاثة أعوام ونيفًا.

ثم رجع إلى دانية فدخلها ليلة عيد الأضحى سنة ٥٣٠، وتصدر للإقراء، وإسماع الحديث، وتعليم العربية، وكان إمامًا فاضلًا ضابطًا متقنًا، مشاركًا في علوم جمة، حسن الخط، أنيق الوراقة، رحل الناس إليه للقراءة عليه لعلوِّ روايته واشتهار عدالته، وانتهت إليه الرئاسة في القراءات وعللها، وولي بآخرة من عمره الخطبة بجامع بلده من قبل القاضي مروان بن عبد العزيز المتأمِّر عند خلع دولة المرابطين، وروى عنه ابن بشكوال، وأبو العباس الأقليشي، وأبو عمر بن عياد، قال ابن الأبار: وحدثنا عنه من شيوخنا أبو عبد الله بن سعادة المعمر، وحكى ابن عيَّاد عنه قال: أنشدني أبو الحسن بن الدوش الشاطبي لما أتيت إليه للقراءة عليه متمثلًا في معرض التواضع:

لعمر أبيك ما نُسب المعلَّى إلى كرم وفي الدنيا كريمُ

ولكن البلاد إذا اقشعرَّت وصوَّح نبتها رُعيَ الهشيمُ

قال ابن الأبَّار: توفي ابن سعيد بدانية عصر يوم الأحد الثالث عشر من المحرم سنة ٥٤٧، وصُلي عليه يوم الاثنين بعده، ودفن بقبلي جامعها الأكبر أثناء سماء مدرار كثر عنها الماء في قبره، فاحتيج إلى امتياحه وفرش الرمل عند إنزاله فيه، وكان مولده في ٢١ رمضان سنة ٤٧٢.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأموي الداني، نزيل سبتة، يعرف بالأشقر، أخذ القراءات عن ابن شفيع، وأبي محمد بن إدريس وغيرهما، وأقرأ القرآن بسبتة، وكان فاضلًا عالي الرواية، توفي في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥٩.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعيد بن يوسف الحضرمي، يعرف بابن الخسراته، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعيد، واقتصر عليه، وخلفه في الإقراء، وكان ضعيف الخط، توفي حول سنة ٥٦٤ وقد قارب الثمانين، ومولده سنة ٤٨٧، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن حاضر بن منيع العبدري، صحب الأستاذ أبا الحسن طاهر بن سبيطة، وأخذ عنه تأليفه في البروج والمنازل، حدث عنه به عُليم بن عبد العزيز الحافظ، ذكره ابن الأبار ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الخزرجي، تفقه بأبيه أبي العباس، وبأبي بكر الحناط، وأخذ القراءات عن ابن سعيد، وقدم للشورى، قال ابن الأبار: وكان جليلًا نبيهًا فاضلًا نزيهًا، توفي بمرسية سنة ٥٦٦، واحتمل إلى دانية فدفن بها، ومولده سنة ٥٠٠.

وأبو بكر محمد بن إبراهيم بن أحمد بن خلف بن جماعة بن مهدي البكري، سمع من أبيه ومن ابن سعيد، وأجاز له أبو المظفر الشيباني، وأبو علي بن العرجاء، وأبو طاهر السلفي، وأبو عبد الله المازري، وولي قضاء دانية بلده، وكان عارفًا بالأحكام مقدمًا في عقد الشروط، حسن الخط، مشكور السيرة، امتحن في آخر عمره؛ فقبض عليه واعتقل بمرسية، وتوفي بها على تلك الحال في العشر الأول من ربيع الأول سنة ٥٨١، وصلِّي عليه بها، وسيق إلى قسطنطانية فدفن فيها مع سلفه، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدري، روى عن أبي العباس بن عيسى، وأبي إسحاق بن جماعة، قال ابن الأبَّار: حدَّث عنه شيخنا أبو عامر الفهري، لقيه ببلنسية، وأجاز له في سنة ٥٨٠.

وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن خلف بن جهور القضاعي، من أهل بيران، عمل دانية، سمع من أبي عبد الله بن بركة الشاطبي في سنة ٥٣٧، وسمع منه أبو عبد الله بن أبي البقاء، وتوفي في نحو السبع والتسعين والخمسمائة، عن ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن عمر بن علي بن عبيد الله بن عامر المعافري، من بيت نَبَاهةٍ وعلم وأدب في دانية، روى عن مشيخة بلده، وتولى الأحكام بدانية، وكان له حظ من قرض الشعر، توفي في نحو سنة ٦١٠، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الجبار بن محمد بن خلف القيسي، من أهل دانية، سكن بلنسية، سمع من أبي الحسن بن النعمة كثيرًا، وأخذ القراءات عن ابن طارق، وكان من أهل الضبط، شديد الأخذ على القارئ، متعنتًا في ذلك، حتى كان يعاب به، وكان ورعًا منقبضًا مع حدة كانت فيه، أقرأ بمسجد ابن عيشون من داخل بلنسية، وأمَّ في صلاة الفريضة به، توفي في رمضان سنة ٦١١، قال ابن الأبَّار: استجازه لي عبد الكريم بن عمَّار صاحبنا.

وأبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي اللخمي، يعرف بابن التجيبي، سمع من أبي القاسم بن حبيش، وأبي محمد بن الفرس، وأجاز له أبو طاهر السلفي، وقرأ كتاب سيبويه على الذهبي، وكان أديبًا كاتبًا بليغًا، عالمًا بالعربية، تولَّى قضاء بلده، وكان سمحًا جوادًا، كريم العشرة، واسع المروءة. قال ابن الأبَّار: لقيته ببلنسية ثم بدانية، وأخذت بها عنه كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي بين سماع ومناولة، توفي صدر الأربعاء ١٦ رمضان سنة ٦١٨، ومولده سنة ٥٦٠.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عطية بن موسى بن عبد العزيز الأنصاري. قال ابن الأبَّار: سمع من أبي الخطاب بن واجب وأبي عمر بن عات من شيوخنا، وأجاز له أبو القاسم بن حبيش، وأبو بكر بن أبي زمنين، وغيرهما، ثم رحل حاجًّا وسمع بمكة من أبي عبد الله بن أبي الصيف اليمني وغيره، ولقي بالإسكندرية أبا عبد الله الحضرمي، وأبا الثناء الحرَّاني، وجماعة، وكتب إليه أبو الطاهر الخشوعي سنة ٥٩٥ وغيره. قال ابن الأبَّار: وكتب كثيرًا على رداءة خطه، وقفل إلى بلده دانية وحدَّث بيسير، وسمعت من يغمزه فتركت الأخذ عنه، وتوفي سنة ٦٢٣، نقلنا هذا عن ابن الأبَّار ملخصًا.

ومفرِّج مولى إقبال الدولة علي بن مجاهد — صاحب دانية — يروي عن أبي عمرو المقري، ذكره ابن نقطة، ونقل ذلك ابن الأبَّار.

وأبو علي الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد الأموي، المعروف بابن برنجال، سمع من أبي بكر بن صاحب الأحباس، وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما.

وله رحلة حج فيها، وسمع من أبي إسحاق إبراهيم بن صالح القروي، وببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن إبراهيم سنة ٤٦٥، وبعسقلان من أبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد التجيبي، أخذ عنه كتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه، وكان فقيهًا على مذهب مالك، ووليِّ الأحكام ببلده دانية، توفي في نحو الخمسمائة، ذكره ابن الأبار، ونقل بعض خبره عن ابن عياد.

وأبو العلي حسن بن علي بن محمد بن فرج الكلبي، يعرف بابن الجميِّل، أصله من دانية، سكن سبتة، كان من أهل النباهة، وهو والد أبي الخطاب عمر وأبي عمرو عثمان المحدثَيْن، توفي في رمضان سنة ٥٧١ وهو ابن ثمانين سنة.

وأبو علي حسين بن أبي بكر الحضرمي، يعرف بابن الحنَّاط، سمع أبا عبد الله بن مبارك الصائغ، ودرس الفقه، وكان فاضلًا زاهدًا، تفقَّه به ابنه محمد، وروى عنه عبد الله بن سعيد، وحدَّث عن أبي علي هذا أبو عبد الله الخولاني البَلَغي بكتاب «حياة القلوب» لابن أبي زمنين عن ابن مبارك عن أبي عمرو المقري عن مؤلفه، قال ابن الأبَّار: وقرأت في لوح رخام بإزاء قبره أنه توفي ليلة الاثنين لعشر بقين لربيع الأول سنة ٥٠٠، وكان وقوفي على ذلك أيام اشتغالي بقضاء دانية.

وأبو القاسم خلف بن سعيد بن خلف بن أيوب اليحصبي، يعرف بالمارمي، روى عن أبي عمرو المقري، سمع منه تأليفه في الفتن والأشراط عام وفاة أبي عمرو المذكور، ذكره ابن الأبار.

وأبو القاسم خلف بن أفلح الأموي، لقي أبا عمرو المقري بدانية وأخذ عنه بها، وأقرأ، وهو أحد شيوخ ابن سعدون الوشقي، ذكره ابن الأبار، ولم يذكر وفاته.

وأبو القاسم خلف بن مجرِّب، كان ممن أقرأ القرآن وعلَّم به، ومن الآخذين عنه أبو عبد الله بن عبد الجبار الداني، ذكره ابن الأبار.

وأبو القاسم خليفة بن أبي بكر القروي، سكن دانية ودرَّس الفقه بها، وكان بصيرًا بمذهب مالك يشاوره القضاة، تفقَّه به جماعة منهم ابن سماحة، توفي بدانية يوم الثلاثاء ١٩ ذي القعدة سنة ٥١٤، ذكره ابن الأبار.

وأبو الربيع سليمان بن سعيد بن محمد بن سعيد العبدري الداني، يعرف باللوشي، سمع من أبيه، وأبي داود المقري، وأبي علي الصدفي، وولي قضاء دانية سنة ٥٣٠، وعزل سنة ٥٤٠، وكان فاضلًا مع غفلة كانت فيه، توفي بدانية في ربيع الآخر سنة ٥٤٥.

وأم العز بنت محمد بن علي بن أبي غالب العبدري الداني، تروي عن أبيها، وأبي الطيب بن برنجال، وعن زوجها أبي الحسن بن الزبير، وأبي عبد الله بن نوح، وكانت

تحسن القراءات السبع، قال ابن الأبار: وسمعت بقراءتها مرتين صحيح البخاري من أبيها، وتوفيت سنة ٦١٦.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى بن فرج بن الزهيري العبدري، قال ابن الأبار: كذا قرأت اسمه بخطه، نشأ بالمرية، وأخذ بدانية في جامعها القديم عن أبي داود المقرئ سنة ٤٩٢، وسمع من أبي علي الصدفي رياضة المتعلمين لأبي نعيم سنة ٤٩٥، ولقي ابن الطراوة فأخذ عنه العربية، وحدَّث عنه في حياته بالغريب المصنَّف لأبي عبيد، ونزل قلعة حمَّاد من العدوة، فأقرأ بها نحوًا من عشرين عامًا، ثم انتقل إلى بجاية وأقرأ بها أيضًا نحوًا من ذلك، وتوفي في بجاية سنة ٥٤٠، ودفن بغار العابد منها، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة الأصبحي، أخذ عن أبي بكر بن نمارة، ولازم ببلنسية أبا الحسن بن سعد الخير، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر بن عوف، وأبي طاهر السلفي وأكثر عنه، وسمع من غيره، وكان نازلًا في الإسكندرية بالمدرسة العادلية، قاله أبو عبد الله التجيبي الذي هو من تلاميذه، كما أن من تلاميذه أيضًا أبا مروان عبد الملك بن محمد بن الكردبوس التوزري، وأبا محمد جعفر بن ميمون الشاطبي، وكان ابن سعادة هذا مقرئًا محدِّثًا ورعًا فاضلًا، روى التجيبي المارُّ الذكر أنه مات غريقًا في البحر شهيدًا، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح بن محمد بن يحيى بن عبد الله الحضرمي النحوي، من أهل دانية، أصله من قرية «بالمة» من جزء «بيران»، كان يعرف بابن صاحب الصلاة، ويشهر بعبدون، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعيد، وقرأ عليه الأدب وعلى أبيه يحيى، وتعلم العربية على طاهر بن سبيطة، ونزل شاطبة، فأقرأ بها ودرَّس الأدب والنحو، ثم نقله السلطان إلى بلنسية واستأدبه لبنيه لما كان عليه من التصاون والعدالة، فكان يعلِّم أولاد السلطان العربية بالقصر، ويعلم الناس بمسجد رحبة القاضي من بلنسية، وكان أديبًا مبرزًا مشاركًا في الفقه ظاهر التواضع طاهر الخلق، وكان أبو القاسم بن حبيش يُثني على تعليمه، وكان له شعر كثير اعتنى بتدوينه، وأخذ عنه جلَّة من المحدثين والأدباء، توفي ببلنسية بعد صلاة الظهر من يوم الأحد مستهل رجب سنة ٥٧٨، وحمل إلى دانية فدفن بقريته بالمة، ومولده سنة ٥١٧، كما ذكر ابن الأبَّار.

وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن موسى بن حفص الأنصاري، من أهل دانية، سكن شاطبة، وقد قدمنا ترجمته بين علماء شاطبة، ونقلنا عن ابن الأبار أنه توفي بالقاهرة سنة ٦٤٦.

وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن أبي إسحاق الجبنياتي، يعرف بابن أبي الطاهر، نشأ بسفاقس من أعمال إفريقية، ودخل الأندلس، واتصل بالموفق مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، كان من ذوي النباهة والنزاهة، قال ابن الأبار: وتوفي هنالك ذبيحًا سنة ٤١٥، ولم يعيَّن محل وفاته ذبيحًا أفي دانية أم في ميورقة أم في إحدى أخواتها؟

وأبو المطرَّف عبد الرحمن الألبيري من ألبيرة، سكن دانية، رحل وحج ورابط، وكان جارًا لابن أبي زمنين الفقيه بغرناطة، وسلك طريقة الزهَّاد والعباد، ولما كان في دانية بسيف البحر بأسفل قاعون جبل دانية رباط معروف لازم المترجَم هذا الرباط، وغرس الشجر الذي يرى هناك، وجعل قبره في هذا المحل، ذكره ابن الأبار نقلًا عن أبي داود المقرئ.

وأبو زيد عبد الرحمن بن عامر بن عبد العظيم المعافري، أخذ عن أبي عبد الله بن خَلَصَة الكفيف وغيره، وكان أديبًا شاعرًا عالمًا بالعربية حسن الخط جيد الضبط، أخذ عنه ابن أخيه أحمد بن عبد الله بن عامر المعافري، ذكره ابن الأبار نقلًا عن أبي الحجَّاج بن أيوب وعن محمد بن عيَّاد.

وأبو محمد عبد الرحمن المعروف بابن أوريا، ولِّي قضاء دانية، وتوفي بعد صلاة الجمعة للنصف من شعبان سنة ٥١٥، عن ابن الأبار عن ابن عيَّاد.

وأبو زين عبد الرحمن بن محمد بن تقي الحضرمي، روى عن أبي العباس بن عيسى الداني، سمع منه صحيح مسلم في سنة ٥٣١، عن ابن الأبار.

وعبد العزيز بن خلف بن محمد المعافري، روى بدانية عن أبي داود المقري سنة ٤٩٤، وقدم دمشق فحدَّث بها عنه بموطأ مالك، وسمع منه فيها أبو محمد بن الأكفاني، وأبو الحسين هبة الله بن عساكر، وجماعة، ذكره ابن عساكر وقال: سُئل عن مولده فقال: عند طلوع الفجر من يوم الثلاثاء لثمانٍ خلون من رجب سنة ٤٤٨، وكان مقدمه دمشق سنة ٥٠٢، ذكره ابن الأبار، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن أحمد العبدري، كان معتنيًا بلقاء الشيوخ ودراسة الرأي، كتب بقرطبة عن أبي الحسن بن الوزَّان نوازلَ أبي الوليد بن رشد، سمعها منه سنة ٥٣٤، وكان حسن الخط، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الجبار بن خلف بن لب اللاردي، من لاردة، سكن بلنسية ودانية، قرأ جميع البخاري على الباجي بدانية، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الثاني من هذا الكتاب عند الكلام عن لاردة.

وعمر بن محمد بن عبد الرحمن بن بيبش أبو حفص البكري الداني، يقال له: ابن أبي رطلة، سمع بدانية من أبي الحسن بن عز الناس، وأبي بكر بن جماعة، ورحل إلى مالقة، وسمع من علمائها. قال ابن الأبار: وكان مضعَّفًا إلا أنه كان صدوقًا في ما يرويه، توفي في شوال سنة ٦٠٦.

وعمر بن حسن بن علي بن محمد بن فرج الكلبي أبو الفضل الداني الأصل، السبتي الدار، ثم كنى نفسه أبا الخطاب، يعرف بابن الجميل، يذكر عنه أنه من ولد دحية بن خليفة الكلبي وسبط ابن البسَّام الفاطمي، نزيل ميورقة، سمع بالأندلس أبا القاسم بن بشكوال، وأبا بكر بن الجد، وأبا القاسم بن حبيش، وهذه الطبقة، وحدَّث بتونس بصحيح مسلم عن طائفة من هؤلاء وعن آخرين، وكان بصيرًا بالحديث، حسن الخط، معروفًا بالضبط، له حظٌّ وافر من اللغة، ولي قضاء دانية مرتين، ثم صُرف عنه لأمور نعيت عليه، فرحل إلى العدوة، ولقي بتلمسان قاضيها ابن حيون، وحدَّث بتونس سنة ٥٩٥، ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور، وعاد إلى مصر فاستأدبه الملك العادل بن أيوب أخو صلاح الدين لابنه الملك الكامل محمد الذي تولَّى الديار المصرية، وهو الذي أخرج الإفرنج من دمياط بعد حربٍ مشهورة في التاريخ، فنال المترجم في ظل بني أيوب دنيا عريضة، وله تآليف منها «أعلام النص المبين في المفاضلة بين أهل صفِّين»، قال ابن الأبار: كتب إليَّ بالإجازة سنة ٦١٣، ومات في ربيع الأول سنة ٦٣٣.

وعلي بن الدراج النحوي أبو الحسن الداني، أخذ العربية عن أبي تمام القطيني، وقعد للتعليم، أخذ عنه أبو القاسم بن محمد الخزرجي، وأبو عبد الله بن سعيد الداني، ذكره ابن الأبار، ولم يذكر تاريخ وفاته.

وأبو الحسن علي بن محمد بن لب بن سعيد القيسي المقرئ الشهيد، يُعرف بالباغي نسبةً إلى باغة من دانية، سكن إشبيلية، روى عن أبي عبد الله المغامي، وأبي داود المقرئ، وأخذ عنه أبو بكر بن رزق وغيره. قال ابن الأبار: استُشهد بعد سنة ٥٣٥، ولم يذكر كيف استشهد.

وأبو الحسن علي بن يوسف بن خلف بن غالب العبدري، روى عن أبي بكر بن الحنَّاط، وأبي بكر بن برنجال، وغيرهما، وكان فقيهًا، مشاورًا، مفتيًا كبيرًا، متضلعًا من العلوم، ولد سنة ٤٨٢، وتوفي في آخر سنة ٥٦٢.

وعلي بن صالح بن أبي الليث بن أسعد العبدري أبو الحسن بن عزِّ الناس الداني الدار، الطرطوشي الأصل، سمع أبا محمد بن الصيقل، وأبا بكر بن العربي، وأبا القاسم بن ورد، وكان فقيهًا متقنًا عالمًا بالأصول والفروع، دقيق النظر، جيد الاستنباط، لسنًا فصيحًا، وكان كبير فقهاء دانية ورأس الفتوى فيها، وله مصنَّفات، قال ابن الأبار: وقتل مظلومًا بدانية سنة ٥٦٦، وقال محمد بن عيَّاد: قُتل لسعاية عند السلطان محمد بن سعد سنة ٥٦٧، وكان مولده سنة ٥٠٨ بطرطوشة.

وعلي بن أحمد بن قوَّة الأزدي الداني، أخذ القراءات عن أبيه، وعن أبي القاسم بن حبيش، وأبي الحسن بن كوثر، وكان أديبًا شاعرًا، كتب أبو القاسم الملَّاحي كثيرًا من شعره، قال ابن الأبار: وكانت وفاته سنة ٦٠٨.

وأبو الحسن علي بن يوسف بن محمد بن أحمد الأنصاري الضرير الداني، يعرف بابن الشريك، كُفَّ بصره في صباه؛ فأقبل على العلم، واستفاد بتعليم العربية مالًا جليلًا، وكان أخذه للعلم في مرسية، حيث سمع من أبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وكذلك كان أخذ في دانية عن أبي القاسم بن تمام، وأبي إسحاق بن محارب، ولد سنة ٥٥٥، وتوفي في رجب سنة ٦١٩، قاله ابن الأبار.

وأبو الحسن عليم بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله العدوي الحافظ، سمع أبا عبد الله بن مغاور، ومن أبي جعفر بن جحدر، ومن أبي عبد الله بن سعيد الداني، وابن جماعة، ورحل إلى المرية سنة ٥٣٨، حيث سمع من أبي القاسم بن ورد، وأبي الحجاج القضاعي، وكان من العلماء الزهاد كثير المحفوظات إلى الغاية، وكان يقول: ما حفظت شيئًا فنسيته. وكان كثير الميل إلى الآثار والسنن، وله حظ عظيم من علم العربية، وكان ورعًا متواضعًا معظمًا في النفوس، ولد بشاطبة سنة ٥٠٩، وتوفي ببلنسية سنة ٥٦٤، وإنما ترجمناه هنا لأنه بدأ بطلب العلم في دانية.

وأبو يحيى زكريا بن محمد، لقي أبا عمرو المقرئ بدانية، وأخذ عنه أبو عبد الله بن باسه المقري الخطيب بجامع بلنسية، وسمع منه بدانية أبو عبد الله البَلَغي، وقال في اسمه أبو زكريا يحيى بن محمد لا أبو يحيى زكريا بن محمد، قاله ابن الأبار.

وأبو محمد الزبير بن محمد الفرضي، له سماع من أبي علي الصدفي، وكان من أهل العلم بالفرائض والحساب، أخذ عنه أبو عبد الله بن سعيد المقرئ الداني.

وأبو بكر زاوي بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجي، يعرف بابن تقسوط، سمع ببلده دانية أبا داود المقري، وأبا بكر بن برنجال، وبمرسية أبا علي الصدفي،

وبقرطبة أبا محمد بن عتاب وغيره، وأجاز له جلة من العلماء، وكان رجلًا صالحًا فاضلًا، قعد لإسماع الحديث، ولد بدانية، وتوفي بها ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة ٥٣٩، وفي آخر هذه السنة انقرضت دولة قومه المرابطين أو الملثمين بالأندلس، نقل ابن الأبار عن ابن عياد.

وأبو بشر طاهر بن عبد الرحمن بن سعيد بن أحمد الأنصاري، يعرف بابن سبيطة، كان من كبار تلاميذ أبي محمد البطليوسي، أقرأ العربية والآداب، وكان له حظ من علم النجامة، وألَّف فيه، روى عنه أبو الحجاج بن أيوب، وابن سيدبونه، وابن منيع، وغيرهم، وتوفي بدانية بعد سنة ٥٤٠، ذكره ابن الأبَّار عن ابن عيَّاد.

وأبو محمد القاسم بن علي بن صالح الأنصاري المقرئ المُرلِّي، نزيل دانية، أخذ القراءات عن أبي العباس القصبي، وأبي الحسن بن اليسع، وابن العريف الزاهد، وابن غلام الفرس، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، وتصدَّر بدانية للإقراء، وأخذ عنه الكثيرون، منهم أبو بكر أسامة بن سليمان الداني، ذكره ابن الأبار، ولم يذكر تاريخ وفاته.

وأبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي الداني، كان من أهل العلم بالعربية، متقدمًا فيها، وسكن المرية، وأخذ عنه ابن يسعون، وأبو عبد الله بن سعيد، قال ابن الأبار: كان حيًّا في سنة ٤٩١.

وأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن فتوح الحضرمي، يقال له ابن صاحب الصلاة، روى عن البطليوسي أبي محمد، وعن أبي بكر بن اللبَّانة وغيرهما، وكان أديبًا لغويًّا، روى عنه ابنه الأستاذ أبو محمد عبدون، توفي سنة ٥٥٠، قاله ابن الأبار.

وأبو زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن سيدبونه الخزاعي من قسطنطانية، عمل دانية، روى عن أبيه، وعن أبي إسحاق بن جماعة، وأخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعيد، وحج فلقي بالإسكندرية أبا عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي وغيره، سمع منه محمد بن عمر بن عامر الداني سنة ٥٧٨، عن ابن الأبَّار.

ويحيى بن عبد الله بن محمد بن حفص الأنصاري أبو الحسين الداني، سمع أبا القاسم بن حبيش، وعبد المنعم بن الفرس، وجماعة، وكتب للولاة، وخطب ببلده دانية، وكان جوادًا مضيافًا، قال ابن الأبار: لقيته بدار الإمارة، وسمعت منه، وتوفي بدانية في شوال سنة ٦٢٣، وكان مولده سنة ٥٦٤.

وأبو الحسين الداني، وهو يحيى بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري، من ولد سعد بن عبادة، سكن شاطبة، سمع من أبي الخطاب بن واجب وجماعة كثيرة،

وعني بالعلم، وكان ذا حظ من البلاغة والكتابة إلى نباهة البيت. قال ابن الأبار: صحبتُهُ مدة، ولما جرت الفتنة صارت إليه رئاسة شاطبة وتدبير أمورها من قبل محمد بن يوسف بن هود والي الأندلس، وتوفي في شعبان سنة ٦٣٤ عن خمس وخمسين سنة.

وأبو الحجاج يوسف بن محمد بن سماحة الداني، سمع من أبي علي الصدفي، وأبي محمد بن أبي جعفر، وتفقَّه به، وكان مائلًا إلى علم الكلام وأصول الفقه، ولِّي قضاء دانية ثم قضاء بلنسية بعد جعفر بن ميمون، وتوفي يوم عيد الفطر من سنة ٥٦١ وهو قاضٍ ببلنسية.

وأبو الحجاج يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أيوب الفهري، كان يقال له: أبو الحجاج الداني، سكن بلنسية، وكانت قراءته على أبيه وعلى ابن برنجال، وأخذ القراءات عن ابن سعيد الداني، والعربية عن أبي العباس بن عامر، وتفقه بابن بقي، وأجاز له ابن عتَّاب، وكان متقدمًا في الآداب، إمامًا في معرفة الشروط، كاتبًا بليغًا شاعرًا، ناب في الأحكام، وتوفي في شعبان سنة ٥٩٢، وولد سنة ٥١٦، ذكره ابن الأبار.

ويوسف بن أحمد بن عبَّاد التميمي أبو الحكم الملياني، تجوَّل في الأرض، ولقي السهروردي بمدينة ملَطية سنة ٥٩٠ وأخذ عنه، وسكن دانية ونوظر عليه بها، وأخذ عنه أبو إسحاق بن المناصف، وأبو عبد الرحيم بن غالب، قال ابن الأبار: ورأيته مرارًا، وكان شاعرًا مجودًا، شيعيًّا غاليًا، توفي بدانية ليلة عاشوراء سنة ٦٢١.

وأبو الوليد يونس بن أبي سهولة بن فرج بن بنج اللخمي، يقال له: الشنتجالي، سكن دانية قريبًا من أربعين سنة، وأخذ عن أشياخ طليطلة، وكان فقيهًا مشاورًا مدرِّسًا، أخذ عنه ابن برنجال، وابن سعيد الداني، وأبو إسحاق بن خليفة، وأبو الحسن بن أبي غالب، توفي بدانية في ربيع الأول سنة ٥١٤.

وأبو عبد الله محمد بن مبارك، يعرف بابن الصايغ، من أهل دانية، قال ابن بشكوال في «الصلة»: كان فقيهًا حافظًا، أخذ عن أبي عمرو المقري وغيره، وقد أخذ عنه ابن مطاهر، وأبو محمد بن أبي جعفر شيخنا، وتوفي سنة ٤٧٦.

وأبو بكر محمد بن الحسن بن خلف بن يحيى الأموي، يعرف بابن برنجال، له رحلة إلى المشرق بعد الخمسمائة، سمع فيها من أبي عبد الله الحضرمي، وأبي بكر بن الوليد الفهري، وكان من أهل الدراية والرواية، تولى خطة القضاء بصعيد مصر، ثم زاده والي عيذاب قضاء أخميم ولقبه بقاضي القضاة، ثم رجع إلى الأندلس، وتوفي ببلده دانية يوم الأحد الثالث والعشرين من رجب سنة ٥٣٦، وقد نيَّف على الخمسين، ذكره ابن

بشكوال في الصلة، وابن عميرة في بغية الملتمس، وقال ابن عميرة عنه إنه فقيه عارف مشهور.

وأحمد بن طاهر بن علي بن عيسى، فقيه مشهور، يروي عن القاضي أبي علي بن سكَّرة وغيره، توفي بدانية سنة ٥٣١، ذكره ابن عميرة في بغية الملتمس.

وأبو العباس أحمد بن عثمان بن سعيد الأموي، والد أبي عمرو المقرئ الحافظ المشهور، وأصلهم من قرطبة، روى عن أبيه وعن غيره، وأقرأ الناس القرآن بالروايات، وتوفي يوم الاثنين لثمانٍ خلون من رجب سنة ٤٧١، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو العباس أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري، روى عن أبي داود المقرئ، وأبي علي الغسَّاني، وأبي محمد بن العمَّال، وغيرهم، وله رحلة وله تصنيف، ووليِّ الشورى ببلده دانية، وامتنع من ولاية قضائها، وتوفي في نحو العشرين وخمسمائة، ترجمه ابن بشكوال في الصلة.

وأبو القاسم خلف بن إبراهيم بن محمد القيسي المقرئ الطليطلي، سكن دانية، روى عن أبي عمرو المقرئ، وأبي الوليد الباجي وغيرهما، وأقرأ الناس القرآن. قال ابن بشكوال: وسمع منه بعض شيوخنا، وتوفي يوم الاثنين عقب ربيع الأول سنة ٤٧٧.

وأبو داود سليمان بن أبي القاسم نجاح — مولى أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — سكن دانية وبلنسية، روى عن أبي عمرو عثمان بن سعيد المقرئ المشهور، وهو أثبت الناس به، وروى عن ابن عبد البر، وعن أبي العباس العذري، وعن ابن سعدون القروي، وأبي شاكر الخطيب، وأبي الوليد الباجي، وهذه الطبقة العالية، وكان من جلَّة المقرئين وأهل الفضل والدين، وله تواليف كثيرة في معاني القرآن العظيم، وكان حسن الخط جيد الضبط، روى الناس عنه كثيرًا. وقال ابن بشكوال في الصلة أنه قرأ بخطه رواية عن أبي عمرو المقرئ عن أبي الحسن علي الربعي بالقيروان عن سعيد بن يوسف السدري عن عيسى بن مسكين: أن الإجازة قوية، وهي رأس مال كبير، وجاز له أن يقول: حدَّثني فلان. وقال ابن بشكوال أنه سمع ذلك من طريق آخر نقلًا عن أبي داود سليمان هذا. قال: وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر، ودفن الخميس لصلاة العصر بمدينة بلنسية، واحتفل الناس لجنازته، وتزاحموا على نعشه، وذلك في رمضان لست عشرة ليلة خلت منه سنة ٤٩٦، وكان مولده سنة ٤١٣.

وأبو عثمان سعيد سليمان الهمداني، أندلسي، يعرف بنافع، أخذ القراءة عن أبي الحسن الأنطاكي، وضبط عنه حرف نافع بن أبي نعيم، وأقرأ به، وكان من أهل العربية

ومن ذوي الإتقان مع الستر، قال ابن بشكوال: توفي بساحل الأندلس بمدينة دانية يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ٤٢١، ذكره أبو عمرو المقرئ.

وأبو محمد عبد العظيم بن سعيد اليحصبي المقرئ، من أهل دانية، بلد القراءة في الأندلس، روى عن أبي سهل المقري، وعن أبي الوليد الباجي، وأبي الحسن بن الخشَّاب، وأبي القاسم الطليطلي. قال ابن بشكوال في الصلة: وروى عن أبي عبد الله الخولاني شيخنا — رحمه الله — قال: وأقرأ الناس ببلده، وأخذ عنه بعض أصحابنا، وتوفي في نحو العشرين وخمسمائة.

وأبو الحسن علي بن أحمد بن أبي الفرج الأموي، صحب أبا عمرو المقرئ، وأخذ عن أبي عمر الطلمنكي، وعن مكي بن أبي طالب. قال ابن بشكوال إنه كان من أهل التقييد والاعتناء بالعلم، وذكر أنه من دانية.

وأبو محمد عامر بن خليفة الأزدي، كان راوية للعلم فقيهًا بصيرًا بالشروط، توفي قريبًا من الستين والأربعمائة، ذكره ابن بشكوال في الصلة، نقلًا عن ابن مدير.

وأبو بكر عتيق بن محمد بن أحمد بن عبد الحميد الأنصاري، روى عن أبي داود المقري، وأبي الوليد الوقَّشي، وأبي علي الغسَّاني، وأبي علي بن سكَّرة، وطاهر بن مفوَّز، وتولَّى الصلاة والخطبة بجامع دانية بلده، وكان فاضلًا ثقة. قال ابن بشكوال: أخبرنا عنه صاحبنا أبو عمرو، وأثنى عليه.

وأبو تمام غالب بن عبد الله القيسي القطيني المقري، من أهل دانية، وأصله من قطين؛ قرية بميُّورقة، قال ابن بشكوال في الصلة إنه روى عن أبي عمر بن عبد البَر، وأبي عمرو المقرئ، وأبي الوليد الباجي، وإن الحميدي ذكره وقال: إنه مقرئ شاعر أديب، وأنشد له أبو عبد الله بن عمر الأشبوني:

يا راحلًا عن سواد المقلتين إلى سواد قلب عن الأضلاع قد رحلا
بي للفراق جوًى لو مرَّ أبرده بجامد الماء مرَّ البرقِ لاشتعلا

قال ابن بشكوال: إنه توفي بدانية سنة ٤٦٦، وإنه كان رجلًا زاهدًا قاضيًا. وترجمه ابن الأبار في التكملة، فقال عنه: غالب بن عبد الله بن أبي اليمن القيسي أبو تمام النحوي، يعرف بالقطيني، وقطين قرية بميورقة، سكن دانية، سمع غريب الحديث لابن قتيبة، وغريب القرآن ومشكله لابن قتيبة أيضًا، سمعه من أبي عبد الله حبيب بن أحمد، وكان هذا قد قارب التسعين، وأجاز له ما رواه عن قاسم بن أصبغ، وأبي علي القالي وغيرهما.

ثم رحل إلى قرطبة سنة ٤١٤، فلقي أبا العلاء صاعدًا اللغوي وقد أسنَّ؛ فقرأ عليه، وأخذ عن ثابت بن محمد الجرجاني، وقعد لتدريس العربية، وأخذ عنه أبو بكر الفرضي، وأبو الأصبغ بن شفيع، وأبو الحسن بن أفلح، قال ابن الأبار: إن مولده سنة ٣٩٣، وإنه توفي في رمضان سنة ٤٦٥.

وأشهر قرَّاء دانية هو المشهور بأبي عمرو المقرئ، واسمه عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأموي، كان يقال له ابن الصيرفي، وهو من قرطبة، من أحد أرباضها، سكن دانية، روى في قرطبة عن أبي المطرِّف عبد الرحمن القُشيري الزاهد، وعن أبي بكر البزَّاز، وأبي عثمان بن القزاز، وأبي بكر التجيبي، وابن أبي زمنين، وجماعة، وسمع بأستجة من أعمال قرطبة، ورحل إلى بجَّانة وسرقسطة وسمع بهما وببلاد أخرى من الثغر، وذهب إلى المشرق، وسمع بمكة من ابن فراس العبقسي وغيره، وسمع بمصر من أبي محمد بن النحاس، وأبي القاسم بن منير وغيرهما، وسمع بالقيروان من أبي الحسن القابسي وغيره. وعاد إلى الأندلس وألقى عصا التسيار في دانية؛ ولذلك كان يقال له: أبو عمرو الداني، ولم يكن مثله في علم القرآن وتفسيره وإعرابه وطرقه، وله فيه تصانيف كثيرة مفيدة، وكذلك كانت له معرفة تامة بالحديث وطرقه ورجاله، هذا مع حسن الخط وجودة الضبط والدين والورع، وكان مالكي المذهب، ذكره الحميدي فقال: محدِّث مكثر ومقرئ متقدم، سمع بالأندلس والمشرق، وله في القراءات أرجوزة مشهورة.

قال ابن بشكوال في الصلة: قال أبو عمرو: سمعت أبي — رحمه الله — غير مرة يقول: إني ولدت سنة ٣٧١، وابتدأت بطلب العلم وأنا ابن ١٤ سنة، وتوجهت إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة ٩٧، وحججت سنة ثمانٍ وتسعين، وانصرفت إلى الأندلس سنة ٩٩، وهي سنة ابتداء الفتنة الكبرى، ووصلت إلى قرطبة في ذي القعدة سنة ٩٩.

قال ابن بشكوال: وقرأت بخط أبي الحسن المقري قال: توفي أبو عمرو المقرئ بدانية يوم الاثنين في النصف من شوال سنة ٤٤٤، وكان دفنه بعد صلاة العصر في اليوم الذي توفي فيه، ومشى السلطان أمام نعشه، وكان الجمع في جنازته عظيمًا.

وقد ترجمه المقري في النفح فقال إنه الحافظ المقرئ الإمام الرباني أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي، مولاهم القرطبي صاحب التصانيف، التي منها «المقنع» و«التيسير»، ثم ذكر رحلته إلى المشرق سنة ٣٩٧، وأنه مكث بالقيروان أربعة أشهر وفي مصر سنة، وحج ورجع إلى الأندلس، وأنه أخذ عن عبد العزيز بن جعفر الفارسي، وأبي الحسن بن غلبون، وخلف بن خاقان المصري، وأبي

الفتح بن أحمد، وأبي مسلم الكاتب، وهو أكبر شيخ له، وذكر أنه سمع من القشيري، وحاتم البزَّاز والقابسي، وأنه خلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس، ونقل عن بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الداني ولا بعد عصره أحد يدانيه في حفظه وتحقيقه.

وكان يقول: ما رأيت شيئًا قط إلا كتبتُهُ ولا كتبته إلا حفظته ولا حفظته فنسيته. وقال بعض أهل مكة: إن أبا عمرو الداني إليه المنتهى في علم القراءات، والقرَّاء خاضعون لتصانيفه واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك، له مائة وعشرون مصنفًا، وروى عنه بالإجازة رجلان أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة، وكانت وفاته — رحمه الله تعالى — بدانية في نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

وأبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي، من أهل إشبيلية، نذكره هنا لأنه انتهى إلى دانية ومات ودفن فيها. قال ابن الأبار في تكملة الصلة: هو والد أبي العلاء بن زهر، كان من أهل العلم والفقه، سلك طريقة أبيه في ذلك، ومال إلى التفنن في أنواع التعاليم، ورحل إلى المشرق لأداء الفريضة، ودخل القيروان ومصر، وأخذ في تعلُّم الطب هنالك زمانًا طويلًا، وبرع فيها براعةً شُهِر بها هو وعقبه بعد ذلك، ثم قفل إلى الأندلس، وفيها توفي، وبها قبره وقبر أبي الوليد الوقشي بإزاء الجامع القديم، إلا أنهما لا يُعرفان، ذكره السالمي ولم يذكر تاريخ وفاته، وأحسبها في نحو السبعين وأربعمائة. ا.هـ.

وترجمة هذا الرجل واردة في نفح الطيب، قال المقري عنه: صاحب البيت الشهير بالأندلس، وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان، ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب، واشتهر في علم الطب، وفاق أهل زمانه، ومات في مدينة دانية.

ووالده محمد بن مروان كان عالمًا بالرأي، حافظًا للأدب، فقيهًا حاذقًا بالفتوى، متقنًا للعلوم، جامعًا للدراية والرواية، توفي بطلبيرة سنة ٤٢٢، وهو ابن ست وثمانين سنة، حدَّث جماعة من علماء الأندلس، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل — رحمه الله تعالى.

وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور، فقال ابن دحية فيه إنه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه، توفي ممتحنًا من «نغلة» بين كتفيه سنة ٥٢٥ بقرطبة؛ فلذلك نترك ترجمة زهر هذا إلى أن يأتي الكلام على علماء قرطبة.

هوامش

(١) قال الحميري في الروض المعطار: دانية مدينة بشرقي الأندلس على البحر، عامرة حسنة، لها ربض عامر، وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر، قد بُني بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جدًّا، وهي على عمارة متصلة وشجرتين كثير وكروم، والسفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره؛ لأنها دار إنشاء، وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير تظهر من أعلاه جبال يابسة في البحر. ومن دانية أبو عمرو الداني المقرئ المعروف بابن الصيرفي، له تواليف في القراءات، سمع بالأندلس من محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، ووصل إلى المشرق، فسمع من جماعة، توفي بدانية سنة ٤٤٤. ا.هـ. قلت: تكون وفاته قبل وفاة اللغوي ابن سيده الأندلسي في دانية بأربع عشرة سنة.

(٢) أي: إقطاعًا لمركيز.

(٣) هذا كما في نفح الطيب، وقد رأيت عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» يذكر هنا أبياتًا لم ترد في النفح، وهي:

تلك الرماح رماح الخط ثقَّفها ... خطب الزمان ثِقافًا غير معتادِ

والبيض بيض الظبى فلَّت مضاربها ... أيدي الردى وثَنَتْهَا دون إغمادِ

كم من دراريِّ سعد قد وهت وهوت ... هناك من دررٍ للمجد أفرادِ

نور ونَوْرٌ فهذا بعد نعمته ... ذوى وذاك خبا من بعد إيقادِ

(٤) وهنا في كتاب المراكشي هذا البيت:

ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسِرْ ... لغير قصدٍ فما يَهديك من هادِ

(٥) هذا البيت غريب هنا، ونظنه مدسوسًا على هذه القصيدة فيما بعد؛ لأن دولة بني العباس لم تكن انقرضت يوم انقراض بني عبَّاد، بل عاشت من بعدها أكثر من مائة وسبعين سنة. فبنو عبَّاد قد ثُلَّ عرشهم سنة ٤٨٤، ولم يُثَلَّ عرش بني العباس إلا الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين وستمائة. وقد كانت تقدمت هذه الحادثة حوادث طبيعية هائلة تشاءم الناس بها، واستدلوا منها على قرب كائنة عظيمة من قبيل

طغيان المياه في العراق وظهور نار في الحجاز وحريق المسجد النبوي وغير ذلك، فقال المؤرخ أبو شامة شعرًا:

نار أرض الحجاز مع حرق المسـ ـجد مع تغريق دار السلامِ
بعد ستٍّ من المتين وخمسيـ ـن لدى أربع جرى في العامِ
ثم أخذ التتار بغداد في أوْ وَل عام من بعد ذاك وعامِ
لم يُعَنْ أهلها وللكفر أعوا ن عليهم يا ضيعة الإسلامِ!
وانقضَت دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصامِ
فحنانًا على الحجاز ومصر وسلامًا على بلاد الشامِ

(٦) وهنا جاء في تاريخ عبد الواحد المراكشي البيت الآتي:

تفرقوا حيرة من بعد ما نشئوا أهلًا بأهلٍ وأولادًا بأولادِ

وفي آخر القصيدة هذا البيت ليس في النفح وهو:

من لي بكم يا بني ماءِ السماء إذا ماءُ السماء أبى سقيًا حشا الصادي

(٧) يظهر أن ابن اللبانة كان على نمط صاحبنا محمود سامي باشا البارودي — سيد شعراء المحدثين — الذي بلغ في الشعر الدرجة التي لم يكن فوقها، وذلك دون أن يقرأ كتابًا من كتب القواعد العربية، بل بمجرد صفاء القريحة ومطالعة شعر الأولين. قال الشيخ حسين المرصفي في كتابه «الوسيلة الأدبية للعلوم العربية»، وهو خير كتاب في بابه، ما يلي: فتقرر بجميع ما سلف أنه لا طريق لتعليم صناعة الإنشاء إلَّا حفظ كلام الغير وفهمه وتمييز مقاصده، وها أنا مستشهد على ذلك بما هو حاضر معنا في هذا العصر المخالف بالكلية للعصور التي كان أمر الشعر والكتابة الصناعية قائمًا فيها ورغبات الملوك وأعيان الأمراء فيها متوفرة؛ إذ كانت الدولة العربية وأمراؤها من العرب أو من غيرهم وهم مضطرون لإتقان معرفة لسانهم حسب ما كانت تبعث الحاجة إليه ويتوقف تحصيل الأغراض عليه، وبتغير الدولة تتغير الأحوال؛ فإن الكتابة الصناعية

بلسان الدولة القائمة بالغة درجتها باللسان العربي أو أعلى كما تسمعه من العارفين بطرائف اللسانين ومحاسن اللغتين، وليس يقوى أمر كما هو بديهي إلا بحسب قوة الحاجة إليه.

هذا الأمير الجليل ذو الشرف الأصيل والطبع البالغ نقاؤه والذهن المتناهي ذكاؤه، محمود سامي البارودي، لم يقرأ كتابًا في فن من فنون العربية، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلًا إلى قراءة الشعر وعمله، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن، وسمعته مرةً يسكِّن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين، فقلت له في ذلك؛ فقال: هو كذا في قول فلان، وأنشد شعرًا لبعض العرب، فقلت: تلك ضرورة، وقال علماء العربية: إنها غير شاذة. ثم اشتغل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة، واستثبت جميع معانيها ناقدًا شريفها من خسيسها واقفًا على صوابها وخطئها، مدركًا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام، وما لا ينبغي، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء ولشعر الأمراء كأبي فراس والشريف الرضي والطغرائي تميز عن شعر الشعراء كما ستراه. ومصداق ذلك ما سألقيه عليك من قصائد أنشأها «إلى آخر ما قال».

ومن أراد أن يعلم هل البارودي سيد الشعراء في العصر الأخير، فعليه بمطالعة ديوانه.

(٨) لا يظهر لي هنا جيدًا معنى «ينشع»، ولعله مما حرف النساخ، أو هو في لغة الأندلسيين غير ما هو في الفصيح؛ فإن «نشع» في الفصيح لا وجه له في هذا المحل، فقد قالوا: «نشع بالشيء: أخذه بعنف، والطيب: شمه، وفلانًا بشربة ماء: أغاثه بها، وفلانًا الكلام: لقنه إياه، والناقة: سعطها.» وإذا كان لازمًا فهو بمعنى «شهق»، وإذا قلنا إنه مضارع «أُنشع» مبنيًّا للمجهول، فلا يصح معه المعنى أيضًا؛ «فأنشعه: أعطاه أجرته، وأنشع فلانًا الكلام: لقنه إياه.»

(٩) السوذق، بفتح فسكون: الصقر أو الشاهين.

قسطنطانية

وقد تقدم أن من البلاد المضافة إلى دانية بلدة قسطنطانية التي نبغ فيها أيضًا أناس من أهل العلم، وقد ذكرها ياقوت وسماها «قسنطانة»، وقال عنها: حصن عجيب من عمل دانية بالأندلس،[1] منها أبو الوليد بن خميس القسنطاني؛ من وزراء بني مجاهد العامري. ا.هـ.

وأبو عامر محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن أمية بن مطرِّف بن خميس الجُمحي، يقول أهل بيته إنهم من ولد عثمان بن مظعون — رضي الله عنه — سمع من ابن أبي تليد، وأبي علي الصدفي، وأبي جعفر بن جحدر، وأبي القاسم بن الجنَّان وطبقتهم، وكتب لقاضي بلنسية أبي الحسن بن عبد العزيز، وكان ذا معرفة بالمسائل وعقد الشروط، متصرفًا في الآداب، توفي سنة ٥٤٣، ذكره ابن الأبار نقلًا عن ابن سفيان.

ومن قسطنطانية أبو زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن سيدبونه الخزاعي، تقدمت ترجمته بين علماء دانية.

وأبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه الخزاعي الولي الشهير، ذكر لسان الدين بن الخطيب، أنه كان من أعلام الهداية، كثير الأتباع، بعيد الصيت، توجب حقه حتى الأمم الدائنة بغير الإسلام، انتقل إلى غرناطة هو وأهله وأذياله بعد تغلب العدو على شرق الأندلس، فسكنوا بغرناطة ربض البيَّازين على دين وانقباض وصلاح، توفي — رضي الله عنه — سنة ٦٢٤ وقد نيَّف على الثمانين، ودفن بالموضع المعروف بزناته.

ومن دانية إلى الجنوب الغربي بلاد ساحلية منها بلدة يقال لها «بنيسة Benisa»، ويجوز أن تكون مرخمة من بني سعد، وبلدة أخرى يقال لها «كلب Calpe»، وبلدة

ثالثة يقال لها «ألتاية Altea»، ولما نعثر على شيء في الكتب العربية يتعلَّق ببنيسة وكلب، ولكن عثرنا على ذكر ألتاية في معجم البلدان؛ قال: ألتاية، أَلِفه قطعية مفتوحة واللام ساكنة والتاء فوقها نقطتان وألف وياء مفتوحة، اسم قرية من نظر دانية من إقليم الجبل بالأندلس، منها أبو زيد عبد الرحمن بن عامر المعافري الألتائي النحوي، كان قرأ كتاب سيبويه على أبي عبد الله محمد بن خلصة النحوي الكفيف الداني، وسمع الحديث من أبي القاسم بن فتحون الأريولي وغيره، وكان أوحد في الآداب، وله شعر جيد، ومن تلامذته ابن أخيه أبو جعفر عبد الله بن عامر المعافري الألتائي، وقرأ أبو جعفر هذا على أبي بكر اللبَّاني النحوي أيضًا وعلى آخرين، وهو حسن الشعر، قرأ القرآن بالسبع على أبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد الداني، وهو يصلح للإقراء إلا أن الأدب والشعر غلبا عليه. انتهى.

ومن البلاد الساحلية بين دانية والقنت بلدة يقال لها «بني دورم Beni Dorm»، والغالب على الظن أنها لفظة عربية محرفة، لعل أصلها بني دارم، فإن هذا اسم معروف عند العرب. فدارم بن أبي دارم صحابي يروي ابنه أشعث عنه، ودارم بن مالك بن حنظلة من مالك بن زيد مناة أبو حي من تميم، ويجوز أن يكون بني الدرم، وهو جمع الأدرم، وبنو الأدرم حي من قريش الظواهر، وهم بنو تميم بن غالب بن فهر بن مالك، قيل له الأدرم؛ لأن أحد لحييه أنقص من الآخر. ويوجد في العرب بنو درماء أولاد عمرو بن عوف بن ثعلبة بن سالامان بن ثُعل الطائي، ودرماء أمهم، وهم بالشام بقلعة الداروم وما يجاورها وهي قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. ثم يصل القاصد وهو ذاهب إلى الجنوب بغرب إلى مدينة «لقنت».

هوامش

(١) قد روى ليفي بروفنسال في كتابه «إسبانية المسلمة في القرن العاشر» أنه كان معدن حديد في قسطنطانية، نقل ذلك عن الإدريسي.

لقنت

وقد يقال لها: اليقنت Alicante أو القنت Alkant، وقد ذكر الشريف الإدريسي أن من مدينة دانية إلى مدينة القنت[1] غربًا على البحر سبعين ميلًا، قال: ولقنت مدينة صغيرة عامرة، وبها سوق ومسجد جامع ومنبر، ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر، وبها فواكه وبقل كثير وتين وأعناب، ولها قصبة منيعة جدًّا في أعلى جبل يُصعد إليه بمشقة وتعب، وهي أيضًا مع صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق، وبالقرب من هذه المدينة جزيرة تسمى «إبلناصة»،[2] وهي على ميل من البر، وهي مرسًى حسن، وهي مكمن لمراكب العدو، وهي تقابل «طرف الناظور»، ومن طرف الناظور إلى مدينة القنت ١٠ أميال، ومن مدينة القنت في البر إلى مدينة ألش مرحلة خفيفة، ومن مدينة القنت إلى «حلوق بالش» ٥٧ ميلًا. ا.هـ.

تقدم نقل هذا من جملة كلام الإدريسي، فأما القنت اليوم فهي مدينة بحرية ذات بال، سكانها يزيدون على خمسين ألفًا، وهي مركز مقاطعة، وأصل اسمها في القديم «لوسانتُم Lucentune»، يظن أنها كانت إلى الشمال مما هي اليوم، وهي واقعة على فرضة يحدها من الشرق الرأس المسمَّى «هويرتاس Huertas»، ومن الجنوب رأس «سانتابولا Santa Pola»، وهو الذي كان العرب يسمونه بطرف الناظور، وأما من الجنوب فالمرسى مفتوح يشرف عليه الحصن العالي المنيع الذي يقول له الإسبانيون اليوم «سانتا بربارة Santa Barbara»، والشتاء في القنت لطيف إلا أن الهواء كثير التغير، وفي الصيف يشتد الحر إلا أنه يبقى أخفَّ من حرِّ مرسية، وقد ساقوا إليها الماء سنة ١٨٩٨، ومن حاصلات القنت الخمر والزبيب واللوز والزيت.

ومرسى القنت في غاية الجمال، وله رصيف طويل، ووراء هذا الرصيف ساحة فسيحة عليها صفَّان من النخل. وفي القنت ساحة عمومية بديعة. وعلو الحصن المسمى

سانتا بربارة نحو من ١٦٠ مترًا، وله منظر من أبدع ما يتصور العقل، تسرح منه العيون في غياض القنت وسواحلها المريعة إلى حد طرف الناظور من جهة وفي البحر من جهة أخرى. وللقنت ربض يسمى ربض «سان أنطون».

وإلى الشمال الشرقي من القنت على مسافة ١٧ كيلومترًا مصحَّة يقال لها: «بوزوه» Busot ارتفاعها نحو من خمسمائة متر مشرفة من جميع الجهات تحيط بها غابة من الصنوبر، وتكثر حواليها بساتين النخل والبرتقال وكروم العنب.

وقد عَرفت مدينة القنت بنفسي في أثناء سياحتي إلى الأندلس، ووجدت في كنَّاشي أنني وصلت إليها في ٢٣ أغسطس الساعة الثانية عشرة زوالية، وبت فيها ليلة لا أتذكر أنني قبلت فيها الغطاء؛ وذلك من شدة الحر، ومع هذا فمذكور في كنَّاشي أنها بلدة لطيفة خفيفة على الروح أخف جدًّا على الروح من قرطاجنة التي كنت قد زرتها قبل ذلك بيوم. وعند مدخل القنت غابة نخيل في غاية اللطف، وللبلدة مرسًى على البحر عليه رصيف لطيف، وراءه ساحة فيها سطران من شجر النخل، وفوق القنت جبل عليه قلاع، وهو مشرف على البحر. وكان سفري إلى دانية في قطار حديدي صغير ذهب بنا شمالًا على شاطئ البحر، ولم يمضِ إلَّا قليل حتى دخل بنا بين كروم الزيتون والعنب ورأينا جداول تَسقي البساتين، ثم مررنا بغيضة نخل ورأينا كثيرًا من شجر الخروب، والسهل هناك أفيح تربته تميل إلى البياض، وتشرف عليه جبال عالية، ومن رأى هذا النخل وهذا الخروب وهذا الزيتون لا يظن أنه في أرض أوروبة.[٣]

هذا وقد انتسب إلى القنت أناس من أهل العلم، ترجم منهم ابن الأبار محمد بن أحمد بن محمد بن سفيان السلمي، يكنى أبا بكر، نزل مدينة تلمسان، روى عن أبي محمد بن أبي جعفر، وأبي القاسم بن الجنَّان، وكان متقدمًا في عقد الشروط، له بعض النفوذ في الشعر والكتابة، أجاز لأبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني سنة ٧٥٧.

وأبو زيد عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي، من أهل القنت، سكن أوريولة من عمل مرسية، يعرف بابن الأديب، حج سنة ٥٢٩، ورجع إلى الأندلس فتولى الصلاة والخطبة بجامع أوريولة مدة طويلة، ودُعي إلى القضاء فلم يقبل، وحُمل عليه في ذلك فاشتغل به نحو شهرين ثم استعفى منه فأُعفي، وكان من أهل العلم والفضل والورع، حافظًا لكتاب الله حسن الصوت به، إذا سمعت صوته عرفت أنه يخشى الله، متقللًا من الدنيا، له بضاعة يتعيَّش من فضلها، فصيح الخطابة غزير الدمع، يبكي ويُبكي إذا خطب، أخذ عن أبي محمد بن أبي جعفر في مرسية هو وبلديُّه أحمد بن محمد

بن سفيان السلمي، ولما حج كان معه ابن عمه أبو أحمد محمد بن معطي التجيبي، وكانت حجته سنة ٥٢٩، وكانت وفاته بأوريولة بعد سنة ٥٤٠.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي، نزيل تلمسان، من أهل القنت، سكن أبوه أُريولة، أخذ القراءات بمرسية عن نسيبه أبي أحمد بن معطي، وأبي الحجاج النفزي، وأبي عبد الله بن الفرس، ورحل إلى المشرق فأدَّى الفريضة وأطال الإقامة هناك، وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين من أعيان المشارقة، منهم أبو طاهر السلفي المشهور الذي اختص به، وحُكي أنه لما ودَّعه قافلًا إلى المغرب سأله عما كتب عنه، فأخبره أنه كتب كثيرًا من الأسفار ومئين من الأجزاء؛ فسُرَّ بذلك وقال له: تكون محدِّث المغرب إن شاء الله، قد حصلت خيرًا كثيرًا.

قال المترجم: ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذت عنه. وممن أخذ عنهم أيضًا أبو محمد العثماني، وأخوه أبو الطاهر، وأبو الطاهر بن عوف، وأبو عبد الله بن الحضرمي، وأخوه أبو الفضل، وأبو القاسم بن جارة، وأبو الثناء الحرَّاني، وأبو الحفص الميانشي، وغيرهم، ومن الأندلسيين أبو محمد عبد الحق الإشبيلي، وأبو جعفر بن مضاء، وأبو عبد الله بن الفخَّار، وأبو محمد اليسع بن حزم وغيرهم. وله في شيوخه تأليف مفيد جَمَعَ فيه أسماءهم على حروف المعجم، ذكر ابن الأبَّار أنه وقع إليه بخطه في سنة ٦٤٠ وهو بتونس، وأنه نقل عنه في التكملة ما نسبه إليه، وقال إنه انتهى إلى تلمسان واتخذها وطنًا له.

وذكر من جملة تآليفه برنامجه الأكبر، وبرنامجه الأصغر، ومعجم شيوخه، والفوائد الكبرى، والفوائد الصغرى كل منها جزء، ومناقب السبطين الحسن والحسين، والأربعون حديثًا في المواعظ، والأربعون في الفقر وفضله، وجزء في الحب في الله، وجزء في فضل الصلاة على النبي — عليه السلام — وكتاب الترغيب في الجهاد خمسون بابًا في مجلد، والمواعظ والرقائق سفران، وكتاب مشيخة السلفي، وروى عنه ابن الأبَّار نقلًا عن أبي طاهر السلفي المذكور قال: أنشدنا أبو المكارم الأبهري قال: أنشدنا أبو العلاء التنوخي بالمعرَّة لنفسه:

تـوحَّـد فـإن الـلـه ربـك واحـدٌ   ولا تـرغـبنْ فـي عشـرة الـرؤسـاءِ
يُقلُّ الأذى والعيب في ساحة الفتى   وإن هـو أكْـدى قـلـة الـجـلـسـاءِ
فـأفٍّ لـعـصْـريْـهم نـهـارٍ وحـنـدسٍ   وحـنـسَـيْ رجـالٍ مـنـهـمُ ونـسـاءِ

وليت وليدًا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساءِ

قال المترجَم: وسمعت شيخنا الحافظ أبا طاهر (أي السلفي) — رحمه الله — بالإسكندرية يقول: سمعت القاضي أبا محمد الموحد بن محمد بن عبد الواحد بتستُر يقول: سمعت محمد بن علي الكازروني المقرئ بالأهواز يقول: دخلنا على أبي العلاء المعري منصرَفَنا من مكة ونحن جماعة، فسألَنا عن أسمائنا وبلداننا وصنايعنا، فانتسب كل واحد منا، فلما سألني عن صناعتي قلت: أنا قارئ. قال: فاقرأ لي آية من كتاب الله تعالى، فقرأت ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ فبكى المعرِّي بكاءً شديدًا (إلى أن قال): فسألناه أن ينشدنا شيئًا من الشعر فأنشدنا:

يغدو الفقير وكل شيءٍ ضده والأرض تغلق دونه أبوابها
فتراه محقوقًا وليس بمذنبٍ ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا بِزَّةٍ هشَّت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يومًا فقيرًا بائسًا نبحت عليه وكشَّرت أنيابها

مولد المترجَم بلقنت الصغرى في نحو الأربعين وخمسمائة، وتوفي بتلمسان في جمادى الأولى سنة ٦١٠، قال ابن الأبَّار: كتب لي وفاته بخطه شيخنا أبو زكريا بن عصفور التلمساني منها. ا.هـ.

وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان مدينة لقنت فقال: بفتح أوله وثانيه وسكون النون وتاء مثناه؛ حصنان من أعمال لاردة بالأندلس لقنت الكبرى ولقنت الصغرى، وكل واحدة تنظر إلى صاحبتها. ا.هـ.

قلت: ليست لقنت من عمل لاردة؛ لأن هذه هي في الثغر الأعلى من عمل سرقسطة، وهي الآن من عمل كتلونية لا من عمل أراغون التي حاضرتها سرقسطة، فالذي يظهر لنا أنه وقع خطأ في النسخ، فبدلًا من أن يكتب من عمل دانية كتب الناسخ: من عمل لاردة، وهذا وجه، وثمة وجه آخر، وهو أن يكون ياقوت كتب هذا بناءً على ما كان يعلم من أن ابن هود صاحب سرقسطة ولاردة والثغور العليا، استولى على دانية وملحقاتها، وأخرج علي بن مجاهد العامري عنها.

هوامش

(١) قال في الروض المعطار عن لَقَنت: بينها وبين دانية على الساحل سبعون ميلًا، وهي مدينة صغيرة عامرة، وبها سوق ومسجد جامع ومنبر، ويتجهَّز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر، وبها فواكه وبقل كثير وتين وأعناب، ولها قصبة منيعة جدًّا في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب، وهي على صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق، ومن لقنت إلى ألش في البر ٥١ مرحلة، نقل صاحب الروض المعطار كلام الإدريسي بنصه.

(٢) تقدم لنا في التعليق على كلام الإدريسي أنه لا يوجد جزيرة هناك باسم إبلناصة، وإنما الجزيرة اسمها «بلانة»، وهي في جنوب القنت، فلا بد أن يكون وقع تحريف في النسخ، أو هي محرفة عن «بلانيس Planes»، وهي تابعة للقنت.

(٣) وأهل مجريط يحبون الشتوة كثيرًا في القنت، لا سيما أن الطريق من مجريط إلى القنت مستقيمة، وقد يذهبون إليها في شهر يونيو بالرغم من شدة الحرارة؛ لأن هواء بحرها يلطِّف حرارة برها، وهي تلجأ من ظلال أشجارها الوارفة إلى مقاعد في غاية الوثارة كأنها واحة في وسط صحراء محرقة. وحركة المرسى بالرغم من شدة الحر لا تخف أبدًا، ولا يزال فيه الشيل والحط، وتشترك في الشغل النساء مع الرجال، ومرج القنت يشرب من نهير يقال له مونيغر Monegre، ولما كانت مياه النهير لا تكفي لري المرج فقد بنوا سدًّا عظيمًا ارتفاعه ٤١ مترًا وعرضه ٤٢ إلى ٥٧ مترًا، وبماء هذا النهير وبناء هذا السد صار مرج القنت مرجًا؛ لأن الماء مع الحرارة يعمل العجائب.

وقد ذكر ليفي بروفنسال في مجموعة الكتابات العربية بإسبانية كتابة وُجدت في «غواردامار Guardamar» من عمل القنت، عثروا عليها سنة ١٨٩٧ في كثيب رمل، وهي محفوظة اليوم بدار التحف الأثرية بمدينة مرسية، وخطاه كوفي، وهي: بسملة ... لا إله إلا الله محمد رسول الله، تم هذا المسجد في شهر المحرم سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة. أمر ببنائه أحمد بن بهلول بن الواثق بالله المبتغي ثواب الله على يدي محمد بن أبي سلمة عمل بن محمد ... البنَّا. انتهى.

وقد أورد بروفنسال ملاحظة أن هذا الأمير الذي أمر ببناء هذا الجامع لم يعرف عنه شيء، ولا يعلم هل جملة «الواثق بالله» هي لقب رسمي تشريفي له أم هي مذكورة بمعناها الحقيقي، وأن المستشرق قديرة ذهب إلى أن هذا الرجل كان من رجال الديوان في زمن عبد الرحمن الناصر، وأنه ورد ذكره مرتين في كلام ابن عذارى في «البيان»، وذلك في حوادث سنة ٣٠٢ وسنة ٣١٣، وأنه في إحدى المرتين مذكور اسمه «أحمد بن بهلول»

وفي الأخرى «أحمد بن حبيب بن بهلول»، وليس ليفي بروفنسال على رأي قديرة من أن هذا الشخص هو ابن بهلول نفسه، ولكنه يقول: إن باني هذا الجامع لا بد أن يكون من ذوي المقامات العلية ومن الرؤساء.

وقد ذكر كتابة أخرى وجدت في «القوصر Alcocer» من بلانس Planes من عمل لقنت محفوظة الآن في بلدة الكُوي، وهي كتابة بالخط الكوفي على قبر رجل لم يعرف عنه شيء، وهي:

> بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذا قبر عمر بن العاص — رحمه الله تعالى — توفي يوم الجمعة الرابع في شهر صفر ...

وبقية الكتابة ممحوَّة.

ووجدت في بلدة طوربيجه Torrevidja، من عمل لقنت، كتابة على قبرٍ الباقي منها يقرأ:

> بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلَّم. الحمد لله الذي جعل الموت غاية المخلوقين، وسبيل الأولين والآخرين، وإليه مصير الخلق أجمعين ... ولو كره المشركون، فريقٌ في الجنة وفريقٌ ... ...

ويظن ليفي بروفنسال أن هذه الكتابة من كتابات القرن السادس.

ألش

وعلى مقربة من القنت مدينة ألش Elche، متصلة بالقنت بخط حديدي يضرب إلى الجنوب الغربي مارًّا بأرضٍ شديدة الحرارة، حتى إنهم يحصدون الشعير من شهر مارس قبل أن يُدرك ويطعمونه المواشي. وألش[1] بلدة ساحلية يسكنها نحو من ثلاثين ألفًا من النفوس، وهي بلدة أيبيرية كان يقال لها في زمن الأيبيريين: «هيليك Helike»، وسماها الرومان «إيليشي Illici»، وفيها كنيسة سانتا ماريا التي لها برج يعلو ٣٩ مترًا، إذا صعد الإنسان إلى أعلاه أشرف على جميع المدينة، ورأى بيوتها البيض، وأجدر شيء بالذكر في ألش هي غابة النخيل التي لا يوجد لها نظير في جميع الأندلس، عدد أشجارها مائة وخمسة عشر ألف نخلة، وهي مملوكة لأصحابها، تشرب من ماء سيق إليها من وادٍ يقال له: «فينالوبو Vinalopo»، والنخلات طوال ارتفاع الواحدة من ٢٠ إلى ٢٥ مترًا؛ فلذلك قال عنها العرب: إن أرجلها في الماء ورءوسها في النار لشدة حرارة الجو هناك، والناس يزرعون بين النخل أنواع البقول والخضروات، وعندهم رمانٌ كثير، وهم يؤبرون النخل فيصعد المؤبِّر بواسطة حبل يربطه بوسطه، فيرقى تدريجًا، وهكذا يصنعون عند اخترِاف النخل، وهو لا يحمل كل سنة، ومعدَّل ثمر النخلة الواحدة كل سنتين من ٣٤ إلى ٣٥ كيلو، وليس بُسر نخل ألش كبسر نخيل الصحراء في أفريقية من جهة اللذة. وهم يبيعون سعف النخل اليابسة، وللناس اعتقاد هناك بأنها تقي من الصواعق؛ فلذلك يعلقونها في الرواشن.

وقد كانت ألش من المدن المعدودة في زمان العرب، قال عنها ياقوت في معجم البلدان: ألش — بفتح أوله وسكون ثانيه وشين معجمة — اسم مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، لزبيبها فضل على سائر الزبيب، وفيها نخيل جيدة لا تفلح في غيرها من بلاد الأندلس، وفيها بسط فاخرة لا مثال لها في الدنيا حسنًا. انتهى.

وقد بنى أهل ألش سدًّا للمياه يقولون له سد «تيبي Tibi» قامت ببنائه شركة من أصحاب الأملاك، وهم يبيعون من هذه المياه لمن يحتاج إلى سقيا أرضه في المعاطش، ولمصلحة هذا السد ديوان خاص بها، وأهل ألش يبيعون جرائد النخل الذي عندهم في كل إسبانية، ويستفيدون منها أكثر مما يستفيدون من الثمرات. وألش موصوفة بكثرة الغبار وشدة الحر في الصيف، ليس بذلك لها نظير في إسبانية مع كون الحر شديدًا في أكثر أنحاء إسبانية.[٢]

ذكر من انتسب إلى ألش من أهل العلم، منهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن إسماعيل بن سماعة التجيبي، من أهل ألش، سكن مرسية، كان ذا عناية بالرواية، بصيرًا بالحديث، مشاركًا في العربية، توفي معتبطًا سنة ٦١٠.

وأبو عبد الرحمن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الجليل بن غالب بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن خلف بن القاسم بن غالب بن حمدون النصاري الخزرجي، سمع بمرسية من أبي بكر بن أبي جمرة، وأبي عمرو بن عيشون، وببلنسية من أبي عبد الله بن نوح، وأبي الخطاب بن واجب، وفي شيوخه كثرة، كان فقيهًا بصيرًا بالحديث ذا حظ من الأدب، ولِّي قضاء المريَّة فحمدت سيرته، وتوفي بغرناطة سنة ٦٣٦.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الواحد أصله من ألش، سكن مرسية، يعرف بابن التيَّان، كان من أهل الحديث، ذكره السلفي وقال: روى لنا عن أبي عبد الله بن الطلاع، وأبي علي الجيَّاني. هؤلاء ترجمهم ابن الأبار.

وممن انتسب إلى ألش بسبب سكناه بها عيسى بن محمد العبدري، أديب شاعر، سمعه أحد ينشد على قبر الفقيه أبي عمرو خفاجة بن عبد الرحمن أبياتًا يرثيه بها منها:

أيا حسرتا ماذا تواريه بالأرض … من الوجنة الحسناء والبدن الغضِّ
تكاثرت الأموات والطين فوقها … خواتم حتى يأذن الله بالفضِّ

وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل، يعرف بابن قمرة، تفقَّه بأبي جعفر بن أبي جعفر، وسمع الحديث من أبي الوليد بن الدباغ، وأبي الحسن بن فيد القرطبي، ولِّي قضاء بلده ألش، وكان مشاركًا في حفظ المسائل، دَرِبًا بالأحكام، ذا حظ من الأدب، توفي سنة ٥٥٩ أو ٥٦٠، ذكره ابن الأبار في التكملة، وقال ابن عميرة في البغية: ألشي فقيه حسن الخط.

وأبو عمرو خفاجة بن عبد الرحمن بن أحمد الأسلمي من ألش، روى أيضًا عن أبي الوليد بن الدباغ، وأبي الحسن بن فيد، وكان فقيهًا متصرفًا في الوثائق، عارفًا بالأحكام، مات سنة ٥٧٤.

وعبد الله بن إبراهيم بن معزول الألشي، يكنى أبا محمد، يروي عن أبي علي الصدفي، ذكره ابن عميرة في البغية.

وممن ينسب إلى ألش آل الألشي في دمشق الشام، منهم صاحبنا المرحوم الشيخ زاهد الألشي، وكان من أهل الفقه والفضل، فصيحًا مفوهًا، سريع البادرة، موقد الذهن، بديع الفكاهة. كان أظرف الظرفاء في عصره، تقصد الناس مجالسه للتمتع بمحاضرته، وتولى القضاء في دوما وفي بعلبك، وابنه جميل بك الألشي كان من ضباط الجيش العثماني، وكان متميزًا بالبراعة والمقدرة، وقد تولى رئاسة الحكومة في دمشق بعد الحرب العامة في أثناء الاحتلال الإفرنسي، وكنت غفلت عن سؤال والده — رحمه الله — عن سبب تسميتهم «بالألشي» مع كثرة معاشرتي له، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب تنبهت إلى أنه قد يجوز أن يكونوا منسوبين إلى ألش هذه؛ فأرسلت إلى جميل بك الألشي أسأله عن ذلك؛ فأجابني بما يؤيد ظني بأنهم من مدينة ألش بالأندلس، وأنه كان يسأل أباه فيقول له: أصلنا من الغرب.

هوامش

(١) جاء في كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، الذي عاش في أواسط القرن التاسع للهجرة ما يأتي:

> بالأندلس إقليم ألش من كور تدمير بينه وبين أوريولة خمسة عشر ميلًا. وألش: مدينة في مستوٍ من الأرض، يشقها خليج يأتي إليها من نهرها يدخل من تحت السور، ويجري في حمامها ويشق أسواقها وطرقها وهو ملح سبخي. ومن ألش إلى لقنت خمسة عشر ميلًا. ومن الغرائب أن بساحل ألش، بمرسى يعرف بشنت بول، حجرًا يعرف بحجر الذئب إذا وضع على ذئب أو سبع لم يكن له عدوان وفارق طبعه من الفساد.

(٢) حتى في بلادها الشمالية فما ظنك بالجنوبية، وتمتاز ألش مع الحرارة بملوحة ترابها، وهذه الملوحة هي السبب في نمو غيضة النخل التي فيها، ومن ألش إلى القنت

قطار كهربائي إذا سافر المسافرون به في الصيف يحتاجون إلى إغلاق الأبواب والنوافذ اتقاءَ الحر.

وأما انطباعات خاطري بما رأيته بنفسي من جهة ألش ونواحيها، فهي مذكورة في كنَّاش الجيب الذي كان معي في إسبانية، وكنت أقيِّد فيه عفو الساعة ما أراه وأشعر به، وقد تقدم المنقول عنه.

ومما يجدر بالذكر بمناسبة ألش كتابة عربية وجدت في سقف بيت في هذه البلدة في شارع منها يقال له «ألبادو Alvado» بقي منها الأسطر الآتية:

> أقبل على صلاتك، ولا تكن من الغافلين، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، صُنع الفاضل أبي الضيا سراج بن سَلَمة ... عليه عام اثني عشر ود ... صلى الله على سيدنا ...

وقد تكلم على هذه الكتابة الباحث «سافيدرا Savedra»، فذهب إلى أن هذه الكتابة هي من عصر متأخر؛ لأنها ليست بالخط الكوفي بل بالخط النسخي المعروف؛ ولأن فيها لفظة «عام»، وهذا الاصطلاح لم يكن معروفًا في تواريخ القبور العربية بالأندلس وما ماثلها إلى القرن السادس للهجرة، فمن قوله: «عام اثني عشر»، ووجود هذه الكلمة «د» التي لم يبق منها إلا الحرف الأول الذي يشبه أن يكون كرسيًّا للثاء تكون الجملة «اثني عشر وثمانمائة»، أو تكون كرسيًّا للتاء فتكون الجملة «عام اثني عشر وتسعمائة»، وهي السنة الموافقة لسنة ١٥٠٦ المسيحية، ومن هذه الكتابة يظهر أنه في ذلك العهد كان مسلمون في ألش، ومن المحقق أنه لذلك العهد كانت مئات ألوف من العرب لا تزال في شرق الأندلس.

أوريوله

إن مدينة «كريفيلَنت» واقعة بحذاء سلسلة جبال جرد على ضفة نهير يشرب منه نخيلها، وسكان هذه البلدة اليوم عشرة آلاف نسمة، ومن القصبات المعدودة في تلك الناحية بلدة يقال لها: «توريفيجا Torrevija»، وهي بحرية سكانها ثمانية آلاف، متصلة بالقنت بترام كهربائي. وقرية يقال لها «غرانجة Granja Rocamora» يمر بها الخط الحديدي إلى مرسية، ولها جندل كبير في رأسه أطلال قصر عربي، وأما فلُّوزة شقورة فهي مدينة صغيرة يظنها الإنسان عربية إلى يومنا هذا، وهي واقعة بحذاء صخور وجنادل كبار، وفيها منازل كثيرة منحوتة في الصخر، وفيها من البرتقال والنخل شيء كثير، ومن هناك يدخل المسافر في أرض أوريولة Orihuela[١] التي هي المثل البعيد في الخصب، ويقال لهذه البلدة: أوريولة وأوريوالة، وأريول ولها أيضًا اسم آخر، وهو تدمير، وهو اسم أميرها الذي سيأتي ذكره، وسكانها اليوم نحو من عشرين ألف نسمة، وهي واقعة على الضفة اليمنى من نهر شقورة.

وجاء ذكر أوريولة في معجم البلدان، قال ياقوت: أُوريولة — بالضم ثم السكون وكسر الراء وياء مضمومة ولام وهاء — مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تدمير، بساتينها متصلة ببساتين مرسية. منها خلف بن سليمان بن خلف بن محمد بن فتحون الأريولي، يكنى أبا القاسم، روى عن أبيه، وأبي الوليد الباجي، وغيرهما، وكان فقيهًا أديبًا شاعرًا مفلقًا، واستقضي بشاطبة ودانية، وله كتاب في الشروط، وتوفي سنة ٥٠٥، وابنه محمد بن خلف بن سليمان بن خلف بن محمد بن فتحون الأريولي أبو بكر، روى عن أبيه وغيره، وكان معنيًّا بالحديث، منسوبًا إلى فهمه، عارفًا بأسماء رجاله، وله كتاب الاستلحاق على أبي عمر بن عبد البَر في كتاب الصحابة في سفرين، وهو كتاب

حسن جليل، وكتاب آخر أيضًا في أوهام كتاب الصحابة المذكور، وأصلح أيضًا أوهام المعجم لابن قانع في جزء، ومات سنة ٥٢٠، وقيل سنة ٥١٩. ا.هـ.

وجاء ذكر أوريولة في صبح الأعشى، وقد عدَّها في مضافات مرسية. وذكرها الشريف الإدريسي، وقال: إنها من كورة تدمير. وقال ياقوت في معجم البلدان على تدمير ما يلي: تدمير بالضم ثم السكون وكسر الميم وياء ساكنة وراء كورة بالأندلس، تتصل بأحواز كورة جيَّان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق تذكر في مواضعها، وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للراكب القاصد، وبسير العساكر أربعة عشر يومًا، وتجاور تدمير الجزيرتان وجزيرة يابسة (يريد بالجزيرتين ميورقة ومينورقة اللتين ثالثتهما يابسة)، قال أبو عبد الله محمد بن الجداد الشاعر المفلَّق الأندلسي:

يا غائبًا خطرات القلب محضره	الصبر بعدك شيء لست أقدره
تركت قلبي وأشواقي تفطِّره	ودمع عينيَّ آماقي تقطِّره
لو كنت تبصر في تدمير حالتنا	إذن لأشفقت مما كنت تبصره
فالنفس بعدك لا تخلى للذتها	والعيش بعدك لا يصفو مكدَّره
أُخفي اشتياقي وما أطويه من أَسَفٍ	على البريَّة والأشواق تظهره

وقال الأديب أبو الحسن علي بن جودي الأندلسي:

لقد هيَّج النيران يا أم مالك	بتدمير ذكرى ساعدتها المدامعُ
عشيَّة لا أرجو لنأيك عندها	ولا أنا أن تدنو مع الليل طامعُ

وينسب إليها جماعة منهم أبو القاسم طيب بن هارون بن عبد الرحمن التدميري الكناني، مات بالأندلس ٣٢٨. وإبراهيم بن موسى بن جميل التدميري — مولى بني أمية — رحل إلى العراق، ولقي ابن أبي خيثمة وغيره، وأقام بمصر إلى أن مات بها في سنة ثلاثمائة، وكان من المكثرين. انتهى.

وكتب ليفي بروفيسال في الانسيكلوبيدية الإسلامية ما يلي: تدمير Todmir اسم كورة من الأندلس كانت قاعدتها مرسية إلى أن انحلَّت الخلافة الأموية هناك، وإذا أخذنا بقول مؤلفي العرب يكون هذا الاسم مأخوذًا من «تيودومير Thiodomir» الوالي القوطي الذي كان في أيام فتح العرب للأندلس يمثِّل في بلاد مرسية سلطة لذريق ملك طليطلة.

وأشهر ما اشتهر به هذا الرجل المعاهدة التي عاهده بها عبد العزيز بن موسى بن نصير، وقد ذكرها الضبي وعبد المؤمن الحميري، ونشرها المستشرق كازيري Casiri، وعلَّق عليها بحثًا طويلًا العالم كاسبار رميرو Remiro في كتابه تاريخ مرسية لعهد المسلمين.

وكورة تدمير عند العرب تجاور كورتي جيان وألبيرة، وأشهر مدنها لورقة وأوريولة وألقنت وقرطاجنة ومرسية،[٢] وإذا شئت أن تعلم تاريخ هذه الكورة في أيام العرب، فانظر إلى الفصل المتعلق بمرسية من هذه المعلمة.

وقال المقري في نفح الطيب في أثناء كلامه على فتح الأندلس في أول الأمر: ومضى الجيش إلى تدمير، وتدمير اسم العلج صاحبها سمِّيت به، واسم قصبتها أوريولة، ولها شأن في المنعة، وكان ملكها علجًا داهيًا، وقاتلهم مضحيًا، ثم استمرت عليه الهزيمة في فحصها، فبلغ السيف في أهلها مبلغًا عظيمًا أفنى أكثرهم، ولجأ العلج إلى أوريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيئًا، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال، وتصدَّر قدامهن في بقية أصحابه يغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه، فكره المسلمون مراسه لكثرة ما عاينوه على السور وعرضوا عليه الصلح؛ فأظهر الميل إليه ونكَّر زيَّه، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول، فصالحهم على أهل بلده ثم على نفسه وتوثَّق منهم، فلما تم له من ذلك ما أراد عرَّفهم بنفسه واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه، وأخذهم بالوفاء بعهده، وأدخلهم المدينة فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرية، فندموا على الذي أعطوه من الأمان، واسترجحوه فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له، وكان الوفاء عادتهم ... إلخ.

وجاء في كتاب «أخبار مجموعة» في فتح الأندلس وذكر أمرائها — رحمهم الله — والحروب الواقعة بها بينهم، ذكر قضية تدمير هذه، وهذا الكتاب أقدم ما كُتب في فتح العرب للأندلس، يظن أن تأليفه كان في أيام الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، جاء في هذا الكتاب على الجيش الفاتح: ثم مضى إلى تدمير، وإنما سميت تدمير باسم صاحبها، إنما كان يقال لها أوريولة، فلقيهم صاحبها في جيش جحفل فقاتلهم قتالًا ضعيفًا، ثم انهزم في فحص لا يستر شيئًا؛ فوضع المسلمون فيهم السلاح حتى أفنوهم، ولجأ من بقي إلى المدينة أوريولة وليست فيهم بقية ولا عندهم مدفع، وكان تدمير صاحبهم مجربًا شديد العقل، فلما رأى أن لا بقية في أصحابه أمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة، وأوقف معهم بقية من بقي من الرجال في وجه الجيش حتى عقد على نفسه، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول، فاستأمن

فأمَّنَ، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده، فصارت تدمير صلحًا كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير، وعاملهم على ترك أمواله في يديه، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة، فلم يروا فيها أحدًا عنده مدفع، فندم المسلمون، ومضوا على ما أعطوه، وكتبوا بالفتوح إلى طارق، وأقام بتدمير مع أهلها رجال، ومضى عظم الجيش إلى طليطلة ... إلخ. وسيرد هذا وما هو أوسع منه عند تاريخ الفتح العربي أيام طارق بن زياد وموسى بن نصير.[٣]

ذكر من انتسب إلى أوريولة، من أهل العلم

منهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف بن سليمان بن خلف بن محمد بن فتحون، سمع أباه أبا بكر محمدًا، وأبا علي الصدفي، وأبا جعفر بن بشتغير، وأبا بكر بن العربي، وأجاز له جده أبو القاسم خلف بن سليمان في صغره، وأخذ القراءات عن أبي بكر بن عمَّار اللاردي، وعن أبي الحسن بن ميمون، وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني، وابن رشد، وابن عتَّاب، وغيرهم، ومن أهل المشرق أبو الحسن بن مشرَّف والسلفي، وولِّي القضاء بمرسية للأمير أبي محمد بن عياض فَحُمِدَت سيرته، وتوجَّه عنه رسولًا إلى المغرب فأقام بمراكش مدة، وانصرف سنة ٥٤٣ بعد موت ابن عياض، ثم نقل إلى قضاء بلده أوريولة، وتولَّاه مدة طويلة مقتصرًا على جارٍ من طيِّب المستخلص القديم الذي لا شبهة فيه.

وكان من قضاة العدل، صارمًا في أحكامه، مهيبًا وقورًا، معروف السلف بالنباهة والعلم، وكان الأمير أبو عبد الله بن سعد يميِّزه في رجاله من غيره، ويوجب له الحظ؛ إذ كان المنظور إليه بمكانه، وأحد الأفراد في زمانه رجاحةً وجلالًا وقولًا بالحق وعملًا به؛ قال ابن عيَّاد: ولِّي قضاء أوريولة مرتين؛ إحداهما سنة أربعين؛ أي ٥٤٠، وأعيد ثانية بعد موت أبي العباس بن الحلَّال، ووصفه بالتيقُّظ والتحفُّظ والورع والنزاهة، وبأنه لم يتغير له ملبس ولا مركب عما عهد منه قبل الولاية، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٥٥٧، عن ابن الأبَّار.

وجده أبو القاسم خلف بن سليمان بن خلف، هو الذي ذكره ياقوت في المعجم، وقد تقدم نقل ذلك، وقد وردت ترجمة المذكور في صلة ابن بشكوال، كذلك ترجمة محمد بن خلف بن سليمان بن فتحون ولد أبي القاسم خلف واردة في صلة ابن بشكوال، ويظهر أن صاحب معجم البلدان نقل أقواله عنهما من كتاب الصلة؛ لأنه يذكر الألفاظ نفسها.

وأبو عمرو زياد بن محمد بن أحمد بن سليمان التجيبي، سمع من القاضي أبي علي الصدفي، وأخذ عن بعض رجال المشرق، قال ابن بشكوال إنه سمع بقرطبة من شيوخه وصحبه وأخذ عنه؛ أي عن ابن بشكوال، وأخذ ابن بشكوال عنه، وتوفي ببلده أوريولة في صدر ذي الحجة سنة ٥٢٦.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان بن عبد الله التجيبي، صاحب الأحباس بأوريولة، يعرف بابن الصفَّار، وهو والد أبي عمرو زياد بن محمد، سمع من أبي علي بن سكَّرة سنة ٤٩٦، ولقي أبا عبد الله بن الحداد، وأبا بكر بن اللبَّانة، وغيرهما من كبار الأدباء، ذكره ابن الدبَّاغ في مشيخته.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن فيرُّه الجذامي، أصله من لاردة، له رواية عن أبي الحسن بن عقال الشنتمري، وأبي عبد الله بن نوفل الأنصاري، حدَّث عنهما بالتيسير لأبي عمرو المقرئ في سنة ٥٢٥، قال ابن الأبَّار: قرأت ذلك بخطه.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن عميرة الأنصاري، أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن فرج المكناسي وغيره، وسمع الحديث من أبي علي الصدفي، وأبي محمد بن أبي جعفر، وأخذ بقرطبة عن أبي بحر الأسدي، وأبي بكر بن العربي، وابن مغيث، وابن عتَّاب، وكان عالمًا بالفرايض والحساب، توفي بأوريولة سنة ٥٤٩.

وظافر بن إبراهيم بن أحمد بن أمية بن أحمد المرادي، يكنى أبا الحسن، صحب القاضي أبا علي الصدفي وسمع منه ومن غيره، توفي يوم الاثنين الخامس لصفر سنة ٥٢٣، ومولده سنة ٤٨١.

وبقي بن قاسم بن عبد الرءوف، يكنى أبا خالد نزل أوريولة، أخذ عن أبي محمد مكي بن أبي طالب المقري، والأستاذ أبي القاسم الخزرجي وغيرهما، ترجمه ابن بشكوال في الصلة.

وأبو عبد الله محمد بن صاف بن خلف بن سعيد بن مسعود الأنصاري، روى عن أبيه وعن أبي محمد بن أبي جعفر، وأبي علي الصدفي، وأبي بكر بن العربي، وأبي مروان بن غردي، وغيرهم، وأجاز له أبو الوليد بن رشد المدونة والمقدمات من تأليفه خاصة، ووليِّ قضاء بلده أوريولة بعد أبي القاسم بن فتحون في إمارة ابن سعد، روى عنه ابن عيَّاد وقال: تُوُفِّي مصروفًا عن القضاء في ذي القعدة سنة ٥٥٢، ومولده بعد الثمانين وأربعمائة، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو أحمد محمد بن أحمد بن معطي التجيبي، أخذ القراءات ببلده أوريولة عن أبي بكر بن عمَّار اللاردي، ورحل حاجًّا؛ فلقي بمكة أبا العلي بن العرجاء، وقفل إلى بلده

أوريولة، وتصدر للإقراء، وأمَّ في المسجد المعروف به عند باب القنطرة حياته كلها، وكان شيخًا صالحًا ثقةً، من أهل الورع والعدالة مقرئًا مجودًا. قال ابن الأبَّار: أخذ عنه أبو عبد الله التجيبي شيخنا، وهو ابن عم والده، تلا عليه القرآن بما تضمنه التيسير لأبي عمرو المقرئ، ولازمه سنين، وأجاز له في شهر رمضان سنة ٥٦٥.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان من برطُلُه (بُرطُلُه اسم علم محرَّف عن برتلو Bertelot، وهو من الأسماء الإفرنجية التي سمَّى بها العرب). قال ابن عميرة: فقيه تدميري، من أهل الفضل والورع، توفي سنة ٥٦٣.

وعتيق بن أحمد بن عبد الرحمن الأزدي أبو بكر بن جزيقر، حج سنة ٤٨٩، وسمع بمكة من أبي الفوارس طراد الزينبي، وحج أيضًا سنة ٥٢٠، وسمع من رزين بن معاوية، وزاهر الشحَّامي، وغيرهما، وحدَّث عنه السلفي في المجاز والمجيز، وصدر إلى بلده بروايات عالية وفوائد كان يقصد لأجلها، وهو آخر من حدَّث بالمغرب عن أبي الفوارس الزينبي. قال ابن الأبَّار: روى عنه أبو بكر بن أبي ليلى، وأبو القاسم بن بشكوال، وأبو عمر بن عياد، ولد سنة ٤٦٧ بأوريولة، وبها توفي سنة ٥٥١.

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن فيُّره الجذامي، ولِّي خطة الشورى بأوريولة، وكان فيه صلاح وتواضع، توفي سنة ٥٦٩.

وأبو الحسن علي بن محمد بن يبقى بن جَبَلَة الأنصاري الخزرجي، من أوريولة وصاحب الخطبة بها، سمع سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة من السلفي وغيره، وتوفي بأوريولة سنة ٦٣٠، عن ابن الأبَّار.

وأبو بكر يحيى بن عبد الرحمن الأزدي، يعرف بابن «مصَّالة»، خطب بجامع بلده أوريولة، وناب في القضاء، وكان من أئمة العربية، قال التجيبي: كان شيخي في العربية واللغة، وصحبته عدة سنين، وعرضت عليه كتبًا كثيرة، قال: وأُخبِرت أنه حي إلى الآن؛ يعني سنة خمس وتسعين «وخمسمائة»، قال ابن الأبَّار في التكملة: فإن كان ذلك صحيحًا فقد استوفى مائة عام أو نيَّف عليها.

وأبو عبد الله محمد بن عبد السلام الأديب المعروف بالتدميري، سكن قرطبة، أخذ عن أبي عبد الله بن مفرِّج وغيره، ذكره أبو عبد الله بن عابد، وقال: إنه كتب عنه المناسك لسحنون بن سعيد، وقال: إنه فُقد في وقعة «فنتيش» سنة أربعمائة مع أبي عثمان بن القزَّاز الأديب — رحمهما الله — وذكره ابن حيان، وقال: كان خيِّرًا، ورعًا، عابدًا، متقشفًا، متفننًا في العلوم، ذا حظ من الأدب والمعرفة، وكان قد نظر في شيء من الحدثان.

انتهى نقلًا عن الصلة. وما ذكره من النظر في علم الحدثان يعني به هذه الحسابات التي يعملها بعضهم ويتنبئون بها عما سيحصل من الحوادث.

وأبو عبد الله محمد بن يحيى التدميري، روى عن أبي بكر بن صاحب الأحباس وغيره، وكان عارفًا بالأحكام والشروط، وكان من المشاورين بمرسية، وتوفي بها سنة ٥١١ عن سن عالية، نقلًا عن الصلة.

ورجاء بن فرنكون (وفرنكون هذا من الأسماء الإفرنجية التي استعملها العرب)، من أهل تدمير، سمع ببلده من أبي الغصن، ومن عبيد الله بن يحيى، ومات بالقيروان في قصده إلى الحج، عن ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن وضَّاح التدميري، نزيل المرِّية، قال عنه ابن عميرة الضبِّي في بغية الملتمس: فقيه محدِّث، توفي بالمرية سنة ٥٣٧.

وأبو بكر محمد بن محمد بن يبقى بن جَبَلَة الخزرجي، من أهل أوريولة، سكن القاهرة، سمع من أبي طاهر السلفي، وأبي عبد الله المسعودي.

ومروان بن عبد الملك بن أبي جمرة، يروي عن أبيه عن سحنون بن سعيد، روى عنه ابنه وليد بن مروان، ذكره ابن الأبَّار، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو بكر ملك بن حِمْيَر، ذكره ابن سفيان، ووصفه بالأدب والمشاركة في الكتابة والشعر، وقال: توفي ببلده سنة ٥٦١، وأنشد له أبو عمر بن عيَّاد هذين البيتين:

رحلت وإنني من غير زادِ وما قدَّمت شيئًا للمعادِ
ولكني وثقت بجودِ ربي وهل يشقى المقلُّ مع الجوادِ

وأبو القاسم أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن إبراهيم بن محمد بن أبي ليلى تدميري، كان قاضيًا بشلب، قال ابن عميرة الضبِّي في بغية الملتمس: فقيه محدِّث، توفي بشلب عام ٥١٤، يروي عن أبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري، وطاهر بن مفوَّز، وخلف بن مدير، قرأ عليه القراءات السبع.

وخلف بن سليمان بن فتحون الأوريوالي (تقدم أنه يقال لأوريولة أوريوالة كما يقال تدمير)، فقيه عارف، فاضل ورع، كان قاضيًا بشاطبة، ثم ولِّي قضاء دانية ثم استعفى فأُعْفِي، فلزم الانقباض، فكان لا يخرج من منزله إلَّا إلى الجمعة، وكان يصوم الدهر، فقالت له خالته، وهي جدة أبي محمد الرشاطي أم أبيه، في ذلك، فقال: كان أبي — رحمه الله — في آخر عمره التزم صيام الدهر، فلما توفي رأيت أن أرث ذلك عنه، فقالت

له خالته: أنت الذي أنت ولدي تصوم وأنا لا أصوم؟ فالتزمت صيام الدهر من حينئذ إلى أن توفيت.

روى المترجم عن القاضي أبي الوليد الباجي، وصحبه، وقرأ عليه بأوريوالة كتاب البخاري مرتين؛ إذ كان قاضيًا بها، ولقي بشاطبة أبا الحسن طاهر بن مفوَّز وغيره، توفي بأوريوالة في ذي القعدة سنة ٥٠٥، ذكره ابن عميرة في البغية.

وأبو القاسم طيِّب بن محمد بن هارون بن عبد الرحمن بن الفضل بن عميرة الكناني، ثم العِتقي، من أهل تدمير من شرق الأندلس، روى عن الصباح بن عبد الرحمن ويحيى بن عون بن يوسف الخزاعي، وغيرهما، مات سنة ٣٢٨، ذكره ابن عميرة.

ومروان بن عبد الله بن مروان الزجاج، يروي عن أبي علي الصدفي، ذكره ابن عميرة الضبي، وقال: تدميري.

وأبو الفضل عميرة بن عبد الرحمن بن مروان العتقي، روى عن أصبغ بن الفرج، وسحنون بن سعيد، توفي عام ٢٣٨.

وأبو العالية فضل بن عميرة بن راشد بن عبد الله بن سعيد بن شريك بن عبد الله بن مسلم بن نوفل بن ربيعة بن ملك بن مسلم الكناني ثم العتقي، سمع عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن قاسم، وولِّي قضاء تدمير في إمارة الحكم بن هشام، ومات سنة ١٩٧.

وأبو العافية — وقيل أبو العالية — فضل بن الفضل بن عميرة بن راشد، وهو ولد المترجم السابق، كان قد تركه أبوه حملًا، فسمي باسمه وكنِّي بكنيته، سمع عبد الملك بن حبيب السلمي، ويحيى بن يحيى، ولي القضاء أيضًا ببلده تدمير، ومات سنة ٢٦٥.

وأبو الفضل عميرة بن الفضل بن الفضل بن عميرة بن راشد العتقي، روى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره، مات سنة ٢٨٤، وهو ولد الذي تقدمت ترجمته عليه، ذكره ابن عميرة الضبي أيضًا.

وأبو القاسم مسعود بن عمر الأموي، روى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، مات بالأندلس سنة ٣٠٧، ذكره ابن عميرة الضبِّي، وقال: تدميري.

وأبو شِمر نصر بن عبد الله الأسلمي، رحل ودخل إفريقية ومصر ومكة، وسمع من أهل بلده ومن بعض أهل الشرق، ذكره ابن عميرة الضبي، وقال: تدميري، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو حفص التدميري، يعرف بابن القيساري، شاعر أديب، ذكره أبو الوليد بن عامر وقال: أخبرني أبو الحسن بن علي الفقيه قال: كان في داري بقرطبة حاير صنع فيه مرج بديع وظلل بالياسمين، فنزَّهت إليه أبا حفص التدميري في زمن الربيع، فقال: ينبغي أن يسمى هذا المرج بالسندسة، وصنع على البديهة أبياتًا وهي:

نهار نعيمك ما أنفسَه	ورجْع سرورك ما آنسَه!
بَحَايِرُ قصرك من صوغهِ	دنانير قد قارنت أفلُسَه
وأسطار نور قد استوسقت	وسطر على العمد قد طلَّسَه
ونبت له مُدْرع أخضر	بسفرة أسياعه ورَّسَه
فأبدع ما شاء لكنه	أجلُّ بدائعه السندسه
مدارعها خضرٌ غضة	أعارَ النعيم لها مَلْبَسَه
كأن الظلال علينا بها	أواخر ليل على مَغْلَسَه
كأن النواير في أفقها	نجوم تطلعن في حندسه
ومهما تأملت تحسينها	فعيني بقرَّتها معرسَه
محل لعمرك قد طيَّب الـ	إله ثراه وقد قدَّسه

وأبو الأدهم متوكل بن يوسف، من أهل تدمير، مات بالأندلس، ذكره محمد بن حارث الخشني، ونقل ذلك ابن عميرة في البغية.

وخطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار بن خطاب بن مروان بن نذير، مولى مروان بن الحكم، من أهل تدمير، رحل حاجًّا إلى المشرق مع أبيه وأخيه عميرة سنة ٢٢٢؛ فسمعوا جميعًا بالقيروان من سحنون بن سعيد المدونة، ذكر ذلك ابن الفرضي عن وليد بن عبد الملك. قال ابن الأبَّار في التكملة: وقرأت بخط أبي عمر بن عبد البر أنهم أدركوا أصبغ بن الفرج وأخذوا عنه.

وأبو الحسن ظافر بن إبراهيم بن أحمد بن أمية بن أحمد المرادي، من أهل أوريولة، يعرف بابن المرابط، صحب القاضي أبا علي الصدفي، وسمع منه ومن غيره، توفي يوم الاثنين ٥ صفر سنة ٥٢٣، ومولده سنة ٤٨١.

ومحمد بن عبد الله بن عصام تدميري، يروي عن القاضي أبي علي الصدفي، ذكره ابن عميرة في البغية.

ومحمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني تدميري، من أهل بيت فقه وجلالة ورئاسة، توفي سنة ٤٩٤، ذكره ابن عميرة.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن خندف العتقي، تدميري، فقيه أديب، يروي عن أبي الحجاج يوسف بن علي بن محمد القضاعي وغيره، ذكره أيضًا ابن عميرة.

وأبو بكر محمد بن الطيِّب العتقي، تدميري، فقيه، كان قاضيًا بلورقة، وتوفي وهو خطيب جامع مرسية وصاحب الصلاة به بعد ابن طرَّافش في سنة ٥٩٥.

وأبو عبد الله التدميري محمد بن أبي الحسام طاهر القيسي الزاهد المعروف بالشهيد، كان ورعًا فاضلًا، فقيهًا عالمًا، خيِّرًا، ناسكًا متبتلًا، من أهل بيت جلالة وصلاح، طلب العلم في حداثة سنه في بلده أوريولة، ثم رحل إلى قرطبة فروى الحديث بها وتفقَّه بفقهائها، وباحث أهل الورع من علماء قرطبة في أموال بلده تدمير، وسُقاهم ووجوه مستغلاتهم، وأخذ فيها أجوبتهم فجاءت مفيدة نافعة، ورسخ المترجم في علم السنة، ونافس في صالح العمل والحسبة، ثم ارتحل إلى المشرق لتمام ثلاثين سنة من عمره، وسكن الحرمين ثمانية أعوام يتعيَّش فيها من يده، وكان يرحل إلى بيت المقدس، وذهب إلى العراق ليلقى الشيخ أبا بكر الأبهري الفقيه المالكي، فأخذ عنه وعن غيره.

وصحب الأخيار والنُّساك، واقتدى بهم، ولبس الصوف، وقنع بالقُرْص، وتورع جدًّا، وأعرض عن شهوات الدنيا؛ فأصبح عالمًا عاملًا منقطع القرين، وكانت دعواته مستجابة. وقال ابن عميرة الضبِّي: إنه كانت له كرامات ظاهرة يطول القول في تعدادها، حملها عنه رواة صدق، قال: ثم انصرف مجيبًا دعوة والده أبي الحسام؛ إذ كان لا يزال يستدعيه مع حاج الأندلس، فقدِم تدمير في سنة ست أو سبع وسبعين وثلاثمائة، ولكنه تنكَّب — رحمه الله — النزول بمدينة مرسية — قاعدة تدمير — وطنه، ونزل خارجًا منها بالقرية المنسوبة إلى بني طاهر، وكان لا يرى سكن مرسية ولا الصلاة في مسجدها الجامع لداخلة تتبَّعها فيه، وابتنى هناك لنفسه بيتًا سقفه بحطب الشعراء والطرفاء يأوي إليه، وكانت له هناك جنينة يعمرها بيده ويقتات بما يتخذه فيها من البقل والثمر، وكان لا يدع في خلال ذلك الجهاد مع محمد بن أبي عامر وقواده، وشهد معه فتح مدينة سمُّورة وفتح مدينة قلمريَّة من قواعد جلِّيقية، ثم ترك سكنى قريته هذه ورحل إلى الثغر، وواصل الرباط بفروجِه المخوفة، وكان له بأس وشدة وشجاعة وثقافة، تحدَّث عنه فيها أهل الثغر بحكايات عجيبة، ولم يزل مرابطًا بطلبيرة إلى أن استشهد مقبلًا غير مدبر، حميد المقام، وذلك في سنة ٣٧٩ أو السنة التي قبلها، روى كل ذلك ابن عميرة.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن وضَّاح التدميري، نزيل المرية، فقيه محدِّث، توفي فيها سنة ٥٣٧، ذكره ابن عميرة.

وأبو المطرف عبد الرحمن بن الفضل بن عميرة بن راشد الكناني العتقي، ولي القضاء بتدمير، روى عن عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وغيرهما، ومات سنة ٢٢٧.

وأبو المطرف عبد الرحمن بن الفضل بن الفضل بن عميرة بن راشد العتقي، يروي عن أبيه، وهو ابن أخي المترجم قبله، مات بالأندلس سنة ٢٩٤، ذكر هذين، وذكر الأربعة الذين سبقت تراجمهم من هذه العائلة ابن عميرة الضبي في بغية الملتمس.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الوارث التدميري يروي عن أبي المطرف بن سَلَمَة، حدَّث عنه أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي تليد الشاطبي، ذكره ابن الأبَّار في التكملة نقلًا عن ابن عيَّاد.

ومحمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار بن خطاب بن مروان بن نذير، مولى مروان بن الحكم، كان يعرف بأبي جمرة، قال ابن الأبَّار في التكملة: المعروف بأبي جمرة على ما ألفيتُ بخطِّ شيخنا أبي بكر بن أبي جمرة، رحل حاجًّا هو وابناه خطاب وعميرة في سنة ٢٢٢، وسمعوا ثلاثتهم من سحنون بن سعيد المدونة بالقيروان، ذكر ذلك ابن الفرضي في تاريخه، وسمى عميرة منهم في بابه، وأغفل أباه وأخاه، وقرأت بخط أبي عمر بن عبد البر: حج محمد بن مروان مع ابنيه عميرة وخطاب، وسمع معهما المدونة من سحنون، وأدركوا أصبغ بن الفرج وأخذوا عنه.

وأبو بكر محمد بن مفضل بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن مهيب اللخمي، أصله من طبيرة، وولد بأوريولة، وسكن المرية. قال ابن الأبَّار: سمع من ابن عمه الحاج أبي إسحاق بن علي بن مهيب، ومن أبي الحسين بن زرقوق شيخنا، وأبي إسحاق بن الحاج الزاهد، وأصهر إليه، وولي الخطبة بقصبة المرية، وكان أديبًا شاعرًا مكثرًا، مائلًا إلى التصوف، لقيته بتونس في وفادته عليها، وسمعت منه وسمع مني، وأجاز لي بلفظه، وأجزت له كذلك، ويروي عنه كتاب «الجواهر الثمينة» أبو عبد الرحمن بن غالب، وتوفي بسبتة في رجب، وقيل أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ٦٤٥، وكانت جنازته مشهودة، وولد بأوريولة سنة ٥٨١.

وعبد الرحمن بن أبي أميَّة بن عصام، من أهل تدمير، سمع من أبي الغصن، ومحمد بن هارون، ومحمد بن عمر بن لبابة، ذكره ابن حارث، وترجمه ابن الأبَّار في التكملة.

وصاف بن خلف بن سعيد بن مسعود الأنصاري، من أهل أوريولة، وصاحب الأحكام بها، يكنى أبا الحسن، وكان من أهل المعرفة بالقراءات، روى عن أبي الوليد الباجي، وروى عنه ابنه أبو عبد الله محمد بن صاف القاضي، ذكره ابن عيَّاد، قال ذلك ابن الأبَّار في التكملة. وقد تقدمت ترجمة ابنه المذكور. انتهى ما اطلعنا عليه من أخبار أهل العلم المنسوبين إلى أوريولة.

وقد ذكرنا أن أوريولة واقعة على نهر شقورة Segura، والخط الحديدي يعبر بهذا النهر، فيكون على شماليه الشارة المسماة «قولمبارس Columbares»، وعلى ٥٩ كيلومترًا قرية «بنيال»، وعلى ٦٤ كيلومترًا قرية «زناتة»، وعلى الضفة اليمنى من نهر شقورة جبل «أغودو Agudo» على رأسه آثار قصر عربي، وعلى ٦٥ كيلومترًا المحطة المسماة «مرسية القرية Murcia Alquerias»، وفيها مجمع الخطين بين مرسية وقرطاجنة، وعلى ٧٠ كيلومترًا «بني آجان Beniajan» إلى الشمال، وعلى ٧٦ كيلومترًا مدينة مرسية.

هوامش

(١) قال الحميري في الروض المعطار: أوريولة حصن بالأندلس، وهو من كورتدمير، وأحد المواضع السبعة التي صالح عليها تدمير بن عبدوس عبد العزيز بن موسى بن نصير حين هزمه عبد العزيز ووضع المسلمون السيف فيه، فصالحه على هذه المعاقل وعلى أداء الجزية، وكان حصن أوريولة قاعدة تدمير، وذكره مشروح في ذكر قرطاجنة. وبين أوريولة وألش ثمانية وعشرون ميلًا، ومدينة أوريولة قديمة أزلية، كانت قاعدة العجم (أي غير العرب) وموضع مملكتهم، وتفسيرها باللطيني «الذهبية». ولها قصبة في نهاية من الامتناع على قُنَّة جبل، ولها بساتين وجنات فيها فواكه كثيرة، وفيها رخاء شامل وأسواق وضياع، وبينها وبين مرسية اثنا عشر ميلًا، وبينها وبين قرطاجنة خمسة وأربعون ميلًا، ولِّي قضاءها أبو الوليد الباجي. ا.هـ.

(٢) جاء في كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، جمعه سنة ٨٦٦ للهجرة، أن من كور تدمير «أشكوني»، وقال: إن من أراد أن يتخذ في أشكوني جنانًا صرف إلى الموضع العناية بالتدمين والعمارة والسقي من النهر، فتنبت الأرض هناك بطبعها شجر التفاح والكمثرى والتين والرمان وضروب الفواكه، حاشا شجر التوت، من غير غراسة ولا اعتمال. ا.هـ.

قلت: التدمين هو تسويد الأرض، جاء في لسان العرب: ودمَّن القوم الموضع سوَّدوه

وأثَّروا فيه بالدِّمن. والدمن: ما يلبَّد من السرقين، وصار كرسًا على وجه الأرض، ويقال أيضًا: سمَّد الأرض؛ أي زبَّلها، والاصطلاح عندنا في جبل لبنان أن يقال: «سود الأرض»، وهي فصيحة مثل «سمَّد الأرض».

(٣) إن الكتاب الذي أَمَّن به عبد العزيز بن موسى بن نصير الأمير تدمير الذي كان واليًا على أوريولة ونواحيها، لا شبهة في قضية إعطاء عبد العزيز بن موسى له؛ لأن روايات المؤرخين تظافرت على ذلك، ولقد نشر فرنسيسكوس قديرة نصَّ هذا الكتاب في المقدمة الإسبانيولية التي صدَّر بها طبعة «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبِّي، وهو التاريخ الذي طبع في مجريط سنة ١٨٨٤ المسيحية، تحت إشراف المستشرق قديرة المذكور، ونص الكتاب هو هذا: «تأمل نسخة كتاب الصلح للنصارى في أول الفتح من عبد العزيز بن نصير رحمة ربه عليه.»

كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش الذي سميت باسمه تدمير؛ إذ كان ملكًا، ونسخة ذلك الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ ألا يقدَّم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يُقتلون ولا يسبون ولا يفرَّق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يُكرهوا على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه ما تعبَّد ونصح وأدَّى الذي اشترطنا عليه، وأنه حاكم على سبع مداين: أوريولة وبلنتلة ولقنت وحولة وتقسر وأيتة ولورقة، وأنه لا يُؤوِي لنا آبقًا ولا يُؤوي لنا عدوًّا، ولا يُخيف لنا آمنًا ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طِلا، وأربعة أقساط خل، وقسطي عسل وقسطي زيت، وعلى العبيد نصف ذلك، شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن أبي عبيدة، وإدريس بن ميسرة التميمي، وأبو قاسم المُولي، وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة. انتهى.

وقد ورد في الانسيكلوبيدية الإسلامية أن هذا الكتاب القديم جاء في تاريخ الضبِّي وتاريخ ابن عبد المنعم الحميري، وأن أول ناشر له بالإسبانيولي هو المستشرق كازيري Casiri في كتابه المسمَّى «بالمكتبة الإسبانية Bibliotheca Hispana»، وعلق عليه شرحًا مطولًا كاسبار برفيرو Gaspar Berviro في كتابه «تاريخ مرسية الإسلامية Historia de Murcia Musulmana»، ونحن اطَّلعنا على تاريخ بالإسبانيولي يقال له «تاريخ استيلاء العرب على مرسية Historia de la Dominacion de los Arabes en Murcia»، بقلم

«الدون فليكس بنسوا سيبريان Don Felix Bonzoa Cebria»، طبع في مدينة «بالمه» قاعدة جزيرة ميورقة سنة ١٨٤٥، وقد وجد فيه هذا الكتاب بالإسبانيولي، وطابقنا بينه وبين النص العربي الذي رأيناه في تاريخ ابن عميرة الضبِّي، فوجدناه مطابقًا، فأما المدن السبع التي أبقى عبد العزيز بن موسى بن نصير عليها ولاية تدمير بن عبدوش فهي هذه: أوريولة Auriola، وبلنتلة Valentila، ولقنت Lecant، ومولة Mula، وبوسكَرَه وفي النص العربي الذي اطلعنا عليه بقسر Boscara، وأوتة — وفي النص العربي — أيته Ota، ولورقة Lurca.

أما ما وجدناه من الفروق بين صورة الكتاب العربية المنشورة في بغية الملتمس، وبين الصورة الإسبانية المنشورة في تاريخ مرسية للدون فيلكس بنسوا سيبريان، فمنها أنه في الصورة العربية يقول: شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن أبي عبيدة، وإدريس بن ميسرة التميمي، وأما في الصورة الإسبانية فيقول إنه شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة، دون أن يقول «القرشي»، وكذلك ذكر اسم إدريس بن ميسرة دون أن يقول «التميمي» كما في الصورة العربية. وأما الشاهد الأخير، وهو أبو القاسم، ففي الصورة العربية لم نتبين اللفظة التي بعد أبي قاسم هل هي «المُولي» أو «المسولي» أو غير ذلك، والحال أن في النسخة الإسبانيولية هذا الشاهد هو أبو القاسم بوضع «ال» على قاسم ثم بعده المسيلي El Meceli، وكذلك في أول هذا الكتاب قبل البسملة في النسخة العربية مذكور: كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش الذي سميت باسمه تدمير؛ إذ كان ملكًا، ونسخة ذلك الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم … إلخ.

فأما في النسخة الإسبانية فقبل البسملة موجودة عبارة ترجمتها الحرفية هي ما يلي: كتابة وعقد صلح بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتدمير بن عبدوش — ملك أرض تدمير — ثم يقول: إن عبد العزيز وتدمير عملا معاهدة هذا الصلح، أثبته الله ووقاه؛ وذلك بأن تدمير تكون له الإمارة على أصحابه وجميع النصارى الذين في مملكته، وأنه لا يكون بينهم حرب، وأنه لا يسبى أولادهم ولا نساؤهم، ولا يزعجون في دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا يلزمون خدمة أو واجبًا غير ما هو مذكور هنا، وأن هذا العهد يشمل المدن السبع: أوريولة، وبلنتيلة، ولقنت، ومولة، وبُسقرة، وأوتة، ولورقة، وأن تدمير لا يقبل أعداءنا ولا يكون خائنًا لنا ولا يكتم عنا عداوة عرف بها، وأنه هو ونبلاؤه يؤدون دينارًا ذهبًا كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة

أقساط طلا، وأربعة أقساط خل، وأربعة أقساط عسل (وفي الصورة العربية: وقسطين من العسل) وأربعة أقساط زيت (وفي الصورة العربية: وقسطين من الزيت)، فأما العبيد والأجراء فيدفعون نصف هذه الفرائض، وكتب في ٤ رجب من السنة ٩٤ من الهجرة (والحال أنه في الصورة العربية لا يقول في ٤ رجب، بل في رجب دون تعيين اليوم). ا.هـ.

والنسخة التي في الروض المعطار للحميري هي هذه: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه؛ ألَّا يقدَّم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخَّر، ولا يُنزع من مُلكه، وأنهم لا يُقتلون ولا يسبون ولا يُفرَّق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يُكرهوا على دينهم، ولا تُحرق كنائسهم، ولا يُنزع عن كنائسه ما يُعبد، وذلك ما أدَّى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن: أوريولة، وبلنتلة، ولقنت، ومولة، وبلانة، ولورقة، وألُّه، ولا يُؤوي لنا آبقًا، ولا يُؤوي لنا عدوًّا، ولا يخيف لنا آمنًا، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلا، وأربعة أقساط خل، وقسطي عسل وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك، وكتب في رجب سنة ٩٤ من الهجرة.

شقورة

ولنذكر الآن مدينة شقورة Segura، ذكرها ياقوت في معجمه فقال: شَقورة — بفتح أوله وبعد الواو الساكنة راء — مدينة بالأندلس شمالي مرسية، وبها كانت دار إمارة همشك — أحد ملوك تلك النواحي — ينسب إليها عبد العزيز بن علي بن موسى بن عيسى الغافقي الشقوري، ساكن قرطبة، يكنى أبا الأصبغ، روى عن أبي بكر علي بن سكَّرة، وكان فقيهًا حافظًا عارفًا بالشروط، توفي بقرطبة سنة ٥٣١، ومولده سنة ٤٨٧، قال ابن بشكوال: وكان من كبار أصحابنا وأجلَّتهم. انتهى.[١]

وينتسب إلى شقورة، من أهل العلم أبو محمد عبد الله بن علي بن عتبة اللواتي، من شقورة، من قرية بها يقال لها «شقوبس»، توفي بعد سنة ٦٢٥، روى عن أبي الحسن بن كوثر في غرناطة، وأقرأ ببلده.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن بشير الغافقي، من أهل فرغليط عمل شقورة، كان من أهل الطب والرواية، أجاز له أبو القاسم إسماعيل بن أحمد السمرقندي، والحسين بن الإمام أحمد بن الحسين البيهقي، وأبو الحسن سعد الخير بن محمد الأنصاري البلنسي، وغيرهم، ولابن ابنه نصر بن عبد الله بن عبد العزيز رواية وعناية.

وأبو عمرو نصر بن علي بن عيسى بن سعيد بن مختار الغافقي، من أهل شقورة، روى عن أبي علي الصدفي، واستجاز له أبو الحسن الفرغليطي سنة ٥٢٨، أبا عبد الله الفرَّاوي، وأبا كَرِب بن أبي كرب الجرجاني، ويروي عن أحمد البيهقي كتابه في السنن، ولِّي القضاء بشقورة، حدَّث عنه ابن أخيه أبو الحسن محمد بن عبد العزيز بن علي الشقوري، وابن ابنته أبو عمرو نصر بن عبد الله بن بشير، وغيرهما، ذكرهم ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو عمرو نصر بن إدريس التجيبي، روى بقرطبة عن أبي بحر الأسدي، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي عبد الله بن الحاج، وغيرهم، ووليِّ الأحكام بشاطبة لأبي العباس بن الأصغر، وكان شيخًا صالحًا مشاركًا في الفقه، له معرفة بعقد الشروط ودربة بالأحكام وحفظ للتواريخ، توفي بشقورة سنة ٥٦٠، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو عمرو نصر بن عبد الله بن عبد العزيز بن بشير الغافقي، أصله من فرغليط عمل شقورة،[٢] وسكن «قيشاطة»، سمع من جده لأمه أبي عمرو نصر بن علي بن عيسى الشقوري، ومن أبي الحسن حنون بن الحكم اليعمري الأبذي، وأبي محمد بن سهل الكفيف وغيرهم، وسمع بقرطبة من أبي الحسن بن بقي، وأبي القاسم بن بشكوال، وسمع بمرسية من أبي عبد الله بن عبد الرحيم، وأبي بكر بن أبي جمرة، وأجاز له أبو الحسن بن هذيل، وأبو الحسن بن النعمة، ومن أهل الإسكندرية أبو طاهر السلفي، وأبو الطاهر بن عوف، وتصدر بقيشاطة للإقراء، وكان زاهدًا فاضلًا، ولما تغلب الروم على قيشاطة في عقب رمضان سنة ٦٢١، أخذوه أسيرًا، ثم تخلص من الأسر، وقدم قرطبة فأخذ عنه أبو القاسم بن الطيلسان، وقال: توفي بلورقة عام ٦٢٣، وقال ابن فرتون إنه توفي سنة ٦٣٣، ومولده سنة ٥٣٥، وقال ابن فرقد: كتب لي ولابنيه محمد وأحمد في آخر جمادى الأولى سنة ٦٢٧ من حصن التراب، قال: وسنه الآن اثنتان وتسعون سنة. ا.هـ. فيكون وقد مات سنة ٦٣٣ قد بلغ ٩٨ سنة.

وأبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي، من أهل شقورة، سكن قرطبة، كان مفخرة وقته، كاتبًا بليغًا، عالمًا أديبًا، من أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، وله تواليف حسان ظهر فيها نبله، وكان حسن العشرة، واسع المبرة، مليح المنظر والمخبر، فصيح اللسان، حلو الكلام، أحد رجال الكمال في عصره، واستشهد — رحمه الله — ودفن يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٥٤٠، ودفن بمقبرة ابن عباس. ترجمه ابن بشكوال في الصلة وقال: وكان مولده في ما أخبرني به سنة ٤٦٥.

وأبو مروان عبد الملك بن محمد بن أبي الخصال الغافقي، من أهل قرطبة، أصله من شقورة، سمع أباه أبا عبد الله وغيره، ورحل حاجًّا فأدى الفريضة، وتوفي شهيدًا — رحمه الله — وثكله أبوه ورثاه. قال ابن الأبار في التكملة: ووجدت سماعه من أبيه في نسخة من رسالته التي رد فيها على ابن غرسية في جمادى الآخرة سنة ٥٢٨، وبعد ذلك كانت وفاته، وكان من نجباء الأبناء، وأحسبه مدفونًا بالمرية.

وأبو عبد الله محمد بن عتيق بن علي بن عبد الله بن محمد التجيبي، من أهل شقورة، سكن غرناطة، ويعرف باللاردي؛ لأن أصل سلفه منها؛ أي لاردة، روى عن أبيه أبي بكر

عتيق، وعن أبي عبد الله بن حميد، سمع منه ببلنسية، وولي القضاء، ومن تواليفه «أنوار الصباح في الجمع بين الستة الصحاح»، وكتاب «الأنوار ونفحات الأزهار في شمائل النبي المختار»، وكتاب «المسالك النورية إلى المقامات الصوفية»، وكتاب «النكتة الكافية والنغبة الشافية في الاستدلال على مسائل الخلاف بالحديث»، وكتاب «الاعتماد في خطبة الإرشاد»، وكتاب «منهاج العمل في صناعة الجدل»، وكتاب «الدرر المكللة في الفرق بين الحروف المشكلة»، ترجمه ابن الأبَّار في التكملة، وقال: مولده في العشر الوسطى لصفر سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

وأبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن حسن بن عميرة المخزومي، قال فيه لسان الدين بن الخطيب: بلنسي شقوري الأصل، وأطنب في الإحاطة بوصف علمه وفضله وأدبه، وقال إنه كان في الكتابة علمًا، ونقل عن ابن عبد الملك قوله: وأما الكتابة فهو علمها المشهور وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور. ثم أردف لسان الدين كلام ابن عبد الملك بقوله: وعلى الجملة فذات أبي المطرف في ما ينزع إليه ليست من ذوات الأمثال؛ فقد كان نسيج وحده، إدراكًا وتفننًا، بصيرًا بالعلوم، محدثًا مكثرًا، راوية ثبتًا، متبحرًا في التاريخ والأخبار، ريان مضطلعًا بالأصلين، قائمًا على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العلوم، غزير المعاني والمحاسن، شفاف اللفظ، حر المعنى، ثاني بديع الزمان في شكوى الحرفة وسوء الحظ، ورونق الكلام، ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم، والقصور في السلطانيات. ا.هـ.

ثم روى أنه مما يذكر أن أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي هذا رأى النبي ﷺ في المنام، فناوله أقلامًا، فكان يرى أن تأويل هذه الرؤيا ما أدركه من التبريز في الكتابة وارتفاع الذكر، وقد تقدمت ترجمة المذكور بين علماء بلنسية.

وأبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة بن فرج بن أبي الخصال الغافقي، ترجمه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة، فقال: الإمام البليغ المحدِّث الحجة، أصله من فرغليط من قطر شقورة من كروة جيَّان، وسكن قرطبة وغرناطة. ا.هـ.

قلت: إن نهر شقورة ينحدر من الجبال ويجري مسافة بعيدة إلى أن ينصبَّ في البحر بقرب أوريولة، فمن الناس من يُنسَب إلى هذا القطر ويكون ساحليًّا، ومنهم من ينسب إليه ويكون جبليًّا. هذا ونقل لسان الدين عن ابن الزبير في حق المترجم قوله: ذو الوزارتين أبو عبد الله، من أهل المعارف الجمة، والإتقان لصناعة الحديث والمعرفة برجاله والتقييد لغريبه، وإتقان ضبطه، والمعرفة بالعربية والأدب، والنسب والتاريخ،

متقدمًا في ذلك كله. أما الكتابة والنظم فهو إمامهما المتَّفق عليه والمتحاكَم فيهما إليه، ولما ذكره أبو القاسم الملاحي بنحو ذلك قال: لم يكن في عصره مثله مع دين وفضل وورع.

قال أبو عمر بن الإمام الأشجعي في «سمط الجمان» لما ذكره: البحر الذي لا يُجتاح ولا يشاطَر، والغيث الذي لا يساجل ولا يقاطر، والروض الذي لا يفاوح ولا يعاطر، والطود الذي لا يزاحم ولا يخاطر ... إلخ. وذكره الفتح في «قلائد العقيان»، فقال إنه وإن كان خامل المنشأ فقد تميز بنفسه، وتميَّز من أبناء جنسه، وظهر بذاته وفَخَر لِدَاته. ونقل لسان الدين عن أبي جعفر بن الزبير أن المترجم أخذ عن الغسَّاني، وابن البادش، وأبي عمران بن أبي تليد، وأبي بحر الأسدي، وغيرهم، قال: وأما كتبه وتواليفه الأدبية فكل ذلك مشهور متبادل بأيدي الناس، وقلَّ من يُعلم بعده ممن يجتمع له مثله رحمه الله. روى عنه ابن بشكوال، وابن جيش، وابن مضاء، ومن شعره مخمسًا، وكتبها من مراكش يتشوق إلى قرطبة:

بدت لهم بالغور والشمل جامعُ　　بروق بأعلام العُذيب لوامعُ
فباحت بأسرار الضمير المدامعُ　　ورُبَّ غرام لم تنله المسامعُ
ودام بها من فيضها المتصوِّبُ

وإليك هذا الأنموذج من نثره، وهو كتابة منه إلى الوزير أبي بكر بن عبد العزيز عن رسالة كتب بها إليه مع حاج يضرب بالقرعة:

> أطال الله بقاء وليِّي الذي له إكباري وإعظامي، وفي سلكه اتسامي وانتظامي، للفضائل محييًا ومبتديًا، وللمحامد مشتملًا ومرتديًا، وللغرائب متحفًا ومهديًا، وصل كتابه صحبة عرَّاف اليمامة، وحادي نجد وتهامة، الظهور يقرْطسه ويحلِّيه، والخفاء يظهره ويبديه، ولعله رائد لابن صيَّاد، أو معاند للمسيح الدجال معاد، فأبدى شهادة إنصاف أن عنده أصداف، ولو كان هناك نظر صادق صاف، لقلت هو بادٍ غير خاف، من بين كل ناعت وصَّاف، وسأخبرك أيَّدك الله بما اتفق، وكيف طار ونعق، وتوسد الكرامة وارتفق، فامتدت نحوه النواظر، واستشرفه الغائب والحاضر، وتسابق إليه النابه والخامل، وازدحم عليه العاطل والعامل؛ هذا يلتمس مزيدًا، وذاك يبتغي شيئًا جديدًا ... إلخ.

ثم قال من جملة هذه الرسالة: ألم يأنِ أن تدينوا لي بالإكبار، وتعلموا أني من الجهابذة الكبار؟ فقلنا: منك الإسجاح فقد ملكت، ومنك ولك النجاح أيَّةً سلكت؛ فأطرق زهوًا، وأعرض عنا لهوًا، وقال: اعلموا أن القرعة لو طوت أسرارها وغيبتني أخبارها لمزَّقت صدارها وذروت غبارها، ولكان فيَّ أوسع منتدح وأنجد زناد يُقتدح؛ أين أنتم عن صدى الأملاك وعليَّات الأفلاك؟! أنا في موج الموج وأوج الأوج، والمنفرد بعلم الفرد والزوج، مُسترط السرطان، ومستدبر الدبران، وبائع المشتري بالميزان … إلخ.

ثم نقل لسان الدين عن كيفية وفاة المترجم قال: من خط الحافظ المحدِّث أبي القاسم بن بشكوال: كان ممن أصيب في أيام الهرج بقرطبة؛ فعظم المصاب به، الفقيه الشيخ الأجل، ذو الوزارتين، السيد الكامل، الشهير الأثير، الأديب الكاتب البليغ، معجزة زمانه وسابق أقرانه، ذو المحاسن الجمة الجليلة الباهرة، والأدوات الرفيعة الزكية الطاهرة، المجمع على تناهي نباهته، وحمد خصاله وفصاحته؛ أبي عبد الله بن أبي الخصال — رحمه الله تعالى ونضَّر وجهه — أُلفِيَ مقتولًا قرب باب داره بالمدينة وقد سُلب ما كان عليه بعد نهب داره واستئصال حاله، وذلك يوم السبت الثاني عشر من شهر ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة، فاحتمل إلى الربض الشرقي بحومة الدرب؛ فغُسِّل هنالك وكفِّن، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده، ونعي إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة، فكثر عند ذلك التفجُّع لفقده؛ لأنه كان آخر رجال الأندلس علمًا وحلمًا، وفهمًا ومعرفةً، وذكاءً وحكمة، ويقظة وجلالًا، ونباهة وتفننًا في العلوم، كان صاحب لغة وتاريخ ومعرفة برجال الحديث، عارفًا بوقائع العرب وأيام الناس وبالنثر والنظم، جزل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام، فصيح اللسان، بارع الخط، كان في جميع ذلك واحد عصره مع جمال منظر وحسن خلقة وكرم فعالٍ ومشاركة إخوان، جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم، نهَّاضًا بتكاليفهم، حافظًا لولائهم، جم الإفادة، له تصانيف رفيعة القدر نبيهة. ا.هـ. ملخصًا.

وقال غيره: قتل بدرب الفرعوني بقرب رحبة أبان داخل قرطبة قرب باب عبد الجبار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة يوم قيام ابن حمدين، وقتاله مع يحيى بن غانية من المرابطين، يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة عام أربعين وخمسمائة، قتله بربر المصامدة لحسن ملبسه ولم يعرفوه، وقتلوا معه محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود، وكان أَزْوَجَه ابنته، فقُتلا معًا.

وأبو مروان عبد الملك بن أبي الخصال مسعود بن فرج بن خلصة الغافقي الكاتب، من أهل شقورة، ومن قرية بها يقال لها فرغليط، وسكن قرطبة، روى عن أبي الحسن الأسدي وغيره من شيوخ قرطبة، وسمع منه أبو عبد الله بن العريض، وكان أديبًا حافلًا كاتبًا بليغًا مدركًا فصيحًا، واستعمله ولاة لمتونة وأمراؤها في الكتابة بمراكش وبفاس وغيرهما، وله رسائل بديعة، وتوفي لستٍّ بقين لشهر ربيع الأول سنة ٥٣٩، قال ابن الأبَّار في التكملة: قرأت وفاته بخط ناقلها من خط أبي عبد الله بن أبي الخصال، وذكرها ابن حبيش ولم يذكر الشهر. وفي آخر هذه السنة انقرضت دولة اللمتونيين من الأندلس. ا.هـ، يريد باللمتونيين المرابطين.

هوامش

(١) قال الشريف الإدريسي: من «قونكة» إلى «وبذي» (هاتان البلدتان في إقليم طليطلة) ثلاث مراحل، ووبذي وأقليش مدينتان متوسطتان، ولهما أقاليم ومزارع عامرة، وبين وبذي وأقليش ١٨ ميلًا، ومن أقليش إلى شقورة ثلاث مراحل. وشقورة حصن كالمدينة عامر بأهله، وهو في رأس جبل عظيم متصل منيع الجهة حسن البنية ويخرج من أسفله نهران: أحدهما نهر قرطبة المسمَّى بالنهر الكبير، والثاني هو النهر الأبيض الذي يمر بمرسية (الإدريسي يجعل النهر الأبيض هو نهر مرسية الذي يقال له نهر شقورة، والحال أن الأكثرين يقولون النهر الأبيض لنهر بلنسية)؛ وذلك أن النهر الذي يمر بقرطبة يخرج من هذا الجبل من مجتمع مياه كالغدير ظاهر في نفس الجبل، ثم يغوص تحت الجبل ويخرج من مكان في أسفل الجبل، فيتصل جريه غربًا إلى جبل «نجدة» إلى «غادرة» إلى قرب مدينة «أبَّذة» إلى أسفل مدينة بياسة إلى حصن «أندوجر» إلى «القصير» إلى قنطرة «أشتشان» إلى قرطبة إلى حصن «المدوَّر» إلى حصن «الجُرف» إلى حصن «لورة» إلى حصن «القليعة» إلى حصن «قطنيانة» إلى «الزرَّادة» إلى «إشبيلية» إلى «قبطال» إلى «قبتور» إلى «طبرشانة» إلى «المساجد» إلى «قادس»، ثم إلى «بحر الظلمات». فأما النهر الأبيض الذي هو نهر مرسية فإنه يخرج من أصل الجبل، ويحكى أن أصلهما واحد؛ أعني نهر قرطبة ونهر مرسية. ثم يمر نهر مرسية في عين الجنوب إلى حصن «أفرد»، ثم إلى حصن «موله»، ثم إلى مرسية، ثم إلى أوريوالة إلى المدوَّر إلى البحر.

ومن شقورة إلى مدينة «سرتة» مرحلتان كبيرتان، وهي مدينة متوسطة القدر حسنة البقعة كثيرة الخصب (إلى أن يقول): ومن أراد المسير من مرسية إلى المرِّية سار

من مرسية إلى قنطرة أشكابة (هي التي يقال لها اليوم: قنطريَّة Cantarilla) إلى حصن «لبرالة» إلى حصن «الحمة» إلى مدينة لورقة، وهي مدينة غرَّاء حصينة على ظهر جبل، ولها أسواق وربض في أسفل المدينة، وعلى الربض سور، وفي الربض السوق، وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة. ا.هـ.

(٢) قال الحميري في الروض المعطار: شقورة من أعمال جيَّان؛ قالوا: وجبل شقورة ينبت الورد الذكي العطر، والسنبُل الرومي الطيب، وفي غيران «شنت مرتين» من جبل شقورة إشقاقل كبير قوي الفعل يفوق غيره، وإذا نزل بتلك الغيران أحد كثر منه الاحتلام، ويقال: إن في قرية هنالك ماءً يفعل مثل ذلك.

وفي جبل شقورة شجر الطنحش الذي يتخذ منه القِسيُّ، وعصير ورقه سم قتَّال وَحِيٌّ. وفي تلك الناحية ماء صعيد في حجر قدر ما تدخل الدابة رأسها فيه فتشرب ويتتابع على ذلك العدد الكثير من الدواب، فتصدر رواء؛ فإذا استقى في إناء لم يكن يروي الرجل.

ولعليٍّ بن جعفر بن همشك — وكُتب على قبره — بشقورة:

لعمرك ما أردت بقاء قبري ... وجسمي فيه ليس له بقاءُ
ولكني رجوت وقوف مارٍّ ... على قبري فينفعني الدعاءُ
سبيل الموت غاية كل حيٍّ ... فكلٌّ سوف يلحقه الفناءُ

ومن شقورة أبو بكر بن مُجبر، الشاعر المفلق المجيد، شاعر دولة بني عبد المؤمن.

شنجالة

ولنذكر الآن المهم من بلاد شقورة فنقول: إن المسافر إذا جاء بالخط الحديدي من مجريط قاصدًا إلى قرطاجنة، فلا بد له من أن يمر بشنجالة Chinehilla، وهي مدينة معروفة بالأندلس، وتكتب بأشكال مختلفة؛ منها شنجالة، ومنها شنشالة، ومنها شنتجالة، ومنها شنت جاله، ومنها شنشيلة، وهذا لفظ الإسبانيول لها اليوم، وذكرها ياقوت في المعجم قال: شنتجالة بالأندلس.

وبخط الأشتري: شنتجيل بالياء، ينسب إليها سعيد بن سعيد الشنتجالي أبو عثمان، حدَّث عن أبي المطرِّف بن مدرج، وابن مفرج وغيرهما، وحدَّث عنه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن بنان. قال ابن بشكوال: وعبد الله بن سعيد بن لبَّاج الأموي الشنتجالي المجاور بمكة، وكان من أهل الدين والورع والزهد، وأبو محمد رجل مشهور، لقي كثيرًا من المشايخ وأخذ عنهم، وروي أنه صحب أبا ذرٍّ عبد الله بن أحمد الهروي الحافظ، ولقي أبا سعيد السجزي وسمع منه صحيح مسلم، ولقي أبا سعد الواعظ صاحب كتاب «شرف المصطفى» فسمعه منه، وأبا الحسين يحيى بن نجاح صاحب كتاب «سبل الخيرات» وسمعه منه، وأقام بالحرم أربعين عامًا لم يقضِ فيه حاجة الإنسان تعظيمًا له، بل كان يخرج عنه إذا أراد ذلك. ورجع إلى الأندلس في سنة ٤٣٠، وكانت رحلته سنة ٣٩١، وأقام بقرطبة إلى أن مات في رجب سنة ٤٣٦. ا.هـ.

وينسب من أهل العلم إلى شنجالة الآتي ذكرهم:

أبو الوليد يونس بن أبي سهولة بن فرج بن بنج اللخمي، من شنجالة، سكن دانية، وتوفي بها سنة ٥١٤، ترجمه ابن الأبَّار في التكملة، وكان يكنى أبا الوليد، وكان قد أخذ عن أشياخ طليطلة؛ لأن شنجالة واقعة في خط تلك المدينة، وحدَّث عن المذكور أبو عبد الله بن برنجال، وأبو عبد الله بن سعيد الداني وغيرهما، وكانت إقامته بدانية أربعين سنة.

وأبو الحسن مفرِّج بن فيرُّه، من أهل شنتجالة، أخذ عن أبي الوليد الوقَّشي، وأبي عبد الله بن خلصة الكفيف وغيرهما، وكانت له معرفة بالعربية والأخبار والأشعار، وعلَّم بها أحيانًا، وتوفي حول الثمانين والأربعمائة، ترجمه ابن الأبَّار.

وأبو عثمان سعيد بن سعيد الشنجالي قد ذكره ياقوت الحموي، وجاءت ترجمته في الصلة لابن بشكوال، وقال إنه حدَّث عنه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن نبات، وإنه — أي المترجم — أخذ عن أبي المطرف عبد الرحمن بن مدراج.

وأبو عثمان سعيد بن عيسى بن أبي عثمان كان يعرف بالشنجيالي، ترجمه ابن بشكوال أيضًا، وهو يذكره بجيمين؛ أي بقوله «الجنجيالي»، سكن طليطلة، روى أيضًا عن عبد الرحمن بن مدراج، وكان حافظًا للمسائل عارفًا بالوثائق.

وخديجة بنت أبي محمد عبد الله بن سعيد الشنتجيالي، سمعت مع أبيها من أبي ذر الهروي صحيح البخاري، وسمعت مع أبيها من شيوخ آخرين بمكة حرسها الله. قال ابن بشكوال في الصلة: ورأيت سماعها في أصول أبيها بخطه، وقدمت معه بالأندلس وماتت بها رحمها الله.

وأبو عبد الله بن الشنتجالي يروي عن أبي المطرف بن مدراج، حدَّث عنه محمد بن بكير — قاضي قلعة رباح — وزكريا بن غالب التملاكي. من خط ابن الدباغ، قاله ابن الأبار.

هذا ومن شنجالة[1] يخرج القطار الحديدي فيمر بالقمة الفاصلة بين نهر بلنسية Turia ونهر شقورة، وعلى نحو من أربعين كيلومترًا يجد بلدة يقال لها «طوبارة Tobarra» علوها عن البحر ٦٣١ مترًا، وفيها ثمانية آلاف نسمة وموقعها بديع، وبالقرب منها جبل يقال له «شارة الكرز» ارتفاعه ١٨٠٠ متر، وجبال أخرى أقل منه ارتفاعًا، وعلى خمسين كيلومترًا بالخط الحديدي مدينة «هلِّين Hellin» فيها عشرة آلاف نسمة إلى الجنوب منها على مسافة عشرين كيلومترًا معدن الصفر. ثم ينزل الخط الحديدي في وادٍ عميق يقال له «المندو Mundo»، وهناك جسر على المكان الذي يقال له رملة شلتبار Rambla de Saltavar، ثم يدخل القطار في نفق تحت الأرض، ثم يصل إلى مصب نهر مُندو في نهر شقورة، وهناك أيضًا معادن الصفر، ثم إن القطار الحديدي يتبع نهر شقورة في تعاريجه حول شارة قابشة Cabeza، وعلى ٨٧ كيلومترًا محطة يقال لها «قلعة بارة Cala Parra»، وعلى مسافة ١١٢ كيلومترًا بلدة يقال لها «سيزا Cieza» علوها عن البحر مائة وثمانون مترًا، وأهلها ١٣ ألفًا في موقع بديع تحيط بها

آكام مشرفة على الضفة اليسرى من نهر شقورة، وحولها جنان غنَّاء، وهناك قرية يقال لها «بلانكا Blanca» على الضفة اليسرى من شقورة، وفيها قصر عربي دارس، وهناك بساتين برتقال.

وعلى ١٣٥ كيلومترًا بلدة «أرشنة Archena»، وهي على الضفة اليمنى، وبالقرب منها حمامات معدنية يقال لها «حمامات أرشنة»، وعلى ١٤١ كيلومترًا من شنجالة مدينة «لوركي»، وكان العرب يقولون لها لورقة، وإلى شماليها بحيرة من النترون، ثم هناك بلدة يقال لها «مولينا Molina»، وهي ذات ملاحات، ثم يمر الخط الحديدي برملة يقال لها «سالادا Salada»، وإلى الشمال مكان يقال له «جبلي نوفو Jibali Nuevo»، وعلى مسافة ١٥٥ كيلومترًا من شنجالة بلدة «القنطرية Alcantarilla»، سكانها خمسة آلاف نسمة هي في أول بساتين مرسية، ولا تبعد المدينة عنها أكثر من بضعة عشر مترًا.

وقد ورد في مذكراتي المحفوظة عندي ذكر مسيري إلى مرسية، وقد جئت هذه المرة من غربي الأندلس إلى الشرق، آتيًا من ناحية إشبيلية، مارًّا على أندوجر، ثم على ميَّاسة، وفي نصف الليل نزلت في محطة يقال لها «القصر Alcasar»، وركبت قطارًا ذاهبًا إلى مرسية؛ فسرى بنا القطار إلى شنجالة حيث كنا الساعة السادسة من صبيحة ٢١ أغسطس، وفي الساعة السابعة وصلنا إلى محطة «طويارا»، وفي الساعة السابعة وربع الساعة إلى محطة «أغرامون»، ثم إلى محطة «ميناس»، وكنا نساير نهرًا يقال له «الموندو» جاريًا في تعاريج بين الجبال، ثم وصلنا إلى محطة اسمها «كالاسبارا»، وهذه هي أظنها محرفة عن «قلعة بارَّة»، وهناك زراعة الأرز.

ثم في الساعة الثامنة وربع الساعة وصلنا إلى محطة بلد يقال له «سيزا»، ثم إلى بلد اسمها «بلانكا» على ضفة شقورة، وفيها حصن عربي قديم، وفي الساعة التاسعة وصلنا إلى «أرشانة»، وفيها حمامات معدنية، ثم إلى «لورقة»، ثم إلى «كوتيلاس»، وهذه البلدان الأخيرة ذات بساتين وكروم كثيرة، وعليها جداول من نهر شقورة، وقد شاهدت في كوتيلاس من شجر التوت والتين والمشمش ما لم أعهد له مثيلًا في الكبر؛ مما يدل على التناهي في جودة الأرض، فأما الجبال المحيطة بهذه الرياض فهي جرد خالصة. وفي الساعة التاسعة والنصف وصلنا إلى «قنطرية»، وفيها معامل كثيرة لحفظ الثمار، ثم وصلت إلى مرسية في ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٠ نهار الخميس، ووجدت البلدة حارة، وهذا بالرغم من النهر والبساتين والأشجار والأدواح. انتهى.

ثم نعود إلى ذكر البلاد المعروفة من زمن العرب في ناحية شنجالة، فنقول: إنه غير بعيد إلا نحوًا من عشرين كيلومترًا عن شنجالة توجد بلدة «البسيط»، جاء ذكرها

في الانسيكلوبيدية الإسلامية، وقيل فيها: إنها ناحية الشمال الغربي من مملكة مرسية، واقعة في الجنوب الشرقي من قشتالة الجديدة وفي وسط إسبانية، وارتفاعها عن البحر سبعمائة متر، ولم يعرف اسم «البسيط» إلَّا من كلام الضبِّي القرطبي، وكلام ابن الأبَّار البلنسي بمناسبة المعركة الكبرى التي وقعت في ٢٠ شعبان سنة ٥٤٠ للهجرة وفق ١١ فبراير سنة ١١٤٦، ولم يذكر مؤرخو الإسبانيول ولا غيرهم من الإفرنج شيئًا تقريبًا عن هذه القوعة التي وقعت بين الأذفونش السابع — ملك قشتالة — وسيف الدولة المستنصر أحمد بن هود، الذي انهزم يومئذ هو وحليفه عبد الله بن محمد بن سعد؛ ولهذا يقول العرب لابن سعد هذا «صاحب البسيط»؛ أي الذي استشهد فيها، ويقولون أيضًا للوقعة المذكورة «وقعة اللجِّ»؛ فإن ابن الأبَّار يقول عنها إنها وقعت بالموضع المعروف باللج وبالبسيط على مقربة من جنجالة، فهل اللج هذه هي نهر «لزوزة Leziza» إلى الغرب أو «الأتوز Alatoz» إلى الشرق من البسيط؟ لا يمكن الجزم، وقد ذكر فحص اللج ابن الكردبوس في تاريخه.

ومن المدن التابعة لإقليم تدمير التي كانت معروفة في زمان العرب مدينة لورقة؛ وهي بلدة سكانها اليوم ثلاثون ألف نسمة واقعة إلى الشمال الغربي من شارة «كانيو»، يخترقها وادٍ يسمَّى بوادي «الأنطين»، وهي قسمان: المدينة العتيقة، وشوارعها ضيقة، ولها حصن عربي لا يزال أكثره محفوظًا. والمدينة الجديدة؛ وفيها كنيسة سنتامريا مبنية في المكان الذي خيَّم فيه ألفونس الملقَّب بالحكيم، عندما استولى على لورقة سنة ١٢٣٤.

وأطراف لورقة كثيرة الثمار والفواكه، وسُقيا أرض لورقة من خزَّان ماء كبير في جنوبي البلدة يأتي ماؤه من الجبل، وقد تم بناؤه سنة ١٧٨٩، ومن لورقة يمتد الخط الحديدي إلى بسطة. وهي مدينة كانت في زمان بني الأحمر الدولة الأخيرة الإسلامية في الأندلس هي الحد بين ممالك النصارى ومملكة غرناطة؛ فلذلك أبقينا الكلام على بسطة ووادي آش والمرية وغيرها من ذلك الخط إلى أن نكون دخلنا في مبحث مملكة بني الأحمر المذكورة.

هوامش

(١) بمناسبة شنجالة أو جنجالة نذكر ما قاله الحميري في الروض المعطار وهو: جنجالة حصن بالأندلس في شمال مرسية. فيها حُبِس أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن وجان بن يحيى الهنتاتي، الذي كان وزير المنصور من بني عبد المؤمن، ثم نُهِّض في زمان ابنه الناصر إلى ولاية تلمسان وإصلاح الطرق من عُتاة زنانة.

ولما تمكن أبو سعيد بن جامع وزير المستنصر سعى في ولاية تلمسان لعمه السيد أبي سعيد بن المنصور، فحبس ابن وجان وجعل بنوه يكتبون سطورًا في البراءة من أفعاله وفرقوها على البلاد. ولما زار أبو سعيد بن جامع الوزير غنكيت في سنة ٦١٧ بعد تأخيره من الوزارة بلغه أن ابن وجَّان شمت به وهو في حبسه بتلمسان، وتلكم ورجا التسريح، فما كان عنده خبر حتى وصل إليه من جاز به إلى الأندلس وحبسه في حصن جنجالة. وما حُمِل إلى ذلك الثغر السحيق وظنوا إذ ذاك أنه قد حُسم بذلك الإقصاء والتفريق وفرَّقوا بنيه على البلاد قضى الله تعالى أن مات أبو سعيد بن جامع، وخلص ابن وجان من ذلك الحصن، وقلَّب الدولة، وسعى في الفتنة؛ وذلك أنه لما وصل الخبر إلى مرسية بوفاة المستنصر يوسف بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، واستخلاف المبارك عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بمراكش، والأمر لابن وجان بالمسير إلى جزيرة ميورقة، قرأ قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، وطلب الاجتماع بالسيد أبي محمد عبد الله بن المنصور — صاحب مرسية يومئذ — فلما حضر عنده قال له: أراهم قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور — رحمة الله عليه — وأنا أشهد أنه قال: إن لم يصلح محمد فعبد الله قد نصر عليكم، وإن طالبتموهما لم يخالفكم أحد مع كراهية الناس في بني جامع الذين قد اتخذوا الوزارة وراثة، وجعلوا يُقصون من الحضرة كل من هو مؤهَّل لوزارة واستشارة، وقد وطأ الله لكم هذا الأمر بأن جعل إخوتكم الميامن أولاد المنصور بقرطبة ومالقة وغرناطة، فأول ما يقدم فمخاطبتهم بذلك، وتهييج حفائظهم في خروج الإمامة عن بيتهم.

وكان السيد أبو محمد هذا لم يبايع عمه عبد الواحد وهو ناظر في البيعة، فأصغى إلى ابن وجَّان، وعلم أنه قد تقدم له في هذا الأمر سابقة بوزارة المنصور، وأن الموحدين يصيرون إلى قوله في البرين، فنصب نفسه للإمامة وتلقَّب بالعادل، وخاطب إخوته فجاوبوه، ثم انتقل العادل من مرسية إلى إشبيلية ومعه ابن وجَّان وهو غالب على جميع التدبير ناظر في مخاطبات ولاة العدوة والتطلع لأخبار مراكش.

ثم إن العادل أراد أن يستريح من ابن وجَّان لتفرغ أتباعه إلى تدبير الآراء والاستبداد بحضرته، فإنه غمَّ الجميع، وكان ابن وجَّان إذا احتوى على أمر ضم أطرافه ولم يترك لأحد منه شيئًا؛ ولذلك رماه أهل الدولة عن قوس واحدة؛ فرسم له العادل ركوب البحر إلى سبتة ليكون بها نائب سلطانه وناظرًا في جميع برِّ العدوة، فركب في القطائع من نهر إشبيلية إلى سبتة، وذلك كله في سنة ٦٢١؛ فاشتغل بالنظر في بلاد العدوة.

ثم إن العادل خلع، واجتمع أهل الحل والعقد وقالوا: نحب ألَّا نَبيت الليلة إلَّا بإمام، فقال لهم ابن وجان: إن رأيتم أن تتربصوا حتى تتحقق أخبار أبي العُلا — صاحب الأندلس — فقد ظهرت نجابته بتلك البلاد وقد ذاق الاستبداد، وما أظنه يترك هذا الأمر لغيره؛ فعدلوا عن كلامه، وأجمع أبو زكريا بن الشهيد، وأبو يعقوب بن عليٍّ على مبايعة أبي زكريا يحيى بن محمد الناصر. ثم خاطب أبو العلا المذكور لابن وجان يدعوه إلى مبايعته فأجابه، وكذلك خاطبه هلال بن مقدم — أمير الخُلْط — وعمر بن وقاريط — شيخ هسكورة — في شأن مبايعة أبي العلا والتضييق على أهل مرَّاكش الذين انحرفوا عن مبايعة أبي العُلا، وأخذ رأي ابن وجان ومشاركته في ذلك فأجابهما بأن: لا تزالا تشنان الغارات طرفة عين، وأن تجتهدا في قطع الطرق حتى تحوج الضرورة أهل مراكش إلى مبايعة أبي العلا، وإخراج من لا ينفعهم.

فلما تواصلت مصائب العرب وهسكورة على مراكش وصاروا لا يخرج منهم جيش إلا هزموه وغنموه حتى أفنوا كثيرًا من رجالها اجتمع أهل الرأي فيها على قتل ابن وجَّان؛ إذ كان في اعتقادهم أنه يغري العدو الظاهر بإهلاكهم. فاطَّلع ابن وجان وابنه الأكبر أبو محمد على ذلك فاختفى هو في غرفة لبعض أتباعه في جهة ربما تخفى عن العيون، ووقع ابنه في درب من دروب هَرْغَة، فاختفى في مسجد هناك ووقع النهب في جميع ما كان لهما، وصار الزمال والسائس والدخاني وأمثالهم يضع كل واحد منهم يده فيمن وقع له من الحرم وغير ذلك، ولا أحد ينكر ولا يقدر من ينكر أن يتلفظ بذلك؛ لأنهم كانوا عند العامة مباطنين لأعدائهم، ووقع البحث على الشيخ ابن وجَّان وعلى ولده، فأما الشيخ فانتهى إليه جزار فصاح بصاحب له استعان به على جرِّه، فجرَّاه وذبحه الجزَّار وغدا برأسه إلى أبي زيد بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد؛ إذ هو ابن عمه؛ لأن أبا زيد المقتول هو عبد الرحمن بن وجان بن يحيى الهنتاتي، وأبو زيد الواصل بالعسكر هو عبد الرحمن بن عبد الواحد أبي جعفر بن يحيى، فيحيى يجمع بين أبي حفص وبين وجَّان. وجعل الله تعالى بين هذين البيتين ما جعل بين بني هاشم وبني أمية. وأما ابنه

الوزير أبو محمد فنمى خبره إلى أولاد أبي زكريا بن الشهيد، فوصلوا إليه وأخرجوه وضربوا عنقه على باب المسجد، وكان قتلهما في سنة ٦٢٥.

لورقة

وجاء في معجم البلدان لياقوت عن مدينة لورقة Lorca[1] ما يلي:

لُوْرَقَة، بالضم ثم السكون والراء مفتوحة والقاف، ويقال لرْقة، بسكون الراء بغير واو، وقد ذكر في موضعه، وهي مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، وبها حصن ومعقل محكم، وأرضها جُزُر لا يرويها إلَّا ما ركض عليها من الماء كأرض مصر، فيها عنب يكون العنقود منه خمسين رطلًا بالعراقي، حدَّثني بذلك شيخ من أهلها والله أعلم، وبها فواكه كثيرة. ا.هـ.

وجاء في نفح الطيب نقلًا عن «مباهج الفكر» أن بلورقة حجر اللازورد.

وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية عن لورقة ما ترجمته:

بالعربي لورقة Luraka مدينة بإسبانية إلى الشرق بين غرناطة ومرسية، سكانها اليوم ستة وعشرون ألفًا وسبعمائة، وكان يقال لها في القديم: «اللورو Iluro»، أو «هليوكروكا Heliocroca»، هكذا عند الرومان، وأما دليل بديكر فيقول: إن الرومان كانوا يقولون للورقة: إلوكرو Ilucro، وقد كانت في عصر الإسلام بالأندلس تابعة لكورة تدمير، مشهورة بجودة أرضها وجودة ما تحت أرضها من المعادن وبحصانة موقعها؛ فإن حصنها كان من أمنع مواقع الأندلس، والبلدة على ارتفاع ٣٥٠ مترًا عن سطح البحر في سفح شارة كانو المشرفة على وادي الانتين، وقد كانت لورقة في مصيرها تتبع دائمًا مرسية، وقد كان استرجاع المسيحيين لها سنة ١٢٦٦. انتهى، بقلم ليفي بروفنسال. ا.هـ.

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه المدينة في معجمه مرةً ثانية دون واو، بل بالضم ثم السكون والقاف، وقال: إنها حصن في شرقي الأندلس غربي مرسية وشرقي المريَّة، وبينهما ثلاثة أيام، ينسب إليها خلف بن هاشم اللرقي أبو القاسم، روى عن محمد بن أحمد العتبي.

ذكر من انتسب إلى العلم من أهل لورقة

منهم أبو الحسن علي بن هشام الجذامي خطيب لورقة، أخذ القراءات عن ابن هذيل، وكان صالحًا أديبًا شاعرًا، روى عنه ابن حوط، وأبو الحسن بن حفص، بقي إلى سنة ٥٧٨.

وأحمد بن عبد الملك بن عميرة الضبِّي، قال ابن عميرة صاحب بغية الملتمس: هو ابن عم أبي، يكنى أبا جعفر، كان — رحمه الله — عالمًا عاملًا زاهدًا فاضلًا، متقللًا من الدنيا، كثير الصيام، وكان — رحمه الله — إمامًا في طريقة التصوف، وكنت لا تكاد تراه في الليل إلَّا قائمًا، توفي سنة ٥٧٧، وقد أناف على التسعين. ولما اجتمع معه شيخي القاضي أبو القاسم بن حبيش بلوقة رأيته قد بكى، فسألته: ممَّ بكاؤك؟ فقال: ذكرتني رؤية ابن عم أبيك هذا من تقدَّم، هكذا كان زيُّهم وسمتهم.

ولقد بت عنده ليالي ذوات عدد، فما كان يوقظني في أكثر الليالي إلا بكاؤه في السجود، وما كان ينام من الليل إلا قليلًا، فلما وصلت من عنده مرسية حدَّثت بذلك بعض جيرانه قديمًا بلورقة فقال لي: هكذا أعرفه مذ أزيد من ثلاثين سنة. ا.هـ. ما قاله ابن عمه ملخصًا. وجاء في نفح الطيب أنه رحل حاجًّا وكان منقبضًا زاهدًا صوامًا قوامًا، وممن حدَّث عنه أبو سليمان وأبو محمد ابنا حوط الله، ولقيه أبو سليمان بلورقة سنة ٥٧٥.

وأبو جعفر أحمد بن سعيد بن خالد بن بشتغير اللخمي، روى عن أبي العباس العذري، وأبي عثمان بن هشام، وأبي محمد المأموني، وأبي الحسن بن الخشَّاب، وأجاز له أبو عمر بن عبد البَرِّ، وأبو الوليد الباجي وغيرهما، وكان ثقةً في روايته عاليًا في إسناده، قال ابن بشكوال في الصلة: أخذ عنه جماعة من أصحابنا، وكتب إلينا بإجازة ما رواه، وتوفي — رحمه الله — سنة ٥١٦.

وأبو القاسم أحمد بن محمد بن بطَّال بن وهب التميمي، من أهل لورقة، رحل مع أبيه إلى المشرق، ولقي أبا بكر الآجري، وروى أيضًا عن أبيه، وكان من أهل العلم مشاورًا ببلده، توفي سنة ٤١٢، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وعلم الدين أبو محمد المرسي اللورقي، وهو قاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر العلَّامة المقرئ الأصولي النحوي، ولد سنة ٥٧٥، وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبي جعفر الحصَّار، وأبي عبد الله المرادي، وأبي عبد الله بن نوح الغافقي، وقرأ بمصر على أبي الجود غياث بن فارس، وبدمشق على التاج بن زيد الكندي، وببغداد على أبي محمد بن الأخضر، ولقي الجزولي بالمغرب، وكان متقدمًا في العربية وفي علم الكلام والفلسفة؛ يقرئ ذلك ويحققه، وأقرأ بدمشق، وشرح المفصل في النحو في أربعة مجلدات فأجاد، وشرح الجزولية والشاطبية، وكان مليح الشكل حسن البزة، توفي سابع رجب سنة ٦٦١ وكان معمَّرًا. وسمَّاه بعضهم أبا القاسم، والأول أصح. انتهى ملخصًا عن نفح الطيب.

ورفاعة بن محمد، من أهل بلَّس عمل لورقة، روى عن محمد بن عمر بن لبابة، وأسلم بن عبد العزيز، ذكره ابن حارث، وترجمه ابن الأبَّار بجملة قصيرة.

وأحمد بن محمد بن أحمد بن «زاغنُه»، من أهل لورقة، يروي عن الحافظ بن سكَّرة، ذكره ابن عميرة الضبي في البغية.

وأبو جعفر أحمد بن يحيى بن بشتغير، من أهل لورقة، سمع هو وأخوه من الحافظ السابق الذكر، ذكره أيضًا صاحب البغية.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري، يعرف بابن زاغنو، كذا بخط ابن الدباغ، سمع من أبي علي الصدفي وغيره، وولي القضاء ببلده فحمدت سيرته، وتوفي سنة ٥٦٠، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو مروان عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الملك التجيبي، يعرف بابن العرَّاء، أخذ عن أبي الحسن شريح بن محمد وغيره، وتصدر للإقراء ببلده لورقة، وأخذ عنه أبو بكر بن أبي نصير قاضي المرية، وأبو عبد الله محمد بن رشيد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن علي بن باز، أخذ عنه حماسة حبيب بشرح الجرجاني، وأجاز له عن شيوخه في غرة ربيع الأول سنة ٥٥٨، ذكره ابن الأبار.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن الحسن القيسي، كان أستاذًا في القراءات، وله فيها تأليف مستحسن استعمله الناس، رواه عنه ابنه عمر بن عبد العزيز، وابن ابنه عبد العزيز بن عمر، ذكره أيضًا ابن الأبار.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن الحسن القيسي، أخذ القراءات عن أبيه أبي حفص عمر بن عبد العزيز، الذي أخذها عن أبيه عبد العزيز بن الحسن القيسي، وتصدَّر للإقراء، وكان شيخًا صالحًا، قال ابن الأبار إنه أخبره عنه من استجازه في سنة ٦٠٤.

وعبد الله بن أسود، ذكره ابن عميرة في البغية، ولم يزد في ترجمته على هذه الجملة: عبد الله بن أسود، لورقي، توفي سنة ٣٦٣.

ومحمد بن أبي الأسود البلسي، فقيه محدِّث، ذكره ابن الوليد الفرضي، وهو ينسب إلى بلَّس عمل لورقة.

ومحمد بن باز أبو عبد الله، من أهل بلس، أديب شاعر فقيه، كان قاضيًا ببلده، وبه مات في سنة ٥٨٧، ذكرناه هنا لأنه عمل لورقة. قال ابن عميرة الضبي: أنشدني — رحمه الله — من قوله في لابسٍ ثوبًا أخضر:

وكم قائلٍ لم يدر وجدي ولوعتي	أرى لك في خضر الملابس مذهبا
فقلت له بل فاض دمعي صبابة	فعادت ثيابي من بكائي طحلبا

ثم قال ابن عميرة: وصل الحضرة الإمامية في سنة ٥٦٧، ومدحها بقصائد مطولة، أنشدني منها قصيدة منها:

نهضوا ليوم الفتح في صيَّابةٍ	بلغوا من الأبطال ألف مُلَثَّمِ
لم يجتمع لقبيلة أمثالهم	فهم الرجاء لمنجدٍ ولمُتهم

ومحمد بن بطَّال بن وهب اللورقي، توفي سنة ٣٦٦، ذكره ابن عميرة، ولم يزد على مجرَّد ذكر اسمه، ولكن يجب أن يلاحظ أن ابن عميرة يتوخَّى الاختصار في أكثر الأحيان بخلاف ابن الأبَّار.

ويوجد للورقة ميناء على البحر يقال له «آقلة Aguilas»، والمسافة بينهما ٣١ كيلومترًا، وهناك معدن حديد، ثم بلدة اسمها «نوريا Las Norias»؛ أي النواعير، وهي على مسافة مائة كيلومتر تقريبًا من مرسية إلى الغرب، ثم يمر الخط الحديدي ببلدة يقول لها الإسبان «أوفيرة Overa»، وكان العرب يقولون لها بيرة، وهي اليوم مدينة صغيرة أهلها خمسة آلاف، وقد ذكر الشريف الإدريسي حصن آقلة، ويقال إنه حصن

صغير على البحر وهو فرضة لورقة، وبينهما في البر ٢٥ ميلًا، وقال: إن من حصن آقلة إلى وادي بيرة في قعر الجون ٤٢ ميلًا، وعلى مصب النهر جبلٌ كبير، وعليه حصن بيرة المطل على البحر. وقد كانت هذه البلدة هي الحد الفاصل بين ممالك المسيحيين ومملكة ابن الأحمر آخر ممالك المسلمين بالأندلس.

وأما الجبل العالي الذي يشير إليه الإدريسي فهو شارة فيلبرة Filabra، وهناك وادٍ يقال له: وادي المنصورة، عنده معدن رصاص قلعي، وعلى مسافة ١٥٠ كيلومترًا من مرسية مدينة برشانة، وهذه هي وألبيرة كانتا داخلتين في مملكة بني الأحمر، لكنهما محل اصطدام الجيوش؛ لذلك قال لسان الدين بن الخطيب: مثلومة الأعراض والأسوار، مهطعة لداعي البوار، خاملة الدور، قليلة الوجوه والصدور، كثيرة المشاجرة والشرور، وذهل أهلها في الصلاة شائع في الجمهور.

وقال عن برشانة: حصن مانع وجناب يانع، أهلها أولو عداوة لأخلاق البداوة (إلى أن يقول): إلا أن جفنها[٢] ليس بذي سور يقيه مما يتقيه، وعدوها يتكلم بملء فيه. وقال عن بلَّيش التي هي من عمل لورقة: «ثغر قصيٌّ على الأمن عصيٌّ، ويتيم ليس عليه غير العدو وصيٌّ، ماؤه معين وحُوره عين، وخلوته على النسك وسواه تُعين، ولأهله بالصيادة اهتمام، وعسله إذا اصطفَّت العسول إمام، إلَّا أنها بلدة منقطعة بائنة، وبأحواز العدو كائنة، ولحدود لورقة — فتحها الله — مشاهدة معاينة، وبرُّها الزهيد القليل يتحف به العليل، وسبيل الأمن إليها غير سبيل، ومرعاها لسوء الجوار وبيل.» انتهى.

وسنذكر تلك الأطراف عند وصولنا إلى الكلام على مملكة بني الأحمر التي كانت قاعدتها غرناطة. وأما الآن فلا يبقى علينا في هذا الجزء، الذي هو الجزء الثالث من الحلل السندسية، سوى الكلام على قرطاجنة ومرسية، وسنقدم قرطاجنة ونؤخر مرسية؛ نظرًا لما تقتضيه هذه الحاضرة من الاستقصاء، فنقول …

هوامش

(١) جاء في الروض المعطار للحميري عن لورقة ما يلي: بالأندلس، من بلاد تدمير، أحد المعاقل السبعة التي عاهد عليها تدمير، وهي كثيرة الزرع والضرع والخمر، وهي على ظهر جبل، وبها أسواق وربض في أسفل المدينة، وعلى الربض سور، وفي الربض السوق، وبها معدن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل إلى كثير من الأقطار، وبينها وبين مرسية أربعون ميلًا، وفيها معادن لازورد. ومن أغرب الغرائب الزيتونة التي على مقربة

من حصن سرنيط، وهو حصن من حصون لورقة البرانية منها، وهي زيتونة في خرمة الجبل، فإذا كان وقت صلاة العصر من اليوم الذي يستقبل أول ليلة من شهر مايو نوَّرت الزيتونة، فلا يجن عليها الليل إلا وقد عقدت، ولا تصبح إلَّا وقد اسودَّ زيتونها وطاب، وقد عرف ذلك الخاصة والعامة ووقفوا عليه (جاءت هذه الرواية في نفح الطيب أيضًا).

وذكر إبراهيم بن يوسف الطرطوشي أن ملك الروم قال له سنة ٣٠٥: إني أريد أن أرسل إلى ملك الأندلس قومسًا بهدية (القومس هو الكونت)، وإن من أعظم حوائجي عنده وأعظم مطالبي لديه القاعة الكريمة الكنيسة التي في الدار التي فيها الزيتونة المباركة التي تنوِّر وتعقد ليلة الميلاد وتطعم من نهارها (اختلفت الرواية؛ فقد قيل إن الزيتونة المذكورة تنور وتعقد وتطعم في أول مايو؛ أي شهر أيار، وهنا تنوِّر وتعقد وتطعم ليلة الميلاد؛ أي ميلاد عيسى — عليه السلام — وهذا يكون في أواخر ديسمبر؛ أي كانون الأول.

وأما المعهود في الزيتون المعتاد الذي في الأندلس والمناطق الواقعة على مساواة الأندلس كجزيرة سردانية وجزيرة صقلية وجزيرة إكريت، وجزيرة قبرص وبلاد سورية أنه ينور في وسط فصل الربيع، ويعقد في أول الصيف ويطعم في أول الخريف، أما المعجزات فلا يقاس عليها)، فبها قبر شهيد له محل عظيم عند الله — عز وجل — فإنا نسأله مداراة أهل تلك الكنيسة وملاطفتهم حتى يسمحوا لي بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لي فهو أجلُّ عندي من كل نعمة في الأرض.

وبهذه الناحية موضع معروف مَنْ أراد أن يتخذ فيه جنانًا صرف إلى الموضع العناية بالتدمين والعمارة والسقي من الأرض، فتنبت الأرض هناك بطبعها شجر التفاح والكمثرى والتين والرمان وضروب الفواكه — حاشا شجر التوت — من غير غراسة ولا اعتمال، وهذا الموضع يعرف بأشكوني (وقد تقدم نقلنا ذلك). وتفسير لورقة باللطيني «الزرع الخصيب»، وهذا الاسم وافق معناه؛ لأنها من المعاقل الخصيبة وعلى نهر مجراه إلى الشرق من هذا القطر كما يختبر في أرض مصر؛ ولهذا النهر هناك مجريان: أحدهما أعلى من الثاني، فإذا احتيج إلى السقي به عُولي بالسداد حتى يرقى المجرى الأعلى فيسقى به، وعلى هذا النهر نواعير في مواضع مختلفة تسقى به البساتين، ويخرج منه الجداول العظيمة، يسقي الجدول عشرة فراسخ وأكثر.

وطعام لورقة يبقى مطمَّرًا تحت الأرض عشرين عامًا لا يغيَّر، وكثيرًا ما تُجتاح

زروع لورقة بالجراد، ويزعم أهلها أنه كان فيها جرادة من ذهب طلسمًا لدفع مضارِّ الجراد فسرقت من هناك؛ فلم يزل الجراد من حينئذ ظاهرًا عندهم فاشيًا، ويزعمون أن البقر كانت لا تقتل عندهم ولا يقع عندهم فيها المَوْتَانُ العام في بعض الأعوام، حتى وجد في بعض الأساس من مباني الأول ثوران من صخر؛ أحدهما أمام صاحبه ينظر إليه، فلما انتزعت من ذلك الموضع وقع الموتان في البقر عندهم ذلك العام. ولِلُورقة الفحص الذي لا يعلم في الأرض مثله، وهو المعروف بالفندون المتصل بفحص شنقُنيرة (كذا)، ومسافة ذلك خمسة وعشرون ميلًا.

وكان قدم قرطبة أيام الأمير محمد (ابن الأمير عبد الرحمن الثاني بن الأمير الحكم الملقب بالربضيِّ بن الأمير هشام بن الأمير عبد الرحمن الداخل) قوم من وجوه المضرية واليمانية بتدمير، فسألوهم عن هذا الفحص فذكروا فضله ونمو ما يزرع فيه، فأكثروا وقالوا: إن الحبة تتفرَّع من أصلها ثلاثمائة قصبة؛ فأنكر ذلك بعضهم؛ فوجَّهوا رسولًا أمروه بإغراء اليقين، وبحمل أصول من ذلك الزرع، فأحضرها، فأحصي في كل أصل ثلاثمائة قصبة وأكثر، في كل قصبة سنبلة.

وبقرية تازة من قرى لورقة عين تخرج من حجر صلد تجري في قناة متقورة في الحجر، عمقها أكثر من قامة نحو ميلين، ثم يتصل الماء بنقب من الحجر الصلد ومناهد (من نهد أي ارتفع) مفتوحة إلى أعلى والمنافس للهواء، ثم يفضي إلى بيت في داخل الجبل ظليم مملوء ماءً، والجبل كله معتمد له على أرجل، ومن دخل إليه لا يعلم ما وراء تلك الأرجل (قوله ظليم هنا معناه ملآن، يقال: ظلم الوادي: إذا بلغ الماء منه موضعًا لم يكن بلغه من قبل، ويجوز أن يكون من ظَلَم بمعنى: حَفَر في موضع لم يكن حُفر من قبل، والأرض المظلومة: التي لم تحفر قط ثم حُفرت، والتراب الذي يخرج منها يسمَّى الظليم، ويقال لتراب القبر ظليم من أجل هذا).

وقد ذكر ليفي بروفنسال في تأليفه مجموعة الآثار الكتابية العربية في إسبانية كتابةً وجدت في لورقة، وهي على بلاطة داخلة في درج مجلس البلدية، ونصها: يا قاري الخط، سل مولاك الرحمة عليه وعلى من ترحَّم عليه.

يظهر أنها بقية كتابة على قبر.

(٢) يظهر من هنا أنهم كانوا يستعملون الجفن بمعنى داخل البلدة.

قرطاجنة

قال عنها ياقوت بعد أن ذكر قرطاجنة Cartagena الكبرى التي بإفريقية: مدينة أخرى بالأندلس تعرف بقرطاجنة الحلفاء، قريبة من ألش من أعمال تدمير، خربت أيضًا لأن ماء البحر استولى على أكثرها فبقي منها طائفة، وبها إلى الآن قوم، وكانت عُملت على مثال قرطاجنة التي بإفريقية. ا.هـ.

وقال الشريف الإدريسي: ومدينة قرطاجنة هي فرضة مدينة مرسية، وهي مدينة قديمة أزلية، لها مرسى تُرسَى بها المراكب الكبار والصغار، وهي كثيرة الخصب والرخاء المتتابع، ولها إقليم قليل ما يوجد مثاله في طيب الأرض وجودة نمو الزرع فيه. ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقي مرة واحدة.

وجاء في نفح الطيب عن خصب الأرض في قرطاجنة أن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة، ونقل عن صاحب «مَباهج الفكر» في حق قرطاجنة: وهي على البحر الرومي، مدينة قديمة، بقي منها آثار، ولها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى.

وجاء في دليل بديكر أن قرطاجنة هذه بلدة سكانها نحو من خمسين ألفًا، ولها أحسن مرفأ في سواحل إسبانية، وهي أعظم موقع حربي إسباني على شواطئ البحر الرومي، وفيها حصنان مبنيَّان على صخور بركانية شامخة، وهما مالكان للمرسى، وكان معدل عدد البواخر التي ترسو في ميناء قرطاجنة ١٣٨٠ في السنة، محمولها ما يقرب من مليوني طن. ويرفأ إليها أيضًا نحو من ٣٥٠ سفينة شراعية في دور السنة، وهذا كان في السنين التي سبقت الحرب العامة بقليل.

ويقال إن باني هذه البلدة هو أسدروبال[١] خلف هاملكار القرطاجني الإفريقي الذي في سنة ٢٢١ قبل المسيح، بنى هنا قلعة جديدة وأطلق عليها اسم قرطاجنة وطنه،

وقد افتتحها الرومان سنة ٣٠٩ قبل المسيح، وأقام فيها «بوليب» وهو وسيبيون سنة ١٥١، ووصفها بوليب وذكر ما هي عليه من المنعة، وكان فيها هيكل يقال له «أسكولاب أشمون» في مكان الحسن المسمَّى اليوم بحصن «الحبل بلادنس»، وحصنٌ آخر يقال له حصن «بارسيد» مبنيٌّ على الأكمة الشمالية بالقرب من باب «سُرَّتَه».

وكانت قرطاجنة في أوائل أيام الرومانيين تعد أعظم مدينة وأغنى مدينة في إسبانية، ثم تدنَّت أحوالها بعض الشيء في زمان «طاراكوا» الروماني، ولكنها بقيت مدينة تجارية عظيمة، وفي سنة ٥٨٩ بعد المسيح في زمن الإمبراطور موريس أجريت فيها تحصينات لوقايتها ممن كان يغير عليها من الإفريقيين، ولما استولى العرب على إسبانية كانت ذات شأن، وكان فيها مركز إمارة مستقل، وكان استرجاع الإسبانيول إياها سنة ١٢٤٣ المسيحية، إلَّا أن العرب طردوا الإسبان منها واستردُّوها، ثم عاد الإسبان فاستولوا عليها نهائيًّا في زمن جاك الأول ملك أراغون. ومن قرطاجنة هذه خرج الغزاة الإسبانيون الذين استولوا على وهران في بلاد الجزائر، وذلك سنة ١٥٠٩.

وفي قرطاجنة رصيف على الميناء ينتهي من جهة الشمال بحائط يقال له سور البحر، وأعظم شارع في البلدة يمتد من ساحة «سانتا كتالينا» إلى الشمال الغربي منها، وفي هذا الشارع حركة التجارة، وللبلدة باب شرقي تمتد منه طريق تمر على حصن يقال له حصن العرب Castillo de los Moros، وإلى الشمال الغربي باب يقال له باب مجريط القديم، وهناك ساحة يقال لها إسبانية، وغيضة نخيل، وفي قرطاجنة دار صنعة أنشئت سنة ١٨٧٦، تبنى فيها المراكب البحرية. وأمام مرسى قرطاجنة إلى الجنوب الشرقي جزيرة صغيرة يقال لها «إسكيمومبريرا Iscombrera»، وعلى تسعة كيلومترات من قرطاجنة مدينة «الأونيون Union»، يزيد أهلها على عشرين ألفًا، فيها معادن رصاص قلعي معروفة من زمن القرطاجنيين الإفريقيين والرومانيين.

ولم نعثر على أسماء رجال من أهل العلم منسوبين إلى قرطاجنة، ولا شك في أنها كانت كغيرها من مدن الأندلس في الاعتناء بالعلم والأدب؛ لأن الحركة العقلية في الأندلس كانت عامة؛ فإن لم نكن عثرنا على أسماء علماء منسوبين إلى بعض البلاد فيكون ذلك لفقد الوثائق لا غير. وقد وجدنا مترجمًا في تكملة الصلة لابن الأبَّار محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري، من أهل قرطاجنة عمل مرسية، أصله من سرقسطة، ولِّي القضاء في قرطاجنة زيادة على أربعين سنة، وكان له حظ من الفقه والأدب، وتوفي سنة ٦٣٢.

هوامش

(١) يحققون أن أصل اسم «أسدروبال» كما كان يتلفظ به الفينيقيون هو «أزربعل»، ومعناه عون الله.

مرسية

قال ياقوت الحموي: مرسية Murcia،[1] بضم أوله والسكون وكسر السين المهملة وياء مفتوحة خفيفة وهاء، مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطَّها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وسماها تدمير بتدمر الشام، فاستمر الناس على اسم موضعها الأول، وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها، وبها كان منزل ابن مردنيش، وانعمرت في زمانه حتى صارت قاعدة الأندلس، وإليها ينسب أبو غالب اللغوي المرسي، يعرف بابن البنَّاء، صنَّف كتابًا كبيرًا في اللغة. ا.هـ.

وجاء في صبح الأعشى أن الأندلس عدة قواعد: الأولى غرناطة، والثانية أشبونة، والثالثة بطليوس، والرابعة إشبيلية، والخامسة قرطبة، والسادسة طليطلة، والسابعة جيَّان، والثامنة مرسية، والتاسعة بلنسية، والعاشرة سرقسطة، والحادية عشرة طرطوشة، والثانية عشرة برشنونة (أي برشلونة).

فمرسية هي القاعدة الثامنة، ونقل صبح الأعشى عن تقويم البلدان أن موقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول ثماني عشرة درجة والعرض تسع وثلاثون درجة وعشر دقائق. قال في تقويم البلدان: وهي مدينة إسلامية محدثة، بنيت في أيام الأمويين الأندلسيين. قال: وهي من قواعد شرق الأندلس، وهي تشبه إشبيلية في غرب الأندلس بكثرة المنازِهِ والبساتين، وهي في الذراع الشرقي الخارج من عين نهر إشبيلية، ولها عدة متنزهات منها «الرشاقة» و«الزنقات» وجبل «إيل»، وهو جبل تحته البساتين، وبسيط تسرح فيه العيون، ولها مضافات منها مدينة «موله»، وهي في غربي مرسية، ومنها أوريولة وغير ذلك. ا.هـ.

وجاء في نفح الطيب: ومن كور الأندلس الشرقية تدمير، وتسمَّى مصر أيضًا؛ لكثرة شبهها بها؛ لأن لها أرضًا يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر، وصارت القصبة بعد تدمير مرسية، وتسمَّى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها، ولها نهر يصب في قبليها. (ثم يقول): وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد مرسية وبلنسية ودانية والسهلة والثغر الأعلى، فمن أعمال مرسية أوريولة والقنت ولورقة وغير ذلك. ا.هـ.

قلت: أما النهر الذي في ناحية تدمير يشبه نيل مصر في فيضه بيوم مخصوص من السنة، فهو الذي بناحية «بيره» فإن لسان الدين بن الخطيب يقول عنها: «وواديها نيلي الفيوض والمدود، مصري التخوم والحدود، إن بلغ إلى الحد المحدود فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود.» قلنا: وأما مرسية نفسها فلا غوطة غرناطة ولا غوطة بلنسية أسبح من غوطتها في بحر الخضارة والنضارة.

وعلوها عن سطح البحر ٤٣ مترًا، ونفس البلدة لا يزيد أهلها اليوم على ٣٢ ألفًا، ولكن مجموع سكان البلدة وسكان القرى الداخلة تحت إدارة بلدية مرسية ١٢٥ ألفًا، ويمر في وسط مرسية نهر شقورة الذي كان يسمى عند القدماء نهر «تادر Tader»، وهو من أجمل الأنهر، لا يبعد كثيرًا عن محطة السكة الحديدية، وعليه طواحين باقية من أيام العرب، إحدى هذه المطاحن يدور فيها ثلاثون رحى، ومرسية شبيهة أيضًا بدمشق من جهة استبحار خضارتها ونصوع نضارتها، وكون الجبال التي تعلوها مجردة من كل نبات كأنها صخرة صماء محاطة بجنة غنَّاء، وأما هواؤها فكثير التقلُّب، وقد تبلغ درجة الحرارة فيها بعض أيام الصيف ٤٤ بميزان سنتيغراد، وقد بت فيها ليلة واحدة دون غطاء أصلًا والنوافذ مفتوحة، وكان الحر في الليل شديدًا كما في النهار وربما أشد.

وكان نزولي في فندق على ضفة النهر اليسرى، وأمام هذا الفندق ساحة فسيحة، وأمامها جسر معقود على النهر، فبالرغم من شدة الحر انشرح صدري بمشاهدة هذا النهر الفيَّاض الذي لتدفُّق مياهه في وسط تلك الحرارة لذة عظيمة. ولما أقبل العصر وضع أصحاب الفندق كراسي كثيرة في تلك الساحة مما يلي الفندق، فكان الجلوس هناك شهيًّا، وكانت سَوْرة الحر قد انكسرت عما كانت في الظهيرة كما لا يخفى، ووجدت في مرسية أنسًا لم أشعر بمثله في غيرها، لعل السبب في ذلك اعتقادي أنها كانت مدينة عربية صرفة. وأما في الشتاء فقد يشتد البرد في مرسية إلى حد أن بعض نباتها يموت من شدة الصقيع، فإنه يهب عليها في ليالي مارس رياح شمالية قارسة البرد.

وفي مرسية[2] بلدة جديدة على الضفة اليمنى من شقورة وشوارع رحبة وحديقة يقال لها: «جنة فلوريدا بلنقه Floridablanca»، وفي البلدة القديمة ساحة يقال لها «ساحة الدستور Constitucion» تنعقد فيها سوق يومي الأربعاء والسبت من كل أسبوع، فيتداعى إلى السوق الفلاحون من القرى. وأما الكنيسة الجامعة سانتا ماريا فقد كان بناؤها سنة ١٣٥٨، بناها المطران ابن يارَنْدَة في مكان جامع، وأهم ما فيها برج علوه ٩٥ مترًا بناه الكردينال «ماثيو دولَنْقَة de' Langa»، واشترك في عمله عدة من المهندسين، وإذا صعد الإنسان إلى رأس هذا البرج رأى منظرًا عجبًا يندر نظيره في العالم، فإنه يشرف على وادي شقورة ووادي سنقونيره Sangonera، ويسرح النظر منه حتى لورقة، ويرى الجبال المسماة «فونسانطا fuensanta»، والشارع الأعظم في مرسية يُفضي إلى الساحة المسماة «سانتو دومينيقو» عليها صفوف الأشجار. وفي مرسية شارع يقال له: بلاتيريا Plateria، وهو شارع ضيق فيه المخازن الكثيرة، وفي أيام الصيف يسدلون من فوقه ستائر بيضاء للوقاية من أشعة الشمس المحرقة.

وفي مرسية كنائس كثيرة منها سان نيقولا وسان جوان وسان ميكال وغيرها، وهي في ذلك لا تختلف عن سائر مدن إسبانية التي لا شيء فيها أكثر من الكنائس والأديار والمعاهد الدينية، وأظن أن كثرة هذه المعاهد قد جعلت عند الشعب ما يقال له رد فعل؛ فسئم الأهلون — لا سيما في العصر الحديث — كثرة الكنائس والأديار زيادة على احتياج الناس. ولما أُعلن الحكم الجمهوري في إسبانية من سبع سنوات أحرق الشعب كثيرًا من هذه الكنائس، ولما نشبت الحرب الداخلية من سنتين فتك الشعب بالرهبان والقسيسين وقتلوا منهم ألوفًا مؤلفة، وهدموا من الكنائس ما لا يُحصى عدده.

ثم في مرسية دارُ تحف فيها نفائس أثرية ومسكوكات وتصاوير، وأفخر ما رأيت من المباني في مرسية «الكازينو»؛ فإنه لا يوجد مثله في المدن التي هي أكبر بكثير من مرسية؛ وذلك لأن في مرسية عائلات عريقة في الثروة تملك أكثر هذه البساتين والجنان المدهشة التي لا نظير لها في الدنيا، فهؤلاء الأغنياء من أبناء البيوتات القديمة بنوا هذا الكازينو لأنفسهم، وجعلوا إنشاءه على الطرز العربي، ونقشوا على جدرانه وسقوفه كتابات عربية أشبه بالأزهار.

وفي مرسية شارع اسمه شارع «المنارة» وشارع آخر اسمه «السوقو»؛ أي السوق، وشارع اسمه «الزوقاقي»؛ أي الزقاق، وتوجد قرى كثيرة أسماؤها عربية، بعضها تحرف عن أصله وبعضها باقٍ على أصله العربي، مثل «البركة» و«القرية» وغيرهما، وشاهدت

في مرسية حمامًا قديمًا باقيًا من زمان العرب ينزل الإنسان إليه في درج، ولم يكن هذا الحمام كما هو اليوم، بل كان مساويًا لأرض الشارع الذي يشرع بابه إليه، وربما كان أعلى منه، غير أن توالي الخراب بكرور الأيام جعل طبقة من التراب ترتفع في الشوارع شيئًا فشيئًا، بحيث إن الأبنية التي كانت على مستوى الطرق قد أصبحت منحطة عنها. وهذا يحصل في جميع المدن القديمة التي عندما يحفر الإنسان في وسطها يجد طبقات من التراب قد تكاثفت مع الدهر فعَلَتْ مترًا ومترين وثلاثة، ويجد تحتها الجدران والأبنية. وقد كانت هذه من قبل على سطح الأرض. وفي مرسية خزانة آثار عربية دخلتها فلم أجد فيها كبير أثر، بل كل ما هناك أربع أو خمس بلاطات عليها كتابات عربية، منها ما هو بالخط الكوفي، ومنها ما هو بالخط النسخي، وقد أصبح كثير منها غير مستطاع القراءة.

ورأيت في أحد شوارع مرسية صورة للعذراء مريم — عليها السلام — فلما وصلنا ومعي الدليل أمام هذه الصورة، روى لي الدليل قصة تتعلق بهذه الصورة؛ وهي أن النصارى كانوا استولوا على مرسية صلحًا كما هو مذكور في التواريخ (هذا الصلح وقع بواسطة أحمد بن محمد بن هود قصد به حقن الدماء واجتناب خراب مرسية، ودخلها النصارى ظهر الخميس ١٠ شوال سنة ٦٣٦)، وكان هذا الصلح على شروط معيَّنة مبيَّنة كما جرى في غرناطة بعد ذلك بثلاثمائة سنة، وكما جرى في غرناطة أيضًا نَقَضَها ملوك النصارى وقلبوا للمسلمين ظهر المِجَنِّ.

والخلاصة أن مرسية بعد استيلاء النصارى عليها، صارت حارتين؛ حارة للمسلمين وحارة للمسيحيين، فوضع هؤلاء هذه الصورة في حارة المسلمين، وكان المسلمون اشترطوا للصلح حرمة شعائرهم الدينية، فاعترضوا على وضع هذه الصورة في حارتهم، وذهبوا إلى الأمير النصراني الذي في البلدة وطلبوا إليه رفع الصورة من هناك بحجة أنها مخالفة لشروط الصلح الذي وقع؛ فماطلهم الأمير في رفعها، وفي أثناء ذلك توفي وقام مقامه ابنه؛ فذهب المسلمون إليه يتقاضونه قلع هذه الصورة من حارتهم، فأجابهم بأن عملًا لم يعمله والده لا يريد أن يعمله هو. فذهب المسلمون إلى أميرهم، ولعله ابن هود الذي عن يده وقع الصلح، فأجابهم أن هذه القصة لا تستحق أن نثير من أجلها شقاقًا. سمعت هذه القصة في مرسية.

ولا شك في أن مرسية[٣] كانت موجودة في زمن الأيبيريين، ولكنها لم تكن شيئًا مذكورًا إلَّا بعد فتح العرب للأندلس، وكانت تابعة للخلافة في قرطبة إلى أن انحلَّت الخلافة الأموية وصار الأمر إلى ملوك الطوائف، فمن ذلك العهد صارت تتبع تارةً إمارة

المرية وطورًا إمارة طليطلة وربما تبعت إشبيلية. وفي سنة ١١٧٢ المسيحية استولت عليها دولة الموحدين، ثم صارت مركز إمارة مستقلة في زمن الأمير عبد الله العادل، وذلك سنة ١٢٢٤، ولم يطل الأمر حتى استولى عليها النصارى بقيادة صاحب قشتالة الأذفونش فرديناند الثالث، وكان ذلك سنة ١٢٤٣، ثم عاد المسلمون فأخرجوا النصارى منها، وبقيت في أيديهم ثلاثًا وعشرين سنة، وعند ذلك زحف النصارى إليها بقيادة جاك الأول ملك أراغون، وانتهى الأمر بدخولهم إياها صلحًا على شروط كما تقدم.

وكان بناء العرب لمرسية في زمن عبد الرحمن الثاني الأموي سنة ٢٠٩ للهجرة الموافقة ٨٢٤ للمسيح، ثم ازدادت عمرانًا وأصبحت من حواضر الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، ففي أيامهما بنيت هذه السدود والحواجز التي بها جرى توزيع المياه على البساتين من جدولين كبيرين، وتتشعب الجداول كلها من هذين الجدولين، ولولا هذه الحواجز وهذه القنيِّ لم تكن مرسية هذه الجنة العجيبة التي هي ما عليه الآن. وقد ذكروا لي أنه في زمن استئثار «ريفيرا» بالأمر؛ أي منذ عشر سنوات، أرسلت الحكومة من مجريط إلى مرسية لجنة من المهندسين لأجل فحص قضية المياه وسدودها وأقنيتها لعل هذه اللجنة تلحظ شيئًا من الخلل لم يلحظه العرب، فبعد أن طافت هذه اللجنة في تلك الأرض بالطول والعرض، قررت أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وأنه حسب مرسية أن تحفظ نظام توزيع المياه كما كان في زمن العرب. سمعت هذا من الإسبانيين أنفسهم.

وأما لذة فواكه مرسية وكثرتها فهما مما يكلُّ عن وصفه القلم، فهي في ذلك كدمشق، وفيها كدمشق المشمش الذي لا نظير له، وهو يحفظ في معامل حفظ الثمار، ويصدَّر إلى الخارج، وفيها البرتقال الجيد الكثير، ومن أهم غلاتها الحرير، فإنه يخرج منها مليون كيلو من الفيالج، وفيها ثمر كثير في بساتينها، ومما شاهدته فيها معمل لهذا النبات المسمَّى بالفليفلاء، وهو ذو لونٍ أحمر ساطع يسخنونه في هذا المعمل، ويصدرون منه مقادير إلى أميركا وغيرها، وفيها نوع من العنب كالعنب الحلواني المعروف في دمشق.

(١) تلخيص تاريخ مرسية لضون فيلكس

ولنبدأ الآن بتلخيص تاريخ مرسية في زمن العرب الذي ألَّفه «ضون فيلكس بونسواسبريان» المتقدم الذكر، المطبوع سنة ١٨٤٥ في المطبعة القومية بمدينة بالمه (ميورقة)، فإنه تاريخ خاص بمرسية، وجدنا فيه من التدقيقات ما لم نجده في غيره؛ فآثرنا تلخيصه في هذا الكتاب نصحًا بالعلم وزيادة في التحري، مع عزو النقل إلى صاحب الكتاب والذين روى عنهم؛ فإن مقصدنا من الأول إلى الآخر إيصال القارئ إلى الحقائق ونشدان الروايات أنَّى وجدناها لا لإظهار البراعة والاستطالة بسعة العلم، وقد سبق لنا أننا أخرجنا تأليفًا في غزوات العرب لفرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط، ولما كنا أول من أفرد هذا الموضوع بالتصنيف، ولم يكن هناك كتاب عربي مستقل بذكر هذه الفتوحات، التزمنا نقل روايات الإفرنج عن هذه الحوادث، وأكثرنا من الأخذ عن تأليف المستشرق الإفرنسي رينو Reinaud الذي سماه «غارات العرب على بروفنسا وسويسرة وبيامون»، فوجد من قال: إن كتابنا هذا لا يقال له تأليف، وإنما هو ترجمة كتاب رينو المذكور. ولقد كان من السهل علينا أن نذكر ما ذكره رينو دون أن ننسب الروايات إليه ودون أن ننقل بالأمانة العلمية الواجبة ما أورده في كتابه، وكان على تلك الصورة يُعجِب هذا النمط من القراء بتحقيقاتنا، إلا أننا نحن في وادٍ وإظهار البراعة والتزيد بالعلم في وادٍ، وضالتنا المنشودة الوحيدة هي إحراز الحقيقة بجميع ما يمكن من الوسائل؛ ولذلك عندما اطلعنا على ذلك الانتقاد في إحدى جرائد العراق نشرنا تحت عنوان «دفع نقد» ردًّا هذا نصه:

> الاعتراض على كتابنا غزوات العرب في أوروبة والبحر المتوسط هو غير وارد، فإننا نحن لخَّصنا كتاب المستشرق الإفرنسي رينو قصدًا وعمدًا، وكذلك كتاب المؤرخ الألماني الدكتور فرديناند كلَّر. وقد كان يمكننا أن نسرد التاريخ جاعلين ذلك من عندنا كما يفعل الكثيرون في ما ينقلونه أو يترجمونه، ولكننا توخينا عمدًا الترجمة والإسناد إلى مؤرخين أوروبيين معروفين، مع ذكر أسماء الكتب التي نقلوا عنها وأسماء الرواة الذين حضروا تلك الوقائع أو عاصروا الدهر الذي وقعت فيه، وذلك حتى تزداد ثقة القراء في هذه الروايات، فإن هذا الموضوع لمَّا يطرقه أحد كتَّاب العرب.
>
> وهذا الكتاب الذي صنَّفناه هو بكر في بابه؛ فإن مؤرخي العرب لم يفردوا بالتأليف غير تواريخ الأندلس، فأما تاريخ فتح العرب لجنوبي فرنسة وشمالي

إيطالية وقسم من سويسرة وجزائر البحر المتوسط، فلم يخصَّص به تأليف قبل تأليفنا هذا، فكنا نرى لأجل زيادة التوثيق وجوب نقل روايات الإفرنج بعينها؛ حتى لا يظن ظانٌّ أننا وضعنا من عند أنفسنا مآثر للعرب أو أننا بالغنا فيها.

وزد على ذلك أن ناشئتنا مع الأسف مولعة بتصديق روايات الإفرنج دون العرب، وإذا جاءت رواية عربية غير مقرونة بروايات أوروبية ضعفت ثقتهم بها فلأجل معرفتنا هذه الحالة الروحية عندهم تعمَّدنا في هذا الكتاب النقل عن الأوروبيين وعن المآخذ التي اعتمدوا عليها، وعلَّقنا على روايات من نقلنا عنهم حواشي يعرف قيمتها من له بصر بالتاريخ، وهذه الحواشي أخذناها من بعض كتب العرب الذين جاءت هذه الوقائع في تضاعيف سطورهم، وطبَّقناها على روايات مؤرخي الإفرنج، بحيث حصل اليقين بصحة تلك الروايات.

إذن ليس بصحيح أننا نحن لم يكن لنا في الكتاب سوى الترجمة، بل من قرأ الكتاب علم ما فيه من مقدمات وحواشٍ وجمل معترضة وذيول، هي كلها من قلمنا، وليس ثمة تناقض بين ترجمتي لكلام رينو وكلَّر وقولي في المقدمة: «إنني خصصت بهذا الموضوع كتابًا مستقلًّا، وجعلت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابي الذي أنا مباشر تأليفه عن الأندلس ... إلخ.»

فأما كوننا نقلنا إحدى الروايات المستغربة بدون أن نعلِّق عليها ما ينقضها، وأنه كان الواجب أن نردَّ قول ابن القوطية من أن طارق بن زياد شوى لحم بعض أعدائه وأطعمه جنوده ليُلقي الرعب في قلوب الأعداء، فالجواب عنه: ليس كل ما ينقله الإنسان يجب أن يرد عليه، لا سيما إذا كان الرد معتمدًا فيه على مجرَّد العقل، بينما التاريخ هو عبارة عن نقل، ولا يرد المؤرخون منه بدليل العقل سوى ما يبدو لهم مستحيلًا أو بالغًا من الغرابة ما يقرب من المستحيل، وليست هذه المسألة من هذا الباب، والسلام. انتهى.

أما كتاب «ضون بونسوا سبيريان»، فله مقدمة يقول المؤلف فيها: إن إحراق كتب العرب أنَّى وُجِدَت في إسبانية بأمر الكردينال شيميناس قد كان السبب في الجهالة التي أحاطت بتاريخ العرب والإسلام عند الإسبانيين، وقد تتبَّع ديوان التفتيش المشهور كتبَ المسلمين بالإحراق والإتلاف بإغراء أساقفة النصارى إلى الحد الذي أضرَّ ضررًا فاحشًا بالصناعة والزراعة والمعارف والفنون مما كان خلَّفه لنا العرب الحكماء العاملون على

درجة عالية، فجرى في إسبانية بعد سقوط الدولة العربية ما جرى فيها بعد سقوط الدولة الرومانية من التدنِّي والانحطاط مع الفرق بأنه جاء بعد الرومان قبائل القوط العاتية، الذين لا ينتظر من مثلهم إحياء المدنية، وأنه جاء بعد العرب النصارى الكاثوليكيون الذين يزعمون أنهم محبون للعلم وناشرون للأنوار.

ثم قال: إن بعض المؤرخين حاولوا الاستقاء من منابع العرب، فكان يحول بينهم وبين علوم العرب الحجر الواقع من قبل أخبار الكنيسة. والمؤرخ الوحيد المعاصر للعرب، وهو «أزيدور الباجي Isidore de Beja»، لم يكتب من التاريخ ما يتجاوز سنة ٧٥٤ (للمسيح)، وجاء بعده المسمى «بالسلمانتيسنس Salmanticenese» الذي أراد أن يكمل تاريخ الباجي فلم يتجاوز سنة ٨٨٦، ثم جاء الراهب فاجيلا Vegila فوصل إلى سنة ٩٧٥، ثم جاء سامبيرو Sampiro الأستوري فوصل إلى سنة ٩٨٢، ثم جاء المؤرخ «أوفيدوبيلاج» Oviedo Pelage فوصل بالتاريخ إلى سنة ١١٠٩. ولم تكن كتابات هؤلاء المصنفين الأربعة إلَّا مجرَّد تقييد وقائع.

ثم جاءت تقييدات قلعة أيوب فوصلت إلى سنة ١١١٩، وبعدها قيود شنت ياقب فبلغت سنة ١٢٤٨، ثم قيود طليطلة فبلغت سنة ١٢٩٠، وكلها كانت على النمط الذي تكلَّمنا عليه، ثم إن «رويز غيمينار Ruiz Gimenez» — رئيس أساقفة طليطلة — كتب تاريخًا لعرب إسبانية باللاتيني، ولكنه كان بغاية الاختصار. وكذلك المؤرخ العربي الرازي الذي ترجمه «جيل بيريز Gil Perez» كان أيضًا قاصرًا جدًّا، وما ورد سوى ذلك من التواريخ يتضمَّن حكايات خرافية كثيرة.

فلما جاء «كاسيري Cassiri» وحاول كتابة تاريخ العرب في إسبانية كان هو المؤرخ الأول الذي عوَّل على الكتب العربية التي كان قد بقي منها شيء في خزانة الإسكوريال، وجاء من بعده «أنطيونيو كوندي Conde»، فرقي في معرفة التاريخ العربي عدة درجات وكسب شهرة واسعة. ثم ذكر المؤلف الوثائق التي عوَّل عليها في كتابة تاريخ مرسية، فقال إنه اعتمد على جغرافية الشريف الإدريسي، وكتاب الزراعة[٤] لابن الأبان Ebn El Aban الذي ترجمه بانكيري Banqueri، وكُتب كسيري، وتاريخ «ماسدو Masdeu»، وتاريخ مرسية المنسوب إلى «كاسكاليس» Cascales، وتاريخ «دولوزانو de Lozano»، والكتاب المسمَّى «بأوامر غرناطة» تأليف «دوهيتا de Hita»، و«حياة القديس فريد نياند» تأليف «كاستر de Castro».

ثم أورد صاحب هذا الكتاب — تاريخ مرسية — أسماء البلاد والأماكن، فجعل لها جدولًا مشتملًا على ثلاثة حقول: الأول يشتمل على الأسماء كما كان يتلفظ بها

الرومانيون، والحقل الثاني يشتمل على الأسماء كما كان ينطق بها العرب، والثالث على الأسماء كما ينطق بها الإسبانيون، وهي هذه:

الأسماء الرومانية	الأسماء بالعربية	الأسماء بالإسبانيولية
أرسيلازيس Arcilasis	مرسية مرسية مرسية (بالإمالة)	مورسيا Murcia
أسكياتو Askayato	القنطرة Cantara	الكنترية Alcantarilla
ليبرالَّه Libralla	ليبراله Librela	ليبريلَّة Lebrilla
أيضًا	الحامه Alhama	آلآمه Alama
أيضًا	توتانه Tutana	توتانه Totana
اليوكراتا Eliocrata	لورقه Lurcat	لوركا Lorca
سوغانا Sogana	صوحانه Sohana	بلايابورتوس Playa-portus
بورتمان PortMan	بورتمان Portoman	سان جينيس San Gines
تادمير Tadmir	قاره بارقه Cara-Vaca	كاراباكا Carabaca
أيضًا	جنجالي (بالإمالة) Ghenghalet	شنشيلَّا Chinchilla
أيضًا	أنجباله Angebala	أبانيلا Abanilla
أيضًا	ألونه صانت Alona-Sant	غواردامار Guardamar
ألونه Alona أولوصنتُم Olucentum	القنت Alacant	أليكنت Alicante
أكسيس Accis	وادي آش Guad-Aix	غواديس Guadix
أيضًا	ابن عطَّاف Ben ataf	بتاتيا Benatea
أيضًا	شجانه Chadjena (هذا الاسم محرف هنا)	كاراباكا Carabaca
أيضًا	برجيله Vergilat	(كالعربي)
جيزن Gesen	ياسِن-لبيت Gasen-Lebit	يَست Yeste

الأسماء الرومانية	الأسماء بالعربية	الأسماء بالإسبانيولية
تيبونا Taibona	طيبيلة Taibilla (طيباله مع الإمالة)	نربيو Nerpio
برغولا Bergula	الزَّرَب (؟) Azarab	مورتلَّا Mortalla
فيكاريا Ficaria	الماصروف Almazarrov	مازرون Mazarron
برغولا أيضًا	سقاطين Zakatin	زكاتين Zacatin
أيضًا	قاجباروه Gaschbarro	كالاسبارا Calasparra
سجيزا Segisa	سجن (؟)Sehegin	سهيجين Gehegin
سجيزا Segisa	بلكور Balkur	بولاس Bullas
سجيزا Segisa	الكور AlKor	كوي Coy
سجيزا Segisa	زيته Zethu	أوسيت Ocete
سجيزا Segisa	الغوشاري Elcucharet	أوجوس لوشينا Ojis de Luchena
موان Muan	مولات Mulat	مولا Mula
موان Muan	ياكات Yakat	بليكو Pliego
سبتي Cepti	زَبيت Zebit	ساتي Ceuti
سبتي Cepti	المنصورة Almanzora	دولوركي de Lorqui
سبتي Cepti	بلشيد Valschid	بلشيد Belchid
سبتي Cepti	حماد Hemad	كاستيلو أي بابلو دو مرسية Castilo y pueblo de Murcia
سبتي Cepti	بني حسن Beni Hazan	بنياجان Beniajan
سبتي Cepti	سانت عميرة Sant-omera	سانتو ميرا Santomera
سبتي Cepti	لقنت Lecant	دومرسيه de Murcia
سبتي Cepti	بارتس Berts	بيكاسترو Bigastro
سبتي Cepti	بني علي أو علا Beni-Eli o'Alé	بنيل Beniel
سبتي Cepti	بقتس Bacats	الكرياس Alquerias
سبتي Cepti	الذنية Adzenet	زاناتا Zeneta

مرسية

الأسماء الرومانية	الأسماء بالعربية	الأسماء بالإسبانية
سبتي Cepti	سانت عارن Sant-Aren	ريًّا أي بابلا Raya y Puebla
سبتي Cepti	سلنت Sallent	دو مرسية de Murcia
آ آيو Aaeo	علالاهت Alalahet	أليدو Aledo
آ آيو Aaeo	إلبيات Elibat	جيكينا Jiquena
آ آيو Aaeo	البيت Albet	البوديت Albudeite
آ آيو Aaeo	ألبونتي Alponti	كيدبار Quidpar
آ آيو Aaeo	فرغليط Forgiolieti	دوسكورا de Segura
أوتا Ota	ألست Alzet	دو أوريولا De Oriheula
مورجيس Murgis	مورقه Mnrga	موراتا Morata
تيبار Tebar	تباعه Tebaa	كامبوتيبار Campo Tebar
تيبار Tebar	جومالة Giomala	فيلانوفا Villanueva
توربيلا Turbula	تيبالة Tibala	توبارًّا Tobarra
توربيلا Turbula	البطانة Albatana	دوانتور de Ontur
جيمينا Gemina	جيمينالة Gheminalet	جوميله Jumilla
كوامبرا Coimbra	جوميلة Jumillat	
سالتيسي Saltici	شنجالة Cinxela	شنشيلا Chinchilla
بوتيا Putea	شنجاله Cixela	بوزولورنت Pozolorente
فالابونكا Valeponga	والونشة Walonxa	فالديكانكا Valdeganga
كارتاكونوفا Cartago Nova	قرطاجنة Carthagent	كارتاجنا Cartagena
موروس Morus	كمبوجارة Campojara	أيضًا
أورسي Vrucu	آقلة Acle	أكسيلاس Aguilas فيلاريكوس Villaricos
أرسيلا Arcila	أرشيله Arxilla	أرشينا Archena
بوكارًّا Bugarra	الكدية Alcaudete	كودات Caudat
أوريولا Auriola	أوريولة Auriolet	آيورا Ayora
أورسيلس Orcelis	أوريوله Oriola	أوريوالا Orihuela

الأسماء الرومانية	الأسماء بالعربية	الأسماء بالإسبانيولية
أورسيلس Orcelis	ميكه Meca	المنصا Almansa
أبياريوم Apiarium	بيار Biar	ألبيرا Alpera
توبولا Tubbulla	بلياريه Veliaria	بيلينا Vilena
فكاسورا Vacasora	أيضًا	دوبيلينا de Villena
سالاريا Salaria	ساكسونه Saxona	ساكس Sax
أبولا Abula	البسيط Abasit	البسيط Albacete
أسُّو Asso	إيسُّو Isso	إيزو Iso
إيلونوم Illunum	فلين Felin	هلين Hellin
كاسكا Kaska	كركه Carca	الكارش Elcarche
مانيتون Mainieton	أيضًا	فونت ألامو Fuente Alamo
جنجالا Gingela	شنكله Singla	سنكلا Cingla
إيلوتانا Elotana	البطانة Albatana	أيضًا
إيلوتانا Elotana	ركشه Raxa	دو جونيلا Junilla
إيلوتانا Elotana	رومان Roman	أيضًا
إيكلازو Yeklazo	تقله Takla	يكلا Yecla
إيكلازو Yeklazo	عربي Arabi	أيضًا
إيكلازو Yeklazo	أفرد Afred	فريز Ferez
موندا Munda	أيضًا	لاتور Lietoer
كاستروم التوم Castrum Altum	شقوره Xecura	سيكورا Sequra
كاستروم التوم Castrum Altum	قنطار Quntar	دويست de Yeste
إيليسي Illici	إلش Helch	إلش الشاره Elche de la Sierra
كاتينا Catina	زيزه Zieza	سيزا Cieza
أسكول Ascul	كوا Coa	كمبو كوي Campo Coy

الأسماء الرومانية	الأسماء بالعربية	الأسماء بالإسبانيولية
إيلَّورسيز Illorcis	لورقه Lorki	لوركي Lorqui
إيلَّورسيز Illorcis	موله Mola	مولينا Molina
إيلَّورسيز Illorcis	وادروقوت Guab-Rocot	ريكوت Ricote
مون أكوتوس Mons-Acutus	مونتا كوت Montacut	مونتاكادو Montiagudo
مون أكوتوس Mons-Acutus	مونوبار Monovar	أيضًا
مون أكوتوس Mons-Acutus	المرادي Almoradi	أيضًا
أبديرا Abdera	المرية Almeria	أيضًا
أبديرا Abdera	الشقر Algucer	أيضًا
أبديرا Abdera	الباتر Albater	الباتيرَّا Albaterra
أبديرا Abdera	ابن رزين	البرَّاسين Albarracin
أبديرا Abdera	الغلاب Algelab	الجزارس Algezares
أبديرا Abdera	المدور Almodovar	أيضًا

هذا هو الجدول الذي يقابل فيه المؤلف بين الأسماء القديمة، والأسماء التي كانت معروفة عند العرب، والأسماء التي كانت معروفة عند الإسبان، وقد لحظنا أن فيها محلًّا للاعتراض في بعض أماكن، وذلك أنه كان العرب يقولون: «لشنت مرية ابن رزين» «السهلة» يقولون: «سهلة بن رزين»، وكان الإسبانيون يقولون لهذا المكان نفسه «البرَّاسين»، ولا يزالون يقولون ذلك إلى اليوم. ومؤلف هذا الكتاب يجعل «البرَّاسين» هي اللفظة التي كان يقولها العرب، وكذلك اسم «شنجالة» أو «جنجالة»، فقد كان العرب يلفظونها بالجيم أو بالشين، وقد كتبها المؤلف بالشين، وغير ذلك.

وجاء بعد ذلك تعليله لاسم «مرسية» فقال — وقد أصاب — إن هذه اللفظة هي لفظة يونانية Murtia معناها الآس، وهو هذه الشجيرة التي كانت عند الأقدمين منسوبة إلى الزهرة. وكون الآس يقال له عند اليونان «مورسيا» أو «مورتيا» قاله مؤلف هذا الكتاب، ثم رأيت في «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» للإمام السيوطي — ص٢٩٠ من الجزء الثاني من الطبعة المصرية التي تاريخها سنة ١٢٩٩ — نقلًا عن كتاب مباهج العبر: اليونان تسمي الآس «مرسينا» وتسميه العامة «المرسين». ا.هـ.

وقد سألت بعض أدباء الأتراك عن اشتقاق اسم مدينة مرسين في ولاية أضنة التي يقال لها «قيليقية» فقالوا لي: إنه مكان كان يكثر فيه شجر الآس، وهو المرسين، فمنه جاء اسم هذه البلدة. ثم إن صاحب هذا التأليف تاريخ مرسية قال إنه لما فتح المسلمون إسبانية كانت مرسية قاعدة الولاية المساة «تدميرة»، وإن العرب اصطلحوا على تسمية هذه الولاية بتدمير تسمية لها باسم تدمر التي كانت من حواضر سورية.

والذي نعلمه أنهم سموا ناحية أوريولة أو أوريوالة بتدمير اسم الأمير الذي كان يليها عندما جاء العرب، وكانوا يقولون لها تارةً أوريولة، وتارة أوريوالة، وأحيانًا تُدمير — بضم أول الاسم — وربما لفظوها بالفتح. ثم قال المؤلف: إن هذه الولاية كانت تشتمل على ست مدن: مرسية، وأوريولة، وقرطاجنة، ولورقة، ومولة، وأنجبالة، وكان فيها عدة قصبات وقرى ومرافئ بحرية وحصون وقلاع، وكانت مرسية واقعة في سهل أفيح على ضفة نهر يقال له «تادر Tader»، وكان يحيط بها سور من زمن الرومانيين، ثم تداعى إلى الخراب في زمن القوط. وكان لمرسية حصن روماني يقال له «مونتي غودو»، فسماه العرب «مونتاقوت»، وأما الأمير تدمير فهو تدمير بن غبدوش Tadmir ben Gabdos من بقايا ملوك القوط، وهو الذي خلف الملك لذريق آخر ملوك القوط في إسبانية. ثم إنه لما استولى العرب على مرسية أداروا عليها سورًا منيعًا ذا أبراج، وكان لمرسية في زمانهم باب يقال له باب «إفريقية»، وهو الباب الذي بقرب الجسر الحاضر. وكان السور يمتد من هذا الباب إلى الشرق إلى الباب الآخر المسمَّى «بالقبلة» أو «بيب° المؤمن» الذي كان بقرب التياتر الحالي، وبين هذين البابين كان القصرالمسمَّى «بالنعاير Naair»، الذي كان يقيم فيه ولاة العرب وملوكهم، وكان السور من باب القبلة إلى الشرق يمتد إلى باب أوريولة، وكان هذا في الساحة المنسوبة إلى القديسة «أولاليه»، ثم يتوجه السور من هناك نحو الشمال فالغرب حتى يصل إلى مكان الكنيسة التي يقال لها اليوم كنيسة الرحمة.

وكان على أبواب السوق بيت محصَّن يقولون له «دار الصغير»، وباب صغير يسمَّى «ابن عمادي»، ومن هذه النقطة كان السور يمتد إلى شارع «بورسل Porcel» حيث كان الباب المسمى بالكوفية، ثم ينعطف السور نحو الجنوب إلى باب شقورة الذي يطابق اليوم الباب المسمَّى «باب بيلار Pilar»، ثم إن السور يعود إلى الشرق فيتصل بالقصبة المسماة «بالقصر الكبير Alcazar Quivir»، وهو المقر المعتاد لملوك العرب في مرسية، واعتماد هذا القصر على باب «إفريقية».

وكانت المياه تدافع عن السور، فمن جهتي الجنوب والشرق كان السور على ضفة نهر شقورة الذي يقول له العرب «وادي الأبيض Guadalabiad»، وأما من جهتي

الشمال والغرب؛ فقد كان العرب احتفروا خندقًا أجروا فيه المياه، ولا يزال هذا الخندق إلى يومنا هذا والأهالي تسميه «بالوال» (أظنه محرفًا عن الواد)، وهذا الخندق تنحدر إليه مياه الأمطار.

وكان الوادي الأبيض عليه جسر من الخشب، والمظنون أن العرب وجدوا على النهر جسرًا رومانيًّا خربًا، وكان هذا الجسر الروماني من الحجر، وكان في مرسية مبانٍ فاخرة شامخة أشرفها القصر الكبير والمسجد الأعظم الذي كان في الساحة المسماة اليوم «بساحة كادناس Cadenas».

وكان باب إفريقة يشرع على سكة قرطاجنة وسكة لورقة، وأما طرق «زينيتة وبني أيل وبني حسن»، فكانت تنتهي إلى بيب المؤمن. وطريق أوريولة كانت تنتهي عند باب أوريولة، وكان يقال له أيضًا: «بالنطولة Valentola»، وأما طرق «مونتاقوط والإعراش Alarach» فكانت تؤدي إلى «ابن عمادي»، وأما طرق الأندلس الجنوبية فكانت هي وطريق «قنطرة أسقيه Askeya»، وهي البلدة المعروفة الآن «بالقنطرية Alcantarilla» تنتهي بباب شقورة، كما أن طريق قشتالة كانت تؤدي إلى باب الكوفية.

هذا، وبعد عدة سنوات لا غير من استيلاء العرب على قطر تدميرة صيَّر العرب مدينة مرسية وضواحيها جنَّة غنَّاء، فبنوا محكمة بهندسة دقيقة في ساحات مرسية التي كان طولها ستة عشر ميلًا وعرضها أربعة أميال. وكانت معارف العرب السامية، ولا سيما خبرتهم الزائدة في الزراعة قد صيَّرت ذلك الوادي من أبدع ما يكون لأجل خير الإنسانية.

وكان القوط في نواحي قنطرة الأسقية قد استخدموا مضيقًا بين جبلين يخرج منه بهدير عظيم النَّهر الهدَّار الذي يقال له «تادر»، وكان صالحًا لسير الزوارق إلى ذلك المضيق، فالعرب اختاروا هذا المضيق لحصر مياه النهر الأبيض، وشقوا منه أقنية وجداول وزعوا مياهها على الأرضين فأحيوها جميعًا وأسعدوا بها تلك البلاد. قال بنكيري Banqueri: إنهم ثقبوا الجبال لأجل إمرار المياه منها، وكان يوجد محل يقال له قنطرة «بردة» تتوزع منه القنيُّ العديدة التي كانت تشرب منها ضواحي بلنسية.

وفي الفصل الأول من هذا الكتاب أطلس جغرافي لمدينة بلنسية نشره القس «جوان لوزانو» في كتابه المسمى:[٦] Batistania Y Contestania del Remo de Murcia.

وأما الفصل الثاني من هذا الكتاب فهو يتعلق بتدمير ملك مرسية الذي يقول المؤلف: إن اسمه تدمير Tadmir؛ أي بفتح أوله أو توديمار Teudimire أحد سلالة

ملوك القوط ومن أقارب المسكين الملك لُذريق الذي ختمت به دولة القوط في واقعة وادي لِكَّة. وكان تدمير قائدًا من قواد لذريق، وقبل ذلك كان واليًا على بلاد مرسية في أيام فيتيشة Viticha وإيجيره Egira، فلما وقعت واقعة وادي لِكَّة وانهزم فيها الجيش الإسباني رجع تدمير بعساكره والجنود التي لم تشأ أن تفرَّ إلى بلاد أستوريش في الشمال أقام في تدمير مركز ولايته.

فلما أكمل عبد العزيز بن موسى بن نصير فتح الأندلس؛ أي الولايات الجنوبية من إسبانية، توجه لفتح ولاية تدمير؛ فأخذ تدمير يناوش العرب القتال، فنهد إليه عبد العزيز من جهة لورقة وقائد عربي آخر اسمه حبيب من الجهة الثانية؛ فتقهقر تدمير إلى مرسية، ولما رأى نفسه غير قادر على الثبات في مرسية تحوَّل إلى أوريولة لمنعة حصونها وقرب الجبال منها. فزحف عبد العزيز إلى مرسية، ومنها قصد إلى تدمير في أوريولة؛ فحاصره وضيق عليه الخناق، فدافع تدمير دفاعًا شديدًا إلى أن وهنت قوته. فأرسل إلى عبد العزيز يطلب الصلح فتم التراضي على الصلح بموجب الكتاب الذي تقدم نشر صورته العربية نقلًا عن بغية الملتمس ونشر ترجمته عند الكلام على مدينة أوريولة فلا لزوم لإعادة ذلك.

ثم يقول المؤرخ سيبريان: إنه بعد فتح عبد العزيز بن موسى لمرسية بسنتين تنصَّر.[٧] فقتل سنة ٧١٦ المسيحية.

ثم بعد موت عبد العزيز آلت إمارة العرب في مرسية إلى حبيب الفهري الذي أعلن الحرب استئنافًا على الملك تدمير؛ فطالبه هذا بالعهد المنعقد بينه وبين عبد العزيز فلم يقتنع؛ فذهب تدمير إلى دمشق يشكو أمره إلى الخليفة فأعطاه الخليفة الحق وبقي ملكًا مدة ثلاثين سنة، ومات سنة ٧٤٣ للمسيح، وكان فصيح اللسان عارفًا بالكتب المقدسة محترمًا حتى عند المسلمين، وكان قد انتقل من مرسية إلى بلدة «قاراباقة» وجعلها مركزه.

وفي الفصل الثالث يذكر الملك «أتاناهيلد» Atanahailde الذي خلف تدمير، فقال إنه كان أقرب الناس نسبًا إلى الملك المتوفَّى؛ فلذلك صار خلفًا له وأقام بمدينة قاراباقة، فجماعة حبيب الفهري أمير العرب هناك لم يريدوا العمل بمعاهدة تدمير، وجرت فتنة في مرسية كان فيها النصارى الذين تهوَّدوا أشدَّ الناس شغبًا، وإن أحد زعمائهم المسمَّى جيزان أبو الإيثار Jesan Abu El Iithar تولى كِبَرَ هذه الثورة؛ فطرده أتاناهيلد فالتجأ إلى مرسية، واستقروا بها وخربت مرسية بتلك الفتنة التي استمرت عشر سنوات إلى

أن حضر عبد الرحمن الأول من الشام، فدخل الأندلس ووجد ما وجد من الشقاق بين أصحاب الملك أتاناهيلد وأصحاب يوسف الفهري.

وفي زمن يوسف هذا ضرب العرب السكة في إسبانية، وكان درهم الفضة مكتوبًا عليه بالإسبانيولي هذه العبارة: بسم الله هذا الدرهم ضُرب بالأندلس. وقد بقيت الفتنة في بلاد تدمير تشتد إلى أن الملك القوطي أتاناهيلد ومن بقي معه هجروا أوطانهم، والتجئوا إلى جبال أستوريش وليون، ومات أتاناهيلد سنة ٧٥٥؛ فخلفه الملك بيلاي Pléage الذي تلقب بأمير إسبانية.

وتولى عبد الله بن عبد الرحمن مملكة قاراباقة، كما أن زهيرًا — ملك المرية — استولى على مرسية.

وفي الفصل الرابع ذكر المؤلف أن الحسين بن ظهار — أحد ولاة مرسية — عندما سكنت الفتنة في قرطبة سنة ٧٤٣ صرف همته إلى إتقان الزراعة، وفي أيامه جاء عرب كثيرون من أرباب الخبرة التامة بعمارة الأرض فاستقروا بمرسية، وتقاسموا فيما بينهم المرج الخصيب الذي على ضفاف وادي الأبيض. وجاء أيضًا كثير من سراة العرب ونزلوا بمرسية، وبنوا فيها القصور العالية، وأخذت هذه البلدة مع ضواحيها ترقى في سلم الحضارة، فكانت السكنى في تلك الجنة من أعظم رغائب العرب. وكان الحسين المذكور يستقدم إلى بلده أقدر الناس على العمل في الأرض؛ فسعدت بهم تلك البلاد إلَّا أنها لم تكن تخلو في الأحايين من الفتن.

وفي سنة ٧٨٥ ثار أحد أولاد يوسف الفهري وأثار أهل مرسية على عبد الرحمن الأول — ملك قرطبة — فاضطر هذا أن يزحف إلى مرسية وخيَّم في القنطرية، وأخذ ينصح للثائرين بالسكون ويستعمل الحكمة إلى أن تمكَّن من إدخالهم في الطاعة دون سفك دم، فدخل إلى مرسية وقد اجتمعت عليه الكلمة، فبقي في المدينة مدة من الزمن حتى وطَّد الراحة فيها، ثم عاد إلى قرطبة، حيث مات في ٣٠ سبتمبر سنة ٧٨٨، وقد ترحَّم عليه جميع سكان الأندلس، لا سيما أهل مرسية، وكان وزيره رجلًا اسمه الحسن بن مالك الدمشقي (؟).

وفي الفصل الخامس يذكر أن السلام استقر في مرسية إلى سنة ٨٠٠؛ إذ نشبت هناك وقائع دموية في غاية الشدة. وتحرير الخبر أنه بعد وفاة الملك هشام بن عبد الرحمن الداخل، قام بالأمر ابنه الحكم؛ فثار اثنان من أعمامه سليمان وعبد الله، وطلبا الملك وقاتلاه، ثم انحاشا إلى نواحي بلنسية، واعصوصب حولهما عددٌ كثير؛ فزحف الحكم

إليهما، وتلاقى الفريقان في مرسية؛ فاعتصم سليمان وعبد الله بالبلدة إلَّا أن الحكم — وكان شديد البأس حازمًا صارمًا — تغلَّب عليهما، وقُتل سليمان في المعركة، وانهزم عبد الله شريدًا، ودخل الحكم مرسية وأمَّر عليها قائدًا من خواصه اسمه «فضلُه بن عميسة» وكنيته أبو فلتة.[٨] الذي توفي في سنة ٨١٣ فأقام الحكم ابن هذا القائد مقام أبيه أميرًا على مرسية، أما عبد الله عم الحكم، فإنه عاد فخضع لابن أخيه وأقطعه هذا تدمير. وقد جاء في حاشية هذا الفصل أن الملك الحكم ضرب السكة باسمه، وكان مكتوبًا عليها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. بسم الله، ضُرب هذا الدرهم في مدينة الزهراء سنة ٣٥٢.

الأمير الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين. انتهى كلامه.

قلنا: إن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي تغلَّب على عميه سليمان وعبد الله هو غير الحكم المستنصر الذي ضربت باسمه السكة المذكورة، فإن الحكم الأول لم تكن في زمانه بُنيت الزهراء، وكان عهده من سنة ١٨٠ للهجرة إلى سنة ٢٠٦، فالذي ضرب هذه السكة هو الحكم الثاني الملقب بالمستنصر، ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد كانت وفاته سنة ٣٦٦.

ثم يقول في هذا الفصل: إن الصلح الذي وقع بين الحكم وعمه عبد الله كان بردًا وسلامًا على مرسية فازداد عمرانها وكثر سكانها، وفي تلك الأيام بُنيت القُنيُّ والسدود، وجرى توزيع المياه على الأرضين ولا يزال على ما هو عليه من ذلك العهد.

وفي الفصل السادس تكلَّم صاحب هذا الكتاب على موت الحكم، وقيام ابنه عبد الرحمن الثاني بالإمارة مقامه، وكان عبد الله المارُّ الذكر عمُّ الحكم أميرًا على مرسية، فأراد الانتقاض على الملك الجديد ابن أخيه؛ فزحف عبد الرحمن إلى مرسية لقتال عبد الله، وتأهب هذا لملاقاته، وقبل أن تقع المعركة ابتهل عبد الله إلى السماء قائلًا: تعلم يا رب ما عندي من كراهية أهوال الحرب، وإنما أنا أريد إنفاذ مشيئتك فانصرني في القتال إن كان حقي في الملك أرجحَ من حق ابن أخي، وأما إذا كان ابن أخي هو الأحق فلا تجعل على يديَّ أيها الرحمن الرحيم سفكَ دماء إخواني.

وما أنهى هذه الكلمات حتى ثارت عاصفة شديدة قلبته عن ظهر جواده وأصابه سكات، فاحتمله قواد جيشه إلى القصر وأغلقوا أبواب المدينة؛ فجاء عبد الرحمن وحصر المدينة، ولم يزد شيئًا على حصارها، فمضت أربعة أيام، فأفاق الأمير عبد الله وعادت إليه قوة الكلام فأعلن أصحابه أن الله تعالى لا يريد هذه الحرب، وأنه معترف بإمارة عبد الرحمن؛ فوقع الصلح بين الاثنين، وأقر عبد الرحمن عمه عبد الله على إمارة تدمير، وما أُريق في هذه الواقعة ولا نقطة دم.

وعاد الأمير عبد الرحمن إلى قرطبة بجيشه فائزًا سالمًا، وعاش الأمير عبد الله بعد ذلك مدة سنتين؛ إذ كانت وفاته في «قراباكا» سنة ٨٢٣.

وفي الفصل السابع ذكر المؤلف ازدهار غوطة مرسية مدة ثمانين سنة متوالية، وذلك بعمل المسيحيين الذين كان أتاتايلد نفاهم من قراباكه سنة ٧٤٥، والمغاربة المسلمين الذين جاء بهم حسام بن ظهار من قرطبة، وهم الذين جاء بهم الأمير عبد الله، وقد وصلت إلينا بالتواتر أسماء الزراع الأولين، الذين حوَّلوا ذلك الوادي إلى جِنان وفراديس، وشقُّوا الجداول وبنوا القرى والدساكر، فعرفت بهم وخلَّدت أسماءهم من ذلك في ناحية الجنوب المسماة بالقبلة Alkibla، ومنجلَّاقو Menjalaco، وبني أبطه BeniAbta، وبني علَّال BeniAlel، والفوز Alfoz، والبلاط Albalate، والمهاجر Almohajar، وبني مَنيت BeniManete، والبادل IlBadel، والقاتل Alcatel، وبني قوتو Beni Coto، وبني كومال Beni Combal، وبني هشام Beni Haxam، والقوَّازة Alguaza، ورميه Rumia، والفند Alfande، والحرثة Alhartta، وبني عزور Beni Azor، وبني إيل Beni Ehl، والزنيت Azenete، هذا من جهة الجنوب. وأما من الجهة الأخرى من النهر؛ أي ناحيته الجوفيَّة[٩] فيوجد شبُّوط Xaibote، والفتيقو Alfatego، والنجار Alnajar، والبطالتة Albatalta، وزرايع Zaraich، والساقل Alzaquiel، والجدا Aljada، وبني بطروش Beni Potroix، والأبراج Alabrache، وبني توزر Beni Tuzer، وبني أفيار Beni Afiar، وبني مُنجي Beni Monji، وبني زابل Beni Zabel، والفندارين Alfendarin.[١٠]

هذا وبالرغم من كثرة الحروب والفتن التي كانت تتوالى على إسبانية كان أهل مرسية يتمتعون من السلام بما يمكنهم من المضي في عمرانهم الزراعي وإيصال الفلاحة وتوزيع المياه إلى الدرجة القصوى من الإتقان، وفي ذلك الوقت رضيت العناية الإلهية عن تلك الجداول الفياضة التي كانت مياهها تنقسم بهندسة فائقة إلى أن عمت خيراتها جميع هاتيك السهول، ولم يزل نظامها إلى يومنا هذا قائمًا ناطقًا بأنه ليس في الإمكان أحسن مما كان.

على أنه كان قد جرى في مرسية فتنة اقتضت مجيء عبد الرحمن[١١] بنفسه إليها ومعه حاشيته، وذلك سنة ٩١٧، فأعاد السلام إلى نصابه، وكانت الرعية تحب هذا الملك حبًّا جمًّا، وفي زمانه وقع خلاف بين ملوك النصارى برمودة وغرسية، فتنة امتدت إلى ما بين العرب، وأحدثت بعض القلق، ثم آل الملك في قرطبة إلى الأمير هشام[١٢] الذي وسَّد أمور المملكة إلى رجل من خواصه يقال له حاجي محمد.[١٣] كان متصفًا بصفات باهرة،

إلَّا أنه كان عظيم الأطماع، فحجر على هشام المؤيد وتسلم بيده زمام الحكم، فعرف العرب أن المنصور اختلس الملك؛ فثار الكثيرون وجرت فتن، وانتقض عرب كتلونية وبلاد أخرى، فزحف المنصور إلى مرسية وأقام بها ريثما وافته النجدات، وكان نزوله بمرسية عند رجل من الرؤساء الموسرين اسمه أحمد الخطيب الذي قام بجميع النفقات اللازمة للمنصور وحاشيته؛ ولذلك أعفاه المنصور من جميع أنواع الضرائب. وكانت زيارة المنصور هذه لمرسية سنة ٩٨٤ بحسب رواية المؤرخ كوندي. وأما المؤرخ لوزانو فقال إنها كانت سنة ٩٨٩.

وفي الفصل الثامن ذكر صاحب هذا الكتاب ولاية زُهير أمير مرسية فقال إنه سنة ١٠١٠ وقعت حروب داخلية طاحنة بين المسلمين، فاشتبك في هذه الحروب ملوك إشبيلية وطليطلة وقرطبة وسرقسطة وبرشلونة، وكان ملك قرطبة سليمان،[١٤] وكان عنده قائد يقال له المرتضى، فأرسل اثنين من خواصه وهما حيدر ومنذر، فاستوليا على مدينة مرسية، وقيل بالخديعة؛ فلم يقبله الأهالي، وفي سنة ١٠١٦ عمَّت الفتنة كل البلاد، وازداد النفور من الملك سليمان المستعين، وانتقض عليه وزيره علي بن حمود، واستبد هذا بمدينة أوريولة، وذهب إلى مرسية فاستنفر أهلها وزحف بهم على البربر الذين كانوا في بسطة وأرجونة وجيَّان والمريَّة، فتكدرت موارد السلم في مرسية.

وفي سنة ١٠٢٧ كانت الفوضى عامة، وعلم الناس أن السبب في عمومها هو التغالب على أخذ تاج قرطبة، فاستولى أخيرًا على الحكم في قرطبة الوزير أبو الحسن بن جهور. وكان هناك فتًى اسمه زهير[١٥] أصله من «دلماسية»[١٦] استولى على مرسية وأعلن إمارته عليها، وبايعه أهلها برضاهم، وذلك سنة ١٠٤٣، وبقي ملكًا على مرسية إلى سنة ١٠٥١؛ إذ توفي قيل خارجًا عن مرسية.

وفي زمن زهير هذا اشتهر أمر الشيخ أبي بكر أحمد بن إسحاق، وكان من أبناء البيوتات العريقة وذوي الثروة الواسعة، محبوبًا عند قومه، فاضلًا ملهمًا عمل الخيرات؛ فولاه زهير أمر مدينة مرسية. وفي تلك المدة اشتدت الحرب بين ذي النون ملك طليطلة، والمعتضد بن عبَّاد ملك إشبيلية، فأضرَّت بمرسية وضواحيها؛ لأن عرب طليطلة اتفقوا مع عرب بلنسية على قتال صاحب إشبيلية. إلَّا أن أبا بكر أحمد بن إسحاق والي مرسية ومعه أحمد بن طاهر وغيره من الرؤساء انحازوا إلى ابن عبَّاد صاحب إشبيلية، فشنَّ ابن ذي النون الغارة على بلاد تدمير، وجاء ابن عبَّاد، وهو المعتمد بن المعتضد، ومعه ابن عمَّار، فدخلا مرسية، وانضمَّ أهلها إلى المعتمد الذي أقام يومين ورجع إلى إشبيلية

حاضرة ملكه، وبقي ابن عمَّار وزيره في مرسية. ثم ذهب منها إلى برشلونة للاستعانة بصاحبها الكونت ريموند، فعندما أراد السفر إلى برشلونة زوَّده أحمد بن طاهر — من رؤساء مرسية — بعشرة آلاف ذهب، فنجح ابن عمَّار في مهمته، وجاء ومعه عساكر من قبل مملكة كتلونية؛ لمنع المأمون بن ذي النون من الاستيلاء على مرسية، فوجد مع المأمون عساكر بلنسية ومربيطر ودانية وشاطبة وقونكة، ومعهم عساكر غاليشية وقشتالة وقد اجتاحوا مرسية وجوانبها الخصبة وحطموا زروعها.

فلما رأى الكونت ريموند البرشلوني كثرة الأعداء، اعتقد أن ابن عمَّار خدعه وجرَّه إلى صفقة خاسرة؛ فقبض على باديس بن المعتمد ملك إشبيلية واعتقله كرهينة عنده. ثم إن الجيش القشتالي هاجم الجيش البرشلوني وحليفه الجيش الإشبيلي؛ فدارت الدائرة على هؤلاء، ودخل المأمون بن ذي النون مرسية، وخضع له واليها ابن طاهر، وكان الوالي السابق أبو بكر أحمد بن إسحاق أَبَى أن يخلف الأمير زهيرًا في الإمارة، ومات وقد ناهز التسعين، وكانت وفاته سنة ١٠٦٤ المسيحية.

وفي الفصل التاسع يذكر المؤلف عبد الرحمن الثاني الطاهري ملك مرسية الذي جاء من بعد الفتى زهير الصقلبي الدلماسي، فتولَّى مدة ثلاثين سنة؛ أي من سنة ١٠٥١ إلى سنة ١٠٨١، وهو ابن أبي بكر بن طاهر، وقد كانت سياسته كسياسة أبيه كلها حكمة وعدالة؛ ولذلك سعدت مرسية في زمانه، ورجع إليها هناؤها الأول.

وكانت الأحوال في إشبيلية على غير استقامة، فأخذ ابن عمار يكيد لمولاه المعتمد؛ فأحب هذا إبعاده عن إشبيلية؛ فأشار عليه بفتح مملكة مرسية، ولما كان ابن عمَّار شديد الطموح أقبَلَ على مرسية راغبًا، واتفق مع أمير يقال له عبد الله بن رشيق، وقصد إلى مرسية، وعاثا في جنانها، وحصرا المدينة وضيَّقا عليها إلى أن فتحت أبوابها لجيش ابن عبَّاد، فدخل ابن عمَّار إلى مرسية سنة ١٠٧٩، وخلع ابن طاهر واعتقله في قلعة مونتاقوط، وكان أبو بكر بن عمَّار المذكور ناقمًا في الباطن على مولاه المعتمد، وربما مدَّ يد الولاء إلى الأذفونش السادس صاحب قشتالة؛ فأجمع الاستيلاء على مرسية، ففي أول الأمر قاتله أهلها وهزموه؛ فعاث في أرضها واجتاح بساتينها وأفسد زروعها، ونشأ عن ذلك مجاعة شديدة تمكَّن بواسطتها من الرجوع إلى مرسية، ودخلها عنوة، وقتل أميرها ابن طاهر، وما زال يعسف الرعية حتى ثارت به وأخرجته من مرسية؛ فالتجأ إلى شقورة نزيلًا على رجل من خواصه أسرع بإخبار المعتمد بن عبَّاد أن ابن عمَّار صار في قبضة يده، فسار ابن عبَّاد وقبض على ابن عمَّار — وزيره الخائن — وقتله فيما بعد، وكانت مدة ولايته على مرسية ثلاث سنوات.[١٧]

وفي الفصل الحادي عشر يذكر المؤلف ذا الوزارتين الرابع من أمراء مرسية. بعد قتل ابن عمَّار جاء محمد بن هاجد — أمير لورقة — بجماعة من رجاله الأشاوس إلى مرسية، واتفق مع أهلها على تولية أحمد أبي عبد الله الملقب بذي الوزارتين من بني طاهر، وكان هذا الأمير عالمًا فاضلًا عادلًا صلحت مرسية وسعدت في أيامه، واعتنى بنشر العلم والأدب والأخلاق الفاضلة، وأعاد إلى مرسية العمران الذي كانت فقدته بظلم ابن عمَّار، واستمر في الولاية عشر سنوات إلى أن مات، وفي سنة ١٠٩٠ أقبل يوسف بن تاشفين — ملك المرابطين — من إفريقية، واتفق مع ابن عبَّاد على الأذفونش صاحب قشتالة، وهو الأذفونش السادس، فزحف جماعة من أهل مرسية منضمين إلى ابن تاشفين وابن عبَّاد تحت قيادة شاب من أمرائهم اسمه عبد العزيز، ثم وقع الشقاق بين قواد العسكر الإسلامي، فشهر عبد العزيز هذا سيفه في وجه ابن عبَّاد؛ فقبض ابن عبَّاد على عبد العزيز وحبسه، فرأى أهل مرسية في ذلك إهانةً لهم، فانفضوا من حول ابن عبَّاد وابن تاشفين.

وفي سنة ١٠٩٤ عاد الأذفونش السادس يحاول الاستيلاء على بلنسية، فاستنجد أهل بلنسية بأهل مرسية فتغلَّب على بلنسية القادر يحيى بن ذي النون بمساعدة الأذفونش، وانهزم جيش مرسية وقُتل قائده وأُسر ذو الوزارتين، وقد كانت ولاية ذي الوزارتين على مرسية من سنة ١٠٨٤ إلى ١٠٩٤، وبقيت مرسية في ذلك الوقت دون ملك يليها، فكان يوسف بن تاشفين يرسل إلها ولاة من قِبَله، فتأخَّرت حالها، وبعد موت يوسف وولاية ابنه عليٍّ ازدادت حال مرسية سوءًا، وسنة ١١٤٤ كان يتنازع مرسية ثلاثة أحزاب: أحدها حزب محمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي، والثاني حزب أبي محمد بن الحاج، والثالث حزب عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم؛ فابن طاهر استنجد ابن هاجد — قاضي لورقة — فذهب هذا القاضي برجاله وولَّى على مرسية قائدًا اسمه ابن حمدين، وكان قائد قونكة، وهي مدينة عزيزة كثيرة العدد، كان اسم قائدها عبد الله بن فطن، وكان خصمًا لابن حمدين؛ فاتفق مع ابن طاهر وابن جعفر وزحفوا إلى مرسية ودخلوها، وصار الوالي على مرسية أبو جعفر بن أبي جعفر، ثم إن هذا انتقض على المرابطين، وقام الأهالي عليهم في مرسية وأوريولة، وقتلوا كل من وجدوه منهم، وأعلن صاحب قونكة نفسه أميرًا على مرسية باسم الناصر لدين الله.

وفي الفصل الثاني عشر والثالث عشر تكلم المؤلف على ولاية ابن هود، فقال: إن أبا جعفر عندما انهزم من مرسية جنَّد جنودًا جاء بهم لاسترجاعها؛ فثار الأهالي بالملك

الجديد الذي كان غلب عليها، وولوا أميرًا من قرطبة اسمه سيف الدولة بن هود، وتمادت الفتنة في مرسية حتى كادت البلد تخرب، فزحف أمير أوريولة بجيش وأقرَّ أبا جعفر ملكًا على مرسية، وأخذ الملك الذي كان فيها أسيرًا؛ فاستمرت ولاية أبي جعفر سنة وبضعة أشهر، وكان ابن طاهر وابن الحاج قد ذهبا إلى المرابطين في بلنسية واستوليا على شاطبة. وفي هذه المدة ثار أهل مرسية بأميرهم الجديد، وأخرجا ابن فطن من الاعتقال، ثم عاد أبو جعفر فهزمهم وفرَّ ابن فطن، واستولى أبو جعفر على شاطبة وأوريولة، وتعاقبت على مرسية عدة فتن وجرت بين أهلها وأهل غرناطة معركة انهزم فيها أهل مرسية تحت قيادة أبي جعفر محمد بن عبد الله بن طاهر.

وفي الفصل الرابع عشر يذكر سقوط دولة بني طاهر، قال: إن ابن حمدين عاد يطالب بملك مرسية، وزحف إليها بجيش؛ فانهزم والتجأ إلى قاضي أوريولة، فجمع جموعًا أخرى وقصد مرسية؛ فانهزم مرةً ثانية، إلَّا أنه تمكَّن من أخذ البلدة فيما بعد بالخدعة، وهرب عبد الرحمن بن طاهر منها ومات، وقد وجدت مسكوكات عربية مكتوب عليها: «الغالب أمير المؤمنين حمدين بن عبد الله»، وكان قد تولَّى البلدة شيخ اسمه عبد الرحمن بن طاهر، وكان ذا علاقة ببني هود، فاقتنع أهل مرسية بمبايعة سيف الدولة بن هود، وجعل نفسه نائبًا عنه، وجعل أخاه أبا بكر قائدًا للفرسان؛ فانهزم الأحزاب الأخرى إلى قرطبة ملتجئين إلى ابن حمدين، فأرسل هذا جيشًا عليه ابن أخيه وابن عمه لاسترجاع مرسية، فابن طاهر نائب مرسية استصرخ ابن عيَّاض أبا محمد صاحب بلنسية، فجاء هذا واتفق مع صاحب أوريولة، ودخلا مرسية، واستوليا عليها، وعزلا ابن طاهر، إلَّا أنهما لم يقتلاه.

وكان سيف الدولة بن هود لم يعلم بدخول ابن عياض؛ فجاء إلى مرسية بجيش، فخرج ابن عياض للقاء سيف الدولة وخضع له؛ فأقرَّه واليًا على مرسية. ثم إن ابن فطن اتفق مع النصارى واجتاحوا جميعًا شاطبة ونواحيها؛ فاستصرخ أميرها عبد الله بن سعد سيف الدولة بن هود؛ فزحف هذا لنجدتها، فنشبت معركة في غاية الشدة قُتل فيها سيف الدولة بن هود، وفرَّ خليفة بن عيَّاض هاربًا، وانهزم الجيش المرسي هزيمة شنعاء، وكان ذلك سنة ١١٤٥، وفي هذه الواقعة نفسها قُتل ابن حمدين ملك مرسية السابق الملقَّب بالمستنصر.

وفي الفصل السادس عشر يذكر هزيمة عرب مرسية في معركة البسيط Albacete، وسقوط أهم قوادهم قتلى، وكيف رجعت فلول جيشهم إلى مرسية بخبر هذه المصيبة؛ فارتَدَتْ مرسية ثوب الحداد.

وكان ابن عيَّاض عندما خرج مع أميره سيف الدولة بن هود قد خلَّف على مرسية محمد بن سعد بن مردنيش، فلما وصلت أخبار الهزيمة إلى ابن مردنيش وتحقق مقتل سيف الدولة بن هود نزل إلى باب القصر وخطب الناس محرضًا إياهم على الاستبسال، وأخذ الثأر؛ فعاهده الجمع على الطاعة، وتحفَّزوا لأخذ الثأر، ثم إن أَذَلْفونس والمسيحيين الذين معه وحليفهم المسمَّى بالثغري Crograi وصلوا إلى مرسية، وأحاطوا بأسوارها، فخرج أهلها لمقاتلتهم، فلم يكن لهم قِبَلٌ بهم؛ فانهزموا وابن مردنيش معهم، والتجئوا إلى لقنت، ودخل الثغري مرسية ظافرًا، لكنه أشار على رجاله بمعاملة أهلها بالحسنى؛ أملًا بتألُّف قلوبهم؛ فذهبت مساعيه سُدًى؛ فالمرسيون لبثوا غضابًا لا يخفف حنقهم شيء.

وفي أثناء ذلك أراد المسيحيون أن يدخلوا مرسية لينهبوها فلم يوافقهم الثغري على مرادهم؛ فدخلوها بالقوة وارتكبوا فيها ألوان الفظائع.

وكان ابن عيَّاض يطوف في أرجاء البلاد ويجنِّد الجنود لاستنقاذ مرسية؛ فجمع من بلنسية ولورقة ولقنت جيشًا جرارًا زحف به إلى مرسية، فلما علم المرسيون بزحفه ثاروا في داخل المدينة وانقضُّوا على أعدائهم ففتكوا بهم، ورأى الثغري أنه واقعٌ في أيديهم إن لم يلُذْ بالفرار، فخرج من باب إفريقية هاربًا يصحبه قليل من فرسانه؛ فتعقَّبه جيش ابن عيَّاض وهجم عربي شجاع اسمه ابن فدا Aben Feda فاحتزَّ رأسه وركز الرأس على قناة وسار به إلى ابن عيَّاض، وبذلك خُتمت حياة عبد الله بن فطن الملقب بالثغري. ودخل ابن عيَّاض المدينة فوجد الشوارع مغطاة بجثث القتلى من المسيحيين والمسلمين؛ فاستأصل أعداءه، لا سيما المسيحيين الذين كانوا قد أسرفوا في القتل؛ فعوقبوا بمثل ما عاقبوا، وجدَّدت مرسية مبايعة ابن عيَّاض، وتبعها جميع شرق الأندلس.

وفي الفصل السابع عشر يذكر المؤلف أن ابن عيَّاض بعد أن استنقذ مرسية سار فيها سيرة حسنة، امتدَّ بها عليها رواق الأمن، ورأب من أحوالها — ولا سيما من زراعتها — ما كان قد انصدع بالحروب المتوالية، وتمتعت مرسية بنعمة السكون مدة من الزمن، ولكن الفتنة أسرع شيء إلى أهل الأندلس، فما لبثت أن ظهرت من جديد عند بني جميل Moros Beni Giomail في نواحي «عقيل Ekils»، فإنهم هناك شقُّوا عصا الطاعة، وثاروا في وجه الأمير ابن عيَّاض؛ فخرج لقتالهم، فناوشوه القتال وخاموا عن لقائه في حرب فاصلة، فنهد إليهم في ليلة حالكة السواد يريد أن يكبسهم بياتًا، ولم يكن أمامه إلَّا طريق واحد، وهو مضيق بين جبلين؛ فتقدم ومعه نخبة من فرسانه وأراد العبور، فكان الثوار

كامنين على حافتي المضيق، فرموه بالسهام والصخور؛ فسقط مثخنًا جراحًا، ومات في ذلك اليوم، فانتقم المرسيون من الثوار انتقامًا هائلًا، وكانت لابن عيَّاض جنازة حافلة ونُقلت جثته إلى بلنسية.

وكان الحزن عليه عامًّا، وكان ذلك سنة ١١٤٧، وكانت ولايته على مرسية سنتين وتسعة أشهر وعشرين يومًا، وكان قد عهد بالإمارة بعده لابن مردنيش؛ فبويع ابن مردنيش بالإمارة، ثم إن ابن عيَّاض كان قد جعل نائبًا عنه في مرسية علي بن عبيد الله أبا الحسن، فاستطاع هذا بحسن تدبيره أن يوطِّد السكينة في مرسية، وكان بعض المفسدين أشاعوا أنه يريد أن يستبد بالأمر ولا يعترف بإمارة محمد بن سعد بن مردنيش، إلَّا أن هذا الوالي عندما قدم ابن مردنيش إلى مرسية خرج للقائه، وقدَّم له مفاتيح البلدة، وكان يومًا مشهودًا اجتمعت فيه الوفود بحاضرة مرسية، وكان من جملة الوافدين ابن همشك Aben Hemsek الأمير، وكان واليًا على شقورة، فجعله الأمير نائبًا عنه في مرسية، وعاد إلى بلنسية وولَّى ابن همشك نائبًا عنه في شقورة رجلًا عادلًا خافض الجناح اسمه ابن سعد أيضًا. وأثنى صاحب الكتاب على إدارة ابن همشك في مرسية، وهو كلام في غاية الغرابة؛ نظرًا لما اشتهر به ابن همشك من الظلم والعسف وسفك الدماء مما هو مستفيض في كتب الأندلس. قال: وبقي السلام مستتبًّا في مرسية إلى سنة ١١٦٥.

وفي الفصل الثامن عشر يذكر المؤلف أنه بعد عدة أعوام مضت بسلام، نشبت الحرب بين ابن مردنيش — ملك شرق الأندلس — وبين الموحدين أصحاب غرناطة. وروى كندي المؤرخ الإسباني أن ابن مردنيش خرج بجيش من بلنسية فمر بمرسية واستنفر للقتال صهره ابن همشك وأعيان مرسية، وكاشفهم بما في نفسه من نية الاستيلاء على غرناطة، فوافقوه وانضموا إليه، وساروا جميعًا بجحفل جرار قاصدين إلى غرناطة، وكان مع ابن همشك عددٌ كبير من المسيحيين يبلغ ثلاثة عشر ألف مقاتل معظمهم من الفرسان، وكان منهم يتألف الحرس الخاص بابن مردنيش، فاصطلت الحرب بين رجال شرق الأندلس ومن معهم من النصارى وبين الموحدين؛ فانهزم الموحدون واستولى ابن مردنيش على غرناطة.

ولكن الغرناطيين لم يلبثوا أن جمعوا فلولهم وألَّفوا جيشًا قويًّا تحت قيادة القائد الشهير أبي زيد بن عبد الرحمن، فكرُّوا على غرناطة، واشتعلت الحرب، وكانت بين الفريقين ملحمة فظيعة ارتوت فيها الأرض بسيول الدماء، ودارت فيها الدائرة على جيوش ابن مردنيش وابن همشك، فتمزَّقت كل ممزَّق، واستؤصل المسيحيون الذين

كانوا مع ابن مردنيش وابن همشك، وعُرف المكان الذي دارت فيه المعركة باسم «فحص الأغلب»، وهو مكان يقع بين مدينتي القنطرية والقصر.

وسنة ١١٧٠ تولَّى ابن لب (أي ابن مردنيش الذي كان الإسبانيون يسمونه بابن لب) أميرًا على مرسية، واتفق مع ملك قشتالة، وعقد المعاهدات مع ملك آراغون، وفي سنة ١١٧١ تحالف ابن لب مع بيرو رويس الصخرة Pero Ruiz Azagra صاحب إمارة «إستيلَّا Estilla»، وفي سبيل هذا الحلف نزل ابن لب لحليفه المذكور عن مدينة ابن رزين Albarracin التي كانت من جملة أملاكه.

وفي تلك السنة نفسها ساءت علاقات ابن همشك بصهره ابن مردنيش من أجل أمور عائلية، وسفر الجو بينهما إلى أن مات ابن مردنيش في جزيرة ميورقة سنة ١١٧٢، ولما شعر أولاده بضعفهم عن أن يقاوموا المسيحيين والموحدين معًا جاءوا إلى سلطان الموحدين وسلموه البلاد التي كانت في أيديهم واستظلُّوا بظله.

وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب هذه الواقعة في كتابه الإحاطة، وقال ما محصله أنه في سنة ست وخمسين وخمسمائة في جمادى الأولى منها قصد إبراهيم بن همشك بجمعه مدينة غرناطة، وداخل طائفةً من ناسها وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم، وتوجه الوالي بغرناطة السيد أبو سعيد إلى العدوة، فاقتحمها ابن همشك ليلًا، واعتصم الموحدون بقصبتها فنصب لهم المجانيق وقتلهم بأنواع من القتل، فبادر السيد أبو سعيد وأجاز البحر، والتفَّ به السيد أبو محمد وأبو حفص بجميع جيوش الموحدين والأندلس، ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة؛ فأصحر إليهم ابن همشك، فالتقى الفريقان بمرج الرقاد من خارجها، فانهزم جيش الموحدين، واعترضت الفل تخوم الفدادين وجداول المياه التي تتخلل المرج، فاستولى عليهم القتل، وقُتل في الوقيعة السيد أبو محمد، ولحق السيد أبو سعيد بمالقة، وعاد ابن همشك إلى غرناطة فدخلها بجملة من أسرى الموحدين أفحش فيهم المثلة بمرأى من إخوانهم المحصورين، واتصل الخبر بالخليفة في مراكش؛ فجهز جيشًا أصحبه السيد أبا يعقوب ولده وأبا يوسف بن سليمان داهية زمانه، فأجازوا البحر والتقوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، واتصل منهم السير إلى قرية دَلَق من غرناطة، فانهزم ابن همشك.

وقال لسان الدين في ترجمة ابن مردنيش: إن ابن همشك يومئذٍ استصرخ ابن مردنيش، فخرج بنفسه في العسكر الكثير، من أهل الشرق والنصارى، فوصل إلى غرناطة واضطربت محته بالربوة السامية المتصلة بربض البيَّازين، وتعرف إلى اليوم

بكدية مردنيش، فلحق بجيَّان، واتصلت عليه الغلبة من لدن منتصف عام ٥٦٠، فلم يكن له بعد ذلك ظهور، واستخلص الموحدون معظم ما بيده وحصروه بمرسية، ومات أثناء الحصار في عاشر رجب سنة إحدى وستين وخمسمائة وله ثمانية وأربعون عامًا. انتهى. وجاء في كتاب الاستقصا أنه لما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده وإخوته إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية، فسلَّموا إليه بلاد شرقي الأندلس التي كانت لأبيهم؛ فأحسن إليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم، وأصبحوا عنده في أعز منزلة. ا.هـ.

وقال لسان الدين في الإحاطة: إن محمد بن سعد بن مردنيش استولى على شرق الأندلس: مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية، ثم اتسع نطاق ملكه فملك جيَّان وبسطة ووادي آش وقرمونة وأستجة وغرناطة، ونازل قرطبة وإشبيلية. قال: ثم فسد ما بينه وبين صهره ابن همشك، فكان سبب إدبار أمره، واستولى العدو في زمانه على طرطوشة عام ثلاث وأربعين وخمسمائة، وعلى حصن إفليج وحصن شرَّانية. ا.هـ.

وقد وقع خلاف في مكان وفاة الأمير المذكور، فصاحب تاريخ مرسية الإسبانيولي يقول إنه مات سنة ١١٧٢، ولسان الدين بن الخطيب يقول: إنه مات وهو محصور بمرسية سنة ٥٦١.

ثم نعود إلى تلخيص تاريخ مرسية الإسباني فنقول إنه في الفصل التاسع عشر منه يذكر أن مرسية عاشت بعد وفاة ابن مردنيش فترة غير قصيرة في الفتنة والاضطراب، ولم تستطع أن تعود إلى رخائها السابق إلَّا بعد زمنٍ طويل، وكانت الحروب في ذلك الدور ناشبة في الممالك الأخرى من إسبانية، ولا يذكر المؤرخون شيئًا عن مرسية في هذه الفترة، ولا نعلم من أخبارها سوى أن خلف بن لب من أولاده اتَّبع سياسة والده في مهادنة ملك أراغون إلى أن انتهت مدة المهادنة، فتقرر في سنة ١١٧٩ بموجب اتفاق بين مملكتي أراغون وقشتالة أن يحتل مرسية ملك قشتالة آلونز Alonso، وزحف الإسبانيون للاستيلاء على مرسية، ولا نعلم هل استولوا عليها ذلك الوقت أم لا؛ فالمؤرخون سكوت عن حوادث تلك الحقبة البالغة نحوًا من أربعين عامًا، حتى إن المؤرخ «ماريانا» نفسه لم يذكر عنها شيئًا.

وفي سنة ١٢١٩ المسيحية كانت حملة صليبية على مرسية زحف فيها مئتا ألف مقاتل من المسيحيين، فهل استولوا بالفعل على مرسية؟ إننا لا نعلم عن ذلك شيئًا. فإن كانوا قد استولوا عليها فيكون استيلاءً قصيرَ الأمد، يُستدَل على ذلك من وصف الكتب

العربية للاحتفالات الفخمة التي جرت في مرسية عند مبايعة الأمير ابن هود الثاني، وذلك سنة ١٢٢٨، وتلقَّب ابن هود بالمتوكل على الله، وكان اسمه أبا عبد الله محمد بن يوسف الجذامي،[١٨] وقيل له ابن هود الثاني؛ لأنه سبق وجود أمير آخر من هذه العائلة بهذا الاسم، وكان ابن هود متصفًا بالدهاء والمكر، وبالدهاء والمكر حقَّق كثيرًا من مطامعه، وكان يتظاهر بالتديُّن استرضاءً للشعب الإسلامي، وأقنع المسلمين بأن المصائب التي حلَّت بهم كانت ناشئةً من فساد سياسة الموحدين.

وتمكن ابن هود من فتح غرناطة، فدخلها بجيش عظيم، واستولى أيضًا على مدينة أستجة، وخشي سطوته سان فرناندو ملك قشتالة، وكذلك الدون خايمي ملك أراغون، الذي كان متطلعًا إلى بلنسية. إلَّا أن جيوش قشتالة ظفرت بابن هود في معركة شريش الشهيرة. وفي ذلك الوقت اشتهر الدون «رونسو سوارس دو فيجيروا» الذي خلع العقيدة الكاثوليكية، وأظهر الإسلام؛ فوثق به ابن هود، وصار يعوِّل عليه، فعرض الدون فيجيرو هذا على ابن هود أن يذهب إلى جيش المسيحيين متجسسًا ويعود إليه بجليَّة الخبر عن حقيقة قوتهم، ولم يدُرْ في خلده أن الرجل الذي خان دينه الأصلي لا يتورَّع عن خيانة دينه الجديد؛ فأذن ابن هود له في الذهاب إلى ملك قشتالة، فكانت نتيجة سفارته هذه أنه دلَّ الملك القشتالي على عورات المسلمين ومواقع ضعفهم، وعاد إلى ابن هود فوصف له قوة المسيحيين بأكثر مما هي بكثير تهويلًا عليه وتثبيطًا له عن الوقوف في وجههم.

وقد أصغى ابن هود إلى كلامه فانكفأ بجيشه تاركًا الدفاع عن قرطبة التي كان ممكنًا ذلك الوقت الدفاع عنها. وجاء ابن هود إلى المرية قاصدًا منها ركوب البحر إلى بلنسية التي كانت أعلام أراغون الكاثوليكية أخذت ترتفع فوق حصونها وأبراجها.

وكان ابن هود من شيعة المرابطين، هواه معهم لا مع الموحدين أعدائهم. فلما وصل إلى المرية ألقاه قائدها عبد الرحمن بمزيد الاحتفال وبالغ في إجلاله، ولكنه كان يُضمر له الشر لما بينهما من اختلاف المشرب؛ فإن عبد الرحمن هذا كان من جماعة الموحدين فقُدِّر أن ينام هذان الرجلان تحت سقفٍ واحد، فانتظر عبد الرحمن حتى تيقَّن أن ابن هود استغرق في نومه فخنقه بيده وهو نائم، ويذكر المؤرخ كندي أن هذا الحادث وقع سنة ١٢٣٨، وعندما مات ابن هود أعلن أمير بلنسية زيد أبو زيد نفسه أميرًا على بلنسية ومرسية.

وكان من حسنات ابن هود أنه أوجد الألفة بين المسلمين والمسيحيين في مرسية. فلما تولى أبو زيد خالف سياسة ابن هود وعسف المسيحيين عسفًا شديدًا، وقبض عليهم

جميعًا، وسجنهم في قصر حمَّاد خارج أسوار المدينة، وأكرههم على ترك دينهم أو يقتَّلوا تقتيلًا.

قال صاحب تاريخ مرسية المذكور: إن كثيرًا من هؤلاء المسيحيين استقبلوا الشهادة فرحين مسرورين. ثم ثار المسلمون بمرسية على أبي زيد هذا فالتجأ إلى قلعة قراباقة، وكان في القلعة عددٌ كبير من المسيحيين أراد أبو زيد أن يفعل بهم ما فعل بإخوانهم في مرسية، ولكن حال دون ذلك حادث قد يكون من تدبير العناية الإلهية لأجل إنقاذ هؤلاء المساكين وإنقاذ روح نفس الطاغية الذي كان يريد لهم الهلاك.

قال المؤرخ الإسبانيولي: وهذا الحادث لا يخطر بالبال، وسأقصه على القارئ بمثل البساطة والإخلاص اللذين قصه بهما غيري من المؤرخين، دون أن أثبته أو أنفيه حتى لا أتعرض لغلط بإزاء العقيدة الكاثوليكية، قالوا: اجتمع المسيحيون بحضرة الأمير أبي زيد منتظرين مصيرًا كمصير إخوانهم في مرسية، فخاطبهم الأمير قائلًا إنه يحب أن يرى كلًّا منهم متعاطيًا أمامه المهنة التي من عادته تعاطيها؛ فامتثلوا أمره، وكان بينهم قسيس من قونكة يقال له «جينس بيريس كيرينو Gines Perez Guirino»، فهذا لم يعمل أي عمل أمام الأمير، فسأله الأمير عن ذلك، فأجابه القسيس بأنه أمين الله، وأن عمله إقامة الصلوات، فأمره الأمير بأن يقيم الصلاة بحضرته، وهيئ معبد في أحد جوانب القلعة، وأعدَّ كل شيء للصلاة، لكن تبيَّن في النهاية أن الصلاة لا تمكن دون وجود صليب؛ فأخذوا يبحثون عن صليب فلم يجدوا، وبينما هم في حيرة إذا بالصليب يُرى داخلًا إلى المعبد يحمله ملكان من الملائكة، فوضعاه في مكانه، فوقف الأمير أبو زيد والثلاثون رجلًا الذين معه بإزاء هذه المعجزة في أماكنهم جامدين، وفي تلك اللحظة آمنوا جميعًا بعقيدة المسيح، ويذكر المؤرخ «بليدا» أن هذا الحادث وقع في ٣ مايو سنة ١٢٣١؛ فتنصَّر أبو زيد، وتسمَّى «فيسنتي دوبلفيس Vicente de Belvis»، وتزوج في سرقسطة «بدومينيكا لوبين»، ورزق ابنة سميت «ألدا»، تزوجت بعد بلوغها «بخيمين دوتراسونة»، ومات أبو زيد في ٣ مايو سنة ١٢٤٧ ودفن في بلنسية.

ثم في الفصل العشرين ذكر المؤرخ المذكور أنه لما خرج أبو زيد من مرسية إلى قراباقة سادت الفوضى في مرسية، فاضطر الأهلون إلى مبايعة أمير تستقر به الأحوال، فانتخبوا علي بن يوسف بن هود، وتلقب بعضد الدولة، فتبعه أناسٌ كثيرون، ولكن ثار عليه أبو جميل بن مظفر بن يوسف بن سعد الجذامي، فزحف على رأس جيشٍ عظيم ودخل مرسية، وانضمَّ إليه الفرقة الناقمة من المرسيين. فتغلب أبو جميل على الأمير علي

بن يوسف بن هود، وأمر بقطع رأسه علانيةً أمام الشعب، وصار أبو جميل الجذامي هو السيد المطلق. ولكن الفتنة لم تسكن بذلك؛ لأن حزب ابن هود بايعوا ابنه هذيلًا، وعدُّوه الوارث الشرعي لأبيه، واشترطوا في بيعته أن يحارب ابن الأحمر صاحب غرناطة جزاءً له على استغلال فتنة مرسية والعبث في أراضيها ونهب غلَّاتها وتخطف أنعامها؛ فقبل هذيل الإمارة بهذا الشرط وخرج بالجيوش التي جمعها لمحاربة الغرناطيين، وما كان يغادر المدينة حتى ساد الهرج والمرج وعمَّت الفوضى وشُنَّت الغارات من كل جهة، فلما رأى المرسيون زحف الغرناطيين واستيلاءهم على مرسية وما أحدق بهم من الخطر، عقدوا مجلسًا عامًّا حضره الشيوخ والرؤساء وتذاكروا فيما وصلت إليه البلاد من الفوضى، وفي خطر استيلاء غرناطة على مرسية؛ فقرر المجلس أخيرًا إدخال مرسية وتوابعها في طاعة الملك المسيحي صاحب قشتالة، وهو المسمَّى سان فرناندو، وكان في ذلك الحين في مدينة برغش، فتألَّف وفد من أعيان مسلمي مرسية يحمل إلى الملك المذكور تاج مرسية.

وكان سان فرناندو قد علم بما هي عليه أحوال مرسية من الاضطراب؛ فانتهز فيها الفرصة وسرَّح جيشًا قويًّا تحت قيادة ابنه الدون ألفونسو للاستيلاء عليها، فتلاقى الوفد المرسي مع الأمير الدون ألفونسو في طليطلة وأبلغوه ما استقر عليه رأي أهالي مرسية من الدخول في طاعة والده، وذلك بالشروط الآتية:

(١) أن يبقى ابن هذيل أميرًا على مرسية تابعًا للملك سان فرناندو.

(٢) أن تُلقى شئون التسليح والذخيرة على عاتق ملك قشتالة.

(٣) أن يتسلَّم ملك قشتالة بمقابلة ذلك نصف ريع إمارة مرسية، ويبقى النصف الثاني للأمير العربي يستغلُّه ما دام حيًّا.

(٤) يكون على ملك قشتالة في مقابلة هذه الطاعة أن يوطِّد الأمن داخل الإمارة، ويحارب أعداء ابن هذيل، ويزحف لقتال ابن الأحمر ملك غرناطة إذا اعتدى على مرسية.

فتلقى الأمير ألفونسو اقتراحات المرسيين بالقبول، وأمضى المعاهدة من جهة، وأمضاها من الجهة الثانية محمد بن علي بن هود وقواد لقنت وأوريولة والحمَّة وأليدة وأثيكة وشنشالة. وامتنع من إمضاء الاتفاق أمير لورقة عزيز بن عبد الملك بن محمد بن الخطيب أبو بكر؛ لأنه كان طامحًا إلى إمارة مرسية معتمدًا في هذا الأمر على معاونة قائدي قرطاجنة وموله اللذين كانا من حزبه.

ثم إنه على أثر هذا الاتفاق توجَّه الأمير ألفونسو إلى مرسية، فاستقبل استقبالًا فخمًا جدًّا، واجتمع القواد والرؤساء والأجناد واصطفوا لديه، واحتفلوا احتفالًا عظيمًا بتسليمه مفاتيح مرسية، وابن هذيل في مقدمتهم.

قال المؤرخ الإسبانيولي: وقعت هذه الحوادث في أوائل سنة ١٢٤١، وهو تاريخ ذو شأنٍ خاص فيما يتعلق بمرسية. وقفل الأمير ألفونسو إلى برغش مبشرًا والده بهذه المملكة الجديدة الغنيَّة التي غنمتها قشتالة دون أن يراق في سبيلها قطرة دم. وكان الأمير ألفونسو ولَّى على مرسية ولاة من المسيحيين بجانب الأمير العربي، وأخذ يتعرف أحوال لورقة وقرطاجنة استعدادًا لفتحها فيما بعد، واستولى على موله بقلاعها وأبراجها، وعاد إلى والده بالفتح والنصر. انتهى.

قلنا: وهذا مثال من أمثلةٍ عديدة مما كان يصنعه المسلمون بعضهم ببعض في الأندلس حتى صاروا إلى الانقراض بما كسبت أيديهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

وفي الفصل الواحد والعشرين يذكر أن الملك سان فرناندو عندما جاء ابنه إليه حاملًا بشرى دخول مرسية في مملكة قشتالة كان في مدينة طليطلة، فبالغ بالاحتفال والابتهاج بهذا الفتح المبين، ولما كان يعلم ما يمتاز به العرب من سرعة التقلب وعدم الاستقرار وجَّه عنايته إلى الاحتفاظ بملك مرسية خاصةً؛ لما في دخولها تحت طاعة قشتالة من زيادة قوة الجيش القشتالي، وفتح مجال جديد لانتشار المسيحية؛ فبادر بالسير إلى مرسية مستصحبًا كبار رجال دولته وقواد جيشه من القشتاليين والليونيين، وكان معه ابنه الدون ألفونسو. فلما وصل إلى مرسية احتفل بوصوله المسلمون والمسيحيون معًا، وأعلن الملك للمرسيين أنه سيسير فيهم بالعدالة التي يتبعها في سائر مملكته، وأنه سيعمل لتوطيد السلام والنظام عندهم، وأنه سيحمي مرسية من كل اعتداءٍ خارجي ومن مطامع ملك غرناطة ابن الأحمر.

وحدث في أثناء وجود الملك بمرسية أن الأمير زيدًا أبا زيد الذي سبق ذكر تنصُّره ترجَّى الملك تعميد ولديه اللذين كان يريد إدخالهما في النصرانية، فرأى الملك سان فرناندو من باب السياسة أن تكون حفلة التعميد حفلة شعبية عامة؛ ليكون عمل الأمير أبي زيد بمثابة مثال يُحتذى ويدخل المسلمون في دين المسيح أفواجًا. وهكذا تمَّ وتسمَّى الولدان فرناندو وألفونسو باسم ملك قشتالة واسم ولي عهده.

ثم أخذ الملك بتنظيم حكومة مرسية وجعل ابن هذيل أميرًا عليها بالتبعية له، وعاد إلى برغش بعد أن خلف في مرسية الدون رودريق ألفونسو قائدًا لحاميتها، ولما

كان المقصد هو مقاتلة ابن الأحمر جمع الدون رودريق جيشًا من المسلمين والمسيحيين وزحف به قاصدًا إلى غرناطة، لكنه لقي هزيمة منكرة في شيريبل Chirivel، وترك أهم رجاله من العرب والإسبانيين قتلى في الميدان، فلما وصل خبر هذه الهزيمة إلى سان فرناندو خاف مغبَّة تأثيرها، فسار بنفسه لمحاربة ابن الأحمر، وأمر ولده الدون ألفونسو أن يحافظ على مرسية، فظهر جيش فرناندو على جيش ابن الأحمر، وكان ذلك سببًا في تمكينه وتسهيل أمور ولده في إمارة مرسية؛ فاستولى على لورقة وقرطاجنة، واستصفى تلك الإمارة كلها.

ثم إن الأعمال العسكرية في قشتالة وفي المقاطعات الأندلسية اقتضت أن يستدعي الملك ابنه الدون ألفونسو من مرسية ويعهد بولايتها إلى أخيه الأمير دون مانويل، وفي أثناء ذلك تزوج الأمير ألفونسو بابنة ملك أراغون؛ فتوطَّدت بذلك روابط الصداقة بين المملكتين قشتالة وأراغون، ثم رجع الأمير دون ألفونسو إلى مرسية، فما كاد يستقرُّ بها حتى جاءه نداء من والده يستدعيه إلى إشبيلية، حيث كان قد ضيَّق عليها الخناق ولكنه لم يتمكَّن منها بالنظر لشدة المقاومة التي أبداها عرب إشبيلية؛ فزحف الدون ألفونسو من مرسية بجيشٍ جرَّار، وفي الوقت نفسه وصل مدد آخر من ملك أراغون الذي كان مساعدًا لملك قشتالة في حصار إشبيلية؛ فضغطت هذه الجيوش كلها مجتمعة على إشبيلية فلم يبقَ أمامها إلا التسليم؛ فسقطت إشبيلية في يد الملك سان فرناندو صاحب قشتالة في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤٨.

وفي الفصل الثاني والعشرين ذكر الإسبانيُّ مؤرخ مرسية أن استيلاء مملكة أراغون على بلنسية سنة ١٢٣٣ كان سببًا في خروج جميل بن زيَّان بن مردنيش من تلك البلدة ببقايا جيشه ملتجئًا إلى بلاد مرسية. فأقام بقرية من قراها، واعصوصب حوله رجالٌ كثيرون، وأخذ شأنه يعظم؛ فاختلَّ نظام الأمن في القرى المجاورة التي كانت بفضل إدارة الأمير ألفونسو القشتالي قد ذاقت طعم الراحة زمنًا. ثم أخذ عرب بلنسية يهاجرون أوطانهم، فانضوى منهم كثير تحت لواء جميل هذا، فصار تحت يده جيش قوي الشكيمة، واحتلَّ بعض المعاقل، فسرَّح إليه والي مرسية جيشًا مؤلفًا من العرب والإسبانيين تحت قيادة القائد العربي عزيز بن عبد الملك؛ لأجل القضاء على ثورة ابن زيَّان المذكور، فكان نصيب هذه الحملة الفشل التام وسقوط القائد عزيز بن عبد الملك قتيلًا في المعركة.

فزاد هذا النشاط ابن زيَّان ومد سلطته على قرطاجنة ولورقة، ووجد في أمير لورقة محمد بن علي بن عبد الله خير عضد، وكان هذا من مهاجرة بلنسية، خرج منها مع

ابن زيَّان، وتولى أمر لورقة؛ فأصلح شئونها وقام فيها بمصالح عمرانية مهمة، وأخذ في ذلك الوقت مكانُ ابن زيَّان يعلو وأمره يغلظ حتى في مرسية نفسها. وشعر ابن هذيل بضعف ملك قشتالة عن حمايته لما كان مشغولًا به من الحروب في غربي الأندلس، وأخذ المسلمون المرسيون يراقبون الخلاف الناشب بين مملكتي قشتالة وأراغون، ويتتبعون سير الحوادث لتحقيق مطامعهم في إخراج المسيحيين من مرسية.

وفي ذلك الوقت توفي الملك سان فرناندو، وكانت وفاته في إشبيلية سنة ١٢٥٢، وخلفه ابنه دون ألفونسو العاشر، وبايعه المسلمون والمسيحيون معًا، ولكن لم تمضِ على هذه البيعة ثلاث سنوات حتى صارت مرسية على أتمِّ الاستعداد للانتقاض والانقضاض على المسيحيين، فرأى ملك غرناطة ابن الأحمر أن الفرصة سانحة لإدخال مرسية في طاعته، فاتفق مع ابن هذيل على مقاومة ملك قشتالة؛ فاندلع لهيب الثورة في جميع تلك الجهات، وجرت على المسيحيين مذابح لم تشهد بلاد مرسية مثلها من قبل، ثم نادى المرسيون بمبايعة ابن الأحمر ملكًا على مرسية كما هو ملك على غرناطة.

فلما بلغ الخبر ملك قشتالة الدون ألفونسو جمع زعماء مملكته واستشارهم في ما يجب أن يعمل؛ فأجمعوا الغارة على ملك غرناطة؛ لأنه هو قوة الظهر لعرب مرسية؛ فتوجه الملك ألفونس إلى إشبيلية وسرَّح جيشًا في البر وأسطولًا في البحر لمحاصرة قرطاجنة، فاستولى عليها، وبعد استيلائه عليها وجَّه حملاته على مرسية؛ فاستنجد ابن الأحمر وحليفه ابن هذيل يعقوب بن يوسف ملك المغرب، وقاومت مرسية مقاومة شديدة عجزت جيوش الملك ألفونس عن التغلب عليها.

وفي الفصل الثالث والعشرين ذكر المؤرخ الإسباني أنه لما عجز الملك ألفونسو عن أخذ مرسية كتب إلى ملك أراغون الدون خيمي يلتمس منه النجدة، فوعده ملك أراغون بالنصرة؛ لأنهما يد واحدة على المسلمين، غير أن ملك قشتالة كان يفكر في تتويج أخيه الدون مانويل ملكًا على مرسية بعد تمهيد أمرها، ولم يكن ملك أراغون مرتاحًا إلى هذه الفكرة، فحصل الأخذ والرد بينهما، وانحلَّت العقدة على وجه أن يتزوج الدون مانويل بابنة ملك أراغون. وكانت ملكة قشتالة؛ أي زوجة الدون ألفونسو، هي ابنة ملك أراغون أيضًا، فكانت تغار من شقيقتها ولا تقدر أن تتصور هذه واضعةً على رأسها تاج مرسية ملقبة بلقب ملكة؛ فبلغت الغيرة بين الشقيقتين أن راسلت ملكة قشتالة سلطان غرناطة ابن الأحمر على أن يترك المرسيين وشأنهم ويكون في مقابلة ذلك آمنًا على مملكته غرناطة وتوابعها، وأن يسلِّم تاج مرسية إلى ملك قشتالة على شريطة أن يبقى على رأس مرسية

أميرٌ مسلم، وتم الاتفاق على ذلك، وأمضى هذا العهد ابن الأحمر وولي عهده، وأمضاه أيضًا ملك قشتالة.

وبذلك وصلت الملكة إلى ما تريد، واستقامت العلاقات بين ملكي قشتالة وغرناطة، وأقبل كل منهما على شأنه. ولم ينسَ ابن الأحمر أن يأخذ الوعد من ملك قشتالة بالعفو عن ابن هذيل إذا غلب الملك على مرسية، فزحف ملك قشتالة ألفونسو على مرسية من جهة وزحف خيمي ملك أراغون من جهةٍ أخرى، وكل منهما يريد مرسية، وخيف من القتال بينهما، ورأى ابن هذيل أنه واقعٌ في يد أحد هذين الملكين المسيحيين، وأجمع أن يلوذ بابن الأحمر؛ فأفهمه هذا أن المقاومة عبث، وأنه هو أخذ على ملك قشتالة عهدًا بأن يمنَّ عليه بالعفو، ونصح له بتسليم مرسية دون مقاومة تجنبًا لسفك الدماء.

وكان ملكا قشتالة وأراغون قد تفاديا الحرب بينهما على وجه أن ملك قشتالة يتابع فتوحاته في غربي الأندلس، وأن ملك أراغون يفتح مرسية، وانتهى الأمر على ذلك، واستسلمت مرسية لملك أراغون دون مقاومة، وذلك سنة ١٢٩٥ فمنَّ ملك أراغون على ابن هذيل بالحياة وفاءً بعهد ملك قشتالة، لكنه اشترط عليه أن يعيش بين المسيحيين.

وفي هذا التاريخ سقطت مرسية العربية سقوطًا نهائيًّا في أيدي المسيحيين، ولم تعد من بعدها إلى الإسلام أصلًا.

وفي الفصل الرابع والعشرين يذكر المؤرخ الإسباني حالة مرسية وملحقاتها بعد أن استولى النصارى عليها الاستيلاء النهائي، قال: عزَّ على عرب مرسية أن يروا أنفسهم خاضعين لأعدائهم بعد أن كانوا سادة البلاد، وأن يروا أموالهم وأملاكهم نهبًا مقسمًا بين أعدائهم على مرأى ومسمعٍ منهم، فكانت في قلوبهم جَمَرَات تضطرم بالعداوة والبغضاء نحو المسيحيين (ونسوا أنهم هم جنوا على أنفسهم بالفرقة والخلاف ومحاربة ابن الأحمر والاستظهار بالطاغية عليه)، وكانوا يتحفَّزون للثورة، وكانت حاضرة مرسية على شيء من الهدوء، أما الأرباض والقرى المجاورة فكانت الثورة فيها علنية.

وكان ملك قشتالة يدرك خطورة الحالة، ويحرص على إبقاء مرسية في أيدي المسيحيين مهما يكلفه الأمر، فرجع إلى برغش وعزَّز جيشه فيها، ثم جاء وقابل ابن الأحمر، والتمس منه بحسب الهدنة التي بينهما أن يسير معه إلى مرسية لنصح المسلمين هناك بالسكون والتزام الطاعة لملك قشتالة. فسار الملكان المسلم والمسيحي معًا، وأخذ ابن الأحمر يبيِّن للمسلمين سَفَه الرأي بمقاومة الملكين المسيحيين ملك قشتالة وملك أراغون وهما على اتفاق تامٍّ بجميع قوتهما لاستبقاء مرسية في أيدي النصارى. فلما

وصل ملك قشتالة وملك غرناطة معه إلى «سان استيفان» خرج ابن هذيل أمير مرسية البائس وترامى على أقدام ملك قشتالة طالبًا العفو، فأطلق الملك سراحه بعد أن نزع عنه لقب ملك، وهكذا انتهت إمارة ابن هذيل.

وتابع الملكان سيرهما إلى مرسية ودخلاها بسلام، وولَّى ملك قشتالة عليها أبا عبد الله محمد بن هود أميرًا بدلًا من ابن هذيل، ولبث الملك المذكور في مرسية أربعة عشر شهرًا ينظِّم أمورها، ويوزع أملاك المسلمين على رجاله من النصارى، ووقف كثيرًا من هذه الأملاك على الكنائس والملاجئ. ثم رأى أن اختلاط مساكن العرب والمسيحيين يؤدي إلى دوام النزاع والشحناء بين الفريقين، فأصدر أمره المؤرَّخ في ٥ يونيو سنة ١٣٠٤ بنقل جميع مسلمي الحاضرة إلى مدينة «أرَّيخاكا»، وذلك في مدة أربعين يومًا، وكان لهم أن ينقلوا معهم أمتعتهم وأثاثهم إلى مساكنهم الجديدة، بشرط أن لا يُحدثوا أي ضرر في المساكن التي يغادرونها في مرسية. وكذلك أمر جميع المسيحيين الساكنين في أرَّيخاكا أن ينتقلوا إلى مرسية، وظن أنه إذا سكنت كل فئة منهما على حدة تقلُّ حوادث النزاع بين الفريقين، فلما نفذ هذا الأمر لم يبقَ للمسلمين شأن يذكر في مرسية، وانكسرت شوكتهم، وكذلك كان شأن الأمير ابن هود بعد أن فارق المسلمون مرسية إلى أرَّيخاكا، فقد أصبحت إمارته صورية أكثر منها عملية؛ فلذلك لم يذكر المؤرخون عنها شيئًا ولا تكلموا على أحواله ولا على وفاته.

وفي الفصل الخامس والعشرين يذكر صاحب هذا التاريخ أن الخطة التي اتَّبعها الدون ألفونسو — ملك قشتالة — بعد سقوط مرسية في يده من نقل العرب إلى أرَّيخاكا وإبعادهم عن الاختلاط بالمسيحيين كانت خطة سديدة رشيدة ظهرت نتائجها في استقرار الأمن، وانقطاع النزاع بين الفريقين، وأصبحت مرسية خالصة للمسيحيين، بل صار سكانها أشد رعايا قشتالة إخلاصًا للملك وللمسيحية، وأخلد العرب إلى السكون بسبب هيبة الملك ألفونسو الذي كانوا يخشونه كثيرًا.

ولكنه بعد أن مات الملك المشار إليه تجرأ العرب فعادوا إلى شأنهم الأول، وصاروا يكرون على الحدود المرسية فيخربون الديار ويدمرون الحصون ويحرقون المزارع، ويعودون إلى غرناطة بالأسلاب والأسرى من النصارى. فاضطر ملوك قشتالة الذين جاءوا بعد ألفونسو أن يسلكوا بإزاء عرب مرسية خطة الحزم والصرامة، وأن يوقعوا بهم وينكِّلوا تنكيلًا؛ فأخذ شأنهم يضعف شيئًا فشيئًا، وما زالوا ينحطُّون يومًا بعد يوم حتى وصلوا إلى حالة العجز التام، وأصبحوا لا يستطيعون أدنى حركة، لكنهم

بالرغم من ذلك لم يستطيعوا الاتِّصاف بتلك الفضيلة اللازمة لكل شعب مغلوب على أمره، وهي فضيلة الرضا والتسليم، بل كانوا من وقتٍ إلى آخر يرتكبون أعمالًا تسوِّغ المعاملة القاسية التي كان يعاملهم بها المسيحيون، فمن ذلك ما حدث سنة ١٣٥٣، وهو أن عربيًّا اسمه محمد أبو اللجا هَامَ بحبِّ مسيحية حسناء اسمها «ماريا هرناندس»، وأراد التزوج بها، فلم يجد إلى ذلك سبيلًا إلَّا بواسطة مسيحي يقال له «الدون خوان دو ديوس»، فأمكن العربيَّ بهذه الواسطة أن يتصل بالفتاة المسيحية، فلما ذاع الخبر قام المسيحيون وقعدوا لهذا الأمر، ووصلت القضية إلى المحاكم وإلى الملك، فصدر أمره بقتل العربي والمسيحي الذي توسَّط له، وأصبح هذا الأمر شريعة في مرسية من ذلك العهد.

وكان نشوب الفتن بين المسيحيين واشتعال الحروب الأهلية بين ملوكهم مما يسرُّ عرب مرسية؛ لأنهم كانوا في أثناء هذه الفتن أحسن حالًا، فكان لهم دَوْرٌ في النزاع الذي قام بين الملك ألفونسو والأمير دون خوان، وحاربت طائفة منهم إلى جانب الأمير خارجةً عن طاعة الملك. وكان لا يزال في أرَّيخاكا أمير عربي حتى بعد سقوطها في يد ملك قشتالة، وذلك كان ناشئًا عن شغف الملك ألفونسو العاشر ببقاء أمراء من العرب في تبعيته وعن العهد الذي كان قد أخذه على نفسه بإبقاء ملك عربي في جوار مرسية. وفي الحقيقة لم يكن هذا الملك العربي إلا لقبًا مجرَّدًا، ولم يكن في يده شيء من الحل والعقد، وكان المسلمون أنفسهم لا يبالونه.

وفي الفصل السادس والعشرين يذكر واقعة يقال لها واقعة «البورشوينس»؛ ففي سنة ١٤٥٢ زحف من غرناطة جيشٌ عظيم تحت قيادة محمد بن عبد البر الذي كان وزيرًا لملك غرناطة محمد بن عثمان، فدخلوا أرض مرسية، والتقاهم المسيحيون في مكان يعرف بالبورشوينس، فبعد قتال شديد انهزم المسلمون وسقط كثير من قوادهم قتلى، ونجا ابن عبد البر ومعه ثلاثمائة من جنوده، فلما وصل بين يدي مولاه وقصَّ عليه الفاجعة، وذكر له أسماء الذين فقدوا في المعركة استعظم الخسارة وقال لابن عبد البر: أما وقد جبنت عن الموت في ميدان الحرب ولم تمت كما مات أولئك الأبطال، فستموت موتة شنيعة كما يموت الأنذال، وأمر بقطع رأسه.

وفي الفصل السابع والعشرين يذكر حوادث الموريسك، وهم العرب الذين بقوا تحت حكم النصارى، وسنفرد جزءًا كبيرًا بأخبار الموريسك المذكورين إن يسَّر المولى، ونجعله الجزء الأخير من الكتاب، ولكننا أحببنا أن نذكر هنا خلاصة ما قاله المؤرخ المذكور عن موريسك مرسية، قال: عاش الموريسك في إمارة مرسية من بعد سقوطها في أيدي

النصارى إلى الجلاء الأخير في ذلٍّ وهوان ليس عليهما مزيد، وكان المسيحيون يعاملونهم أقسى معاملة؛ فأخذ المسلمون يراسلون مسلمي المغرب ويأتمرون معهم على مملكة قشتالة؛ فصدر أمر فيليب الثالث بإجلاء هؤلاء القوم عن البلاد واستئصال شأفتهم منها، وفي الخطب التي نُشرت من قلم السنيور فرنسيسكو كسكاليس — مؤرخ مرسية — وثائق مهمة تتعلق بجلاء العرب عن بلاد مرسية وغيرها من بلدان إسبانية التي كان قد بقي فيها منهم بقايا. فمن ذلك المنشورُ الذي صدر من الملك إلى الأمة الإسبانية مبينًا فيه «دسائس العرب على الدولة وعلاقاتهم بكفَّار البلدان الأخرى»، وفيه الأمر بإخراج العرب بأجمعهم مع تعيين الأشخاص الذين عهد إليهم الملك بإتمام هذه المهمة في المرافئ الجنوبية والمقاطعات الداخلية.

ومن ذلك الأمر الملكي الذي نشر في ذلك الحين، وجاء فيه ما يأتي: في مدة ثلاثة أيام من نشر هذا الأمر يكون على جميع موريسك المملكة رجالًا ونساءً أن يغادروا البلاد، ويتوجَّهوا إلى قرطاجنة؛ ليكون منها خروجهم، ولهم أن يحملوا من متاعهم ما يستطيع كل فرد حمله بنفسه، وسينقلون إلى بلاد البربر في سفن تخصَّص لهذا الغرض، ومن خالف منهم الأمر يعاقب بالقتل.

كل مسلم يوجد بعد ثلاثة أيام في غير المكان الذي عُيِّن له، فيكون لأي شخص حق في القبض عليه وتقديمه إلى الحكومة؛ فإن امتنع وعارض فله أن يقتله.

كل مسلم يُخفي ثروته لعدم استطاعته أن يحملها معه أو يحرقها أو يحرق مزرعته أو بيته يعاقب بالقتل.

للأطفال الذين لا يبلغ عمرهم الرابعة البقاء في البلاد إذا وافق على ذلك آباؤهم، فإن كانوا يتامى فأولياء أمورهم.

الأطفال الذين لا يبلغ عمرهم ست سنوات والذين آباؤهم من أصل مسيحي يجب أن يبقوا في البلاد، وتبقى معهم أمهاتهم، ولو كنَّ موريسكيات. انتهى.

قال كسكاليس إنه بمجرد أن اطلع العرب الموريسكيون على هذا الأمر استولى عليهم أشد الحزن والألم لمفارقة الوطن الذي كانوا ألفوه، ولفقد المال والمتاع اللذين كان لا بد لهم من تركهما، وكان الرئيس الأول الذي أسند الملك إليه مهمة إجلاء العرب من إمارة مرسية هو «دون لويس فخاردو»، وصدر له الأمر بذلك بتاريخ ١٣ يناير سنة ١٦١٠، فخرج من مرفأ قرطاجنة من تاريخ ١٨ يناير سنة ١٦١٠ إلى ٢٢ مارس من تلك السنة ٦٥٥٢ نفسًا من العرب.

ومن تاريخ ٢٦ أبريل سنة ١٦١٠ إلى أغسطس سنة ١٦١١ خرج من نفس المرفأ ١٥١٨٩ نفسًا، ثم في عاشر نوفمبر ١٦١١ صدر أمر جديد أشد من سابقه بإخراج العرب أجمعين؛ لأنه بالاستعلامات السرية قد ثبت أنهم ما داموا موجودين في البلاد فلا يمكن الأمان لا على الدين ولا على العرش ولا على الوطن ولا على راحة السكان. وفي سنة ١٦١٨ أصدر الملك أمرًا جديدًا إلى الكونت «دوسالاسار» بالذهاب إلى مرسية وإخراج كل من بقي فيها من الموريسك، وأن يسفرهم من ثغر قرطاجنة فنفَّذ الأمر بتمامه. وكان هؤلاء يرفعون الصليب فوق منازلهم وأكواخهم إيهامًا بأنهم مسيحيون وأملًا أن يغضوا النظر عنهم، لكن الحكومة كانت عندها جداول بأسمائهم فلم تنفعهم هذه الحيل كلها، وكانت صفة إجلائهم مؤلمة جدًّا؛ فمنهم من كان يدفعه اليأس إلى تخريب منزله أو إضرام النار فيه وفي كل ما يملك، ومنهم من كان يصل به القنوط إلى أبعد من ذلك، فكانوا يقتلون أولادهم ثم ينتحرون.

وكان الكونت دوسالاسار يعاقب الذين تصدر منهم أفعال كهذه ويسهل للذين يطيعون الأوامر نقل أمتعتهم، ويأمر المسيحيين بأن لا يهينوهم. وكانوا يحشرونهم في أماكن معينة منتظرين أن يأتي دور كل فئة منهم في ركوب البحر، فمات منهم كثير في أثناء ذلك، منهم من مات جوعًا، ومنهم من ماتوا بالأمراض، ومنهم من ماتوا جزعًا من مفارقة وطنهم إلى بلادٍ أخرى لا يعرفونها، وإن عدد المسلمين الذين أُجْلُوا عن مرسية وتوابعها في تلك النوبة يقدَّر بمائتين وستين ألف نسمة.

هكذا كانت نهاية العرب في مرسية بعد أن أقاموا فيها وفي البلاد التابعة لها ثمانية قرون، وبهذه الصورة تخلَّصت البلاد ونجا الدين من الخطر الذي كان يهددهما. انتهى كلام المؤرخ الإسباني.

ثم ذكر هذا المؤرخ أسماء مشاهير عرب مرسية، فوضع في رأسهم اسم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي زعم أنه تنصَّر، وأن الجند العربي قتلوه من أجل ذلك.

وحبيب الفهري من قواد عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو الذي تولَّى مكانه بعد قتله.

وإحسان أبو قطن عدو الملك المسيحي «أتانايلد»، وهو الذي أجبر هذا الملك على الخروج من مرسية، وعبد الله بن رجمان الذي تتوج في قلعة قراباقة، وزهير ملك المرية الذي غلب على مرسية أيضًا، وحسام بن ظهار عالم مرسية الكامل المولع بالزراعة، وهشام بن مالك الدمشقي فاتح مرسية الذي تولى الكتابة فيما بعد لعبد الرحمن ملك

قرطبة، وسليمان شقيق هشام ملك قرطبة، وعبد الله شقيق هشام وسليمان السابق الذكر، والفضل بن عميسة أبو أفالية (لعله أبو العالية) قائد مرسية الفيلسوف الذي مات فيها سنة ٨١٢، وأفالية بن الفضل بن عميسة الذي خلف والده على مرسية، وعبد الرحمن ملك قرطبة؛ أول ملك في قرطبة بهذا الاسم من سلالة الخلفاء، ومحمد المنصور ملك قرطبة أيضًا.

وأحمد بن الخطيب من أعيان مرسية وأغنيائها الذي أضاف ملكي قرطبة عبد الرحمن والمنصور، والمرتضي أبا محمد، هو أحد المسلمين الثلاثة الذين تغلبوا على مرسية سنة ١٠١٦، وعلي بن حمود الذي كان وزيرًا لسليمان، والشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق الملقب بالمدلِّين الذي عرف في مرسية بعدله وسعة نفوذه، وأبا الهيثم أحد الذين غلبوا على مرسية سنة ١٠١٦، وأحمد بن طاهر الذي شارك أبا بكر أحمد بن إسحاق في حكم مرسية، وابن عبَّاد والي إشبيلية الذي اشتهرت شجاعته ومقدرته في إمارة مرسية، والراضي بن عبَّاد الذي غلب على مرسية واشتهر بخبرته بالفنون الحربية، وابن منذر أحد الذي تغلبوا أيضًا على مرسية سنة ١٠١٦، وعبد الرحمن الطاهري الصقلبي ملك مرسية الذي استولى عليها مدة ثلاثين سنة، وعبد الله بن رشيق الذي غلب على مرسية أيضًا وكان موفَّقًا في حروبه، وأبا بكر الذي تولى أيضًا مرسية وحصل على الملك بطريقة التزوير (أظنه يعني أبا بكر بن عمار الشاعر الذي قتله المعتمد بن عباد بيده).

والمعتمد بن إسماعيل الصاحب المزيف لأبي بكر، وأبا محمد بن الهاجد أمير لورقة الذي كان معنيًّا بالزراعة، وذا الوزارتين أحمد أبا عبد الله الذي ملك مرسية عشر سنوات، وعبد العزيز الذي اشتهر بالبسالة وكان محبوبًا جدًّا في مرسية، وابن طاهر الوزير قائد جيش مرسية، وابن لب ملك مرسية الذي غادر العرش أثناء المدة التي استمرت فيها الفتن، ومحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي من سلالة تدمير أمير مرسية الإسباني، وأبا محمد بن الحاج الذي اشتهر بشجاعته ومعرفته بفنون الحرب، وعبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم محبوب المرسيين الذين انضموا إلى حزبه، وعبد الله بن فَطِن الثغري الطاغية الذي لقي حتفه في النهر (في أثناء معركة تقدم ذكرها)، وأبا جعفر بن أبي جعفر أمير مرسية، والمستنصر بن حمدان أمير مرسية الذي مات في معركة البسيط، وأبا العباس بن هذيل قاضي مرسية المحارب الشجاع، وسيف الدولة بن هود ملك قرطبة ثم مرسية، وذا النون الذي كان أميرًا في أوريولة، وشارك في قيادة الجيوش المرسية.

وعبد الرحمن بن عبد الرحمن الظالم الذي تولى مرسية، وأبا محمد صاحب ابن حمدين الحميم والمدافع عنه، وابن سوار الذي انهزم في معركة البسيط، وهو رفيق

السابق، والفلفلي الأموي من أنصار ابن طاهر من سلالة بني هود، وابن عيَّاض أبا محمد قاضي بلنسية الذي صار أميرًا على مرسية، ومحمد بن سعد بن مردنيش نائب أمير مرسية، وعبد الله بن سعد نائب بلنسية، وابن فداء قاتل الثغري، وعلي بن عبيد الله أبا الحسام والي مرسية، وابن همشك أمير شقورة وقلاعها، وابن همشك وزير مرسية الثاني، وابن هود الجذامي ملك مرسية، وزيدًا أبا زيد ملك مرسية، وعبد الله العلي الذي عرف بمرسية بملابسه الفاخرة، وعلي بن يوسف عضد الدولة ملك مرسية، وأبا جميل بن مظفر الذي حارب مع المرسيين في معركة أقليش.

وابن هذيل من ذرية بني هود ملك مرسية، وعزيز بن عبد الملك وزير مرسية، وابن الأحمر ملك غرناطة، ومحمد بن علي أبا عبد الله والي لورقة الشجاع القوي المزارع الكبير المحبوب عند جيرانه، ومحمد بن هود الذي انتخب ملكًا على مرسية برأي خيمي الأول ملك أراغون، وأبا بكر بن عامر الذي استولى على «موله» سنة ١٠٧٩، ومحمد بن أحمد الذي اعتزل في حصن «مونقودُه» سنة ١٠٩٤، ومحمد بن رافع أبا العباس العالم الشهير المولود في مرسية الذي نال الحظوة لدى ملوك العرب، ومات في سن الأربعين، وأبا عمر إبراهيم التجيبي الفلكي قاضي مرسية. وابن عتالة رئيس مرسية أصله من غرناطة، وهو حيسوبي ومزارع كبير، وعبد الرحمن بن عبد العزيز الخطيب السرقسطي المستشار المرعي في مرسية، وأحمد أبا جعفر نائب مرسية من الذين أصلحوا الزراعة فيها، وعبد الملك من مرسية الذي كان مثالًا للفضيلة، وكان خطيبًا وشاعرًا وفيلسوفًا وعالمًا بفن الزراعة، وعاشر بن مرقيَّة (كذا) أصله من بسطة حاكم مرسية، وكان مؤلفًا ممتازًا في فنونٍ شتى، وابن عيَّاض العالم الحاكم واسع الثروة الذي كان المرسيون يحبونه حبًّا جمًّا، ومحمد بن أبي ناصر خطيب مرسية أصله من طبالة، وأبا الفضل المرسي العالم الشاعر الذي مات في مرسية فأظهر المرسيون في جنازته عظيم آلامهم لفقده.

وعبد الجبار بن موسى المرسي من قراء القرآن، توفي سنة ٨٧١ المسيحية، وفضل بن فضل بن عميسة من مرسية مستشار الملوك المتوفى سنة ٨٧٢، وشمس الدين المرسي رئيس جماعة العلماء في غرناطة، وأبا جمرة المرسي مؤلف الكتب العشرة في العربية في إسبانيا، ولا تزال كتب أبي جمرة مستمرة في المغرب، وابن الشنجالي من فقهاء مرسية الذي كان من أبرع علماء مرسية في علم الكلام، وابن حافد الأمين النحوي الفقيه من علماء مرسية، وابن بُرطُلُه المرسي المتوفى سنة ١١٨١ المسيحية، ومولده عام ١٠٩٢، وعبد الله الضرَّاع الكاتب الحسابي المرسي، توفي سنة ١١٧٦، ومحمد التجيبي المرسي

حاكم أوريولة الذي كان عالمًا شاعرًا مؤلفًا في الفقه، توفي سنة ١٢١٢، ومحمد اللخمي المؤرخ، توفي في مرسية سنة ١١٢٤، وحسن الكتاني الشاعر المرسي، توفي سنة ١٢٣٦، وتونس بن إسحاق الشاعر المرسي الذي كان كاتبًا للخليفة أبي عبد الله، وأبا الرجال بن غالب المرسي الوزير الشاعر، وأبا موسى بن عبد الواحد الشاعر المؤلف، والحزمي العالم المتضلِّع من إمارة مرسية.

والبخاري المرسي الذي كان متفوقًا في الشعر، ومحمد بن جهور من أعيان مرسية، وأبا جعفر القطان من مشاهير مرسية توفي سنة ١٢٣٦، والصنهاجي المولود في قلعة حمَّاد المتوفى سنة ١٢٣١، وأبا جعفر الخمَّار الشاعر المرسي، وابن عبد السلام المرسي الطبيب المؤلف في الطب، ومحمد التجيبي المرسي الكاتب المؤلف (ألف كتاب فياتوريس)، والمرادي المولود في «جمالة» مؤرخ مرسية، وعلاش بن شاهين (كذا) الكاتب المتكلم المتصوِّف المرسي مفسر القرآن، الذي تناظر مع العلماء المسيحيين (لعله يعني ابن سبعين)، ومحمد بن لبون أمير لورقة الذي استطاع أن ينال لقب ملك، وأبا القاسم ذا الوزارتين الذي تلقَّب بملك لورقة الشاعر النبيل، وأبا الحسن الأنصاري بن محمد، أصله من قرطاجنة من شعراء مرسية، العالم المتضلع، الذي نظم قصيدة ألف بيت، وابن عطاف أصله من قرية بني عطاف من سلالة بني عطاف الذين اشتهروا بهذا الاسم نسبةً إلى موطنهم.

والمؤلف يعتذر عما عسى أن يكون قد وقع في أسماء الأشخاص والأماكن من غلط، فيقول إنه بذل كل مجهوده بتصحيح الأسماء، وأن السماء قد تختلف من عصرٍ إلى عصر؛ لأن الخصومات السياسية تؤدي إلى حذف الألقاب وتغييرها؛ مما يؤدي إلى حيرة المؤرخ واضطرابه بين الأسماء والألقاب المختلفة بشخصٍ واحد. انتهى.

قلت: ونحن بسبب اختلاف اللفظ بين العرب والإسبانيين، وما يمكن أن يطرأ من وهم على مؤرخيهم في أسماء رجالنا لم نحاول إبداء ملاحظات على هذا الجدول إلا قليلًا. على أن قسمًا كبيرًا ممن ذكرهم وارد في أسماء علماء مرسية الذين سيرد ذكرهم كما ترى.

(٢) ذكر من انتسب إلى مرسية من أهل العلم

نبغ في مرسية من العلماء والأدباء والمتصوفة والأولياء عددٌ كبير يجعل هذه المدينة في الدرجة العليا من الترقي الفكري، لا في العالم الإسلامي وحده، بل في العالم كله على الإطلاق. وإذا قيل إن مرسية كانت أول بلدة علمية وأول بلدة زراعية في الغرب لم يكن في هذا القول شيء من المبالغة.

نبغ في مرسية محمد بن محمد بن يبقى، كان فقيهًا، أخذ عن ابن ورد وعن أبيه محمد، وكان يكتب الشروط بمرسية، وبها توفي بعد سنة ٥٧٠، ذكره ابن عميرة في بغية الملتمس، كذلك ذكره ابن الأبَّار في تكملة الصلة، وقال إنه سمع داود بن يزيد، وأبا الحسين بن الضحَّاك، وكان موصوفًا بالصلاح والعدالة يعقد الشروط، وأخذ عنه ابن مسدي.

ومحمد بن طرَّافش الهاشمي أبو عبد الله، فقيه مقرئ فاضل، تولى الأحكام بمرسية، وتوفي وهو خطيب جامعها وصاحب الصلاة به في سنة ٥٩٢، ذكره ابن عميرة في البغية، وكذلك ذكره ابن الأبَّار في التكملة، وضبط اسمه بفتح الطاء وتشديد الراء وألف وفاء مفتوحة بعدها شين قائلًا: هكذا قرأت اسمه بخطه، وهو من أهل شنتمرية الشرق، وسكن مرسية، يكنى أبا عبد الله، كان من الصُّلَحاء الفضلاء مع التيقُّظ وبراعة الخط، وولِّي الصلاة والخطبة بجامع مرسية، قال ابن الأبَّار: ووقفت على ما أشهده به القاضي أبو عبد الله بن حميد في رمضان سنة ٥٧٩، ولا أدري أله رواية عنه أم لا.

وأبو عبد الله محمد بن طاهر الحاج. قال ابن عميرة في البغية: القاضي صاحبنا سمع بمصر من محمود بن أحمد بن علي المحمودي الصابوني بقراءتي عليه، وبالإسكندرية من أبي عبد الله الحضرمي، توفي بمرسية سنة ٥٩١.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الخزرجي، يُعرف بابن الفرس، فقيه عارف محدِّث، كان يفتي بمرسية، وأقرَأَ بها مدة، روى عن جماعة أئمة أعلام، منهم غالب بن عطية، وعلي بن أحمد بن خلف، وأبو بحر سفيان بن العاصي، وعلي بن أحمد بن كُرز، وأبو محمد بن عتَّاب، وعبد القادر بن الحنَّاط، وأبو الوليد محمد بن رشد، وموسى بن عبد الرحمن بن خلف بن جوشن، وأبو بكر بن العربي، وأبو الحسن بن مغيث، وابن زُغيبة، وغيرهم، ذكر في فهرسته أنه روى عن خمسة وثمانين رجلًا. قال ابن عميرة في البغية: ولم يزل يقرئ الحديث والفقه إلى أن توفي، وقد أدركتُه ورأيتُه، لكنني لم أقرأْ عليه.

وأبو عبد الله محمد بن عمر الصدفي صاحب أحكام القضاء بمرسية فقيه يروي عن أبي علي بن سُكَّرة وغيره، ذكره ابن عميرة.

وأبو عبد الله محمد بن مالك بن محمد الغافقي القاضي، فقيه عارف، تفقَّه بقرطبة، وروى عن أبي بكر بن العربي، وحضر إملاءه لكتاب «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس»، وكان يكتب الشروط بمرسية، وبها توفي سنة ٥٨٦، ذكره ابن عميرة في البغية، وذكره أيضًا ابن الأبَّار في التكملة، وقال إنه محمد بن مالك بن محمد بن مالك، من أهل مرسية، يُعرف بالمولي نسبةً إلى بعض أعمالها،[١٩] لقي أبا بكر بن العربي وسمع منه مسلسلاته، قال: ولا أعلم له رواية عن غيره. وكان فقيهًا على مذهب مالك حافظًا له، بصيرًا به، مقدَّمًا في علم الرأي، ووليِّ قضاء بعض الكور الشرقية، وتولَّى النيابة عن أبي القاسم بن حبيش أيام قضائه بمرسية، وقد أخذ عنه، وتوفي بمرسية في حدود التسعين وخمسمائة.

ومحمد بن مفرِّج بن أبي العافية أبو عبد الله، كان يكتب الشروط بمرسية، وكان من أهل الفهم والذكاء والمعرفة بأنساب أهل مرسية بلده وأخبارهم، وكان مكسِّرًا عارفًا بأملاك مرسية كلها، حافظًا لكتاب الله، أديبًا. قال ابن عميرة في البغية: روى عن أكثر أشياخي، وعن ابن مدرك وغيره، توفي بمرسية سنة ٥٨٧.

ومحمد بن يبقى الأموي، من أهل مرسية، فقيهٌ حافظٌ عارفٌ متفنِّن، كان له مجلس بمرسية في طريقة الوعظ مشهور، توفي بمرسية، ذكره ابن عميرة في البغية.

وأحمد بن محمد بن زيادة الله الثقفي، المعروف بالحلَّال، قال ابن عميرة فيه: قاضي قضاة الشرق، فقيه محدِّث، من أهل بيت جلالة ورئاسة وفضل واشتمال على الغرباء، قرأ على الحافظ أبي علي الصدفي وغيره، وحدَّث بمرسية، وكان كهفًا للغرباء في وقته، ولد سنة ٤٩٨، وتوفي سنة ٥٥٤.

وأحمد بن أبي عمر أحمد بن محمد الأزدي القاضي أبو الحسن، يُعرف بابن القصير، غرناطي فقيه مشاوَر محدِّث، يروي عن أبي الأصبغ بن سهل، وأبي علي الغسَّاني، وأبي بكر محمد بن سابق الصقلي المتكلِّم، وأبي عبد الله بن فرج، وأبي عبد الله بن علي بن حمدين، وأبي عبد الله بن سليمان بن خليفة، وأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتَّاب، قال ابن عميرة في البغية: قيَّدت فهرسته بخط يدي، وقرأتها بمرسية على ابنه الفقيه الأديب أبي جعفر.

وأبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب، وكان أبوه من موالي بني شُهيد، ونشأ هو بمرسية، وانتقل إلى قرطبة، وطلب الأدب فبرَّز فيه وبسق في صناعة الرسائل مع حسن

الخط المتقن إلى النهاية، وشارك في سائر العلوم، وبلغ من رئاسة الدنيا أرفع منزلة، وقدَّمه الأمير الموفَّق أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري على كل من في دولته لأسباب أكَّدت له ذلك عنده من المودَّة والثقة والنصيحة، فكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل والسياسة، ويشتغل بالفقه والحديث، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم، ويُصلح الأمور جهده.

قال الحميدي: وما رأينا من أهل الرئاسة من يجري مجراه مع هيبة مفرطة وتواضع وحلم عُرف به مع القدرة، مات بعد الأربعين وأربعمائة عن سنٍّ عالية. وله رسائل مجموعة متداولة، منها الرسالة إلى أبي عمران موسى بن عيسى بن أبي الحاج الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمن فقيهي القيروان في الإصلاح بينهما. وله كلام مدوَّن على تراجم كتاب الصحيح لأبي عبد الله البخاري ومعاني ما أشكل من ذلك.

قال الحميدي: وقد رأيته غير مرة إذا غضب في مجلس الحكم أطرق ثم قام ولم يتكلم بين اثنين، فظننته كان يذهب إلى حديث أبي بكرة عن رسول الله ﷺ: لا يحكم حاكم بين اثنين وهو غضبان. قال الحميدي: حدَّثنا الرئيس أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب، قال: كنت في سن المراهقة بتدمير أول طلبي للنحو إذ دخل إلينا على البحر رجلٌ أسمر ذكر أنه من بني شيبة حجبة البيت، وأنه يقول الشعر على طبعه ولا يقرأ ولا يكتب، وكان يقول إنه دخل عليه اللحن بدخول الحضر، وكان يسأل أستاذنا أن يُصلح له اللحن، ويسألني كثيرًا أن أكتب أشعاره بمدائح القائد ... ومما بقي في حفظي من شعره:

يا خليلي من دون كل خليلِ ... لا تلمني على البكا والعويلِ
إنَّ لي مهجة تكنَّفَها الشو ... ق وعينًا قد وُكِّلَت بالهمول
كلما عوَّدت هتوف العشايا ... والضحى هيَّجت كمين غليلي
ذاتُ فرخين في ذرى أثلاثٍ ... هدلاتٍ غُضفِ الذوائب مِيل
لم يغيبا عن عينها وَهْيَ تبكي ... حذر البين والفراق المُديل
أنا أولى لغربتي وانتزاحي ... واشتياقي منها بطول العويل
حلَّ أهلي بالأبطحين وأصبحْـ ... ـتُ مع الشمس عند وقت الأفول

وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس، صاحب الأحكام بمرسية، فقيه محدِّث عارف، يروي عن العبسي أبي الحسن، وأبي محمد بن أبي جعفر، وغيرهما، توفي سنة ٥٦٣.

وأبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد، أشجعي النسب، من ولد الوضَّاح بن رزاح الذي كان مع الضحَّاك يوم المرج.[٢٠] وهذا الوضَّاح هو جد بني وضَّاح، من أهل مرسية وإليه ينتسبون، فبنو وضَّاح من أشجع، وأشجع من قيس بن عيلان بن مضر، وأبو عامر هذا من العلماء بالأدب ومعاني الشعر، وله حظ من ذلك بَسَقَ فيه، ولم يَرَ لنفسه في البلاغة أحدًا يجاريه، وله كتاب «حانوت عطَّار»، وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد كثيرة الهزل، وشعره كثيرٌ مشهور، وقد ذكره أبو محمد بن علي بن أحمد مفتخرًا به فقال: ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد، ومن أبياته المختارة قوله:

وما ألان قناتي غمزُ حادثةٍ	ولا استخفَّ بحلمي قط إنسانُ
أمضي على الهول قدمًا لا ينهنهني	وأنثني لسفيهي وهو حردان
ولا أقارض جهالًا بجهلهمُ	والأمر أمريَ والأعوان أعوان
أُهيب بالصبر والشحناء ثائرة	وأَكظِم الغيظ والأحقاد نيرانُ
وما لسانيَ عند القوم ذو ملقٍ	ولا مقالي إذا ما قلت إدهان
ولا أفوه بغير الحق خوفَ أخي	وإن تأخر عني وهو غضبان
ولا أميل على خِلِّي فآكله	إذا غرثت وبعض الناس ذؤبان
إن الفتوَّة فاعلم حدُّ مطلبها	عرض نقيٌّ ونطق فيه تبيان
بالعلم يفخر يوم الحفل حامله	وبالعفاف غداة الجمع يزدان
ودَّ الفتى منهمُ لو مُتُّ من يده	وإنه منك ضخم الجوف ملآن

وقوله:

أَلِمتُ بالحب حتى لو دنا أجلي	لما وجدت لطعم الموت من ألم
وزادني كرمي عمًّا ولهت به	ويلي من الحب أو ويلي من الكرم

وقوله:

كتبت لها أنني عاشق　　على مهرق الكتم بالناظر
فردَّت عليَّ جواب الهوى　　بأحور في مائه حائر
منعَّمة نطقت بالجفون　　فدلَّت على دقة الخاطر
كأن فؤادي إذا أعرضت　　يعلَّق في مخلبَيْ طائر

وقوله — وقد أصاب لعمري جدًّا:

أقلُّ كل قليلٍ جد ذي أدبٍ　　بين الورى وأقلُّ الناس إخوانُ
وما وجدت أخًا في الدهر يذكرني　　إذا سما وعلا يومًا به الشانُ

قال أبو محمد علي بن أحمد: توفي أبو عامر بن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ٤٢٦ بقرطبة، ودفن يوم السبت ثاني يوم وفاته في مقبرة أم سلمة، وصلى عليه جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم. وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة، ولم يخلِّف لنفسه نظيرًا في هذين. وكان مولده سنة ٣٤٢، ولم يعقِّب، وانقرض عقب الوزير ابنه بموته. وكان جوادًا لا يأسى على فائت، عزيز النفس، مائلًا إلى الهزل. وكان له من علم الطب نصيبٌ وافر. ومات وهو حافظ ذهنه يدعو الله — عز وجل — ويتشهَّد شهادة التوحيد والإسلام. وكان أوصى أن يصلِّي عليه أبو عمر الحصَّار الرجل الصالح. كل هذا عن ابن عميرة.

وأبو جعفر أحمد بن علي بن خلف بن طرشيل الأستاذ بمرسية، نحوي أديب لغوي، توفي سنة ٤٧٣، ترجمه ابن عميرة.

وأحمد بن مسلمة بن وضَّاح أبو جعفر، أديب شاعر من فحول الشعراء، مرسيُّ الأصل، من جملة شعره:

ولما شارف الميدان أضحى　　يعلِّم لحظه شقَّ الصفوفِ
ثَنَى أعطافه قبل العوالي　　وسلَّ لِحَاظه قبل السيوفِ

وله في شجر السرو:

أيا سروُ لا يعطش منابتك الحيا ولا مرَّ عن أغصانك الورق النضرُ
لقد كسيت أعطافك المُلْدُ مثلما تلف على الخطِّي راياته الخضرُ

ترجمه ابن عميرة في البغية.

وأبو أمية إبراهيم بن عصام القاضي بمرسية، فقيهٌ أديبٌ شاعر، من أهل بيت جلالةٍ ووزارة، يروي عن القاضي أبي علي بن سكَّرة، وقد قال فيه أبو محمد بن سفيان قطعة أولها:

امرُرْ بقاضي القضاة إن له حقًّا على كل مسلم يجبُ

وكان بليغًا متصرِّفًا في أنواع البلاغة، كتب إليه أبو الحسن بن الحاج:

ما زلت أضرب في علاك بمقولي دأبًا وأورد في رضاك وأصدر
فاليوم أعذر من يُطيل ملامة وأقول: زد شكوى فأنت مقصر

فأجابه:

الفخر يأبى والسيادة تحجر أن يستبيح حمى الوفاء مزور
ولديَّ إن نفث الصديق لراحة صدق الوفاء وشيمة لا تغدر
وعليك أن ترضى فسمع ملامة عين الثناء وعهدة لا تخفر

وكتب إليه أبو العباس القرباقي:[٢١]

أما ترى اليوم يا ملاذي يحكيك في البشر والطلاقه
والبحر يرتج مثل قلبٍ راقب من إلفه فراقه
فامنن بمشي إليَّ إني ما لي على الصبر عنك طاقه

فأجابه:

عندي لما تشتهي بدارٌ	يشهد أني على علاقه
فاخبُر بما شئت صدق عهدي	تجد دليلًا على الصداقه
واسكن إلى رأي ذي احتفاء	يُعجز من رامه لحاقه

ترجمه ابن عميرة في البغية، وقال إنه توفي سنة ٥١٦.

والطيِّب بن محمد بن هارون العتقي، مرسي فقيه، توفي سنة ٣٢٨، ذكره ابن عميرة.

وبشر بن محمد أبو الحسن، محدِّث زاهد فاضل، توفي بمرسية بعد الخمسمائة، ذكره ابن عميرة أيضًا.

وأبو غالب تمَّام بن غالب بن عمر المعروف بابن التيَّاني المرسي، كان إمامًا في اللغة وثقةً فيها، مذكورًا بالديانة والعفة والورع، وله كتابٌ مشهور جمعه في اللغة لم يؤلف مثله، وله فيه قصة تدل على فضله مضافًا إلى علمه؛ أخبر أبو محمد علي بن أحمد قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي أن الأمير أبا الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، وجَّه إلى تمام بن غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألفَ دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد؛ فردَّ الدنانير، وأَبَى من ذلك، ولم يفتح في هذا بابًا البتة، وقال: والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإني لم أجمعه له خاصة، لكن لكل طالب علم. قال ابن عميرة في البغية وقد روى هذه القصة: فاعجَبْ لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها. توفي أبو غالب تمام سنة ٤٣٦، وفيها مات أبو الجيش المجاهد الموفق بدانية.

وخطَّاب بن أحمد بن خطاب فقيهٌ عارف، من أهل مرسية، روى عن الحافظ أبي بكر بن العربي وغيره، وتفقه بقرطبة. قال ابن عميرة في البغية: وكان ذكيًّا، جالسته كثيرًا، توفي قبل الثمانين وخمسمائة.

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني، واحد وقته بشرق الأندلس حفظًا ومعرفةً وعلمًا بالفروع وسبقًا فيها غير منازع، مشهور بالفضل، محافظ على نشر العلم وصونه، تعظِّمه الأمراء وتعرف له حقه، وتتبرَّك به وبصالح دعائه، ولم يكن قبله ولا بعده بمرسية أكثر صدقة منه، قاله ابن عميرة في البغية، وأردف ذلك

بقوله: ولم يزل كذلك طول حياته إلى أن توفي. أُخبرت عنه أنه اشترى ذات يومٍ فرسًا في السبيل لبعض المجاهدين، واجتمع عنده البائع والمشترى له، وحضر الثمن فبكى البائع، فقال له: ما يُبكيك؟ ترانا نقصناك من ثمن فرسك؟ قال: لا، ولكني أبيعه في افتكاك ابن لي مجاهد أسره العدو قصمه الله. فقال له: وبكم افتككته؟ فقال: بكذا، لعدد أكثر من ثمن الفرس؛ فأخرج له فدية ابنه ودفع إليه فرسه، وأمر باشتراء فرسٍ آخر لذلك المجاهد بثمن ذلك الفرس. ومن هذا كثيرٌ جدًّا.

روى عن حاتم بن محمد الطرابلسي وغيره، ورحل فحج وانصرف، ولم يزل يقرئ الحديث والفقه بمرسية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٦، ومولده سنة ٤٤٧، قال ابن عميرة: حدثني عنه ابن عم أبي، قرأ عليه سنة ٥١٣، وقد جاءت ترجمة هذا الفاضل في الصلة لابن بشكوال، ذكر أنه روى عن أبي الوليد الباجي، وأبي عبد الله بن سعدون القروي، وأنه أخذ بطليطلة عن أبي المطرِّف عبد الرحمن بن محمد بن سَلَمة، قال: ورحل إلى المشرق فحج وسمع صحيح مسلم بن الحجَّاج من أبي عبد الله الحسين الطَّبَري، وكان حافظًا للفقه على مذهب مالك، مقدَّمًا فيه على جميع أهل وقته، بصيرًا بالفتوى، عارفًا بالتفسير، وانتفع طلَّاب العلم بصحبته وعلمه، وكان رفيعًا عند أهل بلده مرسية، كثير الصدقة والذكر لله تعالى، كتب إلينا بإجازة ما رواه بخطه، وتوفي — رحمه الله — لثلاثٍ خلونَ من شهر رمضان سنة ٥٢٦ بمرسية، ومولده سنة ٤٤٧. انتهى ملخصًا عن ابن بشكوال.

وعبد الله بن محمد النفزي المرسي أبو محمد الخطيب، توفي سنة ٥٣٨، ذكره ابن عميرة في البغية، وذكره ابن بشكوال في الصلة، وقال فيه إنه كان رجلًا صالحًا.[٢٢]

وعبد الرحيم الشمُّوقي أقرأ بمرسية القرآن والعربية والحساب. قال ابن عميرة في البغية: قرأت عليه بها أشهرًا، وخطب بجامع مرسية مدة، وله تأليف في القراءات وأرجوزة عارض فيها أرجوزة ابن سيده. وكان — رحمه الله — فاضلًا، إذا خرج من منزله لا يلقَى صغيرًا ولا كبيرًا إلَّا سلَّم عليه، أخبرني بعض أصحابنا أنه سلم عنده ذات يوم على جماعة من الفتيان فقاموا كلهم إجلالًا للفقيه، فوقف وأنشد:

لمَّا مررت بماجدٍ جلساؤه ... أبناء قوم أسَّسوا الأفضالا
قاموا إليَّ ولست أكرمَ منهمُ ... عمًّا ولا جدًّا ولا أخوالا

لكنهم نظروا إلى أحسابهم فأرتهمُ الإجلال والإجمالا

وعبد العزيز بن محمد اليحصبي المعروف بالبلبي، كان صاحب الأحكام والحسبة بمرسية مدة، وكان نحويًّا عارفًا بأبيات المعاني ذكيًّا، توفي على خير عمله بمرسية في سنة ٥٨٠.

وعبد الجبَّار بن موسى بن عبيد الله الجذامي ثم السماني، أقرأ بمرسية القرآن والنحو والآداب، وكان مشهورًا، من أهل الحذق والنباهة والدين والفضل، ذكره ابن عميرة.

وأبو محمد عاشر بن محمد بن عاشر، فقيه عارف شروطي موثَّق، ولِّي القضاء بمرسية، وكان من أعرف الناس بكتب الوثائق، ألَّف في شرح المدوَّنة. قال ابن عميرة: حدَّثني عنه عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم، يروي عن أبي علي الصدفي وغيره.

وعيسى بن عبد الرحمن السالمي المقرئ بمرسية، توفي سنة ٤٩٨.

وعلي بن محمد بن زيادة الله الثقفي، يعرف بابن الحلَّال، من أهل بيتٍ وجلالةٍ وفقه وفضل، فقيهٌ عارف، كان يقرئ المدوَّنة بمرسية، وتوفي بعد الخمسمائة، ذكره ابن عميرة، وكان ذكر قبله أحمد بن محمد بن زيادة الله من بني الحلَّال.

وأبو الخيار مسعود بن خلف بن عثمان العبدري، من علماء مرسية، ذكره ابن عميرة، وقال إن له رحلة، وكان يروي كتاب الشهاب عن القضاعي، ورواه عنه أبو محمد بن أبي جعفر.

وأبو الحجَّاج يوسف بن إبراهيم العبدري المعروف بالثغري، فقيه محدِّث، راوية عارفٌ أديب، انتقل إلى مرسية في الفتنة، وصار خطيبًا بقليوشة من قرى مدينة أوريولة، واقتنع ولم يتعرَّض لظهور. قال ابن عميرة: وكان لمعرفته قد غصَّ به جماعة من الفقهاء بمرسية حين وصلها، فسعوا له في الخطبة بجامع قليوشة المذكورة، وانتقل إليها، سمعت عليه بعض كتاب الموطأ، وكان يروي عن جماعة، منهم الحافظ أبو بكر (أي ابن العربي)، وأبو الحسن بن مغيث، وأبو الوليد بن رشد.

وأبو القاسم أحمد بن إبراهيم بن محمد، يعرف بابن أبي ليلى، من أهل مرسية، روى عن أبي الوليد هشام بن أحمد بن وضَّاح المرسي، وأبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري، وغيرهم، وكانت عنده معرفة بالأحكام وعقد الشروط. قال ابن بشكوال في الصلة: كتب إلينا بإجازة ما رواه بخطه، واستقضي بشلب، وتوفي بها فجأة سنة ٥١٤، ومولده سنة ٤٤٩.

وإسماعيل بن سيدَه، والد أبي الحسن بن سيده، من أهل مرسية، لقي أبا بكر الزبيدي، وأخذ عنه مختصر العين، وكان من النحاة ومن أهل المعرفة والذكاء، وكان أعمًى، وتوفي بمرسية بعد الأربعمائة بمدة، ذكر ذلك ابن بشكوال في الصلة.

وأبو عبد الله الحسن بن إسماعيل المعروف بابن خيزران، من أهل مرسية، روى عن أبي بكر بن معاوية القرشي وغيره، حدَّث عنه أبو عبد الله بن عابد، وقال: لقيته بتدمير. وذكر أنه استقضي بالجزائر الشرقية أعمال ابن مجاهد، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو بكر الحسن بن علي بن محمد الطائي المرسي، يعرف بالفقيه الشاعر؛ لغلبة الشعر عليه، روى عن أبي عبد الله بن عتَّاب، وأبي عمر القطان، وأبي محمد بن المأموني، وأبي بكر ابن صاحب الأحباس، وأبي العباس العذري، وغيرهم، وله كتاب في النحو سمَّاه المقنع في شرح كتاب ابن جِنِّي. وتوفي في رمضان سنة ٤٩٧، ومولده سنة ٤١٢، قاله ابن بشكوال في الصلة.

والحسين بن إسماعيل بن الفضل العتقي، من أهل مرسية، له رحلة إلى الشرق، لقي فيها أبا محمد بن أبي زيد وغيره، وكان عالمًا بالأخبار والأشعار، وتوفي سنة ٤١٢، ذكره ابن بشكوال نقلًا عن ابن مدير.

وأبو عثمان سعيد بن هارون بن سعيد، من أهل مرسية، يعرف بابن صاحب الصلاة، روى عن أبي عمر الطلمنكي وغيره، وتوفي عند الثلاثين والأربعمائة، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو محمد عبد الله بن سيد العبدري، يعرف بابن سرحان المرسي، روى عن أبي الوليد بن ميقل وغيره. وكان يتقن عقد الشروط ويعرف عللها، وله كتاب فيها سمَّاه المفيد قد عول الناس عليه، وله كتاب حسن في شرحه. روى عنه أبو عبد الله محمد بن يحيى وغيره، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن هارون المرسي، روى عن أبي عمر الطلمنكي، وأبي الوليد بن ميقل، وغيرهما، وتوفي سنة ٤٦١، ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو محمد عبد الله سهل بن يوسف الأنصاري المرسي، أخذ عن أبي عمرو المقري، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي محمد مكي بن أبي طالب. ورحل إلى المشرق، وأخذ بالقيروان عن أبي عبد الله محمد بن سفيان، وأبي عبد الله محمد بن سليمان الأُبِّي. وكان ضابطًا للقراءات عارفًا بطرقها، أخذ الناس عنه. قال ابن بشكوال في الصلة: وسمعت شيخنا أبا بحر يعظِّمه ويذكر أنه أخذ عنه، وتوفي برُندة من نظر قرطبة سنة ٤٨٠.

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن طاهر، روى ببلده مرسية عن أبي الوليد بن ميقل، وبقرطبة عن أبي القاسم بن الأفليلي، وأبي عبد الله بن عتَّاب، وأبي عمر بن القطان وغيرهم، ورحل إلى المشرق وحج، وأخذ عن أبي ذر الهروي، وكريمة المروزية، وغيرهما. وكان فقيهًا مشاورًا ببلده، وتوفي سنة ٤٦٩ عن اثنتين وستين سنة، ترجمه ابن بشكوال في الصلة، ونقل تاريخ وفاته عن ابن مدير.

وأبو الحسن علي بن إسماعيل، يعرف بابن سيدَه الأندلسي المرسي، روى عن أبيه، وعن أبي عمر الطلمنكي، وصاعد اللغوي، وغيرهم، وله تواليف حسان منها كتاب المحكم في اللغة، وكتاب المخصَّص، وكتاب الأنيق في شرح الحماسة، وغير ذلك. وذكر الوقشي عن أبي عمر الطلمنكي قال: دخلت مرسية فتشبَّث بي أهلها ليسمعوا عليَّ غريب المصنَّف، فقلت لهم: انظُروا من يقرأ لكم وأمسك أنا الكتاب. فأتوني برجلٍ أعمى، يعرف بابن سيدَه فقرأه عليَّ من أوله إلى آخره؛ فعجبت من حفظه، وكان أعمى ابن أعمى. وذكره الحميدي وقال: إمامٌ في اللغة والعربية، حافظ لهما، على أنه كان ضريرًا، وله في الشعر حظ، ومات بعد خروجي من الأندلس قريبًا من سنة ٤٦٠، وقال القاضي صاعد بن أحمد: توفي سنة ٤٥٨، وقد بلغ ستين سنة ونحوها.[٢٣] قلنا: إن ابن سيدَه الأندلسي مفخرة من مفاخر العرب في الشرق والغرب، وكتابه المخصص في اللغة لم يؤلَّف مثله في بابه، وهو معجم لغوي مرتب على المعاني، فكل موضوع من موضوعات الحياة البشرية من مادي ومعنوي يذكره مفرِدًا له بابًا خاصًّا، ويذكر جميع ما ورد فيه عن العرب من الألفاظ والجمل، ومن هذا الكتاب تظهر مزايا هذه اللغة الشريفة، سواء في دقة التعبير أو في سعة مذاهب الكلام أو في اشتقاق المعاني بعضها من بعض، أكثرَ من كل كتاب عرفناه.

وقد طُبع «المخصَّص» بالمطبعة الكبرى الأميرية بمصر سنة ١٣١٦، وهو ١٧ جزءًا، وأوله: قال أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيدَه: الحمد لله المميت ذي العزة والملكوت، مُلهم الأذهان إلى الاستدلال على قدمه، ومُعلِمها أن وجوده لم يكُ واقعًا بعد عَدَمه، ثم مُعجزها بعظيم قدرته على ما منحها من لطيف الفكرة ودقيق النظر والعبرة عن تحديد ذاته، وإدراك محمولاته وصفاته، نحمده ما ألهمنا إليه وفطر أنفسنا عليه من الإقرار بألوهيته والاعتراف بربوبيته، ونسأله تخليص أنفسنا حتى يُلحقنا بعالَمه الأفضل لديه وبجواره الأزلف إليه. ثم الصلاة على عبده المصطفى ورسوله المقتفى سراجنا النير الثاقب ونبينا الخاتم العاقب؛ محمد خيرة هذا

العالم، وسيد جميع ولد آدم، والسلام عليه وعلى آله الطيبين المنتخبين — صلى الله عليه وعليهم أجمعين. أما بعد فإن الله — عز وجل — لما كرم هذا النوع الموسوم بالإنسان وشرَّفه بما آتاه من فضيلة النطق على سائر أصناف الحيوان، وجعل له رسمًا يميزه وفضلًا يبيِّنه على جميع الأنواع فيحوزه أحوجه إلى الكشف عما يتصور في النفوس من المعاني القائمة فيها المُدركة بالفكرة، ففتق الألسنة بضروب من اللفظ المحسوس؛ ليكون رسمًا لما تصور وهجس من ذلك في النفوس، فعلمنا بذلك أن اللغة اضطرارية وإن كانت موضوعات ألفاظها اختيارية، فإن الواضع الأول المسمَّى للأقل جزءًا وللأكثر كلًّا وللَّون الذي يفرِّق شعاع البصر فيبثه وينشره بياضًا، وللذي يقبضه فيضمُّه ويحصره سوادًا، لو قَلَب هذه التسمية فسمَّى الجزء كلًّا والكل جزءًا والبياض سوادًا والسواد بياضًا لم يخلَّ بموضوع، ولا أوحش أسماعنا من مسموع.

ونحن مع ذلك لا نجد بُدًّا من تسمية جميع الأشياء لتحتاز بأسمائها، وينماز بعضها عن بعض بأجراسها وأصدائها، كما تباينت أول وهلة بطباعها وتخالفت قبل ذلك بصورها وأوضاعها، ونعمَّا ما سدَّدت الحكماء إليه في ذلك من دقيق الحكمة ولطيف النظر والصنعة لما حرصوا عليه من الإيضاح، وأغذُّوا إليه من إيثار الإبانة والإفصاح. فأما اللفظة التي تدل على كميتين مختلفتين منفصلتين أو متَّصِلتين كالبشر الذي يقع على العدد الكثير والقليل، والجلل الذي يقع على العظيم والصغير، واللفظة التي تدل على كيفيتين متضادتين كالنَّهل الواقع على العطش والرِّيِّ، واللفظة الدالة على كيفيات مختلفة كالجون الواقع على السواد والبياض والحمرة، وكالسُّدفة المقولة على الظلمة والنور وما بينهما من الاختلاط، فسآتي على جميعها مستقصًى في فصل الأضداد من هذا الكتاب مثبتًا له غير جاحد، ومضطرًّا إلى الإقرار به على كل نافٍ معاند، ومبرئًا للحكماء المتواطئين على اللغة أو المُلهَمين إليها من التفريط، ومنزِّهًا لهم عن رأي من وسمهم في ذلك بالذهاب إلى الإلباس والتخليط. وكذلك أقول على الأسماء المترادفة التي لا يتكثَّر بها نوع ولا يحدث عن كثرتها طبع، كقولنا في الحجارة: حجر وصفاة ونَقَلَة، وفي الطويل طويل وسَلِب وشَرَحْب، وعلى الأسماء المشتركة التي تقع على عدة أنواع كالعين المقولة على حاسة البصر وعلى نفس الشيء، وعلى الربيئة، وعلى جوهر الذهب، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر الدائم، وعلى حُرِّ المتاع، وعلى حقيقة القبلة، وغير ذلك من الأنواع المقولة عليها هذه اللفظة، ومثل هذا الاسم المشترك كثير، وكل ذلك ستراه واضحًا أمره مبينًا عذره في موضعه إن شاء الله.

وقد اختلفوا في اللغة أمتواطَأٌ عليها أم ملهم إليها. وهذا يحتاج إلى فضل تأمُّل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف. إلَّا أن أبا علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال: هي من عند الله. واحتج بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وهذا ليس باحتجاج قاطع؛ وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على أن واضع عليها. وهذا المعنى من عند الله — سبحانه — لا محالة، فإذا كان ذلك محتملًا غير مستنكَر سقط الاستدلال به. (إلى أن يقول): فإذا قد بيَّنَّا ما اللغة أمتواطأ عليها أو موحًى بها وملهم إليها، فلنقل على حدها وهو عامٌّ لجميع اللغات؛ لأن الحد طبيعي، ثم لنردف ذلك بالقول على اشتقاق الاسم الذي سمَّته العرب به، وهو خاص بلسانها؛ لأن الأسماء تواطُئِية، أما حدها — ونبدأ به لشرف الحد على الرسم — فهو أنها أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم، وهذا حد دائر على محدوده محيطٌ به لا يلحقه خلل؛ إذ كل صوت يعبَّر به عن المعنى المتصوَّر في النفس لغة، وكل لغة فهي صوت يعبَّر به عن المعنى المتصوَّر في النفس.

وأما وزنها وتصريفها وما تحلَّل إليه من الحروف وتتركَّب عنه، فهي فعلة متركِّبة من حرف ل غ و هـ وإليها تنحلُّ؛ لأن التحلُّل إنما هو إلى مثل ما يقع عليه التركُّب، يقال: لَغوت؛ أي تكلَّمت، وأصلها لغوه، ونظيرها قلَه وكُرَه وثُبه، كلها لامها واو؛ لقولهم: قلوت بالقُلَه، وكروت بالكُرَه؛ ولأن الثُّبَه كأنها من مقلوب ثاب يثوب، والجمع لُغات ولُغُون كَكُرات وكُرين، يجمعونها بالواو والنون إشعارًا بالعوض من المحذوف مع الدلالة على التغيير.

فلما رأيت اللغة على ما أريتك من الحاجة إليها لمكان التعبير عما نتصوره وتشتمل عليه أنفسنا وخواطرنا، أحببت أن أجرِّد فيها كتابًا يجمع ما تنشَّر من أجزائها شعاعًا وتنثَّر من أشلائها حتى قارب العدم ضياعًا، ولا سيما هذه اللغة المكرمة الرفيعة المحكمة البديعة، ذات المعاني الحكيمة المرهفة والألفاظ اللدنة القويمة المثقَّفة، مع كون بعضها مادة كتاب الله تعالى الذي هو سيِّد الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ا.هـ.

ثم ذكر ابن سيده أن القدماء ألَّفوا في هذه اللسان الفصيحة كتبًا أورثوا فيها علومًا جمَّة نفيسة، ولكن وجد ذلك نشرًا غير ملتئم؛ إذ كان لا كتاب نعلمه إلَّا وفيه من الفائدة ما ليس في صاحبه، وقال إنه لم يَرَ لهم فيها كتابًا مشتملًا على جلِّها فضلًا عن كلها، وأن المؤلفين فيها حرموا الارتياض بصناعة الإعراب، فلا يبينون ما قلبت فيه الألف عن

الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء، ولا يحدُّون الموضع الذي انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك، ولا يميِّزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان، وذلك كجذب وجبذ، ويئس وأيس، ورأى وراء، ولا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز، ولا يفرِّقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسَّر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع، وغير ذلك؛ مما حمله على جمع كتاب مشتمل على جميع ما سقط إليه من اللغة إلا ما لا بال به، وأن يضع على كل كلمة قابلة للنظر تعليلها ويُحكم تفريعها وتأصيلها، وإن لم تكن الكلمة قابلة لذلك وضعها على ما وضعوه وتركها على ما ودعوه.

قال: ولم تزل الأيام به عن هذا الأمل قاطعة بما يستغرق زمنه من جواهد الأشغال، ويأتُر متن قوته من لواهد الأعباء والأثقال حتى نفذ ما لوى من عنانه إليه، وهو أمر الموفَّق الملك الأعظم والهمام الأكرم، يريد به أبا الجيش الموفَّق العامري الذي كان استولى على الجزائر الشرقية وعلى مرسية ونواحيها، وأثنى عليه ثناءً جمًّا وقال: إنه أحيا ميِّت الفضل، وأقام مُنآد السياسة بالعدل، وملأ الخافقين ذكره أرجًا، وعمَّ قلوب الثقلين حبه لهجًا.

ولما كان الملك الموفق المشار إليه ذا ملكة ذكرها المؤرخون في العلم والفضل ومادَّة اعترف له بها المعاصرون من جهتي العقل والنقل أشار ابن سيده إلى ذلك فقال: إنه لما شرح الله صدره لقبول مشروعه، وتصفَّح هذا اللسان العربي فرأى العلم به معينًا على جميع العلوم عامة وعلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه خاصة، أراد حصر ما حكَت منه ثقات الأئمة، وتأمَّل ما صنَّفته أعيان رواتهم ومشاهير ثقاتهم، فجلت له دقة نظره عن مثل ما جلت لابن سيده من أنهم لم يضعوا في اللغة كتابًا جامعًا، ولا أبانوا موضوعات الأشياء بحقائقها، ولا تحرَّزوا من سوء العبارة وإبانة الشيء بنفسه وتفسيره بما هو أغرب منه، وأنه تأمَّل فوجد غير ابن سيده لا يقوم بهذا العمل، وقال هذا القول في حق نفسه: «وكلًّا عجم؛ فوجدني أعتق تلك القداح جوهرًا، وأشرفها عنصرًا، وأصلها مكسرًا، وأوفرها قسمًا، وأعلاها عند الإجالة اسمًا، فأهَّلني لذلك واستعملني فيه، وأمرني باللزوم له والمثافنة عليه بعد أن هداني سواء السبيل إلى علم كيفية التأليف، وأراني كيف توضع قوانين التصريف، وعرَّفني كيف التخلُّص إلى اليقين عند تخالج الأمر لما يعترض من الظنون من تعاضد وتعاند، وعقد عليَّ في ذلك إيجاز القول وتسهيله وتقريبه من الأفهام بغاية ما يمكن؛ فدعا مني إلى كل ذلك سميعًا وأمر به مطيعًا.»

ومهما يكن ابن سيده مبالغًا في بيان معارف الملك الموفَّق مجاهد العامري على عادة علماء كل عصر في إطراء ملوكهم، فلا شك في أن لذلك أصلًا أصيلًا، وأن الملك الموفق مجاهدًا العامري كان ملكًا عالمًا جليلًا. ثم ذكر ابن سيدَه بعض فضائل المخصص فقال: إن منها تقديم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص، والإتيان بالكليات قبل الجزئيات، والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض، وتقديم كم على كيف، وشدَّة المحافظة على التقييد والتحليل. قال: مثال ذلك ما وصفته في صدر هذا الكتاب حين شرعت في القول على خلق الإنسان، فبدأت بتنقُّلِه وتكوُّنه شيئًا فشيئًا، ثم أردفت بكلية جوهره، ثم بطوائفه، وهي الجواهر التي تأتلف منها كليته، ثم ما يلحقه من العِظَم والصغر، ثم الكيفيات كالألوان إلى ما يتبعها من الأغراض والخصال الحميدة والذميمة. ا.هـ.

وقال إنه كان قد صنَّف كتابه المحكم مجنسًا ليدل الباحث على مظنَّة الكلمة المطلوبة، فأراد هذه المرة أن يعدل به كتابًا يضعه على الأبواب؛ أي على المواضيع؛ لأنه رأى ذلك أجدى؛ فإنه إذا كانت للمسمَّى أسماء كثيرة وللموصوف أوصاف عديدة تنقَّى الخطيب والشاعر منها ما أراد، واتسعا في ما يحتاجان إليه من سجع أو قافية على مثال البساتين تجمع أنواع الرياحين، فإذا دخلها الإنسان أهوت يده إلى ما استحسنته حاستا نظره وشمِّه. وقال على المصنفين في اللغة قبله إنهم إذا أعوزتهم الترجمة لاذوا بأن يقولوا «باب نوادر»، وربما أدخلوا الشيء تحت ترجمة لا تُشاكله.

ثم عاد فأثنى على كتابه كما كان قد أثنى في صفحة سابقة على نفسه؛ مما يؤخذ دليلًا على أن بعض الأئمة لم يستنكفوا عن تبيين محاسن آثارهم، وقد رأينا طائفةً منهم يتحدثون بنعم الله، ويذكرون ما آتاهم الله من فضله، وربما ترجموا أنفسهم بأقلامهم، وذلك مثل الإمام السيوطي، وياقوت الحموي في معجم الأدباء، ولسان الدين بن الخطيب، والحافظ بن حجر، وابن شامة، وغيرهم، ومن الأدباء ابن الأثير صاحب المثل السائر، وابن حجة الحموي صاحب خزانة الأدب، وغيرهما.

والخلاصة أنه قال: وكتابنا من كل ذلك بحيث الشمس من العيب والنجم من الهرم والشيب. ومن طريف ما أودعته إياه بغاية الاستقصاء ونهاية الاستقراء وإجادة التعبير والتأنُّق في محاسن التحبير المدود والمقصور والتأنيث والتذكير، وما يجيء من الأسماء والأفعال على بناءين وثلاثة فصاعدًا، وما يبدل من حروف الجر بعضها مكان بعض. ا.هـ.

ثم ذكر من محاسن تأليفه إضافة الجامد إلى الجامد، والمنصرف إلى المنصرف، والمشتق إلى المشتق، والمرتجل إلى المرتجل، والمستعمل إلى المستعمل، والغريب إلى الغريب،

والنادر إلى النادر. وذكر ابن سيده الكتب التي أخذ عنها مثل كتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات، وكتاب يعقوب في النبات، وكتب أبي حاتم في الأزمنة وفي الحشرات وفي الطير، وكتب الأصمعي في السلاح وفي الإبل وفي الخيل، وكتاب أبي زيد في الغرائز والجرائم. وقال إنه أخذ أيضًا عن المصنف وغريب الحديث لأبي عبيد، وكتب يعقوب كالإصلاح والألفاظ والفرق والأصوات والزبرج والمكنى والمبني والمد والقصر ومعاني الشعر، وكتابيْ ثعلب الفصيح والنوادر، وكتب الفراء، والمبرِّد، وكراع، والنضر، وابن الأعرابي، واللحياني، وابن قتيبة. وقال إنه أخذ من الكتب المجنسة؛ أي المرتبة على حروف الهجاء؛ كالجمهرة والعين، وكتاب البارع لأبي علي القالي، والزاهر لأبي بكر الأنباري، وكتاب سيبويه، وكل ما سقط إليه من كتب أبي علي الفارسي؛ كالإيضاح والحجة والإغفال، ومسائله المنسوبة كالحلبيات والقصريات والبغداديات والشيرازيات، وكتاب أبي سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه، وكتب أبي الفتح بن جِنِّي؛ مثل التمام والمعرب والخصائص وسر الصناعة والمتعاقب، وشرح شعر المتنبي، وتفسير شعر الحماسة، وكتب أبي الحسن بن الرمَّاني، وهي الجامع في تفسير القرآن والمبسوط في كتاب سيبويه، وشرح موجز أبي بكر بن السريِّ.

قال وإنه أودع المخصص كتابه هذا ما لم يسبق إليه من تعاريف المنطق، ورد الفروع إلى الأصول، وحمل الثواني على الأوائل، وكيفية اعتقاب الألفاظ الكثيرة على المعنى الواحد، وقصد من الاشتقاق أقربه إلى الكلمة المشتقة وأدلَّه عليها بقولٍ بليغٍ شافٍ، وقد وجد في ذلك اختلافًا كثيرًا، فإما اقتصر على أصحِّه عنده وإما ذكر اختلافهم. قال: وهو مع ذلك لا يدَّعي الإحاطة؛ فالله وحده هو الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا، لكنه أعمل في ذلك الاجتهاد، فإن كان قد أصاب فهو ما إليه قصد، وإن تكن الأخرى فقد قيل: إن الذنب عن المخطئ بعد التحرِّي موضوع، وقال: إنه ربما وقعت أثناء كتابي هذا كلمة متغيرة عن وضعها؛ فإن كان ذلك فإنما هو موقوف على الحَمَلَة ومصروف إلى النَقَلَة؛[٢٤] لأني وإن أمليته بلساني فما خطَّته بناني، وإن أوضعت في مجاريه فِكَري فما أرتعت فيه بصري.[٢٥] مع أني لا أتبرأ أن يكون ذلك قِبَلي، وأن يكون موضعًا قد ألوى فيه بثباتي زللي، فإن ذوات الألفاظ لا تؤخذ بالقياس ولا يستدل عليها بالعقل والإحساس، إنما هي نغم تقيَّد وكلم تسمع، فتقلد هؤلاء أهل اللغة حَمَلَتُها وحماتها ونقلتها ورواتها مشافهو الفصحاء ومُفَاوِهُو الصرحاء الأصمعي، والمفضَّل، وأبو عبيدة الشيباني، قد غلطوا بأشياء تسكعوا منها في عمياء هذا ولا يعرفون علمًا سواها ولا يتحمَّلون من العلوم شيئًا خلاها،

فكيف بي مع تأخر أواني وبُعد مكاني ومصاحبتي للعجم وكوني من بلادي في مثل الرجم.[٢٦] ا.هـ.

ولعمري ليس في هذا ما يعترض عليه؛ فالخطأ لا يسلم منه أحد من العالمين؛ قال الله تعالى: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، ولكن بالرغم من جلالة قدر ابن سيده في اللغة، وأنه البحر الذي لا تنزحه الدِّلاء، وأن الإنسان حقيقٌ بأن يتحدَّث بما منَّ الله عليه من نعمٍ وآلاء يستهجن منه أن يقول في مقدمة المخصص مثل هذه العبارة: «ضمنته ما يدل على تقدمي في جميع أبواب الأدب كالنحو، والعروض والقافية، والنسب، والعلم بالخبر، إلى غير ذلك من العلوم الكلامية، التي بها بدأ أبذُّ المؤلفين، وأشذُّ عن المصنِّفين.» فإنه لا يمتنع أن يكون قوله هذا في ذاته صحيحًا، ولكن يكون أكمل لو تجنَّب ذكره وتجانف عن تزكية نفسه بنفسه، لا سيما أن المخصص تستغني حاله عن الإشادة به، وهو مما يقال فيه عينه فراره، وكفى بمطالعته تعظيمًا لقدره. وما أطلنا هذه الإطالة في الكلام على ابن سيده ومخصصه إلَّا تنبيهًا لناشئة العرب وطلاب العربية على ما في هذا الكتاب من الكنوز المدفونة واللآلئ المكنونة التي تعوزهم في التعبير عن المعاني الكثيرة التي جدَّت في زمانهم، وضاقوا في الإبانة عنها ذرعًا بقلة حفظهم وعدم اعتمادهم على أمهات العربية، كالمخصَّص وما في ضربه.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بيبش[٢٧] المفتي، أخذ عن أبي جعفر بن مغيث، وأبي المطرف بن سَلَمَة، وغيرهما، وتوفي بمرسية سنة ٤٨٤، قاله ابن بشكوال.

وأبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني، من أهل مرسية، سمع من أبي حفص الهوزني وغيره، وكان مفتيًا في الأحكام، حدث عنه ابنه عبد الله، وتوفي بمرسية سنة ٤٩٤، ذكره ابن بشكوال في الصلة، وقد تقدَّمت ترجمة ابن أبي محمد عبد الله الذي انتقل إلى سبتة، وتوفي بقرطبة سنة ٥٣٨.

وأبو عبد الرحمن محمد بن إسحاق بن طاهر، من أهل مرسية، روى عن أبي الوليد بن ميقل، وأجاز له ما رواه، وكانت له عناية ورواية. قال ابن بشكوال في الصلة: وقد أخذ عنه بعض أصحابنا، وتوفي ببلنسية، وسيق إلى مرسية ميتًا، ودفن بها سنة ٥٠٨.

وأبو القاسم محمد بن هشام بن أحمد بن وليد الأموي، روى ببلده مرسية عن أبي علي بن محمد الصدفي، وصحب أبا محمد بن أبي جعفر الفقيه، وتفقه به، وأخذ بقرطبة عن أبي محمد بن عتاب وغيره، قال ابن بشكوال: وكان من أهل الحفظ والعلم والمعرفة

والذكاء والفهم، واستقضي بغرناطة فنفع الله به أهلها؛ لصرامته ونفوذ أحكامه وجمود يده وقويم طريقته، وتوفي — رحمه الله — بمرسية صدر رمضان المعظم سنة ٥٣٠.

وأبو عبد الله محمد بن موسى بن وضَّاح، من أهل مرسية، أخذ عن أبي علي الصدفي كثيرًا، وله رحلة إلى المشرق حجَّ فيها، ولقي أبا بكر الطرطوشي وابن مشرف وغيرهما. وكان فاضلًا عفيفًا معتنيًا بالعلم، قال ابن بشكوال في الصلة: كتب إلينا بإجازة ما رواه بخطه، وشُووِرَ بالمرية، وتوفي — رحمه الله — في سنة ٥٣٩.

وأبو الوليد هشام بن أحمد بن عبد العزيز بن وضَّاح، من أهل مرسية، روى عن أبي الوليد بن ميقل، وأبي عبد الله بن نبات، وأبي عمر الطلمنكي، وغيرهم، روى الناس عنه، وكان ثقةً فاضلًا، توفي سنة ٤٦٩، ذكر وفاته ابن مدير، قال ابن بشكوال في الصلة: أخبرنا عنه أبو محمد بن أبي جعفر الفقيه وغيره من شيوخنا — رحمهم الله.

وأبو موسى هارون بن سعيد، من أهل مرسية وصاحب صلاتها وخطيبها، روى عن أبي محمد الأصيلي، وروى عنه أبو عبد الله بن عابد، وقال: كتبت عنه من خطبه ومن غرائب روايته. ذكره ابن بشكوال في الصلة.

وأبو الحسين يحيى بن إبراهيم بن أبي زيد اللواتي، يعرف بابن البياز، من أهل مرسية، روى عن أبي محمد مكي بن أبي طالب، وأبي عمرو المقري، ورحل إلى المشرق، وحج، ولقي عبد الوهاب القاضي بمصر، وأخذ عنه كتاب التلقين من تأليفه، وعمِّر وأسَن، قال ابن بشكوال: وسمعت بعضهم يضعِّفه وينسبه إلى الكذب، وأنه ادَّعى الرواية عن أقوامٍ لم يلقَهم، ويشبه أن يكون ذلك في وقت اختلاطه، والله أعلم؛ لأنه اختلط في آخر عمره. قال: وقرأت بخط القاضي محمد بن عبد العزيز شيخنا: توفي أبو الحسين المقري — رحمه الله — بمرسية يوم السبت بعد صلاة العصر لثلاث خلون من المحرم، ودفن يوم الأحد عند صلاة العصر سنة ٤٩٦، ومولده سنة ٤٠٦.

وأبو أيوب يعقوب بن موسى بن طاهر بن أبي الحسام، روى عن أبي الوليد بن ميقل، وبقرطبة عن أبي عبد الله بن عتاب، وحاتم بن محمد، وأبي عمر بن القطان، وكان فقيهًا حافظًا متفننًا مفتيًا ببلده مرسية، قال ابن بشكوال: توفي في صفر سنة ٤٦١، ذكره ابن مدير.

وأبو علي حسن بن عبد الرحمن بن محمد الكناني المرسي، يعرف بالرَّفَّاء، أخذ القراءات عن أبي محمد الشمُنتي، وسمع من أبي عبد الله بن حميد، ولقي ببلنسية أبا عبد الله بن نوح، وأبا بكر عتيق بن القاضي، وأخذ عنهما. قال ابن الأبَّار في التكملة:

لقيته غير مرة، وكان أديبًا صاحب مقطَّعات وتذييلات حسنة، مشاركًا في العربية وعلم العروض، فكه المجلس، حسن الخلق، توفي سنة ٦٣٣.

وأبو الحسن بن عزيز المقري، من أهل مرسية، أخذ عنه القاضي أبو عبد الله بن سعادة، ووصفه بالفضل والصلاح، وقال: قرأت عليه مدة كتاب الله تعالى بطريق التجويد وضبط الرواية، وكان أضبط من لقيته للقراءات، وأحسنهم لها تجويدًا، وأعلاهم رواية، ذكره ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو الحسن بن ميمون المقري، من أهل مرسية، أخذ عن أبي محمد بن سهل، وتصدَّر للإقراء، وأُخذ عنه، ومن جملة من أخذ عنه أبو القاسم بن فتحون، ذكره ابن الأبَّار نقلًا عن ابن عيَّاد.

وحبيب بن سيد الجذامي، من أهل «بُقْسرط» عمل مرسية، وصاحب الصلاة بها، كان من خيار الناس وصلحائهم، موصوفًا بالزهادة والانقطاع. وهو الذي صلَّى على أبي عمر بن عفيف عند وفاته بلورقة في شهر ربيع الآخر سنة ٤٢٠، ذكره ابن الأبار في التكملة، وقال: إن ابن بشكوال أغفله، وقد أورد كثيرًا من صنفِهِ.

وأبو مروان خطَّاب بن أحمد بن موسى بن خطاب الغافقي، من أهل «موله» عمل مرسية، سمع بقرطبة من أبي عبد الله بن أصبغ، وأبي بكر بن العربي عند انتقاله إليها، ومن أبي مروان بن مسرَّة، وأبي مروان بن قزمان وغيرهم، وعني بسماع الحديث، وكتب بخطه كثيرًا، وكان حسن الوراقة والتقييد، فقيهًا مشاورًا، ذكره ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو الحكم رشيد، مولى القاضي أبي أميَّة بن عصام، روى عن القاضي المذكور، وعن أبي علي الصدفي، وشريح بن محمد، وأبي الحسن بن هذيل، وأبي الوليد بن الدبَّاغ، وكان حسن الخط معنيًّا بالرواية، ذكره ابن الأبَّار في علماء مرسية.

وأبو رجال بن غلبون الكاتب، أخذ ببلده مرسية عن أبي جعفر بن وضَّاح، ورحل إلى أبي إسحاق بن خفاجة الشاعر المشهور فحمل عنه ديوان شعره. وكان أديبًا بليغًا ناظمًا ناثرًا، تأدب به أبو بحر صفوان بن إدريس، ترجمه ابن الأبَّار في التكملة، وقال: أخذ عنه شيخنا أبو الربيع بن سالم، وقال: أذِن لي في التحديث عنه بشعر ابن خفاجة، وتوفي ابن غلبون هذا ليلة الخميس الثاني عشر لذي الحجة سنة ٥٨٩.

وأبو زكريا الحصَّار المقري المرسي، يروي عن أبي الحسين بن البيَّاز، وأبي الحسن بن شفيع، أخذ عنه أبو عبد الله بن تحيًّا المرسي، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو الحسن زيادة الله بن محمد بن زيادة الله الثقفي، يعرف بابن الحلَّال، وقد تقدَّمت ترجمة اثنين من هذه العائلة، سمع من أبي الوليد بن الدبَّاغ، وأجاز له أبو بكر

بن أسود، وأبو بكر بن العربي، وتفقه بشيوخ بلده مرسية، وتولى خطة الشورى فيها، واستقضاه أخوه أبو العباس بمدينة بلنسية، فتولى ذلك محمودَ السيرة، توفي بمرسية سنة ٥٥٢، قاله ابن سفيان. وقال ابن عيَّاد: توفي في جمادى الأولى سنة ٥٤٨، ورجَّح ابن الأبَّار رواية ابن عيَّاد.

وأبو القاسم الطيِّب بن محمد بن الطيِّب بن الحسين بن هرقل العتقي الكناني، سمع ابن حبيش وأكثر عنه، وتفقه بأبي بكر بن أبي جمرة، وكتب إليه ابن بشكوال، والسهيلي، وابن الفخَّار، وابن مضاء، وأبو بكر بن جُزَيٍّ البلنسي، وغيرهم، وكان من أهل المعرفة الكاملة والنباهة مع المشاركة في الأدب، وتقدم أهلَ بلده مرسية رئاسةً ورجاحة. قال ابن الأبَّار: رأيته في رمضان سنة ٦١٦ ولم آخذ عنه شيئًا، وأخذ عنه أصحابنا، وتوفي وأنا بثغر بطليوس ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦١٩، أفادني ذلك أبو عمرو بن عيشون صاحبنا. ومولده سنة ٥٥٦ أو نحوها، عن ابن سالم.

ومحمد بن وليد بن مروان بن عبد الملك بن أبي جمرة، من أهل مرسية، حدَّث عن أبيه بالمدوَّنة لسحنون، وحدَّث عنه ابنه وليد بن محمد، ذكره ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو بكر محمد بن علي بن خلف، يعرف بابن طرشميل، أخذ عن أبي الحسن بن سيده، وعلَّم بالعربية هو وأخوه أبو جعفر أحمد، وتوفي بمرسية سنة ٤٧٣ على رواية ابن حبيش، وقال ابن عزير وذكره وأخاه: توفي أسنُّهما — يعني محمدًا هذا — ببلنسية، ذكره ابن الأبَّار.

ومحمد بن عبد الملك بن علي بن نصير الغافقي، سمع من أبي علي الغسَّاني صحيحَ البخاري، وسمع من أبي علي بإشبيلية سنة ٤٩٦، ذكره ابن الأبَّار في التكملة.

وأبو بكر محمد بن أغلب بن أبي الدوس المرسي، روى عن أبي الحجَّاج الأعلم، وأبي الحسن المبارك بن الخشَّاب، وأبي علي الغسَّاني وغيرهم، وكان عالمًا بالعربية من أحسن الناس خطًّا وأصحِّهم نقلًا وضبطًا، وشُهر بالإقراء، وأدَّب الراضي يزيد والمأمون الفتح ولدي المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيلية. سكن المرية وقتًا، وأجاز البحر إلى المغرب فنزل مدينة فاس، واستقر أخيرًا بأغمات، وتوفي بمراكش سنة ٥١١، ترجمه ابن الأبَّار في التكملة، قال: وله شعر صالح.

وأبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلف بن عثمان العبدري، من أهل شنتمرية الشرق، سكن مرسية، كانت له رحلةٌ حجَّ فيها، وبعد صَدَره منها سمع من أبي علي الصدفي، قال ابن الأبَّار: وأبوه مسعود من شيوخ أبي علي المذكور.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن جُزيٍّ الضرير المرسي، لازم أبا علي الصدفي، وكان مقرئًا، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو بكر محمد بن عيسى بن محمد بن بقي الغافقي المرسي، روى عن ابن عتَّاب، وأبي بكر بن العربي، وأبي الأصبغ الزهري، وأبي عبد الله القلعي، وحدَّث عن جميعهم بالموطأ، روى عنه ابنه عبد الكبير بن محمد نزيل إشبيلية وغيره، قال ابن الأبَّار: ووجدت السماع منه في سنة ٥٢٩.

وأبو يحيى محمد بن علي بن أحمد بن جعفر من بيت نباهةٍ وأصالة من مرسية، سمع كثيرًا من أبي علي الصدفي، وكان متحريًا في التقييد حسن الخط، ذكره ابن الأبَّار.

ومحمد بن عبد الملك بن أحمد الطائي المرسي، كان بارع الخط أنيق الوراقة، روى عن أبي الحسن بن مغيث، وأبي إسحاق بن ثبات القرطبي، سمع منه سنة ٥٣٠، ذكره ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الواحد، من أهل مرسية، وأصله من ألش عملها، يعرف بابن التيَّان، ذكره السلفي، وقال: روى لنا عن أبي عبد الله بن الطلَّاع، وأبي علي الجيَّاني، وغيرهما، وهو من أهل المسائل والحديث، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مهلَّب الأسدي، من أهل مرسية، قال ابن الأبَّار: كان أديبًا كاتبًا، وله سماع من ابن الدباغ في سنة ٥٣٥ وقفت عليه، وكان من بيت روايةٍ وعنايةٍ بالحديث.

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن سعدون، من أهل مرسية، وصاحب الأحكام بها، كان عارفًا بالشروط. قال ابن الأبار: أخذ عنه شيخنا أبو بكر بن أبي جمرة وتدرب معه، وأجاز له ما رواه، وتوفي سحر ليلة السبت الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٣٦.

وأبو الحَكَم محمد بن يزيد بن سمحون، من أهل مرسية، سمع من أبي علي الصدفي، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد العتقي، من أهل مرسية، كانت له رحلةٌ حج فيها، وروى عن أبي بكر بن العربي، ذكره ابن الأبار، وقد تقدم لأناسٍ من هذه العائلة تراجم.

وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الخشني، يعرف بابن أبي جعفر، روى عن أبيه، وأخذ العربية عن أبي بكر بن الجزار، ولقي ابن الدباغ، وكان فقيهًا حافظًا قائمًا على المدونة في تدريسه، مستبحرًا في علم الرأي، حكي

عن أبي محمد بن محمد القُلنِّي أنه كان يُثني عليه ويقول: هو أفهم من أبيه، تفقه به أبو محمد بن عات، وأبو بكر بن أبي جمرة، وتولى قضاء بلده مرسية عند انقراض دولة المرابطين، ثم تأمَّر بمرسية، وكان يقول في قيامه بالإمارة: ليست تصلح بي ولست لها بأهل، ولكني أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهلًا. وتوجه إلى غرناطة في حرب فانهزم جيشه وقتل هو، وذلك في صدر سنة ٥٤٠، قيل: إنه لما قُتل لم يكن تجاوز خمسًا وثلاثين سنة، ترجمه ابن الأبار في التكملة. وآل الخشني بيتٌ مشهور في مرسية.

وأبو بكر محمد بن يوسف بن سليمان بن محمد بن خطاب القيسي، من سرقسطة، سكن مرسية، يعرف بابن الجزَّار، أخذ العربية عن أبي بكر بن الفرضي، وأبي محمد البطليوسي، وسمع الحديث من أبي علي الصدفي، وأبي محمد بن أبي جعفر، وقعد للتعلم بالعربية، وكان أديبًا كاتبًا شاعرًا، وجرت بينه وبين أبي عبد الله بن خَلَصَة مسائل في إعراب آيات من القرآن ظهر عليه فيها، وضمَّن ذلك رسالة أخذها عنه أبو عبد الله المكناسي في اختلافه إليه لقراءة النحو عليه، وقال: قُتل بناحية غرناطة سنة ٥٤٠، وذكره ابن عيَّاد وقال: أقرأ بمرسية، وحكى أنه أصيب مع أبي جعفر — وكان معلمه — وحُمل إلى غرناطة مثبتًا فمات بها، ومن الرواة عنه أبو محمد بن عات، وأبو العباس بن اليتيم. ذكر كل ذلك ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن زيادة الله الثقفي، يعرف بابن الحلَّال، وهو والد القاضي أبي العباس، سمع من أبي علي الصدفي الذي لا تُحصى تلاميذه في عصره بالأندلس، وكان ابن زيادة الله هذا شيخًا جليلًا فاضلًا عاقلًا معظمًا في بلده مرسية. توفي في ذي القعدة سنة ٥٤٦، نقل ابن الأبَّار تاريخ وفاته عن أبي عمر عيشون المرسي.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الوارث، كان من أهل العلم والدين، ووَلِّي الصلاة والخطبة بجامع بلده مرسية، فكان أخشع الناس في خطبته، وتوفي سنة ٤٤٧ بحسب رواية ابن عيَّاد. وقال ابن سفيان إنه توفي سنة ٤٤٥، ذكر ذلك ابن الأبار.

وأبو بكر محمد بن فتحون بن غلبون الأنصاري، من أهل مرسية، سمع من أبي علي الصدفي واتصل به. قال ابن الأبَّار: وهو قرابة لشيخنا أبي محمد غلبون بن محمد، وكان ذا عنايةٍ ورواية.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعد الفهري، يعرف بابن الصيقل، وكان يلقَّب أبا هريرة؛ لتتبُّعه الآثار وعنايته بها، أخذ عن أبي محمد بن أبي جعفر

الموطأ، وكتاب الملخَّص للقابسي، وانتفع كثيرًا بأبي الوليد بن الدبَّاغ، وسمع أبا بكر بن أبي ليلى، وأبا عبد الله بن وضَّاح، وكتب إليه كبار العلماء مثل أبي بكر بن أسود، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي الحسن شُريح، وأبي بكر بن العربي، وأبي محمد الرشاطي، وأبي القاسم بن ورد، وأبي الفضل بن عياض، وغيرهم من الأندلسيين، ومن أهل المشرق أبو طاهر السلفي، وأبو محمد العثماني، وأبو المظفر الشيباني. قال ابن الأبَّار في التكملة: وقيَّد كثيرًا على رداءة خطه فأفاد. قال: وفي هذا الكتاب من فوائده ما نَسَبتُه إليه، وتوفي بمرسية بلده بعد الخمسين وخمسمائة.

وأبو بكر محمد بن أحمد بن عصام، يعرف بابن اليتيم، ذكره ابن سفيان، وأثنى عليه ووصفه بالأدب والبلاغة، وقال: توفي ببلده مرسية سنة ٥٥٣، ذكر ذلك ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي العافية اللخمي، يعرف بالقسطلي؛ لأن أصله من القسطل التي ينسب إليها الشاعر ابن درَّاج، كان مدرِّسًا للفقه، صدرًا في أهل الشورى، جليلًا في بلده مرسية، عدلًا رضًا، معروفًا بالنزاهة، موصوفًا بالحفظ، تفقه به أبو عبد الله محمد بن سليمان بن بُرطُلُة Berthelot وغيره، وتوفي أول ذي الحجة سنة ٥٥٨، نقل ابن الأبَّار ترجمته هذه عن ابن سفيان وابن حبيش.

وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي، من أهل طرطوشة، سكن مرسية، وأصله من مدينة سالم بشمالي الأندلس؛ فلذلك كان يعرف بالسالمي، كان من أهل الأدب والعلم والتاريخ، وله كتاب اسمه «درر القلائد وغرر الفوائد»، قال ابن الأبَّار في التكملة إنه نقل عنه فيها، وله أيضًا في اللغة كتابٌ حسن وفي الطب كتاب اسمه الشفاء، وكتب للأمير محمد بن سعد، وكان له حظ من قرض الشعر، توفي سنة ٥٥٩.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن موسى بن سليمان الأزدي المرسي، يعرف بابن برطلة، سمع من أبي عبد الله بن سعادة، وتفقه بأبي عبد الله القسطلي، وأبي عبد الله بن عبد الرحيم، ولازم القاضي أبا العباس بن الحلَّال، وكان متقنًا لمسائل الفقه، معروفًا بالفهم مع الصون والعفاف، توفي قبل اكتهاله سنة ٥٦٣، روى ابن الأبَّار قال إن قريبه الخطيب أبا محمد ذكر له أن والد المترجم — وهو سليمان بن موسى الأزدي — ولِّي القضاء.

وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة مولى سعيد بن نصر مولى عبد الرحمن الناصر، من أهل مرسية، سكن شاطبة، ودار سلفه بلنسية، سمع أبا علي الصدفي — أستاذ الأندلس في وقته — واختُصَّ به، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق وأمَّهات

كتبه الصحاح لصهرٍ كان بينهما. وتفقَّه أيضًا بمحمد بن أبي جعفر، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع أعاظم العلماء كأبي محمد بن عتَّاب، وأبي بحر الأسدي، وأبي الوليد بن رشد، وأبي عبد الله بن الحاج، وأبي بكر بن العربي، وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني، وأبو الوليد بن طريف، وأبو محمد الركلي، وأبو محمد بن السيِّد، وغيرهم.

ثم رحل إلى المشرق سنة ٥٢٠، فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر الميورقي، وصحبه، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام، وحج سنة ٥٢١ فلقي بمكة أبا الحسن رزين العبدري إمام المالكية بها، وأبا محمد بن غزال من أصحاب كريمة المروزية، وروى عن أبي الحسن بن سند بن عيَّاش الغسَّاني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصنيفه. ثم انصرف المترجَم إلى ديار مصر فلازم ابن نادر الميورقي في الإسكندرية إلى حين وفاته، ولقي أبا الطاهر بن عوف، وأبا عبد الله بن مسلم القرشي، وأبا طاهر السلفي — محدِّث الدنيا في وقته — وأبا زكريا الزناتي، وكان قد كتب إليه من الإسكندرية أبو بكر الطرطوشي، وأبو الحسن بن مشرَّف الأنماطي، ولقي في صَدَره إلى المغرب بالمهديَّة أبا عبد الله المازري، فسمع منه بعض كتاب «المعلم» وأجاز له الباقي.

وكان إيابه إلى مرسية سنة ٥٢٦، ووليِّ خطة الشورة بمرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها، وأخذ في التحديث، وتدريس الفقه، ثم ولِّي القضاء بمرسية بعد انقراض دولة المرابطين أو الملثَّمين. ثم نقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطنًا، وكان يسمع الحديث بشاطبة وبمرسية وبلنسية، ويقيم الخطبة أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبًا عليها. وقد حدَّث بمرسية وهنالك أبو الحسن بن موهب، وأبو محمد الرشاطي، وألَّف كتاب «شجرة الوهم المترقية إلى ذروة الفهم» لم يسبق إلى مثله وليس له غيره.

قال ابن الأبَّار في التكملة عنه ما محصله: كان عارفًا بالسنن والآثار، مشاركًا في علم القرآن وتفسيره، حافظًا للفروع، بصيرًا باللغة والغريب، ذا حظ من علم الكلام، مائلًا إلى التصوُّف، أديبًا بليغًا خطيبًا فصيحًا، ينشئ الخطب مع الهدي والوقار والحلم وجميل الشارة، محافظًا على التلاوة، بادي الخشوع، راتبًا على الصوم.

وذكره ابن عيَّاد ووصفه بالتفنُّن في المعارف، والرسوخ في الفقه وأصوله، والمشاركة في علم الحديث وفي الأدب، وقال: كان صليبًا في الأحكام، مقتفيًا للعدل، حسن الخلق والخلق، جميل المعاملة، ليِّن الجانب، فَكِه المجالسة، ثبتًا، حسن الخط، من أهل الإتقان والضبط، كانت عنده أصول حسان بخط عمه مع الصحيحين بخط الصدفي في سفرين، قال: ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها وإتقانها وجودتها، ولا كان فيهم من

رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه، وذكره ابن سفيان أيضًا، وأبو عمر بن عات، ورفعوا جميعًا بذكره.

وقال القاضي أبو بكر بن مفوَّز: كان حسن التقييد والضبط، ثقةً مأمونًا في ما حمل ونقل، سمعت القاضي محمد بن عاشر يقول يوم موته: رحم الله أبا عبد الله، كان من أهل العلم والعمل، أو كان عنده العلم والعمل، وتوفي بشاطبة مصروفًا عن قضائها في منسلخ ذي الحجة سنة ٥٦٥، ودفن أول يومٍ من سنة ٥٦٦. قال ابن الأبَّار: وقرأت بخط شيخنا أبي الخطاب بن واجب أنه توفي ليلة الاثنين، ودفن يوم الاثنين أول يومٍ من محرم سنة ٥٦٦ بالروضة المنسوبة إلى أبي عمر بن عبد البر، ومولده بمرسية في رمضان سنة ٤٩٦.

وأبو بكر محمد بن عبيد الله بن عفَّان الغافقي، من أهل مرسية، كان يسكن الحمَّة من أعمالها، وكان حافظًا للفقه، عارفًا بالمسائل وبالاتفاق والاختلاف، مشاركًا في غير ذلك من أدبٍ ونسبٍ وسواهما، ذكره ابن سفيان وقال: توفي سنة ٥٦٦، وترجمه ابن الأبَّار.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد الأزدي، يعرف بابن عسكر، كانت له رحلةٌ حجَّ فيها وسمع «الشهاب» للقضاعي من أبي القاسم بن الفحَّام عنه، وقفل فحدَّث به، ذكره ابن الأبَّار ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي، من أهل مرسية ورئيسها في الفتنة، تفقَّه ببلده عند أبي جعفر بن أبي جعفر، ورحل إلى قرطبة فلقي أبا مروان بن مسرَّة وطبقته، وسمع من أبي الوليد بن الدبَّاغ، وأبي القاسم بن ورد، وأبي محمد بن عطية، وأبي بكر بن برنجال، وأجاز له ابن العربي وغيره، وكان يذهب في جميع ما يحمله إلى الدراية. ثم طالع العلوم القديمة؛ أي الفلسفية، فبرَّز فيها وصار إمامًا من أئمتها، ورأس بمرسية يسيرًا بعد انقراض دولة الملثمين. قال ابن الأبَّار: ثم تخلَّى عن ذلك وتلوَّن للناس رغبةً في السلامة، وتوفي بمراكش سنة ٥٧٤، عن ابن سفيان. ا.هـ. وقد ورد ذكر بني طاهر هؤلاء في تاريخ مرسية للمؤلف الإسباني مما تقدم ترجمته.

وأبو عبد الله محمد بن رافع بن محمد بن حسن بن رافع القيسي، من أهل مرسية، سمع أبا القاسم بن حبيش واختص به، وأبا محمد بن عبيد الله، وأبا عبد الله بن حميد، وأبا عبد الله بن مالك المُولي (نسبة إلى مولة من ملحقات مرسية)، وتفقه بأبي عمر

البشيجي، وأخذ العربية عن أبي جعفر أحمد بن مفرِّج المَلَّاحي، وأجاز له أبو القاسم بن بشكوال وغيره، وكان حسن المشاركة في علم القرآن والعربية له عناية بالحديث، وكان من أكرم الناس خلقًا وأجملهم سمتًا، وتولَّى القضاء بمولة، ولما جرت هزيمة الأذفونش بن شانجه في وقعة الأرك على مقربةٍ من قلعة رباح في تاسع شعبان سنة ٥٩١، وكانت هزيمة متناهية في النكاية ظهر فيها المسلمون ظهورًا عظيمًا على الإسبانيين الذين زحفوا بأعظم جيشٍ وقتئذٍ، قيل خمسة وعشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل، وكان معهم جماعات من تجار اليهود قد جاءوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدوا لذلك أموالًا؛ فخابت آمالهم، وحاز الموحدون جميع ما احتوت عليه محلة النصارى.

قلنا: لما جرت تلك الهزيمة على الإسبان ذهبت وفود المسلمين لتهنئة أمراء الموحدين في إشبيلية بهذه البطشة الكبرى — التي كانت آخر بطشة من نوعها لمسلمي الأندلس — وكان أبو عبد الله محمد بن رافع في وفد مرسية، فبعد وصوله إلى إشبيلية توفي إلى رحمة ربه، وذلك في ذي الحجة سنة ٥٩١، ومولده سنة ٥٥٤، ذكر هذا ابن الأبَّار.

وأبو بكر محمد بن محمد بن الطيِّب بن الحسين بن هرقل العتقي، من أهل مرسية، سمع أبا القاسم بن حبيش، وأبا عبد الله بن حميد وغيرهما، ووليِّ القضاء في مواضع عدة من كور مرسية، وولي قضاء شاطبة فاستعفى وأعفي، وتقدَّم للخطبة في جامع مرسية، وكان حسن السمت معروفًا بالعدالة متقدِّمًا بين أهل بلده، وهو أخو أبي القاسم الطيِّب بن محمد وكبيره. توفي يوم السبت ٢٨ رجب سنة ٥٩٤ وقد نيَّف على الأربعين، قاله ابن الأبَّار.

ومحمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن محمد بن وليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن خطَّاب بن عبد الجبَّار، قال ابن الأبَّار في التكملة: هكذا وجدت نسبته بخط يده، وكثيرًا ما يختصره فيقول بعد عبد الملك الثالث: «ابن أبي جمرة»، وعبد الجبَّار هذا هو ابن خطَّاب بن مروان بن نذير مولى مروان بن الحكم. ومحمد بن مروان هو أبو جمرة ومنتماهم في الأزد من أهل مرسية.

وكان المترجم يكنى أبا بكر، سمع من أبيه كثيرًا، وتفقَّه به وبقريبه أبي القاسم محمد بن هشام بن أحمد بن وليد، وبالقاضي أبي بكر بن أسود، قرأ عليه تأليفه في تفسير القرآن، وقرأ على أبي محمد بن أبي جعفر الخشني، وأخذ عن أبي عامر بن شرويَّة خطبة مناولة، وسمع منه الحديث المسلسل في الأخذ باليد. واستجاز له قريبه أبو القاسم محمد بن هشام علماء ذلك العصر، كأبي الوليد بن رشد، وأبي بحر الأسدي،

واستجاز هو لنفسه أبا القاسم بن ورد، وأبا بكر بن العربي، وأبا الحسن شريح، وأبا محمد الرشاطي، وأبا الفضل بن عياض، وهذه الطبقة العليا، ومن غير الأندلسيين أبا عبد الله المازري، وأبا طاهر السلفي محدث الدهر، ولقي أبا محمد عبد الحق بن عطية في قصده مرسية.

قال ابن الأبَّار: وصدَّه حينئذٍ عن دخولها وماشاه في طريقه وناوله تأليفه في التفسير، وأذن له في الرواية عنه، ولقي أيضًا أبا الحسن بن هذيل، وأبا الوليد بن الدبَّاغ، وأبا بكر بن رزق، وأبا الحسن بن النعمة، وأبا عبد الله بن سعادة، وأبا بكر بن الجد، فأخذ عنهم وأجازوا له إلَّا ابن هذيل وابن النعمة منهم. وسمع من أبي إسحاق إبراهيم بن صالح المقرئ كتابَ الشهاب ومسنده للقضاعي، وناظر في المسائل عند أبي جعفر بن أبي جعفر أعوامًا، وتدرَّب مع أبي محمد عاشر بن محمد، وسمع منه جملة من تأليفه الكبير في شرح المدوَّنة، ومع أبي عبد الله محمد بن يحيى بن سعدون وأجازوا له، وعني بالرأي وحفظه، ووليِّ خطة الشورى وسنه لا يزيد على إحدى وعشرين، وقُدِّم للفتيا مع شيوخه في تاسع ذي الحجة سنة ٥٣٦ أيام تأمر ابن أبي جعفر. ثم جدَّد له الأمير محمد بن سعد تقديمه إلى خطة الشورى، وأول من شاوره من القضاة أبو الحسن سليمان بن موسى بن برطلة؛ فظهرت براعته في أول قضية.

ونصُّ تقديم ابن أبي جمرة للشورى عن أبي جعفر: هذا كتاب تنويه وترفيع، وإنهاض إلى مرقًى رفيع، أمر بكتبه الأمير الناصر للدين أبو جعفر بن أبي جعفر — أدام الله تأييده ونصره — للوزير الوجيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل أبي بكر بن أبي جمرة — أدام الله عزه — أنهضه به إلى الشورى؛ ليكون عندما يقطع بأمر أو يحكم في نازلة يجري الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه؛ لما علمه من فضله وذكائه، وجده في اكتساب العلم واقتنائه؛ ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة متوارَثة عن أسلافه الكريمة وآبائه؛ فليتحمَّلْها تحمُّل المستقل بأعبائها، اللَّحِن[٢٨] بأنبائها، العالم بمقاصدها المتوخاة المعتهدة وأنحائها، والله يزيده تنويهًا وترفيعًا ويبوِّئه من حظوته وتمجيده مكانًا رفيعًا، وكتب في التاسع لذي حجة ٥٣٩ (الثقة بالله عز وجل) هذه علامة ابن أبي جعفر.

قال ابن الأبار: وتقلد قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وأوريولة في مُدَدٍ مختلفة، وامتُحن بآخرة من عمره في امتناعه من قضاء مرسية نفعه الله بذلك. وكان فقيهًا حافظًا بصيرًا بمذهب مالك، عاكفًا على تدريسه، فصيحَ اللسان، حسن البيان، عدلًا في أحكامه، جزلًا في رأيه، عريقًا في النباهة والوجاهة.

وله تواليف منها كتاب «نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار»، ألَّفه بعد الثمانين وخمسمائة عندما أوقع السلطان بأهل الرأي، وأمر بإحراق المدوَّنة وغيرها، وله كتاب «إقليد التقليد المؤدي إلى النظر السديد»، وغير ذلك، وبرنامجه المقتضب من كتاب «الإعلام بالعلماء الأعلام من بني أبي جمرة» و«الإنباء بأنباء بني خطاب» هو الذي وقفت عليه، وباختلاف نسخه وجد منافسوه السبيل إليه، فأنكروا علو رايته واستبعدوا إسناده وتعدوا ذلك إلى آبائه وتحديث بعضهم عن بعض، وأكثرهم من تلاميذ أبي القاسم بن حبيش، ولعل ذلك للتباعد الذي كان بينهما في الحياة، وإلا فهذا أبو عمر بن عياد، وله بحثٌ ونظر، وقوله عند من أدركناه معتبر، قد روى عنه وسمَّاه في مشيخته، على أنه كان أسن منه ثم توفي قبله، وما عرض له بما يُريب ولا نَحَله ما يُنكر، بل نص في ما قرأت بخط ابنه أبي عبد الله — وهو أيضًا ممن يحتج به في هذه الصناعة — على روايته عن أبي عبد الله المازري، وأبي بحر الأسدي، وأبي القاسم بن ورد وغيرهم، وقال متصلًا بهذا: لقيته وأنا صغير مع أبي بمرسية وجالسته، ثم لقيته بعد ذلك بزمن وحضرت مجلسه وتدريسه، واستجزته فأجازني جميع روايته، وكتب لي بذلك خط يده في سنة ٥٨٢، وحكي أنه استقُضي بالبلاد المتقدمة الذكر ودرَّس وشُووِر في الأحكام ببلده، قال: وهو كان رئيس المفتين به وأسمع الناس، وأُخذ عنه هذا آخر كلامه. ولم يكن هو ولا أبوه أبو عمر نعم ولا ابن حبيش ليدَّعو الإفصاح بحاله لو ارتابوا بمقاله إلى غير ذلك من كلام ابن الأبَّار في الدفاع عن آل أبي جمرة هؤلاء.

وقال: إن أبا الوليد بن الفرضي ذكر في تاريخه منهم عميرة بن محمد بن مروان بن خطاب، وذكر أيضًا منهم وليد بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن خطاب، وهو أخو مروان بن عبد الملك من جدود أبي بكر هذا، إلا أن ابن الفرضي قال في نسبه «العُتقي»، ونسب عميرة إلى ولاء مروان بن الحكم، وكذلك قال أبو بكر الرازي في كتاب «أعيان الموالي بالأندلس» من تأليفه. وقد ذكر في صدره عبد الجبار بن خطَّاب بن مروان بن نذير مولى مروان بن الحكم، قال: وقيل مولى معاوية بن مروان بن الحكم. والأكثر أنه مولى مروان بن الحكم، وإليه نسب باب المدينة الشرقي المعروف بباب عبد الجبار، يعني بقرطبة، وهو جد بني خطاب التدميريين، منهم مروان بن خطاب بن عبد الجبار بن خطاب بن مروان بن نذير. هذا ما أورد الرازي عند ذكرهم.

وفي تدمير جماعة من العتقيين، فلعل ابن الفرضي نسب وليدًا إليهم غلطًا منه، قال: والعتقاء جُمَّاع من حجر حمير ومن سعد العشيرة وكنانة مضر، فالتقول على هذا الشيخ

لا يؤثر عند حملة الآثار، ولا يقابلون المتعارف من حاله بالإنكار إلى ما عضده به من تقييد الوفيات والمواليد، وإن حكى شيخنا أبو الربيع بن سالم في كتاب الأربعين حديثًا من جمعه أنه ظهر منه في باب الرواية اضطراب طرَّق الظِّنَّة إليه، وأطلق الألسنة عليه، والله أعلم بما لديه، فقد أسند بعقب ذلك عنه عن أبيه عن أبي عمر بن عبد البر، وحدَّث أيضًا عنه عن أبي بحر الأسدي عن أبي الوليد الوقشي بمختصره لكتاب ابن حبيب في القبائل، وأجازه ابن أبي جعفر له، وكثير من خبره بخطه وجدته ومنه وعنه معوَّلًا عليه ومستندًا إليه قيدته، وفي ذلك ما لا يخفى على من تأمل، فإنه صحَّح من حيث علل.

ثم قال ابن الأبَّار: ولو اكتفينا بهذا وحده في إبطال تلك الأقوال لكفى وشفى إلى ما ينضاف إليه من رواية جلَّة شيوخنا عنه كأبي عمر بن عات، وأبي عبد الله الشوني. وسرد ابن الأبار أسماء بضعة عشر شيخًا من المشهورين، ثم قال: إنه توفي بمرسية مصروفًا عن القضاء ضحوة يوم السبت الموفي ثلاثين من المحرم سنة ٥٩٩، ودفن صلاة العصر من يوم الأحد بعده مستهلَّ صفر، ودفن بالبلاط الغربي من المسجد المنسوب إلى ابن أبي جعفر بإزاء داره. ومولده عشيَّ يوم الأربعاء الخامس لشهر ربيع الآخر سنة ٥١٢.

وأبو القاسم محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي المرسي، سمع من أبيه أبي العباس، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي بكر بن أبي ليلى، وأبي عبد الله بن الفرس، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وأجاز له أبو القاسم بن بشكوال، وصحب القاضي أبا الوليد بن رشد ولازمه بقرطبة، وأخذ عنه واستقضاه في غير ما جهة من قرطبة. ولم يزل ينهض به حتى ولي قضاء الجزيرة الخضراء، ومنها ولِّي قضاء شاطبة، ثم صرف عنه عند محنة أبي الوليد وتتبع أصحابه، ثم ولي قضاء دانية، قال ابن الأبَّار: وكان عالمًا متفننًا، أديبًا ماهرًا، ناظمًا ناثرًا، وقد سمع منه شيخنا أبو الربيع بن سالم يسيرًا وقال فيه: فاضل على الإطلاق، متقدم في نزاهة النفس وكرم الأخلاق، وأنشدني له صاحبنا أبو محمد بن أبي بكر الداني:

يا موقظ النفس علِّمَنْها ... ولا تَكِلها إلى الجهاله
فالنفس بدر والعلم شمسٌ ... والجهل فيها سواد هاله

مولده سنة ٥٥٠، وتوفي وهو يلي قضاء دانية في ربيع الأول سنة ٦٠١.

وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد المرادي، من أهل مرسية، أخذ عن أبي الحسن بن هذيل، وأبي عبد الله بن سعادة، وأبي بكر بن أبي ليلى، وأبي محمد بن عاشر،

وأبي عبد الله بن الفرس، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وأجازوا له جميع روايتهم إلا ابن أبي ليلى منهم. وكتب إليه أبو الحسن بن النعمة، وأبو القاسم بن بشكوال، وغيرهما، وكان خيِّرًا فاضلًا، أقرأ القرآن وأسمع الحديث وأخذ عنه الناس. قال ابن الأبار: وتوفي بمرسية نصف ليلة الجمعة الحادي والعشرين لرمضان سنة ٦٠٦، ودفن ببني محمد على مقربةٍ من مسجد إقرائه المنسوب إلى عبد العزيز بن غلبون جد شيخنا أبي محمد غلبون بن محمد بن عبد العزيز، ومولده سنة ٥٤٢.

وأبو عبد الله محمد بن أبي الخليل، من أهل مرسية، أخذ عن أبي عبد الله بن الفرس، وتفقه، وولي قضاء شاطبة، وكان له حظٌّ وافر من العربية وبصر بعقد الشروط ودربة بالأحكام، وقد أُخذ عنه، وتوفي يوم الأربعاء الرابع لصفر سنة ٦٠٧، ودفن لصلاة العصر من يوم الخميس بعده، ذكره ابن الأبَّار.

ومحمد بن محمد بن موسى بن تُحيًّا التجيبي، من أهل مرسية، أخذ القراءات عن أبي زكريا الحصَّار، وسمع من أبي عبد الله بن سعادة، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن الفرس، وتفقه به وبأبي العباس بن الأصفر، وأجاز له أبو الحسن بن هذيل، وأبو الحسن بن النعمة، وغيرهما، وولي قضاء أوريولة ثم قضاء ألش، وكان فقيهًا، مولده سنة ٥٣٢، وتوفي غداة الأربعاء الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ٦٠٧، ودفن لصلاة العصر من يوم الخميس بعده، ذكر ذلك ابن الأبار نقلًا عن ابن عيشون.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد التجيبي، من أهل مرسية، يعرف بالربَّاط، أقرأ القرآن، وكان صالحًا فاضلًا، روى عنه ابن المرابط، وذكره ابن الأبار.

وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي، سمع أباه، وأبا جعفر بن المضاء، وأبا محمد بن الفرس، وأجاز له أبو القاسم بن بشكوال، وأبو عبد الله بن الفخَّار، وأبو زكريا الدمشقي، وغير واحد من شيوخ أبيه. وكان من النجباء النبهاء، ولي الأحكام بمرسية وبقرطبة نيابةً عن أبيه، وكان كاتبه مدة قضائه، وتوفي يوم الأربعاء الثاني عشر لذي قعدة سنة ٦٠٧، ودفن ظهر اليوم المذكور، وثكله أبوه، نقل ابن الأبار ترجمته عن ابن سالم وابن عيشون.

وأبو بكر محمد بن محمد بن عبد السلام بن محمد بن يحيى المرادي، يعرف بالجُملِّي، «وجُملَّة» من أعمال مرسية، تفقَّه بأبي عبد الله بن عبد الرحيم، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وغيرهم، وسكن مراكش، وولي بها خطة المناكح دهرًا، وكان فقيهًا أديبًا فكهًا، ناظمًا ناثرًا، ترجمه وترجم أباه من قبله ابن الأبار، وقال إنه توفي سنة ٦٠٨.

وأبو عبد الله محمد بن الزبير، من أهل مرسية، أصله من جنجالة، سمع أبا بكر بن حسنون، وأبا محمد بن حوط الله، وغيرهما، وأقرأ القرآن وعلم العربية، وكان صالحًا فاضلًا، توفي سنة ٦١٠، ذكره ابن الأبار.

وأبو عمرو محمد بن محمد بن عيشون بن عمر بن صبَّاح اللخمي، من أهل مرسية، أصله من «يكَّة» من أعمالها، وبالنسبة إليها كان يعرف، سمع أبا العباس بن إدريس، وأبا عبد الله بن سعادة، وغيرهما، وأجاز له أبو الحسن بن هذيل، وأبو الحسن بن النعمة، وأبو القاسم السهيلي، وأبو القاسم بن حبيش، وغيرهم من علماء الأندلس، وأجازه من أهل المشرق أبو الفضل محمد بن يوسف الغزنوي، وأبو محمد بن بري النحوي، وأبو القاسم هبة الله بن علي البوصيري، وأبو يعقوب بن الطفيل الدمشقي، وكان يروي بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي، وكان يعقد الشروط ويبصرها ويجيد فك المعمَّى. قال ابن الأبار في التكملة: وله تقييد مفيد في الوفيات اعتمد عليه في هذا الكتاب، وحدثني به عنه ابنه أبو عمر عيشون بن محمد وغيره من أصحابنا، وتوفي مستهلَّ ذي القعدة سنة ٦١٤، ودفن بروضة ابن فرج بربض سرحان من داخل مرسية وهو ابن ست وسبعين سنة.

وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يحيى الأنصاري، سمع من أبي القاسم بن حبيش، وأبي بكر بن أبي جمرة، وأبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن علُّوش، وغيرهم، ورحل حاجًّا فسمع بمكة من أبي عبد الله بن أبي الصيف، وأبي محمد يونس بن يحيى الهاشمي، وغيرهما، وعاد إلى مرسية بلده فلزم بها إقراء القرآن، وكان شيخًا صالحًا مقلًّا صابرًا، قال ابن الأبار: وحدثني بعض أهل بلده بصحبته لأبي القاسم الطرسوني وقعوده معه في دكانه، قال لي: وربما غلط في فتياه فيرد عليه ابن يحيى هذا، وكان يخضب، وتوفي سنة ٦١٩ أو قبلها بيسير.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن هشام الفهري، من أهل المريَّة، أصله من مرسية، يعرف بابن الشواش وبالذهبي، سمع من أبي عبد الله بن سعادة، وأبي بكر بن أبي ليلى، وأبي عبد الله بن الفرس، وأبي القاسم بن حبيش، وغيرهم، وأخذ عن أبي موسى الجزولي النحوي، وقعد لإقراء القرآن وإسماع الحديث وتدريس العربية، وكان فاضلًا متواضعًا مشاركًا في فنون من العلم، من أبرع الناس خطًّا وأجودهم ضبطًا، وتردد مرارًا على مرسية فأُخذ عنه بها، وتوفي بالمرية سنة ٦١٨، وقال ابن فرقد: توفي سنة ٦١٩، وكذا قال ابن فرقد، وزاد أنه دفن بمقبرة الأخرس بالربض.

وأبو بكر محمد بن محمد بن حبون المعافري، سمع ببلده مرسية أبا القاسم بن حبيش، وأبا عبد الله بن حميد، ولقي أبا بكر بن الجد، وأبا الوليد بن رشد، وأبا الحسن نجبة بن يحيى، وأبا العباس بن مضاء، وأبا موسى الجزولي النحوي فسمع منهم، وأقرأ العربية، وكان له حظ من قرض الشعر، وتوفي في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٢٣، رواه ابن الأبار.

وأبو عبد الله محمد بن موسى بن هشام الهمداني، من أهل مرسية، ومن «ملِّينة» منها، سمع من أبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وغيرهما، وعني بعقد الشروط، وكان كريم العشرة، حلو النادرة، محمود الأحوال، ولي قضاء بسطة بآخرة من عمره، وتوفي وهو في القضاء، وذلك في أول سنة ٦٢٤، قاله ابن الأبار.

وأبو بكر محمد بن محمد بن يوسف بن أحمد بن جهور الأزدي، سمع ببلده مرسية من أبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، ورحل إلى قرطبة، فصحب بها أبا الوليد بن رشد، ولقي أبا بكر بن الجد، وأبا الحسن نجبة بن يحيى، وأبا عبد الله بن الفخَّار، وغيرهم، فأخذ عنهم، وأجاز له أبو طاهر السلفي، ولقي بتونس أبا الطاهر بن الدمنة من أصحاب عبد الله المازري، فأخذ عنه، وكان له حظ من النظم والنثر، وتوفي سنة ٦٢٩، عن ابن الأبَّار.

وأبو القاسم محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد العزيز، يعرف بابن «حَمَنَال»، سمع من أبي محمد بن حوط الله، وأبي الخطَّاب بن واجب، وولي الصلاة والخطبة ببلده مرسية، واستأدبه بعض الأكابر لبنيه، وكان يكتب المصاحف ويعرف رسمها مع براعة الخط وحسن الوراقة، وتوفي في أول شوال سنة ٦٣٣.

وأبو بكر محمد بن علي بن محمد الطائي الصوفي، من أهل إشبيلية، أصله من مرسية، يعرف بابن العربي، أخذ عن مشيخة إشبيلية، ومال إلى الأدب، وكتب لبعض الولاة، ثم رحل إلى المشرق حاجًّا فأدَّى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الحرستاني وغيره، وكان يحدِّث بالإجازة العامَّة عن أبي طاهر السلفي، وبرع في علم التصوف، وله فيه تآليف جليلة، وتوفي بعد الأربعين وستمائة.[٢٩]

وأبو عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد، واسمه موفَّق مولى زاكن اللمتوني، سمع أبا القاسم بن حبيش واختص به، ولازمه من سنة ٥٧٨ إلى حين وفاته، وسمع من غيره وأجاز له جماعة من كبار العلماء كأبي بكر بن الجد، وأبي الحسن نجبة بن يحيى، وأبي محمد بن بونُه، وأبي عبد الله بن الفخَّار، وغيرهم. وكان يتولى الأحكام

بالنيابة في بلده مرسية، ثم تولَّى القضاء فيها، قال ابن الأبار في التكملة: وكان من أهل المعرفة والثقة والعدالة وسكون الطائر ولين الجانب، لقيته بجامع مرسية في أول ذي القعدة سنة ٦٣٦ عند صَدَري من الرسالة التي وجهت فيها إلى تونس منتصف السنة المذكورة، وجالسته بدار الإمارة بمرسية مرارًا، وقد أجاز لي غير مرة جميع روايته، وأخذ عنه جماعة من أصحابنا وكان أهلًا لذلك، وإن لم يكن يبصر الحديث، وعمِّر وتوفي غداة الاثنين الثاني لجمادى الآخرة سنة ٦٤٢، ودفن يوم الثلاثاء بعد صلاة العصر بحومة مسجد الجرف، وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن يحيى بن محمد الأنصاري الخزرجي، يعرف بالغلَّاظي، من أهل مرسية، أخذ عن ابن حبيش، واستجاز له أبو جعفر بن عميرة الضبي في رحلته إلى الشرق أبا يعقوب بن الطفيل الدمشقي، وأبا محمد بن برِّي النحوي، وأبا الفضل بن يوسف الغزنوي، وأبا القاسم هبة الله بن علي البوصيري، فأجازوا له ولجماعة معه من أهل بلده جميعَ روايتهم ومصنَّفَاتهم سنة ٥٧٩، واستشهد يوم الجمعة التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٤٢، قتله الروم عند تغلبهم على المركب الذي ركب فيه من ساحل قرطاجنة.

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الملك الأزدي، من أهل «قيجاطة»، يعرف بالقارجي، نزل بمرسية، وكانت وفاته فيها يوم الثلاثاء ٢٣ محرم سنة ٦٤٣، أخذ عن أبي عبد الله بن يربوع في بلده قيجاطة. وسنة ٥٩٥ رحل حاجًّا؛ فسمع بالقاهرة أبا عبد الله القرطبي، وذكر أنه لقي بطبريَّة من بلاد الشام أبا الحسن علي بن محمد التجيبي، فأخذ عنه القراءات السبع في ختمةٍ واحدة؛ قال ابن الأبار: في ذلك نظر. قال: وأخذ بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي، وأبي محمد هبة الله بن عساكر، ولقي بمصر الإمام الطوسيَّ. انتهى ملخصًا.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السُّلمي، من أهل مرسية، رحل إلى الشرق سنة ٦٠٧ أو نحوها، ولقي بنيسابور أبا الحسن المؤيد بن محمد الطوسي صاحب أبي عبد الله الفرَّاوي مُسْنِد وقته، فسمع منه صحيح مسلم، ويروي عنه ابن نقطة، قال ابن الأبَّار: وأجاز لنا في سنة ثلاث عشرة؛ أي بعد الستمائة.[٣٠]

وأبو بكر محمد بن غلبون بن محمد بن عبد العزيز بن غلبون بن عمر الأنصاري، سمع من أبيه، وأجاز له أبو القاسم بن حبيش، وجماعة من علماء الأندلس، وجماعة من علماء المشرق، وكان ذا عنايةٍ بالرواية، حسن التقييد والخط، مشاركًا في فنون، وتولَّى

حسبة السوق ببلده مرسية، قال ابن الأبَّار: أجاز لي غير مرة، ولقيته بمرسية في آخر سنة ٦٣٦، ووقف على «التكملة» هذه من تأليفي، وكانت له خزانة مملوءة أصولًا عتيقة ودفاتر أنيقة ضاعت لاختلاله قبل وفاته بمدة، وبيع أكثرها وهو لا يشعر، ونُكب هو وابنه في ما بلغني إلى أن توفي على تلك الحال من الاختلال في شعبان سنة ٦٥٠، ونُعي إليَّ في رمضان بعده، وذلك بمدينة بجاية.

وأبو محمد بن يحيى المرسي، توفي سنة ٥٦٦، قال ابن الأبَّار: ذكره ابن حبيش، ولا أعرفه.

وأبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي الكاتب، أخذ عن أبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وأبي العباس بن مضاء، وأبي رجال بن غلبون وغيرهم، وأجاز له ابن بشكوال. وكان من جلَّة الأدباء ومهرة الكتاب، ناقدًا مدركًا، مفوهًا، متقدمًا في النظم والنثر، وجمع مما صدر عنه كتابًا سماه «عجالة المتحفز وبداهة المستوفز»، وكان من الفضل والدين بمكان، توفي ليلة الاثنين السادس عشر من شوال سنة ٥٩٨، وثكله أبوه، وهو صلى عليه، ودفن بإزاء مسجد الجرف من غربي بلده مرسية وهو دون الأربعين، ذكره ابن الأبار.

وأبو محمد عبد الله بن مفرج الضرير، أندلسي، من أهل مرسية، ذكره ابن الأبار نقلًا عن ابن عساكر؛ ذلك لأنه قدم دمشق ولقي بعض علمائها وأخذ عنهم وأُخذ عنه. وقال إنه ولد سنة ٤١٧ في تدمير.

وأبو محمد عبد الله بن محمد الصريحي، يعرف بابن مطحنة، تأدَّب بأبي بكر بن الفرضي النحوي، ورحل حاجًّا فلقي في المشرق أبا محمد العثماني وغيره، وقعد لتعليم الأدب، وأخذ عنه أبو عبد الله المكناسي وغيره، ذكره ابن الأبار، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو محمد عبد الله المعروف بابن القربلياني، من أهل مرسية، صحب الأستاذ أبا بكر بن الجزار، وتقدم في تلاميذه، وخلفه في حلقته معلمًا بعده العربية وآدابها، أخذ عنه ابن سفيان وقال: توفي سنة ٥٥٥، روى ذلك ابن الأبَّار.

وأبو محمد عبد الله بن موسى بن سليمان بن علي بن عبد الملك بن يحيى بن عبد الملك بن الحسن بن محمد بن عميرة بن طريف بن أشكورنه الأزدي، يعرف بابن بُرْطُلُه، سمع أبا علي الصدفي، ورحل حاجًّا في سنة ٥١٠، فأدى الفريضة وسمع من كبار العلماء مثل أبي عبد الله الرازي، وأبي بكر الطرطوشي، وأبي الحسن بن مشرَّف الأنماطي، وأبي طاهر السلفي، وغيرهم، وانصرف إلى مرسية بلده فولي صلاة الفريضة بجامعها، وتزوج

حينئذٍ بنت شيخه أبي علي، فولدت له ابنه أبا بكر عبد الرحمن بن عبد الله، وكان شيخًا فاضلًا جليلًا متواضعًا، من أهل النباهة والنزاهة، تخيَّره أهل بلده للإمامة بهم، فأقام على ذلك حياته كلها، ولقيه أبو عمر بن عيَّاد، وهو من جلَّة مشايخه، وتوفي ابن برطله المترجم بمرسية سنة ٥٦٣، ومولده سنة ٤٨١، ذكره ابن الأبَّار.

وأبو محمد عبد الله بن موسى بن عبد الله الخزرجي، يعرف بابن غُرْفُلْعَة (كذا)، روى عن مشيخة بلده مرسية وغيرهم، وكان ذا حظٍّ من العربية، وكان منقبضًا عن الناس، تاركًا ما لا يعنيه. قال ابن الأبار: ذكره لي أبو محمد بن برطله الخطيب — وهو جده لأمه — وقال: توفي قبل التسعين وخمسمائة.

وأبو محمد عبد الله بن حامد بن يحيى بن سليمان بن أبي حامد المعافري، أخذ عن أبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وأبي محمد بن حوط الله، وأخذ العربية عن أبي الحسن بن الشريك، والأدب عن أبي بحر صفوان بن إدريس، وكان من رجالات الأندلس وجاهةً وجلالًا، مع التحقق بالكتابة والمشاركة في القريض، وإليه كانت رئاسة بلده مرسية، وتوفي بعد صَدرَه عن إشبيلية في آخر سنة ٦٢١.

وأبو زيد عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي، رحل حاجًّا فأدى الفريضة ولقي بمكة أبا الحسن علي بن المفرِّج الصقلي، فسمع منه موطأ مالك رواية أبي مصعب الزهري، ولقي أبا عبد الله بن علي الطبري فسمع منه صحيحي البخاري ومسلم، وأبا عبد الله بن اللجالة النحوي الأندلسي، فحدَّث عنه بالملخَّص للقابسي عن مؤلفه. وقفل إلى بلده مرسية وأقرأ التفسير والحديث، حدَّث عنه ابنه صاحب الأحكام أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، نقل ابن الأبار خبره هذا عن ابنه وعن ابن عياد، وقال إنه توفي بعد العشرين وخمسمائة.

وأبو بكر عبد الرحمن بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن إبراهيم بن محمد بن أبي ليلى الأنصاري، من ولد أبي عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة، أصله من غرناطة، سمع أباه أبا القاسم، ولازم أبا علي الصدفي واختص به، وهو أثبت الناس فيه وأحفظهم لأخباره وأضبطهم لرواياته، وقلما فاته مجلس من مجالسه، وكان هو القارئ عليه في أثناء تدريسه. وللمترجم أشياخ آخرون مثل أبي محمد بن أبي جعفر، وأبي عمران بن أبي تليد، وأبي بكر بن العربي، وأبي محمد بن عتَّاب، وأبي الحسن بن الباذش وغيرهم، وأدى فريضة الحج سنة ٥٢٩، فلقي في مكة أبا

المظفَّر الشيباني، وأبا علي بن العرجاء، وسمع بالإسكندرية كثيرًا من أبي طاهر السلفي، وأبي محمد العثماني، ورجع إلى الأندلس.

وكان عدلًا موصوفًا بصحة التقييد واتساع الرواية، متقللًا منقبضًا عن الناس، وكان القاضي أبو عبد الله بن سعادة يُثني عليه ويصفه بالضبط، وكان من أصحاب الشيخ أبي علي الصدفي روى عنه كثيرًا، وأراده أبو العباس بن الحلَّال على القضاء فامتنع وآثر الاعتزال ولزم مزرعةً له بخارج مرسية. ثم رغب إليه الناس في آخر عمره أن يجلس للإقراء فأجاب إلى ذلك، وتنافس الناس في حضور درسه؛ لأنه آخر المكثرين من الرواة عن أبي علي الصدفي. قال ابن الأبار: وسماه ابن بشكوال في معجم مشيخته، وروى عنه جِلَّة من شيوخنا وغيرهم، مولده بمرسية في المحرم سنة ٤٩٠، وتوفي بها في شعبان أو رمضان سنة ٥٦٦، وقيل سنة ٥٦٧.

وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن محمد السلمي الكاتب، من أهل مرسية، يعرف بالمكناسي، روى عن أبي عبد الله بن سعادة، وعني بالأدب فرأس في الكتابة وشارك في قرض الشعر، وديوان رسائله بأيدي الناس يتنافس فيه، وكتب للأمير أبي عبد الله بن سعد بن مردنيش، وكتب لغيره من الأمراء، ذكره ابن سفيان وقال: به خُتمت البلاغة في الأندلس. وأخذ عنه أبو القاسم الملاحي كثيرًا من نظمه ونثره، توفي بمراكش سنة ٥٧١ وهو دون سن الاكتهال، قاله ابن الأبار.

وأبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله بن موسى بن سليمان الأزدي، يعرف بابن برطله، تقدمت ترجمة والده عبد الله، وعبد الرحمن المترجم هنا هو سبط القاضي أبي علي الصدفي، أخذ القراءات عن أبي علي بن عُريب، وسمع ابن أبي ليلى، وأبا عبد الله بن سعادة، وأبا القاسم بن حبيش، وغيرهم، وقرأ بشاطبة وببلنسية وبقرطبة، فممَّن أخذ عنهم في بلنسية أبو الحسن بن النعمة، وبقرطبة أبو القاسم بن بشكوال، وأخذ بإشبيلية عن أبي بكر بن الجد، وولي قضاء دانية مدة ثم صُرف عنه حميدَ السيرة معروف النزاهة، وولي صلاة الفريضة والخطبة بجامع مرسية دهرًا طويلًا.

وكان فقيهًا محدثًا أديبًا مع جمال الشارة والجلالة والسراوة والفصاحة ونباهة البيت، توفي ببلده مرسية ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٩، وصُلِّي عليه عصر ذلك اليوم، ودفن إلى جانب أبيه لصق دارهم بمقربةٍ من الباب الحديد، ومولده سنة ٥٤٧، أكثر خبره عن ابن سالم، قاله ابن الأبار.

وعبد الملك بن وليد بن محمد بن وليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن خطاب، يعرف بابن أبي جمرة، وبيتهم في مرسية شهير، روى عن أبيه وليد بن محمد، وروى عنه ابنه موسى بن عبد الملك، قاله ابن الأبار.

وأبو مروان عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن أبي جمرة هو حفيد المترجَم قبله، سمع من أبيه موسى، وأبي عمرو المقري، وغيرهما، وحدث عنه ابنه أبو العباس أحمد بن عبد الملك، توفي بمرسية لسبعٍ خلون من جمادى الآخرة سنة ٤٨٥.

وأبو الأصبغ عبد العزيز بن يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم بن فيرُّه بن عمر اللخمي، من أهل مرسية، سكن تلمسان، وأصله من أُندة، يعرف بابن الدبَّاغ، روى عن أبيه الحافظ أبي الوليد، وعن جده لأمه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن وضَّاح القيسي، وأجاز له العلماء الجلَّة كأبي عبد الله بن الحاج، وأبي الحسن شريح، وأبي بكر بن العربي، وغيرهم، وشيوخه أزيد من سبعين، وكان أبوه من أئمة المحدِّثين. عن ابن الأبَّار.

وأبو محمد عبد الجبَّار بن موسى بن عبد الله الجذامي المعروف بالشمنتي، كان من أهل المعرفة بالقراءات والعربية، وكان يقرؤُها جميعًا بمرسية، وكان من أهل الدين والفضل، أخذ عنه أبو محمد بن الفرس، جاء ذكره في التكملة لابن الأبَّار، ولم يذكر سنة وفاته.

وأبو محمد عبد الحق بن محمد بن عبد الرحمن القيسي المرسي، سبط عبد الحق بن عطية، أخذ عن أبي محمد بن سهل الضرير، وأبي القاسم بن حبيش، وكان متفننًا في العلوم الشرعية والنظر بها، ولد سنة ٥٣٩، وتوفي في المحرم سنة ٥٩٨.

وعبد الحق بن محمد بن عبد العزيز بن سعد أبو محمد الجُمحي المرسي، نزيل غرناطة، أخذ عن أبي بكر بن العربي، وأبي الحسن شريح، وأخذ عنه أبو القاسم الملَّاحي، وأبو عبد الله بن الحَلَّا من علماء غرناطة، توفي سنة ٦٠١.

وعبد الكبير بن محمد بن عيسى بن محمد بن بقيٍّ أبو محمد الغافقي المرسي، نزيل إشبيلية، روى عن أبيه، وعن أبي عبد الله بن سعادة، وجماعة، وأجاز له أبو الحسن بن هذيل وغيره، وكان فقيهًا، قال ابن الزبير: كان شيخ الفقهاء في وقته، ولِّي القضاء برندة، وكان متقدمًا في صناعة التوثيق، وناب عن القاضي أبي الوليد بن رشد بقرطبة وأخذ عنه. كانت ولادته سنة ٥٣٦، ووفاته في صفر سنة ٦١٧.

وعثمان بن محمد بن عيسى بن عثمان اللخمي أبو عمرو المرسي البشيجي؛ نسبةً إلى بعض الثغور، روى عن أبي الحسن بن هذيل، وأبي عبد الله بن سعادة، وغيرهما، وروى عنه أبو سليمان بن حوط الله، وأبو عيسى بن أبي السداد، وكان فقيهًا مدرسًا، توفي سنة ٥٨٠، ذكره ابن الأبَّار.

وعلي بن أحمد بن عبد الملك بن حمدوس الخولاني أبو الحسن المرسي، سمع من أبي علي الصدفي، وأجاز له غالب بن عطية، ذكره ابن الأبَّار.

وعلي بن محمد بن دَيْسَم أبو الحسن المرسي، أخذ عن أبي القاسم بن حبيش، وأبي عبد الله بن حميد، وأبي الحسن بن الشريك، وأقرأ القرآن وعلَّم العربية، وكان يعيش من الوراقة، وكان بديع الخط، توفي سنة ٦٢٤، عن ابن الأبَّار.

وعلي بن محمد بن أبي العافية اللخمي المرسي أبو الحسن القسطلي، سمع من أبي عبد الله بن سعادة، وأبي عبد الله بن عبد الرحيم، وأبي القاسم بن حبيش صهره، ووليِّ قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة، وكان جزلًا مهيبًا، وأُضرَّ بآخر عمره، وأثار فتنة في مرسية جرَّت إلى هلاكه؛ فقُتل فيها، وذلك في جمادى الأولى سنة ٦٢٦.

وعلي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم التجيبي أبو الحسن الحرالي؛ نسبةً إلى قرية بمرسية، ولد بمراكش، وأخذ عنه ابن خروف، ورحل إلى الشرق، ومال إلى النظريات وعلم الكلام، ومات بحماة من الشام سنة ٦٣٧.

وأبو بكر عتيق بن أسد بن عبد الرحمن بن أسد الأنصاري، نشأ بمرسية، وأخذ الحديث عن أبي علي الصدفي، والفقه عن أبي محمد بن جعفر، وبرع في الفقه حتى قال ابن الأبَّار في التكملة إنه كان نسيج وحده بالفقه وجودة الفتاوى، وولي قضاء شاطبة ودانية، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٣٨.

وأبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطَّاب، رئيس مرسية في وقته، أخذ عن أبي محمد بن حوط الله وغيره، ونظر في العلوم وتحقق بكثيرٍ منها، وكان بليغًا في النظم والنثر. ومال إلى الزهد في أول أمره وأقبل على الآخرة، ثم استهوته الدنيا وقُدِّم لولاية مرسية فلم تُحمد سيرته فصُرف عنها، ثم صارت إليه رئاستها فدعا لنفسه؛ فقتل في رمضان سنة ٦٣٦ بعد التراويح عن سبع وستين سنة، ونقل ابن الأبار عن ابن الزبير أنه قتل في رمضان عام ثمانية وثلاثين وستمائة صبرًا، وطيف بجسده في البلد.

وغالب بن محمد بن غالب اللخمي المرسي أبو عمر بن حبيش بالفتح، سمع من أبي القاسم بن حُبيش بالضم، وله رحلة إلى الشرق سمع فيها من بعض علماء دمشق، وأخذ بعضهم عنه، وقال ابن الأبار توفي سنة ٦٢٩.

وغلبون بن محمد بن عبد العزيز بن فتحون بن غلبون الأنصاري أبو محمد المرسي، سمع من ابن هذيل، وابن سعادة، وابن عاشر، وجماعة، وأخذ عنه الناس، وكان فاضلًا جليلًا متقنًا، قال ابن الأبار: كتب إلينا بإجازة ما روى، وتوفي في رابع عشر ربيع الآخر سنة ٦١٣.

وسهيل بن محمد بن سهيل بن محمد بن سهيل الزهري أبو محمد، إمام جامع مرسية مدةً طويلة، كان من أهل الصلاح والزهادة، محبَّبًا إلى الخاصة والعامة، توفي سنة ٦١٦، ذكره ابن الأبار.

وأبو بكر يحيى بن محمد السرقسطي نزيل مرسية، يعرف باللباني، أخذ عن أبي الوليد الوقَّشي، وأبي الحسن بن أفلح النحوي، ومهر في العربية، وأقرأ بمرسية وغيرها، وأخذ الناس عنه، وتوفي سنة ٥٢٠ أو نحوها.

وأبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبِّر الفهري، نشأ بمرسية وتأدَّب بشيوخها، وسكن إشبيلية، وكان شاعر الأندلس في وقته، بل شاعر المغرب غير مدافَع، مدح الأمراء وكتب لبعضهم، وسارت قصائده مسير الأمثال، ومن شعره:

إن الشدائد قد تغشى الكريم لأن ... تُبين فضل سجاياه وتوضحه

كمبرد القين إذ يعلو الحديد به ... وليس يأكله إلا ليصلحه

وله:

لا يغبط المُجدب في علمه ... وإن رأيت الخصب في حاله

إن الذي ضيَّع من نفسه ... فوق الذي ثمَّر من ماله

توفي بمراكش ليلة الأضحى سنة ٥٨٨، وقيل قبلها بسنة، ذكره ابن الأبار.

وأبو زكريا يحيى بن عبد الملك بن أبي غصن اللخمي المُولي، نزيل مرسية، وموله بلدة من أعمالها، حج وسمع من يونس بن يحيى الهاشمي وغيره بمكة، وأخذ عنه ابن الزبير، ذكره ابن الأبار.

وخديجة بنت أبي علي حسين بن محمد الصدفي المرسي، نشأت صالحةً زاهدة، تحفظ القرآن، وتذكر كثيرًا من الحديث، وتطالع زوجها عبد الله بن موسى بن بُرطله صاحب الصلاة بمرسية. وتوفيت بعد التسعين وخمسمائة وقد نيَّفت على الثمانين.

وأبو بكر محمد بن أحمد بن حبُّون المعافري المرسي، سمع أبا القاسم بن حبيش، وأبا عبد الله بن حميد، وجماعة، وأقرأ العربية، وكان له حظ من قرض الشعر، ذكر ابن الأبار وفاته في ذي الحجة سنة ٦٢٧.

ومحمد بن يخلفتن بن أحمد بن تنفليت اليجفشي أبو عبد الله الفازازني التلمساني، سمع من أبي عبد الله التجيبي، وكان فقيهًا أديبًا مقدمًا في الكتابة والشعر، ولي قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة، وكان حميد السيرة شديد الهيبة، توفي بقرطبة سنة ٦٢١، ذكره ابن الأبار.

ومحمد بن إسماعيل بن محمد المتيجي، من ناحية بجاية بالمغرب الأوسط، نزل مرسية وصار خطيبها، ولقي ابن بشكوال فأخذ عنه، وكان مليح الخط والضبط، فاضلًا زاهدًا، يقول الشعر، توفي في ربيع الأول سنة ٦٢٥ عن نحو سبعين سنة.

وأبو عمران موسى بن سعادة مولى سعيد بن نصر، من أهل مرسية، سمع صهره أبا علي بن سكرة المشهور بأبي علي الصدفي، وكانت بنته عند أبي علي، وكان يتولى القيام بجميع ما يحتاج إليه صهره من دقيق الأشياء وجليلها. وكان أبو عمران المترجم من الأفاضل والأجواد، وكان يؤم الناس في صلاة الفريضة، وحج وسمع السنن من الطرطوشي، وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه، وسمعهما على صهره أستاذ الأندلس في الحديث، وكانا أصلين لا يوجد مثلهما في الصحة. وكانت له مشاركة في اللغة والأدب، حدَّث عنه ابن أخيه القاضي محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب أدب الكتَّاب لابن قتيبة وبالفصيح لثعلب، وجاءت ترجمته في نفح الطيب.

وعلم الدين أبو محمد المرسي اللُّورقي العلامة المقرئ الأصولي النحوي، أخذ عن أبي جعفر الحصار، وأبي عبد الله المرادي، وأبي عبد الله بن نوح الغافقي من علماء الأندلس، ورحل إلى الشرق فقرأ بمصر على أبي الجود غياث بن فارس، وبدمشق على التاج بن زيد الكندي، وببغداد على أبي محمد بن الأخضر، وأخذ عن الجزولي النحوي بالمغرب، وبرع في العربية وفي علم الكلام والفلسفة، وكان يقرئ هذه العلوم، وأقام بدمشق ودرَّس فيها، وشرح المفصَّل في النحو في أربع مجلدات، وشرح الجزولية والشاطبية، وكان مليحَ الشكل حسنَ البزَّة، توفي سابع رجب سنة ٦٦١، جاءت ترجمته في نفح الطيب.

وأبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الشهير بابن سبعين العكي المرسي، كان يلقَّب من الألقاب المشرقية بقطب الدين، قال المؤرخ ابن عبد الملك: درس العربية والآداب بالأندلس، ثم انتقل إلى سبتة، وانتحل التصوف وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها فمالت إليه العامة. ثم رحل إلى المشرق وحج حججًا وشاع ذكره وعظم صيته، وكثر أشياعه وصنَّف أوضاعًا كثيرة تلقوها منه ونقلوها عنه، ويُرمى بأمورٍ اللهُ تعالى أعلمُ بها وبحقيقتها. وكان حسن الأخلاق صبورًا على الأذى آية في الإيثار. ا.هـ.

وقيل إنه كان يكتب عن نفسه: «ابن ٥» يعني الدارة التي هي كالصفر، وهي في حساب المغاربة سبعون؛ فشهر لذلك بابن دارة، ولما ذكروا هذا الشريف الغرناطي تمثَّل بالبيت المشهور:

محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

ترجمة وافية لابن سبعين

نقل المقري في نفح الطيب عن صاحب «درة الأسلاك» في حوادث سنة ٦٦٩ وفاة الشيخ قطب الدين أبي محمد عبد الحق بن سبعين المرسي، صوفي متفلسف متزهِّد متقشِّف، يتكلم على طريق أصحابه، ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه، شاع أمره واشتهر ذكره، وله تصانيف وأتباع وأقوال تميل إليها بعض القلوب وتملها بعض الأسماع، وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة، تغمده الله برحمته. ا.هـ.

ونقل صاحب النفح رسالة لأحد تلاميذ ابن سبعين يظن اسمه يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان، واسم الرسالة «الوراثة المحمدية والفصول الذاتية»، قال فيها: فإن قيل ما الدليل على أن هذا الرجل الذي هو ابن سبعين هو الوارث المشار إليه؟ قلنا: عدم النظير، واحتياج الوقت إليه، وظهور الكلمة المشار إليها عليه، ونصيحته لأهل الملَّة، ورحمته المطلقة للعالم المطلق، ومحبته لأعدائه وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه، وعفوه عنهم مع قدرته عليهم، وجذبهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه، وهذه كلها من علامات الوراثة والتبعية المحضة التي لا يمكن أحدًا أن يتَّصف بها إلا بمجدٍ أزلي. (ثم أخذ يعد مزايا ابن سبعين) فقال: إن الله خلقه من أشرف البيوت التي في بلاد

المغرب، وهم بنو سبعين، قرشيًّا هاشميًّا علويًّا، وأبوه وجدوده يشار إليهم ويعوَّل في الرئاسة عليهم، والثاني كونه من بلاد المغرب، والنبي — عليه السلام — قال: لا يزال طائفةً، من أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة. وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه، فهو المشار إليه بالحديث. (إلى أن يقول): انظر في بدايته وحفظ الله — سبحانه — له في صغره، وضبطه له من اللهو واللعب، وإخراجه من اللذة الطبيعية التي هي في جبلَّة البشرية، وتركه للرئاسة العرضيَّة المعوَّل عليها عند العالم مع كونه وجدها في آبائه، وهي الآن في إخوته، وخروجه عن الأهل والوطن، وانقطاعه إلى الحق، تعلم تخصيصه وخرقه للعادة.

ثم انظر في تأيده وفتحه من الصغر، وتأليفه كتاب «بدء العارف» وهو ابن خمس عشرة سنة، وفي جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوي على جميع الصنائع العلمية والعملية، تجده خارقًا للعادة، وفي نشأته بالأندلس ولم يعلَم له من قبل كثرة نظر وظهوره مع ذلك بالعلوم التي لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة، وفي تواليفه واشتمالها على العلوم كلها وانفرادها، وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق، تعلم أنه مؤيَّد بروح القدس، وفي شجاعته وقوة توكله ونصره لصنائعه وإقامة حقه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة إلهية. (ومضى صاحب هذه الرسالة في هذه المبالغات إلى أن انتهى وقد جعل ابن سبعين شخصًا خارقًا للعادة في بني آدم.)

ونقل صاحب النفح عن أبي الحسن بن برغوش التلمساني شيخ المجاورين بمكة — وكانت له معرفةً تامة بهذا الرجل — أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة — على ساكنها الصلاة والسلام — يُهراق منه دم كدم الحيض. والله تعالى أعلم بحقيقة أمره. وحدَّث مع ذلك أصهاره بمكة أنه زار النبي ﷺ مستخفيًا على طريق المشاة.

وقال لسان الدين بن الخطيب: أما شهرته ومحله من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء، والوقوف على الأقوال، والتعمُّق في الفلسفة، والقيام على مذاهب المتكلِّمين، فمما يقضي منه بالعجب، وقال الشيخ أبو البركات بن الحاج البلقيني: حدثني بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله بن هود سالَمَ طاغية النصارى، فنكث به ولم يفِ بشرطه، فاضطره ذلك إلى مخاطبة القس الأعظم برومية — أي البابا — فوكَّل أبا طالب بن سبعين أخا أبي محمد عبد الحق بن سبعين في التكلم عنه والاستظهار بين يديه، قال: فلما بلغ ذلك الشخص رومية — وهو بلد لا يصل إليه المسلمون — ونظر إلى ما

بيده وسُئل عن نفسه فأخبر بما ينبغي، كلَّم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم تُرجم لأبي طالب بما معناه: اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه. ا.هـ.

ومما ينسب إلى ابن سبعين قوله — وقد جرى ذكر أبي مَدْيَن الولي الشهير — هذه الجملة: شُعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة. وذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان المستنصر أبي عبد الله محمد بن السلطان زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص ملك إفريقية أن أهل مكة بايعوه وخطبوا له بعرَفَة وأرسلوا له بيعتهم، وهي من إنشاء ابن سبعين، وسردها ابن خلدون بجملتها، وهي طويلة، وفيها من البلاغة والتلاعب بأطراف الكلام ما لا مطمع وراءه. قال في النفح: غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهدي المُبشَّر به في الأحاديث، الذي يحثو المال ولا يعدُّه، وحمل حديث مسلم وغيره عليه، وفي ذلك ما لا يخفى.

ولابن سبعين من رسالة: سلام عليك ورحمة الله، سلامٌ عليك ثم سلام، مناجاتك سلام الله ورحمة الله الممتدَّة على عوالمك كلها، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، وصلَّى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك، وكصلاة أعزِّ ملائكتك من حيث حقيقتك، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته. السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا قياس الكمال ومقدِّمة العلم ونتيجة الحمد وبرهان المحمود، ومن إذا نظر الذهن إليه قرأ نعم العبد. السلام عليك يا من هو الشرط في كمال الأولياء وأسرار مشروطات الأذكياء الأتقياء، السلام عليك يا من جاور في السماوات مقام الرسل والأنبياء، وزادك رفعةً واستعلاءً على ذوات الملأ الأعلى، وذكر قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ انتهى.

قال بعضهم عند إيراده جملة من رسائل ابن سبعين التي منها هذه: إنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة وإيثار الورع. ونقل صاحب نفح الطيب عن بعض كبار العلماء أن ابن سبعين ولد سنة ٦١٤، ودرس العربية والأدب بالأندلس، ونظر في العلوم العقلية، وأخذ عن أبي إسحاق بن دهَّاق، وبرع في طريقه، وجال في البلاد، وقدم القاهرة، ثم حج واستوطن مكة، وطار صيته وكثر أتباعه، وله كتاب «الدرج»، وكتاب «السفر»، وكتاب «الكدِّ»، وكتاب «الإحاطة»، ورسائل كثيرة في الأذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والغنائم، ومن شعره:

كم ذا تموَّه بالشعبين والعلمِ والأمر أوضح من نارٍ على علمِ
وكم تُعبِّر عن سلعٍ وكاظمةٍ وعن زرودٍ وجيرانٍ بذي سلمِ

ظللتَ تسألُ عن نجدٍ وأنت بها وعن تهامةَ هذا فعلُ متَّهم
في الحي حيٌّ سوى ليلى فتسأله عنها سؤالك وهمٌ جرَّ للعدم

ونشأ ترفًا مبجلًا في ظل جاه ونعمة لم تفارق معها نفسه البأو، وكان وسيمًا جميلًا، ملوكيَّ البزَّة، عزيز النفس، قليل التصنُّع، وكان آيةً من الآيات في الإيثار والجود بما في يده — رحمه الله تعالى — ونقل صاحب نفح الطيب عن لسان الدين بن الخطيب أنه لما وردت على سبتة المسائل الصقلية، وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتًا للمسلمين، انتدب ابن سبعين للجواب المقنع عنها على فتاء من سنِّه وبديهة من فكرته رحمه الله تعالى. ونقل صاحب النفح عن كتاب «عنوان الدراية» أن ابن سبعين رحل إلى العدوة، وسكن بجاية مدة، وأخذ الناس عنه في فنون خاصة، وكانت له مشاركة في المعقول والمنقول، وفصاحة لسان، وطلاقة قلم، وفهم جنان، وله أتباعٌ كثيرون من الفقراء ومن عامة الناس، وله موضوعات كثيرة موجودة بأيدي أصحابه له فيها ألغاز وإشارات بحروف أبجد، وله تسميات مخصوصة في كتبه هي من نوع الرموز، وله شعر في التحقيق وفي مراقي أهل الطريق، وكتابته مستحسنة في طريق الأدباء، وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام، والتزامه الاعتمار على الدوام، وحجه في كل عام.

ولقد مشى به للمغاربة في الحرم الشريف حظ لم يكن له في غير مدته، وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله، ويهتدون بأفعاله، توفي — رحمه الله — يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩. انتهى ببعض اختصار.

ومما رواه صاحب النفح عنه أن أبا الحسن الششتري — من تلاميذ ابن سبعين — كان بعض الطلبة يرجِّحونه على شيخه أبي محمد بن سبعين، فكان يقول: إنما ذلك لعدم اطِّلاعهم على حال الشيخ وقصور باعهم. ومن تآليف ابن سبعين كتاب «الفتح المشترك».

فهذه هي خلاصة ما وجدنا عن هذا الرجل الذي اختلف فيه الناس كما اختلفوا في محيي الدين بن عربي؛ فبعضهم غلا في المدح وبعضهم غلا في القدح، وقال صديقنا العلامة السيد رشيد رضا — رحمه الله — ونقلنا ذلك عنه في كتابنا «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة»: «ومن أولئك المفتونين بوحي الشياطين من ظَنَّ أنه تجاوز درجة الأنبياء، ومنهم ابن سبعين الذي قال: لقد تحجَّر ابن آمنة واسعًا بقوله «لا نبي بعدي». ومثل هذا الكلام هو الذي جرَّأ ميرزا غلام القادياني على ادعاء النبوة.» ا.هـ. ولم أعلم أين

عثر السيد رشيد — رحمه الله — على هذه الرواية عن ابن سبعين، وإن كنت لا أشك في أن مثل السيد رشيد لا يرميها جُزافًا.

وجاء في «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» للمؤرخ الشهير أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، المتوفى سنة ١٠٨٩، ذكرُ وفاة ابن سبعين سنة تسع وستين وستمائة، وقال فيه: ابن سبعين الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الإشبيلي المرسي الرُّقوطي[٣١] الأصل الصوفي المشهور، قال الذهبي: كان من زهَّاد الفلاسفة ومن القائلين بوحدة الوجود، له تصانيف وأتباع يقدُمُهم يوم القيامة. ا.هـ.

وقال الشيخ عبد الرءوف المناوي في طبقاته: درس العربية والآداب بالأندلس، ثم انتقل إلى سبتة، وانتحل التصوف على قاعدة زهد الفلاسفة وتصرُّفهم، وعكف على مطالعة كتبه، وجدَّ واجتهد، وجال في بلاد المغرب. ثم رحل إلى المشرق وحج حججًا كثيرة، وشاع ذكره وعظم صيته وكثرت أتباعه على رأي أهل الوحدة المطلقة، وأملى عليهم كلامًا في العرفان على رأي الاتحادية، وصنَّف في ذلك أوضاعًا كثيرة، وتلقوها عنه وبثوها في البلاد شرقًا وغربًا. انتهى.

وقد سبق نقل هذه العبارات عن نفح الطيب عن ابن عبد الملك، لكن مع اختلاف قليل وتصرف، وهنا هي مروية عن عبد الرءوف المناوي. ثم إنه في شذرات الذهب ينقل عن ابن حبيب قوله عن ابن سبعين: صوفي متفلسف متزهِّد متعبِّد متقشِّف، يتكلم على طريق أصحابه، ويدخل البيت لكن من غير أبوابه، شاع أمره واشتهر ذكره، وله تصانيف وأتباع وأقوال تميل إليها بعض القلوب وتنكرها بعض الأسماع. ا.هـ. وفي نفح الطيب الجمل بعينها مع اختلاف قليل في اللفظ منسوبة لصاحب درة الأسلاك.

ثم ذكر أيضًا صاحب شذرات الذهب نقلًا عن عبد الرءوف المناوي أن ابن سبعين قال لأبي الحسن الششتري عندما لقيه وقد سأله عن وجهته، فأخبره بقصده الشيخ أبا أحمد: إن كنت تريد الجنة فشأنك ومن قصدت وإن كنت تريد رب الجنة فهلمَّ إلينا. ثم نقل المناوي عن البسطامي قوله في ابن سبعين: كان له سلوك عجيب على طريق أهل الوحدة، وله في علم الحروف والأسماء اليد الطولى، وألف تصانيف منها «كتاب الحروف الوضعية في الصور الفلكية»، وشرح كتاب إدريس — عليه السلام — الذي وضعه في علم الحروف وهو نفيس. ومن وصاياه لتلاميذه وأتباعه: عليكم بالاستقامة على الطريق، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة، ولا تفرِّقوا بينهما؛ فإنهما من الأسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة التي في زمانكم هذا، وقولوا عليها وعلى أهلها اللعنة. انتهى.

وأغراض الناس متباينة بعيدة عن الاعتدال؛ فمنهم المرهق المكفِّر، ومنهم المقلِّد، ومما شُنِّع عليه به أنه ذكر إمام الحرمين فقال: إذا ذكر أبو جهل وهامان فهو ثالث الرجلين، وأنه قال في شأن الغزالي: إدراكه في العلوم أضعف من خيط العنكبوت. فإن صحَّت نسبة ذلك إليه فهو من أعداء الشريعة المطهرة بلا ريب. وقد حُكي عن قاضي القضاة ابن دقيق العيد أنه قال: جلست معه من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلامًا تُعقل مفرداته ولا تفهم مركباته، والله أعلم بسريرة حاله. وقد أخذ عن جماعة منهم الحراني والبوني، مات بمكة. انتهى كلام المناوي بحروفه، هكذا جاء في شذرات الذهب.

قلت: إنه ورد في النفح نقلًا عن أحد العلماء — ولم يذكر المقري اسمه — أن ابن سبعين أخذ عن أبي إسحاق بن دهاق.

فإليكم الآن ترجمة أبي إسحاق بن دهاق، نقلًا عن لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة.

إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن المرأة، سكن مالقة دهرًا طويلًا، ثم انتقل إلى مرسية باستدعاء المحدث أبي الفضل المرسي والقاضي أبي بكر بن محرز، وكان متقدمًا في علم الكلام، حافظًا للحديث والتفسير والفقه والتاريخ وغير ذلك، وكان الكلام أغلب عليه، فصيح اللسان والقلم، ذاكرًا لكلام أهل التصوف، يطرِّز مجالسه بأخبارهم، وكان شيخ الجمهور بمالقة، بارعًا في ذلك، حسن الفهم لما يُلقيه، وثوبًا على التمثيل والتشبيه في ما يقرب للفهم، مؤثرًا للخمول، قريبًا من كل أحد، حسن العشرة، مؤثرًا بما لديه، وكان بمالقة يتَّجر في سوق الغزل.

قال الأستاذ أبو جعفر وقد وَصَمه: كان صاحب حيل ونوادر مستظرفة يلهي بها أصحابه ويؤنسهم، ومطلعًا على أشياء غريبة من الخواص وغيرها فتن بها بعض الطلبة، واطلع كثير ممن شاهده على بعض ذلك، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المرتكبات فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه، منهم شيخنا القاضي العدل المسمَّى بالفاضل ابن المرابط رحمه الله. أخبرني من ذلك بإشهاده ما يقبح ذكره، وتبرأ منه من كان سعى في انتقاله إلى مرسية، والله أعلم بغيبه.

ومن تآليفه شرحه كتاب «الإرشاد» لأبي المعالي، وشرح الأسماء الحسنى، وألَّف جزءًا في إجماع الفقهاء، وشرح «محاسن المجالس» لأبي العباس أحمد بن العريف، وألَّف غير ذلك، قال لسان الدين بن الخطيب: وتآليفه نافعة في أبوابها، حسنة الرصف والمباني، ثم ذكر وفاته بمرسية سنة إحدى عشرة وستمائة.

ومن مفاخر مرسية ومفاخر الأندلس — بل الإسلام بأجمعه — السيد العارف الشهير أبو العباس أحمد المرسي، دفين الإسكندرية، وهو من أكابر الأولياء، صحب القطب الشهير السيد أبا الحسن الشاذلي، وقد عرَّف به ابن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن في مناقب الشيخ سيدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن»، وقال الصفدي في الوافي بالوفيات: أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس الأنصاري المرسي، وارث شيخه الشاذلي تصوُّفًا، الأشعري معتقدًا، توفي بالإسكندرية سنة ٦٨٦، ولأهل مصر ولأهل الثغر فيه عقيدة كبيرة، وقد زرته لما كنت بالإسكندرية سنة ٧٣٨.

قلت: وقد زرت أنا أيضًا أبا العباس المرسي في الإسكندرية سنة ١٣٠٨، وصلَّيت الجمعة في مسجده بالقرب من الخديوي المرحوم محمد توفيق باشا بن إسماعيل خديوي مصر، وحضرت أيضًا مولد المرسي في ذلك الثغر، فاجتمع فيه ألوف وعشرات ألوف من الأهالي، وأنشدني المرحوم السيد عبد القادر الغرياني — من أعيان الإسكندرية — أبياتًا للسيد القصبي حفظت منها من أول دور:

توجَّهْ في الخطوب بحسن نيَّه ... وزُرْ أبطال ثغر سَكندريَّه

ثم يقول:

أبا العباس إن سفين حظي ... تكاد تطيح في لجج المنيه
وأنت السيد المرسي فهلَّا ... رخاءً أنت تُرسيها هنيَّه

وهذا مما يدلك على عظيم اعتقاد أهل القطر المصري في السيد المرسي المشار إليه — رضي الله عنه — ولكن قول السيد القصبي — رحمه الله — أن أبا العباس هو المرسي لسفن الحياة لا يصح إلَّا بتأويل أنه بجاهه لدى الله تعالى وتوسله إليه يمكنه أن ينجي تلك السفن من الغرق، ولكن برغم هذا التأويل الذي لا يوجد غيره عند أهل السنة لتأويل الاستغاثة بالأولياء نجد الفرقة التي يقال لها السلفية، الآخذين بأقوال ابن تيمية وابن قيِّم الجوزية وابن عبد الوهاب يكفِّرون كل من يقول هذا القول أو ما يشبهه كائنًا من كان، ويقولون: إن الاستغاثة لا تجوز إلَّا بالباري تعالى رأسًا، وكل تأويل في أمرها غير نافع.

ونعود إلى ترجمة أبي العباس المرسي رحمه الله. جاء في نفح الطيب أنه كان يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى، حتى إنه ربما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به، وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه؛ لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثِّر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصي دخل بكسر معصيته وذلِّ مخالفته. وكان شديد الكراهة للوسواس في الصلاة والطهارة، ويثقل عليه شهود من كان على هذه الصفة. وذكر عنده يومًا شخص بأنه صاحب علم وصلاح إلَّا أنه كثير الوسوسة، فقال: وأين العلم؟ العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود.

وله كلامٌ بديع في تفسير القرآن العزيز، فمن ذلك قوله: قال الله — سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، عَلِمَ الله عَجْزَ خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه في أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد. وقال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: إياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة. إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان. إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية. إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

وقال في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أي بالتثبيت في ما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل؛ فإنهم حصل لهم التوحيد بالإيمان وفاتهم درجات الصالحين. والصالحون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي نسألك التثبيت في ما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل؛ لأنهم حصل لهم الصلاح ولكن فاتهم درجات الشهداء. والشهداء يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي بالتثبيت في ما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل؛ فإنهم حصلت لهم درجة الشهادة وفاتهم درجة الصدِّيقيَّة. والصدِّيق كذلك يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ إذ حصلت له درجة الصديقية وفاتته درجة القطبانية. والقطب كذلك يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ فإنه حصلت له رتبة القطبانية وفاته علم إذا شاء الله تعالى أن يُطْلِعه عليه أطلعه.

وقال: الفتوَّة الإيمان؛ قال الله تعالى:﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، وقال في قوله تعالى حاكيًا عن الشيطان: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية: ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم؛ لأن فوقهم التوحيد وتحتهم الإسلام. وقال — رضي الله عنه: التقوى في كتاب الله على أقسام: تقوى النار؛ قال الله — سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾، وتقوى اليوم؛ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾، وتقوى الربوبية؛

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وتقوى الألوهية وتقوى الأنيَّة: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال في قول الرسول — عليه السلام: «أنا سيدُ ولد آدمَ ولا فخر.» أي: لا أفتخر بالسيادة، وإنما الفخر لي بالعبودية لله.

وكان كثيرًا ما ينشد:

يا عمرو نادِ عبد زهراءِ	يعرفه السامع والرائي
لا تدعُني إلا بيا عبدها	فإنه أشرف أسمائي

وقال: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا. وقال: العارف لا دنيا له؛ لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

والحسين بن عتيق بن الحسن بن رشيق التغلبي، يكنى أبا علي، مرسي الأصل سبتي الاستيطان.

قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: كان نسيج وحده وفريد دهره إتقانًا ومعرفةً، ومشاركةً في كثير من الفنون اللسانية والتعليمية، متجرًا في التاريخ، ريَّان من الأدب، شاعرًا مفلقًا عجيبًا، قادرًا على الاختراع والأوضاع، جهم المحيَّا، موهش الشكل، يضمُّ برداه طويًّا،[٣٢] لا كفاء له، برَّز بمدينة سبتة، وكتب عن أميرها، وجرى بينه وبين الأديب أبي الحكم مالك بن المُرجل من الملاحات والمهاترات أشدُّ ما يجري بين متناقضين، آل به إلى الحكاية الشهيرة، وذلك أنه نظم قصيدة نصُّها (أوردها لسان الدين كلها ونحن نورد بعضها):

لكلاب سبتة في النباح مدارك	وأشدها دركًا لذلك مالكُ
شيخ تفانى في البطالة عمره	وأجال فكَّيْه الكلام الآفك
وألذُّ شيءٍ عنده في محفل	لمز لأستار المحافل هاتك
يغشى مخاطرة اللئيم تفكهًا	ويعاف رؤيته الحليم الناسك
نبذ الوقار لصبية يهجونه	فسباله فرش لهم وأرائك
يبدي لهم سوآته ليسوءهم	بمسالك لا يرتضيها سالك
يا ابن المرحَّل لو شهدت مرحَّلًا	وقد انحنى بالرحل منه الحارك
لشُغلتَ عن ذم الأنام بشاغلٍ	وثناك خصم من أبيك مماحكُ

لأقول للمغرور منك بشيبةٍ بيضاءَ طي الصحف منها حالك
عار على الملك المعظم أن يُرى في ذلك الصقع المقدس مالك

وما أشبه ذلك من الشعر الذي تنبو عن بعضه الأسماع. قال لسان الدين: وهي طويلة تشتمل من التعريض والتحريض على كل غريب، واتخذ لها كنانة خشبية كأوعية الكتب، وكتب عليها «رقَّاص معجَّل إلى مالك بن المرجَّل»، وعمد إلى كلب وجعلها في عنقه وأوجعه ضربًا حتى لا يأوي إلى أحد ولا يستقر، وذهب الكلب وخلفه من الناس أمة، وقُرئ مكتوب الكنانة واحتمل إلى أبي الحكم، ونزعت من عنق الكلب ودفعت إليه، فوقف منها على كل فاقرة كفَّت من طماحه، وتحدَّث الناس بها مدة، ولم يغب عنه أنه من حيل ابن رشيق ففوَّق سهام المراجعة، وفي ذلك يقول:

كلاب المزابل آذينني بأبوالهن على باب داري
وقد كنت أوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار

واستدعاه بآخرة أمير المغرب السلطان أبو يعقوب فاستكتبه واستكتب أبا الحكم ضده، فيقال إنه جرَّ عليه خجلة كانت سبب وفاة أبي علي. (إلى أن قال): وأوضاعه غريبة، واختراعاته عجيبة، تعرفت أنه اخترع في سفرة الشطرنج شكلًا مستديرًا، وله الكتاب الكبير في التاريخ والتلخيص المسمَّى «بميزان العمل»، وهو من أظرف الموضوعات وأحسنها شهرة. قال: كان حيًّا سنة أربع وسبعين وستمائة.

ومن الرجال الذين يناسب ذكرهم عند ذكر مرسية زهير العامري، فتى الحاجب الغازي العظيم المنصور بن أبي عامر، قال عنه لسان الدين في الإحاطة: كان شهمًا داهية شديد المذهب، ولِّي بعد خيران صاحب المريَّة، وقام بأمره أحمد قيام سنة تسع عشرة وأربعمائة يوم الجمعة لثلاثٍ خلون من جمادى الأولى، وكان أميرًا لمرسية فوجه إليه خيران حين أحسَّ الموت، فوصل إليه، وكان عنده إلى أن مات، فخرج زهير إلى الناس فقال لهم: أما خيران فقد مات وقد أقام أخاه زهيرًا هذا فما تقولون؟ فرضي الناس به؛ فدامت مدة ولايته عشرة أعوام ونصف عام إلى أن قتل.

ثم ذكر لسان الدين خبر نهاية زهير العامري بالمعركة التي جرت بينه وبين باديس صاحب غرناطة، ودارت فيها الدائرة على زهير وقتل، وذلك عقب شوال سنة تسع وعشرين وأربعمائة، نقل ذلك عن ابن عذارى.

ومحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، يعرف بابن الجنَّان، ويكنى أبا عبد الله، من أهل مرسية. قال في الإحاطة: كان محدثًا راوية ضابطًا، كاتبًا بليغًا، شاعرًا بارعًا، رائق الخط، ديِّنًا فاضلًا، خيِّرًا زكيًّا، استكتبه بعض أمراء الأندلس، فكان يبرح من ذلك ويضيق منه، ثم خلَّصه الله تعالى منه، وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة[٣٣] حتى يظن رائيه الذي استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. وكان متناسب الخلقة، لطيف الشمائل، وقورًا، خرج من بلده حين تمكُّن العدو سنة ٦٠٤؛ فاستقرَّ بأوريولة إلى أن استدعاه بسبتة الرئيس أبو علي بن خلاص، فوفد عليه فأجلَّ وفادته وأجزل إفادته، وحظي عنده حظوة تامة.

ثم توجَّه إلى إفريقية فاستقر ببجاية، وكانت بينه وبين كتَّاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته، أخذ العلم ببلده، قال لسان الدين: إنه روى في مرسية عن أبي بكر بن خطَّاب، وأبي الحسن سهل بن مالك، وابن قطرال، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عيسى بن أبي السداد، وأبي علي الشلويين النحوي الشهير وغيرهم.

ونقل لسان الدين عن القاضي أبي عبد الله بن عبد الملك أنه كان له في الزهد ومدح النبي ﷺ بدائع ونظم في المواعظ، فمن ذلك قوله في توديع رمضان وليلة القدر:

مضى رمضان أو كأنِّي به مضى ... وغاب سناه بعد أن كان أومضا
فيا عهده قد كان أكرم معهد ... ويا عصره أعزز عليَّ أن انقضى
ألمَّ بنا كالضيف في الطيف زائرًا ... فخيَّم فينا ساعةً ثم قوَّضا
فيا ليت شعري إذ نوى غربة النوى ... أبالسخط عنا قد تولَّى أم الرضا
قضى الحق فينا بالفضيلة جاهدًا ... فأي فتًى فينا له الحق قد قضى
وكم من يد بيضاء أسدى لذي التقى ... بثوب وفيها للصحائف بيَّضا

وقال في ليلة القدر:

فيا حسنها من ليلةٍ جلَّ قدرها ... وحض عليها الهاشمي وحرَّضا
لعل بقايا الشهر وهي كريمة ... تبيِّن سرًّا في الأواخر أُغمضا
وقال اطلبوها تسعدوا بطلابها ... فحرك أرباب القلوب وأنغضا
جزاه إله العرش خير جزائه ... وأكرمنا بالعفو منه وبالرضا

وصلى عليه من نبي مبارك رءوفٍ رحيمٍ للرسالة مرتضى
له غرَّة أعلا من الشمس منزلا وعزمته أمضى من السيف منتضى
عليه سلام الله ما انهلَّ ساكبٌ وذهَّب موشيُّ الرياض وفضَّضا

قال لسان الدين: وكتابته شهيرة تضرب بها الأمثال، قالوا: لما جعل أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن يوسف البيعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده تولى إنشاءها، وجعل الحاء المهملة سجعها، مردفًا إياها بالألف نحو صباحًا وصلاحًا، وما أشبه ذلك، وطال مجموعها فناهزت الأربعين، وطاب مسمعها فأحرزت بغية المستمعين، فكتب إليه أبو المطرِّف بن عميرة برسالته الشهيرة يداعبه في ذلك، وهي:

تحييك الأقلام تحية كسرى، وتقف الأفهام دون مداك حسرى. (ثم يقول): وما لك أَمِنت تغيُّر الحالات فشننت غارتك على الحاءات، ونفضت عنها المهارق، وبعثت في طلبها السوابق، ولقطتها من الأفواه، وطلبتها بين الشفاه، حتى شهد أهل الشام بتزحزحها عن ذلك المكان، وتوارت بالحلوق، ولو تغلغلت إلى العروق لآثرتها جيادك واقتنصها قلمك ومدادك.

فأجابه بما نصه:

ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية؟ أتنكبت من الأقلام أو تبكيت من الأعلام أو كلا الأمرين توجه القصد إليه؟! وهو الحق مصدقًا لما بين يديه، وإلا فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه، ويترامى للغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانت أنابيبه للعاجم ودنت أعاريبه للأعاجم، وا عجبًا لقد استنوق الجمل واختلف القول والعمل، لأمرٍ ما جدع أنفه قصير، وارتدَّ على عقبه الأعمى أبا بصير، أمس أَستسقي من سحابه فلا يسقيني، وأستشفي بأسمائه فلا يشفيني، واليوم يحلُّني محل أنوشروان، ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان، ويزعم أني أبطلت سحره ببئر ذروان، ويخفي في نفسه ما الله مبديه، ويستجدي بالأثر ما عند مستجديه، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة والشريعة المبتدعة؟ أيظن أن معمَّاه لا ينفك، وأنه لا ينجلي هذا الشك. هل ذلك منه إلَّا إمحاض التيه، وإحماض تفتِّيه، ونشوة من خمر الهزل. ونخوة من

ذي ولاية أمن من العزل. (ومنها):

وإنما يستوجب الشكر جسيمًا، والثناء الذي يتضوَّع نسيمًا، الذي شرَّف إذ أهدى أشرف السحاءات، وعرَّف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات. فإنه وإن ألمَّ بالفكاهة بما أملى من البداهة، وسمَّى باسم السابق السُّكيت، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت، وتلاعب بالصفات تلاعُب الصَّبا بالبانة، والصِّبا بالعاشق ذي اللبانة، فقد أغرب بفنونه، وأغرى القلب بفتونه، ونفث بخفية الأطراف، وعبث بالكلام المشقَّق الأطراف، وعلَّم كيف يُمحض البيان ويُخلص العقيان، فمن الحق أن أشكره على أياديه البيض، وأن آخذ لفظه من معناه في طرف النقيض ...

(إلى آخر هذه الرسالة التي استقصاها لسان الدين وعقَّبها بقوله: ومحاسنه عديدة وآماده بعيدة). وكانت وفاته في بجاية في عشر وستمائة.

ومحمد بن عبيد الله بن داود بن خطَّاب، ترجمه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة فقال: من صلة ابن الزبير كان كاتبًا بارعًا شاعرًا مجيدًا، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما، مع نباهة وحسن فهم وحسن سمت. ورد على غرناطة واسُتعمل في الكتابة السلطانية، وكان عظيم القدر معظمًا عند الكافة، ثم إنه رجع إلى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها واستقرَّ بالعدوة بعد مكابدة. قلت: وأخبرني شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب — رحمه الله — قال: كان شكِس الأخلاق متقاطبًا زاهيًا بنفسه (ثم ذكر له حادثة تدل على سوء خلقه)، وانصرف واستقرَّ بتلمسان كاتبًا عن سلطانها أبي يحيى يغمراسن بن زيَّان. وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله بن الأمير أبي زكريا استقدمه على عادته في استقدام الكتَّاب المشاهير واستدعائه لحضرته العلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين، وردَّ عليه المال، فكان ذلك أشق ما مرَّ على المستنصر، وظهر له علو شأوه وبُعد همته.

ومن المنسوبين إلى مرسية الشيخ الأكبر الأشهر صاحب الشهرة العالمية الشيخ محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم الصوفي الفقيه الظاهري، ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠، قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشبيلية بكتاب الكافي، وسمع على أبي بكر محمد بن جمرة كتاب التيسير للداني عن أبيه عن المؤلف، وسمع على ابن زرقون، وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي، وكان انتقاله من مرسية إلى

إشبيلية سنة ٥٦٨، فأقام بها إلى سنة ٥٩٨، ثم ارتحل إلى المشرق، وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفي، وابن عساكر، وأبو الفرج بن الجوزي، ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بسفح جبل قاسيون؛ أي حارة الصالحية. زرت قبره سنة ١٣١١، ورأيت مكتوبًا على قبره بيتين من الشعر:

قبر محيي الدين بن العربي   كل من لاذ به أو زاره
قُضِيت حاجاته من بعدما   غفر الله له أوزاره

ترجمة وافية لمحيي الدين بن العربي

قلت: هذان البيتان هما من قبيل البيتين اللذين تقدم ذكرهما عند ترجمة أبي العباس المرسي بلديِّ محيي الدين بن عربي، رحم الله الاثنين.

قال ابن الأبار إنه أخذ عن مشيخة إشبيلية ومال إلى الآداب وكتب لبعض الولاة، ثم رحل إلى المشرق حاجًّا ولم يعد بعدها إلى الأندلس. ورأى المنذريُّ أنه سمع بقرطبة من أبي القاسم بن بشكوال وجماعة، وطاف البلاد، وسكن بلاد الروم،[٣٤] وذكروا أنه قدم بغداد سنة ٦٠٨ وكان الغالب عليه التصوف، وكانت له قدم في الرياضة والمجاهدة، ووصفه غير واحد بالتقدُّم في هذا الشأن، وكانت له أتباع، وسلك طريق الفقر، وحج وجاور، وكتب في علم القوم وفي أخبار مشايخ المغرب، وله أشعار حسنة وكلام مليح. قال ابن النجار: اجتمعت به في دمشق في رحلتي إليها، وكتبت عنه شيئًا من شعره، ونعم الشيخ هو! ذكر لي أنه دخل بغداد سنة ٦٠١ فأقام بها اثني عشر يومًا، ثم دخلها ثانيًا مع الحجاج سنة ٦٠٨، وأنشدني لنفسه:

أيا حائرًا ما بين علمٍ وشهوةٍ   ليتَّصِلا ما بين ضدين من وصلِ
ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن   يرى الفضل للمسك الفتيق على الزِّبْلِ

وسألته عن مولده فقال: ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمرسية من بلاد الأندلس. وقال ابن مُسدي: إنه كان جميل الجملة والتفصيل، محصلًا لفنون العلم أخصَّ تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلحق، سمع ببلاده من ابن زرقون والحافظ

بن الجد، وأبي الوليد الحضرمي وبسبتة من أبي محمد بن عبد الله، وقدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي فسمع منه، وذكر أنه لقي عبد الحق الإشبيلي، وفي ذلك عندي نظر. ا.هـ. قال المقري: لا نظر في ذلك؛ فإن سيدي الشيخ محيي الدين ذكر في إجازته للملك المظفَّر غازي بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ما معناه أو نصُّه: «ومن شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي — رحمهم الله تعالى — حدَّثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعيَّن لي من أسمائها «تلقين المهتدي»، و«الأحكام الكبرى والوسطى والصغرى»، و«كتاب التهجد»، و«كتاب العاقبة»، ونظمه ونثره، وحدثني بكتب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه.». ا.هـ.

وكان ظاهري المذهب في العبادات باطنيَّ النظر في الاعتقادات، ولما أقام ببلاد الروم أمر له الملك بدارٍ تساوي مائة ألف درهم، فلما نزلها مرَّ به سائل فقال له: شيء لله. فقال له ابن عربي: ما لي غير هذه الدار، فتسلمها السائل وصارت ملكه. قال الذهبي في حقه إن له توسطًا في الكلام، وذكاءً وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيقًا في التصوُّف، وتواليف جمة في العرفان لولا شطحه في كلامه وشعره. ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته فيرجى له الخير.[٣٥] ا.هـ. ومن نظم الشيخ محيي الدين:

بين التذلل والتدلل نقطة ... فيها يتيه العالم النِّحرير
هي نقطة الأكوان إن جاوزتها ... كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وقوله:

يا درَّة بيضاء لاهوتية ... قد رُكِّبت صدفًا من الناسوت
جهل البسيطة قدرها لشقائهم ... وتنافسوا في الدر والياقوت

وحكى العماد بن النحاس الأطروش: أنه كان في سفح جبل قاسيون على مستشرف وعنده الشيخ محيي الدين بن عربي، والغيث والسحاب عليهم، ودمشق ليس عليها شيء. قال: فقلت للشيخ: أما ترى هذه الحال؟ فقال: كنت بمراكش وعندي ابن خروف الشاعر — يعني أبا الحسن علي بن القرطبي — وقد اتفقت حال مثل هذه، فقلت له مثل هذه

المقالة فأنشدني:

يطوف السحاب بمراكش طواف الحجيج ببيت الحرم
يروم نزولًا فلا يستطيعُ لسفك الدماء وهتك الحرم

جاء في نفح الطيب أن المقريزي حكى في ترجمة عمر بن الفارض أن الشيخ محيي الدين بن عربي بعث إلى ابن الفارض يستأذنه في شرح التائية فأجابه: كتابك المسمَّى بالفتوحات المكيَّة شرحٌ لها. ا.هـ. وقال بعض من عرَّف به: إنه لما صنَّف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادَّخر منها شيئًا. وقيل: إن صاحب حمص رتَّب له كل يوم مائة درهم، وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهمًا، فكان يتصدق بالجميع. واشتغل الناس بمصنفاته، ولها ببلاد اليمن والروم صيتٌ عظيم، وهو من عجائب الزمان.

وكان يقول: أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب. وذكر صفي الدين حسين بن الإمام جمال الدين أبي الحسن علي بن الإمام كمال الدين أبي منصور ظافر الأزدي الأنصاري في رسالته المتضمنة من رأى من سادات عصره قال: ورأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيد علمًا وخلقًا وحالًا، لا يكترث بالوجود مقبلًا كان أو معرضًا. وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الخرَّاز إخاء ورفقة في السياحات، ومن نظم ابن عربي:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

قال رحمه الله: قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت: كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك، فقلت له مرتجلًا:

يا من يراني مجرمًا ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعِمًا ولا يراني لائذا

قال المقري في النفح: قلت: من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ مُؤَوَّل، وأنه لا يقصد ظاهره، وإنما له محامل تليق به، وكفاك شاهدًا هذه الجزئية الواحدة، فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد. وللناس في هذا المعنى كلامٌ كثير، والتسليم أسلم، والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم.

وولد للشيخ محيي الدين ابنه محمد المدعو سعد الدين بملَطْيَة من بلاد الروم، وذلك في رمضان سنة ٦١٨، وسمع الحديث ودرَّس، وقال الشعر الجيد، وله ديوان مشهور، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦، وهي السنة التي دخل فيها هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم، ودفن محمد بن محيي الدين بن عربي إلى جانب والده بسفح قاسيون، ومن شعره:

لما تبدَّى عارضاه في نمط ... قيل ظلام بضياء اختلط
وقيل سطر الحسن في خديه خط ... وقيل نمل فوق عاج انبسط
وقيل مسك فوق ورد قد نقط ... وقال قوم إنها اللام فقط

ومن نظمه:

سهري من المحبوب أصبح مرسلًا ... وأراه متصلًا بفيض مدامع
قال الحبيب بأن ريقي نافع ... فاسمع رواية مالك عن نافع

وقوله:

لك والله منظر ... قلَّ فيه المشارك
إن يومًا نراك فيـ ... ـه ليوم مبارك

وله:

وعلمت أن من الحديد فؤاده ... لما انتضى من مقلتيه مهندا
آنست من وجدي بجانب خده ... نارًا ولكن ما وجدت بها هدى

وله:

سـاءَلـتـنـي عـن لـفـظـة لـغـويـة   فـأجـبـت مـبـتـدئًـا بـغـيـر تـفـكُّـر
خـاطـبـتـنـي مـتـبـسِّـمًـا فـرأيـتـهـا   من نظم ثغرك في صحاح الجوهري

وكتب إلى أخيه عماد الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي:

ما للنوى رقة ترثي لمكتئبٍ   حرَّان في قلبه والدمع في حلب
قد أصبحت حلب ذات العماد بكم   وجلَّق إرَمٌ هـذا مـن الـعـجـب

وتوفي الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧، ودفن بسفح قاسيون عند والده بتربة القاضي ابن الزكي، رحم الله تعالى الجميع.
ومن نظم الشيخ محيي الدين قوله:

ما فاز بالتوبة إلا الذي   قد تاب قِدْمًا والورى نوَّم
فمن يتب أدركَ مطلوبه   من توبة الناس ولا يعلم

قال صاحب نفح الطيب: وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة وآيته الباهرة، ولا يلتفت إلى كلام من تكلم فيه، ولله در السيوطي الحافظ؛ فإنه ألَّف «تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي» انتهى. قلت: إني قد طالعت كتاب «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، تأليف الإمام جلال الدين السيوطي — رحمه الله — وقرأت ترجمته لنفسه في آخر تراجم علماء مصر، وهي في الجزء الأول من صفحة ١٨٨–١٩٥، وقرأت بتدقيق أسماء مؤلفاته التي قال عنها المستشرق «سَديُّو Sedillout»: إنها أكثر مما قرأ كثير من أدباء الأوروبيين من الكتب على العموم، وقد أحصيت بنفسي عدد تآليف الإمام السيوطي بحسب ما هو وارد في ترجمته لنفسه في كتاب حسن المحاضرة المذكور، فوجدتها نحوًا من مائتين وستين تأليفًا، ولم أجد بين هذه الكتب كتابًا يسمى «تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي»، نعم يجوز أن يكون له تآليف أخرى ألَّفها بعد تأليفه لحسن المحاضرة منها تنبيه الغبي في تنزيه ابن عربي، وكنت أحصيت تآليف الجلال السيوطي التي ذكرها صاحب كشف الظنون، فبلغت حسبما أتذكر يوم أحصيتها نحوًا من ٤٦٠ كتابًا؛ أي بزيادة مائتين

على ما هي في حسن المحاضرة، وقد راجعت هذه المرة كشف الظنون فوجدت في الجزء الأول في حرف التاء اسم كتاب «تنبيه الغبي في تنزيه ابن عربي» للجلال السيوطي. قال: رسالة كتبها ردًّا على من ردَّ عليه في الفصوص، وللسيد علي بن ميمون المغربي المتوفى سنة ٩١٧. ا.هـ.

ثم نعود إلى ما جاء في نفح الطيب فنقول إنه ذكر من علماء الأندلس رجلًا آخر يعرف بابن العربي، وهو القاضي أبو بكر بن العربي؛ فلأجل التفريق بين الاثنين ورفع الالتباس اصطلح أهل المشرق على أن يكتبوا اسم الشيخ الأكبر «ابن عربي» دون ألف ولام، ثم إنه جاء في كتاب «مزية المرِّية» لابن خاتمة ما نصه: محمد بن علي بن محمد الطائي الصوفي، من أهل إشبيلية، وأصله من مرسية، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن العربي وبالحاتمي أيضًا، أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الولاة بالأندلس. ثم رحل إلى المشرق حاجًّا فأدى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الجرستاني ومن غيره، وسمع صحيح مسلم من أبي الحسن بن أبي نصر سنة ٦٠٦، وكان يحدِّث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي ويقول بها، وبرع في علم التصوف، وله في ذلك تواليف كثيرة منها «الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل»، و«الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة»، وكتاب «كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنى»، وكتاب «المعارف الإلهية»، وكتاب «الإسرا إلى المقام الأسرى»، وكتاب «مواقع النجوم ومطالع أهلَّة أسرار العلوم»، وكتاب «عنقاء مُغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب»، وكتاب في فضائل مشيخة عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، والرسالة الملقبة «بمشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية» في كتب أخر عديدة.

وقدم على المريَّة من مرسية مستهلَّ شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وبها ألَّف كتابه الموسوم «بمواقع النجوم». ا.هـ.

قال المقري: ولا خَفَاءَ أن مقام الشيخ أعظم بعد انتقاله من المغرب، وقد ذكر في بعض كتبه أن مولده بمرسية، ثم ذكر أنه توجه سؤال إلى القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزأبادي الصدِّيقي صاحب القاموس، وهو: ما تقول السادة العلماء — شدَّ الله تعالى بهم أزر الدين ولمَّ بهم شعث المسلمين — في الشيخ محيي الدين بن عربي في كتبه المنسوبة إليه، كالفتوحات والفصوص، هل تحل قراءتها وإقراؤها ومطالعتها؟ وهل هي الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ أفتونا مأجورين جوابًا شافيًا لتحوزوا أجمل الثواب من الله الكريم الوهاب، والحمد لله وحده. (فأجاب بما

صورته): الحمد لله، اللهم أنطقنا بما فيه رضاك. الذي أعتقده في حال المسئول عنه وأدين الله تعالى به أنه كان شيخ الطريقة حالًا وعلمًا، وإمام الحقيقة حقيقةً ورسمًا، ومحيي رسوم المعارف فعلًا واسمًا.

إذا تغلغل فكر المرء في طرفٍ　　　من بحره غرقت فيه خواطره

وهو عباب لا تكدره الدلاء، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء، كانت دعواته تخترق السبع الطباق، وكانت بركاته تفترق فتملأ الآفاق، وإني أصفه وهو يقينًا فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته، وغالب ظني أني ما أنصفته.

وما عليَّ إذا ما قلت معتقدي　　　دعِ الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن　　　أقامه حجة للدين برهانا
بأن ما قلت بعض من مناقبه　　　ما زدت إلا لعلِّي زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته فالبحار الزواخر التي جواهرها وكثرتها لا يُعرَف لها أول ولا آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وإنما خص الله — سبحانه — بمعرفة قدرها أهلها، ومن خواص كتبه أن من واظب على مطالعتها والنظر فيها وتأمل ما في مبانيها، انشرح صدره لحل المشكلات وفك المعضلات، وهذا الشأن لا يكون إلَّا لأنفاس من خصَّه الله تعالى بالعلوم اللدنية الربانية.

ووقفت على إجازة كتبها للملك العظيم فقال في آخرها: وأجزته أيضًا أن يروي عن مصنَّفاتي، ومن جملتها كذا وكذا، حتى عدَّ نيفًا وأربعمائة مصنَّف، منها التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وتوفي ولم يكمل، وهذا التفسير كتاب عظيم كل سفر منه بحر لا ساحل له. ولا غرو فإنه صاحب الولاية العظمى والصدِّيقية الكبرى في ما نعتقد وندين الله تعالى به. وثَمَّ طائفة في الغَي حائفة يعظمون عليه النكير، وربما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير، وما ذاك إلا لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها، ولم تصل أيديهم لقصرها إلى اقتطاف مجانيها.

عليَّ نحت القوافي من معادنها　　　وما عليَّ إذا لم تفهم البقر

هذا الذي نعلم ونعتقد وندين الله تعالى به في حقه، والله — سبحانه وتعالى — أعلم. كتبه محمد الصديقي الملتجئ إلى حرم الله تعالى — عفا الله عنه. ا.هـ. لا يخفى أن صاحب القاموس أقام زمنًا بمكة المكرمة. ثم إن بعض الناس ذكروا أنه جرى تكفير ابن عربي في مجلس شيخ الإسلام في وقته عز الدين بن عبد السلام — رحمه الله — وقيل عنه إنه زنديق، وأن الشيخ لم يرد عنه؛ فكان سكوته إقرارًا. فذكر خادم للشيخ أنه كان ذلك اليوم صائمًا؛ فاتفق أن سيده دعاه للإفطار معه. يقول الخادم: وجدت منه إقبالًا ولطفًا فقلت له: يا سيدي، هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا؟ فقال: ما لك ولهذا كُلْ. فعرفت أنه يعرفه، فتركت الأكل وقلت له: لوجه الله تعالى عرِّفني به من هو. فتبسم — رحمه الله — وقال لي: الشيخ محيي الدين بن عربي. فأطرقت ساكتًا متحيرًا، فقال: ما لك؟ فقلت: يا سيدي قد حرت. قال: لِمَ؟ قلت: أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت؟ فقال: اسكت ذلك مجلس الفقهاء. هذا الذي روي لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام.

وكان الشيخ كمال الدين الزملكاني من أجلِّ مشايخ الشام، يقول: ما أجهل هؤلاء ينكرون على الشيخ محيي الدين بن عربي لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن دَرك معانيها! فليأتوني لأحل لهم مشكله، وأبيِّن لهم مقاصده بحيث يظهر لهم الحق.

وهذا القطب سعد الدين الحموي سُئل عن الشيخ محيي الدين بن عربي لما رجع من الشام إلى بلده: كيف وجدت ابن عربي؟ فقال: وجدته بحرًا زخَّارًا لا ساحل له. وهذا الشيخ صلاح الدين الصفدي له كتابٌ جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة، تنظر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي لتعرف مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية. وقيل إن ابن عربي صنَّف بعض كتبه بأمرٍ من الحضرة الشريفة النبوية. قال الشيخ محيي الدين الذهبي حافظ الشام، وكان من أعظم المنكرين على الصوفية: ما أظن محيي الدين يتعمد الكذب أصلًا.

ثم إن ابن عربي كان مظهره بدمشق، وأخرج هذه العلوم فيها ولم ينكر عليه ذلك أحد من علمائهم. وكان قاضي قضاة الشافعية في عصره شمس الدين أحمد الجوبي يخدمه، وقاضي قضاة المالكية زوَّجه بابنته، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ. قال المقري في نفح الطيب إنه نقل ما نقله من ترجمة ابن عربي من كلام العارف بالله عبد الوهاب الشعراني — رضي الله عنه — ونحن نقلنا في كتابنا هذا ما ذكره المقري

ملخصًا، ثم راجعنا ما قال الشعراني في الطبقات الكبرى فلم نجد هذه الروايات في الطبقات المذكورة، فلعله نقلها عنه من كتابٍ آخر. أما في الطبقات فالشعراني يقول عن ابن عربي: الشيخ العارف الكامل المحقق المدقق، أحد أكابر العارفين بالله، سيدي محيي الدين بن العربي — رضي الله عنه — بالتعريف — أي بوضع الألف واللام على لفظه عربي — كما رأيته بخطه، وقال: أجمع المحققون من أهل الله — عز وجلَّ — على جلالته في سائر العلوم كما تشهد بذلك كتبه، وما أنكر من أنكر عليه إلَّا لدقة كلامه لا غير، فأنكروا على ما يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفًا من حصول شبهة في معتقده يموت عليها ولا يهتدي لتأويلها على مراد الشيخ.

وقد ترجمه الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور، فقال: هو الشيخ الإمام المحقق رأس أجلَّاء العارفين والمقربين، صاحب الإشارات الملكوتية، والنفحات القدسية، والأنفاس الروحانية، والفتح المؤنق، والكشف المشرق، والبصائر الخارقة، والسرائر الصادقة، والمعارف الباهرة، والحقائق الزاهرة، له المحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس (إلى آخر ما نحله إياه من الصفات والألقاب). ونقل الشعراني أن العارف بالله محمد بن أسعد اليافعي — رضي الله عنه — ذكر ابن عربي بالعرفان والولاية، وأن العارف الشهير الشيخ أبا مَدْيَن — رضي الله عنه — لقَّب ابن عربي بسلطان العارفين. قال الشعراني: إن كتبه مشهورة بين الناس، لا سيما بأرض الروم؛ فإنه ذكر في بعض كتبه صفة السلطان جد السلطان سليمان بن عثمان وفتحه القسطنطينية في الوقت الفلاني، فجاء الأمر كما قال، وبينه وبين السلطان نحو مائتي سنة، وقد بني عليه قبة عظيمة وتكية شريفة بالشام.

قلت: إن السلطان الذي فتح القسطنطينية هو السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني، وكان فتحه لها سنة ٨٥٣ للهجرة. وعاش ابن عربي إلى سنة ٦٣٨؛ فإن كان قال شيئًا في صفة السلطان محمد الفاتح قبل ظهوره بنحو مائة وخمس وثمانين سنة فيكون من الخوارق. وأما القبة التي بُنيت على ضريح ابن عربي — رحمه الله — فيقال إنها من بناء السلطان سليم بن بايزيد بن محمد الفاتح، وكانت ولاية سليم سنة ثماني عشرة وتسعمائة، وقد ذكر الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين» ونقل ذلك صاحب «شذرات الذهب»، ونقلته أنا في تاريخ أمة الترك الذي علقته في حاشيتي على تاريخ ابن خلدون، وطبع من سنتين؛ أن السلطان سليمًا والد السلطان سليمان — فاتح الشام ومصر — عندما دخل الشام أمر بعمارة قبة على مقام الشيخ محيي الدين بن عربي بصالحية دمشق، ورتَّب عليها أوقافًا كثيرة.

ونعود إلى ما قال الشعراني عن ابن عربي، فمن ذلك أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر كان يحطُّ عليه كثيرًا، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي — رضي الله عنه — وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبية. قال الشعراني: وقد سطرنا الكلام على علومه وأحواله في كتابنا «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» فراجعه، فيظهر أن الذي نقله المقري في النفح عن الشعراني نقله عن هذا الكتاب.

وأما ابن خلكان فلم يذكر الشيخ محيي الدين بن عربي في «وفيات الأعيان»، وإنما ذكره صاحب «فوات الوفيات» محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، المتوفى سنة ٧٦٤، وقال: إنه ولد بمرسية، وإنه أخذ فيها عن ابن بشكوال، وذكر من تصانيفه ما لم يرد ذكره في نفح الطيب مثل «التدبيرات الإلهية والتنزلات الموصلية»، و«الأجوبة المسكتة عن سؤالات الحكيم الترمذي»، و«تاج الرسائل ومنهاج الوسائل»، وكتاب «التجليات»، و«مفاتيح الغيب»، و«الإعلام بإشارات أهل الإلهام»، و«المدخل إلى معرفة الأسماء»، و«العبادة والخلوة»، و«كُنه ما لا بد منه»، و«النقباء»، و«حلية الأبدال»، و«عقيدة أهل السنة»، و«المقنع في إيضاح السهل الممتنع»، و«مناصحة النفس»، و«تاج التراجم»، و«مشكاة الأنوار»، و«الجلال والجمال»، و«محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار» خمسة مجلدات، وغير ذلك من الكتب والرسائل، وذكر من شعره:

ليت شعري هل دروا	أيَّ قلبٍ ملكوا
وفؤادي لو درى	أيَّ شعبٍ سلكوا
أتراهم سلِموا	أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى	في الهوى وارتبكوا

وله:

سلام على سلمى ومن حلَّ بالحمى	وحق لمثلي رقةً أن يسلِّما
وماذا عليها أن تردَّ تحية	علينا ولكن لا احتكام على الدُّمى
سروا وظلام الليل أرخى سدوله	فقلت لها: صبًّا غريبًا متيما
فأبدت ثناياها وأومض بارق	فلم أدرِ من شقَّ الحنادس منهما

وقالت أما يكفيه أني بقلبه　　يشاهدني من كل وقتٍ أما أما

وله:

درستْ عهودهُمُ وإنَّ هواهمُ　　أبدًا جديد في الحشا ما يدرس
هذي طلولهمُ وهذي أدمعي　　ولذكرهم أبدًا تذوب الأنفس
ناديت خلف ركابهم من حبهم　　يا من غناه الحسن ها أنا مفلس
يا موقدًا نارًا رويدك هذه　　نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا

وله:

ناحت مطوقة فحنَّ حزين　　وشجاه ترجيع لها وحنين
جرت الدموع من العيون تفجعًا　　لحنينها فكأنهنَّ عيون
طارحتها ثكلى بفقد وحيدها　　والثكل من فقد الوحيد يكون
بي لاعج من حب رملةِ عالجٍ　　حيث الخيام بها وحيث العين
من كل فاتكة اللحاظ مريضةٍ　　أجفانها لظبى اللحاظ جفون
ما زلت أجرع دمعتي من غلَّتي　　أُخفي الهوى عن عاذلي وأصون

هذا شعر يدل على طول باع ورقة طباع، ويسجل لابن عربي بأنه كان من رءوس الأدباء، منضمًّا إلى قول مريديه إنه من رءوس العارفين. ومما رواه المقري في النفح نقلًا عن الإمام اليافعي اليمني أن ابن عربي اجتمع مع الشهاب السهروردي فأطرق كل واحد منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام، فقيل للشيخ ابن عربي: ما تقول في السهروردي؟ فقال: مملوء سنَّةً من قرْنِه إلى قدمه. وقيل للسهرودي: ما تقول في الشيخ محيي الدين؟ فقال: بحر الحقائق. ثم قال اليافعي ما ملخصه: إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه، فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته، وقال: إنكم لا تفهمون معاني كلامه.

وقال صاحب «عنوان الدراية»: إن الشيخ محيي الدين كان يعرف بالأندلس بابن سراقة، وهو فصيح اللسان بارع فهم الجنان، رحل إلى العدوة، ودخل بجاية في رمضان سنة ٥٩٧، وبها لقي أبا عبد الله العربي وجماعة. قال: ثم رحل إلى المشرق وألَّف تواليف فيها ما فيها، إن قيَّض الله تعالى من يسامح ويتأوَّل سَهُل المرام، وإن كان ممن ينظر

بالظاهر فالأمر صعب. وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا في إراقة دمه؛ فخلَّصه الله تعالى على يد الشيخ أبي الحسن البجائي؛ فإنه سعى في خلاصه وتأوَّل كلامه، ولما وصل إليه بعد خلاصه قال له؛ أي البجائي: كيف يحبس من حلَّ منه اللاهوت في الناسوت؟ فقال له ابن عربي: يا سيدي، تلك شطحات في محل سكر، ولا عتب على سكران.

وممن ذكر ابن عربي الإمام شمس الدين محمد بن مسدي في معجمه البديع المحتوي على ثلاثة مجلدات، وترجمه ترجمة عظيمة قال فيها إنه كان ظاهري المذهب في العبادات باطنيَّ النظر في الاعتقادات، خاض بحار تلك العبارات، وتحقق بمحيا تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والإقدام. ومواقف النهايات في مزالق الأقدام؛ ولهذا ما ارتبْت في أمره، والله تعالى أعلم بسرِّه. قال المقري: ونقلت من خط ابن علوان التونسي من شعر الشيخ محيي الدين ما يأتي:

بالمال ينقاد كل صعبٍ ... من عالم الأرض والسماء
يحسبه عالم حجابًا ... لم يعرفوا لذة العطاء
لولا الذي في النفوس منه ... لم يُجب الله في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه ... من عسجد مشرق الضياء
بل هو ما كنت يا بنيَّ ... به غنيًّا عن السواء
فكن برب العلا غنيًّا ... وعامل الخلق بالوفاء

وقال:

نبه على السرِّ ولا تُفشِهِ ... فالبوح بالسرِّ له مقتُ
على الذي يبديه فاصبر له ... واكتمه حتى يصل الوقت

وقال وهو في المقام النبوي الشريف:

يا حبذا المسجد من مسجد ... وحبذا الروضة من مشهد
وحبذا طيبة من بلدة ... فيها ضريح المصطفى أحمد
صلى عليه الله من سيِّدٍ ... لولاه لم نفلح ولم نهتد
قد قرن الله به ذكره ... في كل يومٍ فاعتبر ترشد

عشر خفيات وعشر إذا أُعلن بالتأذين في المسجد
فهذه عشرون مقرونة بأفضل الذكر إلى الموعد

وجاء في الانسيكلوبيدية الإسلامية ذكر الإمام محيي الدين بن عربي فقالت فيه: إنه متصوِّف شهير قائل بوحدة الوجود، ولد بمرسية في ٢٨ يوليو سنة ١١٩٥ المسيحية، ثم رحل إلى إشبيلية حيث أقام ثلاثين سنة، وقرأ الفقه والحديث في إشبيلية وسبتة، ثم ذهب إلى تونس، ثم ذهب إلى الشرق، فوصل إلى مكة، وزار بغداد، ثم رجع إلى مكة، وذهب إلى حلب، ثم إلى الموصل، ثم إلى الأناضول، وكان صيته سابقًا له في كل مكان، وكان يقدَّم إليه المال فينفقه في الصدقات، واستقرَّ أخيرًا بدمشق، وتوفي في أكتوبر سنة ١٢٤٠ المسيحية وفق ربيع الثاني سنة ٦٣٨، ودفن في سفح قاسيون، حيث دفن إلى جانبه ابناه في ما بعد.

وأما من جهة الشرع فكان ابن عربي ظاهريًّا على مذهب ابن حزم الأندلسي، ولكنه لم يكن مقلدًا، ومع أنه كان يوصي بممارسة شعائر الدين على الوجه الأكمل كان في الحقيقة يسير بحسب نور وجدانه الباطني الذي كان يعتقد أنه ينيره، وكان يقول بوحدة الكائنات وأنها كلها مظاهر الألوهية فالأديان جميعها في نظره تختلف اختلافًا نسبيًّا وكان يعتقد أنه رأى محمدًا، وأنه يعرف اسم الله الأعظم وأنه يعرف الكيمياء بالتنزيل لا بالتعليم واتهم بالزندقة وهو في مصر وكادوا يقتلونه.

ثم ذكرت المعلمة الإسلامية كتابه «الفتوحات المكية»، وقالت إنه طبع في بولاق سنة ١٢٧٤ للهجرة، وفي القاهرة سنة ١٣٢٩، وذكرت كتابه «فصوص الحكم» الذي أكمله في دمشق سنة ٦٢٧ للهجرة، وقد طبع في بولاق مع تفسيره بالتركية، وقالت: إن ابن عربي لما كان في مكة تعرَّف بامرأة من العالمات الفاضلات، وفارق مكة، ثم رجع إليها فنظم شعرًا غزليًّا يذكر فيها محاسن تلك السيدة وهيامه بها، ولكنه بعد ذلك بسنة عاد فشرح أغزاله بها شرحًا يجعل فيه لهذه الأغزال معاني صوفية، وقد تُرجمت هذه الأشعار إلى الإنكليزية بقلم «نيقولسن»، وهي ترجمة ديوان «ترجمان الأشواق»، ولم يشتهر في أوروبة من تآليف ابن عربي سوى هذا الكتاب، وكتاب آخر في اصطلاحات الصوفية، وكتاب آخر اسمه كتاب «الأجوبة» تُرجم إلى الإنكليزية.

ومما طبع من كتب ابن عربي «محاضرات الأبرار»، فقد طبع في مصر سنة ١٢٨٢ للهجرة ثم سنة ١٣٠٥، وقد طبع ديوان شعره في بولاق سنة ١٢٧١، ثم في بومباي.

وله تفسير للقرآن طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣، وطبع له كتاب «الأخلاق» مع ترجمةٍ له بالتركية وكتاب «الأمر المحكم»، كلاهما طبع في استانبول، وأيضًا طبع في استانبول «تحفة السفَرَة إلى حضرة البرَرَة» مع ترجمة تركية له. وطُبع له «مجموع الرسائل الإلهية» في القاهرة سنة ١٣٢٥، و«مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم» في السنة نفسها، والمحفوظ من تآليف ابن عربي ١٥٠ تأليفًا، ويقال إنه نصف عدد تآليفه هذا، وكثيرٌ من العلماء يطعنون عليه ويتهمونه بالقول بالحلول، وله أنصار كثيرون، فبينما ابن تيمية والتفتازاني وإبراهيم بن عمر البقاعي يشنعون عليه ويكفرونه، نجد الفيروزآبادي والسيوطي وغيرهما يؤيدونه وينصرونه. انتهى.

قلنا: وقد كان أشد الناس على ابن عربي بين علماء السنة الإمام ابن تيميَّة كما هو معلوم. ثم إنه ظهر في هذه المدة تأليف خاص بابن عربي من قلم الكاتب المصري الكبير الأستاذ زكي مبارك اشتمل على فوائد جليلة ومعانٍ طريفة فنوصي الناس بمطالعته.

ومن مفاخر بلنسية الإمام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير، أبوه من أندة بلد القضاعيين من أعمال بلنسية، وقد تقدمت ترجمة أبيه نقلًا عنه من كتابه «التكملة» الذي جعله تتمة لكتاب «الصلة» لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، وهو الكتاب الذي وصل به ابن بشكوال كتاب القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي، المؤلَّف في تاريخ علماء الأندلس من الرواة والفقهاء والقضاة والنبهاء والمقرئين والأدباء، والقادمين عليها من غير أهلها، فتكون هذه الكتب الثلاثة أشبه بكتاب واحد، التالي منها تكملة للسابق. وأحدثها عهدًا وأغزرها مادةً تكملة ابن الأبار القضاعي هذا، وعنه أخذنا تلخيصًا تراجم أكثر رجال العلم الذين نبغوا في الأندلس بين القرنين السادس والسابع للهجرة، كما هو مبيَّن في هذه التراجم، وأما ترجمة صاحب التكملة نفسه فقد جاء منها في نفح الطيب قوله إنه كتب ببلنسية عن السيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، ثم عن ابنه السيد أبي زيد، ثم كتب عن الأمير أبي مردنيش، ولما نازل الطاغية بلنسية بعثه الأمير زيَّان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن حفص (صاحب تونس)، وفي ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو، فأنشد

السلطان قصيدته السينية التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى مَنْجَاتها درسا

وقد أوردناها كلها في آخر هذا الجزء. ثم لما قُضِيَ الأمر ولم ينجع في أمر بلنسية علاج، واستولى الإسبانيون عليها وعلى مملكتها الاستيلاءَ النهائي، هاجر ابن الأبَّار بأهله إلى تونس. قال المقري في النفح: إن ذلك كان غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان ورشَّحه لكتب علامته في صدور مكاتباته مدة. ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني؛ لكونه يحسن كتابتها، فكتبها مدة بالخط المشرقي، وكان آثر عند السلطان من المغربي، فسخط ابن الأبَّار أَنَفَة من إيثار غيره عليه، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذٍ في الحضرة عليه، وأن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها، فجاهر بالرد ووضعها استبدادًا وأنفة، وعُوتِب على ذلك فاستشاط غضبًا ورمى بالقلم، وأنشد متمثلًا:

اطلب العز في لظًى وذر الذلْ لَ ولو كان في جِنَان الخلود

فنمى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته. ثم استعتب السلطان بتأليف رقعة إليه عَدَّ فيه من عوتب من الكتَّاب وأُعتب، وسماه «إعتاب الكتَّاب»، واستشفع فيه بابنه المستنصر؛ فغفر السلطان له وأقال عثرته وأعاده إلى الكتابة. ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبَّض عليه وبعث إلى داره فرُفعت إليه كتبه أجمع، وأُلفي أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها:

طغى بتونس خلف سموه ظلمًا خليفه

فاستشاط السلطان لها، وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقُتل قعصًا بالرماح وسط محرم سنة ٦٥٨، ثم أُحرق شِلوهُ، وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه، وكان مولده ببلنسية سنة ٥٩٥، وقال في حقه ابن سعيد في «المُغرب» ما ملخصه:

حامل راية الإحسان، المشار إليه في هذا الأوان، ومن شعره يصف الياسمين:

حديقة ياسمين لا تهيم بغيرها الحدقُ
إذا جفن الغمام بكى تبسَّم ثغرها اليفقُ
فأطراف الأهلة سال في أثنائها الشفقُ

وهو حافظ متقن، له في الحديث والأدب تصانيف، وله كتاب في متخير الأشعار، سماه «قِطَع الرياض»، وله «تكملة الصلة» لابن بشكوال، و«هداية المعترف في المؤتلف والمختلف»، وكتاب التاريخ، وبسببه قتله صاحب إفريقية؛ قال في نفح الطيب: وأُحرقت كتبه على ما بلغنا — رحمه الله تعالى — وله «تحفة القادم» في شعر الأندلس، و«الحلة السيراء في أشعار الأمراء». انتهى ملخصًا.

هوامش

(١) ذكر الحميري في الروض المعطار عدة حصون لمرسية أحببنا ذكرها هنا؛ منها «حصن شنغيره»، قال: هو على أربع مراحل في شرقيها، مشهور بالمَنَعَة، ظفر به في الصلح محمد بن هود سنة ٦١٤ ومعه خمسمائة من أجناد الرجال، فغدر به؛ لأن أبا سعيد بن أبي حفص الهنتاتي لما طاف على حصون الأندلس يتفقدها في أيام الهدنة نظر إلى هذا المعقل وهو بارز إلى السماء مع وثاقة بنائه فأعجبه، وقال: كيف أخذ الروم هذا الحصن من المسلمين؟ فقيل: غدروا به في زمان الصلح. فقال: أما في أجناد المسلمين من يجازيهم بفعلهم؟ فسمعه ابن هود فأسرَّها في نفسه إلى أن تمَّت له الحيلة؛ فطلع في سلَّم من حبال، فذبح السامر الذي يحرس بالليل، ولم يزل يطلع رجاله واحدًا واحدًا إلى أن حصلوا بجملتهم في الحصن، وفرَّ الروم الذين خلصوا من القتل إلى برج مانع، فقال ابن هود: إن أصبح هؤلاء في هذا البرج جاءهم المدد من كل مكان؛ فالرأي أن تطلق النيران في بابه. فلما رأوا الدخان وأبصروا اشتعال النار طلبوا الصلح على أن يخرجوا بأنفسهم؛ فكان ذلك، واستولى المسلمون على الحصن.

وكان الروم قد أرسلوا في الليل شخصًا دلَّوه من البرج، فأصبحت الخيل والرجال على الحصن وقد أحكم المسلمون أمره؛ فانصرف الروم في خجلة وخيبة، وترددت في شأنه المخاطبات إلى مراكش. فقال الوزير ابن جامع لابن الفخَّار: أخذناه في الصلح كما

أخذ منا في الصلح. ومن هذه الوقيعة اشتهر ابن هود عند أهل شرق الأندلس، وصاروا يقولون: هو الذي استرجع شنغيره. ا.هـ.

وذكر الحميري حصنًا صغيرًا أيضًا على نهر مرسية اسمه «الصخور» — وقد ورد ذكر هذا الحصن في الإحاطة، وعبَّر عنه لسان الدين «بالصخيرات» — قال الحميري: في هذا الحصن دعا لنفسه محمد بن هود، وأبو العلا إدريس المأمون في إشبيلية، وقد صفت له، وكان عازمًا على التحريك إلى بر العدوة، فبينما هو يروم ذلك إذ وصله الخبر بقيام ابن هود هذا، وكان من الجند ولم يكن إذ ذاك أحد من أكابر الأندلسيين يطمع في ثروة ولا يحدِّث بها نفسه، فبنو مردنيش في بلنسية، وبنو عيسى في مرسية، وبنو صناديد في جيَّان، وبنو فارس في قرطبة، وبنو وزير في إشبيلية، لانتظام البرَّين على طاعة الدولة الممهدة القواعد ورجوع أمورها إلى إمامٍ واحد، حتى اتفقت ثورة (في الأصل ثيارة وكررها مرارًا ولم نجدها بمعنى ثورة) العادلِ بمرسية، ثم ثورة البيَّاسي ونكبته، ثم مبايعة أبي العلا بإشبيلية؛ ففتحوا على دولتهم بابًا رحَّلة منه غيرهم، فأوقع الله تعالى في خاطر ابن هود هذا أنه يملك الأندلس، وتحدَّث بذلك مع من يثق به، وذكر أنه محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العليم بن أحمد المستنصر بن هود.

واحتقره السيد الذي كان في مرسية من قِبَل أبي العُلا؛ فجمع أصحابه وخرج بهم إلى الحصن المعروف بالصخور فدعا لنفسه، واجتمع له جمع من القطَّاع ودُعار الشعاري والضياع، وقال لهم: أنا صاحب الزمان، وأنا الذي أردُّ الخطبة عباسية. وخاطب بذلك أبا الحسن القسطلِّي — قاضي مرسية يومئذٍ — وأعلمه أنه إن تمكن من هذا الغرض فإن الدولة تكون في يده؛ فأصغى الشيخ إليه إصغاءً أذهله عن حتفه الذي بحث عنه. ثم حضر القاضي القسطلي عند السيد الملقَّب بأبي الأمان وقد لاحت عليه دلائل الخذلان، فقال: يا سيدي. هذا الرجل الذي كان في الصخور ما زال خديمكم؛ فكتبنا له نرغِّبه في الطاعة ونعده بما يكون من الخير في أثر ذلك حتى أذعن، وها هو قد وصل ليقبِّل يديكم الكريمة، وسيدنا يرتب له ولأصحابه ما يكفُّهم عن الثيارة، ويرى أن ينتفع بهم في قطع الفساد عن جهات هذه البلاد؛ فابتهج السيد وأنفذ إليه بالمبادرة، فلم يمرَّ إلَّا القليل حتى دخل ابن هود وأصحابه مرسية وبيدهم السلاح، فبعدما مالوا لتقبيل يده قبضوا عليه ثم حبسوه، وأجلسوا ابن هود في مكانه، وخطب في أول جمعة للمستنصر العباسي، ثم لنفسه بالمتوكل على الله أمير المؤمنين، وعندما وصل الخبر بذلك إلى أبي العُلا وكان عزم

على جواز البحر تمثَّل:

إن الطبيب إذا تعارض عنده　　مرضان مختلفان داوى الأخطرا

وصرف وجهه إلى مرسية؛ ففي أول منزلة نزل بها قام الأستاذ أبو علي الشلوبين فابتده، وقال: «ثلَّمك الله ونثَّرك»، يريد سلمك الله ونصرك، وكان يردُّ السين والصاد ثاءً، وقام بعده أبو الحسن بن أبي الفضل فأنشده قصيدة أولها:

خدمتك السيوف والأقلامُ　　وأناخت لأمرك الأيامُ

وقام الكاتب البلوي فأنشد قصيدة منها:

إن تك مرسية قد عصت　　فما قد بقي طائعًا أكثرُ
منابرنا لك قد أصبحت　　فما ضر أن قد عصا منبر

فكره أبو العُلا ما أتوا به، واسودَّ وجهه؛ فتطيَّر الحاضرون بذلك، وامتنع أبو العُلا بعد هذا المجلس من كلام الخطباء وإنشاد الشعراء في هذه القضية، وأقام محاصرًا لابن هود حتى رحل في السنة الثانية، وعلم أهل مرسية أنهم لا ينفعهم معه إلا التجريد عن ساعد الجد، وعلم هو أنه لا تجوز عليهم حيلة، ولا تنفع فيهم موعظة، وكان الأمر على ما نطق به القدر على ألسنة أولئك. ا.هـ.

وذكر الحميري من بلاد مرسية بلدة يقال لها «عَفْص» قال إنه كانت فيها وقيعة للروم على أهل مرسية، ذهب فيها من أهل مرسية بين قتيل وأسير نحو أربعة آلاف رجل، وكان الروم أغاروا على تلك الجهة فخرج إليهم أهل مرسية، وكانوا عابوا على أهل إشبيلية مثلها حين وقعت عليهم الهزيمة بفحص «طلياطة»، ونسبوهم إلى الضعف والخور وقلَّة الدربة بالحروب، فلم تمض الأيام حتى امتحنهم الله بهذه الوقيعة، وكان صاحب جيش هذا اليوم أبو علي بن أشرقي. قال صاحب الملتمس: كائنة عفص هي أخت كائنة طلياطة المتقدمة في سنة ٦٢١، كانت هذه في غرب الأندلس وهذه في شرقها، وكان عبَّاد الصليب قد وصلوا إلى عفص فخرج عسكر مرسية ومعهم العامة، فقتل منهم كثير

وأُسر كثير، وفيها يقول أحد المرسيين:

بوقعة عفصٍ وطلياطة تكامل إقبال أيامنا
فبالغرب تلك وبالشرق ذي أناخوا على شُم أعلامنا
وفي وسط الأرض قيجاطة ولوشة قمنا بأحلامنا

(٢) قال الحميري في الروض المعطار: مرسية بالأندلس، وهي قاعدة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دارًا للعمَّال وقرارًا للقواد، وكان الذي تولى بنيانها وخرج العهد إليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد، وكان تاريخ الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول سنة ٢١٦، فلما بناها ورد كتاب الأمير عبد الرحمن على جابر بن مالك بخراب مدينة «أَلُّه» من المضريَّة واليمانية. وكان السبب في ذلك أن رجلًا من اليمانية استقى من وادي لورقة قُلَّةً، وأخذ ورقة من كرم لرجل من المضرية، فغطَّى بها القلة فأنكر ذلك المضري وقال: إنما ذلك استخفافًا بي إذ قطعت ورق كرمي، وتفاقم الأمر بينهما حتى تحارب الحيَّان وعسكر بعضهم إلى بعض، واقتتلا أشد قتال.

ومرسية على نهرٍ كبير يسقي جميعها كنيل مصر، ولها جامع جليل وحمَّامات وأسواق عامرة، وهي راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمار، وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة، وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريفة، ولأهل مرسية حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم.

ومن مرسية أبو غالب تمَّام بن غالب المعروف بابن التيَّاني اللغوي المرسي صاحب الموعب، وكان أبو الجيش مجاهد بن عبد الله صاحب دانية قد تغلَّب على مرسية، وأبو غالب إذ ذاك بها، فأرسل إليه ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب أنه ألَّفه لأبي الجيش مجاهد؛ فردَّ الدنانير وأبى من ذلك، وقال: والله لو بُذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب؛ فإني لم أجمعه له خاصة، وإنما جمعته لكل طالب علم.

وعلى أربعين ميلًا من مرسية عين ماء عذب يقصدها من عَلِق العلق بحلقه فيفتح به، فيسقط لحينه، وذلك بإقليم «إبلش»، وقال بعضهم: هذا طبٌّ عام يوجد في كل ماء عذب بارد إذا فتح فيه عليه من علق العلق به أسقط في الأغلب؛ وذلك لأن العلق إنما ينشأ في الماء العذب فيطرأ عليه من خلاف ذلك المزاج ما يستروح منه إلى الماء، وكثيرًا ما يطبُّ به الأطباء فيستغنون به عن شجر «أناغليس» الذي من شأنه قتل العلق، وعن العكُّوب، وعن الخل، وأمثال هذه الأشياء.

ومرسية في مستوٍ من الأرض، ولها ربض عامر آهل، وعليها وعلى ربضها أسوار وحظائر متقنة، والماء يشق ربضها، وهي على ضفة النهر، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب، وبها أرحاء طاحنة في مراكب تنتقل من موضعٍ إلى موضع، وبها شجر التين كثير، ولها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال. ومنها إلى بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل. ويخرج من نهر مرسية جدول على مقربة من قنطرة «أشكابة» قد نقرته الأوَل في الجبل وهو حجر، وجابوه نحو ميل، وهذا الجدول هو الذي يسقي قبلي مرسية، ونقبوا بإزاء هذا النقب في الجبل الموازي لهذا الجبل نقبًا آخر مسافته نحو ميلين أخرجوا فيه جدولًا ثانيًا، وهو الذي يسقي جوفيَّ مرسية، ولهذين الجدولين مَنَافِس في أعلى الجبلين ومناهد إلى الوادي تنقى الجدولان منه بفتحها وانحدار الماء مما اجتمع من الغثاء فيهما. ولا يُسقى من نهر مرسية شيء بغير هذين الجدولين إلَّا بما رُفع بالدواليب والسواني. وبين موقع هذين النَّقرين ومرسية ستة أميال. ا.هـ.

ومما ذكره صاحب الروض المعطار من عمل مرسية بلدة «قَرَبَاكَة»، وقد يقال: قراباقة بالقاف، وهي من إقليم «مُولَة» قال: وهي قرية بها عين ماء تولِّد الحصى بطبعها، وإذا طال مكثه في الإناء من النحاس أو غيره تحجَّر بجنباته حتى تتضاعف زِنَة الإناء، وعين ماء أخرى تفتت الحصى بطبعها. ا.هـ. ثم ذكر بلدة ثانية يقال لها: «قربليان» بفتح فسكون ففتح فسكون، ثم قال: إن بينها وبين أوريولة عشرين ميلًا، وهي كثيرة الزيتون، وبها سقي كثير. ثم ذكر قرطاجنة وقال: إنها فرضة مرسية، وهي مدينة قديمة أزلية لها ميناء ترسو فيه المراكب الكبار والصغار، وهي كثيرة الخصب والرخاء المتتابع، ولها إقليم يسمى «الفُندُون»، وقليلًا ما يوجد مثله في طيب الأرض وعذوبة الماء، ويحكى أن السنبل يحصد فيه عن مطرة واحدة، وإليه المنتهى في الجودة. ومن مدينة قرطاجنة إلى مرسية في البر أربعون ميلًا قال: وبقرطاجنة هذه هزم عبد العزيز بن موسى بن نصير تدمير بن عبدوس الذي سميت به تدمير، هزمه وأصحابه ووضع المسلمون فيهم السيف يقتلونهم كيف شاءوا حتى نجا تدمير في شرذمة من قلال أصحابه إلى حصن أوريولة، وكان مجربًا بصيرًا ذا هيبة، فلما رأى قلة أصحابه أمر النساء فنشرن شعورهن، وأمسكن القصب بأيديهن في من بقي من الرجال وقصد بنفسه كهيئة الرسول، واستأمن فأمن، وانعقد الصلح له ولأهل بلده، وفُتحت تدمير صلحًا، فلما نفذ أمره عرَّفهم بنفسه وأدخلهم المدينة؛ فلم يروا بها إلا نفرًا يسيرًا من الرجال؛

فندم المسلمون على ما كان منهم، وكان ما انعقد من صلح تدمير مع عبد العزيز على إتاوةٍ يؤديها وجزية عن يدٍ يعطيها، وذلك على سبع مدائن منها أوريولة ولقنت وبلانة وغيرها، تاريخ فتحها سنة ٩٤، وقد تقدم هذا الكلام في موضعٍ آخر.

وقد ورد ذكر قرطاجنة في الروض المعطار لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، الذي جمعه سنة ٨٦٦، وذلك باسم «قرطاجنة الخلفاء»، كما في الطبعة التي طبعت بمصر بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بتصحيح الأستاذ المستشرق لافي بروفنسال، ولا معنى للفظة «الخلفاء» هنا، وإنما هي «الحلفاء» بالحاء المهملة؛ هذا النبات المعروف الذي يكثر هناك، وقد كنا نظن أنه مجرَّد تصحيف، ولكن تكرار اللفظة مع النقطة على الحاء، جعلنا نعتقد أنها «الخلفاء» جمع خليفة، وهو غلط هنا.

(٣) ذكر ليفي بروفنسال من الكتابات التي وجدت في مرسية ونواحيها كتابة على قبر في قرية يقله Yecla من قرى مرسية، وهي بعد البسملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ﴾، توفي عمر بن إدريس … يوم الثلاثة في يومين من شهر جماد الأول الذي من سنة أحد وستين وثلاثة مائة.

ظاهر من الكتابة أنها عامية تقريبًا، والبلاطة المكتوب عليها بسيطة، ولكن الخط بالكوفي.

وذكر كتابة قبرية أخرى وجدت في أساس بيت كذلك بالكوفي، ونصها بعد البسملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ﴾. هذا قبر أحمد بن جناح، توفي — رحمه الله — باقي لرجب اثني عشر يومًا سنة سبع وخمسين وأربعة مائة، كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

وذكر كتابة أخرى على قبر لم يعرف مكانه، تاريخها سنة ٥٤٠ للهجرة، والذي يقرأ منها هو ما يلي … بن … ون الأزدي … رحمه الله، ليلة … لثلاث عشرة … في سنة … وأربعين و… كان يشهد … لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

وذكر أيضًا كتابة على قبر سيدة من آل مردنيش الذين منهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن مردنيش ملك شرقي الأندلس، وُجدت هذه الكتابة في صومعة كنيسة «سانتا كتالينا» في مرسية، وهي محفوظة في متحف مرسية العربي الذي زرناه بنفسنا، والكتابة هي هذه: … ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إن الله عليمٌ خبير. هذا قبر الحرَّة الفاضلة بنت ذي الوزارتين القائد

الأجل المجاهد أبي عثمان سعد بن مردنيش بن محمد، توفيت … سنة سبع وخمسين وخمسمائة.

قال بروفنسال إنه من المؤسف امِّحاء قسم من هذه الكتابة؛ لأن القائد محمد بن مردنيش الذي بعد سقوط دولة المرابطين غلب على بلنسية ومرسية ووادي آش وغيرها، وصار له ذكر عظيم، كان المسيحيون يعرفونه باسم الملك لب Rey Lobo، والسيدة المدفونة هي كريمة سعد بن مردنيش بن محمد، فسعد يجب أن يكون إما والد الملك لب المذكور محمد بن سعد بن مردنيش أو جده. وكان هذا الرجل قد قتل في واقعة أفراغة سنة ٥٢٨ للهجرة وفق سنة ١١٣٤ للمسيح، وهي واقعة ظهر فيها المسلمون على النصارى.

وفي هذه الكتابة التي على قبر هذه السيدة مذكور لقب ذي الوزارتين، وهو لقب كان شائعًا في الأندلس لذلك العهد. فإذا كان ذو الوزارتين المكتوب اسمه هنا — أي سعد بن مردنيش بن محمد — هو والد الملك أبي عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش؛ فتكون المدفونة أخت الملك المذكور، وقد كان له أيضًا أخوان؛ أحدهما اسمه أبو الحجاج يوسف، والثاني اسمه عبد الله. وقد كان يظن أن مردنيش المحرَّف عن الاسم الإسبانيولي Mardines أو Martinez هو اسم الجد الثالث للملك محمد بن مردنيش، والحال أنه ظهر من هذه الكتابة كون مردنيش هو والد سعد الذي هو والد الملك أبي عبد الله محمد بن سعد، فتكون الكتابة مخالفة للمعروف إلى الآن من نسق ترتيب أجداد هذا الرجل. ا.هـ.

قلنا: إن المعروف في تواريخ العرب أن نسب الملك أبي عبد الله محمد بن سعد صاحب شرقي الأندلس هو هكذا: محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي. قال لسان الدين بن الخطيب: إنه على يد والده سعد جرت الواقعة الكبرى بظاهر أفراغة على ابن ردمير Alphonse le batailleur، فجاءت الشهرة وعظمت الأثرة. قال بعضهم: تولى أبوه سعد قيادة أفراغة وما إليها وضبطها، ونازله ابن ردمير فشُهر عناؤه بها في دفاعه وصبره على حصاره إلى أن هزمه الله — عز وجل — على يد ابن غانية، وظهر بعد ذلك فحسن بلاؤه وبعُد صيته، ورأس ابنه محمد (أي الملك أبو عبد الله محمد بن سعد) ونفق في الفتنة، وكان بينه وبين ابن عياض المتأمِّر بمرسية صهر ولاه لأجله بلنسية. فلما توفي ابن عياض بادرها ابن سعد، وبلغه أثناء طريقه غدر العدو بحصن حلَّال، فكرَّ إليه وفتحه، وعاد فملك بلنسية. وقد ارتفع له صيت شهير، ثم دخلت

مرسية في أمره واستقام له الشرق وعظمت حاله. انتهى.

بحسب كلام لسان الدين يكون والد الملك المذكور اسمه سعد، ويكون جده اسمه محمد، ويكون والد جده اسمه أحمد، ويكون جد جده اسمه مردنيش، والحال أن الكتابة التي على القبر تجعل بين والده سعد وجده محمد رجلًا اسمه مردنيش، وكتابة القبر المنقوشة على الحجر هي أصحُّ من كتابة التواريخ، لا سيما وقد وقع فيها الاختلاف؛ فإن ابن خلدون مثلًا يقول عن هذا الملك: إنه محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش؛ فقد دخل هنا اسم آخر وهو أحمد.

قال بروفنسال: ليس لدينا ما نقدر أن نحكم به في هذه المسألة بعد أن تعارضت كتابة المؤرخين مع الكتابة المنقوشة على هذا القبر.

ثم ذكر بروفنسال كتابة قبرية أخرى وجدت في مرسية في أثناء هدم دير قديم اسمه «سانتودومينكو Santodomingo» بمرسية، وهذه الكتابة محفوظة في المتحف الأثري بمجريط وبالخط الكوفي والبلاطة من الرخام، والمقروء منها هو هذا: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾. هذا قبر ذي الوزارتين القائد الأجل أبو عمران موسى بن يحيى المدعو بابن الأزرق الفهري، توفي — رحمة الله عليه ونضَّر وجهه وقدَّس روحه وبرَّد ضريحه — في نصف ليلة الأربعاء … من جمادى الأ … سنة ست وستين وخمسمائة، وهو تشهد … رسوله أرسله بالهدى …

قال بروفنسال: إن شهر جمادى الأولى وشهر جمادى الثانية من سنة ٥٦٦ توافق ما بين عشرة يناير و٩ مارس سنة ١١٧١، قال: قد توصَّلت إلى تحقيق شخصية المدفون هنا بواسطة كتابة للسان الدين بن الخطيب في الإحاطة عن ابن مردنيش بمناسبة أن ابن الأزرق المذكور هو من قواد ابن مردنيش وندمائه في الشراب. ا.هـ. قلت: نعم، في أثناء ذكر لسان الدين لكرم الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ذكر في الإحاطة أنه استدعى يومًا ابن الأزرق أحد قواده فشرب معه ومع القرابة في مجلس قد كساه بأحمر الوشي والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى في لهو وشراب عامة اليوم، فلما كمل نهاره وهبهم الآنية وكل ما كان في المجلس من الوشي وغير ذلك. ا.هـ.

وذكر بروفنسال كتابة وجدت في برج من الأبراج بمرسية، وهي محفوظة اليوم عند الدكتور «فردريكو شابولي نافارو Chabuli Navarro»، وهي ستة سطور بالخط النسخي الأندلسي، وهي بعد البسملة والتصلية ما يلي: ارتفاع هذا البرج الغربي من المدينة خمسة وعشرون لوحًا، بني تحت نظر أبي … بن أبي محمد، وأنفق فيها فما

فَضَلَ … الساقية الجوفية في مدة …

قال بروفنسال: إن هذه الكتابة هي من الكتابات المتأخرة، يقرب أن تكون في العهد الذي استولى فيه فرديناند الثالث — ملك قشتالة — على مرسية؛ أي سنة ١٢٤٣، وقال: إن ارتفاع اللوح هو سبعون سنتيمًا كما هو مصطلح عليه في المغرب اليوم، فيكون علو البرج الذي وجدت فيه هذه الكتابة ١٧ مترًا ونصف متر. وذكر أيضًا كتابة وجدت في الكنيسة الكبرى بمرسية، وهذه الكتابة هي آية من القرآن الكريم: ﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

(٤) الذي نعرفه من كتب الزراعة المشهورة من تآليف عرب الأندلس هو كتاب الفلاحة في الأرضين لأبي زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوَّام، وهو مترجَم للإفرنسية.

(٥) مرارًا ذكرنا أن أهل الأندلس كانوا يلفظون بالإمالة فيقولون للباب: بيب، هذه إمالة أتوا بها من الشام، وفي بعض بقاع الشام مثل بعلبك يقولون للباب: بيب، سمعت ذلك بأذني؛ فلذلك كان أهل طليطلة عندهم الباب المسمَّى «بيب المردوم»، وفي قرطبة جملة أبواب كان يقال للواحد منها: بيب، ولكني لم أحفظ أسماءها غيبًا، وربما أراجع الكتب فأذكرها عند الوصول إلى مبحث قرطبة. ومثل ذلك أبواب إشبيلية وغرناطة، وقد كنت أجلس بغرناطة في ساحة يقال لها «بيب الرملة»، وكان اللفظ بالإمالة في أكثر كلمات الأندلسيين، فيقولون «للحَكَم» أمير قرطبة في عصره: «الحَكِم» بكسر وسطه، ويقولون لعثمان: «عثمين»، ويقولون لبني آدم بفتح آدَم: «بنو آدِم» بكسر الدال، ويلفظون «غدًا» بكسر آخره فيقولون: «غدي»، كما نقول نحن في بعض أنحاء سورية، ويقولون «نِفس» بكسر أوله، ويقولون: «بلا شِك» بكسر أول الشك، ويقولون «عقب النفيس»؛ أي «عقب النفاس»، ويقول: «عرق المعقِّد»؛ أي «المعقَّد»، وهلم جرًّا.

(٦) إن شاعرًا إسبانوليًّا من رجال القرن الثامن عشر كان يقال له: «كريستوبال لوزانو» وضع كتابًا على فتح العرب لإسبانية بهذا الاسم.

(٧) المعروف في كتب العرب أن عبد العزيز لم يتنصَّر، وإنما تزوَّج زوجة الملك لذريق التي أخذت من يده بلاد الأندلس، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح وتكنَّت بأم عاصم، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده، ويقال إنه سكن بها في كنيسة بإشبيلية، وأنها قالت له: لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق أهل مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام

في ديننا. فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزري بقدره عندها؛ فاتخذ بابًا صغيرًا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه، فيضطرون إلى الانحناء من صغر الباب؛ فأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له فرضيت بذلك، فنمى الخبر إلى الجند مع ما انضمَّ إلى ذلك من دسيسة سليمان بن عبد الملك لهم في قتل عبد العزيز فقتلوه — سامحه الله تعالى — انتهى ملخصًا عن النفح.

وفي كتاب «أخبار مجموعة» على هذه الواقعة ما يلي: إن عبد العزيز تزوج امرأة لذريق، وكان يقال لها أم عاصم؛ فهمَّ بها فقالت له: إن الملوك إذا لم يتتوجوا فلا ملك لهم، فهل أعمل لك مما بقي عندي من الجواهر والذهب تاجًا؟ فقال لها: ليس هذا في ديننا. فقالت له: من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه في خلوتك؟ فلم تزل به حتى فعل. فبينما هو يومًا جالس معها والتاج عليه إذ دخلت امرأة كان قد تزوَّجها زياد بن النابغة التميمي من بنات ملوكهم فرأته والتاج على رأسه، فقالت لزياد: ألا أعمل لك تاجًا؟ فقال: ليس في ديننا استحلال لباسه. فقالت: فودين المسيح إنه لعَلَى إمامكم. فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، ثم تحدَّثا به حتى علمه خيار الجند، فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رأوه عيانًا ورآه أهله صدقًا. فقالوا تنصَّر، ثم هجموا عليه فقتلوه في عقب سنة ٩٨.

(٨) في الأصل الإسبانيولي الاسم مكتوب هكذا: Fadlo ben Amiza Abou Falta.

(٩) أي الناحية الشمالية، وقد تقدم في هذا الكتاب أن الأندلسيين والمغاربة يسمون الشمال جوفًا، وقد بسطنا آراء اللغويين المعاصرين في هذه المسألة.

(١٠) هذه الأسماء وضعناها كما وجدناها في الكتاب الإسبانيولي، ولم نستطع تحقيقها ولا توجيه كل منها إلى أصله العربي؛ إذ لم نعثر على أصولها العربية في كتاب من الكتب، فإذا أمكن معرفة اسم منها ظاهر العروبة مثل بني علال والبلاط والمهاجر وبني هشام وبني منجي، وكان معروفًا لدينا اسم بطروش وتوزر؛ فإن الأسماء الباقية لا يعرف أصلها نظرًا لكون الإسبانيول يحرفون الألفاظ العربية عندما تنتقل إلى لسانهم، وقد تبعد كثيرًا عن أصلها، ومن الحروف ما يكون مثلًا حاءً فيلفظه الإسبانيون فاءً، وهلم جرًّا.

(١١) يريد بعبد الرحمن هذا الخليفة عبد الرحمن الناصر، وهو الثالث، لا عبد الرحمن الثاني الذي كانت وفاته سنة ٢٣٨.

(١٢) يريد به هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر.

(١٣) يريد بحاجي محمد المنصور بن أبي عامر، وكان اسمه محمدًا.

(١٤) يشير إلى الحروب التي وقعت بين ملوك الطوائف على أثر سقوط الخلافة في قرطبة، وأما سليمان، وفي الأصل الإسبانيولي مذكور اسمه سُليما Zulima، وهو في الحقيقة ترخيم، وإنما هو سليمان بن الحكم، وكانوا استخلفوه في قرطبة ولقبوه بالمستعين بالله، وكان اعتماد سليمان هذا على البربر مما سنذكره عن شاء الله في مكانه من قسم التاريخ.

(١٥) هو زهير الفتى العامري، وكان من فتيان دولة المنصور بن أبي عامر، فلما وقعت فتنة قرطبة انتزى أحد هؤلاء الفتيان، وهو خيران الصقلبي العامري، على مدينة المريَّة، وغلب عليها إلى أن هلك سنة ٤١٩؛ فقام مقامه صاحبه زهير هذا، وامتدت أطناب مملكته من المريَّة إلى شاطبة، ثم وقعت حرب بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة؛ فقضى الله بنصرة باديس مع أن عسكره كان أقل عددًا؛ ففر زهير وجنوده، وتقطعوا في شعاب وعرة ووادي زهير، وجهل مصرعه، كما ورد في كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى.

(١٦) من يوغسلافية اليوم، وهي بلاد صقلبية.

(١٧) هو ابن عمَّار الشاعر الشهير الذي كان أعز خلَّان المعتمد بن عبَّاد، وأحظى بطانتِه لديه في بادئ الأمر، ثم بدأت الوحشة بينهما، وما زالت تشتدُّ حتى صارت عداوة بلغت من ابن عمَّار أن هجا مولاه هجوًا مقذعًا فاحشًا، كان سبب حتفه، وتناول فيه امرأته الرميكية وأولادها الذين قال فيهم:

قصار القدود ولكنهم   أقاموا عليها قرونًا طوالا

فلما ظفر به المعتمد حبسه في أول الأمر، وأمل ابن عمَّار أنه ينال عفوه، لكنه عاد فاشتدَّ غضبه عليه وبلغت منه البادرة أن قتله بيده بآلة من حديد ضربه بها على رأسه فثبتت فيه. فقالت الرميكية: عاد رأسه كرأس الهدهد. فكأنها لم تنسَ القرون التي وصفها ابن عمَّار. وجراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جَرَح اللسان.

(١٨) قال لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة» ما يلي:

> محمد بن يوسف بن هود الجذامي أمير المسلمين بالأندلس، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله، وهو من وَلَد المستعين

بن هود، وألويتهم معروفة، ودولتهم مشهورة، وأمراؤهم مذكورون، خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستمائة إلى الحضور من جهاتها، وبقي يسير من الأجناد معه، وكان الناس يستشعرون ذلك ويترقبون ظهور مسمًّى باسمه واسم أبيه، ويهتفون بإمرته وسلطانه، وجرى عليه بسبب ذلك امتحان في زمان الموحدين مرات؛ إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكائنة والقضايا المستقبلة يقول لهم: يقوم عليكم قائم من صنف الجند اسمه محمد بن يوسف؛ فقتلوا بسبب ذلك شخصًا من أهل جيَّان.

ويقال: إن شخصًا ممن ينتحل ذلك لقي ابن هود فأمعن النظر إليه ثم قال له: أنت السلطان بالأندلس، فانظر لنفسك وأنا أدلك على من يقيم ملكك، فاذهب إلى المقدم القشيِّ فهو القائم بأمرك. وكان القشي رجلًا صعلوكًا يقطع الطريق وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال وسباع البراز قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم وعرض عليه الأمر، وقال: نستفتح بالغارة على أرض العدو على اسمك وعلى سعدك. ففعلوا فجلبوا كثيرًا من الغنم والأسرى، وانضاف إلى ابن هود طوائف مثل هؤلاء وبايعوه في الصخيرات كما ذكر، من عمل مرسية، وتحرك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية فأوقع به وشرده. ثم ثاب إليه ناسه، وعدل بالدعاء إلى العباسيين؛ فتبعه اللفيف، ووصله تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فانتظم الناس في دعوته، وشاع ذكره، وملك القواعد، وجيَّش الجيوش، وقهر الأعداء، ووفَّى للقشيِّ بوعده؛ فولاه أسطول إشبيلية ثم أسطول سبتة، مضافًا إلى أمرها وما يرجع إليه فثار به أهلها بعدُ وخلعوه، وفرَّ أمامهم في البحر، وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيرًا في البحر بغربي الأندلس، ودام زمانًا، ثم تخلَّص في سن الشيخوخة، ومات برباط أسف.

وكان شجاعًا ثبتًا، كريمًا حييًّا، فاضلًا وفيًّا، متوكلًا سليم الصدر، قليل المبالاة، فاستعلى لذلك عليه ولاته بالقواعد كأبي عبد الله الرميمي بالمرية، وأبي عبد الله بن رتون بمالقة، وأبي يحيى عتبة بن يحيى الجد الوالي بغرناطة، وكان مجدودًا؛ لأنه لم ينهض له جيش ولا وفِّق لرأي لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى اللقاء من غير استعداد، وجرت عليه هزائم منها هزيمة السلطان الغالب بالله مرتين؛ إحداهما بظاهر إشبيلية، وركب البحر ثم نجا بنفسه، ثم هزمه في «أسرة» من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك

في سنة أربع وثلاثين وستمائة ونحوها.

وفي سنة خمس وثلاثين كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية؛ فهزمه المأمون أقبح هزيمة، واستولى على محلته، ولاذ منه بمدينة مرسية، ثم شغل المأمون الأمر وأهمته الفتنة الواقعة بمراكش، فصرف وجهه إليها، وثاب الأمر للمتوكل؛ فدخلت في طاعته المرية ثم غرناطة ثم مالقة.

وفي سنة سبع وعشرين تحرك بفضل شهامته بجيوش عظيمة لإصراخ مدينة ماردة وقد نازلها العدو وحاصرها، فلقي الطاغية بظاهرها، فلم يتأنَّ — زعموا — حتى دفع بنفسه بين العدو ودخل في مضاربه، ثم لما وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم استولت عليه هزيمة شنيعة، واستولى العدو على ماردة بعد ذلك. وفتح عليه في أمور منها تملك إشبيلية سنة تسع وعشرين وستمائة، وولَّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالمًا الملقب بعماد الدولة.

وفي سنة إحدى وثلاثين رجعت قرطبة إلى طاعته واستوثق أمره وتملَّك غرناطة ومالقة عام خمس وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد. وفي العشر الأول من شوال دخل في طاعته الرئيسان أبو زكريا وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سلطان بن أبي الحجاج بن سعد، وخرجا من طاعة الأمير أبي جميل، وأخذا البيعة لابن هود على ما في أيديهما. وفي سنة ست وعشرين وستمائة تملَّك الجزيرة الخضراء عَنْوةً يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام المذكور. وفي العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلًا بقصد العدو مدينة وادي آش، فأسرى ليلة مسرجًا ولحق العدو على ثمانين ميلًا، فأتى على آخرهم ولم ينج منهم أحد.

وإخوته الرئيس أبو النجاة سالم ولقبه عماد الدولة، والأمير أبو الحسن عضد الدولة، أسره العدو في غزوة وفاداه بمالٍ كثير، والأمير أبو إسحاق شرف الدولة، وكلهم يكتب عنه من الأمير فلان. وكان له ولد أبو بكر الملقب بالواثق بالله، أخذ له البيعة على أهل الأندلس، وولي عهده وولي بعده، واستقل بملك مرسية، ثم لم ينشب أن هلك.

وقد دخل غرناطة مرات عديدة إحداها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقد وردت عليه الراية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد، وبمصلى غرناطة قرأ على الناس كتابه وهو قائم وزيه السواد ورايته السوداء بين يديه. وكان

يوم استسقاء، فلم يستتم على الناس قراءته يومئذٍ إلا وقد جاءت السماء بالمطر، وكان يومًا مشهودًا وصنعًا غريبًا، وأمر بعد انصرافه أن تكتب عنه تلك الألقاب التي تضمنها الكتاب المذكور إلى البلاد.

وقد اختلف الناس في سبب وفاته؛ فذكر أنه قد كان عاهد زوجته أن لا يتخذ عليها امرأة طول عمرها، فلما تصيَّر إليه الأمر أعجبته رومية حصلت له بسبب السبي من أبناء زعمائهم من أجمل النساء، فسترها عند ابن الرميمي خليفته، فزعموا أن ابن الرميمي علق بها، ولما ظهر حملها خاف افتضاح القصة؛ فدبر عليه الحيلة، فلما حل بظاهر المرية عرض عليه الدخول إليها فاغتاله ليلًا بأن أقعد له أربعة رجال قضوا عليه خنقًا بالوسائد، ومن الغد ادَّعى أنه مات فجأة، وأوقف عليه العدول، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمس وثلاثين وستمائة، وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود يقول الشاعر:

هـمـام بـه زاد الـزمـان طـلاقـةً ... ولـذَّت لـنـا فـيـه الأمـانـيُّ مـوردا

فقل لبني العباس ما هي دولة ... أغار بها الحق المبين وأنجدا

فإن الذي قد جاء في الكُتْب وصفُه ... بتمهيد هذي الأرض قد جاء فاهتدى

فـإن بـشـرتـنـا بـابـن هـود مـحـمـد ... فـقـد أظـهـر الـلـه ابـن هـود مـحـمـدا

انتهى كلام لسان الدين.

وجاء في نفح الطيب:

لما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثارت الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بمرسية، قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى الرميمي — وجده أبو يحيى هو الذي كان أخذها النصارى من يده — ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بمرسية وولاه وزارته، وصرف إليه سياسته، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصِّن قلعة المرية ويجعلها له عدة، وهو يبغي ذلك عدة لنفسه، وترك ابن هود فيها

جارية تعلَّق ابن الرميمي بها واجتمع معها، فبلغ ذلك ابن هود فبادر إلى المرية وهو مُضْمِر الإيقاع بابن الرميمي؛ فتغدَّى به قبل أن يتعشَّى به، وأخرج من قصره ميتًا ووجهه في تابوت إلى مرسية في البحر، واستبدَّ ابن الرميمي بملك المرية، ثم ثار عليه ولده وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابن الأحمر صاحب غرناطة، وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو عندما طوى بساط الأندلس، والله غالبٌ على أمره. انتهى.

ومن هنا يعلم أن الأمير الذي غدر بابن هود لم يكن اسمه عبد الرحمن كما قال الإسبانيولي صاحب تاريخ مرسية، وإنما كان اسمه محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن الرميمي، وأن سبب خنقه إياه وهو نائم لم يكن اختلاف السياسة بينهما، ولكن قضية الجارية المذكورة.

أما استيلاء النصارى على مرسية، فالأرجح فيه رواية الإسبانيولي المذكور، وهو أن أهالي مرسية خافوا على بلادهم من استيلاء ابن الأحمر صاحب غرناطة، وطالت الفتنة فيما بينهم؛ فالتجئوا إلى ملك قشتالة، ووضعوا أنفسهم تحت حمايته، وكان ذلك بموافقة أميرهم من بني هود، والمؤرخ الإسباني يجعل اسمه «ابن هذيل» ويقول مع ذلك إنه هو ابن الأمير ابن هود، وهو غريب؛ لأنه بعد أن ذكر ولاية المسمَّى أبي زيد على مرسية وكيف ثار به أهلها لظلمه فخرج إلى قراباقة، يذكر أنهم بايعوا علي بن يوسف بن هود أميرًا عليهم ولقبوه عضد الدولة، فإن كان هذا صحيحًا فيكون علي بن يوسف بن هود أخًا لمحمد بن يوسف بن هود المتوفَّى مخنوقًا بالمرية كما تقدم الكلام عليه.

ثم إن المؤرخ الإسبانيولي يذكر أن الأمر لم يستتبَّ لعلي بن يوسف بن هود، وأن أبا جميل بن مظفر بن يوسف بن أسعد الجذامي ثار به وقتله، ولكن حزب علي بن يوسف بن هود بايعوا ابنه؛ أي ابن علي المذكور، إلا أنه جعل اسمه ابن هذيل، وهذا هو المستغرب؛ لأنه إن كان ابن هود فلا يمكن أن يكون ابن هذيل، بل ربما كان يكنى بأبي هذيل. وعلى كل حال كان دخول مرسية في طاعة النصارى على يد أمير من بني هود.

وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن العدو استولى على قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ست وثلاثين وستمائة ٦٣٦، قال: وكان تملك العدو مرسية صلحًا ظهر يوم الخميس العاشر من شوال، قدم أحمد بن محمد بن هود — ولد والي مرسية — بجماعة من وجوه النصارى، فملَّكهم إياها صلحًا، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم. انتهى.

فظاهر أن النصارى دخلوا مرسية سنة ٦٣٦؛ أي سنة استيلائهم على قرطبة، ولا تعارض بين رواية نفح الطيب ورواية المؤرخ الإسباني صاحب تاريخ مرسية إلَّا في التفصيل والإجمال؛ فالمؤرخ الإسباني يفصِّل وصاحب النفح يجمل، ومن جهة الأسماء فإن المقري صاحب النفح يجعل أمير مرسية يومئذٍ أحمد بن محمد بن هود، ويقول: إن والده كان واليًا على مرسية حال كون المؤرخ الإسباني يسميه ابن هذيل ويقول: إنه هو ابن علي بن يوسف بن هود، وإن أباه كان أميرًا على مرسية.

أما أبو جميل فقد ورد ذكره في الإحاطة عند ترجمة محمد بن يوسف بن هود، ويظهر أنه كان مناوئًا لبني هود، اتفقت في ذلك رواية لسان الدين بن الخطيب مع رواية الإسبانيولي مؤرخ مرسية.

(١٩) وتقدم أن «موله» هي من جملة القرى التابعة لمرسية.

(٢٠) من المعلوم أن العرب كانت تنقسم في أكثر الأحيان إلى قيسية ويمانية، وتقع بين الفريقين الوقائع، وطالما كانت هذه المنافسة من عوامل انحطاط العرب وتغلب الأعاجم عليهم. ولما مات يزيد بن معاوية بايع الناس في مكة وفي أكثر البلاد لعبد الله بن الزبير، وكان له في الشام أيضًا أنصار أشهرهم الضحاك بن قيس؛ ولذلك كان القيسية في الشام مع ابن الزبير؛ مما حمل اليمانية أضدادهم أن يتحيزوا لمروان بن الحكم غيظًا بالقيسية، واشتدت الفتنة، وانتهت بواقعة مرج راهط في غوطة دمشق؛ فانهزم القيسية، وقتل ابن الضحاك وكثيرٌ من فرسان قيس، وتأيَّد على أيدي اليمانية ملك بني أمية.

وكأن الله جعل لبني أمية حظ الغلبة على أيدي اليمنية؛ فإنه لما دخل عبد الرحمن الداخل الأموي إلى الأندلس ناويًا اقتطاعها من ملك بني العباس وقاومه يوسف الفهري عامل هؤلاء على الأندلس قام القيسية فيها بنصر الفهري، وخالفهم اليمنية إلى عبد الرحمن بن معاوية، ونصروه نصرًا مؤزَّرًا، وكانوا السبب في استتباب ملكه. فكما كانت اليمن هي السبب في استقرار ملك بني أمية في الشرق كانت كذلك السبب في تأييد دولتهم في الغرب.

(٢١) قد ذكرنا أن قرباقة هي من المدن المضافة إلى مرسية، ولها ذكر دائم في تاريخ مرسية، وقد انتسب إليها من أهل العلم طائفة من جملتهم أبو العباس القرباقي هذا، والحافظ أبو بكر بن القرباقي، ذكره ابن عميرة في ترجمة محمد بن يبقى الأموي، من علماء مرسية.

(٢٢) أقام بسبتة وخطب بها مدة، قال: وكتب إليَّ القاضي أبو الفضل بن عياض بخطه يوثِّقه ويثني عليه. أخذ الناس عنه، وسمعت منه بعض ما عنده، وسألته عن

مولده فقال: ولدت سنة ٤٥٣، قال ابن بشكوال: وتوفي — رحمه الله — بقرطبة ودفن عشيَّ الثلاثاء لثمانٍ بقين من ربيع الآخر من سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، ودفن بالربض.

(٢٣) مكتوب في أول كتاب المخصص تأليفه الشهير المطبوع بمصر هكذا: توفي بحضرة دانية سنة ٤٥٨ وعمره ٦٠ سنة.

(٢٤) ولعمري كم من أغلاطٍ وسقطات مشوهة للكتب لا منشأ لها إلا النساخ، وفي الأعصر الأخيرة المطابع.

(٢٥) يشير إلى أنه ضرير لم يكن يكتب بيده ولا يقرأ ببصره، بل كانوا يقرءون له، وقد تقدم أن ابن سيده — رحمه الله — كان أعمى، وأن أباه أيضًا كان أعمى.

(٢٦) أي: القبر.

(٢٧) بيبش اسم إسبانيولي أصله Vives، وهو من جملة الأسماء التي سمَّى بها العرب الأندلس إما توارثًا أو تشبُّهًا.

(٢٨) لَحِن الرجل — بفتح أوله وكسر ثانيه — فهو لَحِن بفتح الأول وكسر الثاني أيضًا: إذا فهم وفطن لما لا يفطن له غيره، ولَحِنَهُ هو يَلْحَنهُ لحنًا، بكسر الحاء في الماضي وفتحها في المضارع: فهمه، وفي الحديث الشريف: إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض (أي أفطَن لها وأجدل)، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعةً من النار.

(٢٩) هو محيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر، سنأتي له بترجمة واسعة عند الانتهاء من تراجم أهل العلم المنسوبين إلى مرسية.

(٣٠) ذكر صاحب نفح الطيب نقلًا عن ابن النجار أن أبا عبد الله محمدًا المذكور ولد بمرسية سنة ٥٧٠، ودخل مصر وسار إلى الحجاز مع قافلة الحجاج إلى بغداد وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالنظامية، ثم سافر إلى خراسان، وسمع بنيسابور وهراة ومرو وعاد إلى بغداد، وحدَّث بكتاب السنن الكبرى للبيهقي، وبكتاب غريب الحديث للخطَّابي، وقدم إلى مصر فحدَّث عن جماعة، منهم أم المؤيد زينب، وأبو الحسن المؤيد الطوسي، وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزعقة والعريش من منازل الرمل في ربيع الأول سنة ٦٥٥، ودفن بتل الزعقة.

وكان من الأئمة في جميع فنون العلم، زاهدًا متورعًا كثير العبادة، فقيهًا مجردًا، متعففًا نَزِه النفس، طيب الأخلاق كريمًا. قال ابن النجَّار: ما رأيت في فنه مثله، وكان

شافعي المذهب، وله كتاب في تفسير القرآن سمَّاه «ريَّ الظمآن» كبير جدًّا، وكتاب «الضوابط الكلية» في النحو، وتعليق على الموطأ، وكان مكثرًا شيوخًا وسماعًا، حدَّث بمصر والشام والعراق والحجاز، وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها، بحيث لا يستصحب كتبًا في سفره اكتفاءً بماله من الكتب في البلد الذي يسافر إليه. وكان كريمًا، روى أبو حيَّان الأندلسي قال: أخبرني الشرف الجزائري بتونس أنه كان على رحلة، وكان ضعيفًا، فقال له: خذ ما تحت هذه السجَّادة، قال: فرفعت ذلك فوجدت تحته أكثر من أربعين دينارًا ذهبًا؛ فأخذتها.

(٣١) حصن رقوطة من أعمال مرسية.

(٣٢) الطوي الضعيف من جهة الجسم.

(٣٣) صغر الجسم.

(٣٤) يعني العرب بقولهم «بلاد الروم» ما يقال له اليوم: تركيا.

(٣٥) لم أجد في كتاب «دول الإسلام» للذهبي طبعة حيدر آباد ذكر وفاة الشيخ محيي الدين بن عربي بين حوادث سنة ٦٣٨، فلعله كتب ذلك في كتابٍ آخر.

خاتمة الجزء الثالث

قد توخَّينا في هذا الجزء إشباع الكلام على شرق الأندلس بما لا تبقى معه حاجة في نفس يعقوب، وجعلنا بداية الإقليم الذي وصفناه ثغر طرطوشة الذي كانت فيه دار الصناعة البحرية، وبقي مدةً طويلة هو الفاصل بين مملكتي المسلمين والنصارى، وكان يقيم فيه ناظر خاصٌّ للمسافرين الذين يطرءُون من بلاد النصارى إلى بلاد المسلمين، وقد تولَّى هذا المنصب في جملة من تولوه القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي صار قاضي الجماعة في قرطبة.

فقد بدأنا جغرافية شرقي الأندلس ببلدة طرطوشة، وتقدمنا منها إلى الجنوب والجنوب الغربي مارِّين ببنشكلة وعقبة أبيشة إلى مربيطر فبلنسية مع توابعها الغربية والجنوبية والشرقية التي منها شارقة والجوفية بحسب قولهم، ومنها البونت. ومن هناك جئنا إلى شاطبة فدانية فمرسية مع توابعها، ومن هذه إلى البسيط وشنجالة من جهة الجوف، وانتهينا بلورقة، ولم نتقدم إلى المريَّة ووادي آش وبسطة مع أنها صارت مصاقبةً لعمل مرسية. والسبب في ذلك هو أن حجم هذا الجزء قد زاد على الكفاية، ثم إن هذه المدن كانت هي الحدود الشرقية والجوفية لملكة غرناطة بقية ممالك الإسلام في الأندلس، وبقيت نحوًا من مائتين إلى ثلاثمائة سنة هي الحد الفاصل بين الإسلام والنصرانية بعد أن سقط حكم الإسلام عن بلنسية ومرسية في أواسط القرن السابع للهجرة والثالث عشر للمسيح.

فهذه المدن ستدخل معنا إن فسح الله في الأجل بالجزء الذي سيختص بمملكة ابن الأحمر؛ أي مملكة غرناطة، وكذلك لم نُدخل في هذا الجزء جيَّان وعملها؛ لأن إقليم جيَّان هو في الوسط لا يعدُّ شرقيًّا كمرسية وبلنسية ولا غربيًّا كإشبيلية وبطليوس، بل هو في وسط الجزيرة الأندلسية مثل قرطبة؛ ولذلك سندخله إن شاء الله مع إقليم قرطبة في

جزءٍ خاص بهما. وليعلم القارئ اللبيب أن هذا الجزء الثالث هو الجزء المودِّع للإسلام في شرقي الأندلس؛ فجميع ما فيه من ذكر ملوك وأمراء وعلماء مسلمين ومساجد وحصون إسلامية قد انتهى في هذا الجزء الذي يتكلم على الإسلام وآثاره وأشخاصه وأشيائه في شرقي الأندلس إلى حد سنة ٦٦٠ بالكثير؛ إذ بعدها خرج الحكم في تلك البقاع من يد الإسلام، وأخذ المسلمون الذين فيها بالمهاجرة إلى مملكة ابن الأحمر؛ أي غرناطة وتوابعها. ومنهم من هاجر إلى إفريقية رأسًا كتونس والجزائر وتلمسان وفاس والرباط وتطوان وغيرها، وبقية منهم بقيت هناك، كانوا يلقَّبُون بالمدجَّنين، ويقول لهم الإفرنج «الموريسك»، فقد كانوا يعملون في المزارع التي استولى عليها الإسبانيون، وكانت الزراعة زاهرة على أيديهم، فكان الإسبانيون لا يستغنون عنهم بحال؛ فبقيت بقاياهم تحت الدجن؛ أي حكم الإسبانيول، من أواسط القرن السابع للهجرة إلى القرن العاشر للهجرة؛ إذ أُخرجوا عند ذلك بأسرهم، ولم يبقَ منهم إلَّا من تنصَّر وتفرنج واندمج اندماجًا تامًّا في أمم النصرانية.

وإليك الآن وصف مختصر لما كانت عليه مملكة المسلمين قبل استصفاء الإسبانيول لها في شرقي الأندلس بقليل، ننقله عن «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، تأليف عبد الواحد المراكشي، فهو يقول في آخر كتابه: وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد، وعدد المراحل التي بينها، وقُربها من البحر وبُعدها؛ حتى يتبيَّن ذلك إن شاء الله تعالى. فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم حصن صغير على شاطئ البحر الرومي يسمى «بنشكلة» بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل، وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلًا. ثم مدينة بلنسية، وهي مدينة في غاية الخصب واعتدال الهواء، كان أهل الأندلس يدعونها في ما سلف من الزمان مطيَّب الأندلس، والمطيَّب عندهم حزمة يعملونها من أنواع الرياحين، ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات؛ سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحانها.

وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومي قريب من أربعة أميال، ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة بينها وبينها مرحلتان. وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر، وسميت جزيرة لأنها في وسط نهرٍ عظيم قد حفَّ بها من جميع جهاتها، فلا طريق إليها إلَّا على القنطرة. ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التي على ساحل البحر الرومي يوم تامٌّ. ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام. ومن مرسية إلى البحر الرومي عشرة فراسخ. ومن

مدينة مرسية إلى مدينة غرناطة سبع مراحل، وبين ذلك بلاد صغار أولها مما يلي مرسية حصن لُرقة، ثم حصن آخر يدعى بلس، ثم حصن آخر يدعى قلية، ثم بليدة صغيرة تسمى بسطة، ثم بليدة أخرى على مسيرة من غرناطة تسمى وادي آش، ويقال لها أيضًا: وادي الأشي، هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها في أشعارهم؛ فهذه هي البليدات التي بين غرناطة ومرسية. انتهى.

قلت: هذا ما ذكره عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الذي انتهى من تأليفه لست بَقِينَ من جمادى الآخرة من سنة ٦٢١؛ أي قبل سقوط شرق الأندلس في أيدي الإسبان ببضع عشرة سنة، نقلنا منه أسماء البلاد المشهورة في شرق الأندلس الذي هو موضوع هذا الجزء.

ثم إننا نحبُّ أن نذكر مَنْ سكن من بطون العرب وأفخاذها في شرق الأندلس، فمن هؤلاء بنو قاسم الأمراء الفضلاء، مرجعهم إلى فهر من قريش الظواهر، وكانوا في مدينة البونت عمل بلنسية. ومنهم أناس من بني كنانة، الذين منهم ابن جبير صاحب الرحلة، كانوا في شرقي الأندلس أيضًا. وكان في أوريولة من بني هذيل ابن مدركة بن إلياس بن مُضر، وبجوفي بلنسية من ينتسب إلى هوازن، وكل هؤلاء من العرب العدنانية. وكان في بلنسية كثير من المضرية.

وأما عرب اليمن فمنهم في شقورة بنو غافق من الأزد، وفي قبلي مرسية حي من طيء، وفي شرقي الأندلس كثير من جذام، منهم بنو هود الذين ملكوا سرقسطة مدة من الزمن. ومنهم بنو مردنيش يقولون إنهم من جذام، وبعض مؤرخي الإفرنج يرجحون أنهم من أصل إسبانيولي، وأن أصل مردنيش هو مرتينيس Martinez، ولكنهم جعلوا أنفسهم بطول الوقت عربًا؛ لتكون لهم عصبية تساعدهم على الملك. وفي أُندة بالقرب من بلنسية كثير من قضاعة. وفي مرسية كثير من عرب حضرموت. وكان الجنس البربري قليلًا جدًّا في شرق الأندلس، وأكثرهم كانوا في الجبال؛ فكانت العروبة التامة غالبة على الشرق، وكان مع ذلك أكثر البربر قد استعربوا واندمجوا في العرب حتى لا يفرِّقُ الإنسان بين العرب والبربر. وجاء في كتاب «الجمان في أخبار الزمان» أن بربر الأندلس كان منهم أمراء وقواد وقضاة وعلماء وكتَّاب للملوك وكثيرٌ من رجال الشرع. وأشهر قبائلهم في الأندلس صنهاجة وزناتة ويفرن وهيلان وبنو الخزر وبنو عوسجة وبنو زروال وبنو رزين أمراء شنتمرية الشرق، وفي تطوان اليوم عائلة يقال لها بنو رزين يترجح أنهم من ذريتهم.

وفي شرقي الأندلس كثير من الأزد؛ فإن كثيرًا من العلماء والأعيان يأتي في نسبته «الأنصاري»، وإذا قرأ القارئ تراجم علماء بلنسية ومرسية وشاطبة ودانية وغيرها من مدن شرقي الأندلس، تجلَّى له وشيج عروق العربية في ذلك الصقع بشكلٍ عجيب، فضلًا عما يتجلى له من كثرة عدد العلماء، والأدباء، والشعراء، وحفَّاظ كتاب الله والقرَّاء، وفحول اللغة، مما قد زال كله تدريجًا بتقلُّص ظل الإسلام عن الأندلس، ورجوعه من حيث أتى، وانحطاطه من حيث علا، بما كَسَبَتْ أيدي أبنائه واستولى عليهم من التنازع والتخاذل، كما سيأتي تفصيله في باب التاريخ؛ فقضوا على أنفسهم بأنفسهم ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

مراثي الأندلس

والآن نختم هذا الفصل الذي هو خاتمة هذا الجزء بذكر مراثي الأندلس، بادئين بمراثي بلنسية، التي أشهرها سينية صاحب التكملة ابن الأبَّار القضاعي، وهي التي أنشدها السلطانَ أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس، موفدًا من قبل البلنسيين إلى الملك الحفصي بالصريخ؛ فاهتزَّ لها وأرسل أسطوله إلى بحر بلنسية، إلا أنه لم يَفُزْ بطائل، واستولى العدو على تلك البلد ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى مَنجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عزُّ النصر ملتمَسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباحَ مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزَرًا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقةٍ إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العِدَا عُرُسا
وكل غاربة إجحاف نائبةٍ ... تثني الأماني حذارًا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلَّا عقائلها المحجوبة الأُنُسا
وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ ... ما يُذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسمًا ... جذلان وارتحل الإيمان مُبْتَئِسا
وصيرتها العوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرسا ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءَها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها مدارسًا للمثاني أصبحت دُرُسا
وأربعًا نمنمت أيدي الربيع لها ما شئت من خلع موشية وكُسى
كانت حدائق للأحداق مونقة فصوَّح النضر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر وا حربا عيث الدِّبا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيَّفها تحيُّف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضرًا وأين غصن حنيناه بها سلِسا
محا محاسنها طاغٍ أتيح لها ما نام عن هضمها حينًا ولا نعسا
ورجَّ أرجاءها لما أحاط بها فغادر الشُّمَّ من أعلامها خُنُسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثرَ الزعم بالتثليث منفردًا ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلًا ولا مرسا
وأحيِ ما طمست منها العداة كما أحييْت من دعوة المهديِّ ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقًا وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصرًا كالصارم اهتزَّ أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كثَّف التجسيم من ظلم والصبح ماحيةٌ أنواره الغلسا
وتقتضي الملك الجبَّارَ مهجتَهُ يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذي رسائلها تدعوك من كثبٍ وأنت أفضل مرجوٍّ لمن يئسا
وافَتْكَ جارية بالنجح راجيةً منك الأمير الرضا والسيد الندسا
خاضت خضارة يُعليها ويُخفضها عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية كما طلبتَ بأقصى شدَّةِ الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفصٍ مقبِّلة من تربه القُدُسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته دينًا ودنيا فغشَّاها الرضا لبسا
من كل غادٍ على يمناه مستلمًا وكل صادٍ إلى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجمًا لأثبته ولو دعا أُفُقًا لبَّى وما احتبسا
أمارةٌ يحمل المقدار رايتها ودولة عزها يستصحب القَعَسا

يُبدي النهار بها من ضوئه شنبًا ويطلع الليل من ظلمائه لَعَسا
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت طلق المحيًّا ووجه الدهر قد عَبَسا
كأنه البدر والعلياء هالته تحفُّ من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسَّع الدنيا وما وسعت وعرف معروفه وأسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته وأنشرت من وجود الجو ما رُمسا
مبارك هَدْيُه بادٍ سكينته ما قام إلَّا إلى حسنى وما جلسا
قد نوَّر الله بالتقوى بصيرته فما يُبالي طروق الخطب ملتبسا
يرى العصاة وراش الطائعين فقل في الليث مفترسًا والغيث مرتجسا
فرب أصيد لا تلفى به صَيَدًا ورب أشوس لا تلقى له شوسا
إلى الملائك ينمى والملوك معًا في نبعةٍ أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره وصان صيقله أن يقرب الدنسا
له الثرى والثريًّا خطتان فلا أعز من خطتيه ما سما ورسا
حسب الذي باع في الأخطار يركبها إليه محياه أن البيع ما وكسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته عصاه محترمًا بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرمًا وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبدٍ إلى الباب الكريم حدا آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه من البحار طريقًا نجوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحًا أسرته في صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحًا غواربه من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من يُحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نَجَسٌ ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرار أرضهمُ حتى يطأطئ رأسًا كل من رأسا
وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعًا تَهمي زكًا وخسا
هم شيعة الأمر وَهْيَ الدار قد نهكت داءً متى لم تُباشر حَسْمَهُ انتكسا
فاملأ هنيئًا لك التأييد ساحتها جُرْدًا سلاهب أو خطيَّة دُعُسا
واضرب بها موعدًا بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا

مرثية مجهولة القائل

وهذه المرثية التي لم يذكر في نفح الطيب قائلها:

نـادتـك أنـدلـس فـلـبِّ نـداءَهـا ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبُها ... من عاطفاتك ما يقي حوباءها
واشدُد بجلبك جرد خيلك أزرها ... تـردد عـلـى أعـقـابـهـا أرزاءهـا
هـي دارك الـقـصـوى أوت لإيـالـةٍ ... ضمنت لـهـا مـع نصرها إيـواءهـا
وبـهـا عبيدك لا بـقـاء لـهـم سوى ... سُبُل الضراعة يسلكون سواءها
خـلـعـت قـلـوبـهـمُ هـنـاك عـزاءهـا ... لـمـا رأت أبـصـارهـم مـا سـاءهـا
دُفـعـوا لأبـكـار الـخـطـوب وعُـونـهـا ... فـهـم الـغـداة يـصـابـرون عـنـاءهـا
وتنكرت لـهـم اللـيـالـي فـاقـتـضـت ... سـراءهـا وقـضـتـهـمُ ضـراءهـا
تـلـك الـجـزيـرة لا بـقـاء لـهـا إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رِشْ أيها المولى الرحيم جناحها ... واعـقـد بـأرشـيـة الـنـجـاة رشـاءهـا
أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فـاسـتـبـق للدين الـحـنـيـف ذمـاءهـا
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها
طـافـت بـطـائـفـة الـهـدى آمـالـهـا ... ترجو بيحيى المرتضى إحياءها
واسـتـشـرفـت أمـصـارهـا لإمـارةٍ ... عقدت لنصر المستضام لواءها
يـا حـسـرتـى لـعـقـائـل مـعـقـولـة ... سئم الهدى نحو الضلال هِداءها
إيـهٍ بـلـنـسـيـة وفـي ذكـراك مـا ... يمري الشئون دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهدٍ ... شـب الأعـاجـم دونـهـا هـيـجـاءهـا
وإلـى ربـا وأبـاطـح لـم تـعـر من ... حلل الربيع مَصيفَها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها؟!
بأبي مدارس كالطلول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها ... فـيـخـالـه الـرائـي إلـيـه مـسـاءهـا
ناحت به الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجِّع نوحها وبكاءها
عـجـبًـا لأهـل الـنـار حـلـوا جـنـة ... مـنـهـا تـمـدُّ عـلـيـهـمُ أفـيـاءهـا
أملت لـهـم فـتـعـجـلـوا مـا أمَّـلـوا ... أيـامـهـم لا سـوَّغـوا إمـلاءهـا

بعدًا لنفسٍ أبصرت إسلامها فتوكفت عن حزبها إسلاءها
أما العلوج فقد أحالوا حالها فمن المطيق علاجها وشفاءها
أهدى إليها بالمكاره جارح للكفر كرَّه ماءَها وهواءها
وكفى أسًى أن الفواجع جمة فمتى يقاوم أسوها أسواءها
مولاي هاك معادة أنباءها لتنيل منك معادة أبناءها
جرِّد ظُباك لمحو آثار العدا تقتل ضراغمها وتسبُ ظباءها
واستدع طائفة الإمام لغزوها تسبق إلى أمثالها استدعاءها
لا غرو أن يعزى الظهور لملَّة لم يبرحوا دون الورى ظهراءها
إن الأعاجم للأعارب نهبة مهما أمرت بغزوها أحياءها
تالله لو دبت لها أدبابها لطوت عليها أرضها وسماءها
ولو استقلت عوفها لقتالها لاستقبلت بالمقربات عفاءها
أرْسِل جوارحها تجئك بصيدها صيدًا وناد لطحنها أرحاءها
هبوا لها يا معشر التوحيد قد آن الهبوب وأحرزوا علياءها
إن الحفائظ من خلالكم التي لا يرهب الداعي بهن خلاءها
هي نكتة المحيا فحيَّهلا بها تجدوا سناها في غدٍ وسناءها
أولوا الجزيرة نصرة إن العدا تبغي على أقطارها استيلاءها
نقصت بأهل الشرك من أطرافها فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
حاشاكمُ أن تُضمروا إلغاءها في أزمة أو تُضمروا إقصاءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم رهوًا وجوبوا نحوها بيداءها
وافي الصريخ مثوِّبًا يدعو لها فلتعلموا قصد الثواب ثواءها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحةٌ ساوت بها أحياؤها شهداءها
هذي رسائلها تناجي بالتي وقفت عليها ريثها ونجاءها
ولربما أنهت سوالب للنهى من كائنات حُمِّلت إنهاءها
وفدت على الدار العزيزة تجتني آلاءها أو تجتلي آراءها
مستسقيات من غيوث غياثها ما وقعه يتقدم استسقاءها
قد أمنت في سبلها أهواءها إذ سوغت في ظلها أهواءها
وبحسبها أن الأمير المرتضى مترقب بفتوحها آناءها

في الله ما ينويه من إدراكها ... بكلاءة يفدي أبي أكلاءها
بشرى لأندلس تحب لقاءه ... ويحب في ذات الإله لقاءها
صدق الرواة المخبرون بأنه ... يشفي ضناها أو يعيد رواءها
إن دوخ العرب الصعاب مقادة ... وأبى عليها أن تطيع إباءها
فكأنْ بفيلقه العرمرم فالقًا ... هام الأعاجم ناسفًا أرجاءها
أنذرهم بالبطشة الكبرى فقد ... نذرت صوارمه الرقاق دماءها
لا يعدم الزمن انتصار مؤيد ... تتسوَّغ الدنيا به سراءها
ملك أمد النيرين بنوره ... وأفاده لألاؤه لألاءها
خضعت جبابرة الملوك لعزه ... ونضت بكفٍّ صغارها خيلاءها
أبقي أبو حفص إمارته له ... فسما إليها حاملًا أعباءها
سل دعوة المهدي عن آثاره ... تُنبِيك أن ظباه قمن إزاءها
فغزا عداها واسترقَّ رقابها ... وحمى حماها واستردَّ بهاءها
قبضت يداهُ على البسيطة قبضةً ... قادت له في قده أمراءها
فعلى المشارق والمغارب ميسم ... لهداه شرف وسمه أسماءها
تطمو بتونسها بحار جيوشه ... فيروز زاخر موجها زوراءها
وسع الزمان فضاق عنه جلالة ... والأرض طرًّا ضنكها وفضاءها
ما أزمع الإيغال في أكنافها ... إلا تصيد عزمه زعماءها
دانت له الدنيا وشم ملوكها ... فاحتل من رتب العلاء سماءها
ردت سعادته على أدراجها ... ليل الزمان ونهنهت علداءها[1]
إن يُعْتِم[2] الدولَ العزيزة بأسه ... فالآن يولي جوده إعطاءها
تقع الجلائل وهو راسٍ راسخٌ ... فيها يوقِّع للسعود جلاءها
كالطود في عصف الرياح وقصفها ... لا رهوها يخشى ولا هوجاءها
سامي الذوائب في أعز ذؤابة ... أعلت على قمم النجوم بناءها
بركت بكل محلة بركاته ... شفعًا يبادر بذلها شفعاءها
كالغيث صب على البسيطة صوبه ... فسقى عمائرها وجاد قواءها
ينميه عبد الواحد الأرضي إلى ... عليا فتمنح بأسها وسخاءها
في نبعة كرمت وطابت مغرسًا ... وسمت وطالت نضرةً نظراءها

ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت ... لسرادقات فخارها جوزاءها
فئة كرام لا تكف عن الوغى ... حتى تصرِّع حولها أكفاءها
وتكب في نار القرى فوق الذرا ... من عزةٍ ألويَّها[٣] وكباءها
قد خلقوا الأيام طيب خلائق ... فثنت إليهم حمدها وثناءها
ينضون في طلب النفائس أنفسًا ... حبسوا على إحرازها إمضاءها
وإذا انتضوا يوم الكريهة بيضهم ... أبصرت فيهم قطعها ومضاءها
قوم الأمير فمن يقوم بمالهم ... من صالحاتٍ أفحمت شعراءها
صفحًا جميلًا أيها الملك الرضي ... عن محكمات لم نطق إحصاءها
تقف القوافي دونهن حسيرة ... لا عيَّها تخفي ولا إعياءها
فلعل علياكم تسامح راجيًا ... إصفاءها ومؤملًا إغضاءها

وفي فاجعة بربشتر يقول الفقيه الزاهد ابن العسَّال من قصيدة:

ولقد رمانا المشركون بأسهمٍ ... لم تُخطِ لكن شأنها الإصماءُ
هتكوا بخيلهمُ قصور حريمها ... لم يبقَ لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يومٍ غارة شعواء
باتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتُنا في حوبهم جُبناءُ
كم موضعٍ غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكَم رضيعٍ فرَّقوا من أمه ... فله إليها ضجةٌ وبغاءُ
ولرُبَّ مولودٍ أبوه مُجدَّلٌ ... فوق التراب وفرشُه البيداءُ
ومصونةٍ في خدرها محجوبةٍ ... قد أبرزوها ما لها استخفاء
وعزيزِ قومٍ صار في أيديهمُ ... فعليه بعد العزَّةِ استخذاء
لولا ذنوب المسلمين وأنهم ... ركبوا الكبائرَ ما لهنَّ خَفَاء
ما كان يُنصر للنصارى فارسٌ ... أبدًا عليهم فالذنوب الداء
فشرارهم لا يختفون بشرِّهم ... وصلاحُ منتحلي الصلاح رياء

نثر ابن الأبار في التأسف على سقوط بلنسية

ولما سقطت بلنسية في أيدي الإسبان، واستولى عليها ملك أراغون، أكثَرَ أدباؤها بكاءها والتأسف عليها نظمًا ونثرًا؛ فمن ذلك قول الكاتب أبي المطرِّف بن عميرة، خاطب به الكاتب أبا عبد الله بن الأبَّار، جوابًا عن رسالة (ورد ذلك في الروض المعطار):

طارحني حديث مورد جفَّ وقطين خفَّ، فيا لله لأترابٍ درجوا وأصحابٍ عن الأوطان خرجوا، قُصَّت الأجنحة، وقيل: طيروا. وإنما هو القتل أو الأمر أو تسيروا. فتفرقوا أيدي سبا، وانتشروا ملء الوهاد والرُّبا؛ ففي كل جانبٍ عويل وزَفْرَه، وبكل صدرٍ غليل وحَسْرَه، ولكل عينٍ عِبْرَة لا تُرقأُ من أجلها عَبْرَه. داءٌ خامر بلادنا حين أتاها، وما زال بها حتى سجَّى على موتاها، وشجا ليومها الأطول كهلها وفتاها. وأنذر بها في القوم بُحرانُ أنيجَهْ، يوم أثاروا أسدها المهيجَه. فكانت تلك الحطمةُ طلَّ الشؤبوب، وباكورة البلاء المصبوب. أثكلتنا إخوانًا أبكانا نعيُّهم، فلله أحوذيُّهم وألمعيُّهم. ذاك أبو ربيعنا، وشيخ جميعنا، سعد بشهادة يومه، ولم ير ما يسوءُه في أهله وقومه.

وبعد ذلك أخذ من الأمِّ بالمخنَّق، وهي بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق. وما لبث أن خرس من مسجدها لسان الأذان، وأخرج من جسدها روح الإيمان؛ فبَرَح الخفاء، وقيل على آثار من ذهب العفاء، وانعطفت النوائب مفردةً ومركبَّةً كما تعطف الفاء. وأودت الخِفَّة والحصافَه. وذهب الجسر والرُّصافه، ومُزِّقت الحُلَّة والسَّهْلَه، وأوحشت الحرْف والرَّملَه، ونزلت بالحارة وقعة الحرَّه، وحصلت الكنيسة من جآذرها وظباءها على طول الحَسْرَه. فأين تلك الخمائل ونضرتها، والجداول وخضرتها، والأندية وأرَجُهَا، والأودية ومنعرجها، والنواسم وهبوب مبتلِّها، والأصائل وشحوب معتلها؟ دارٌ ضاحكت الشمس بحرها وبحيرتها، وأزهار ترى من أدمع الطَّلِّ في أعينها ترددها وحيرتها.

ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها، حتى أحاطَتْ بجزيرة شقُرِها؛ فآهًا لمسقط الرأس هوى نجمه، ولفادح الخطب سرى كَلْمُه! وبالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها، وروضة أجاد أبو إسحاق نعتها، وإنما كانت داره التي فيها دبَّ، وعلى أوصاف محاسنها ألَبَّ، وفيها أتته منيته كما شاء وأحب، ولم يعد بعد مُحبِّين قشيبهم إليها ساقوه، ودمعهم عليها أراقوه.

وله من رسالة أخرى في المعنى:

ثم ردف الخطاب الثاني بقاصمة المتون، وقاضية المنون، ومضمرة نار السجون، ومذرية ماء الشئون. وهو الحادث في بلنسية دار النحر، وحاضرة البر والبحر، ومطمح أهل السياده، ومطرح شعاع البهجة والنضاده. أودى الكفر بإيمانها، وأبطل الناقوس صوت أذانها. ودهاها الخطب الذي أنسى الخطوب، وأذاب القلوب. وعلَّم سهام الأحزان أن تصيب، ودموع الأجفان أن تصوب، فيا ثكل الإسلام! ويا شجو الصلاة والصيام! يوم الثلاثاء، وما يوم الثلاثاء؟ يا ويح الداهية الدهياء، وتأخير الأقدام عن موقف العزاء! أين الصبر وفؤادي أُنسِيَه، لم يبق لقومي على الرمي سِيَه، هيهات تجد لما مضى من تَنْسِيَه، من بعد مصابٍ حلَّ في بلنسية.

يا طول هذه الحسره! ألا جابر لهذه الكسره؟ أكل أوقاتنا ساعة العُسره؟ أخي! أين أيامنا الخوالي؟ وليالينا على التوالي؟ ولأية عيش نعم بها الوالي؟ ومسندات أنس يعدها الرواة من الغوالي؟ بعدًا لك يا يوم الثلاثاء من صفر، ما ذنبك عندي بشيءٍ يُغتفر، قد أشمَتَّ بالإسلام حزب من كفر، من أين لنا المفرَّ؟ كلا لا مفَر.

كل رزءٍ في هذا الرزء يندرج، وقد اشتدت الأزمة فقل لي متى تنفرج. كيف انتفاعنا بالضحى والأصائل؟ إذا لم يعد ذلك النسيم الأرج، ليس لنا إلا التسليم، والرضا بما قضاه الخلَّاق العليم.

وقال في رسالةٍ أخرى في المعنى:

وأجريت خبر الحادثة التي محقت بدر التمام، وذهبت بنضارة الأيام، فيا من حضر يوم البطشه، وعُزِّي في أنسه بعد تلك الوحشه! أحقًّا أنه دُكَّت الأرض، ونزف المَعين والبَرض، وصوَّح روضُ المنى، وصَرَّح الخطب وما كَنَى؟ أَبِنْ لي كيف فُقدت رجاحة الأحلام، وعُقدت مناحة الإسلام، وجاء اليوم العَسِر، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر. حُلمٌ ما نرى؟ بل ما رأى ذا حالم. طوفان يُقال عنده لا عاصم. من ينصفنا من الزمان الظالم؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم. بالله أيَّ نحوٍ تنحو، ومسطور تُثبت وتمحو؟! وقد حُذف الأصليُّ والزائد، وذهبت الصلة والعائد، وباب التعجب طال، وحال البائس لا تخشى

الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفُقدت سلامة الجمع، والمعتلُّ أعدى الصحيح، والمثلث أردى الفصيح. وامتنعت العجمة من الصرف، وأمنت زيادتها من الحذف. ومالت قواعد المِلَّه، وصرنا إلى جمع القله. وللشرك صيال وتخمُّط، ولِقرنه في شَرَكِه تخبُّط. وقد عاد الدين إلى غربته، وشرق الإسلام بكربته. كأن لم يُسمع بنصر ابن نُصير، وطَرق طارق بكل خير، ونَهَشاتٍ حَنَشٍ.[٤] وكيف أعيت الرُّقى، وأزالت بليل السليم يوم الملتقى. ولم تُخبَر عن المروانيَّة وصوائفها، وفتى معافر[٥] وتعفيره للأوثان وطوائفها. لله ذلك السلف! لقد طال الأسى عليهم والأسف.

وقال في رسالةٍ أخرى:

وما الذي نبغيه، وأي أملٍ لا نطرحه ونلغيه، بعد الحادثة الكبرى، والمصيبة التي كل كبدٍ لها حرَّى، وكل عينٍ من أجلها عبرى؟! لكن هو القضاء لا يُردُّ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومما قاله في ذلك من المنظوم قوله:

ما بال دمعك لا يَني مدْرارُهُ	أمْ ما لقلبك لا يقرُّ قرَارُهُ
ألِلوعةٍ بين الضلوع لظاعن	سارت ركائبُهُ وشَطَّت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه	بعد الدنوِّ وأخفقت أوطاره
أم للزمان أتى بخطبٍ فادحٍ	من مثل حادِثِهِ خلت أعصاره
بحر من الأحزان عبَّ عبابه	وارتجَّ ما بين الحشا زخَّاره
في كلِّ قلب منه وجدٌ عنده	أسفٌ طويل ليس تخبو ناره
أما بلنسيةٌ فمثوى كافرٍ	حُفَّت به في عقرها كُفَّاره
زرع من المكروه حلَّ حصاده	عند الغُدوِّ غداة لجَّ حِصاره
وعزيمة للشرك جَعْجَعَ بالهدى	أنصارها إذ خانه أنصاره
قل كيف تثبت بعد تمزيق العِدا	آثاره أم كيف يُدرك ثاره
ما كان ذاك المِصرُ إلا جنةً	للحسن تجري تحته أنهاره
طابت بطيب بَهاره آصاله	وتعطَّرت بنسيمه أشجاره

أمَّا السرار فقد غداه وهل سوى قمر السماء يزول عنه سِراره
قد كان يُشرق بالهداية ليلُهُ والآن أظلم بالضَّلال نهاره
ودجا به ليلُ الخطوبِ بصحبهِ أعيا على أبصارنا أسفاره

ومما صدر عن الكاتب أبي عبد الله محمد بن الأبَّار في ذلك من رسالة:

وأما الأوطان المحبب عهدها بحكم الشباب، المشبَّب فيها بمحاسن الأحباب، فقد ودعنا معاهدها وداعَ الأبد، وأخنى عليها الذي أخنى على لُبَد أسلمها الإسلام وانتظمها الانتثار والاصطلام حين وقعت أنسُرها الطائرة، وطلعت أنحسها الغائرة، فغلب على الجذل الحزَن، وذهب مع المسْكَن السَّكَن.

كزعزع الريح صكَّ الدوح عاصفها فلم يدع من جنًى فيها ولا غُصُنِ
واهًا وواهًا يموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبنِ

أين بلنسية ومغانيها، وأغاريد وُرقها وأغانيها؟ أين حُلي رصافتها وجسرها، ومنزلا عطائها ونصرها؟ أين أفياؤها تندى غَضَاره، وركاؤها تبدو من خُضاره؟ أين جداولها الطفاحة وخمائلها؟ أين جنائبها النفاحة وشمائلها. شدَّ ما عَطَلَ من قلائد أزهارها نحرها، وخلعت شعشعانية ضحاها بحيرتها وبحرها، فأية حيلة لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان؟ وهل كانت حتى بانت إلا رونق الحق وبشاشة الإيمان؟! ثم لم يلبث داء عُقرها أن دبَّ إلى جزيرة شقرها، فأمرَّ عذبها النمير، وذوى غصنها النضير، وخرست حمائم أدواحها، وركدت نواسم أرواحها، ومع ذلك اقتُحمت دانية، فنُزحت قطوفها وهي دانية، وبالشاطبة وبطائحها، من حيف الأيام وإنحائها، وا لهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها، وجيَّان وقلاعها، وقرطبة ونواديها، وحمص ووواديها، كلها رُعيَ كلؤُها، ودُهيَ بالتفريق والتمزيق ملَؤُها، عضَّ الحصار أكثرها، وطمس الكفر عينها وأثرها، وتلك ألبيرة بصدد البوار وريه، في مثل حَلْقة السُّوار لا مِرية في المريَّة وخفضها على الجوار إلى بُنيَّات لواحق بالأمهات، ونواطق بهاك لأول ناطقٍ بهات.

ما هذا النفخ بالمعمور؟ أهو النفخ في الصور، أم النفر عاريًا من الحج المبرور؟ ومالأندلس أصيبت بأشرافها، ونقصت من أطرافها، قوِّض عن صوامعها الأذان، وصُمَّت بالنواقيس فيها الآذان؟ أجَنَت ما لم تجنِ الأصقاع؟! أعقَّت الحق فحاق بها الإيقاع؟! كلا بل دانت للسنه، وكانت من البدع في أحسن جُنه. هذه المروانية مع اشتداد أركانها

وامتداد سلطانها، ألقت حُبَّ آل النبوة في حبات القلوب، وألوت ما ظفرت من خلعة ولا قلعة بمطلوب، إلى المرابطة بأقاصي الثغور والمحافظة على معالي الأمور، والركون إلى الهضبة المنيعة، والروضة المريعة، فليت شعري بم استوثق تمحيصها، ولِمَ تعلق البلوى تخصيصها؟ اللهم غفرًا! طالما ضرَّ ضجر، ومن الأنباء ما فيه مزدجر، جرى بما لم تقدِّره المقدور، فما عسى أن ينفث به المصدور، وربنا الحكيم العليم. فحسبنا التفويض له والتسليم. ويا عجبًا لبني الأصفر! أنسيت مرج الصُّفر ورميها يوم اليرموك بكل أغلب غضنفر؟ دع ذا فالعهد به بعيد، ومن اتعظ بغيره فهو سعيد.

نونية أبي البقاء الرندي

وهذه النونية التي فاقت في الشهرة قفا نبك، ولم يعهد الناس مرثية بلغت ما بلغته من إثارة الحفائظ، وإرهاف العواطف، فضلًا عن إبداع النظم وإحسان السبك، للعلامة خاتمة أدباء الأندلس صالح بن شريف الرندي المعروف بأبي البقاء الرندي:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان ... فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتمًا كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهبٍ ... وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مردَّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتِلِه ... وأمَّ كسرى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يومًا ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوَّعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهِّلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له | هوى له أُحُد وانهدَّ ثهلان
أصابها العين في الإسلام فارتزأت | حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية | وأين شاطبة أم أين جيَّان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم | من عالم قد سما فيها له شان!
وأين حمص وما تحويه من نزه | ونهرها العذب فياض وملآن؟
قواعد كنَّ أركان البلاد فما | عسى البقاء إذا لم تبقَ أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف | كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديارٍ من الإسلام خالية | قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائس ما | فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وَهْي جامدة | حتى المنابر ترثي وَهْي عيدان
يا غافلًا وله في الدهر موعظة | إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنه | أبعد حمص تغرُّ المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها | وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة | كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة | كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعةٍ | لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس | فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم | قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ما ذا التقاطع في الإسلام بينكم | وأنتمُ يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيَّات لها همم | أما على الخير أنصار وأعوان؟
يا من لذلة قوم بعد عزهمُ | أحال حالهمُ كفر وطغيان!
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم | واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم | عليهمُ من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهمُ | لَهَالَكَ الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حِيلَ بينهما | كما تفرَّق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت | كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة | والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ | إن كان في القلب إسلام وإيمانُ

مرثية أبي جعفر بن خاتمة

ومن مراثي الأندلس الجديرة بالحفظ هذه المرثية للأديب أبي جعفر بن خاتمة، تاريخ نظمها ٩٠٤ أو ٩٠٥ للهجرة؛ أي في أثناء سقوط غرناطة، وكانت رندة قد سقطت من قبل. وقد أصبتُ هذه القصيدة عند الأخ الفاضل السيد عز الدين علم الدين التنوخي ناموس المجمع العلمي العربي، وذلك عند حصولي بدمشق سنة ١٣٥٦.

أحقًّا خبا من جوِّ رُندة نورها   وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت   منازلها ذات العلا وقصورها

أحقًّا خليلي أن رندة أقفرت   وأُزعِج عنها أهلها وعشيرها

وهدت مبانيها وثُلَّت عروشها   ودارت على قطب التفرق دورها

منازل آبائي الكرام ومنشئي   وأول أوطان غذانيَ خيرها

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة   قد استفرغت ذبحًا وقتلًا حجورها

وجزَّت نواصيها وشُلَّت يمينها   وبدل بالويل المبين سرورها

وقد كانت الغربية الجنن التي   تقيها فأضحى جنة الحرب سورها

وبلَّش[6] قطَّت رجلها بيمينها   ومن سريان الداء بان فطورها

وضحت على تلك الثنيات حجرها   فأقفر مغناها وطاشت حجورها

وبالله إن جئت المنكَّب[7] فاعتبر   فقد خف ناديها وجف نضيرها

وقد رجفت وادي الأشى[8] فبقاعها   سكارى وما استاكت بخمر ثغورها

وبسطة[9] ذات البسط ما شعرت بما   دهاها وأنَّى يستقيم شعورها

وما أنس لا أنس المرية[10] إنها   قتيلة أدجال أزيل عذيرها

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالمٍ   قد ارتجَّ باديها وضجَّ حضورها

بدار العلا حيث الصفات كأنها   من الخلد والمأوى غدت تستطيرها

محل قرار الملك غرناطة التي   هي الحضرة العليا زهتها زهورها

ترى للأسى أعلامها وهي خشع   ومنبرها مستعبر وسريرها

ومأمومها ساهي الحجى وإمامها   وزائرها في مأتمٍ ومزورها

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا   جيوش كموج البحر هبت دبورها

علامات أخذ ما لنا قبل بها   جنايات أخذ قد جناها مثيرها

فلا تنمحي إلا بمحو أصولها ولا تنجلي حتى تحط أصورها
معاشر أهل الدين هبُّوا لصعقةٍ وصاعقةٍ وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهدَّ ركنه وزعزع من أكنافها مستطيرها
ألا واستعدوا للجهاد عزائمًا يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأُسْد على جرد من الخيل سبَّق يدعُّ الأعادي سبقها وزئيرها
بأنفسٍ صدق موقناتٍ بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
فوا حسرتا كم من مساجد حولت وكانت إلى البيت الحرام سطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وصورها
وكم طفلةٍ حسناء فيها مصونة إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينةً وقد هتكت بالرغم منها ستورها

قد وصف صاحب هذه القصيدة سقوط مملكة بني الأحمر مدينة بعد مدينة، وكانت صُبابة كأس الأندلس، فذكر رندة، ثم مالقة وبلش، ثم المنكَّب، ثم وادي آش، ثم بسطة، ثم المريَّة، وختم ابن خاتمة مناحَتَه بذكر غرناطة أم البلاد. ومن نسق نظمها يظهر أنه كان مشاهدًا تلك الحوادث القاصمة للظهور، وأن البيان كان عن عيان.

وبينما أنا أختم هذا الجزء وأهيِّئُه للطبع إذ اطلعت في جريدة الصفاء سنة ١٩٣٩ على قصيدة مؤثرة في رثاء الأندلس، وذكرى أيامها الخالية لأبي الفضل الوليد بن طعمة من أدباء إخواننا المسيحيين اللبنانيين، فأحببت تخليدها في هذا الكتاب لمكانها من النخوة الأدبية والنزعة العربية، وهي:

يا أرض أندلس الخضراء حيينا لعل روحًا من الحمراء تحيينا
عادت إلى أهلها تشتاق فتيتها فأسمعت من غناء الحب تلحينا
كانت لنا فعَنَتْ تحت السيوف لهم لكن حاضرها رسم لماضينا
في عزنا اكتسبت منا فصورتُنا محفوظة أبدًا فيها تعزِّينا
لا بِدْعَ إن نشَّقتنا من أزاهرها طيبًا فإنا ملأناها رياحينا
وإن طربنا لألحان نُردِّدها فإنها أخذت عنا أغانينا

في البرتغال وإسبانيَّة ازدهرت آدابنا وسمت دهرًا مبانينا
وفي صقلية الآثار ما برحت تبكي التمدُّن حينًا والعلا حينا
كم من قصورٍ وجناتٍ مزخرفةٍ فيها الفنون جمعناها أفانينا
وكم صروح وأبراج ممردة زدنا بها الملك توطيدًا وتمكينا
وكما مساجد أعلينا مآذنها فأطلعت أنجمًا منها معالينا
تلك البلاد استمدت من حضارتنا ما أبدعته وأولته أياديناا
فيها النفائس جاءت من صناعتنا ومن زراعتنا صارت بساتينا
فأجدبت بعدنا واستوحشت زمنًا تصبو إلينا وتبكي من تنائينا
أيام كانت قصور الملك عاليةً كان الفرنج إلى الغابات آوينا
وحين كنا نجر الخزَّ أرديةً كانوا يسيرون في الأسواق عارينا
جاءت من الملأ الأعلى قصائدنا والروم قد أخذوا عنا قوافينا
لم يعرفوا العلم إلَّا من مدارسنا ولا الفروسة إلَّا من مجارينا
أعلى الممالك داستها جحافلنا وسرحت خيلنا فيها سراحينا
تلك الجياد بأبطال الوغى قطعت جبال برنات وانقضَّت شواهينا
في أرض إفرنسة القصوى لها أثر قد زاده الدهر إيضاحًا وتبيينًا
داست حوافرها ثلجًا كما وطئت رملًا وخاضت عبابًا في مغازينا
كسرى وقيصر قد فرَّت جيوشهما للمرزبان وللبطريق شاكينا
حيث العمامة بالتيجان مزريةٌ من يوم يرموك حتى يوم حطينا
وللعروش طواف بالسرير إذا قام الخليفة يعطي الناس تأمينًا
بعد الخلافة ضاعت أرض أندلس وما وفى العَرَب الدنيا ولا الدينا
الملك أصبح دعوى في طوائفهم واستمسكوا بعرى اللذات غاوينا
وكل طائفة قد بايعت ملكًا لم يلف من غارة الإسبان تحصينا
وهكذا يفقد السلطان هيبته إن أكثر الناس بالفوضى السلاطينا
تلك المساجد صارت للعدا بيعًا بعد الأئمة لا تهوى الرهابينا
هل ترجعن لنا يا عهد قرطبة فكيف نبكي وقد جفت مآقينا
ذبلت زهرًا ومن ذياك نشوتنا وإن ذكراك في البلوى تسلِّينا
ما كان أعظمها للملك عاصمةً وكان أكثرها للعلم تلقينا

لم يبقَ منها ومن ملك ومن دول إلا رسوم وأطياف تباكينا
والدهر ما زال في آثار نعمتها يروي حديثًا به يشجو أعادينا
أين الملوك بنو مروان ساستها يصحون قاضين أو يمسون غازينا
وأين أبناء عباد ورونقهم وهم أواخر نور في دياجينا
يا أيها المسجد العالي بقرطبة هلا تذكرك الأجراس تأذينا
تلك القصور من الزهراء طامسة وبالتذكُّر نبنيها فتبنينا
على الممالك منها أشرفت شُرَفٌ والملك يعشق تشييدًا وتزيينا
وعبد رحمانها يلهو بزخرفها والفن يجمع فيها الهند والصينا
كانت حقيقة سلطان ومقدرة فأصبحت في البلى وهمًا وتخمينا
عمائم العَرَب الأمجاد ما برحت على المطارف بالتمثيل تصبينا
وفي المحاريب أشباح تلوح لنا وفي المنابر أصوات تنادينا
يا برق طالع قصورًا أهلها رحلوا وحيِّ أجداث أبطالٍ منيخينا
أهكذا كانت الحمراء موحشةً إذ كنت ترقب أفواج المغنينا
وللبرود حفيف فوق مرمرها وقد تضوَّع منها مسك دارينا
ويا غمام افتقد جنات مرسية وردَّ من زهرها وردًا ونسرينا
وأمطر النخل والزيتون غاديةً والتوت والكَرْم والرمان والتينا
أوصيك خيرًا بأشجار مباركةٍ لأنها كلها من غرس أيدينا
كنا الملوك وكان الكون مملكةً فكيف بتنا المماليك المساكينا
وفي رقاب العدا انفلَّت صوارمنا واليوم قد نزعوا منا السكاكينا

وكان الفراغ من طبع هذا الجزء الثالث من كتابنا «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» في رجب سنة ١٣٥٨ وفق أغسطس سنة ١٩٣٩، وذلك بمطبعة السادة عيسى البابي الحلبي وشركائه بمصر. ويليه الجزء الرابع الذي هو أهم أجزاء هذا التأليف؛ ففيه سيدور الكلام على قرطبة أم الأندلس وعلى أواسط الجزيرة الأندلسية كجيان وبياسة وبيانة وماردة وقلعة رباح، وغيرها من البلاد المتوسطة. وكما أحسن الله فيما مضى يحسن فيما بقي بكرمه تعالى ومَنِّه.

هوامش

(١) لم نجد في اللغة «علداء» ولا «أعلد»، فلعل الشاعر جعلها على القياس، والعلد هي الصلابة.

(٢) أعتم قِرى الضيف: أبطأ به.

(٣) في اللغة لا يوجد «الألوي» بمعنى الطيب أو عود له رائحة زكية، وإنما هي «الألُوَّة»، وهي عود يتبخَّر به، وتفتح فيها الهمزة وتضم. وفي صفة أهل الجنة مجامرهم الألوَّة. ولعل أصلها «أَلوَّها» مستعملة بالجمع وتحرَّفت بالنسخ. أو لعل الشاعر نسب إلى «الألوة» فقال: «ألويَّها»، وهكذا قد تصح.

(٤) حنش الصنعاني، وكان من فاتحي الأندلس.

(٥) يعني به المنصور بن أبي عامر الذي غزا ٥٦ غزوة فلم تنكسر له راية، فقد كان من معافر.

(٦) بلش: مالقة، وكانت من أمصار الأندلس.

(٧) المنكب على البحر: أقرب مرفأ إلى غرناطة.

(٨) أو وادي الأساة.

(٩) من مدن مملكة غرناطة إلى الشمال الشرقي منها.

(١٠) المرية كانت من أعظم ثغور الأندلس.